الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

المجلد الخامس

دار
إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء التاسع

عطیہ

برائے دار العلوم مجددیہ سیالکوٹ

از

برادرم محمد امین صاحب وزیر آبادی ضلع گوجرانوالہ حال مقیم

قصر مقام الحسین الوطنی

محرم ۱۴۰۳ ہجری

اعاد طبعه

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

١٩٦٦

Marfat.com

بيـان

تم تحقيق هذا الجزء من تفسير القرطبي وهو التـاسع على الأصول الاتيـــة :

(١)	نســخة	رقـم	٩٥	تفسـير المـرموز إليهـا بحـــرف				ا
(٢)	»	»	١	» حليم المرموز إليهـا بحـــرف				ح
(٣)	»	»	٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية المرموز إليها بحرف				ز
(٤)	»	»	٢٧٦	تفســـير المـــرموز إليهـا بحـــرف				ع
(٥)	»	»	٩٣	»	»	»	»	ك
(٦)	»	»	٩٢	»	»	»	»	و
(٧)	»	»	٣٠٧	»	»	»	»	ى

وقد وصفت هذه النسخ جميعها فى مقدّمة الجزء الثالث (الطبعة الثـانية)

حققـه

أبو إسحاق إبراهيم اطفيش

Marfat.com

فهرس الجـزء التاسع

Marfat.com

فهــرس الجــزء التاســع

تفســير ســـورة هــود

صفحة

القول بمكيتها . الترغيب فى تلاوتها يوم الجمعة . الأحاديث الواردة فى أنهـا شيبت النبي صلى الله عليه وسلم وتأويل ذلك . أقوال النحويين فى تنوين لفظ «هود» وعدم تنوينـه إذا جعل آسما للسورة ١

تفسير قوله تعـالى : « الر كتاب أحكمت آياته ... » الآيات . بيان معنى إحكام الآيات وتفصـيلها . ما قيـل فى عطف التـوبة على الآسـتغفار . الآستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين . معنى المتاع الحسن . الأقوال فى الأجل المسمى ... ٢

تفسير قوله تعـالى : « ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منـه ... » الآية . سبب نزولها . القراءات فى « يثنون » ومعناها ٤

تفسير قوله تعـالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ... » الآية ... معنى «على» فى الآية . ظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص، أوهى عامة . وجه نظم الآية بمـا قبلها . معنى الدابة . حقيقة الرزق . لا يجـوز أن يكون الرزق بمعـنى الملك . قصـة الأشعريين لمـا هاجروا وقدموا على النبي صـلى الله عليه وسلم وقد نفد زادهم . الأقوال فى المستقر والمستودع ٦

تفسير قوله تعـالى : «وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ...» الآية ... بيان أن خلق العرش والمـاء قبل خلق الأرض والسماء . الآثار فى بدء الخلق ... ٨

تفسير قوله تعـالى : «ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن مايحبسه...» الآية . معنى الأمة هنا وأصلها . الأمة آسم مشترك يقال على ثمـانية أوجه ... ٩

تفسير قوله تعـالى : « ولئن أذقنـا الإنسان منـا رحمـة ثم نزعناها منـه إنه ليؤس كفور ... » الآيات ١٠

تفسـير قوله تعـالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليـك ... » الآيات . سبب النزول . من قال : « لولا أنزل عليـه كنز أو جاء معـه ملك » هو عبـد الله ابن أبى أمية المخزومى... ... ... ١١

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ...» الآية . فيه مسائل : هل «كان» هنا زائدة، أو هى فى موضع جزم بالشرط . آختلاف العلماء فى تأويل الآية ١٣

تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ... » الآية ... إشارة الآية إلى التخليد فى النار . تأويلها إذا أريد بها المؤمن . آقتضاؤها الوعيد بسلب الإيمان ١٥

تفسير قوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ... » الآية ... أقوال العلماء فى الذى على بينة والشاهد ١٦

تفسير قوله تعالى : « ومن أظلم ممن آفترى على الله كذبا ... » الآيات . الكلام على الأشهاد ١٨

تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم ... » الآيات . أقوال العلماء فى إعراب « لا جَرَمَ » ومعناها ٢٠

تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة ... » الآيات . بيان معنى الإخبات وأصله . الحكمة فى ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم ٢١

تفسير قوله تعالى : «فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ...» الآية . فيه مسائل : بيان معنى «الملأ» . مفرد «أراذل» «رذل» أو «أرذل» . معنى الرذل فى اللغة والمراد به هنا . اختلاف العلماء فى تعيين السّفلة . السّماك من السفلة أم لا ٢٢

تفسير قوله تعالى : « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ...» الآيات ... ٢٥

تفسير قوله تعالى : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ...» الآيات ... ٢٧

تفسير قوله تعالى : «وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن...» الآيات ٢٩

تفسير قوله تعالى : «ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه...» الآيات... قصة السفينة ٣٠

تفسير قوله تعالى : « وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ... » الآيات ... ٣٦

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : «ونادى نوح ربه فقال رب إن آبني من أهلي ...» الآيات ... فيه مسائل : بيان آستحلال نداء نوح عليه السلام لآبنه . هل كانت خيانة آمرأته له في الفراش ، أو في إخبار قومها بفوران التنور . في الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم و إن كانوا صالحين . فيها دليل على أن الآبن من الأهل لغة وشرعا . فيها دليل على أن الولد للفراش على القول بأن الولد كان آبن آمرأته ... ٤٥

تفسير قوله تعالى : « و إلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم آعبدوا الله مالكم من إله غيره ... » الآيات . عاد آسم رجل آنتسبوا إليه . كان قوم هود أهل بساتين وزروع وعمارة . كانت مساكنهم الرمال ٤٩

تفسير قوله تعالى : « و إلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم آعبدوا الله مالكم من إله غيره ... » الآية . فيه مسائل : اختلاف القراء في صرف ثمود وعدم صرفه . بيان معنى الآستعمار هنا . المعاني في كلمة استفعل . العمرى وحكمها عند الفقهاء ٥٥

تفسير قوله تعالى : «قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ...» الآيات ... ٥٨

تفسير قوله تعالى : «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام ...» الآيات . في قوله تعالى : «فما لبث أن جاء بعجل حنيذ» مسائل : الكلام على الضيافة . الجمهور على أن المراد بضحك سارة هو الضحك المعروف لا الحيض . التسمية في أول الطعام والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا ٦٢

تفسير قوله تعالى : « قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ... » الآية ... فيه مسئلتان : أصل « يا ويلتا » ودلالتها ٦٩

تفسير قوله تعالى : « قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت ...» الآية . فيه مسائل : إنكار الملائكة على سارة تعجبها من أمر الله . في الآية دليل لأكثر العلماء على أن الذبيح إسمعيل . فيها دليل على أن زوجة الرجل من أهل البيت . فيها دليل على أن منتهى السلام و بركاته ٧٠

تفسير قوله تعالى : « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ... » الآيات . ما قيل في مجادلة إبراهيم عليه السلام للرسل ٧٢

Marfat.com

	صفحة
تفسير قوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ... » الآيات . قصة لوط عليه السلام . هل بناته كنّ من صلبه ، أو المراد بهنّ جملة النساء ، أو كان الكلام مدافعة . ليس ألف « أطهر » للتفضيل	٧٣
تفسير قوله تعالى : « وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ... » الآيات . مدين بنو مدين ، أو أنه اسم مدينتهم نسبوا إليها . قوم شعيب عليه السلام كانوا يقطعون الدراهم والدنانير أيضا . قاطع الدراهم والدنانير ترد شهادته ويعاقب	٨٤
تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ... » الآيات	٩٣
تفسير قوله تعالى : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ... » الآيات . اختلاف العلماء في تأويل : « ما دامت السموات والأرض » . اختلافهم في استثناء : « إلا ما شاء ربك » على عشرة أقوال	٩٤
تفسير قوله تعالى : « وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ... » الآية . اختلاف القراء في قراءة « وإن كلا لما »	١٠٤
تفسير قوله تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ... » الآية . فيه مسائل : حقيقة الركون والمراد به هنا . القراءة في « تركنوا » . دلالة الآية على هجران أهل الكفر والمعاصي . صحبتهم عن ضرورة مباحة	١٠٧
تفسير قوله تعالى : « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ... » الآية . فيه مسائل : المراد بالصلاة هنا المفروضة . الرد على من زعم من الصوفية أن المراد بها استغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا . اختلاف العلماء في المراد بطرفي النهار . الحسنات ها هنا هي الصلوات الخمس أو هي عامة . سبب نزول الآية رجل من الأنصار خلا بامرأة فقبلها . دلت الآية على أن القبلة الحرام لا يجب فيها الحد . الصلاة ذكرت في القرآن مجملة وبينها النبي صلى الله عليه وسلم ...	١٠٨
تفسير قوله تعالى : « واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ... » الآيات	١١٣
تفسير قوله تعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون... » الآيات	١١٤
تفسير قوله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... » الآيات	١١٦

Marfat.com

تفسير سورة يوسف عليه السلام

صفحة

تفسير قوله تعـالى : «الر تلك آيات الكتاب المبين ...» الآيات . السورة مكية كلها أو إلا أربع آيات منها . سبب نزول السورة ١١٨

تفسير قوله تعـالى : « نحن نقص عليـك أحسن القصص ... » الآية . اختلاف العلمـاء في تسمية هذه السور بأحسن القصص ١١٩

تفسير قوله تعـالى : «إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا ... الآية . ذكر أسمـاء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام ١٢٠

تفسير قوله تعـالى : « قال يا بني لا تقصـص رؤياك على إخـوتك فيكيدوا لك كيدا ... » الآية . فيـه مسائل : الكلام على الرؤيا ١٢٢

تفسير قوله تعالى : «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ...» الآية . معنى الاجتباء وأصله . كان تفسير رؤيا يوسف عليه السلام بعد أربعين سنة ١٢٨

تفسير قوله تعـالى : « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ... » الآيات . السائلون عن قصة يوسف هم اليهود بالمدينة . أسمـاء إخوة يوسف وعددهم . اختلافهم في القائل بقتـل يوسف أو طرحه ١٢٩

تفسير قوله تعـالى : « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ... » الآية . فيـه مسائل : الاختلاف في القائل بطرح يوسف في الجب . تدبير إخوة يوسف يدل على أنهم لم يكونوا أنبياء . معنى الالتقاط والكلام على اللقطة والضوال ١٣١

تفسير قوله تعـالى : « قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ... » الآيات ١٣٨

تفسير قوله تعـالى : « قال إني ليحزنني أن تذهبوا به ... » الآيات ١٤٠

تفسير قوله تعـالى : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب... » الآية... ١٤١

تفسير قوله تعـالى : « وجاءوا أباهم عشاء يبكون » . فيـه مسئلتان : بيان سبب مجيئهم ليلا ، ووقع الخبر عند يعقوب عليه السلام . في الآية دليل على أن بكاء المـرء لا يدل على صدق مقاله ١٤٤

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ... » الآية . فيه مسائل : الكلام على المسابقة . مسابقة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر ١٤٥
تفسير قوله تعالى : «وجاءوا على قميصه بدم كذب...»الآية.فيه مسائل : الدم الكذب كان دم سخلة أو جدى ذبحوه . آستدلال يعقوب عليه السلام بسلامة القميص على كذبهم . آستدلال الفقهاء بهذه الآية على إعمال الأمارات فى مسائل من الفقه ١٤٩
تفسير قوله تعالى : « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ...» الآية ١٥٢
تفسير قوله تعالى : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ... » الآية . فيه مسائل : آختلاف العلماء فى معنى « بخس » هنا . أصل النقدين الوزن . آختلاف العلماء فى الدراهم والدنانير هل تتعين أو لا . فى الآية دليل على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ١٥٤
تفسير قوله تعالى : « وقال الذى آشتراه من مصر لآمرأته أكرمى مثواه ...» الآية ١٥٧
تفسير قوله تعالى : « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ... » الآية ١٦١
تفسير قوله تعالى : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه » الآيات ١٦٢
تفسير قوله تعالى : « وآستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر ... » الآية . فيه مسئلتان : فى الآية دليل على القياس والعمل بالعرف ١٧٠
تفسير قوله تعالى : « قال هى راودتنى عن نفسى .. » الآيات . فيه مسائل : الاختلاف فى الشاهد . إذا كان الشاهد طفلا فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات . قول محمد فى متاع البيت إذا آختلفت فيه المرأة والرجل ١٧٢
تفسير قوله تعالى : « وقال نسوة فى المدينة آمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ... » الآيات ١٧٥
تفسير قوله تعالى : «قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ...» الآيات ... ١٨٤
تفسير قوله تعالى : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه ... » الآية . فيه مسائل : بيان علامات براءة يوسف . مقدار المدّة التى أقامها فى السجن . حكم ما إذا أكره الرجل على الزنى ١٨٦

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : «ودخل معه السجن فتيان ...» الآيات . مواساة يوسف لأهل السجن . قصة الخباز والساقي ١٨٨

تفسير قوله تعالى : « ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ... » الآيات ١٩٢

تفسير قوله تعالى : «ياصاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ...» الآية . فيه مسئلتان: تأويل رؤيا الساقي والخباز . من كذب في رؤياه ففسرها له العابر أيلزمها حكمها ١٩٣

تفسير قوله تعالى : « وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ... » الآية . فيه مسائل : الظن هنا بمعنى اليقين ، أو هو على بابه . النهي عن دعاء السيد بالرب ، والمملوك بالعبد . الأقوال في تفسير البضع . في الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب ١٩٤

تفسير قوله تعالى : «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف...» الآية ١٩٨

تفسير قوله تعالى : « قالوا أضغاث أحلام ... » الآية ٢٠٠

تفسير قوله تعالى : «وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله...»الآيات ٢٠١

تفسير قوله تعالى : قال تزرعون سبع سنين دأبا ... » الآية . الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية... ... ... ٢٠٢

تفسير قوله تعالى : « ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ... » الآية . الآية أصل في صحة رؤيا الكافر ٢٠٤

تفسير قوله تعالى : « وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ... » الآية ٢١٠

تفسير قوله تعالى : « قال اجعلني على خزائن الأرض ... » الآية . فيه مسائل : بيان تقليد يوسف الإمارة وتزويجه زليخا . في الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطان الكافر . وفيها دليل على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا ٢١٢

تفسير قوله تعالى : «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ...»الآيات ٢١٧

تفسير قوله تعالى : « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم ... » الآيات ٢٢٠

تفسير قوله تعالى : « قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله ... » الآية . الآية أصل في جواز الحمالة بالعين والوثيقة بالنفس ٢٢٥

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد ... » الآية . فيه مسائل :

التحرز من العين . واجب المسلم إذا أعجبه شيء أن يبرك ٢٢٥

تفسير قوله تعالى : « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ... » الآيات ٢٢٨

تفسير قوله تعالى : « قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ... » الآيات . فيه مسائل :

الكلام على الجعل والكفالة ٢٣١

تفسير قوله تعالى : « قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض ... » الآيات ... ٢٣٤

تفسير قوله تعالى : « فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ... » الآية . فيها دليل على جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف الشريعة . للرجل أن يتصرف فى ماله قبل حلول الحول إذا لم ينو الفرار من الصدقة ٢٣٥

تفسير قوله تعالى : « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ... » الآيات... ... ٢٣٨

تفسير قوله تعالى : « آرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن آبنـك سرق ... » الآية .

تضمنت الآية جواز الشهادة . الكلام على الشهادات ٢٤٤

تفسير قوله تعالى : « وآسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ... » الآية .

فيها دليل على أن للإنسان أن يرفع التهمة عن نفسه إن كان على حق... ... ... ٢٤٥

تفسير قوله تعالى : « قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ... » الآية .

الواجب على المسلم أن يتلق المصائب بالصبر الجميل ٢٤٦

تفسير قوله تعالى : « وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف ... » الآية . الالتفات فى الصلاة نقص فيها . أجوبة العلماء عن معنى شدة حزن يعقوب عليه السلام ٢٤٧

تفسير قوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف ... » الآيات ٢٤٩

تفسير قوله تعالى : «فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر...» الآية .

فيها دليل على جواز الشكوى عند الضر . وفيها دليل على أن أجرة الكيال والوزان على البائع ٢٥٢

تفسير قوله تعالى : « قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ... » الآيات ٢٥٥

تفسير قوله تعالى : « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ... » الآية . السجود كان آنحناء وقد نسخ فى شرعنا . حكم الإشارة بالإصبع فى السلام . الترغيب فى المصافحة ٢٦٤

تفسير قوله تعالى : «رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ...» الآيات ٢٦٩

Marfat.com

سورة الرعد

صفحة

تفسير قوله تعالى : « المر تلك آيات الكتاب ... الآيات ٢٧٨

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ... » الآيات ٢٨٠

تفسير قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ... » الآيات . آختلاف الفقهاء فى حيض الحامل . الحامل تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر . آختلاف العلماء فى أكثر الحمل ٢٨٥

تفسير قوله تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه ... » الآية ٢٩١

تفسير قوله تعالى : « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا ... » الآيات . بيان سبب نزول قوله تعالى : « ويرسل الصواعق » ٢٩٥

تفسير قوله تعالى : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ... » الآيات ٣٠٠

تفسير قوله تعالى : « قل من رب السموات والأرض قل الله ... » الآية ٣٠٣

تفسير قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ... » الآيات ٣٠٤

تفسير قوله تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » فيه مسئلتان : هل الميثاق هنا عام أو خاص . التوكل لا ينافى الأخذ فى الأسباب ٣٠٧

تفسير قوله تعالى : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ... » الآيات ٣٠٩

تفسير قوله تعالى : « كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم ... » الآية . سبب نزولها ٣١٧

تفسير قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ... » الآية . سبب نزولها ... ٣١٨

تفسير قوله تعالى : « ولقد آستهزئ برسل من قبلك ... » الآيات ٣٢١

تفسير قوله تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك... » الآيات... ٣٢٥

تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ... » الآية ، سبب نزولها ، هذه الآية تحض على النكاح ٣٢٧

تفسير قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت ... » الآيات ٣٢٩

Marfat.com

تفسير سـورة إبراهيم عليـه السلام

صفحة

تفسير قوله تعالى : « الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ... » الآيات ٣٣٨

تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ... » الآيات ٣٤١

تفسير قوله تعالى : «قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض ... » الآيات ٣٤٦

تفسير قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ... » الآيات ٣٤٨

تفسير قوله تعالى : « وآستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ... » الآيات . ما حكى من تفاؤل الوليد بن يزيد وتمزيقه المصحف ٣٤٩

تفسير قوله تعالى : «مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد آشتدت به الريح...»الآيات ٣٥٣

تفسير قوله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة... » الآيات ٣٥٨

تفسير قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنو بالقول الثابت...» الآية ٣٦٢

تفسير قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا...» الآيات بيان سبب نزولها ٣٦٤

تفسير قوله تعالى : « قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ... » الآية ٣٦٥

تفسير قوله تعالى : « الله الذي خلق السموات والأرض ... » الآيات ٣٦٦

تفسير قوله تعالى : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ... » الآية . فيه مسائل : قصة خروج إبراهيم عليه السلام بالسيدة هاجر وآبنها من الشام ، ووضعهما عند البيت الحرام . لا يجوز لأحد أن يتعلق بالآية في طرح أولاده بأرض مضيعة . تضمنت الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ٣٦٨

تفسير قوله تعالى : « ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ... » الآيات ٣٧٤

تفسير قوله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ... » الآيات ٣٧٦

تفسير قوله تعالى : « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ... » الآيات ٣٧٨

تفسير قوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ... » الآيات ... ٣٨٢

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود عليه السلام

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال آبن عباس وقتادة : إلا آية ؛ وهى قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَىِ النَّهَارِ »(1) . وأسند أبو محمد الدارمىّ فى مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آقرءوا سورة هود يوم الجمعة" . وروى الترمذىّ عن آبن عباس قال قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسولُ الله قد شِبْتَ ! قال : "شيبتنى هود والواقعةُ والمرسلاتُ وعَمَّ يتساءلون و إذا الشمس كُوِّرت". قال : هذا حديث حسن غريب، وقد رُوى شىء من هذا مرسلا . وأخرجه الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله فى « نوادر الأصول » : حدّثنا سفيان بن وكيع قال حدّثنا محمد بن بِشر عن علىّ بن صالح عن أبى إسحق عن أبى جُحَيْفة قال : قالوا يا رسول الله نراك قد شِبتَ ! قال : "شيبتنى هود وأخواتها" . قال أبو عبد الله : فالفزع يورث الشيب وذلك أن الفزع يُذهل النفس فينشِّف رطوبة الجسد ، وتحت كل شعرة مَنْبع ، ومنه يَعْرَق ، فإذا انتشف الفزعُ رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر وابيضّ ؛ كما ترى الزرع الأخضر بسقائه ، فإذا ذهب سقاؤه يبس فآبيضّ ؛ وإنما يبيضّ شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويُبْس جلده ، فالنفس تذهل بوعيد الله ، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتذبل ، ويُنَشِّف(2) ماءها ذلك الوعيد والهول الذى جاء به ؛ فمنه تَشيب . وقال الله تعالى : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا »(3) فإنما شابوا من الفزع . وأمّا سورة « هود » فلما ذكر الأمم ، وما حلّ بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل اليقين إذا تلوها تَراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطشُ بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لَحَقَّ لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى آسمه يَلطُف(4) بهم فى تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه . وأمّا أخواتها فما أشبهها من السور ؛ مثل « الحاقّة » و « سأل سائل » و « إذا الشمس كوّرت »

(1) راجع ص ١٠٩ من هذا الجزء . وفى رواية عن ابن عباس أنها مكية كلها وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة . (2) فى و : خوف . (3) راجع جـ ١٩ ص ٤٨ . (4) فى ع و و : تلطف .

Marfat.com

و «القارعة» ، ففى تلاوة هذه السّور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس، وتَشيب منه الرءوس . [قلت] (١) وقد قيل : إن الذى شيب النبيّ صلى الله عليه وسلم من سورة «هود» قوله : « فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » (٢) على ما يأتى بيـانه إن شاء الله تعالى . وقال يزيد بن أبان : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منـامى فقرأت عليه سورة « هود » فلما ختمتها قال : " يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء " . قال علماؤنا قال أبو جعفر النحاس : يقال هذه هود فاعلم بغير تنوين على أنه آسم للسورة ؛ لأنك لو سميت آمرأة بزيد لم تَصرف؛ وهذا قول الخليل وسيبويه . وعيسى بن عمر يقول : هذه هود بالتنوين على أنه آسم للسورة؛ وكذا إن سمى آمرأة بزيد؛ لأنه لمـا سكن وسطه خف فصرف، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع، فقلت : هذه هود وأنت تريد سورة هود؛ قال سيبويه : والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن ، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه .

قوله تعـالى : الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿الٓر﴾ . تقدّم القول فيه (٣) . ﴿كِتَابٌ﴾ بمعنى هذا كتاب . ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ فى موضع رفع نعت لكتاب . وأحسن ماقيل فى معنى «أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» قول قتادة؛ أى جعلت محكمة كلّها لا خَلَل فيها ولا باطل . والإحكام منع القول من الفساد ، أى نُظمت نظما محكما لايلحقها تناقض ولاخَلَل . وقال آبن عباس : أى لم ينسخها كتاب، بخلاف التوراة والإنجيل . وعلى هذا فالمعنى؛ أحكم بعض آياته بأن جعل ناسخا غير منسوخ . وقد تقـدّم القول فيــه (٤) .

(١) من ع . (٢) راجع ص ١٠٧ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٤ .
(٤) راجع جـ ٤ ص ١٠

Marfat.com

وقد يقع ٱسم الجنس على النوع؛ فيقال: أكلت طعام زيد؛ أى بعض طعامه . وقال الحسن وأبو العالية : « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » بالأمر والنهى . ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وقال قتادة : أحكمها الله من الباطل ، ثم فصّلها بالحلال والحرام . مجاهد : أحكمت جملة، ثم بُيِّنت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوّة والبعث وغيرها . وقيل : جمعت فى اللوح المحفوظ ، ثم فصلت فى التنزيل . وقيل : « فُصِّلت » أنزلت نجما نجما لتتدبَّر . وقرأ عكرمة « فَصَلَتْ » مخففا أى حَكَمَت بالحق . ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ أى من عند . ﴿حَكِيمٍ﴾ أى محكم للأمور . ﴿خَبِيرٍ﴾ بكل كائن وغير كائن .

قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ قال الكسائىّ والفرّاء : أى بألا ؛ أى أحكمت ثم فصّلت بألا تعبدوا إلا الله. قال الزجاج: لئلا؛ أى أحكمت ثم فصّلت لئلا تعبدوا إلا الله. قيل : أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله . ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أى من الله . ﴿نَذِيرٌ﴾ أى مخوف من عذابه وسطوته لمن عصاه . ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالرضوان والجنة لمن أطاعه. وقيل: هو من قول الله أوّلا وآخرا؛ أى لا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير؛ أى الله نذير لكم من عبادة غيره ، كما قال : « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ »[1] .

قوله تعالى : ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عطف على الأوّل . ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أى ٱرجعوا إليه بالطاعة والعبادة . قال الفرّاء : « ثم » هنا بمعنى الواو ؛ أى وتوبوا إليه ؛ لأن الٱستغفار هو التوبة ، والتوبة هى الٱستغفار . وقيل : ٱستغفروه من سالف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم . قال بعض الصلحاء: الٱستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين . وقد تقدّم هذا المعنى فى « آل عمران »[1] مستوفى . وفى « البقرة »[2] عند قوله : « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا » . وقيل : إنما قدم ذكر الٱستغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب ، والتوبة هى السبب إليها ؛ فالمغفرة أوّل فى المطلوب وآخر فى السبب . ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليه من الكبائر. ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٨ وص ٢١٠ (٢) راجع جـ ٣ ص ١٥٦

Marfat.com

هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أى يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم . وقيل : يمتعكم يعمركم، وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه أمتع اللهُ بك ومتّع . وقال سهل بن عبد الله : المتاع الحسن ترك الخَلْق والإقبال على الحق . وقيل : هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود . ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قيل : هو الموت . وقيل : القيامة . وقيل : دخول الجنة . والمتاع الحسن على هذا وقاية كلّ مكروه وأمرٍ مَخُوف ، مما يكون فى القبر وغيره من أهوال القيامة وكُرَبها ؛ والأوّل أظهر؛ لقوله فى هذه السورة: «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ[1]» وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى . والله أعلم . قال مقاتل : فأبوا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والقَذَر والجيف والكلاب . ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى يؤت كل ذى عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله . وقيل : و يؤت كلّ من فضلت حسناته على سيئاته «فَضْلَهُ» أى الجنة، وهى فضل الله؛ فالكناية فى قوله : «فَضْلَهُ» ترجع إلى الله تعالى . وقال مجاهد: هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه، أو عمل يعمله بيده أو رجله ، أو ماتطوّع به من ماله فهو فضل الله ، يؤتيه ذلك إذا آمن ، ولا يتقبله منه إن كان كافرا . ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أى يوم القيامة ، وهو كبير لما فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره : و « تَوَلَّوْا » يجوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى : و إن تولّوا فقل لهم إنى أخاف عليكم . و يجوز أن يكون مستقبلا حذفت منه إحدى التاءين والمعنى : قل لهم إن تتولّوا فإنى أخاف عليكم .

قوله تعالى : ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى بعد الموت . ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ثواب وعقاب .

قوله تعالى : أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞

(١) راجع ص ٥٠ فما بعد من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْـهُ ﴾ أخبر عن معاداة المشركين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . « يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » أى يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف، قال آبن عباس : يخفون ما فى صدورهم من الشَّحناء والعـداوة ، و يظهرون خلافه . نزلت فى الأخنس بن شريق، وكان رجلا حُلو الكلام حُلو المنطق ، يلقى رسول الله صلى الله عليـه وسلم بمـا يحب ، و ينطوى له بقلبه على ما يسوء . وقال مجاهد : « يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » شكًّا وآمتراء . وقال الحسن : يثنونها على ما فيها من الكفر . وقيل : نزلت فى بعض المنافقين ، كان إذا مرّ بالنبيّ صلى الله عليـه وسلم ثنَى صدره وظهره ، وطأطأ رأسه وغطّى وجهه ، لكيلا يراه النبيّ صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمـان ؛ حكى معنـاه عن عبد الله بن شدّاد فالهـاء فى « مِنْـهُ » تعود على النبى صـلى الله عليه وسلم . وقيل : قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنـا، وآستغشينا ثيابنا، وثَنَينـا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنـا ؟ فنزلت الآية . وقيل : إن قوما من المسلمين كانوا يَتَنَسَّكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبيّن الله تعـالى أن التَّنَسك ما آشتملت عليه قلوبهم من معتقد ، وأظهروه من قول وعمل . وروى آبن جرير عن محمد بن عبّاد بن جعفر قال سمعت آبن عباس رضى الله عنهما يقول : « أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَونِي[(1)] صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ » قال : كانوا لا يجامعون النساء ، ولا يأتون الغائط وهم يُفضون إلى السماء ، فنزلت هـذه الاية . وروى غير محمد بن عباد عن آبن عباس : « أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوِى صُدُورُهُمْ » بغير نون بعد الواو، فى وزن تنطوى؛ ومعنى « تَثْنوِى » والقراءتين الأخريين متقارب؛ لأنها لا تَثْنوى حتى يَثْنوها . وقيل: كان بعضهم ينحنى على بعض يسارّه فى الطّعن على المسلمين ، و بلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعـالى . « لِيَسْتَخْفُوا » أى ليتواروا عنه ؛ أى عن محمد أو عن الله .

(١) فى الأصـل : « تثنوى » بغير نون بعـد الواو فى وزن تنطوى ، وهو يخالف ما فى صحيح البخارى وتفسير الطبرى عن محمد بن عباد ، فلذا صوّبناه عنهما ؛ وأما رواية « تثنــوى » المذكورة بالأصل فقد نسبها آبن عطية إلى آبن عيينة ، و يعضده ما فى (إعراب القرآن للنحاس) حيث قال : وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس « ألا إنهم تثنوى صدورهم » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ... ... الخ ، وهى العبارة الآتيـة بالأصل . وتعقب بعض المفسرين هذه القراءة بأنها غلط فى النقل لا تتجه . راجع روح المعانى والبحر وتفسير ابن عطية .

Marfat.com

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أى يغطّون رءوسهم بثيابهم . قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حنَى ظهره، وآستغشى ثوبه، وأضمر فى نفسه همّه .

قوله تعـالى : وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

قوله تعـالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَـا﴾ « ما » نفى و « مِنْ » زائدة و « دَابَّةٍ » فى موضع رفع؛ التقدير : وما دابة . « إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا » « على » بمعنى « من » ؛ أى من الله رزقها؛ يدلّ عليه قول مجاهد : كل ماجاءها من رزق فمن الله . وقيل : « على الله » أى فضـلا لا وجوبا . وقيـل : وعدا منه حقا . وقد تقدّم بيان هذا المعنى فى « النسـاء »[1] وأنه سبحانه لا يجب عليه شيء . « رِزْقُهَا » رفع بالآبتداء، وعند الكوفيين بالصـفة؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يُرزق . وقيـل : هى عامة [فى كل دابة][2] : وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رُزقت رُوحها؛ ووجه النظم بمـا قبلُ : أنه سبحانه أخبر برزق الجميع، وأنه لا يَغفُل عن تربيتـه، فكيف تخفى عليـه أحوالكم يامعشر الكفار وهو يرزقكم ؟ ! والدّابة كل حيـوان يَدِبّ . والرزق حقيقته ما يتغـذّى به الحيّ، ويكون فيه بقاء رُوحه ونمـاء جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى المِلك؛ لأن البهائم تُرزق وليس يصح وصـفها بأنها مالكة لعلَفها؛ وهكذا الأطفال تُرزق اللّبن ولا يقـال : إن اللّبن الذى فى الثّـدى مِلك للطفل . وقال تعـالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ »[3] وليس لنـا فى السماء مِلك؛ ولأن الرزق لو كان مِلكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره، وذلك محال؛ لأن العبـد لا يأكل إلا رزق نفسه . وقد تقدّم فى « البقـرة »[4] هذا المعنى والحمد لله . وقيل لبعضهم : من أين تأكل ؟ فقال : الذى خلق الرّحى يأتيها بالطّحين، والذى شدق الأشداق هو خالق الأرزاق .

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧٣ (٢) من ع . (٣) راجع جـ ١٧ ص ٤١ .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٧٧ فما بعد .

Marfat.com

وقيل لأبي أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحان الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد ! . وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله ؛ فقيل له : الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء ؟ فقال : كأن ماله إلا السماء ! يا هذا الأرضُ له والسماءُ له ؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أخافُ الفقرَ واللهُ رازِقي　*　ورازقُ هذا الخلقِ في العُسْرِ واليُسْرِ
تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهِمْ　*　وللضَّبِّ في البيداءِ والحُوتِ في البحرِ

وذكر التِّرمذيّ الحكيم في « نوادر الأصول » بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقد أرملوا[1] من الزاد ، فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ، فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » فقال الرجل : ما الأشعريّون بأهون الدوابّ على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الغوث ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلوا منها ما شاءوا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي به حاجته ؛ فقالوا للرجلين : اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنا قد قضينا منه حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : " ما أرسلت إليكم طعاما " فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذلك شيء رزقكموه الله " .

---

(١) أرملوا من الزاد : أي نفد زادهم ؛ وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل ، كما قيل للفقير الترب .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أى من الأرض حيث تأوى إليه . ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ أى الموضع الذى تموت فيه فتدفن؛ قاله مِقْسَم عن ٱبن عباس رضى الله عنهما. وقال الربيع آبن أنس : « مُسْتَقَرَّهَا » أيام حياتها . « وَمُسْتَوْدَعَهَا » حيث تموت وحيث تبعث . وقال سعيد بن جُبير عن آبن عباس : « مُسْتَقَرَّهَا » فى الرّحِم ، « وَمُسْتَوْدَعَهَا » فى الصلب . وقيل : « يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا » فى الجنة أو فى النار . « وَمُسْتَوْدَعَهَا » فى القبر؛ يدلّ عليه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة وأهل النار : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » « وَسَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا »(١) . ﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ (٢)

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدّم فى «الأعراف» بيانه والحمد لله . ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء . قال كعب : خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكنا ، ثم خلق الريح فجعل الماء على متْنها ، ثم وضع العرش على الماء . وقال سعيد بن جُبير عن آبن عباس : إنه سئل عن قوله عز وجل : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » فقال : على أى شىء كان الماء؟ قال : على متْن الرّيح . وروى البخارىّ عن عِمْران بن حُصَين . قال : كنت عند النبىّ صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : " آقبلوا البشرى يابنى تميم " قالوا : بشّرتنا فأعطنا [مرتين](٣) فدخل ناس من أهل اليمن فقال : " آقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم " قالوا : قبلنا ، جئنا لنتفقه فى الدّين ، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان(٤) ؟ قال : " كان اللهُ ولم يكن شى غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السمواتِ والأرضَ وكتب

(١) راجع جـ ١٣ ص ٧٢ وص ٨٢ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ فما بعد .
(٣) الزيادة عن صحيح البخارى . (٤) فى ع : نسألك عن هذا الدين ونسألك عن أول هذا الأمر .

Marfat.com

فى الذكر كل شىء" ثم أتانى رجل فقال : يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها فإذا هى يقطع دونها السراب ؛ وأيم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم .

قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى خلق ذلك ليبتلى عباده بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث . وقال قتادة : معنى «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» [أيكم](١) أتم عقلا . وقال الحسن وسفيان الثورى : أيكم أزهد فى الدنيا . وذكر أن عيسى عليه السلام مر برجل نائم فقال : يا نائم قم فتعبد ، فقال : يا روح الله قد تعبدت ، فقال « وبم تعبدت » ؟ قال : قد تركت الدنيا لأهلها ؛ قال : نم فقد فقت العابدين . الضحاك : أيكم أكثر شكرا . مقاتل : أيكم أتقى لله . ابن عباس : أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل . وروى عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا : « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » قال : " أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله " بجمع الأقاويل كلها ؛ وسيأتى فى «الكهف»(٢) هذا أيضا إن شاء الله تعالى . وقد تقدم معنى الابتلاء . ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ أى دللت يا محمد على البعث . ﴿ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ وذكرت ذلك للمشركين لقالوا : هذا سحر . وكسرت «إن» لأنها بعد القول مبتدأة . وحكى سيبويه الفتح . ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فتحت اللام لأنه فعل متقدم لا ضمير فيه ، وبعده « لَيَقُولُنَّ » لأن فيه ضميرا . و﴿ سِحْرٌ ﴾ أى غرور باطل ، لبطلان السحر عندهم . وقرأ حمزة والكسائى «إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ» كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ اللام فى « لَئِنْ » للقسم ، والجواب « لَيَقُولُنَّ » . ومعنى « إِلَى أُمَّةٍ » إلى أجل معدود وحين معلوم ؛ فالأمة هنا المدة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين . وأصل الأمة الجماعة ؛ فعبر عن

(١) من ع و و .		(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٣

Marfat.com

الحين والسـنين بالأمة لأن الأمة تكون فيها . وقيل : هو على حذف المضاف ؛ والمعنى إلى مجيء أمة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك . أو إلى آنقراض أمة فيها من يؤمن فلا يبقى بعد آنقراضها من يؤمن . والأمة آسم مشترك يقال على ثمـانية أوجه : فالأمة تكون الجماعة؛ كقوله تعالى : « وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ » (١) . والأمة أيضا اتباع الأنبياء عليهم السلام . والأمة الرجل الجـامع للخير الذى يُقتـدى به ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا » (٢) . والأمة الدِّين والمِلّة ؛ كقوله تعـالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّـةٍ » (٣) . والأمة الحين والزمان ؛ كقوله تعـالى : « وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُـمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّـةٍ مَعْدُودَةٍ » وكذلك قوله تعالى : « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » (٤) والأمة القامة ، وهـو طول الإنسان وارتفـاعه ؛ يقال من ذلك : فلان حسن الأُمّة أى القامة . والأمة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يُشْرِكُه فيه أحد؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يُبعث زيدُ بن عمرو بن نُفَيْل أمة وحده " (٥) . والأمة الأم؛ يقال: هذه أمة زيد، يعنى أم زيد. ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يعنى العذاب؛ وقالوا هذا إما تكذيبا للعذاب لتأخره عنهم ، أو استعجالا وآستهزاء؛ أى ما الذى يحبسه عنا . ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ (٢) قيل : هو قتل المشركين ببدر ؛ وقتل جبريل المستهزئين على ما يأتى . ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أى نزل وأحاط. ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى جزاء ما كانوا به يستهزئون، والمضاف محذوف.

قوله تعـالى : وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ (٦) الإنسـان آسم شائع للجنس فى جميع الكفار . ويقال : إن الإنسان هنا الوليد بن المغـيرة وفيه نزلت . وقيـل : فى عبد الله بن

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٦٧ (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٩٧ وص ٦٢ (٣) راجع جـ ١٦ ص ٧٤
(٤) راجع ص ٢٠١ من هذا الجزء . (٥) (يبعث زيد أمة) لأنه كان تبرأ من أديان المشركين ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه . (٦) فى ع : جامع .

Marfat.com

أبى أمية المخزومى. «رَحْمَةً» أى نعمة. ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ أى سلبناه إياها. ﴿ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ ﴾ أى يائس من الرحمة. ﴿ كَفُورٌ ﴾ للنعم جاحد لها؛ قاله ٱبن الأعرابى. النحاس: « لَيَؤُوسٌ » من يَئِس يَيْأَس، وحكى سيبويه يَئِس يَئِس يَبْإِس على فَعِل يفعِل، ونظـيره حَسِب يَحْسِب ونَعِم يَنْعِم، ويَأَس ييئس،[1] وبعضهم يقول: يَئِس يَيْئِس؛ ولا يعرف فى الكلام [العربى][2] إلا هذه الأربعة الأحرف من السالم جاءت على فَعِل يفعِل؛ وفى واحد منهـا ٱختلاف. وهـو يَئِس و « يَؤُوسٌ » على التكثير كفخور للبالغة.

قوله تعـالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ ﴾ أى صحة ورخاء وسـعة فى الرزق. ﴿ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ أى بعد ضُرٍّ وفقر وشدّة. ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ أى الخطايا التى تسـوء صاحبها من الضُّرّ والفقر. ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أى يفرح ويفخر بما ناله من السَّعَة وينسى شكر الله عليه؛ يقال: رجل فاخر إذا ٱفتخر — وفخور للبالغة — قال يعقوب القارئ: وقرأ بعض أهل المدينة « لَفَرُحٌ » بضم الراء كما يقال: رجل فَطُنٌ وحَذُرٌ ونَدُسٌ. ويجوز فى كلتا اللغتين[3] الإسكان لثقل الضمة والكسرة.

قوله تعـالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ يعنى المؤمنين، مدحهم بالصبر على الشدائد. وهو فى موضع نصب. قال الأخفش: هو ٱستثناء ليس من الأول؛ أى لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فى حالتى النعمة والمحنة. وقال الفراء: هو ٱستثناء من « وَلَئِنْ أَذَقْنَـاهُ » أى من الإنسـان، فإن الإنسان بمعنى النـاس، والناس يشمل الكافر والمؤمن؛ فهو ٱستثناء متصل وهو حسن. ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ ٱبتداء وخبر. ﴿ وَأَجْرٌ ﴾ معطوف. ﴿ كَبِيرٌ ﴾ صفة.

قوله تعـالى: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾

(١) كذا فى الأصول. ولعل الصواب: يئس ييبس: بالموحدة بعد الياء. وهو الحرف الرابع.
(٢) من ع.		(٣) فى ع: اللفظين.

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ أى فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه. وقيل: إنهم لما قالوا : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » هَمَّ أن يدع سبّ آلهتهم فنزلت هذه الآية؛ فالكلام معناه الاستفهام؛ أى هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سألوك؟ وتأكد عليه الأمر فى الإبلاغ؛ كقوله : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ »(١) . وقيـل : معنى الكلام النفى مع استبعاد؛ أى لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك؛ وذلك أن مشركى مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتبعناك ، فهَمّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع سبّ آلهتهم؛ فنزلت .

قوله تعـالى : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على « تَارِكٌ » و « صَدْرُكَ » مرفوع به ، والهاء فى «به» تعود على «ما» أو على بعض، أو على التبليغ، أو التكذيب. وقال : «ضَائِقٌ» ولم يقل ضيّق ليشاكل « تَارِكٌ » الذى قبله ؛ ولأن الضّائق عارض ، والضيّق ألزم منه . ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب ؛ أى كراهية أن يقولوا ، [أولئلا يقولوا](٢) كقوله : « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »(٣) أى لئلا تضلّوا . أو لأن يقـولوا . ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلّا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدقه؛ قاله عبد الله بن أبى أميّة بن المغيرة المخزوميّ ؛ فقال الله تعالى : يا محمد ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ إنما عليـك أن تنذرهم، لا بأن تأتيهم بما يقـترحونه من الآيات . ﴿ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وشهيد .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ « أم » بمعنى بل، وقد تقدّم فى « يونس »(٤) أى قد أزحت عِلَلهم و إشكالهم فى نبوّتك بهـذا القرآن ، وحججتهم به؛ فإن قالوا : افتريته — أى اختلقتـه — فليأتوا بمثـله مفترًى بزعمهـم . ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أى من الكهنة والأعوان .

قوله تعـالى : فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

(١) راجع ج٦ ص٢٤٢ (٢) من و . (٣) راجع ج٦ ص٢٨ فما بعد . (٤) راجع ج٨ ص٣٤٤

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى فى المعارضة ولم تتهيأ لهم فقد قامت عليهم الحجة؛ إذ هم اللُّسْن البلغاء ، وأصحاب الألسن الفصحاء . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ واعلموا صدق محمد صلى الله عليه وسلم ،﴿و﴾ اعلموا ﴿أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ استفهام معناه الأمر . وقد تقدم القول فى معنى هذه الآية ، وأن القرآن معجز فى مقدمة الكتاب . والحمد لله . وقال : « قُلْ فَأْتُوا » و بعده . « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ » ولم يقل لك ؛ فقيل: هو على تحويل المخاطَبة[(١)] من الإفراد ، إلى الجمع تعظيما وتفخيما ؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة . وقيل : الضمير فى « لَكُمْ » وفى « فَاعْلَمُوا » للجميع ؛ أى فليعلم الجميع « أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ؛ قاله مجاهد . وقيل : الضمير فى «لكم» وفى «فاعلموا» للشركين ؛ والمعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة ، ولا تهيأت لكم المعارضة «فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» . وقيل: الضمير فى «لكم» للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وفى « فاعلموا » للشركين .

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ كان زائدة[(٢)] ، ولهذا جزم بالجواب فقال : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ قاله الفراء . وقال الزجاج : « مَنْ كَانَ » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه « نُوَفِّ إِلَيْهِمْ » أى من يكن يريد ؛ والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل ، كما قال زهير:

وَمَنْ هَاب أسباب المنية يلقها ... ولو رامَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل : نزلت فى الكفار ؛ قاله الضحاك ، واختاره النحاس ؛ بدليل الآية التى بعدها « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » أى من أتى منهم بصلة رحم أو صدقة نكافئه بها فى الدنيا ، بصحة الجسم ، وكثرة الرزق ، لكن لا حسنة

(١) فى ع : المخاطب .

(٢) قال فى البحر: ولعله لا يصح إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط « يريد » وكان يكون مجزوما .

Marfat.com

له فى الآخرة . وقد تقدم هذا المعنى فى «براءة»(١) مستوفى . وقيل : المراد بالآية المؤمنون؛ أى من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجّل له الثواب ولم يُنقص شيئا فى الدنيا، وله فى الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : "إنما الأعمال بالنيات" فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده، وبحكم ضميره؛ وهذا أمر متفق عليه فى الأمم بين كل مِلّة . وقيل : هو لأهل الرياء؛ وفى الخبر أنه يقال لأهل الرياء : "صُمتم وصلّيتم وتصدّقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك" ثم قال : "إنّ هؤلاء أولُ من تُسْعَر بهم النار" . رواه أبو هريرة، ثم بكى بكاء شديدا وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى : «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا» وقرأ الآيتين، خرّجه مسلم [فى صحيحه](٢) بمعناه والترمذيّ أيضا . وقيل : الآية عامة فى كل من ينوى بعمله غير الله تعالى، كان معه أصل إيمان أو لم يكن؛ قاله مجاهد وميمون بن مِهْران، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى . وقال ميمون بن مِهْران : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفّى ثوابها ؛ فإن كان مسلما مخلصا وُفّى فى الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا وُفّى فى الدنيا . وقيل : من كان يريد [الدنيا] بغزوه مع النبى صلى الله عليه وسلم وُفّيها ، أى وُفّى أجر الغزاة ولم يُنقص منها ؛ وهذا خصوص والصحيح العموم .

الثانية — قال بعض العلماء : معنى هذه الآية قوله عليه السلام : "إنما الأعمال بالنيات" . وتدلك هذه الآية على أن من صام فى رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان، وتدلّ على أن من توضأ للتبرّد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة ، وهكذا كل ما كان فى معناه .

الثالثة — ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة؛ وكذلك الآية التى فى «الشورى» «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا»(٣) الآية . وكذلك «وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا»(٤) قيدها وفسرها التى فى «سبحان» «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ»(٥) إلى قوله : «مَحْظُورًا» فأخبر سبحانه أن العبد ينوى ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد، وروى الضّحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦١ (٢) من ع و و . (٣) راجع جـ ١٦ ص ١٨
(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٢٦ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥ فما بعد .

Marfat.com

فى قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أنها منسوخة بقوله : «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ » . والصحيح ما ذكرناه ؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد ؛ ومثله قوله : «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ»[(١)] فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داع دائما على كل حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ»[(٢)] . والنسخ فى الأخبار لا يجوز ؛ لاستحالة تبدّل الواجبات العقلية ، ولاستحالة الكذب على الله تعالى ؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه ، على ما هو مذكور فى الأصول؛ و يأتى فى « النحل »[(٣)] بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى :﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ إشارة إلى التّخليد، والمؤمن لا يُخلَّد ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ»[(٤)] الآية . فهو محمول على مالو كانت موافاة هذا المرائى على الكفر . وقيل : المعنى ليس لهم إلا النار فى أيام معلومة ثم يخرج ؛ إما بالشفاعة ، و إما بالقَبْضة . والآية تقتضى الوعيد بسلْب الإيمان ؛ وفى الحديث [الماضى][(٥)] يريد الكفر وخاصة الرياء ، إذ هو شرك على ما تقدم بيانه فى « النساء »[(٤)] و يأتى فى آخر « الكهف »[(٦)] . ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ابتداء وخبر؛ قال أبو حاتم : وحذف الهاء ؛ قال النحاس : هذا لا يحتاج إلى حذف ؛ لأنه بمعنى المصدر ؛ أى وباطل عمله . وفى حرف أبىّ وعبد الله « وَبَاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُون » وتكون « ما » زائدة ؛ أى وكانوا يعملون باطلا .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨　　(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٢٢　　(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٢٧
(٤) راجع جـ ٥ ص ٢٤٥ وص ٤٢٢　　(٥) فى الأصل (المعاصى) وهو تحريف ، والمراد بالحديث الماضى حديث أبى هريرة المتقدم فى عمل المرائى "صمتم وصليتم ..." .　　(٦) راجع جـ ١١ ص ٦٩

Marfat.com

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ابتداء والخبر محذوف؛ أى أفمن كان على بينة من ربه فى اتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم، ومعه من الفضل ما يتبيّن به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟! عن على بن الحسين والحسن بن أبى الحسن . وكذلك قال ابن زيد: إن الذى على بيّنة هو من اتبع النبيّ[(1)] محمدا[(1)] صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ من الله، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد بقوله : « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ » النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والكلام راجع إلى قوله : « وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ » ؛ أى أفمن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل — على ما يأتى — وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ، وهو يعلم أن الله لا يُسْلِمه . والهاء فى « ربّه » تعود عليه ، وقوله: « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » . وروى عِكرمة عن ابن عباس أنه جبريل؛ وهو قول مجاهد والنَّخَعِيّ . والهـاء فى « منـه » لله عز وجل ؛ أى ويتلو البيان والبرهان شاهـد من الله عز وجل . وقال مجاهد: الشاهد مَلَك من الله عزّ وجلّ يحفظه ويُسدّده . وقال الحسن البصرى وقَتَادة: الشاهد لسان رسـول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن على بن الحنفية : قلت لأبى أنت الشاهد ؟ فقال : وددت أن أكون أنا هو، ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليـه وسلم . وقيـل : هو على بن أبى طالب ؛ روى عن ابن عباس أنه قال : هو على بن أبى طالب ؛ وروى عن علىّ أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان؛ فقال له رجل : أى شىء نزل فيـك ؟ فقال علىّ : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » . وقيـل : الشاهد صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخائله ؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى

(1) من ع .

Marfat.com

النبيّ صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، على قول ٱبن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن فى نظمه وبلاغته ، والمعانى الكثيرة منه فى اللفظ الواحد؛ قاله الحسين بن الفضل، فالهاء فى « منه » للقرآن . وقال الفرّاء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن فى التصديق ؛ والهاء فى « منه » لله عزّ وجلّ . وقيل : البيّنة معرفة الله التى أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذى يتلوه العقلُ الذى رُكّب فى دماغه وأشرق صدره بنوره .

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل الإنجيل. ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحق الزجاج: والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم موصوف فى كتاب موسى «يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ»(1). وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابَ مُوسَى » بالنصب ؛ وحكاها المهدوىّ عن الكلبىّ؛ يكون معطوفا على الهاء فى « يَتْلُوهُ » والمعنى : ويتلو كتابَ موسى جبريلُ عليه السلام ؛ وكذلك قال ٱبن عباس رضى الله عنهما ؛ المعنى من قبله تلا جبريلُ كتابَ موسى على موسى . ويجوز على ما ذكره ٱبن عباس أيضا من هذا القول أن يُرفع « كتاب » على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أى تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد . ﴿ إِمَامًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ معطوف . ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إشارة إلى بنى إسرائيل، أى يؤمنون بما فى التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار ؛ حكاه القشيرىّ . والهاء فى « به » يجوز أن تكون للقرآن، ويجوز أن تكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بالنبيّ عليه السلام . ﴿ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ يعنى من الملل كلها ؛ عن قَتادة؛ وكذا قال سعيد بن جُبَير : « الأحزاب » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يتحازبون . وقيل : قريش وحلفاؤهم . ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أى هو من أهل النار ؛ وأنشد حسان :

أوردتموها حياضَ الموتِ ضاحيةً * فالنارُ موعدُها والموتُ لاقيها

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٩٧ .

Marfat.com

وفى صحيح مسلم من حديث أبى يونس عن النبى صلى الله عليه وسلم : "والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى [ثم يموت](١) ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلّا كان من أصحاب النار". ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أى فى شك . ﴿ مِنْهُ ﴾ أى من القرآن . ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى القرآن من الله ؛ قاله مقاتل . وقال الكلبى : المعنى فلا تك فى مرية فى أن الكافر فى النار . « إِنَّهُ الْحَقُّ » أى القول الحق الكائن؛ والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم، والمراد جميع المكلفين .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا، فأضافوا كلامه إلى غيره، وزعموا أن له شريكا وولدا ، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله . ﴿ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ أى يحاسبهم على أعمالهم . ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعنى الملائكة الحفظة؛ عن مجاهد وغيره؛ وقال سفيان : سألت الأعمش عن «الْأَشْهَادُ» فقال : الملائكة . الضحاك : هم الأنبياء والمرسلون؛ دليله قوله : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا »(٢) . وقيل : الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلّغوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخلائق أجمع . وفى صحيح مسلم من حديث صفوان بن محرز عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيه قال : " وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله " . ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها .

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٩٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن تكون «الَّذِينَ» فى موضع خفض نعتا للظالمين ، ويجوز أن تكون فى موضع رفع؛ أى هم الذين . وقيل : هو ٱبتداء خطاب من الله تعالى؛ أى هم الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة.﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى يعدلون بالناس عنها إلى المعاصى والشرك . ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أعاد لفظ « هم » تأكيدا .

قوله تعالى : أُولَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى فائتين من عذاب الله. وقال ٱبن عباس : لم يُعجزونى أن آمر الأرض فتنخسف بهم . ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أنصارا ، و«مِنْ» زائدة . وقيل : «ما» بمعنى الذى تقديره: أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله ؛ وهو قول ٱبن عباس رضى الله عنهما . ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى على قدر كفرهم ومعاصيهم . ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ «ما» فى موضع نصب على أن يكون المعنى: بما كانوا يستطيعون السمع .﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ولم يستعملوا ذلك فى استماع الحق وإبصاره . والعرب تقول : جزيته ما فعل وبما فعل ؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى ؛ وأنشد سيبويه[1] :

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعل ما أُمِرتَ بهِ * فقــد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

ويجوز أن تكون «ما» ظرفا، والمعنى : يضاعف لهم أبدا، أى وقت ٱستطاعتهم السمع والبصر ، والله سبحانه يجعلهم فى جهنم مستطيعى ذلك أبدا . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لها ؛ إذ الكلام قد تمّ قبلها ، والوقف على العذاب كافٍ ؛ والمعنى : ما كانوا

(١) البيت لعمرو بن معدى كرب الزبيدى . أراد (بالخير) فحذف ووصل الفعل ونصب . والنشب : المال الثابت كالضياع ونحوها . وقيل : النشب جمع المال ؛ فيكون عطفه على الأول مبالغة وتأكيدا . (شواهد سيبويه) .

Marfat.com

يستطيعون فى الدنيا أن يسمعوا سمعا ينتفعون به، ولا أن يبصروا إبصار مهتد . قال الفرّاء: ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأن الله أضلّهم فى اللوح المحفوظ . وقال الزجاج: لبغضهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا(١) عنه . قال النحاس: وهـذا معروف فى كلام العرب؛ يقال: فلان لا يسـتطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلا عليه .

قوله تعـالى : ﴿أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ابتداء وخبر. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أى ضاع عنهم افتراؤهم وتلف .

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ للعلماء فيها أقوال؛ فقال الخليل وسيبويه: «لا جرم» بمعنى حق، فـ«لا» و «جرم» عندهما كلمة واحدة، و «أنّ» عندهما فى موضع رفع؛ وهذا قول الفرّاء ومحمد بن يزيد؛ حكاه النحاس . قال المهـدويّ: وعن الخليل أيضا أن معناها لا بدّ ولا محالة، وهو قول الفـرّاء أيضا؛ ذكره الثعلبيّ . وقال الزجاج: «لا» هاهنا نفى وهو ردّ لقولهم: إن الأصنام تنفعهم؛ كأن المعنى لا ينفعهم ذلك، وجرم بمعنى كَسَب؛ أى كسب ذلك الفعلُ لهم الخسران، وفاعل كسب مضمر، و «أنّ» منصوبة بجرم، كما تقول كَسَب جفاؤك زيدا غضبه عليك؛ وقال الشاعر:

نَصبنا رأسـه فى جِذْع نخـلٍ(٢) * بما جَرَمَتْ يداه وما اعتـدينا

أى بما كسبت . وقال الكسائىّ: معنى «لا جرم» لا صدّ ولا منْع عن أنهم . وقيـل: المعنى لا قَطْعَ قاطعٌ، فحـذف الفاعل حين كثر استعماله؛ والجـرْم القَطْع؛ وقد جَرَم النّخلَ واجترَمه أى صَرَمه فهو جارِمٌ، وقومٌ جُرَّم وجُرَّام وهذا زمن الجَرام والجِرام، وجَرَمتُ صوف الشاة أى جززتُه، وقد جَرَمتُ منه أى أخذتُ منه؛ مثـل جَلَمْت الشىء جَلْمًا أى قطعتُ،

(١) فى ع: يفهموا . (٢) فى ع و و ى: فى رأس جذع .

Marfat.com

وجَلَمت الجزورَ أَجلِمها جَلْما إذا أخذتَ ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجَلْمته — ساكنة اللام — إذا أخذته أجمع، وهذه جَلَمة الجزور — بالتحريك — أى لحمها أجمع؛ قاله الجوهري. قال النحاس: وزعم الكسائي أن فيها أربع لغات: لا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَمَ، ولا أَنْ ذا جَرَمَ، قال: وناس من فَزارة يقولون: لا جَرَ أنهم بغير ميم (١). وحكى الفرّاء فيه لغتين أخريين قال: بنو عامر يقولون لا ذا جَرَمَ، قال: وناس من العرب يقولون: لا جُرْم بضم الجيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ «الذين» اسم «إنّ» و«آمنوا» صلة، أى صدّقوا. ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ عطف على الصلة. قال ابن عباس: أخبتوا أنابوا. مجاهد: أطاعوا. قَتادة: خشعوا وخضعوا. مقاتل: أخلصوا. الحسن: الإخبات الخشوع للمخافة الثابتة فى القلب؛ وأصل الإخبات الاستواء، من الخَبْت وهو الأرض المستوية الواسعة: فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإنابة إلى الله عزّ وجلّ المستمرة ذلك على استواء. «إِلَى رَبِّهِمْ» قال الفرّاء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون المعنى: وجهوا إخباتهم إلى ربهم. ﴿أُولَئِكَ﴾ خبر «إنّ».

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ ابتداء، والخبر ﴿كَالْأَعْمَى﴾ وما بعده. قال الأخفش: أى كمثل الأعمى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر [كالأعمى] (٢) والأصم، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ فردّ إلى الفريقين وهما اثنان؛

(١) فى ع: فيها. (٢) الزيادة عن النحاس.

Marfat.com

روى معناه عن قتادة وغيره . قال الضحاك : الأعمى والأصم مثلٌ للكافر، والسميع والبصير مثــل للؤمن . وقيل : المعنى هل يستوى الأعمى والبصير ، وهل يستوى الأصم والسميع . ﴿ مَثَلًا ﴾ منصوب على التمييز . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] فى الوصفين وتنظرون .

قوله تعــالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم . ﴿ إِنِّى ﴾ أى فقال : إنى ؛ لأن فى الإرسال معنى القول . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى «أنّى» بفتح الهمزة؛ أى أرسلناه بأنى لكم نذير مبين . ولم يقل «إنه» لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه؛[2] كما قال : «وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ» ثم قال : «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ»[3] .

قوله تعــالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُــدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى اتركوا الأصــنام فلا تعبدوها، وأطيعوا الله وحده . ومن قرأ « إنى » بالكسر جعله معترضا فى الكلام ، والمعنى أرسلناه بألا تعبــدوا [إلا الله] . ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

قوله تعــالى : فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعــالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ قال أبو إسحــق الزجاج : المــلأ الرؤساء؛ أى هم مليئون بمــا يقولون . وقد تقدّم هــذا فى « البقرة »[4] وغيرها . ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا ﴾

(١) فى ع ، و ، ى : على التفسير .
(٢) قال ابن عطية : وفى هــذا نظر ، وإنمــا هى حكاية مخاطبة لقومه ، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى مخاطبة ، ولو كان الكلام أن أنذرهم أو نحوه لصح ذلك .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٨٠ .
(٤) راجع جـ ٣ ص ٢٤٣

Marfat.com

أى آدميًا . ﴿ مِثْلَنَا ﴾ نصب على الحال . و « مثلنا » مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التنوين ؛ كما قال الشاعر (١) :

* يا رُبَّ مِثْلِكِ فى النِّساءِ غَرِيرَةٍ *

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ أَراذل جمع أَرْذُل وأَرْذُل جمع رَذْل ؛ مثل كَلْب وأَكْلُب وأَكالب . وقيل : والأراذل جمع الأَرْذل ، كأَساود جمع الأَسْوَد من الحيّات . والرَّذْل النَّذْل ؛ أرادوا آتبعك أَخِسّاؤنا وسَقَطُنا وسفلتنا . قال الزجاج : نسبوهم إلى الحياكة ؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها فى الديانة . قال النحاس : الأراذل هم الفقراء ، والذين لا حسب لهم ، والخسيسو الصناعات . وفى الحديث "إنهم كانوا حاكَةً وحَجّامين" . وكان هذا جهلا منهم ؛ لأنهم عابوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بما لاعيب فيه ؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات ، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات ، وهم يرسَلون إلى الناس جميعا ، فإذا أسلم منهم الدنىء لم يلحقهم من ذلك نقصان؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم .

قلت : الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء؛ كما قال هِرَقْل لأبى سفيان : أشراف الناس آتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ؛ فقال : هم أتباع الرسل . قال علماؤنا : إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف ، وصعوبة الآنفكاك عنها ، والأَنَفة من الآنقياد للغير ؛ والفقير خِليٌّ عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والآنقياد . وهذا غالب أحوال أهل الدنيا .

الثالثـــة — آختلف العلماء فى تعيين السَّفلة على أقوال؛ فذكر آبن المبارك عن سفيان أن السَّفلة هم الذين يَتَقَلَّسون (٢) ، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبون الشهادات .

(١) هو أبو محجن الثقفى و تمام البيت :

* بيضاء قد متعتها بطلاق *

الغريرة : المغترة بلين العيش . ومتعها : أعطاها ما تستمتع به عند طلاقها .

(٢) التقليس : استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو .

Marfat.com

وقال ثعلب عن ابن الأعرابى : السّفلة الذين يأكلون الدنيا بدينهم (١) ؛ قيل له : فمن سفلة السّفلة ؟ قال : الذى يُصلح دنيا غيره بفساد دينه . وسئل على رضى الله عنه عن السّفلة فقال : الذين إذا اجتمعوا غَلَبوا ؛ و إذا تفرقوا لم يعرفوا . وقيل لمالك بن أنس رضى الله عنه : مَن السّفلة ؟ قال : الذى يسبّ الصحابة . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : الأرذلون الحاكَة والحجّامون . يحيى بن أَكْثَم : الدبّاغ والكنّاس إذا كان من غير العرب .

الرابعـــة — إذا قالت المرأة لزوجها : يا سَفِلة ، فقال : إن كنتُ منهم فأنتِ طالق ؛ فحكى النقاش أن رجلا جاء إلى الترمذى فقال : إن امرأتى قالت لى يا سَفِلة ، فقلت : إن كنتُ سَفِلة فأنت طالق ؛ قال الترمذىّ : ما صناعتك ؟ قال : سماك ؛ قال : سَفِلة والله ، سَفِلة والله [سفلة] (٢) .

قلت : وعلى ما ذكره ابن المبارك عن سفيان لا تطلق ، وكذلك على قول مالك ، وابن الأعرابى لا يلزمه شىء .

قوله تعالى : ﴿ بَادِىَ الرَّأْيِ ﴾ . أى ظاهر الرأى ، و باطنهم على خلاف ذلك . يقال : بدا يبدو إذا ظهر ؛ كما قال :

* فاليوم حين بَدَوْنَ للنُّظار *

و يقال للبرّية بادية لظهورها . وبدا لى أن أفعل كذا ؛ أى ظهر لى رأى غير الأول . وقال الأزهرى : معناه فيما يبدو لنا من الرأى . ويجوز أن يكون « بَادِىَ الرَّأْيِ » من بدأ يبدأ وحذف الهمزة . وحقّق أبو عمرو الهمزة فقرأ : « بَادِئَ الرأى » أى أوّل الرأى ؛ أى اتبعوك حين ابتدءوا ينظرون ، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك ؛ ولا يختلف المعنى هاهنا بالهمز وترك الهمز . وانتصب على حذف « فى » كما قال عز وجل : « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » (٣) . ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ أى فى اتباعه ؛ وهذا جحد منهم لنبوّته صلى الله عليه وسلم . ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٤) الخطاب لنوح ومن آمن معه .

(١) كذا فى ع ؛ والذى فى غيره بالإفراد . (٢) من ى . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤ .
(٤) فى ع و ى : به .

Marfat.com

قوله تعالى : قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١)

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أى على يقين ؛ قاله أبو عمران الجونى . وقيل : على معجزة ؛ وقد تقدّم فى «الأنعام»(١) هذا المعنى . ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ أى نبوة ورسالة ؛ عن ابن عباس ؛ وهى رحمة على الخلق . وقيل : الهداية إلى الله بالبراهين . وقيل : بالإيمان والإسلام . ﴿فَعَمِيَتْ(٢) عَلَيْكُمْ﴾ أى عميت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها . يقال : عَمِيتُ عن كذا، وعَمِي علىّ كذا أى لم أفهمه . والمعنى : فعميت الرحمةُ؛ فقيل : هو مقلوب؛ لأن الرحمة لا تَعمَى إنما يُعمَى عنها ؛ فهو كقولك : أدخلت فى القَلَنْسُوة رأسى، ودخل الخفُّ فى رجلى . وقرأها الأعمش وحمزة والكسائى « فَعُمِّيَتْ » بضم العين وتشديد الميم على ما لم يُسمَّ فاعله ؛ أى فعمّاها الله عليكم ؛ وكذا فى قراءة أُبَىّ «فعمّاها» ذكرها الماوردى . ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ قيل : شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : الهاء ترجع إلى الرحمة . وقيل : إلى البينة؛ أى أنلزمكم قبولها ، وأُوجبها عليكم ؟ ! وهو استفهام بمعنى الإنكار؛ أى لا يمكننى أن أضطركم إلى المعرفة بها ؛ وإنما قصد نوح عليه السلام

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٣٨ . (٢) قراءة نافع .

Marfat.com

بهـذا القول أن يردّ عليهم . وحكى الكسائي والفرّاء « أَنُلْزِمْكُمُوهَا » بإسكان المـيم الأولى تخفيفا؛ وقد أجاز مثل هذا سيبويه، وأنشد[1] :

فاليـومَ أَشربْ غيرَ مُستَحقِبٍ * إثمـا مِنَ الله ولا واغِلِ

وقال النحاس : ويجوز على قول يونس [في غير القرآن][2] أنلزمكمها يجرى المضمر مجرى المظهر؛ كما تقول : أنلزمكم ذلك . ﴿ وَأَنْتُمْ لَهَـا كَارِهُونَ ﴾ أى لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عليها. قال قتادة : والله لو استطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على التبليغ، والدعاء إلى الله، والإيمان به [أجرا أى][3] ﴿ مَالًا ﴾ فيثقل عليكم . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى ثوابى فى تبليغ الرسالة . ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُـوا ﴾ سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنـوا به، كما سألت قريش النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يطرد الموالى والفقراء، حسب ماتقدّم « فى الأنعـام »[4] بيانه ؛ فأجابهم بقوله : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عزّ وجلّ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الاختصام ؛ أى لو فعلت ذلك لخاصمونى عنـد الله، فيجازيهم على إيمـانهم، ويجازى من طـردهم . ﴿ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فى استرذالكم لهم، وسؤالكم طردهم .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ ﴾ قال الفـرّاء : أى يمنعنى من عذابه . ﴿ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ﴾ أى لأجل إيمـانهم . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[5] أدغمت التـاء فى الذال . ويجـوز حذفها فتقول : تَذَكَّرون .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَـكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْـلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أخبر بتـذلّله وتواضعه لله عزّ وجلّ، وأنه لا يدّعى ماليس له من خزائن الله ؛ وهى إنعامه على من يشـاء

(١) البيت لامرئ القيس، والشاهد فيه تسكين الباء من قوله (أشرب) فى حال الرفع والوصل . احتقب الإثم واستحقبه احتمله . والواغل الداخل على الشراب ولم يدع له . يقول : حلت لى الخمر فلا آثم بشربها إذ قد وفيت بنذرى فيها . وكان قد نذر ألا يشربها حتى يدرك ثأر أبيه .
(٢) الزيادة عن النحاس .
(٣) من ع و ك و ى .
(٤) راجع جـ ٦ ص ٤٣١ وما بعدها .
(٥) قراءة نافع .

Marfat.com

من عباده، وأنه لا يعلم الغيب؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ. ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي لا أقول إن منزلتي عند الناس منزلة الملائكة. وقد قالت العلماء: الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لدوامهم على الطاعة، واتصال عباداتهم إلى يوم القيامة، صلوات الله عليهم أجمعين. وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة»(1). ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ أي تستثقل وتحتقر أعينكم؛ والأصل تزدريهم حذفت الهاء والميم لطول الاسم. والدّال مبدلة من تاء؛ لأن الأصل في تزدري تَزْتَرِي، ولكن التاء تبدل بعد الزاي دالا؛ لأن الزّاي مجهورة والتّاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها. ويقال: أَزْرَيْتُ عليه إذا عِبتَه. وزريتُ عليه إذا حقَّرته. وأنشد الفرّاء:

يُباعدُه الصديقُ وتَزْدَرِيهِ * حَليلتُـهُ ويَنْهَـرُه الصَّـغيرُ

﴿ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ أي ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم، أو ينقص ثوابهم. ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به. ﴿ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي إن قلت هذا الذي تقدّم ذكره. و«إذًا» ملغاة؛ لأنها متوسطة.

قوله تعالى: قَالُوا يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ أي خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها. والجَدَل في كلام العرب المبالغة في الخصومة؛ مشتق من الجَدْل

(1) راجع جـ ١ ص ١٨٩ وما بعدها.

Marfat.com

وهو شدّة الفَتْل؛ ويقال للصقر أيضا أَجْدَل لشدّته فى الطّير؛ وقد مضى هذا المعنى فى «الأنعام»(١) بأشبع من هذا . وقـرأ ٱبن عباس « فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا » ذكره النحاس . والجَدَل فى الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قَبِله أنجح وأفلح، ومن ردّه خاب وخَسِر . وأما الجِدال لغير الحقّ حتى يظهر الباطل فى صورة الحقّ فمذموم ، وصاحبه فى الدارين ملوم . ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أى من العــذاب . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى قولك .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ أى إن أراد إهـلاككم عذّبكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى بفائتين . وقيـل : بغالبين بكثرتكم، لأنهم أعجبوا بذلك؛ كانوا ملئوا الأرض سهلا وجبلا على ما يأتى .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ أى إبلاغى وٱجتهادى فى إيمـانكم . ﴿ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ أى لأنكم لا تقبلون نصحا ؛ وقد تقـدّم فى « براءة »(٢) معنى النصح لغـة . ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أى يضلّكم . وهذا ممـا يدلّ على بطلان مذهب المعـتزلة والقَدَرية ومن وافقهما ؛ إذ زعمـوا أن الله تعـالى لا يريد أن يَعصى العاصى ، ولا يَكفر الكافر، ولا يَغـوى الغاوى ؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك ؛ فردّ الله عليهم بقـوله : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » . وقد مضى هذا المعنى فى « الفاتحة »(٣) وغيرها . وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيّنـاه فى « الأعراف » فى إغواء الله تعـالى إيّاه حيث قال : « فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي »(١) ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعـالى ؛ إذ هو الهـادى والمضل ؛ سبحانه عمـا يقول الجاحدون والظالمون عُلُوّا كبيرا . وقيـل : « أَنْ يُغْوِيَكُمْ » يهلككم ؛ لأن الإضلال يُفضى إلى الهـلاك . الطّبرىّ : « يُغْوِيَكُمْ » يهلككم بعذابه؛ حكى عن طىّ : أصبح فلان غاويا أى مريضا، وأغويته أهلكته؛ ومنه « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا »(٤) . ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ فإليه الإغواء، وإليه الهداية . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

(١) راجع جـ ٧ ص ٧٧ وص ١٧٤ . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٢٦ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٤٩ ، وجـ ٤ ص ٢٠ . (٤) راجع جـ ١١ ص ١٢٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبي صلى الله عليه وسلم . ٱفترى ٱفتعل؛ أى ٱختلق القرآن من قِبل نفسه، وما أخبر به عن نوح وقومه؛ قاله مقاتل . وقال ٱبن عباس : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه؛ فالخطاب منهم ولهم . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ ﴾ أى اختلقته وٱفتعلته، يعنى الوحى والرسالة . ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ أى عقاب إجرامى، وإن كنت محقًّا فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبى . والإجرام مصدر أجرم؛ وهو ٱقتراف السّيئة . وقيل [المعنى][1] : أى جزاء جُرْمى وكَسْبى . وجَرَم وأَجْرَم بمعنى؛ عن النحاس وغيره . قال[2] :

طَرِيدُ عَشِيرةٍ وَرَهِينُ جُرْمٍ * بِمَا جَرَمَتْ يَدِى وجَنَى لِسَانِى

ومن قرأ « أَجْرَامِي » بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جُرْم؛ وذكره النحاس أيضا . ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ « أنه » فى موضع رفع على أنه ٱسم مالم يُسمَّ فاعله . ويجوز أن يكون فى موضع نصب، ويكون التقدير بـ«أنه» . و « آمَنَ » فى موضع نصب بـ«يؤمن» ومعنى الكلام الإياس من إيمانهم، وٱستدامة كفرهم، تحقيقا لنزول الوعيد بهم . قال الضحاك : فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »[3] الآيتين . وقيل : إن رجلا من قوم نوح حمل ٱبنه على كتفه، فلما رأى الصبيُّ نوحا قال لأبيه : أعطنى حجرا؛ فأعطاه حجرا، ورمى به نوحا عليه السلام فأدماه؛ فأوحى الله تعالى إليه « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ

(١) من ع و ى . (٢) البيت للهبردان السعدى أحد لصوص بنى سعد . (اللسان) .
(٣) راجع جـ ١٨ ص ٣١٢ .

Marfat.com

إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » . ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أى فلا تغتمّ بهلاكهم حتى تكون بائسا؛ أى حزينا . والبؤس الحزن؛ ومنه قول الشاعر :

وكم من خليل أو حميم رُزئته * فلم أبتئسْ والرُّزءُ فيه جليلُ

يقال : ٱبتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه . والابتئاس حزن فى ٱستكانة .

قوله تعـالى : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أى ٱعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن معك . « بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الربيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ من يراك . وقال ٱبن عباس رضى الله عنهما : بحراستنا؛ والمعنى واحد؛ فعبر عن الرؤية بالأعين؛ لأن الرؤية تكون بها . ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعـالى : « فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ »[1] « فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ »[2] . وقد يرجع معنى الأعين فى هذه الآية وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي »[3] وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة، وهو سبحانه منزّه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف؛ لا ربّ غيره . وقيل : المعنى « بِأَعْيُنِنَا » أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك ومعونتك؛ فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه . وقيل : « بِأَعْيُنِنَا » أى بعلمنا؛ قاله مقاتل : وقال الضحاك وسفيان : « بِأَعْيُنِنَا » بأمرنا . وقيل : بوحينا . وقيل : بمعونتنا لك على صنعها . « وَوَحْيِنَا » أى على ما أوحينا إليك من صنعتها . ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أى لا تطلب إمهالهم فإنى مغرقهم .

قوله تعـالى : وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٧٥ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٢ . (٣) راجع جـ ١١ ص ١٩٥ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ أى وطفق يصنع . قال زيد بن أسلم : مكث نوح صلى الله عليه وسلم مائة سنة يَغرس الشّجر ويقطعها وييبسها ، ومائة سنة يعملها . وروى ٱبن القاسم عن ٱبن أشرس عن مالك قال : بلغـنى أن قوم نوح مَلَئُـوا الأرض ، حتى مَلَئُوا السّهل والجبل ، فمـا يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء ، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء ؛ فمكث نوح يغرس الشـجر مائة عام لعمـل السّفينة ، ثم جمعها ييبسها مائة عام ، وقـومه يسخرون ؛ وذلك لمـا رأوه يصنع من ذلك ؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان . وروى عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينته ببقاع دمشق ، وقطع خشبها من جبل لبنان . وقال القـاضى أبو بكر بن العـربى : لمـا ٱستنقذ الله سبحانه وتعـالى مَن فى الأصـلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه . «أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فٱصنع الفلك» قال : يارب ما أنا بنجّـار ، قال : « بلى فإن ذلك بعينى » فأخذ القـدوم فجعله بيـده ، وجعلت يده لا تُخطئ ، فجعلوا يمـرّون به ويقولون : هـذا الذى يزعم أنه نبىّ صار نجّارا ؛ فعملها فى أربعين سنة .

وحكى الثّعلبىّ وأبو نصر القُشَيرىّ عن ٱبن عباس قال : ٱتخذ نوح السفينة فى سنتين . زاد الثّعلبىّ : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن ٱصنعها كجُؤجُؤ الطائر . وقال كعب : بناها فى ثلاثين سنة ، والله أعلم . المهدوىّ : وجاء فى الخبر أن الملائكة كانت تعلّمـه كيف يصنعها . وٱختلفوا فى طولها وعرضها ؛ فعن ٱبن عباس رضى الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ، وسمكها ثلاثون ذراعا ؛ وكانت من خشب السّاج . وكذا قال الكَلْبىّ وقَتَادة وعِكْرِمة كان طولها ثلثمائة ذراع ، والذّراع إلى المَنْكِب . قاله سلمان الفارسىّ . وقال الحسن البصرىّ : إن طول السّفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع . وحكاه الثّعلبىّ فى كتاب العرائس . وروى علىّ بن زيد عن يوسف بن مِهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدّثنا عنها ، فٱنطلق بهم حتى ٱنتهى إلى كَثِيب من تراب فأخذ كفًّا من ذلك التراب ، قال أتدرون ماهذا ؟

Marfat.com

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : [هذا كعب[1] حام بن نوح] قال فضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من[2] رأسـه ، وقد شاب[3] ؛ فقال له عيسى : أهكذا هلكت ؟ قال : لا بل مت وأنا شابّ ، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثَمّ شِبت . قال : أخبرنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، طبقة فيها الدوابّ والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطّير . وذكر باقي الخبر[4] على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى . وقال الكَلْبيّ فيما حكاه النقاش : ودخل المـاء فيها أربعة أذرع ، وكان لها ثلاثة أبواب ؛ باب فيه السّباع والطير ، وباب فيه الوحش ، وباب فيه الرجال والنساء . ابن عباس جعلها ثلاث بطون ؛ البطن الأسفل للوحوش والسباع والدواب ، والأوسط للطعام والشراب ، وركب هو في البطن الأعلى ، وحمل معه جسد آدم عليه السـلام معترضا بين الرجال والنساء ، ثم دفنـه بعدُ ببيت المقدس ؛ وكان إبليس معهم في الكَوْثَل[5] . وقيـل : جاءت الحيّـة والعقرب لدخول السفينة فقـال نوح : لا أحملكما ؛ لأنكما سبب الضرر والبلاء ، فقالتا : احملنا فنحن نضمن لك ألا نضرّ أحدا ذَكَرك ؛ فمن قرأ حين يخاف مَضَرّتهما « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ[6] » لم تضرّاه ؛ ذكره القشيريّ وغيره . وذكر الحافظ بن عساكر في التاريخ له مرفوعا من حديث أبي أمامة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " من قال حين يمسي صـلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقـرب تلك الليلة " . قوله تعـالى : ﴿ وَكُلَّمَا ﴾ ظرف . ﴿ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ . قال الأخفش والكسائي يقال : سَخِرتُ به ومنه . وفي سخريتهم منه قولان : أحدهما — أنهم كانوا يرونه يبني سفينته في البر ، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون : يا نوح صرت بعد النبوة نجارا . الثـاني — لمـا رأوه يبني السـفينة ولم يشاهدوا قبلها سـفينة بنيت قالوا : يانوح

(١) كذا في الطبري والدر المنثور والكشاف ، وفي الأصل (قبر حام بن نوح) . (٢) في ع : عن .
(٣) في ع و ي : شاخ . (٤) جاء في البحر : واختلفوا في هيئتها من التربيع والطول ، وفي مقدار مدة عملها ، وفي المكان الذي عملت فيه ، ومقدار طولها وعرضها على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء .
وقال الفخر الرازي : اعلم أن هذه المباحث لا تعجبني ، لأنهـا أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة ، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا . (٥) الكوثل : مؤخر السفينة وفيه يكون الملاحون ومتاعهم . وقيل : هو السكان .
(٦) راجع جـ ١٥ ص ٩٠ .

Marfat.com

ما تصنع؟ قال : أبني بيتا يمشي على الماء؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه . قال آبن عباس : ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه ؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان. ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ أي من فعلنا اليوم عند بناء السفينة . ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ غدا عنـد الغرق . والمراد بالسخرية هنا الآستجهال ؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا .

قوله تعـالى : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ تهديد، و « مَنْ » متصلة بـ « سَوْفَ تَعْلَمُونَ » و « تعلمون » هنا من باب التعـدية إلى مفعول؛ أي فسوف تعلمون الذي يأتيـه العذاب . ويجوز أن تكون « مَن » آستفهامية ؛ أي أيّنا يأتيـه العذاب ؟ . وقيل : « مَن » في موضع رفع بالآبتداء و « يأتيه » الخبر، و « يُخْزِيه » صفة لـ « عذاب » . وحكى الكسائي : أن أناسا من أهل الحجاز يقولون : سو تعلمون؛ وقال من قال: «ستعلمون» أسقط الواو والفـاء جميعا . وحكى الكوفيـون : سفْ تعلمون[(١)] ؛ ولا يعـرف البصريون إلا ســوف تفعل ، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي يجب عليه وينزل به . ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي دائم، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعـالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ آختلف في التنور على أقوال سبعة : الأول ــ أنه وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورا ؛ قاله آبن عباس وعكرمة والزهري وآبن عيينة؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت المـاء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك . الثاني ــ أنه تنور الخبز الذي يخبز فيـه ؛ وكان تنورا من حجارة ؛ وكان لحواء حتى صار لنوح؛ فقيل له : إذا رأيت المـاء يفور من التنور فآركب أنت وأصحابك . وأنبع الله المـاء من التنور، فعلمت به آمرأته فقالت : يا نوح فار المـاء من التنور ؛ فقـال : جاء وعد ربي حقا . هذا قول الحسن؛ وقاله مجـاهد وعطية عن آبن عباس . الثـالث ــ أنه

---

(١) ورد في اللسان : قد قالوا سو يكون حـذفوا اللام ، وسا يكون لحذفوا اللام وأبدلوا العين طلب الخفة ، وسف يكون لحذفوا العين .

Marfat.com

موضع اجتماع المـاء فى السفينة ؛ عن الحسن أيضـا . الرابع — أنه طلوع الفجر ، ونور الصبح ؛ من قولهم : نور الفجر تنويرا ؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . الخامس — أنه مسجد الكوفة ؛ قاله علىّ بن أبى طالب أيضا ؛ وقاله مجاهد . قال مجاهد : كان ناحية التنور بالكوفة . وقال : اتخـذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة، وكان التنور على يمين الداخل مما يلى كندة . وكان فوران المـاء منه علما لنوح ، ودليلا على هلاك قومه . قال الشاعر وهو أمية :

فار تنورهم وجاش بماءٍ * صار فوق الجبال حتى علاها

السـادس — أنه أعالى الأرض، والمواضع المرتفعة منها ؛ قاله قتادة .

السابـع — أنه العين التى بالجزيرة « عين الوردة » رواه عكرمة . وقال مقاتل : كان ذلك تنور آدم، و إنمـا كان بالشام بموضع يقال له : « عين وردة » وقال ابن عباس أيضا : فار تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهـذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن المـاء جاء من السماء والأرض؛ قال : «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا»(١) . فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان علامة . والفوران الغليان . والتنور اسم أعجمىّ عربته العرب، وهو على بناء فَعّل ؛ لأنّ أصل بنائه تَنَر، وليس فى كلام العرب نون قبل راء . وقيل : معنى « فَارَ التَّنُّورُ » التمثيل لحضور العذاب؛ كقولهم : حمى الوطيس(٢) إذا اشتدت الحرب . والوطيس التنـور . ويقال : فارت قدر القوم إذا اشـتد حربهم ؛ قال شاعرهم :

تركتم قدركم لا شىء فيهـا * وقدرُ القوم حاميـةٌ تفورُ

قوله تعالى : ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يعنى ذكرا وأنثى ؛ لبقاء أصل النسل بعد الطوفان . وقرأ حفص : «مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ» بتنوين « كل» أى من كل شىء زوجين . والقراءتان ترجعان إلى معنًى واحد : [شىء](٣) معه آخر لا يستغنى عنه . و يقال للاثنين : هما زوجان ، فى كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن صاحبه ؛ فإن العرب تسمى كل واحد منهما زوجا . يقال : له زوجا نعل إذا كان له نعلان . وكذلك عنـده زوجا حمام ، وعليه زوجا

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٣١ .

(٢) قلت : وردز نره : ملاه، وتزنر : دق ؛ والستر محركة : شراسة الخلق ، وشنر عليه : عابه .

(٣) من ع .

قيود؛ قال الله تعالى : « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى »(١) . ويقال للرأة هى زوج الرجل، وللرجل هو زوجها . وقد يقال للاثنين هما زوج، وقد يكون الزوجان بمعنى الضربين ، والصنفين، وكل ضرب يدعى زوجا؛ قال الله تعالى : « وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »(١) أى من كلّ لون وصنف . وقال الأعشى :

وكل زوجٍ من الدّيباج يَلبَسه * أبو قُدامة محبوٌّ بذاك معا

أراد كل ضرب ولون . و « مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ » فى موضع نصب بـ « آحمل » . « آثنين » تأكيد . ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أى وآحمل أهلك . ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ ﴾ . « مَن » فى موضع نصب بالآستثناء . ﴿ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ منهم أى بالهلاك؛ وهو آبنه كنعان وآمرأته وَاعِلَةَ كانا كافرين . ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ قال الضحاك وآبن جريج : أى آحمل من آمن بى، أى من صدّقك؛ فـ « من » فى موضع نصب بـ « ٱحمل » . ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال آبن عباس رضى الله عنهما : آمن من قومه ثمانون إنسانا، منهم ثلاثة من بنيه؛ سام وحام ويافث، وثلاث كنائن(٢) له . ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهى اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل . وورد فى الخبر أنه كان فى السفينة ثمانية أنفس؛ نوح وزوجته غير التى عوقبت ، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم؛ وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جريج ومحمد بن كعب؛ فأصاب حام آمرأته فى السفينة ، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان . قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . وقال الأعمش: كانوا سبعة؛ نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين؛ وأسقط امرأة نوح . وقال آبن إسحق : كانوا عشرة سوى نسائهم ؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث ، وستة أناس ممن كان آمن به ، وأزواجهم جميعا . و «قَلِيلٌ» رفع بآمن، ولا يجوز نصبه على الآستثناء؛ لأن الكلام قبله لم يتم ، إلا أن الفائدة فى دخول «إلا» و «ما» لأنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن؛ فإذا جئت بما و إلا، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم .

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١٦ وجـ ١٢ ص ١٤ . (٢) الكنة (بالفتح) : آمرأة الابن أو الأخ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا ﴾ أمر بالركوب ؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه . والركوب العلو على ظهر الشيء . ويقال : ركبه الدَّيْن . وفى الكلام حذف؛ أى اركبوا الماء فى السفينة . وقيل : المعنى اركبوها . و «فى» للتأكيد كقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ »(1) وفائدة « فى » أنهم أمروا أن يكونوا فى جوفها لا على ظهرها . قال عِكرمة : ركب نوح عليه السلام فى الفلك لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجُودىّ لعشر خلون من المحرم؛ فذلك ستة أشهر؛ وقاله قَتادة وزاد؛ وهو يوم عاشوراء؛ فقال لمن كان معه : من كان صائما فليتم صومه، ومن لم يكن صائما فليصمه . وذكر الطبرىّ فى هذا حديثا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أن نوحا ركب فى السفينة أول يوم من رجب ، وصام الشهر أجمع، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء ، ففيه أرست على الجودىّ، فصامه نوح ومن معه . وذكر الطبرىّ عن ابن إسحق مايقتضى أنه أقام على الماء نحو السنة ، ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد رفعه الله عن الغرق فلم ينله غرق ، ثم مضت إلى اليمن ورجعت إلى الجودىّ فاستوت عليه .

قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَٰهَا ﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ، على معنى بسم الله إجراؤها وإرساؤها ؛ فمجراها ومرساها فى موضع رفع

(1) راجع ص ١٩٨ فما بعد من هذا الجزء .

Marfat.com

بالابتـداء ؛ ويجوز أن تكون فى موضع نصب ، ويكون التقـدير : بسم الله وقت إجرائهـا ثم حذف وقت ، وأقيم «مجراها» مقامه . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى : «بِسمِ ٱللهِ مَجْرِيهَا» بفتح الميم و « مُرْسَاهَا » بضم المـيم . وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثّاب « بِسْمِ ٱللهِ مَجْرَاهَا ومَرْسَاهَا » بفتح الميم فيهما ؛ على المصـدر من جَرت تجرى جريا ومَجْرًى، ورَست رُسوًّا ومَرْسًى إذا ثبتت . وقرأ مجاهد وسليمان بن جُنْدُب وعاصم الجَحْدَرى وأبو رَجاء العُطَارِدِى : « بِسْمِ ٱللهِ مُجْرِيهَا ومُرْسِيهَا » نعت لله عز وجل فى موضع جر . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ أى هو مُجريها ومُرسيها . ويجوز النصب على الحال . وقال الضحّاك : كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مَجراها جرت ، و إذا قال بسم الله مَرساها رست . وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن الحسين بن على عن النبي صلى الله عليــه وسلم قال : " أمَانٌ لأمتى من الغرق إذا ركبوا فى الفلك بسم الله الرحمن الرحيم « وَمَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»(١) «بِسْمِ ٱللهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» " . وفى هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند آبتداء كل فعل ؛(٢) كما بيّناه فى البسملة ،(٣) والحمد لله . ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى لأهل السفينة . وروى عن آبن عباس قال : لمـا كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح آغمز ذنب الفيل ، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ؛ فقال نوح : لو غمزت ذنب هذا الخنزير ! ففعل ، فخرج منه فأر وفأرة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالهـا تقرضها ، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة ؛ فأوحى الله إلى نوح أن آمسح جبهة الأسد فمسحها ، فخرج منها سِنّوران فأكلا الفئرة . ولمـا حمل الأسد فى السفينة قال : يارب من أين أطعمه؟ قال : سوف أشغله ، فأخذته الحُمَّى ؛ فهو الدهرَ محموم . قال آبن عباس : وأوّل ما حمل نوح من البهائم فى الفلك حمل الإوزّة ، وآخر ما حمل حمل الحمار ؛ قال : وتعلق إبليس بذنبــه ، ويداه قد دخلتا فى السفينة ، ورجلاه خارجة بعــد ، فجعل الحمار يضطرب

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ .	(٢) فى ع وو : على ما .	(٣) راجع جـ ١ ص ٩٧ .

Marfat.com

ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : آدخل ويلك ! فجعل يضطرب ؛ فقال : آدخل ويلك! وإن كان معــك الشيطان ؛ كلمة زلّت على لسانه ، فدخل ووثب الشيطان فدخل . ثم إن نوحا رآه يغنّى فى السفينة ، فقال له : ياالعين ما أدخلك بيتى ؟! قال : أنت أذنت لى ؛ فذكر له ؛ فقال له : قم فاخرج . قال : مالك بدّ فى أن تحملنى معــك ؛ فكان فيما يزعمــون فى ظهر الفــلك . وكان مع نوح عليــه السلام خرزتان مضيئتان ، واحدة مكان الشــمس ، والأخرى مكان القمر . آبن عباس : إحداهما بيضاء كبياض النهار، والأخرى سوداء كسواد الليل؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة ؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه؛ على قدر الساعات .

قوله تعــالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ الموج جمع موجة؛ وهى ما آرتفع من جملة المــاء الكثير عنــد اشتداد الريح . والكاف للتشبيه، وهى فى موضع خفض نعت للوج . وجاء فى التفسير أن المــاء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعا . ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَــهُ﴾ قيل : كان كافرا وآسمه كنعان . وقيل : يام . ويجوز على قول سيبويه : « ونادى نوح آبنه » بحذف الواو من « ابنه » فى اللفظ ، وأنشد[1] :

* لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَــوتُ حادٍ *

فأما « ونادى نُوحٌ ٱبْنَهَ وكانَ »[2] فقراءة شاذّة ، وهى مروية عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وعروة بن الزبير . وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد « ابنها » فحذف الألف كما تقول : «آبنه» ؛ فتحذف الواو . وقال النحاس : وهذا الذى قاله أبو حاتم لايجوز على مذهب سيبويه ؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها، والواو ثقيلة يجوز حذفها . ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أى من دين أبيه . وقيل : عن السفينة . وقيل : إن نوحا لم يعلم أن آبنه كان كافرا ، وأنه

---

(١) البيت للشماخ، والشاهد فى (كأنه) حذف الواو ضرورة . وتمــامه :

* إذا طلب الوســيقة أو زمير *

يصف حمار وحش هائجا يطلب وسيقته ، وهى أتناه التى يضمها ويجمعها ؛ من وسقت الشيء أى جمعته . (شواهد سيبويه) . (٢) كذا فى الشواذ ، ويدل عليه ما يأتى عن أبى حاتم ، وأما رسم آبنه بالواو فليس بشاذ .

Marfat.com

ظن أنه مؤمن؛ ولذلك قال له : ﴿ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ وسيأتى . وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق؛ وقبل رؤية اليأس، بل كان فى أوّل ما فار التنور، وظهرت العلامة لنوح . وقرأ عاصم : « يَا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا » بفتح الياء، والباقون بكسرها . وأصل « يابنىّ » أن تكون بثلاث ياءات؛ ياء التصغير، وياء الفعل، وياء الإضافة؛ فأدغمت ياء التصغير فى لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الراء فى هذا الموضع؛ هـذا أصل قراءة من كسر اليـاء، وهو أيضا أصل قراءة من فتح؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفا لخفة الألف، ثم حذف الألف لكونها عوضا من حرف يحذف، أو لسكونها وسكون الراء . قال النحاس : أما قراءة عاصم فمشكلة؛ قال أبوحاتم : يريد يا بُنَيَّاه ثم يحذف؛ قال النحاس : رأيت علىّ بن سليمان يذهب إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة . قال أبو جعفر النحاس : ما علمت أن أحدا من النحو يين جوز الكلام فى هذا إلا أبا إسحق؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين؛ فالفتح على أنه يبدل من الياء ألفا؛ قال الله عز وجل إخبارا : « يَا وَيْلَتَا »[(١)] وكما قال الشاعر :

* فياعجبا من رَحْلها المتحمَّلِ *

فيريد يابنيّا، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين، كما تقول : جاءنى عبدا الله فى التثنية . والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف . والكسر على أن تحذف الياء للنداء . والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ سَآوِي ﴾ أى أرجع وأنضم . ﴿ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي ﴾ أى يمنعنى ﴿ مِنَ الْمَاءِ ﴾ فلا أغرق . ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى لا مانع؛ فإنه يوم حق فيه العذاب على الكفار . وانتصب « عاصم » على التبرئة . ويجوز « لاعاصم اليوم » تكون لا بمعـنى ليس . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ فى موضع نصب استثناء ليس من الأوّل؛ أى لكن من رحمه الله فهو يعصمه؛ قاله الزجاج . ويجوز أن يكون فى موضع رفع، على أن عاصما بمعنى معصوم؛ مثل : « مَاءٍ دَافِقٍ »[(٢)] أى مدفوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر :

(١) راجع ص ٦٩ من هذا الجزء .　　(٢) راجع جـ ٢٠ ص ٤ .

Marfat.com

بطىءُ القيامِ رخيمُ الكلا * مِ أَمْسَى فؤادى به فاتنا

أى مفتونا . وقال آخر[1] :

دَعِ المكارِمَ لا تنهضْ لبغيتها * واقعدْ فإنَّك أنتَ الطاعمُ الكاسى

أى المطعوم المكسوّ . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيه أن تكون « مَن » فى موضع رفع؛ بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم؛ أى إلا الله . وهذا اختيار الطّبرىّ . ويُحسّن هذا أنك لم تجعل عاصما بمعنى معصوم فتخرجه من بابه، ولا «إلّا» بمعنى «لكن» . ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ يعنى بين نوح وابنه . ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ قيل : إنه كان راكبا على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها؛ فلما رأى الماء جاء قال : يا أبت فار التنور؛ فقال له أبوه : «يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا» فما استتمّ المراجعة حتى جاءت مَوْجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه و بين نوح فغرق . وقيل : إنه اتخذ لنفسه بيتا من زجاج يتحصّن فيه من الماء، فلما فار التّنور دخل فيه وأقفله[2] عليه من داخل، فلم يزل يتغوّط فيه و يبول حتى غرق بذلك . وقيل : إن الجبل الذى آوى إليه « طورسيناء » .

قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ هذا مجاز لأنها موات . وقيل : جعل فيها ما تُميّز به . والذى قال إنه مجاز قال : لو فُتّش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها، و بلاغة رصفها، واشتمال المعانى فيها . وفى الأثر : إن الله تعالى لايخلى الأرض من مطر فى عام أو عامين، وأنه ما نزل من السماء ماء قطّ إلا بحفظ مَلك موكّل به إلا ما كان من ماء الطوفان؛ فإنه خرج منه ما لا يحفظه الملَك . وذلك قوله تعالى: « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ[3] » فجرت بهم السّفينة إلى أن تناهى الأمر؛ فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع . يقال : بَلِع الماء يبلَعه مثل منع يمنع وبَلِع يبلَع مثل حمِد يحمَد؛ لغتان حكاهما الكسائىّ والفرّاء . والبالُوعة

(١) البيت للحطيئة يهجو الزبرقان . (٢) فى ع : أغلقه . (٣) راجع ج ١٨ ص ٢٦٢ .

Marfat.com

الموضع الذى يشرب المـاء . قال آبن العربى : التقى المـاءان على أمر قد قـدر ، ما كان فى الأرض وما نزل من السماء؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع، فلم تمتصّ الأرض منه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط . وذلك قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ » وقيل : ميّز الله بين المـاءين، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته،(١) وصار ماء السماء بحارا .

قوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَاءُ ﴾ أى نقص؛(٢) يقال : غاض الشيءُ وغضته أنا؛ كما يقال : نَقَص بنفسه ونَقَصه غيره ، ويجوز « غيض » بضم الغـين(٣) . ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أى أحكم وفرغ منه ؛ يعنى أهلك قوم نوح على تمام وإحكام . ويقال : إن الله تعالى أعقم أرحامهم أى أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة، فلم يكن فيمن هلك صغير . والصحيح أنه أهلك الوِلدان بالطّوفان، كما هلكت الطير والسباع، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير، بل ماتوا بآجالهم . وحكى أنه لمـا كثر المـاء فى السّكك خشيت أمّ صبىّ عليه؛ وكانت تحبه حبّا شديدا، فخرجت به إلى الجبل ، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها المـاء خرجت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها المـاء آستوت على الجبل؛ فلما بلغ المـاء رقبتها رفعت يديها بآبنها حتى ذهب بها المـاء؛ فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أمّ الصبى .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أى هلاكا لهم . الجُودىّ جبل بقرب المَوْصل؛ استوت عليه فى العاشر من المحرّم يوم عاشوراء؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه، شكرا لله تعالى ؛ وقد تقدّم هذا المعنى . وقيل : كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسى على واحد منها فتطاولت، وبقى الجُودىّ لم يتطاول تواضعا لله ، فاستوت السّفينة عليه : وبقيت عليه أعوادها . وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لقد بقى منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة" . وقال مجاهد : تشامخت الجبال وتطاولت لئـلا ينالها

(١) فى ع : فابتلعته . (٢) فى المصباح : غاض : نضب أى ذهب فى الأرض . (٣) أى باشمام الكسرة الضم .

Marfat.com

الغرق، فعلا المـاء فوقها خمسة عشر ذراعا، وتطامن الجودىّ، وتواضع لأمر الله تعـالى فلم يغرق، ورست السفينة عليه . وقد قيل : إن الجودىّ اسم لكل جبل ؛ ومنه قول زيد ابن عمرو بن نُفَيل[1] .

سُبحانه ثم سُبحانًا يَعودُ لَه * وقَبْلَنا سَبّحَ الجُودِىُّ والجَمَدُ

ويقال : إن الجُودىّ من جبال الجنة، فلهذا استوت عليه . ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر : الجودىّ بنوح، وطورسيناء بموسى، وحراء بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

مســألة : لمـا تواضع الجودىّ وخضع عزّ ، ولمـا ارتفع غيره واستعلى ذَلّ ، وهذه سُنّة الله فى خلقه، يرفع من تخشّع، ويضع من ترفّع؛ ولقد أحسن القائل :

وإذا تذلّلت الرّقابُ تخشُّعًا * منّـا إليكَ فعـزُّها فى ذُلّهـا

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك قال : كانت ناقة للنبي صلى الله عليه وسلم تُسمّى العَضْباء، وكانت لا تُسبق ؛ فجاء أعرابىّ على قعودٍ له فسبقها، فاشتدّ ذلك على المسلمين ؛ وقالوا : سُبِقت العضباءُ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن حقّا على الله ألا يَرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه " . وخرج مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما نَقَصت صـدقةٌ من مالٍ وما زاد الله عبـدا بعفو إلا عزًّا وما تواضـع أحد لله إلا رفعه الله " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يَبْغِى أحد على أحد ولا يَفخر أحد على أحد " . خرجه البخارىّ .

مســئلة : نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة . ذكر الحافظ بن عساكر فى التاريخ له عن الحسن : أن نوحا أوّل رسول بعثـه الله إلى [أهل][2] الأرض، فذلك قوله تعـالى : «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا»[3] . وكان قد كثرت فيهم المعاصى، وكثرت الجبابرة وعَتَوْا عُتُوًّا كبيرا، وكان نوح يدعوهم ليلا ونهارا، سرّا وعلانية، وكان صبورا حليما، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدّ مما لقى نوح ؛ فكانوا يدخلون عليه

---

(١) نسبه اللسان لأمية بن أبى الصلت وفى (معجم الياقوت) : هو لزيد بن عمرو ؛ وقيـل : لورقة بن نوفل . وفى ع : الجمد . كخدم جمع خادم، ولعله الأشبه . (٢) من ع . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٢ .

Marfat.com

فيخنقونه حتى يترك وَقيذًا ، و يضربونه فى المجالس ويطرد، وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول : « رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ » فكان لا يزيدهم ذلك إلا فرارا منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه ، ويجعل أصبعيه فى أذنيه لكيلا يسمع شيئا من كلامه، فذلك قوله تعالى: «وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ» (١) . وقال مجاهد وعُبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال : « رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » . وقال ٱبن عباس : إن نوحا كان يضرب ثم يُلف فى لِبد فيلقى فى بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم؛ حتى إذا يئس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ٱبنه وهو يتوكأ على عصا ؛ فقال : يا بُنَيّ ٱنظر هذا الشيخ لا يغرنك، قال : يا أبت أمكنّي من العصا، [فأمكنه] (٢) فأخذ العصا ثم قال: ضعني فى الأرض فوضعه، فمشى إليــه بالعصا فضربه فشجه شجة مُوضِحة فى رأسه، وسالت الدماء؛ فقال نوح : « ربّ قد ترى ما يفعل بى عبادك فإن يك لك فى عبادك خيرية فاهدهم و إن يك غير ذلك فصبّرنى إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين» فأوحى الله إليه وآيسه من إيمـان قومه، وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ولا فى أرحام النساء مؤمن ؛ قال: «وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَـا كَانُوا يَفْعَلُونَ » ؛ أى لا تحزن عليهم. «وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَـا وَوَحْيِنَا » قال : يا رب وأيــن الخشب ؟ قال : ٱغرس الشــجر . قال : فغرس السّاج عشرين سنة، وكفّ عن الدعاء، وكفّوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه ؛ فلمـا أدرك الشجرُ أمره ربه فقطعها وجفّفها : فقال : يا رب كيف أتخذ هـذا البيت ؟ قال : ٱجعله على ثلاثة صور؛ رأسه كرأس الدّيك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذَنَبه كذَنَب الديك؛ وٱجعلها مطبقة وٱجعل لها أبوابا فى جنبها، وشدّها بدُسُر، يعنى مسامير الحديد . و بعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة ، وجعلت يده لا تخطئ . قال ٱبن عباس : كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينته من خشب لبنان بين زمزم و بين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب فى الباب الأوّل، وجعل الوحش والطير فى الباب الثـانى، وأطبق عليهما،

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٠ (٢) من ع .

Marfat.com

وجعــل أولاد آدم أربعين رجلا وأربعين آمرأة فى الباب الأعلى وأطبق عليهم، وجعل الذّر معه فى الباب الأعلى لضعفها ألا تطأها الدوابّ .

قال الزُّهرىّ : إن الله عزّ وجل بعث ريحا فحمل إليــه من كل زوجين آثنين ؛ من السباع والطير والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمــد : بعث الله جبريل فحشرهم ، فجعل يضرب بيديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى ، فيدخله السفينة . وقال زيد بن ثابت : استصعبت على نوح المــاعزة أن تدخل السفينة ، فدفعها بيده فى ذنبها ؛ فمن ثَمّ انكسر ذنبها فصار مَعْقوفا و بدا حَيَاؤها . ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حياؤها ؛ قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحا حمل أهل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين آثنين ، وحمل من الهدهد زوجين ، فماتت الهدهدة فى السفينة قبل أن تظهر الأرض ، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكانا ، فلم يجد طينا ولا ترابا ، فرحمه ربه فحفر لها فى قفاه قبرا فدفنها فيه ، فذلك الريش الناتئ فى قفا الهدهد موضع القبر؛ فلذلك نتأت أقفية الهداهد . وقال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : "كان حمل نوح معه فى السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح فى السفينة" . وذكر صاحب كتاب «العروس» وغيره : أن نوحا عليه السلام لمــا أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الدّجاج : أنا ؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت مختومة بخاتمى لا تطيرى أبدا، أنت ينتفع بك أمتى ؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتبس فلعنه ، ولذلك يقتل فى [الحلّ] (١) والحَرَم ودعا عليه بالخوف ؛ فلذلك لا يألف البيوت . و بعث الحمامة فلم تجد قرارا فوقعت على شجرة بأرض سَبَأ (٢) فحملت ورقة زيتونة ، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض ، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادى الحرم ، فإذا المــاء قد نضب من مواضع الكعبة ، وكانت طينتها حمراء ، فاختضبت رجلاها ، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت : بشراى منكَ أن تهب لى الطوق فى عنقى ، والخضاب فى رجلى ، وأسكنُ الحرَمَ؛ فمسح يده على عنقها وطوقها ، ووهب لها الحمرة فى رجليها ، ودعا لهــا ولذريتها بالبركة . وذكر الثعلبىّ أنه بعث

(١) من و . (٢) كذا فى و ، وفى ع وا وح : سبا .

بعد الغراب التُّدْرُج(١) وكان من جنس الدّجاج ؛ وقال : إياك أن تعتذر ، فأصاب الخضرة والفرجة فلم يرجع ، وأخذ أولاده عنده رهنا إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ أى دعاه . ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أى من أهلى الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق ؛ ففى الكلام حذف . ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ يعنى الصدق . وقال علماؤنا : وإنما سأل نوح ربه آبنه لقوله : «وَأَهْلَكَ» وترك قوله : «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» فلما كان عنده من أهله قال : «رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي» يدلّ على ذلك قوله : «وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ» أى لا تكن ممن لست منهم؛ لأنه كان عنده مؤمنا فى ظنه، ولم يك نوح يقول لربه : «إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي» إلا وذلك عنده كذلك ؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إنجاء بعضهم ؛ وكان آبنه يُسِرّ الكفر و يظهر الإيمان؛ فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب؛ أى علمت من حال آبنك ما لم تعلمه أنت . وقال الحسن : كان منافقا؛ ولذلك آستحل نوح أن يناديه . وعنه أيضا : كان آبن آمرأته؛ دليله قراءة علىّ «وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهَا» . ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ابتداء وخبر . أى حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالغرق .

(١) التدرج كحبرج : طائر يغرد فى البساتين بأصوات طيبة ؛ وموطنه بلاد فارس . (حياة الحيوان) .

Marfat.com

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [أى ليس من أهلك(١) الذين وعدتهـم أن أنجيهم ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ؛ فهو على حذف مضاف ؛ وهذا يدلّ على أن حكم الاتفاق فى الدّين أقوى من [حكم(١)] النسب . ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قرأ ٱبن عباس وعُروة وعكرمة ويعقوب والكسائى « إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ » أى من الكفر والتكذيب؛ وٱختاره أبو عبيد . وقرأ الباقون «عَمَلٌ» أى ٱبنك ذو عمل غير صالح لحذف المضاف ؛ قاله الزجاج وغيره . قال(٢) :

تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حتّى إذا ادّكَرتْ ﴿ فإنما هى إقبالٌ وإدبار

أى ذات إقبال وإدبار . وهـذا القول والذى قبله يرجع إلى معنى واحد . ويجوز أن تكون الهاء للسؤال؛ أى إن سؤالك إياى أن أنجيه عمل غير صالح . قاله قتادة. وقال الحسن: معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ٱبنه . وكان لغير رِشْدَة، وقاله أيضا مجاهد . قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان ٱبنه؛ قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال : « إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي » فقال : لم يقل منى ، وهذه إشارة إلى أنه كان ٱبن ٱمرأته من زوج آخر؛ فقلت له : إن الله حكى عنـه أنه قال : « إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي » « وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ » ولا يختلف أهل الكتابين أنه ٱبنـه ؛ فقال الحسن : ومن يأخذ دينـه عن أهل الكتاب ! إنهم يكذبون . وقرأ : « فَخَانَتَاهُمَا(٣) » . وقال ٱبن جريج : ناداه وهو يحسب أنه ٱبنه، وكان ولد على فراشه، وكانت ٱمرأته خانته فيه ؛ ولهذا قال : « فَخَانَتَاهُمَا » . وقال ٱبن عباس : ما بغت ٱمرأة نبيّ قطّ ، وأنه كان ٱبنـه لصُلْبه . وكذلك قال الضّحاك وعكرمة وسعيد بن جُبير وميمون بن مِهران وغيرهم ، وأنه كان ٱبنه لصُلْبه . وقيـل لسعيد بن جُبير يقول نوح : « إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي » أكان من أهله ؟ أكان ٱبنه؟ فسبّح اللهَ طويلا ثم قال: لا إله إلا الله! يحدث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أنه ٱبنه ، وتقول إنه ليس ٱبنـه ! نعم كان ٱبنه ؛ ولكن كان مخالفا فى النية والعمل والدّين ، ولهذا قال الله تعـالى : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » ؛ وهذا

(١) من ع . (٢) البيت للخنساء تصف ناقة ذهب عنها ولدها ؛ وهو من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا .
(٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٠١ .

Marfat.com

هو الصحيح فى الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به ، و إن قوله : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » ليس مما ينفى عنه أنه ٱبنه . وقوله : « فَخَانَتَاهُمَا » يعنى فى الدِّين لا فى الفراش ، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون ، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك ؟ فقال لهـا : نعم . قالت : فمتى ؟ قال : إذا فار التّنور ؛ فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفور هذا التّنور ، فهذه خيانتها . وخيانة الأخرى أنها كانت تدلّ على الأضياف على ما سيأتى إن شاء الله . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عملا كما يسمى كَسْبا، كما فى الخبر" أولادكم من كَسْبكم " . ذكره القشيرى .

الثالثـة — فى هـذه الآية تسلية للخلق فى فساد أبنائهم و إن كانوا صالحين . وروى أن ٱبن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطّاه، قال : فعلم مالك أنه قد فهمه الناس؛ فقـال مالك : الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات ، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الآبن من الأهل لغة وشرعا ، ومن أهل البيت ؛ فمن وصّى لأهله دخل فى ذلك ٱبنه ، ومن تضمنه منزلُه ، وهو فى عياله . وقال تعـالى فى آية أخرى : « وَلَقَـدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ »(1) فسمى جميع من ضمه منزله من أهله .

الرابعـة — ودلّت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما : أن الولد للفراش؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذا بظاهر الفراش . وقد روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينـار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رسـول الله صلى الله عليه وسلم إنمـا قضى بالولد للفراش من أجل ٱبن نوح عليه السلام ؛ ذكره أبو عمر فى كتاب « التمهيد » . وفى الحديث الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الولدُ للفراش وللعاهر الحَجَر " يريد الخيبة . وقيل : الرّجم بالحجارة . وقرأ عُروة بن الزبير . « وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهَا » يريد ٱبن ٱمرأته، وهى تفسير القراءة المتقدّمة عنه ، وعن علىّ رضى الله عنه ، وهى حجة للحسن ومجاهد ؛ إلا أنهـا قراءة شاذة ، فلا نترك المتفق عليها لهـا . والله أعلم .

(1) راجع ج ١٥ ص ٨٩ .

Marfat.com

الخامســـة ـ قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى أنهاك عن هذا السؤال ، وأحذرك لئلا تكون ، أو كراهية أن تكون من الجاهلين ؛ أى الآثمين . ومنه قوله تعالى : « يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا »(1) أى يحذركم الله وينهاكم . وقيل : المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين؛ فـ﴿قَالَ﴾ نوح : ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾[الآية](2) وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام، فشكر الله تذلله وتواضعه. ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ ما فرط من السؤال . ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ أى بالتوبة . ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى أعمالا . فقال : « يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا » .

قوله تعالى : قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ أى قالت [له](2) الملائكة، أو قال الله تعالى له : اهبط من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى الأرض ؛ فقد ابتلعت الماء وجفت . « بِسَلَامٍ مِنَّا » أى بسلامة وأمن . وقيل : بتحيــة . ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ أى نعم ثابتة؛ مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته وإقامته . ومنه البِركة لثبوت الماء فيها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : نوح آدم الأصغر، فجميع الخلائق الآن من نسله ، ولم يكن معه فى السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته ؛ على قول قتادة وغيره ، حسب ماتقدم ؛ وفى التنزيل « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ »(3) . ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ قيل : دخل فى هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة . ودخل فى قوله : ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كل كافر إلى يوم القيــامة ؛ رُوى ذلك عن محمــد بن كعب . والتقدير على هــذا : وعلى ذرية أمم ممن معك ، وذرية أمم سنمتعهم . وقيل : « مِن » للتبعيض ، وتكون لبيان الجنس . « وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ » ارتفع « وَأُمَمٌ » على معنى وتكون أمم . قال الأخفش سعيد كما تقول : كلمت زيدا وعمــرو جالس . وأجاز الفراء فى غير القراءة وأمما ، وتقديره : ونمتع أمما . وأعيدت « على » مع

(1) راجع جـ ١٢ ص ٢٠٥ . (2) من ع و و . (3) راجع جـ ١٥ ص ٨٩ .

Marfat.com

« أُمَمٌ » لأنه معطوف على الكاف من « عَلَيْكَ » وهى ضمير المجرور ، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره . وقد تقدّم فى « النساء »(١) بيان هذا مستوفى فى قوله تعالى : « وَٱتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ » بالخفض . والباء فى قوله : « بِسَلَامٍ » متعلقة بمحذوف ؛ لأنها فى موضع الحال ؛ أى آهبط مسلّما عليك . و « منّا » فى موضع جر متعلق بمحذوف ؛ لأنه نعت للبركات . « وَعَلَى أُمَمٍ » متعلق بما تعلق به « عَلَيْكَ » ؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف . و « من » فى قوله : « مِمَّنْ مَعَكَ » متعلق بمحذوف ؛ لأنه فى موضع جر نعت للأمم . و « مَعَكَ » متعلق بفعل محذوف ؛ لأنه صلة « لمن » أى ممن آستقر معك ، أو آمن معك ، أو ركب معك .

قوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أى تلك الأنباء ، وفى موضع آخر « ذلك » أى ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك . ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ أى لتقف عليها . ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ ﴾ أى كانوا غير عارفين بأمر الطوفان ، والمجوس الآن ينكرونه . [﴿ مِنْ قَبْلِ هَـذَا ﴾ خبر أى مجهولة عندك وعند قومك . ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ على مشاق الرسالة وإذاية القوم كما صبر نوح(٢)] . وقيل : أراد جهلهم بقصة آبن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان [فإنه](٣) على الجملة . « فَٱصْبِرْ » أى آصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على [أذى](٢) قومه . ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ ﴾ فى الدنيا بالظّفر ، وفى الآخرة بالفوز . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصى .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا

(١) راجع جـ ٥ ص ٢ فما بعد .		(٢) من ك .		(٣) من و .

Marfat.com

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ
قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ
إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥)
إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ
إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ
إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا۟
فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا
لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أى وأرسلنا ، فهو معطوف على « أَرْسَلْنَا نُوحًا » . وقيل له أخوهم لأنه منهم ، وكانت القبيلة تجمعهم ؛ كما تقول : يا أخا تميم . وقيل : إنما قيل له أخوهم لأنه من بنى آدم كما أنهم من بنى آدم ؛ وقد تقدّم هذا فى «الأعراف»(١) وكانوا عبدة الأوثان . وقيل : هم عادان ، عاد الأولى وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ؛ وأما الأخرى فهو شدّاد ولقمان المذكوران فى قوله تعالى : « إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ »(٢) . وعاد اسم

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٥ فما بعد .

(٢) راجع جـ ٢٠ ص ٤٤ .

Marfat.com

رجل ثم آستمرّ على قوم آنتسبو إليه . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ ﴾ بالخفض على اللفظ ، و « غيره » بالرفع على الموضـع ، و « غيرَه » بالنصب على الآستثناء . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ أى ما أنتم فى اتخاذكم إلها غيره إلا كاذبون عليه جلّ وعزّ .

قوله تعـالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ تقدّم معناه . والفِطرة آبتداء الخلق . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما جرى على قوم نوح لمـا كذبوا الرسل .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تقدّم فى أوّل السورة . ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴾ جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة . ﴿ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير؛ أى يرسل السماء بالمطر متتابعا يتلو بعضه بعضا؛ والعرب تحذف الهاء فى مِفعال على النسب، وأكثر ما يأتى مِفعال من أفعل ، وقد جاء هاهنـا من فَعل ؛ لأنه من درّت السماء تَدِر وتَدُر فهى مدرار . وكان قوم هود ـــ أعنى عادا ـــ أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن كما تقدّم فى « الأعراف »(١) . ﴿ وَيَزِدْكُمْ ﴾ عطف على يرسل . ﴿ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ قال مجاهد : شدّة على شدّتكم . الضحاك : خصبا إلى خصبكم . على بن عيسى : عزّا على عزّكم . عِكرمة : ولدا إلى ولدكم . وقيـل : إن الله حبس عنهم المطر [وأعقم الأرحام](٢) ثلاث سـنين فلم يولد لهم ولد؛ فقال لهم هود : إن آمنتم أحيى الله بلادكم ورزقكم المـال والولد ؛ فتلك القـوّة . وقال الزجاج : المعـنى يزدكم قوّة فى النِّعم . ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ أى لا تعرضوا عما أدعوكم إليه ، وتقيموا على الكفر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أى حجة واضحة . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إصرارا منهم على الكفر .

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴾ أى أصابك . ﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا ﴾ أى أصنامنا . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ أى بجنون لسبّك إياها ، عن آبن عباس وغيره . يقال : عراه الأمر وآعتراه إذا ألَمّ به . ومنه « وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ »(٣) . ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ ﴾ أى على نفسى . ﴿ وَاشْهَدُوا ﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٦ . (٢) من ع و و . (٣) راجع جـ ١٢ ص ٤٧ .

Marfat.com

أى وأشهدكم؛ لا أنهم كانوا أهـل شهادة ، ولكنه نهـاية للتقرير؛ أى لتعرفوا ﴿ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أى من عبادة الأصنام التى تعبدونها . ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ أى أنتم وأوثانكم فى عداوتى وضرى . ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أى لا تؤخرون . وهذا القول مع كثرة الأعداء يدلّ على كمال الثقة بنصر الله تعالى . وهو من أعلام النبوة، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: « فَكِيدُونِي جَمِيعًا » . وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسـلم لقريش . وقال نوح صـلى الله عليه وسلم : « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ »(١) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أى رضيت بحكمه، ووثقت بنصره. ﴿ مَا مِن دَابَّةٍ ﴾ أى نفس تدب على الأرض؛ وهو فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أى يصرفها كيف يشاء، و يمنعها مما يشاء؛ أى فلا تصلون إلى ضرى . وكل ما فيه رُوح يقـال له دابّ ودابّة ؛ والهاء للمبالغة . وقال الفراء : مالكها ، والقادر عليهـا . وقال القتبي : قاهرها؛ لأن من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَه . وقال الضّحاك : يحييهـا ثم يميتها؛ والمعنى متقارب . والناصية قُصاص الشّعر فى مقدم الرأس . ونَصوتُ الرجل أَنصوه نَصْوًا أى مددت ناصيته . قال ابن جريج : إنمـا خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانا بالذلّة والخضوع؛ فيقولون . ما ناصية فلان إلا بيد فلان؛ أى إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزوا ناصيته ليعرفوا بذلك فخرا عليه؛ فخاطبهم بما يعرفونه فى كلامهم . وقال الترمذي الحكيم فى «نوادر الأصول» قوله تعالى: « مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » وجهه عندنا أن الله تعالى قدّر مقادير أعمال العباد ، ثم نظر إليها ، ثم خلق خلقه ، وقد نفذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون من قبـل أن يخلقهم، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة فى نواصيهم فذلك النور آخذ بنواصيهم ، يجريهم إلى أعمالهم المقدّرة عليهم يوم المقادير . وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سـنة " . ولهذا

---

(١) راجع ج ٨ ص ٣٦٢ .

Marfat.com

قويت الرسل وصاروا من أولى العـزم لأنهم لاحظوا نور النواصي ، وأيقنوا أن جميع خلقه منقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال، فأوفرهم حظا من الملاحظة أقواهم في العـزم ، ولذلك ما قوى هود النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال : « فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » . وإنما سمّيت ناصية لأن الأعمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوصة في المقادير، قد نفذ بصر الخالق في جميع حركات الخلق بقدرة ، ثم وضعت حركات كل من دبّ على الأرض حيا في جبهته بين عينيه، فسُمّى ذلك الموضع منه ناصية؛ لأنها تنص حركات العباد بمـا قدّر؛ فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعـالى إليها قبل أن يخلقها . ووصف ناصية أبي جهل فقال : « نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ »(1) يخبر أن النواصي فيها كاذبة خاطئـة ؛ فعلى سبيل ما تأولوه يستحيل أن تكون النـاصية منسوبة إلى الكذب والخطأ . [والله أعلم](2) . ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال النحاس : الصّراط في اللغـة المنهاج الواضح؛ والمعنى أن الله جلّ ثنـاؤه وإن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق . وقيل : معناه لا خَلل في تدبيره، ولا تفاوت في خلقه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ في موضع جزم؛ فلذلك حذفت منه النون، والأصل تتولوا، فحذفت التـاء لاجتماع تاءين . ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بمعنى قد بيّنت لكم . ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أي يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبـدونه . « وَيَسْتَخْلِفُ » مقطوع ممـا قبله فلذلك ارتفع؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله : « فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ » . وروى عن حفص عن عاصم « وَيَسْتَخْلِفْ » بالجزم حملا على موضع الفاء وما بعدها؛ مثل : « وَيَذَرْهُمْ(3) فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ أي بتوليكم وإعراضكم . ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي لكل شيء حافظ . « على » بمعنى اللام ؛ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء .

---

(1) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٤ . (2) من ع . (3) بالياء وسكون الراء قراءة . راجع جـ ٧ ص ٣٣٤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا بهلاك عاد . ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعـالى ، وإن كانت له أعمـال صالحة . وفى صحيح مسلم والبخارى وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وسلم "لن يُنجى أحدًا منكم عملُه" قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟! قال : "ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمة منه" . وقيل : معنى « بِرَحْمَةٍ مِنَّا » بأن بيّنا لهم الهدى الذى هو رحمة . وكانوا أربعة آلاف . وقيل : ثلاثة آلاف . ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى عذاب يوم القيامة . وقيل : هو الريح العقيم(١) كما ذكر الله فى «الذاريات» وغيرها وسيأتى . قال القُشيرى أبو نصر: والعذاب الذى يتوعد به النبى أمته إذا حضر ينجى الله منه النبى والمؤمنين معه؛ نعم! لا يبعد أن يبتلى الله نبيا وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصا للؤمنين، إذا لم يكن مما توعدهم النبى به .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ ابتداء وخبر . وحكى الكسائى أن من العرب من لا يصرف « عادا » فيجعله اسما للقبيلة . ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى كذّبوا بالمعجزات وأنكروها . ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ يعنى هودا وحده؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه . ونظيره قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ(٢) » يعنى النبى صلى الله عليه وسلم وحده؛ لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه؛ وإنما جمع هاهنا لأن من كذّب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل. وقيل : عصوا هودا والرسل قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أى اتبع سقّاطُهم(٣) رؤساءهم . والجبار المتكبر . والعنيد الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيد : العنيد والعَنود والعانِد والمعانِد المعارض بالخلاف، ومنه قيل للعرق الذى ينفجر بالدم عاند . وقال الراجز :

* إنّى كبيرٌ لا أطيقُ العُنَّدَا(٤) *

قوله تعـالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى أُلحقوها . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . أى وأتبعوا يوم القيامة مثل ذلك؛ فالتمام على قوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » . ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا

(١) راجع جـ ١٧ ص ٥٠ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٢٧ . (٣) فى ع : بنقاد .
(٤) صدر البيت : * إذا رحلت فاجعلونى وسطا *

Marfat.com

رَبَّهُمْ ﴾ قال الفـرّاء : أى كفروا نعمة ربهم؛ قال : و يقال كفرته وكَفَرت به ، مثل شكرته وشكرت له . ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أى لا زالوا مبعدين عن رحمة الله . والبعد الهلاك . والبُعد التّباعد من الخير. يقال: بَعُد يَبعُد بُعْدا إذا تأخر وتباعد. و بَعِد يبعَد بَعَدًا إذا هلك؛ قال:

لا يَبعَــدَنْ قومى الذين هُمُ * سُمُّ العُـدَاةِ وآفَةُ الجُـــزْرِ (١)

وقال النابغـــة :

فلا تَبعَدنْ إنّ المنية مَنهَلٌ * وكُلُّ آمرئ يومًا به الحالُ زائلُ

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أى أرسلنا إلى ثمود ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ أى فى النسب. ﴿ صَالِحًا ﴾ . وقرأ يحيى بن وثّاب « وَإِلَى ثَمُودٍ » بالتنوين فى كل القرآن ؛ وكذلك روى عن الحسن. وآختلف سائر القرّاء فيه فصرفوه فى موضع ولم يصرفوه فى موضع. وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف؛ إذ كان الأغلب عليه التأنيث. قال النحاس: الذى قال أبو عبيدة ــ رحمه الله ــ من أن الغالب عليه التأنيث كلام مردود؛ لأن ثمودا يقال له حىّ؛ و يقال له قبيلة، وليس الغالب عليــه القبيلة؛ بل الأمر على ضدّ ما قال عند سيبو يه . والأجود عند سيبو يه فيما لم يُقل فيــه بنو فلان الصَّرف ؛ نحو قريش وثقيف وما أشبههما، وكذلك ثمود، والعلة فى ذلك أنه لمـا كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى . والتأنيث جيــد بالغ حسن . وأنشد سيبويه (٢) فى التأنيث :

غَلَبَ المساميحَ الوليدُ سَمَـاحةً * وكَفَى قريشَ المعضِلاتِ وسادَها

(١) تقدم شرح البيت فى هامش جـ ٦ ص ١٤

(٢) البيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبــد الملك ؛ والشاهد فيه ترك صرف قريش حملا على معنى القبيلة ؛ والصرف فيها أكثر وأعرف لأنهم قصدوا بها قصد الحي ؛ وغلب ذلك عليها . (شواهد سيبويه) .

Marfat.com

الثـانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقـدّم . ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أى ابتدأ خلقكم من الأرض، وذلك أن آدم خلق من الأرض على ما تقدّم فى « البقرة »[١] و « الأنعام »[٢] وهم منه . وقيل : أنشأكم فى الأرض . ولا يجوز إدغام الهاء من « غيره » فى الهاء من « هو » إلا على لغة من حذف الواو فى الإدراج . ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أى جعلكم عُمّارها وسكّانها . قال مجاهد : ومعنى «ٱسْتَعْمَرَكُمْ» أعمركم من قوله : أَعْمَـر فلان فلانا داره؛ فهى له عُمْرى . وقال قَتَادة : أسكنكم فيها؛ وعلى هذين القولين تكون ٱستفعل بمعنى أفعل ؛ مثل ٱستجاب بمعنى أجاب . وقال الضّحاك : أطال أعماركم، وكانت أعمـارهم من ثلثمائة إلى ألف . ٱبن عباس : أعاشكم فيها . زيد بن أسلم : أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن ، وغرس أشجار . وقيل : المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثـالثـــة ــ قال ٱبن العربى: قال بعض علمـاء الشافعية : الاســتعمار طلب العمارة ، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب؛ قال القاضى أبو بكر : تأتى كلمة استفعل فى لسان العرب على معان: منها ؛ ٱستفعل بمعنى طلب الفعل كقوله : ٱستحملته أى طلبت منه حملانا؛ و بمعنى ٱعتقـد ، كقولهم : استسهلت هـذا الأمر ٱعتقدته سهلا ، أو وجدته سهـلا ، وٱستعظمته أى ٱعتقدته عظيما و وجدته ؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت ، كقولهم : ٱستجدته أى أصبته جيـدا[٣] : ومنهـا بمعنى فَعَـل ؛ كقوله : قرّ فى المكان وٱستقرّ ؛ وقالوا وقوله : « يَسْتَهْزِئُونَ » و « يَسْتَسْخِرُونَ » منه؛ فقوله تعـالى : « ٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » خلقكم لعمارتها ، لا على معنى استجدته وٱستسهلته ؛ أى أصبته جيدا وسهلا ، وهذا يستحيل فى الخالق ، فيرجع إلى أنه خلق ؛ لأنه الفائدة ، وقد يعبر عن الشىء بفائدته مجازا ؛ ولا يصح أن يقال : إنه طلب من الله تعالى لعمارتها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز فى حقه ، أما أنه يصح أن يقال : أنه ٱستدعى

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٨٧ فما بعد .
(٣) فى و : وجدته .

Marfat.com

عمارتها فإنه جاء بلفظ آستفعل ، وهو آستدعاء الفعـل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمرا ، وطلب للفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [رغبة][1] .

قلت : لم يذكر آستفعل بمعنى أفعل، مثل قوله : استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه[2]، وهي :

الرابعـــة — ويكون فيهـا دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في « البقرة »[2] في السُّكنى والرُّقبى . وأما العُمْرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال : أحدها — أنها تمليك لمنافع الرقبة حياةَ المُعْمَر مدة عمره، فإن لم يذكر عقبا فمات المعمر رجعت إلى الذي أعطاها أو لورثته، هذا قول القاسم بن محمد و يزيد بن قُسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد أقوال الشافعي، وقد تقدّم في «البقرة» حجة هذا القول . الثاني — أنها تمليك الرقبة ومنافعها وهي هبة مبتولة[3] ؛ وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثّوري والحسن ابن حيّ وأحمد بن حنبل وآبن شُبْرمة وأبي عُبيد ؛ قالوا : من أعمر رجلا شيئا حياته فهو له حياته ، و بعد وفاته لورثته ؛ لأنه قد ملك رقبتها ، وشرط المعطي الحياة والعمر باطل؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "العمرى جائزة" و"العمرى لمن وُهبت له". الثالث — إن قال عُمرك ولم يذكر العقب كان كالقول الأول : وإن قال لعقبك كان كالقول الثـاني ؛ و به قال الزهري وأبو ثور وأبو سلمة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب، وقد رُوي عن مالك؛ وهو ظاهر قوله في الموطأ . والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المُعْمِر ؛ إذا انقرض عقب المُعْمَر ؛ إن كان المُعمِر حيّا، وإلا فإلى من كان حيّا من ورثته، وأولى النـاس بميراثه . ولا يملك المُعْمَر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقبة شيء من الأشياء، وإنما يملك بلفظ العُمْرى المنفعة دون الرقبة . وقد قال مالك في الحبس أيضـا : إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليـه . وإن حبس على رجل بعينه حيـاته رجع إليه ، وكذلك العُمْرى قياسا، وهو ظاهر الموطأ . وفي صحيح مسـلم عن جابر بن عبـد الله أن رسول الله صلى الله

---

(١) الزيادة عن ابن العربي .				(٢) راجع جـ ١ ص ٢١٢ وص ٢٩٩

(٣) مبتولة : ماضية غير راجعة إلى الواهب، من بتله ، قطعه وأبانه .

Marfat.com

عليه وسلم قال : " أيّمـا رجلٍ أَعْمر رجلاً عُمْرى له ولعقبه فقال قد أعطيتُكها وعقِبَك ما بقى منكم أحد فإنها لمن أعطيها وأنها لا ترجـع إلى صاحبها من أجلِ أنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث" . وعنه قال : إن العمرى التى أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : هى لك ولعقبك ، فأما إذا قال : هى لك ما عِشتَ فإنها ترجع إلى صاحبها ، قال معْمَر : وبذلك كان الزهرىّ يفتى .

قلت : معنى القرآن يجرى مع أهل القول الثانى ؛ لأن الله سبحانه قال : « وَٱسْتَعْمَرَكُمْ » بمعنى أعمركم ؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح ، وبعد موته بالذكر الجميل والثناء الحسن ؛ وبالعكس الرجل الفاجر ؛ فالدنيا ظرف لهما حياة وموتا . وقد يقال : إن الثناء الحسن يجرى مجرى العقب . وفى التنزيل : « وَٱجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ »(١) أى ثناء حسنا . وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقال : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ »(٢) وقال : « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ »(٢) .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى ســلوه المغفرة من عبادة الأصنام . ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ أى ٱرجعوا إلى عبادته . ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ أى قريب الإجابة لمن دعاه . وقد مضى فى «البقرة»(٣) عند قوله : «فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ» القولُ فيه .

قوله تعـالى : قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٢ .　(٢) راجع جـ ١٥ ص ٨٩ وص ١١٢ .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ فما بعد .

Marfat.com

بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ
ٱلۡعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ (٦٧)
كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ (٦٨)

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ ﴾ أى كنا نرجو أن تكون فينا سيدا قبل هـذا ؛ أى قبل دعوتك النبوّة . وقيل : كان صالح يعيب آلهتهم و يشنؤها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجاؤنا منك . ﴿ أَتَنۡهَىٰنَآ ﴾ استفهام معناه الإنكار . ﴿ أَن نَّعۡبُدَ ﴾ أى عن أن نعبد . ﴿ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ فأن فى محل نصب بإسقاط حرف الجر . ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ ﴾ وفى سورة « إبراهيم » « وَإِنَّا »[(١)] والأصل وإننا ، فاستثقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة . ﴿ مِّمَّا تَدۡعُونَآ ﴾ الخطاب لصالح ، وفى سورة « إبراهيم » « تَدۡعُونَنَآ »[(١)] لأن الخطاب للرسل [صلوات الله وسلامه عليهم][(٢)] ﴿ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ من أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة . قال الهذلى[(٣)] :

كنتُ إذا أتوتُه من غَيْبِ * يَشُمُّ عِطْفِي ويَــبُزُّ ثَوْبِي[(٤)]
* كأنّمــا أربتُــه بِرَيْبِ *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ ﴾ تقدّم معناه فى قول نوح . ﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ ﴾ استفهام معناه النفى ؛ أى لاينصرنى منه إن عصيته أحد . ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴾ أى تضليل و إبعاد من الخير ؛ قاله الفرّاء .

(١) راجع ص ٣٤٤ من هذا الجزء . (٢) من ع .
(٣) هو خالد بن زهير الهذلى كما فى اللسان ؛ وصدر البيت الأوّل :
* يا قــوم مالى وأبا ذؤيب *
(٤) (يبز ثوبى) : يجذبه إليه .

Marfat.com

والتخسير لهم لا له صلى الله عليه وسلم ؛ كأنه قال : غير تخسير لكم لا لى . وقيل : المعنى ما تزيدوننى باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم؛ عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ نصب على الحال، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه فى «هَٰذِهِ» . وإنما قيل : ناقة الله؛ لأنه أخرجها لهم من جبل — على ما طلبوا — على أنهم يؤمنون . وقيـل : أخرجها من صخرة صمّاء منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاثبة[1]، فلما خرجت الناقة — على ما طلبـوا — قال لهم [نبيّ الله[2]] صالح : «هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً» . ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ﴾ أمر وجوابه، وحذفت النون من «فذروها» لأنه أمر . ولا يقال : وَذَرَ ولا وَاذِرٌ إلا شاذًا . وللنحو يين فيـه قولان ؛ قال سيبويه : استغنوا عنه بتَرَكَ . وقال غيره : لما كانت الواو ثقيلة وكان فى الكلام فعل بمعناه لا واو فيه ألغوه؛ قال أبو إسحق الزجّاج : ويجوز رفع «تأكل» على الحال والاستئناف . ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا ﴾ جزم بالنهى . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ قال الفرّاء : بعقر . ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهى . ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أى قريب من عقرها .

قوله تعـالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ إنما عقرها بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين . وقد تقدّم الكلام فى عقرها فى « الأعراف[3] . ويأتى أيضـا . ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا ﴾ أى قال لهم صـالح تمتعوا ؛ أى بنعم الله عزّ وجلّ قبل العـذاب . ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ أى فى بلدكم ، ولو أراد المـنزل لقال فى دوركم . وقيـل : أى يتمتع كل واحد منكم فى داره ومسكنه ؛ كقوله : « يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا[4] » أى كل واحد طفلا . وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميّت لا يتلذذ ولا يتمتع بشىء؛ فعقرت يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعـة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد . وإنمـا أقاموا ثلاثة أيام؛ لأن الفصيل رغا ثلاثا على ما تقـدّم فى « الأعراف » فاصفرّت ألوانهـم فى اليوم الأول ، ثم احمرّت فى الثـانى ، ثم اسودّت فى الثالث، وهلكوا فى الرابع؛ وقد تقدّم فى « الأعراف » .

(١) كذا فى و والطبرى، وفى التاج : كَاثِبة : كرمانة . وفى ك : الكاثبة . (٢) من ع .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٤٠ فما بعدها . (٤) راجع جـ ١٢ ص ١١ وص ٣٣٠ جـ ١٥

Marfat.com

الثانيـة — استدلّ علماؤنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يُجمع على إقامة أربع ليال قصر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة . وقد تقدّم فى « النساء »(١) ما للعلماء فى هذا .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أى غير كذب . وقيل : غير مكذوب فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ تقدّم . ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أى ونجيناهم من خزى يومئذ؛ أى من فضيحته وذلّته . وقيل : الواو زائدة؛ أى نجيناهم من خزى يومئذ . ولا يجوز زيادتها عند سيبويه وأهل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع « لما » و « حتى » لا غير . وقرأ نافع والكسائى « يَوْمَئِذٍ » بالنصب . الباقون بالكسر على إضافة « يوم » إلى « إذ » . وقال أبو حاتم : حدّثنا أبو زيد عن أبى عمرو أنه قرأ « وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ » أدغم الياء فى الياء، وأضاف، وكسر الميم فى « يومئذ » . قال النحاس : الذى يرويه النحويون — مثل سيبويه ومن قارَبه عن أبى عمرو فى مثل هذا — الإخفاء؛ فأما الإدغام فلا يجوز، لأنه يلتقى ساكنان، ولا يجوز كسر الزاى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ أى فى اليوم الرابع صِيح بهم فماتوا؛ وذكّر لأن الصّيحة والصِّياح واحد . قيل : صيحة جبريل . وقيل : صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شىء فى الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا . وقال هنا : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ » وقال فى « الأعراف » « فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ » وقد تقدّم بيانه هناك(٢) . وفى التفسير : أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم الأمر بغتة؟ ! قالوا : فما نصنع؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعُدَدهم، وكانوا فيما يقال اثنى عشر ألف قبيلة، فى كل قبيلة اثنا عشر ألف مقاتل، فوقفوا على الطرق والفجاج، زعموا يلاقون العذاب؛ فأوحى الله تعالى إلى الملَك الموكل بالشمس أن يعذبهم بحرّها،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٥٧ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٢

Marfat.com

فأدناها من رءوسهم فاشتوت أيديهم ، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش ، ومات كل ما كان معهم من البهائم . وجعل المـاء يتفور(١) من تلك العيون من غليانه حتى يبلغ السماء، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدة حره، فمـا زالوا كذلك ، وأوحى الله إلى ملك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيبا لهم إلى أن غربت الشمس، فصيح بهم فأهلكوا . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي ساقطين على وجوههم ، قـد لصقوا بالتراب كالطـير إذا جثمت . ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ هذه قصة لوط عليه السلام، وهو ابن عم إبراهيم عليـه السلام لحًّا(٢) ، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، و إبراهـيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه ، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافا . وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام؛ قاله ابن عبـاس . الضحّاك : كانوا تسعة . السّدي : أحد عشر ملكا على صورة الغلمان الحسان الوجوه ، ذوو وضاءة و جمال بارع . « بِالْبُشْرَىٰ » قيل : بالولد . وقيـل : بإهلاك قوم لوط . وقيـل : بشروه بأنهم رسـل الله عز وجل ، وأنه لا خوف عليه . ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ نصب بوقوع الفعل عليه ؛ كما تقول : قالوا خيرا . وهذا اختيار الطبري . وأما قوله : «سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ(٣)» فالثلاثة اسم غير [قول](٤) مقول . ولو رفعا جميعا

(١) في ع : يفور . (٢) أي لازق النسب منه . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٨٢ . (٤) من ع .

أو نصبا جميعا « قالوا سلاما قال سلام » جاز في العربية . وقيل : انتصب على المصدر . وقيل : « قالوا سلاما » أي فاتحوه بصواب من القول . كما قال : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا »(١) أي صوابا؛ فسلاما معنى قولهم لا لفظه؛ قال معناه ابن العربي واختاره . قال : ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبرا عن الملائكة : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ »(٢) « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ »(٣) . وقيل : دعوا له؛ والمعنى سلمت سلاما . ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ في رفعه وجهان : أحدهما — على إضمار مبتدأ أي هو سلام، وأمري سلام . والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية؛ فأضمر الخبر . وجاز سلام على التنكير لكثرة استعماله ، فحذف الألف واللام كما حذفت من لا هم في قولك اللهم . وقرئ « سِلْمٌ » قال الفراء : السّلم والسّلام بمعنى؛ مثل الحِلّ والحلال .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فيه أربع عشرة مسئلة(٤) :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ ﴾ « أن » بمعنى حتى ، قاله كبراء(٥) النحويين ؛ حكاه ابن العربي . التقدير : فما لبث حتى جاء . وقيل : « أن » في موضع نصب بسقوط حرف الجر؛ التقدير : فما لبث عن أن جاء؛ أي ما أبطأ عن مجيئه بعجل؛ فلما حذف حرف الجر بقي « أن » في محل النصب . وفي « لبث » ضمير اسم إبراهيم . و « ما » نافية ؛ قاله سيبويه . وقال الفراء : فما لبث مجيئه؛ أي ما أبطأ مجيئه ؛ فأن في موضع رفع ، ولا ضمير في « لبث » ، و « ما » نافية ؛ ويصح أن تكون « ما » بمعنى الذي ، وفي « لبث » ضمير إبراهيم و « أن جاء » خبر « ما » أي فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ . و ﴿ حَنِيذٍ ﴾ مشوي . وقيل : هو المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار . يقال : حنذت الشاة أحنذها حنذا أي شويتها، وجعلت فوقها حجارة مُحْمَاة لتنضجها فهي حنيذ . وحَنَذت الفرس أحنذه حَنْذا ، وهو أن تُحضره شوطا أو شوطين ثم تُظاهر عليه الجلال في الشمس ليعرَق ، فهو محنوذ وحنيذ؛ فإن لم يعرق قيل : كَبَا . وحَنَذٌ موضع قريب

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٦٧ . (٢) راجع ص ٣١٢ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد . (٤) كذا في الأصل والمسائل المذكورة هي في آية ٧٠ و ٧١ أيضا لا في هذه الآية فحسب . (٥) في ع : أكثر .

Marfat.com

من المدينة . وقيل : الحنيذ السميط . ابن عباس وغيره : حنيذ نضيج . وحنيذ بمعنى محنوذ؛ وإنما جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله .

الثانية — فى هذه الآية من أدب الضيف أن يعجّل قراه؛ فيقدّم الموجود الميسّر فى الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جِدَة، ولا يتكلف ما يضرّ به . والضيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين . وإبراهيم أوّل من أضاف على ما تقدّم فى « البقرة »[2] وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الضّيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة فما كان وراء ذلك فهو صدقة " . والجائزة العطية والصلة التى أصلها على الندب . وقال صلى الله عليه وسلم : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " . وإكرام الجار ليس بواجب إجماعا، فالضيافة مثله . والله أعلم . وذهب الليث إلى وجوبها تمسكا بقوله صلى الله عليه وسلم : "ليلة الضيف حق" إلى غير ذلك من الأحاديث . وفيما أشرنا إليه كفاية، والله الموفق للهداية . قال ابن العربى : وقد قال قوم : إن وجوب الضِّيافة كان فى صدر الإسلام ثم نسخ، وهذا ضعيف؛ فإن الوجوب لم يثبت، والناسخ لم يرد؛ وذكر حديث أبى سعيد الخدرى خرجه الأئمة ، وفيه : « فآستضفناهم فأبوا أن يُضيِّفونا فلُدغ سيّد ذلك الحىّ» الحديث . وقال: هذا ظاهر فى أن الضيافة لو كانت حقا للاَمَ النبىّ صلى الله عليه وسلم القوم الذين أبوا، ولَبيّن لهم ذلك .

الثالثة — اختلف العلماء فيمن يخاطب بها ؛ فذهب الشافعى ومحمد بن عبد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية . وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة . قال سُحْنون[3] : إنما الضيافة على أهل القُرى، وأما الحضر فالفُنْدق ينزل فيه المسافر [حكى اللغتين صاحب العين وغيره] . واحتجوا بحديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الضّيافة على أهل الوَبَر وليست على أهل المَدَر" . وهذا حديث لا يصح، وإبراهيم ابن أخى

(١) وحنيذ موضع قريب من مكة أيضا . (٢) راجع جـ ٢ ص ٩٨ . (٣) من ر، فليتأمل .

Marfat.com

عبد الرزاق متروك الحديث منسوب إلى الكذب، وهذا مما انفرد به، ونسب إلى وضعه؛ قاله أبو عمر بن عبد البر. قال ابن العربي: الضيافة حقيقة فرض على الكفاية، ومن الناس من قال: إنها واجبة في القرى حيث لا طعام ولا مأوى، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأْوَاة والأقوات؛ ولا شك أن الضَّيف كريم، والضيافة كرامة؛ فإن كان غريبا فهي فريضة.

الرابعـــة — قال ابن العربي قال بعض علمائنا: كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب، وهذا حكم بالظن في موضع القطع، وبالقياس في موضع النقل؛ من أين علِم أنه قليل؟! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل صلى الله عليهم وسلم؛ وعجل لثلاثة عظيم؛ فما هذا التفسير لكتاب الله بالرأي؟! هذا بأمانةِ الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه.

الخامســـة — السنة إذا قُدِّم للضَّيف الطعام أن يبادر المقدَّم إليه بالأكل؛ فإن كرامة الضَّيف تعجيل التقديم، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول؛ فلما قبضوا أيديهم نكرهم إبراهيم؛ لأنهم خرجوا عن العادة، وخالفوا السنة، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه. وروى أنهم كانوا يَنكُتون بقِداح(١) كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم، فلما رأى ذلك منهم ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أضمر. وقيل: أحس؛ والوجوس الدخول؛ قال الشاعر:

جاء البريدُ بقرطاسٍ يَخُبُّ به　*　فأوجسَ القلبُ من قرطاسه جَزَعَا

«خِيفَةً» خوفا؛ أي فزعا. وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرا؛ فقالت الملائكة ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

السادســـة — من أدب الطعام أن لصاحب الضَّيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة(٢) لا بتحديد النظر. روى أن أعرابيا أكل مع

(١) قداح (جمع قدح بالكسر) السهم قبل أن ينصل ويراش.　　(٢) في ع: أو مسارقة.

Marfat.com

سليمان بن عبد الملك ، فرأى سليمان فى لقمة الأعرابى شعرة فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك ؛ فقال له : أتنظر إلى نظر من يرى الشّعرة فى لقمتى ؟ ! والله لا أكلت معك .

قلت : وقد ذُكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان ، وأن الأعرابى خرج من عنده وهو يقول :

وللَـوتُ خيرٌ من [زيارة](١) باخل * يُلاحظُ أطرافَ الأَكيلِ على عَمْـدِ

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول : أنكرهم ؛ تقول : نَكِرتك [وأنكرتك](٢) واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته ؛ قال الشاعر(٣) :

وأنكرتنى وما كانـ الذى نَكِرتْ * من الحوادث إلا الشّيبَ والصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين . ويقال : نكرت لمـا تراه بعينك . وأنكرت لمـا تراه بقلبك .

الثامنــــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ ٱبتداء وخبر ، أى قائمة بحيث ترى الملائكة . قيـل : كانت من وراء الستر . وقيل : كانت تخـدم الملائكة وهو جالس . وقال محمـد ٱبن إسحق : قائمة تصلى . وفى قراءة عبد الله بن مسعود « وٱمرأته قائمة وهو قاعد » .

التاســـعة — قوله تعـالى : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة : حاضت ، وكانت آيسة ؛ تحقيقا للبشارة ؛ وأنشد على ذلك اللغويون :

وإنى لآتى العِرسَ عند طُهورها * وأهجـــرُها يومًا إذا تَكُ ضاحِكَا

وقال آخـــر :

وضِحْـكُ الأرانبِ فوق الصَّفَا * كمثـلِ دمِ الجوفِ يوم اللِّقَـا

والعرب تقول : ضحكت الأرنب إذا حاضت ؛ وروى عن ٱبن عباس رضى الله عنهما وعكرمة ؛ أخذ من قولهم : ضحكت الكافورة — وهى قشرة الطلعة — إذا انشقّت . وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العـرب ضحكت بمعنى حاضت . وقال الجمهور : هو الضحك المعروف ، واختلفوا فيه ؛ فقيل : هو ضحك التعجّب ؛ قال أبو ذؤيب :

(١) كذا فى ع ى وفى العقد الفريد ، وفى ك : ضيافة . (٢) من ا وع وك وى . (٣) البيت للأعشى .

Marfat.com

فجاءَ بمزجٍ لم يَرَ النَّاسُ مثلَه * هو الضَّحْكُ[1] إلا أنه عمل النَّحْلِ

وقال مقاتل : ضحكت من خوف إبراهيم، ورِعدته من ثلاثة نفر، وإبراهيم في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوم وحده بمائة رجل . قال : وليس الضحك الحيض في اللغة بمستقيم . وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك؛ قال الفراء : لم أسمعه من ثقة؛ وإنما هو كناية . وروى أن الملائكة مسحت العجل، فقام من موضعه فلحق بأمه ، فضحكت سارة عند ذلك فبشّروها بإسحق . ويقال : كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم، فذلك قوله : « وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ » أي قائمة في خدمتهم . ويقال : « قَائِمَةٌ » لروع إبراهيم « فَضَحِكَتْ » لقولهم : « لَا تَخَفْ » سرورا بالأمن . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير؛ المعنى : فبشرناها بإسحق فضحكت، أي ضحكت سرورا بالولد، وقد هرِمت؛ والله أعلم أيّ ذلك كان . قال النحاس فيه أقوال : أحسنها — أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم؛ فلما قالوا لا تخف، وأخبروه أنهم رُسُل [الله][2] ، فرح بذلك، فضحكت آمرأته سرورا بفرحه . وقيل : إنها كانت قالت له : أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فضم لوطا إليك، فلما جاءت الرسل بما قالته سرّت به فضحكت؛ قال النحاس : وهذا إن صح إسناده فهو حسن . والضحك آنكشاف الأسنان . ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه؛ تقول : رأيت فلانا ضاحكا؛ أي مشرقا . وأتيت على رَوْضة تضحك؛ أي مشرقة . وفي الحديث "إن الله سبحانه يبعث السّحاب فيضحك أحسن الضَّحك"[2] . جعل آنجلاءه عن البرق ضَحِكا؛ وهذا كلام مستعار . وروى عن رجل من قرّاء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي . «فَضَحَكت» بفتح الحاء؛ قال المهدوي : وفتح «الحاء» من « فضحكت » غير معروف . وضَحِك يضحَك ضَحْكا وضِحكا وضِحِكا [وضَحِكا][2] أربع لغات . والضَّحْكة المرّة الواحدة، ومنه قول كُثيّر :

* غَلِقت لضَحكتِه رقابُ المـالِ[3] *

قاله الجوهري :

(١) وفسر الضحك هنا بالعسل أو الشهد . راجع اللسان مادة (ضحك) . (٢) من ع .

(٣) صدر البيت : * غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا *

Marfat.com

العــاشرة — روى مسلم عن سهل بن ســعد قال : دعا أبو أسَيْد الساعدىّ رسول الله صلى الله عليه وســلم فى عُرْسه ، فكانت آمرأته يومئذ خادمهم وهى العَروس . قال سهل : أتدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أنقعت له تمراتٍ من الليـل فى تَوْر (١)، فلما أكل سقته إياه . وأخرجه البخارى وترجم له «باب قيام المرأة على الرجال فى العُرْس وخدمتهم بالنفس» . قال علماؤنا : فيه جواز خدمة العَروس زوجها وأصحابه فى عُرْسها . وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهــله على صالح إخوانه ، ويستخدمهنّ (٢) لهم . ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب . والله أعلم .

الحــادية عشرة — ذكر الطبرىّ أن إبراهيم عليه السلام لمـا قدّم العجل قالوا : لا نأكل طعاما إلا بثمن ؛ فقال لهم : « ثمنه أن تذكروا الله فى أوله وتحمدوه فى آخره » فقــال جبريل لأصحابه : بحق آتخذ الله هذا خليلا . قال علماؤنا : ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل . وقد كان من الجائز كما يَسَّر الله للملائكة أن يتشكّلوا فى صفة الآدمى جســدا وهيئة أن ييسر لهم أكل الطعام ؛ إلا أنه فى قول العلماء أرسلهم فى صفة الآدمى وتكلّف إبراهيم عليــه السلام الضّيافة [حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى بغتة (٣)] .

الثانيــة عشرة — ودلّ هذا على أن التسمية فى أوّل الطعام، والحمد فى آخره مشروع فى الأمم قبلنا ؛ وقد جاء فى الإسرائيليات أن إبراهيم عليه الســلام كان لا يأكل وحده ؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معــه ، فلقى يوما رجلا ، فلما جلس معه على الطعام ، قال له إبراهيم : سمّ آلله ، قال الرجل لا أدرى ما آلله؟ فقال له : فاخرج عن طعامى ، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له : يقــول الله إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة ؛ فخرج إبراهيم فزعا يجرّ رداءه ، وقال : آرجع ، فقال : لا أرجع حتى تخبرنى لم تردّنى لغير معنى ؟ فأخبره بالأمر ؛ فقال : هذا رب كريم ، آمنت ؛ ودخل وسمّى الله وأكل مؤمنا (٤) .

(١) التور : إناء تشرب فيه العرب ، وقد يتوضأ منه ، و يصنع من صفر أو حجارة .
(٢) فى ع : يستخدمها . (٣) الزيادة عن ابن العربى . (٤) فى ع : متمتعا .

Marfat.com

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ لما ولد لإبراهيم إسمعيل من هاجر تمنت سارة أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبيا و يلد نبيا، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ قرأ حمزة وعبد الله ابن عامر « يعقوبَ » بالنصب . ورفع الباقون ؛ فالرفع على معنى : ويحدث لها من وراء إسحاق يعقوبُ . ويجوز أن يرتفع بالفعل الذى يعمل فى « من » كأن المعنى : وثبت لها من وراء إسحق يعقوبُ . ويجوز ان يرتفع بالابتداء ، ويكون فى موضع الحال ؛ أى بشّروها بإسحاق مقابلا له يعقوب . والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوبَ . وأجاز الكسائىّ والأخفش وأبو حاتم أن يكون « يعقوب » فى موضع جرّ على معنى : وبشرناها من وراء إسحاق بيعقوب . قال الفراء : ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض ؛ قال سيبويه ولو قلت : مررت بزيد أوّل من أمس وأمس عمرٍو(١) كان قبيحا [خبيثا](٢)؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو ، كما تفرق بين الجار والمجرور ؛ لأن الجار لا يفصل بينه و بين المجرور ، ولا بينه وبين الواو .

قوله تعالى : قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ قال الزجاج : أصلها يا ويلتى ؛ فأبدل من الياء ألف ، لأنها أخفّ من الياء والكسرة ؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تخفّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه ؛ وعجبت من ولادتها [ومن](٣) كون بعلها شيخا لخروجه عن العادة ، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر . و ﴿ أَأَلِدُ ﴾ استفهام معناه التعجب . ﴿ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ أى شيخة . ولقد عَجَزت تَعجِزُ عَجْزا وعَجَّزت تعجيزا ؛ أى طعنت فى السنّ .

(١) والوجه عنده (وأمس بعمرو) .	(٢) كذا فى أ و ك وع و و و ى .	(٣) من ع .

Marfat.com

وقد يقال : عجوزة أيضا . وعجزت المرأة بكسر الجيم؛ عظمت عجيزتها عُجزا وعَجزا بضم العين وفتحها . قال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحاق : كانت بنت تسعين [سنة](١) . وقيل غير هذا .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي ﴾ أى زوجى . ﴿ شَيْخًا ﴾ نصب على الحال ، والعامل فيـه التنبيه أو الإشارة . « وَهَٰذَا بَعْلِي » ابتداء وخبر . وقال الأخفش : وفى قراءة ابن مسعود وأُبىّ « وهذا بعلى شيخ » قال النحاس : كما تقول هذا زيد قائم؛ فزيد بدل من هذا، وقائم خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « هذا » مبتدأ « وزيد قائم » خبرين؛ وحكى سيبويه : هذا حلوٌ حامضٌ . وقيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة فكان يزيد عليها فى قول مجاهد سنة . وقيل : إنها عرضت بقولها : « وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا » أى عن ترك غشيانه لهـا . وسارّة هذه امرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحـور بن شاروع بن أرغو بن فالغ، وهى بنت عم إبراهـيم . ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أى الذى بشرتمـونى به لشى عجيب .

قوله تعـالى : قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ لمـا قالت : « وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا » وتعجبت، أنكرت الملائكة عليها تعجّبها من أمر الله ، أى من قضائه وقدره ، أى لا عجب من أن يرزقكما الله الولد ، وهو إسحاق . وبهذه الآية استدلّ كثير من العلمـاء على أن الذّبيح إسمعيل، وأنه أسنّ من إسحاق؛ لأنها بشّرت بأن إسحاق يعيش حتى يولد له يعقوب . وسيأتى الكلام فى هذا ؛ وبيانه فى « الصافات »(٢) إن شاء الله تعالى .

(١) من ع .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٩٨ فما بعد .

Marfat.com

الثانية — قوله تعالى: ﴿ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ . وحكى سيبويه «عليكِم» بكسر الكاف لمجاورتها الياء . وهل هو خبر أو دعاء ؟ وكونه إخبارا أشرف؛ لأن ذلك يقتضى حصول الرحمة والبركة لهم ، المعنى : أوصل الله لكم رحمته و بركاته أهل البيت . وكونه دعاء إنما يقتضى أنه أمر يُترجّى ولم يتحصّل بعد . ونصب ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ على الاختصاص؛ وهذا مذهب سيبويه . وقيل : على النداء .

الثالثة — هذه الآية تعطى أن زوجة الرجل من أهل البيت؛ فدلّ هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت؛ فعائشة رضى الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم؛ ممن قال الله فيهم : « وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »(١) وسيأتى .

الرابعة — ودلّت الآية أيضا على أنّ منتهى السلام «وَبَرَكَاتُهُ» كما أخبر الله عن صالحى عباده « رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » . والبركة النمو والزيادة ؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسارة . وروى مالك عن وهب بن كَيْسان أبى نعيم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : كنت جالسا عند عبد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ؛ ثم زاد شيئا مع ذلك؛ فقال ابن عباس — وهو يومئذ قد ذهب بصره — مَن هذا ؟ فقالوا اليمانىّ الذى يغشاك ، فعرّفوه إياه، فقال : إن السلام انتهى إلى البركة . ورُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : دخلت المسجد فإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسلم فى عصبة من أصحابه، فقلت : السلام عليكم؛ فقال : "وعليك السلام ورحمة الله عشرون لى وعشرة لك" . قال : ودخلت الثانية؛ فقلت : السلام عليكم ورحمة الله فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وعشرون لك". فدخلت الثالثة فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وثلاثون لك أنا وأنت فى السلام سواء . ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أى محمود ماجد . وقد بيناهما فى « الأسماء الحسنى » .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٧٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أى الخوف؛ يقال : ارتاع من كذا إذا خاف؛ قال النابغة :

فارتاعَ من صَوْتِ كَلّابٍ[1] فبـاتَ لهُ * طوعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ

﴿ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ﴾ أى بإسحق ويعقوب . وقال قَتَادة : بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط، وأنه لا يخاف . ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ أى يجادل رسلنا؛ وأضافه إلى نفسه، لأنهم نزلوا بأمره . وهذه المجادلة رواها حُميد بن هلال عن جُنْدب عن حُذَيفة؛ وذلك أنهم لما قالوا : « إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ»[2] قال لهم : أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا : لا . قال : فأربعون ؟ قالوا : لا . قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا قال : فعشرون ؟ قالوا : لا . قال : فإن كان فيها عشرة — أو خمسة شك حميد — قالوا : لا . قال قَتَادة : نحوا منه؛ قال فقال يعنى ابراهيم : قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم . وقيل إن إبراهيم قال : أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فقال ابراهيم عند ذلك : « إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ» . وقال عبد الرحمن بن سَمُرة : كانوا أربعمائة ألف . ابن جُرَيج . وكان فى قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف . ومذهب الأخفش والكسائى أن « يجادلنا » فى موضع « جادلنا » . قال النحاس : لما كان جواب « لمّا » يجب أن يكون بالماضى جعل المستقبل مكانه ؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضى مكانه . وفيه جواب آخر — أن يكون « يجادلنا » فى موضع الحال؛ أى أقبل يجادلنا؛ وهذا قول الفرّاء . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

(١) الكلاب : صاحب الكلاب . يصف الشاعر ثورا وحشيا بأنه بات من الخوف الذى أدركه ، والبرد الذى أصابه مبيت سوء، ومبيته على ذلك الحال يسر أعداءه .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٤١ فما بعد .

Marfat.com

أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ تقدم فى « براءة » معنى « لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »(١) . والمنيب الراجع ؛ يقال : أناب إذا رجع . وإبراهيم صلى الله عليه وسلم كان راجعا إلى الله تعالى فى أموره كلها . وقيل : الأوّاه المتأوه أسفا على ما قد فات قوم لوط من الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أى دع عنك الجدال فى قوم لوط . ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أى عذابه لهم . ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ ﴾ أى نازل بهم . ﴿ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أى غير مصروف عنهم ولا مدفوع .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط — وهما تستقيان — بالملائكة

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٤ .

Marfat.com

ورأتا هيئة حسنة ، فقالتا : ما شأنكم ؟ ومن أين أقبلتم ؟ قالوا : من موضع كذا نريد هذه القرية قالتا : فإن أهلها أصحاب الفواحش ، فقالوا : أبها من يضيفنا ؟ قالتا : نعم ! هذا الشيخ وأشارتا إلى لوط ، فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم . ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي ساءه مجيئهم ؛ يقال : ساء يسوء فهو لازم ، وساءه يسوءه فهو متعدّ أيضا ، وإن شئت ضممت السين ؛ لأن أصلها الضمّ ، والأصل سُوِئَ بهم من السوء ، قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء ، وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت : «سِيَ بِهِم» مخففا ، ولغة شاذة بالتشديد . ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم وكرهه . وقيل : ضاق وسعه وطاقته . وأصله أن يَذْرَع البعير بيديه في سيره ذَرْعا على قدر سعة خَطْوِه ؛ فإذا حُمِل على أكثر من طَوْقه ضاق عن ذلك ، وضعف ومدّ عنقه ؛ فضيق الذّرع عبارة عن ضيق الوُسع . وقيل : هو من ذَرَعه القيء أي غلبه ؛ أي ضاق عن حبسه المكروه في نفسه ، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم ، وما يعلم من فسق قومه . ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي شديد في الشر . وقال الشاعر :

وإنّكَ إلّا تُرضِ بكرَ بن وائلٍ * يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصيبُ

وقال آخـــر :

يومٌ عصيبٌ يَعصِبُ الأبطالَا * عَصْبَ القَـوِيّ السَّلَمَ الطّوالَا

ويقال : عصيبٌ وعَصَبْصَبٌ على التكثير ؛ أي مكروه مجتمع الشر وقد عصب ؛ أي عصب بالشر عصابة ؛ ومنه قيل : عُصبة وعِصابة أي مجتمعوا الكلمة ؛ أي مجتمعون في أنفسهم . وعَصَبة الرجل المجتمعون معه في النسب ؛ وتعصّبت لفلان صرت كعصبته ، ورجل معصوب[(١)] ، أي مجتمع الخَلْق .

قوله تعالى : ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في موضع الحال . «يُهْرَعُونَ» أي يسرعون . قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة : لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رِعدة ؛ يقال : أُهْرِع الرجل إهراعا أي أسرع في رِعدة من بَرْد أو غضب أو حُمّى ، وهو مُهْرَع ؛ قال مُهلهِل :

---

(١) في مفردات الراغب : ومعصوب الخلق أي مدمج الخلقة .

Marfat.com

فجــاءوا يُهرَعون وهُمْ أسارَى * تقودُهم على رَغْـــمِ الأنوف

وقال آخـــر :

* بمعجّلاتٍ نحـوه مَهارِع *

وهذا مثـل : أُولِـع فلان بالأمر ، وأُرعِد زيد ، وزُهِي فلان . وتجىء ولا تدعـل إلا على هذا الوجه . وقيل : أهرِع أى أهرعه حِرصُه؛ وعلى هذا « يُهْرَعُونَ » أى يُستحثّون عليه . ومن قال بالأول قال : لم يســمع إلا أُهْرِع الرجلُ أى أسرع ؛ على لفظ ما لم يسمّ فاعله . قال ابن القوطيّــة : هُرِع الإنســان هَرَعا ، وأُهرِع : سِـيق واستعجل . وقال الهروىّ يقــال : هُرِع الرجلُ وأُهرِع أى آستُحِثّ . قال ابن عباس وقتادة والسّــدّى : « يُهرعون » يهرولون . الضحاك : يَسعون . ابن عُيينة : كأنهم يدفعون . وقال شِمر بن عطية : هو مشى بين الهرولة والجمَزَى . وقال الحسن : مشيٌ بين مشيين؛ والمعنى متقارب . وكان سبب إسراعهم ما روى أن آمرأة لوط الكافرة ، لمــا رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها، فقالت لهم : إن لوطا قد أضاف الليلة فِتية ما رؤى مثلهم جمالا ؛ وكذا وكذا ؛ فحينئذ جاءوا يُهرعون إليه . ويذكر أن الرسل لمــا وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطا فى حرث له . وقيل: وجدوا ابنتــه تستق ماء من نهر سَدوم ؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم : مكانكم ! وذهبت إلى أبيها فأخبرته؛ فخرج إليهم ؛ فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة؛ فقال لهم : أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا : وما عملهم؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم فى الأرض — وقد كان الله عزّ وجل قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهــم أربع شهادات — فلما قال لوط هذه المقالة، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردّد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، ثم دخل بهم المدينة .

قوله تعــالى : ﴿ وَمِنْ قَبْــلُ ﴾ أى ومن قبل مجىء الرسل . وقيل : من قبــل لوط . ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي كانت عادتهم إتيــان الرجال . فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا

Marfat.com

أضيافه قام إليهم لوط مدافعا، وقال : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي ﴾ ابتداء وخبر . وقد اختلف فى قوله : « هَٰٓؤُلَآءِ بَنَـاتِي » فقيل : كان له ثلاث بنات من صُلبه . وقيل : بنتان ؛ زيتا (١) وزعوراء ؛ فقيل : كان لهم سيّدان مطاعـ ـأراد أن يزوجهما آبنتيه . وقيل : ندبهم فى هـذه الحالة إلى النكاح ، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة ؛ وقد كان هذا فى أول الإسلام جائزا ثم نسـخ ؛ فزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنتا له من عُتْبَة بن أبى لهب ، والأخرى من أبى العاص بن الربيع قبل الوحى، وكانا كافرين . وقالت فرقة — منهم مجاهد وسعيد بن جُبير — أشار بقوله : « بَنَاتِي » إلى النساء جملة ؛ إذ نبىّ القوم أب لهم ؛ ويقوّى هذا أن فى قراءة ابن مسعود . « النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِـينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وهو أب لهم » . وقالت طائفة : إنمـا كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه ؛ روى هـذا القول عن أبى عبيدة ؛ كما يقال لمن يُنهى عن أكل مال الغير : الخنزير أحل لك من هذا . وقال عِكرمة : لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته ، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا .

قوله تعـالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ آبتـداء وخبر ؛ أى أزوّجكموهنّ ؛ فهو أطهـر لكم مما تريدون، أى أحلّ . والتطهر التنزّه عما لا يحل . وقال آبن عباس : كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم ، وأراد ذلك اليوم أن يفدى أضيافه ببناته . وليس ألِف « أطهر » للتفضيل حتى يتوهم أن فى نكاح [الرجال] (٢) طهارة، بل هو كقولك : الله أكبر وأعلى وأجلّ، وإن لم يكن تفضيلا ؛ وهذا جائز شائع (٣) فى كلام العرب؛ ولم يكابر الله تعالى أحدٌ حتى يكون الله تعالى أكبر منه . وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أُحد : آعْلُ هُبَلُ آعْلُ هُبَلُ (٤) ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر : " قل الله أعلى وأجلّ ". وهبل لم يكن قط عاليا ولا جليلا . وقرأ العامة برفع الراء . وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو « هُنَّ أطهرَ » بالنصب على الحـال . و « هُنَّ » عِماد . ولا يجيز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون « هُنّ » هاهنا عمادا، وإنما يكون عمادا فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك، لتدلّ بها على أن الأخ ليس بنعت .

(١) كذا فى الأصول والألوسى، وفى الطبرى : رِثيا .
(٢) فى الأصل (النساء) وهو تحريف .
(٣) فى ع : سائغ .
(٤) أى أظهر دينك .

Marfat.com

قال الزجاج : ويدل بها على أن كان تحتاج إلى خبر . وقال غيره : يدل بها على أن الخبر معرفة أو ما قاربها .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أى لا تهينونى ولا تذلونى . ومنه قول حسان :

فأخزاك ربى ياعتيبَ بن مالك * ولقاكَ قبل الموت إحدى الصّواعقِ

مددتَ يمينًا للنبى تعمُّدًا * ودَمَّيتَ فاهُ قُطِّعتْ بالبَوارق

ويجوز أن يكون من الخَزاية، وهو الحياء، والخجل ؛ قال ذو الرُّمّة :

خزايةً(1) أدركته بعد جولتِهِ * من جانب الحبلِ مخلوطا بها الغضب

وقال آخر :

من البيض لا تَخزَى إذا الريحُ ألصقتْ * بها مِرْطَها أو زايلَ الحَلْىُ جِيدَها

وضيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد؛ لأنه فى الأصل مصدر؛ قال الشاعر :

لا تَعدَمى الدهرَ شِفارَ الجازِرِ * لِلضّيفِ والضيفُ أحقّ زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع؛ والأول أكثر كقولك : رجالٌ صَوْمٌ وفِطر وزَوْر . وخزى الرجلُ خَزايةً؛ أى استحيا مثل ذلّ وهان . وخَزِى خِزيًا إذا افتضح؛ يَخزَى فيهما جميعا . ثم وبخهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ أى شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وقيل : «رشيد» أى ذو رَشَد . أو بمعنى راشد أو مرشِد، أى صالح أو مصلِح. ابن عباس : مؤمن . أبو مالك : ناه عن المنكر . وقيل : الرشيد بمعنى الرّشَد ؛ والرُّشد والرّشاد الهدى والاستقامة . ويجوز أى يكون بمعنى المرشد؛ كالحكيم بمعنى المحكِم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ روى أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم، وكانت سنتهم أن من ردّ فى خِطبة امرأة لم تحل له أبدا ؛ فذلك قوله تعالى :

(1) (خزاية) أى من الخزاية . والحبل هو حبل الرمل . والكلام فى وصف ثور وحشى تطارده الكلاب . وقبله :

حتى إذا دوّمت فى الأرض راجعه * كبر ولو شاء نجى نفسه الهرب

يعنى أن الثور أنف من الهرب فرجع إلى الكلاب .

Marfat.com

« قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ » وبعد ألّا تكون هذه الخاصيّة . فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق ، ولا هنّ قصدنا ، ولا لنا عادة نطلب ذلك . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ إشارة إلى الأضياف .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ لمـا رأى استمرارهم فى غيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عونا على ردهم؛ فقال على جهة التفجع والاستكانة : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً » أى أنصارا وأعوانا . وقال ابن عباس : أراد الولد . و « أنّ » فى موضع رفع بفعل مضمر، تقديره : لو اتفق أو وقع . وهذا يطرد فى « أن » التابعة لِ « لو » . وجواب «لو» محذوف؛ أى لرددت أهل الفساد، وحلت بينهم و بين ما يريدون . ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أى ألجأ وأنضوى . وقرئ « أو آوِيَ » بالنصب عطفا على « قوة » كأنه قال : « لو أن لى بكم قوة »أو إيواء إلى ركن شديد؛ أى وأن آوى ، فهو منصوب بإضمار «أن» . ومراد لوط بالركن العشيرة، والمنعة بالكثرة . و بلغ بهم قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى؛ فيروى أن الملائكة وَجَدت عليه حين قال هذه الكلمات، وقالوا : إن ركنك لشديد. وفى البخارى عن أبى هُريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد" الحديث؛ وقد تقدّم (1) فى « البقرة » . وخرجه الترمذيّ وزاد "ما بعث الله بعده نبيّا إلا فى ثروة من قومه" . قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمنعة؛ حديث حسن . ويروى أن لوطا عليه السلام لمـا غلبه قومه ، وهمّوا بكسر الباب وهو يمسكه ، قالت له الرسـل : تنحّ عن الباب ؛ فتنحّى وانفتح الباب ؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعَمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ » (2) . وقال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط بابه والملائكة معه فى الدار، وهو يناظر قومه و يناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما لقى من الجهد والكرب والنّصب بسببهم، قالوا : يا لوط إن ركنك لشديد، وأنهم آتيهم عذاب غير مردود،

---

(1) راجع ج ٢ ص ٢٩٨ . (2) راجع ج ١٧ ص ١٤٣ .

Marfat.com

وإنا رسل ربك ؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم ؛ ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما تقدّم . وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم ، فأوصل الله إلى عين مَن بَعُد ومَن قَرُب من ذلك التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ، ولا آهتدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! فإن في بيت لوط قوما هم أسحر من على وجه الأرض ، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا . وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى ؛ يتوعدونه .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ لما رأت الملائكة حزنه وآضطرابه ومدافعته عرّفوه بأنفسهم ، فلما علم أنهم رسلٌ مكّن قومه من الدخول ، فأمرّ جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فجفّت . ﴿ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ أي بمكروه ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ قرئ « فاسر » بوصل الألف وقطعها ؛ لغتان فصيحتان . قال الله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ »(١) وقال : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى »(٢) وقال النابغة : فجمع بين اللغتين :

أَسْرَتْ(٣) عليه من الجوزاء ساريةٌ * تُزجي الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ

وقال آخر :

حَيِّ النَّضيرةَ ربَّةَ الخِدْرِ * أَسْرتْ إليكَ ولم تكنْ تَسْري

وقد قيل : « فَأَسْرِ » بالقطع إذا سار من أول الليل ، وسرى إذا سار من آخره ؛ ولا يقال في النهار إلا سار . وقال لبيد :

إذا المرءُ أَسْرَى ليلةً ظَنَّ أنَّهُ * قَضَى عمَلًا والمرءُ ما عاش عاملُ

وقال عبد الله بن رَوَاحَة :

عند الصَّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى * وتَنْجَلي عنهم غَيَاباتُ الكَرَى

﴿ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال آبن عباس : بطائفة من الليل . الضّحاك : ببقية من الليل . قَتَادة : بعد مضى صدر من الليل . الأخفش : بعد جنح من الليل . آبن الأعرابي : بساعة من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هدء من الليل . وقيل : هزيع

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٤٢ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٤ .

(٣) ويروى (سرت) . يقول : إن السحابة سرت في الجوزاء : فلذلك شبهها بالجوزاء .

Marfat.com

من الليل . وكلها متقاربة ؛ وقيـل : إنه نصف الليـل ؛ مأخوذ من قطعه نصفين ؛ ومنه قول الشاعر[(١)] :

ونائحــةٍ تنوحُ بِقطعِ ليـلٍ * على رجلٍ بقارعةِ الصـعيد

فإن قيل : السُّرى لا يكون إلا بالليل، فما معنى « بقطع من الليل » ؟ فالجواب : أنه لو لم يقل : « بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْـلِ » جاز أن يكون أوّله . ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أى لا ينظر وراءه منكم أحد ؛ قاله مجـاهد . ابن عباس : لا يتخلف منكم أحد . عليّ بن عيسى : لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع . ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ بالنصب ؛ وهى القـراءة الواضحة البيّنـة المعنى ؛ أى فأسر بأهلك إلا امرأتك . وكذا فى قراءة ابن مسـعود « فأسر بأهلك إلا امرأتك» فهو استثناء من الأهل . وعلى هذا لم يخرج بها معه . وقد قال الله عز وجل : « كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ[(٢)] » أى من الباقين . وقرأ أبو عمرو وابن كثير : « إلا امرأتُك » بالرفع على البدل من « أحد » . وأنكر هـذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد؛ وقال : لا يصح ذلك إلا برفع « يلتفت » ويكون نعتا ؛ لأن المعنى يصير — إذا أبدلت وجزمت — أن المرأة أبيح لها الالتفات ، وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا الحمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمـرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ؛ والرفع على البدل له معنى صحيح ، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمـد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه : لا يخرج فلان ؛ فلفظ النهى لفلان ومعناه للخاطب ؛ أى لا تدعه يخرج ؛ ومثله قولك : لا يقم أحد إلا زيد ؛ يكون معناه : انههم عن القيام إلا زيدا ؛ وكذلك النهى للوط ولفظه لغيره ؛ كأنه قال : انههم لا يلتفت منهم أحد إلا امرأتك . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام ؛ أى لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنهـا تلتفت وتهلك ، وأن لوطا خرج بها ، ونهى من معه ممن أسرى بهم ألا يلتفت ، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته ؛ فإنها لمـا سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها . ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا﴾

---

(١) هو مالك ابن كنانة . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٤١

Marfat.com

أى من العذاب . والكناية فى « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن ؛ أى فإن الأمر والشأن والقصة . ﴿ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ لما قالت الملائكة : « إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ » قال لوط : الآن الآن . آستعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه؛ فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ وقرأ عيسى بن عمر « أليس الصُّبُح » بضم الباء وهى لغة . ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم ؛ لأن النفوس فيه أودع، والناس فيه أجمع . وقال بعض أهل التفسير : إن لوطا خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر، وأن الملائكة قالت له : إن الله قد وكّل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد، وخطف برق، وصواعق عظيمة، وقد ذكرنا لهم أن لوطا سيخرج فلا تؤذوه؛ وأمارته أنه لا يلتفت، ولا تلتفت آبنتاه فلا يهولنّك ما ترى . فخرج لوط وطوى الله له الأرض فى وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهى خمس : سدوم — وهى القرية العظمى — وعامورا، ودادوما، وضعوه، وقتم[(1)] ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ؛ حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم ، لم تنكفىء لهم جرّة ، ولم ينكسر[(2)] لهم إناء، ثم نكسوا على رءوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة . مقاتل : أهلكت أربعة ، ونجت ضعوه . وقيل غير هذا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف[(3)] » . وفى التفسير : أمطرنا فى العذاب ، ومطرنا فى الرحمة . وأما كلام العرب فيقال : مطرت السماء وأمطرت : حكاه الهروى . واختلف فى « السِّجِّيل » فقال النحاس : السجيل الشديد الكثير؛ وسجيل[(4)] وسجين اللام والنون أختان . وقال أبو عبيدة : السجيل الشديد ؛ وأنشد[(5)] :

* ضَرْبًا تَوَاصَى به الأبطالُ سِجِّينَا *

---

(١) وفى ع و ز و ك : قاموارا ورادما وصعو، وفى ضبط هذه القرى اختلاف . (٢) فى ى : ينكشف .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ (٤) كذا فى ا، وفى ز و ع و ك و و ى : (البخارى) .
(٥) سيأتى البيت بتمامه فى ص ٨٣ .

Marfat.com

قال النحاس : وردّ عليه هـذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به ؟ ! قال النحاس : وهذا الرد لا يلزم، لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى؛ وقول أبي عبيدة يردّ من جهة أخرى؛ وهي أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلا ؛ لأنه لا يقال : حجارة من شديد؛ لأن شديدا نعت . وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قـد يقال لحجارة الأرحاء سجيل . وحكى عنـه محمد بن الجهم أن سجيلا طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء . وقالت طائفة منهم آبن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق : إن سجيلا لفظة غير عربية عُرِّبت، أصلها سَنْج وجِيل . ويقال : سَنْك وكِيل؛ بالكاف موضع الجـيم، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما إسمـا واحدا . وقيل : هو من لغة العـرب . وقال قتادة وعكرمة : السجيل الطين بدليل قوله : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِم حِجَارَةً مِنْ طِينٍ »(1) . وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا فشدّدت . والسجيل عند العرب كل شديد صُلْب . وقال الضحاك : يعني الآجر . وقال آبن زيد : طين طبخ حتى كان كالآجر؛ وعنه أن سجيلا آسم السماء الدنيا؛ ذكره المهدوي؛ وحكاه الثعلبي عن أبي العالية؛ وقال آبن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بـ « منضود » . وعن عكرمة : أنه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة . وقيل : هي جبال في السماء، وهي التي أشار الله تعالى إليها بقوله : « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ »(2) . وقيل : هو مما سجل لهم أي كتب لهم أن يصيبهم؛ فهو في معنى سجين؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ »(3) قاله الزجاج وآختاره . وقيل : هو فِعِّيـل من أسجلته أي أرسلته ؛ فكأنها مرسلة عليهم . وقيل : هو من أسجلته إذا أعطيته ؛ فكأنه عذاب أُعطوه ؛ قال(4) :

مَنْ يُساجِلْنِي يُساجِلْ ماجِدًا * يَمْـلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبِ

---

(1) راجع جـ ١٧ ص ٤٧ . (2) راجع جـ ١٢ ص ٢٨٩ . (3) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٤ .
(4) البيت للفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب . وأصل المساجلة . أن يستق ساقيان فيخرج كل واحد منهما في سجله (دلوه) مثـل ما يخرج الآخر فأيهما نكل فقد غلب ؛ فضربته العرب مثلا للفاخرة . والكرب : الحبل الذي يشد على الدلو بعد المنين وهو الحبل الأول .

Marfat.com

وقال أهل المعاني : السجّيل والسجّين الشديد من الحجَر والضَّرب ؛ قال ٱبن مُقْبِل :

ورَجْلةٍ يضربون البَيْضَ ضَاحِيَـةً (١) * ضَرْباً تَواصَى بِهِ الأبطالُ سِجِّينَـا

﴿ مَنْضُودٍ ﴾ قال ٱبن عبـاس : متتابع . وقال قتادة : نُضِـد بعضها فوق بعض . وقال الربيع : نُضِد بعضه على بعض حتى صار جسدا واحدا . وقال عِكرمة : مصفوف . وقال بعضهم مرصوص ؛ والمعنى متقارب . يقال : نَضَدت المتاع واللّبِن إذا جعلت بعضه على بعض ، فهو منضود ونَضِيد ونَضَدٌ ؛ قال :

* ورفَّعَتْه إلى السَّجْفَين فالنَّضَدِ *

وقال أبو بكر الهُذَلي : مُعَدّ ؛ أي هو مما أعدّه الله لأعدائه الظَّلمة . ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أي معلَمة ، من السِّيما وهي العلامة ؛ أي كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر ٱسم من رُمِي به ، وكانت لا تشا كل حجارة الأرض . وقال الفرّاء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض ، فذلك تسويمها . وقال كعب : كانت معلمة ببياض وحمرة ، وقال الشاعر (٢) :

غلامٌ رماه اللهُ بالحسنِ يافِعًـا * له سِيمِيَاء لا تَشُـقُّ على البَصَرْ

و « مُسَوَّمَةً » من نعت حجارة . و «منضودٍ» من نعت « سِجّيل » . وفي قوله : ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض ؛ قاله الحسن . ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعني قوم لوط ؛ أي لم تكن تخطئهم . وقال مجـاهد : يُرْهِب قريشا ؛ المعنى : ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد . وقال قتادة وعِكرمة : يعني ظالمي هـذه الأمة ؛ والله ما أجار الله منها ظالمـا بعد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيكون في آخر أمّتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ونسـاؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قـومِ لوط أن يرسل الله عليهـم حجارة من سجيل " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسـلم « وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ

(١) وروى في اللسان : (يضربون البيض عن عرض) .

(٢) البيت لأسيد بن عنقاء الفزاري يمدح عميلة حين قاسمه ماله ؛ وبعده :

كأنَّ الثريا علقت فـوق نحره * وفي جيده الشعرى وفي وجهه القمر

وقوله : (له سيمياء لا تشق على البصر) أي يفرح به من يراه .

Marfat.com

ببعيد » . وفى رواية عنه عليه السلام " لا تذهب الليالى والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من ربك". وقيل: المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببعيد ؛ وهى بين الشام والمدينة . وجاء « ببعيد » مذكرا على معنى بمكان بعيد . وفى الحجارة التى أمطرت قولان : أحدهما — أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل . الثانى — أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها وكان خارجا عنها .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ

Marfat.com

وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ
كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أى وأرسلنا إلى مدين ، ومدين هم قوم شعيب . وفى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما — أنهم بنو مدين بن إبراهيم ؛ فقيل : مدين والمراد بنو مدين . كما يقال مُضَر والمراد بنو مُضَر . الثانى — أنه آسم مدينتهم ، فنسبوا إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه آسم مدينة ؛ وقد تقدّم فى «الأعراف»(١) هذا المعنى وزيادة . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقدّم . ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف ؛ كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، وآستوفوا بغاية ما يقدرون [عليه](٢) وظلموا ؛ وإن جاءهم مشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص، وشحّوا له بغاية ما يقدرون ؛ فأمروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك ، وبالوفاء نهيا عن التطفيف . ﴿ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ أى فى سعة من الرزق ، وكثرة من النِّعم . وقال الحسن : كان سعرهم رخيصا . ﴿ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ وصف اليوم بالإحاطة ، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم ؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم ، وهو كقولك : يوم شديد ؛ أى شديد حرّه . وآختلف فى ذلك العذاب ؛ فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥٧   (٢) من ع .

Marfat.com

وقيل : عذاب الاستئصال فى الدنيا . وقيل : غلاء السعر؛ روى معناه عن ابن عباس . وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أظهر قوم البخس فى المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء ". وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيدا . والإيفاء الإتمام . « بالقسط » أى بالعدل والحق؛ والمقصود أن يصل كل ذى نصيب إلى نصيبه؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل : أوفوا بالمكيال وبالميزان؛ بل أراد ألا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، وكذا الصّنجات . ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى لا تنقصوهم مما استحقوه شيئا . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١) بيّن أن الخيانة فى المكيال والميزان مبالغة فى الفساد فى الأرض، وقد مضى فى « الأعراف » زيادة لهذا، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبّر والظلم؛ قال معناه الطبرىّ وغيره . وقال مجاهد : « بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ » يريد طاعته . وقال الرّبيع : وصية الله . وقال الفرّاء : مراقبة الله . ابن زيد : رحمة الله . قتادة والحسن : حظكم من ربكم خير لكم . وقال ابن عباس : رزق الله خير لكم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين . وقيل : يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخاطبهم بهذا . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم ؛ أى لا يمكننى شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق . وقيل : أى لا يتهيأ لى أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ ﴾ وقرئ «أَصَلَاتُكَ» من غير جمع . ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ «أن» فى موضع نصب؛ قال الكسائى : موضعها خفض على إضمار الباء .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٨ .

Marfat.com

وروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير الصلاة ، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها ويقول : الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ؛ فلما أمرهم ونهاهم عيّروه بمـا رأوه يستمرّ عليه من كثرة الصلاة ، واستهزءوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم . وقيل : إن الصلاة هنا بمعنى القراءة ؛ قاله سفيان عن الأعمش ، أى قراءتك تأمرك ؛ ودلّ بهذا على أنهم كانوا كفارا . وقال الحسن : لم يبعث الله نبيًّا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة . ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ زعم الفراء أن التقدير: أو تنهانا أن نفعل فى أموالنا ما نشاء . وقرأ السُّلَمى والضّحاك بن قيس « أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء » بالتاء فى الفعلين ، والمعنى : ما تشاء أنت يا شعيب . وقال النحاس : « أو أن » على هذه القراءة معطوفة على « أن » الأولى . ورُوى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان ممـا نهاهم عنه حَذْف الدراهم[(١)] . وقيل : معنى . « أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ » إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فَلِمَ تمنعنا منه ؟ ! . ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ يعنون عند نفسك بزعمك ؛ ومثله فى صفة أبى جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ[(٢)] » أى عند نفسك بزعمك . وقيل : قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية ، قاله قتادة . ومنه قولهم للحبشى : أبو البيضاء ، وللأبيض أبو الجَـون[(٣)] ؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبى جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَـزِيزُ الْكَرِيمُ » . وقال سفيان بن عُيَينة : العرب تصف الشيء بضدّه للتطيّر والتفاؤل ؛ كما قيل لِلّديغ سَلِيم ، وللفلاة مَفازة . وقيل : هو تعريض أرادوا به السبّ ؛ وأحسن من هذا كله ، ويدلّ ما قبله على صحته ، أى إنك أنت الحليم الرشيد حقا ، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ! ويدلّ عليه . « أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » أنكروا لمـا رأوا من كثرة صلاته وعبادته ، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم ، وبعده أيضا ما يدلّ عليه . « قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى أفلا أنهاكم عن الضلال ؟ ! وهذا كله يدلّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة ، وأنه اعتقادهم فيه . ويشـبه هذا المعنى قول اليهود من بنى قُريظة للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال لهم : " يا إخوة القردة[(٤)] " فقالوا : يا محمد ما علمناك جهولا ! .

---

(١) حذف الشيء قطعه من أطرافه . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٥١ . (٣) الجون هنا الأسود .

(٤) فى ع : القردة والخنازير . وقد مضى فى جـ ٦ ص ٢٣٦ أنه أيضا من قول المسلمين لهم .

Marfat.com

مســـئلة — قال أهل التفسير : كان مما ينهاهم عنه ، وعُذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم ؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القُراضة ، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدّا ، وعلى المقروضة وزنا ، وكانوا يبخسون فى الوزن . وقال ابن وهب قال مالك : كانوا يكسرون الدنانير والدراهم ، وكذلك قال جمـــاعة من المفسرين المتقدّمين كسعيد بن المسيّب ، و زيد ابن أسلم وغيرهما ؛ وكسرهما ذنب عظيم . وفى كتاب أبى داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سِكّة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس ؛ فإنها إذا كانت صحاحا قام معناها ، وظهرت فائدتها ، و إذا كسرت صارت سِلعة ، و بطلت منها الفائدة ، فأضر ذلك بالنـــاس ؛ ولذلك حرم . وقد قيـــل فى تأويل قوله تعـــالى : « وَكَانَ فِى الْمَـــدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ »(١) أنهم كانوا يكسرون الدراهم ؛ قاله زيد بن أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القُرَظىّ .

مســـئلة : قال أصْبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة مولى زيد بن الحارث العُتَقىّ : من كسرها لم تقبل شهادته ، و إن اعتذر بالجهالة لم يعذر ، وليس هذا بموضع عذر ؛ قال ابن العربى : أما قوله : لم تقبل شهادته فلأنه أتى كبيرةً ، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر ؛ وأما قوله : لا يقبل عذره بالجهالة فى هـــذا فلأنه أمرٌ بيّنٌ لا يخفى على أحد ، و إنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه ، أو خفى وجه الصدق فيه ، وكان الله أعلم به من العبد كما قال مالك .

مســـئلة : إذا كان هذا معصية وفسادا تردّ به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك . ومرّ ابن المسيّب برجل قد جُلد فقال : ما هذا ؟ قال رجل : يقطع الدنانير والدراهم ؛ قال ابن المسيّب : هذا من الفساد فى الأرض ؛ ولم ينكر جلده ؛ ونحوه عن سفيان . وقال أبو عبد الرحمن النّجيبى(٣) : كنت قاعدا عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة(٢) فأتى برجل [يقطع الدراهم] وقد شُهد عليه فضربه وحلَقه ، وأمر فطيف به ، وأمره أن يقول : هـــذا جزاء من يقطع

(١) راجع ج ١٣ ص ٢١٥ . (٢) فى ع : بالمدينة ، وفى و : أمير المؤمنين . (٣) من ع و ز و ك و و و ى .

Marfat.com

الدراهم ، ثم أمر أن يُرَدّ إليه ، فقال : إنه لم يمنعني أن أقطع يدك إلا أني لم أكن تقدّمت في ذلك قبل اليوم، وقد تقدّمت في ذلك فمن شاء فليقطع . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ، وقد كنت أيام الحكم [بين الناس][1] أضرب وأحلق ، و إنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عونا له على المعصية ، وطريقا إلى التجمل به في الفساد ، وهذا هو الواجب في كل طريق للمعصية، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن ، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة ، وذلك أن قرض الدراهم غير كسرها ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدر ، فهو أخذ مالٍ على جهة الاختفاء ، فإن قيل : أليس الحرز أصلا في القطع ؟ قلنا : يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهيئتها للفصل بين الخلق دينارا أو درهما حرز لها ، وحرز كل شيء على قدر حاله ؛ وقد أنفذ ذلك ابن الزبير، وقطع يد رجل في قطع الدنانير والدراهم . وقد قال علماؤنا المالكية : إن الدنانير والدراهم خواتيم الله عليها اسمه ؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتما لله كان أهلا لذلك ، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أدّب ، وخاتم الله تقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة . قال ابن العربي : وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرها ، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليتي الحكم ، إلا أني كنت محفوفا بالجهال ، فلم أجبن[2] بسبب المقال للحسدة الضلال فمن قدر عليه يوما من أهل الحق فليفعله احتسابا لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ تقدم . ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي واسعا حلالا ، وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، قاله ابن عباس وغيره. وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة ، وفي الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ، أي أفلا أنهاكم عن الضلال ! وقيل : المعنى « أرأيتم إن كنت على بينة من ربي » أتبع الضلال ؟ وقيل : المعنى « أرأيتم إن كنت على بينة من ربي » أتأمرونني[3] بالعصيان في البخس والتطفيف ، وقد أغناني الله [عنه][1] . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ في موضع نصب بـ « ما أريد » . ﴿ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي ليس أنهاكم عن شيء وأرتكبه ، كما لا أترك ما أمرتكم به . ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ

(١) من ع و ى . (٢) من ع وفي ز و و ى : أحب . (٣) في ع : أتأمرونني .

Marfat.com

مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أى ما أريد إلا فعل الصلاح ؛ أى أن تصلحوا دنياكم بالعـدل ، وآخرتكم بالعبادة ، وقال : « مَا ٱسْتَطَعْتُ » لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة . و « ما » مصدرية ، أى إن أريد إلا الإصلاح جهدى واستطاعتى . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى ﴾ أى رشدى ، والتوفيق الرشد . ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى أرجع فيما ينزل بى من جميع النوائب . وقيل : إليه أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة الدعاء ، ومعناه وله أدعو .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب « يُجْرِمَنَّكُمْ » . ﴿ شِقَاقِى ﴾ فى موضع رفع . ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ ﴾ فى موضع نصب ، أى لا يحملنكم معاداتى على ترك الإيمـان فيصيبكم ما أصاب الكفار [قبلكم][1] ، قاله الحسن وقتادة . وقيـل : لا يكسبنكم شـقاق إصابتكم العذاب ، كما أصاب من كان قبلكم ، قاله الزجاج . وقد تقـدّم معنى « يجرمنكم » فى « المـائدة »[2] و « الشقاق » فى « البقرة »[3] وهو هنا بمعنى العداوة ، قاله السدّى ، ومنه قول الأخطل :

أَلَا مَنْ مُبلِغٌ عنّى رسـولا[4] * فكيف وجَدتُمُ طَعْمَ الشِّـقاقِ

وقال الحسن [البصرى][5] : إضرارى . وقال قتادة : فِراقى . ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثى عهد بهلاك قوم لوط . وقيـل : وما ديار قوم لوط منكم ببعيد ، أى بمكان بعيد ، فلذلك وحد البعيد . قال الكسائىّ : أى دورهم فى دوركم .

قوله تعالى ﴿ وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تقدم . ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ اسمان من أسمـائه سبحانه ، وقد بيناهما فى كتاب « الأسنى فى شرح الأسماء الحسنى » . قال الجوهرىّ : وَدِدت الرجل أوده ودا إذا أحببته ، والودود المحب ، والوَد والوِد والوُد والمودة المحبة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال : " ذاك خطيب الأنبيـاء " .

---

(١) من ع وورى . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٤ وما بعدها . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ .
(٤) الرسول هنا بمعنى الرسالة . وفى الديوان : مبلغ قيسا . (٥) من ع .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ أى ما نفهم ؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور ، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماعه ، واحتقارا لكلامه ؛ يقال : فقه يفقه إذا فهم فقْها ؛ وحكى الكسائى : فَقُه فَقَها وفِقْها إذا صار فقيها[1] . ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾[2] قيل : إنه كان مصابا ببصره ؛ قاله سعيد ابن جبير وقتادة . وقيل : كان ضعيف البصر ؛ قاله الثورى ، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حِمْيَر تقول للأعمى ضعيفا ؛ أى قد ضعف بذهاب بصره ؛ كما يقال له ضرير ؛ أى قد ضرّ بذهاب بصره ؛ كما يقال له : مكفوف ؛ أى قد كف عن النظر بذهاب بصره . قال الحسن : معناه مهين . وقيل : المعنى ضعيف البدن ؛ حكاه علىّ بن عيسى . وقال السدى : وحيدا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا . وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها . و «ضعيفا» نصب على الحال . ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ رفع بالابتداء ، ورهط الرجل عشيرته الذى يستند إليهم ويتقوى بهم ؛ ومنه الراهطاء لجحر اليربوع ؛ لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده . ومعنى ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ لقتلناك بالرجم ، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة ، وكان رهطه من أهل ملتهم . وقيل : معنى « لَرَجَمْنَاكَ » لشتمناك ؛ ومنه قول الجعدى :

تراجمنا بمُرّ القول حتى * نصير كأننا فرسا رهان

والرجم أيضا اللعن ؛ ومنه الشيطان الرجيم . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أى ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي ﴾ « أرهطى » رفع بالابتداء ، والمعنى أرهطى فى قلوبكم ﴿ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ وأعظم وأجل وهو يملككم . ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أى اتخذتم ما جئتكم به من أمر الله ظهريا ؛ أى جعلتموه وراء ظهوركم ، وامتنعتم من قتلى مخافة قومى ؛

---

(١) عبارة الأصول هنا مضطربة ، وصوبت عن كتب اللغـة ؛ وعبارة الأصل : فقه يفقه إذا فهم فقها وفقها وحكى الكسائى : فقها ، وفقه فقها إذا صار فقيها .

(٢) ليس شعيب الرسول عليه السلام ضريرا لأن هذا الوصف ينافى العصمة مما يقدح وإنما شعيب الضرير هو صاحب موسى وليس بنبي و بينهما ثلاثمائة سنة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ أى فى الدنيا . ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى ولعنة يوم القيامة ؛ وقد تقدم هذا المعنى . ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ حكى الكسائى وأبو عبيدة : رَفَدْتُه أَرْفِدُه رِفْدًا ؛ أى أعنته وأعطيته . واسم العطية الرِّفْد ؛ أى بئس العطاء والإعانة . والرفد أيضا القدح الضخم ؛ قاله الجوهرى ، والتقدير : بئس الرفد رفد المرفود . وذكر الماوردى : أن الرَّفد بفتح الراء القدح ، والرفد بكسرها ما فى القدح من الشراب ؛ حكى ذلك عن الأصمعى ؛ فكأنه ذم بذلك ما يسقونه فى النار . وقيل : إن الرفد الزيادة ؛ أى بئس ما يرفدون به بعد الغرق النارُ ؛ قاله الكلبى .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ « ذَٰلِكَ » رفع على إضمار مبتدأ ، أى الأمر ذلك . و إن شئت بالابتداء، والمعنى : ذلك النبأ المتقدم من أنبـاء القرى نقصه عليـك . ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ قال قتادة : القائم ما كان خاويا على عروشـه، والحصيد ما لا أثر له . وقيل : القائم العامر، والحصيد الخراب؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها، وحصيد مستأصل؛ يعنى محصودا كالزرع إذا حصد؛ قال الشاعر :

والناس فى قَسْم المنيّة بينهم * كالزّرع منـه قائمٌ وحَصيدُ

وقال آخـر[1] :

إنمـا نحن مثـلُ خامَةِ زرْعٍ * فمتى يأْنِ يأْتِ مُحتَصِدُهْ

قال الأخفش سعيد : حصيد أى محصود، وجمعه حصدى وحصاد مثل مرضى ومراض؛ قال : يكون فيمن يعقل حصدى، مثل قتيل وقتلى . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أصل الظلم فى اللغة وضع الشيء فى غير موضعه، وقد تقـدّم فى « البقرة »[2] مستوفى . ﴿ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى . وحكى سيبويه أنه يقال : ظلم إياه ﴿ فَمَا أَغْنَتْ ﴾ أى دفعت . ﴿ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فى الكلام حذف، أى التى كانوا يعبـدون ؛ أى يدعون . ﴿ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أى غير تخسـير ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال لبيد :

فلقد بَلِيتُ وكلُّ صاحبِ جِدّةٍ * لِبِـلًى يعودُ وذاكُـمُ التّتْبِيبُ

والتّبّات الهلاك والخسران، وفيه إضمار؛ أى ما زادتهم عبادة الأصنام، فحذف المضـاف؛ أى كانت عبادتهم إياها قد خسّرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾ أى كما أخذ هذه القرى التى كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة . وقرأ عاصم الجحدرى وطلحة بن مصرف « وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذْ أَخَذَ الْقُرَى » وعن الجحدرى أيضا « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ » كالجماعة « إِذْ أَخَذَ

(١) البيت للطرماح كما فى اللسان . (٢) راجع جـ١ ص ٣٠٩ وما بعدها .

Marfat.com

القُرَى» . قال المهدوىّ من قرأ : « وكذلك أخذ ربك إذْ أخذ » فهو إخبار عما جاءت به العادة فى إهلاك من تقدم من الأمم؛ والمعنى : وكذلك أَخْذ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذْ أخذهم . وقراءة الجماعة على أنه مصدر، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه ؛ فإذْ لمـا مضى ؛ أى حين أخذ القـرى ؛ و إذا للستقبل ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أى وأهلها ظالمون ؛ فحذف المضاف مثل : « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ » . ﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ أى عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة . وفى صحيح مسلم والترمذىّ من حديث أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : " إن الله تعـالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ " ثم قرأ « وكذلك أَخْذُ ربك إذا أخذ القرى » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى لعبرة وموعظة . ﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ . ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ ﴾ ، ابتداء وخبر . ﴿ مَّجْمُوعٌ ﴾ من نعته . ﴿ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ آسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل مجموعون؛ فإن قدرت آرتفاع « الناس » بالابتداء، والخبر « مَجْمُـوعٌ لَهُ » فإنما لم يقل : مجموعون على هذا التقدير؛ لأن «له» يقوم مقام الفاعل . والجمع الحشر، أى يحشرون لذلك اليوم . ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أى يشهده البر والفاجر، ويشهده أهل السماء . وقد ذكرنا هذين الآسمين مع غيرهما من أسماء القيامة فى كتاب « التذكرة » وبيناهما والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ ﴾ أى ما نؤخر ذلك اليوم . ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أى لأجل سبق به قضاؤنا ، وهو معدود عندنا . ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ وقرئ « يومَ يأتى » لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة ؛ تقول : لا أدرِ؛ ذكره القشيرى . قال النحاس : قرأه أهـل المدينة وأبو عمرو والكسائى بإثبات الياء فى الإدراج، وحذفها فى الوقف؛ وروى أن أُبَيّاً وابن مسعود قرآ « يوم يأتى » باليـاء فى الوقف والوصل . وقرأ الأعمش وحمزة « يَوْمَ يَأْتِ » بغير ياء فى الوقف والوصل ، قال أبو جعفر النحاس : الوجه فى هذا ألّا يوقف عليه ، وأن يوصل بالياء، لأن جماعة من النحويين قالوا : لا تحذف الياء، ولا يجزم الشىء بغير جازم؛ فأما الوقف بغير ياء ففيه قول للكسائىّ؛ قال : لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم، فحذف الياء ، كما

Marfat.com

تحذف الضمة . وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء فى الوصل والوقف بحجتين إحداهما — أنه زعم أنه رآه فى الإمام الذى يقال له إنه مصحف عثمان رضى الله عنه بغير ياء . والحجة الأخرى — أنه حكى أنها لغة هُذَيل؛ تقول : ما أدرِ؛ قال النحاس : أما حجته بمصحف عثمان رضى الله عنه فشىء يردّه عليه أكثر العلماء؛ قال مالك بن أنس رحمه الله : سألت عن مصحف عثمان رضى الله عنه فقيل لى ذَهَب؛ وأما حجته بقولهم : « ما أدرِ » فلا حجة فيه؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء، وذكروا علته، وأنه لا يقاس عليه . وأنشد الفراء فى حذف الياء .

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ درهمًا * جودًا وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدَّمَا

أى تعطى . وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول : لا أدرِ، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة؛ إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال . قال الزجاج : والأجود فى النحو إثبات الياء؛ قال : والذى أراه اتباع المصحف وإجماع القراء؛ لأن القراءة سنة؛ وقد جاء مثله فى كلام العرب . ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ الأصل تتكلم؛ حذفت إحدى التاءين تخفيفا . وفيه إضمار؛ أى لا تتكلم فيه نفس إلا بالمؤذون فيه من حسن الكلام؛ لأنهم ملجئون إلى ترك القبيح . وقيل : المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه . وقيل : إن لهم فى الموقف وقتا يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه . وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد فى الدِّين . فيقول لِمَ قال : « لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » و « هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »(١) . وقال فى موضع من ذكر القيامة : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »(٢) . وقال : « يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا »(٣) . وقال : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ »(٢) . وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ »(٤) . والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضا ، وطرح بعضهم الذنوب على بعض ؛ فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا؛ وهذا كما تقول للذى يخاطبك كثيرا ، وخطابه فارغ عن

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٦٤ .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٧٣ فما بعد . فى الأصول « يتلاومون » وليست فى المعنى المراد هنا .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٣ .
(٤) راجع جـ ١٧ ص ١٧٣ .

Marfat.com

الجؤء ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء؛ فسمى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم . وقال : قوم : ذلك اليـوم طويل، وله مواطن ومواقف فى بعضها يمنعون من الكلام، وفى بعضها يطلق لهم الكلام؛ فهـذا يدلّ على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه . ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أى من الأنفس، أو من الناس؛ وقـد ذكرهم فى قوله : « يَوْمٌ مَجْمُـوعٌ لَهُ النَّاسُ » . والشقى الذى كتبت عليه الشّقاوة . والسّعيد الذى كتبت عليه السّعادة؛ قال لَبيد :

فمنهم سعيدٌ آخذ بنصيبه * ومنهم شَقِيٌّ بالمعيشةِ قانع

وروى الترمذى عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لمـا نزلت هذه الآية «فَمِنْهُـمْ شَقِيٌّ وَسَـعِيدٌ» سألت رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت؛ يانبى الله فعلامَ نعمل؟ على شىء قد فُرغ منه، أو على شىء لم يُفرغ منه ؟ فقال :"بل على شىء قد فُرغ منه و جرت به الأقلامُ ياعُمر ولكن كل مُيسَّر لمـا خُلق له". قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر؛ وقد تقدم فى « الأعراف »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴾ ابتداء . ﴿ فَفِي النَّارِ ﴾ فى موضع الخبر، وكذا ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال أبو العالية : الزّفير من الصدر، والشهيق من الحلق؛ وعنه أيضا ضد ذلك . وقال الزجاج : الزّفير من شدة الأنين، والشّهيق من الأنين المرتفع جدا؛ قال : وزعم أهل اللغـة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير فى النّهيق، والشّهيق بمنزلة [آخر] صـوت الحمار فى النّهيق . وقال ابن عباس رضى الله عنه عكسه؛ قال : الزفير الصوت الشديد، والشّهيق الصوت الضعيف . وقال الضحاك ومقاتل : الزفير مثـل أول نهيق الحمار، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته؛ قال الشاعر(٢) :

حَشْرَجَ فى الجوفِ سَحِيلاً أو شَهَقْ(٣) * حتى يُقَـالَ نـاهـقٌ وما نَهَـقْ

وقيل : الزّفير إخراج النفَس، وهو أن يمتلىء الجوف غمًّا فيخرج بالنفس، والشّهيق ردّ النفَس وقيل : الزفير ترديد النفَس من شدّة الحزن؛ مأخوذ من الزِّفْر وهو الحِمْـل على الظهر لشدّته؛

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٤ .
(٢) هو العجاج والبيت من قصيدة له يصف فيها المفازة مطلعها :
وقاتم الأعماق خاوى المخترق * مشتبه الأعلام لماع الخفق
(٣) فى ع : فى الصدر ، والسحيل : الصوت الذى يدور فى صدر الحمار .

Marfat.com

والشهيق النفس الطويل الممتد ؛ مأخوذ من قولهم : جبـل شاهق ؛ أى طويل[1] . والزفـير والشهيق من أصوات المحزونين .

قوله تعـالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ « مَا دَامَت » فى موضع نصب على الظـرف ؛ أى دوام السموات والأرض ، والتقـدير : وقت ذلك . واختلف فى تأويل هذا؛ فقالت طائفة منهم الضحاك : المعنى ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما والسماء كل ما علاك فأظلك ، والأرض ما استقر عليـه قدمك ؛ وفى التنزيل : « وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ[2] » . وقيل : أراد به السماء والأرض المعهودتين فى الدنيا وأجرى ذلك على عادة العرب فى الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده ؛ كقولهم : لا آتيك ما جَنّ ليـلٌ ، أو سال سيلٌ ، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمـام ، وما دامت السموات والأرض ، ونحو هذا مما يريدون به طولا من غير نهاية؛ فأفهمهم الله تخليد الكفرة بذلك . وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض . وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش، وأن السموات والأرض فى الآخرة تردّان إلى النور الذى أخذتا منه؛ فهما دائمتان أبدا فى نور العرش .

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فى موضع نصب ؛ لأنه استثناء ليس من الأول ؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة : الأولى — أنه استثناء من قوله : « فَفِي النَّـارِ » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهـذا قول رواه أبو نَضْرة عن أبى سعيد الخُدْرى وجابر رضى الله عنهما . وإنما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العـدد لا الأشخاص ؛ كقوله : « مَا طَابَ لَكُمْ[3] » . وعن أبى نَضْرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شقوا بالمعصية » . الثـانى — أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين فى إخراجهم بعد مدّة من النار؛ وعلى هذا يكون قوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ شُقُوا » عاما فى الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من « خَالِدِينَ » ؛ قاله قتادة والضّحاك وأبو سـنان وغيرهم . وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يدخل ناس

(١) قال فى النهاية : شاهق عال .　　(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٤ .　　(٣) راجع جـ ٥ ص ١٢ .

Marfat.com

جهنم حتى إذا صاروا كالحُمَمة(١) أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون" وقد تقدّم هذا المعنى فى « النساء(٢) » وغيرها . الثالث — أن الاستثناء من الزّفير والشّهيق؛ أى لهم فيها زفير وشهيق إلا ما شـاء ربك من أنواع العذاب الذى لم يذكره ، وكذلك لأهل الجنـة من النعيم ما ذكر، وما لم يذكر . حكاه ابن الأنبارى . الرابع — قال ابن مسعود : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدد خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر والاستثناء له فى الأكل، وتجديد الخلق . الخامس — أن « إلا » بمعنى « سوى » كما تقول فى الكلام : مامعى رجل إلّا زيد، ولى عليك ألفا درهم إلا الألف التى لى عليك(٣) . قيل : فالمعنى ما دامت السموات والأرض سـوى ما شاء ربك من الخلود . السادس — أنه استثناء من الإخراج، وهو لا يريد أن يخرجهم منها . كما تقول فى الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعل ؛ فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم، ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها، ذكر هذين القولين الزّجاج عن أهل اللغة ، قال : ولأهل المعانى قولان آخران، فأحد القولين : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من مقـدار موقفهم على رأس قبورهم ، وللحاسبة ، وقدر مكثهم فى الدنيا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب . والقول الآخر — وقوع الاستثناء فى الزيادة على النعيم والعـذاب ، وتقديره : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العـذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء فى الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المعهودتين فى الدنيا واختاره(٤) الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمـد بن على ، أى خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض ، وذلك مدّة العـالم ، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيـه ، وهو قوله سبحانه : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ(٥) » نخلق الله سبحانه الآدميين وعاملهم، واشترى منهم أنفسهم

---

(١) الحمم : الرماد والفحم وكل ما احترق من النار ، والواحدة حمة . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٣٢
(٣) وعبارة البحر : لى عندك ألفا درهم إلا الألف التى كنت أسلفتك بمعنى سوى تلك الألف .
(٤) يلاحظ أنه لم يذكر المصنف السابع ولعله هو هذا . (٥) راجع ص ٣٨٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

وأموالهم بالجنة، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق، فمن وفّى بذلك العهد فله الجنة، ومن ذهب برقبته يخلّد فى النار بمقدار دوام السموات والأرض ؛ فإنما دامتا للمعاملة ؛ وكذلك أهل الجنة خلود فى الجنة بمقدار ذلك؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع فى مشيئة الله؛ قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ »[1] فيخلّد أهل الدارين بمقدار دوامهما ، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة؛ ثم أوجب لهم الأبد فى كلتا الدارين لحقّ الأحديّة، فمن لقيه موحّدا لأحديته بقى فى داره أبدا، ومن لقيه مشركا بأحديّته إلها بقى فى السجن أبدا؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود، ثم قال : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من زيادة المدّة التى تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها ؛ فبالاعتقاد دام خلودهم فى الدارين أبدا . وقد قيل : إن « إلا » بمعنى الواو ، قاله الفراء وبعض أهل النظر وهو — الثامن — والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة فى الخلود على مدّة دوام السموات والأرض فى الدنيا . وقد قيل فى قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا »[2] أى ولا الذين ظلموا . وقال الشاعر[3] :

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخوه　*　لعمرُ أبيكَ إلا الفرقدان

أى والفرقدان . وقال أبو محمد مكىّ : وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون « إلا » بمعنى الواو ، وقد مضى فى « البقرة »[2] بيانه . وقيل : معناه كما شاء ربك ؛ كقوله تعالى : «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ»[4] أى كما قد سلف، وهو — التاسع ، العاشر — وهو أن قوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إنما ذلك على طريق الاستثناء الذى ندب الشرع إلى استعماله فى كل كلام؛ فهو على حدّ قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ »[1] فهو استثناء فى واجب، وهذا الاستثناء فى حكم الشرط كذلك؛ كأنه قال: إن شاء ربك، فليس يوصف بمتصل ولا منقطع ؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » ونحوه عن أبى عبيد قال : تقدمت عزيمة المشيئة من الله تعالى فى خلود

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٤٧ وص ٢٨٩ .　(٢) راجع جـ ٢ ص ١٢٨ .　(٣) البيت لعمرو ابن معدى كرب . وقيل : هو لحضرمى بن عامر . ويجوز أن تكون « إلا » هنا بمعنى غير . قال سيبويه : كأنه قال وكل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه ، فقد نعت « كلا » بها .　(٤) راجع جـ ٥ ص ١٠٣ .

Marfat.com

الفريقين فى الدارين ؛ فوقع لفظ الاستثناء ، والعزيمة قد تقدّمت فى الخلود ، قال : وهذا مثل قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » وقد علم أنهم يدخلونه حتما ، فلم يوجب الاستثناء فى الموضعين خيارا ؛ إذ المشيئة قد تقدّمت بالعزيمة فى الخلود فى الدارين والدخول فى المسجد الحرام ؛ ونحوه عن الفراء . وقول — حادى عشر — وهو أن الأشقياء هم السعداء ، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم ، والاستثناء فى الموضعين راجع إليهم ؛ وبيانه أن « ما » بمعنى « من » استثنى الله عز وجل من الداخلين فى النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما معهم من الإيمان ، واستثنى من الداخلين فى الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة . وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثانى ؛ كأنه قال تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » ألا يخلده فيها ، وهم الخارجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وبشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء ، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء ؛ كما روى الضّحاك عن ابن عباس إذ قال : الذين سعدوا شَقُوا بدخول النار ثم سعدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة .

وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائى « وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا » بضم السين . وقال أبو عمرو : والدليل على أنه سَعِدوا أن الأول شَقُوا ولم يقل أشقوا . قال النحاس : ورأيت علىّ بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائى « سُعِدوا » مع علمه بالعربية ! إذ كان هذا لحنا لا يجوز ؛ لأنه إنما يقال : سَعِد فلان وأسعده الله ، وأسعد مثل أُمرِض ؛ وإنما احتج الكسائى بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه ؛ لأنه يقال : مكان مسعود فيه ، ثم يحذف فيه ويسمى به . قال المهدوى : ومن ضمّ السين من « سعدوا » فهو محمول على قولهم : مسعود وهو شاذ قليل ؛ لأنه لا يقال : سعده الله ، إنما يقال : أسعده الله . وقال الثعلبى : «سُعِدوا» بضم السين أى رزقوا السعادة ؛ يقال : سُعِد وأُسعِد بمعنى واحد وقرأ الباقون «سَعِدوا» بفتح

Marfat.com

السين قياسا على « شَقُوا » واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقال الجوهري : والسعادة خلاف الشقاوة ؛ تقول : منه سَعِد الرجل بالكسر فهو سعيد ، مثل سَلِم فهو سليم ، وسُعِد فهو مسعود ؛ ولا يقال فيه : مُسْعَد ، كأنهم استغنوا عنه بمسعود . وقال القشيري أبو نصر عبدالرحيم : وقد ورد سَعَده الله فهو مسعود ، وأسعده الله فهو مسعَد ؛ فهذا يقوى قول الكوفيين . وقال سيبويه : لا يقال سُعِد فلان كما لا يقال شُقِى فلان ؛ لأنه مما لا يتعدى . ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أى غير مقطوع ؛ من جذّه يجُذّه أى قطعه ؛ قال النابغة :

تَجُذُّ السَّلُوقِيَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ　*　وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ (١)

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ ﴾ جزم بالنهى ؛ وحذفت النون لكثرة الاستعمال . ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أى فى شك . ﴿ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ من الآلهة أنها باطل . وأحسن من هذا : أى قل يا محمد لكل من شك « لَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلَاءِ » أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليدا لهم . ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها — نصيبهم من الرزق ؛ قاله أبو العالية . الثانى — نصيبهم من العذاب ؛ قاله ابن زيد . الثالث — ما وُعِدوا به من خير أو شر ؛ قاله ابن عباس رضى الله عنهما .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (١١٠)

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الكلمة : أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح ؛ ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر . قيل : المراد بين المختلفين فى كتاب موسى ؛ فإنهم كانوا بين مصدّق [به] (٢) ومكذّب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب ، ولكن

(١) البيت للنابغة الذبيانى يصف فيه السيوف . ويروى (تقد — ويوقدن) . والسلوق : الدرع المنسوب إلى سلوق ؛ قرية باليمن . والمضاعف : الذى نسج حلقتين . والصفاح : الحجارة العراض . والحباحب : ذباب له شعاع بالليل ؛ وقيل : نار الحباحب ما اقتدح من شرر النار فى الهواء بتصادم حجرين .

(٢) من أوووى .

Marfat.com

سبق الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ إن حملت على قوم موسى ؛ أى لفى شك من كتاب موسى فهم فى شك من القرآن .

قوله تعالى : وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى إن كلا من الأمم التى عددناهم يرون جزاء أعمالهم ؛ فكذلك قومك يا محمد . وآختلف القراء فى قراءة ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا ﴾ فقرأ أهل الحرمين — نافع وآبن كثير وأبو بكر معهم — « وَإِنْ كُلًّا لَمَا » بالتخفيف، على أنها « إن » المخففة من الثقيلة معملة ؛ وقد ذكر هـذا الخليل وسيبويه ، قال سيبويه : حدثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول : إن زيدا لمنطلقٌ ؛ وأنشد قول الشاعر[1] :

* كأنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى وَارِقِ السَّلَمْ *

أراد كأنها ظبية فخفف ونصب ما بعـدها ؛ والبصريون يجوزون تخفيف « إنّ » المشددة مع إعمالها ؛ وأنكر ذلك الكسائى وقال : ما أدرى على أى شيء قرئ « وَإِنْ كُلًّا » ! وزعم الفراء أنه نصب « كلّا » فى قراءة من خفف بقوله : « لَيُوَفِّيَنَّهُم » أى وإن ليوفينهم كلّا ؛ وأنكر ذلك جميع النحويين، وقالوا : هذا من كبير الغلط ؛ لا يجوز عند أحد زيدا لأضربنه[2]. وشدّد الباقون «إنّ» ونصبوا بها « كلّا » على أصلها . وقرأ عاصم وحمزة وآبن عامر «لمّا» بالتشديد . وخففها الباقون على معنى : وإن كلا ليوفينهم ، جعلوا « ما » صـلة . وقيل : دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم ، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بـ « ما » . وقال الزجاج : لام «لمّا» لام «إنّ» و «ما» زائدة مؤكدة ؛ تقول : إن زيدا لمنطلق ؛ فإنّ

(١) هو : آبن صريم اليشكرى ؛ وصدر البيت :

* ويوما توافينا بوجه مقسم *

يجوز نصب الظبية بكأن تشبيها بالفعل إذا حذف وعمل ، والخبر محذوف لعـلم السامع . ويجوز جر الظبية على تقدير : كظبية ، وأن زائدة مؤكدة .

(٢) قال الطبرى : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بعد لام اليمين آسما قبلها .

Marfat.com

تقتضى أن يدخل على خبرها أو آسمهـا لام كقولك : إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ، وقوله : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَى »(١) . واللام فى « ليوفينهم » هى التى يُتَلَقى بها القسم ، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشدّدة أو المخففة ؛ ولمـا اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ « ما » و « ما » زائدة مؤكدة ، وقال الفـراء : « ما » بمعنى « من » كقوله : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ »(٢) أى و إنّ كلا لمن ليوفينهم ، واللام فى «ليوفينهم» للقسم ؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج ، غير أن « ما » عند الزجاج زائدة وعند الفراء آسم بمعنى « من » . وقيل : ليست بزائدة ، بل هى آسم دخل عليها لام التأكيد ، وهى خبر «إن» و «ليوفينهم» جواب القسم ، التقدير : و إنّ كلا خَلْق ليوفينهم ربك أعمالهم . وقيل : « ما » بمعنى « من » كقوله : « فَٱنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ »(٢) أى مَنْ ؛ وهذا كله هو قول الفراء بعينه . وأما من شدّد « لمـا » وقرأ « وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا » بالتشديد فيهما — وهو حمزة ومن وافقه — فقيل : إنه لحن ؛ حكى عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز ؛ ولا يقال : إنّ زيدا إلّا لأضربنّه ، ولا لمّـا لضربته . وقال الكسائى : الله أعلم بهذه القراءة ، وما أعرف لها وجها . وقال هو وأبو على الفارسى : التشديد فيهما مشكل . قال النحاس وغيره : وللنحويين فى ذلك أقوال : الأول — أن أصلها « لمن ما » فقلبت النون ميمـا ، واجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى فصارت « لمـا » و « ما » على هذا القول بمعنى « من » تقديره : و إن كلا لمن الذين ؛ كقولهم :

وإِنّى لَمَّا أُصْدِرُ الأمرَ وجهَهُ * إذا هو أَعْيَا بالسَّبِيلِ مَصَادِرُه

وزيّف الزجاج هـذا القول ، وقال : « من » آسم على حرفين فلا يجـوز حذفه . الثانى — أن الأصل لِمن ما ، فحذفت الميم المكسورة لاجتماع الميمات ، والتقدير : و إنّ كُلًّا لِمَنْ خَلْقٍ ليوفينهم . وقيل : «لمـًّا» مصدر « لَمَّ » وجاءت بغير تنوين حملا للوصل على الوقف ؛ فهى على هـذا كقوله : « وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا »(٣) أى جامعا للمـال المأكول ؛ فالتقدير على هذا : و إن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لمًّـا ؛ أى جامعة لأعمالهم جمعا ، فهو كقولك : قياما لأقومنّ . وقد قرأ الزهرى « لَمًّا » بالتشديد والتنوين على هذا المعنى . الثالث —

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٥ . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٢٠ ، وص ١٢ . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٥٢ .

Marfat.com

أن « لمّـا » بمعنى « إلّا » حكى أهـل اللغة : سألتك بالله لمّـا فعلت ؛ بمعنى إلّا فعلت ؛ ومثله قوله تعالى : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّـا عَلَيْهَا حَافِظٌ »(١) أى إلا عليها ؛ فمعنى الآية : ما كل واحد منهـم إلا ليوفينهم؛ قال القُشيرىّ : وزيّف الزجاج هـذا القول بأنه لا نفى لقوله : « وإنْ كُلًّا لمـا » حتى تقـدر « إلا » ولا يقـال : ذهب الناس لمـا زيد . الرابع — قال أبو عثمان المـازنى : الأصل وإن كُلًّا لَمَـا بتخفيف « لمّـا » ثم ثقلت كقوله(٢) :

لقد خَشِيتُ أنْ أرى جَدبًّا * فى عامِنَا ذا بعدَ ما أَخْصَبَّا

وقال أبو إسحاق الزجاج : هذا خطأ! إنمـا يخفّف المثقل، ولا يثقّل المخفّف . الخامس — قال أبوعبيد القاسم بن سلّام : يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّه لَمًّـا إذا جمعته، ثم بنى منه فَعْلَى، كما قرئ « ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى »(٣) بغير تنوين و بتنوين . فالألف على هـذا للتأنيث ، وتمال على هـذا القول لأصحاب الإمالة؛ قال أبو إسحاق : القول الذى لا يجوز غيره عندى أن تكون مخففة من الثقيلة، وتكون بمعنى « ما » مثل : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّـا عَلَيْهَا حَافِظٌ » وكذا أيضا تشدّد على أصلها، وتكون بمعنى « ما » و« لمـا » بمعنى «إلا» حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين ؛ وأن « لمـا » يستعمل بمعنى « إلا » قلت : هـذا القول [الذى(٤)] ارتضاه الزجاج حكاه عنـه النحاس وغيره؛ وقد تقدم مثله وتضعيف الزجاج له، إلا أن ذلك القول صوابه(٥) «إنْ» فيه نافية، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا(٦) وبقيت قراءتان ؛ قال أبو حاتم : وفى حرف أُبَىّ : « وَإِنْ كُلٌّ إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ »(٧) وروى عن الأعمش « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّـا » بتخفيف « إن » ورفع « كل » و بتشديد « لمـا » . قال النحاس : وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيهـا « إنْ » بمعنى « ما » لا غير، وتكون على التفسير ؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة . ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديد ووعيد .

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٣ . (٢) البيت لرؤبة . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٢٤ . (٤) من و ى .
(٥) من أ و جـ و و . (٦) وردت العبارة الآتية بإحدى النسخ تصويبا لعبارة القرطبى، ومذيلة بكلمة (حاشية): (صواب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول : إلا أن هذا القول « إن » فيه نافية والقول المتقدم «إن» فيه مخففة من الثقيلة فافترقا) . (٧) فى ى : وإن كلا إلا ليوفينهم . وفى الشواذ : وإن كل بفتح الكاف وتخفيف اللام لما .

Marfat.com

قوله تعالى : فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره . وقيل : له والمراد أمته ؛ قاله السدي . وقيل : « استقم » اطلب الإقامة على الدين من الله واسأله ذلك . فتكون السين سين السؤال ، كما تقول : أستغفر الله أطلب الغفران [منه][1] . والاستقامة الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال ؛ فاستقم على امتثال أمر الله . وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ! قال : " قل آمنت بالله ثم استقم " . وروى الدارمي أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال : دخلت على ابن عباس فقلت أوصني ! فقال : نعم ! عليك بتقوى الله والاستقامة ، اتبع ولا تبتدع . ﴿ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ أي استقم أنت وهم ؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن اتبعه من أمته . قال ابن عباس ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب ! فقال : " شيبتني هود وأخواتها " . وقد تقدم في أول السورة . وروي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا علي السري[2] يقول : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يارسول الله ! روي عنك أنك قلت : " شيبتني هود " . فقال : " نعم " فقلت له : ما الذي شيبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم ! فقال : " لا ولكن قوله : فاستقم كما أمرت " . ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ نهى عن الطغيان والطغيان مجاوزة الحد ؛ ومنه « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ »[3] . وقيل : أي لا تتجبروا على أحد .

قوله تعالى : وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

(١) من ١ .
(٢) في الأصل (الشنوي) وصوب عن (الدر المنثور) .
(٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٢ .

Marfat.com

فيــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به ، قال قتادة : معناه لا تودّوهم ولا تطيعوهم . ابن جريج : لا تميلوا إليهم . أبو العاليـة : لا ترضوا أعمالهم ؛ وكله متقـارب . وقال ابن زيد : الركون هنـا الإدهان (١) وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم .

الثانيـــة ــ قرأ الجمهور : « تَرْكَنُوا » بفتح الكاف ؛ قال أبو عمرو : هي لغة أهل الحجاز . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وقتادة وغيرهما : « تَرْكُنوا » بضم الكاف ؛ قال الفراء : وهي لغة تميم وقيس . وجوز قوم رَكَن يرْكَن مثل منَع يمنَع (٢) .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قيل : أهل الشرك . وقيـل : عامة فيهم وفي العصاة ، على نحو قوله تعـالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا (٣) » الآية . وقد تقدّم . وهذا هو الصحيح في معنى الآية ؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودّة ؛ وقد قال حكيم (٤) :

عن المرء لا تَسأل وسَل عن قَرينه * فكلُّ قـرينٍ بالمُقَارِن يقتَـدِي

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتَقِيّة فقد مضى القول فيها في « آل عمران (٥) » و « المـائدة (٣) » . وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار . والله أعلم .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ أي تحرقكم . بمخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على إعراضهم (٦) وموافقتهم في أمورهم .

قوله تعـالى : وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

(١) الإدهان : المصانعة . (٢) والآية من باب تعب . (٣) راجع جـ ٦ ص ١٢ ؛ وجـ ٥ ص ٤١٧ ؛ وص ٢١٧ . (٤) هـو طرفة بن العبد . (٥) راجع جـ ٤ ص ٥٧ .

(٦) في ى : أغراضهم ومرافقتهم .

Marfat.com

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة؛ وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان، وإليها يفزع فى النوائب؛ وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حزبه[1] أمر فزع إلى الصلاة .

وقال شيوخ الصوفية : إن المراد بهذه الآية استغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا؛ قال ابن العربى : وهذا ضعيف ، فإن الأمر لم يتناول ذلك إلا واجبا لا نفلا[2] ، فإن الأوراد معلومة ، وأوقات النوافل المرغّب فيها محصورة، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها الندب على البدل لا على العموم ، وليس ذلك فى قوة بشر .

الثانية — قوله تعالى : ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ قال مجاهد : الطرف الأول صلاة الصبح ، والطرف الثانى صلاة الظهر والعصر؛ واختاره ابن عطية . وقيل : الطرفان الصبح والمغرب؛ قاله ابن عباس والحسن . وعن الحسن أيضا : الطرف الثانى العصر وحده ؛ وقاله قتادة والضّحاك . وقيل : الطّرفان الظهر والعصر . والزُّلَف المغرب والعشاء والصبح ؛ كأن هذا القائل راعى جهر القراءة . وحكى الماوردى أن الطرف الأول صلاة الصبح باتفاق .

قلت : وهذا الاتفاق ينقصه القول الذى قبله . ورجح الطّبرى أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر؛ قال ابن عطية : ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل . قال ابن العربى : والعجب من الطبرى الذى يرى أن طرفى النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليل ! فقلب القوس ركوة[3] ، وحاد عن البرجاس[4] غلوة ؛ قال الطبرى : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ، ولم يجمع معه على ذلك أحد .

---

(١) (حزبه) : نزل به مهم، أو أصابه غم .

(٢) كذا فى ع و و . والذى فى ابن العربى : لم يتناول ذلك لا واجبا فإنها خمس صلوات ولا نفلا .

(٣) لفظ المثل كما فى الصحاح وغيره (صارت القوس ركوة) ويضرب فى الإدبار وانقلاب الأمور .

(٤) البرجاس (بالضم) : غرض على رأس رمح أو نحوه مولد . والغلوة : قدر رمية بسهم .

Marfat.com

قلت : هذا تحامل من آبن العربى فى الرد، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد؛ وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح، وقد وقع الاتفاق — إلا من شذّ — بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمدا أن يومه ذلك يوم فطر، وعليه القضاء والكفارة، وما ذلك إلا وما بعـد طلوع الفجر من النهار ؛ فدلّ على صحة ما قاله الطّبرى فى الصبح ، وتبقى عليه المغرب والردّ عليه فيه ما تقدّم . والله أعلم .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْـلِ ﴾ أى فى زُلَف من الليـل ، والزُّلَف الساعات القريبـة بعضها من بعض ؛ ومنه سميت المزْدلِفَة؛ لأنها منزل بعـد عرَفة بقرب مكة . وقـرأ ابن القَعْقاع وابن أبى إسحاق وغيرهما «وَزُلُفًا» بضم اللام جمع زَلِيف؛ لأنه قد نطق بزَلِيف، ويجوز أن يكون واحده « زُلُفَة » لغة؛ كبُسُرة وبُسُر، فى لغة من ضمّ السين . وقرأ آبن محيصن « وَزُلْفًا » من الليل بإسكان اللام؛ والواحدة زُلْفة تجمع جمع الأجناس التى هى أشخاص كدُرّة ودُرّ وبُرّة وبُرّ . وقرأ مجـاهد وآبن محيصن أيضا « زُلْفَى » مثـل قُربى . وقرأ الباقون « وَزُلَفًا » بفتح اللام كغُرْفة وغُرَف . قال ابن الأعرابى : الزُّلَف الساعات ، واحدها زُلْفَة . وقال قوم : الزُّلفة أوّل ساعة من الليل بعد مغيب الشمس ؛ فعلى هذا يكون المراد بزُلَف الليل صلاة العَتَمة ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء . وقيل : المغرب والعشاء والصبح ؛ وقد تقدّم . وقال الأخفش : يعنى صلاة الليل ولم يعين .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين [رضى الله عنهم أجمعين][1] إلى أن الحسنات ها هنا هى الصلوات الخمس وقال مجاهد : الحســنات قول الرجل سـبحان الله والحمـد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ؛ قال آبن عطية : وهذا على جهة المثال فى الحسنات ، والذى يظهر أن اللفظ عام فى الحسنات خاص فى السيئات ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " ما آجتنبتَ الكبائر " .

قلت : سبب النزول يعضد قول الجمهور ؛ نزلت فى رجل من الأنصار ، قيـل : هو أبو اليَسَر بن عمرو . وقيل : آسمه عَبّاد ؛ خلا بامرأة فقبّلها وتلذذ بها فيما دون الفرج . روى

(١) من ك .

Marfat.com

الترمذي عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسّها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت . فقال له عمر : لقد سترك الله ! لو سترت على نفسك؛ فلم يردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه ، فتــلا عليه : « أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْــلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » إلى آخر الآية؛ فقال رجل من القوم : هذا له خاصة؟ قال : "[لا][1] بل للناس كافة". قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وخرّج أيضا عن ابن مســعود أن رجلا أصاب من امرأة قُبْــلة حرام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فنزلت : « أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » فقال الرجل : ألي هــذه يارسول الله ؟ فقال : "لك ولمن عمل بها من أمتي" . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن أبي اليَسَر قال : أتتني امرأة تبتاع تمرا فقلت : إن في البيت تمرا أطيب من هذا، فدخلت معي في البيت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : اســتر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر ، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : اســتر على نفسك وتُبْ ولا تخبر أحدا فلم أصبر، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : "أَخْلَفْتَ غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا" ؟ حتى تمنى أنه لم يكن أسـلم إلا تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه «أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ» . قال أبو اليَسَر : فأتيته فقرأها عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يارسول الله ! ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال : "بل للناس عامة" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب[2]، وقيس بن الربيع ضعّفه وَكِيعٌ وغيره؛ وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعرض عنــه ، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليــه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له : "أشهدت معنا

---

(١) الزيادة عن الترمذي .	(٢) الذي في صحيح الترمذي (صحيح) بدل (غريب) .

Marfat.com

الصلاة "؟ قال نعم ؛ قال : "اذهب فإنها كفارة لما فعلت" . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تلى عليه هذه الآية قال له : " قم فصل أربع ركعات " . والله أعلم . وخرّج الترمذى الحكيم فى «نوادر الأصول» من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم، «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ» " .

الخامسة — دلّت الآية مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللّمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ ، وقد يستدلّ به على أن لا حدّ ولا أدب على الرجل والمرأة و إن وُجدا فى ثوب واحد ، وهو اختيار ابن المنذر ؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء فى هذه المسألة ذكر هذا الحديث مشيرا إلى أنه لا يجب عليهما شيء، وسيأتى ما للعلماء فى هذا فى « النور »[1] إن شاء الله تعالى .

السادسة — ذكر الله سبحانه فى كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ » الآية . وقال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ »[2] الآية . وقال : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ »[3] . وقال : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا »[4] . وقال : « ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا » . وقال : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ »[5] . وقال : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا »[6] على ما تقدم . وقال : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا »[2] أى بقراءتك ؛ وهذا كله مجمل أجمله فى كتابه ، وأحال على نبيه فى بيانه ؛ فقال جل ذكره : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[2] فبيّن صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة، وعدد الركعات والسّجدات ، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها، وما لا تصح [الصلاة][7] إلا به من الفرائض وما يستحب فيها من السنن والفضائل ؛ فقال فى صحيح البخارى : " صلّوا كما رأيتمونى أصلى " . ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة ، على ما هو معلوم ، ولم

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٦١ وص ٩٨ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٣ وص ٣٤٣ وص ١٠٨ .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ١٤ . (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٦٠ . (٥) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ .
(٦) راجع جـ ٧ ص ٣٥٣ . (٧) من أ و ع .

Marfat.com

يمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى بيّن جميع ما بالناس الحاجة إليه ؛ فكمل الدين ، وأوضح السبيل ؛ قال الله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا[(١)] » .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ أى القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر ؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بالذكرى . والذكرى مصدر جاء بألف التأنيث .

قوله تعالى : وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)

قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ أى على الصلاة ؛ كقوله : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا[(٢)] » . وقيل : المعنى واصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعنى المصلين .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ ﴾ أى فهلّا كان . ﴿ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أى من الأمم التى قبلكم . ﴿ أُولُو بَقِيَّةٍ ﴾ أى أصحاب طاعة ودين وعقل و بصر . ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ قومهم . ﴿ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات ؛ وهذا توبيخ للكفار. وقيل : لولا هاهنا للنفى ؛ أى ما كان من قبلكم ؛ كقوله : « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ[(٣)] » أى ما كانت. ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ استثناء منقطع ؛ أى لكن قليلا . ﴿ مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ نهوا عن الفساد فى الأرض . قيل : هم قوم يونس ؛ لقوله : « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » . وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق . ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى أشركوا وعصوا . ﴿ مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ أى من الاشتغال بالمال واللذات ، وإيثار ذلك على الآخرة . ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ .

(١) راجع جـ ٦ ص ٦١ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٦٣ . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٨٣ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ أى أهل القرى . ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أى بشرك وكفر . ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أى فيما بينهم فى تعاطى الحقوق ؛ أى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليـه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان ، وقوم لوط باللواط ؛ ودلّ هـذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيا من الشرك ، وإن كان عذاب الشرك فى الآخرة أصعب . وفى صحيح الترمذى من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده ". وقد تقدّم[1] . وقيـل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلما لهم ونقصا من حقهـم ، أى ما أهلك قوما إلا بعـد إعذار وإنذار . وقال الزّجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمـه وإن كان على نهاية الصلاح ؛ لأنه تصرف فى ملكه ؛ دليله قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا »[2] . وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون ؛ أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال سعيد بن جبير : على ملة الإسلام وحدها . وقال الضّحاك : أهل دين واحد ، أهل ضلالة أو أهل هدى . ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ أى على أديان شتى ؛ قاله مجاهد وقتادة . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ استثناء منقطع ؛ أى لكن من رحم ربك بالإيمان والهـدى فإنه لم يختلف . وقيل : مختلفين فى الرزق ، فهذا

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٤٢ فما بعدها . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٤٦ .

Marfat.com

غنيّ وهذا فقير . «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» بالقناعة؛ قاله الحسن . ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء [ويمان](١) : الإشارة للاختلاف؛ أى وللاختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : ولرحمته خلقهم؛ وإنما قال : «وَلِذَٰلِكَ» ولم يقل ولتلك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضا فإن تأنيث الرحمة غير حقيقي، فحملت على معنى الفضل . وقيل : الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة، وقد يشار بـ «ذلك» إلى شيئين متضادين؛ كقوله تعالى : «لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ»(٢) ولم يقل بين ذينك ولا تينك، وقال : «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا»(٣) وقال : «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا»(٤) وكذلك قوله : «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا»(٥) وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم، أى ولما ذكر خلقهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب : سألت مالكا عن هذه الآية قال : خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير؛ أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة . وروى عن ابن عباس أيضا قال : خلقهم فريقين، فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه . قال المهدوى : وفى الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير؛ المعنى : ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم . وقيل : هو متعلق بقوله : «ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» والمعنى : ولشهود ذلك اليوم خلقهم . وقيل : هو متعلق بقوله : «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ» أى للسعادة والشقاوة خلقهم .

قوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ معنى «تمت» ثبت ذلك كما أخبر وقدر فى أزله؛ وتمام الكلمة امتناعها عن قبول التغيير والتبديل . ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ «من» لبيان الجنس؛ أى من جنس الجنة وجنس الناس . «أجمعين» تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه [صلى الله عليه وسلم](٦) أنه يملأ جنته بقوله : "ولكل واحدة منكما ملؤها" . خرجه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

(١) من ع، ا، و، ى . (٢) راجع جـ ١ ص ٤٤٨ . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٧٢ .
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٣ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٣٥٣ . (٦) من ع .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ « كُلًّا » نصب بـ«نقص» معناه وكلّ الذى تحتاج إليه من أنباء الرسل نقصّ عليك . وقال الأخفش : « كُلًّا » حال مقدّمة، كقولك : كُلًّا ضربت القوم . ﴿ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ ﴾ أى من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم . ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ أى على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : نزيدك به تثبيتا ويقينا . وقال ٱبن عباس : ما نشدّ به قلبك . وقال ٱبن جُريج : نُصبّر به قلبك حتى لا تجزع . وقال أهل المعانى : نُطيّب، والمعنى متقارب . و « ما » بدل من « كلّا » المعنى : نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . ﴿ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾ أى فى هذه السورة؛ عن ٱبن عباس وأبى موسى وغيرهما؛ وخصّ هذه السورة لأنّ فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار . وقيل : خصّها بالذكر تأكيدا وإن كان الحقّ فى كل القرآن . وقال قتادة والحسن : المعنى فى هذه الدنيا، يريد النبوة . ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الموعظة ما يُتّعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة؛ وهذا تشريف لهذه السورة؛ لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحقّ والموعظة[1] والذكرى ولم يقل فيها كما قال فى هذه على التخصيص . « وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون؛ وخصّ المؤمنين لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

(١) فى ع : المواعظ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ تهديد ووعيد . ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ . وَٱنتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ تهديد آخر ، وقد تقدّم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى غيبهما وشهادتهما ، فحذف لدلالة المعنى . وقال ابن عباس : خزائن السموات والأرض . وقال الضّحاك : جميع ما غاب عن العباد فيهما . وقال الباقون : غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض . وقال أبو على الفارسيّ : « وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى علم ما غاب فيهما ؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعا ؛ لأنه حذف حرف الجر ؛ تقول : غبت فى الأرض وغبت ببلد كذا . ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ أى يوم القيامة ؛ إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه . وقرأ نافع وحفص « يُرْجَعُ » بضم الياء وفتح الجيم ؛ أى يُرَد . ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أى الجأ إليه وثق به . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى يجازى كلا بعمله . وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة . الباقون بياء على الخبر . قال الأخفش سعيد : « يعملون » إذا لم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم معهم ؛ قال بعضهم وقال : « تعملون » بالتاء لأنه خاطب النبى صلى الله عليه وسلم وقال : قل لهم « وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » . وقال كعب الأحبار : خاتمة التوراة خاتمة « هود » من قوله : « وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » إلى آخر السورة . تمت سورة « هود » ويتلوها سورة « يوسف » عليه السلام .

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ســـورة يوسف عليه السلام

وهى مكية كلها . وقال آبن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصّة يوسف فنزلت السّورة؛ وسيأتى . وقال سعد آبن أبى وقاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو قصصت علينا؛ فنزل: « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو حدثتنا؛ فأنزل : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » (١) . قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء فى القرآن وكرّرها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكرّرها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ماتكرّر ، ولا على معارضة غير المتكرّر ، والإعجاز لمن تأمل .

قوله تعالى : الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الر ﴾ تقدّم القول فيه (٢)؛ والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر . وقيل : « الر » آسم السورة؛ أى هذه السورة المسماة « الر » ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى [بالكتاب المبين] (٣) القرآن المبين؛ أى المبين حلاله وحرامه، وحدوده وأحكامه وهُداه وبركته . وقيل : أى هذه تلك الآيات التى كنتم توعدون بها فى التّوراة .

قوله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربيا؛ نصب « قرآنا » على الحال؛ أى مجموعا . و«عربيّا» نعت لقوله «قرآنا» . ويجوز أن يكون توطئة للحال ، كما تقول : مررت بزيد رجلا صالحا ، و« عربيّا » على الحال،

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٥٤ فما بعد . (٣) من ع .

Marfat.com

أى يُقرأ بلغتكم يا معشر العرب . أَعْرَبَ بَيَّنَ ، ومنه "الثَّيِّبُ تُعرب عن نفسها" . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى لكى تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيه . وبعض العرب يأتى بأن مع « لعل » تشبيها بعسى . واللام فى « لعل » زائدة للتوكيد ؛ كما قال الشاعر(١) :

* يا أَبَتَا عَلَّكَ أَوْ عَسَاكَا *

وقيل : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لتكونوا على رجاء من تدبّره ؛ فيعود معنى الشّك إليهم لا إلى الكتاب ، ولا إلى الله عز وجل . وقيل : معنى « أَنْزَلْنَاهُ » أى أنزلنا خبر يوسف ؛ قال النحاس : وهذا أشبه بالمعنى ؛ لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ؛ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما فى التوراة ، وفيه زيادة ليست عندهم . فكان هذا للنبى صلى الله عليه وسلم — إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتابا [قطّ](٢) ولا هو فى موضع كتاب — بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتى فيه .

قوله تعالى : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ بمعنى المصدر ، والتقدير : قصصنا أحسن القَصَص . وأصل القَصَص تتبع الشيء ، ومنه قوله تعالى : « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ »(٣) أى تتبعى أثره ؛ فالقاصّ يتبع الآثار فيخبر بها . والحسن يعود إلى القَصَص لا إلى القصّة . يقال : فلان حسن الاقتصاص للحديث أى جيّد السّياقة له . وقيل : القَصَص ليس مصدرا ، بل هو فى معنى الاسم ، كما يقال : الله رجاؤنا ، أى مرجوّنا فالمعنى على هذا : نحن نخبرك بأحسن الأخبار . ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى بوحينا فـ « ما » مع الفعل بمنزلة المصدر . ﴿ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ نصب القرآن على أنه نعت لهذا ، أو بدل منه ، أو عطف بيان . وأجاز الفراء الخفض ؛ قال : على التكرير ؛ وهو عند البصريين على البدل من « ما » .

---

(١) الرجز للعجاج ، وصدر البيت .

* تقول بنتى قد أنى أناكا *

(٢) من ع .　　(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٥٤ .

Marfat.com

وأجاز أبو إسحاق الرفع على إضمار مبتدأ؛ كأن سائلا سأله عن الوحى فقيل له : هو [هـذا](١) القرآن . ﴿ وَإِنْ كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ أى من الغافلين عما عرّفناكه(١) .

مســألة ـــ واختلف العلمـاء لِمَ سُميت هذه السورة أحسن القَصص من بين سـائر الأقاصيص ؟ فقيل : لأنه ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة؛ وبيانه قوله فى آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ »(٢) . وقيل : سماها أحسن القَصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم ـــ بعـد الالتقاء بهم ـــ عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه فى العفـو عنهم ، حتى قال : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ »(٢) . وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين، والجن والإنس والأنعام والطّير، وسير الملوك والممـالك ، والتّجار والعلماء والجهّال ، والرجال والنّساء وحيلهنّ ومكرهنّ ، وفيها ذكر التّوحيد والفقه والسِّير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجمـل الفوائد التى تصلح للدين والدنيا . وقيـل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل : « أَحْسَنَ » هنا بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعانى : إنمـا كانت أحسن القَصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة؛ انظر إلى يوسـف وأبيه وإخوته ، وامرأة العزيز؛ قيل : والملك أيضا أسـلم بيوسف وحسن إسـلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقى، والشاهد فيما يقال؛ فمـا كان أمر الجميع إلا إلى خير .

قوله تعـالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ « إِذْ » فى موضع نصب على الظرف؛ أى اذكر لهم حين قال يوسف . وقراءة العامة بضم السين . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « يُؤْسِف » بالهمز وكسر السين . وحكى أبو زيد « يؤسَف » بالهمز وفتح السين . ولم ينصرف لأنه أعجمىّ؛ وقيل : هو عربىّ . وسئل أبو الحسن الأقطع ـــ وكان حكيما ـــ عن « يوسف » فقال : الأسف فى اللغة

---

(١) من ع ، ى . (٢) راجع ص ٢٧٧ و ص ٢٥٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

الحزن، والأسِيف العبد، وقد آجتمعا فى يوسف؛ فلذلك سمى يوسف . ﴿ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ ﴾ بكسر التاء قراءة أبى عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائى، وهى عند البصريين علامة التأنيث أدخلت على الأب فى النداء خاصة بدلا من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التأنيث على المذكر فيقال : رجل نُكَحَة وهُزَأة؛ قال النحاس : إذا قلت « يَا أَبَتِ » بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل : منها — أن قولك : «يا أبه» يؤدّى عن معنى «يا أبى»؛ وأنه لا يقال: «يا أبت» إلا فى المعرفة؛ ولا يقال : جاءنى أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا فى النداء خاصة، ولا يقال : «يا أبتى» لأن التاء بدل من الياء فلا يُجمع بينهما . وزعم الفراء أنه إذا قال : « يَا أَبَتِ » فكسر دلّ على الياء لا غير؛ لأن الياء فى النية . وزعم أبو إسحاق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ كيف تكون الياء فى النية وليس يقال : « يا أبتى » ؟ ! وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر « يا أبَتَ » بفتح التاء؛ قال البصريون : أرادوا « يا أبتى » بالياء، ثم أبدلت الياء ألفا فصارت « يا أبتا » فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء . وقيل : الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال : ياغلاما أقبل . وأجاز الفراء « يا أبتُ » بضم التاء . ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ ليس بين النحويين آختلاف أنه يقال : جاءنى أحدَ عشَر، ورأيت ومررت بأحدَ عشر، وكذلك ثلاثةَ عشَر وتسعةَ عشَر وما بينهما؛ جعلوا الآسمين آسما واحدا وأعربوهما بأخف الحركات . قال السّهيلى : أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسندا؛ رواه الحرث بن أبى أسامة قال : جاء بستانة — وهو رجل من أهل الكتّاب — فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الأحد عشر كوكبا الذى رأى يوسف فقال : " الحرثان[1] والطارق والذيال وقابس والمصبح والضروح[2] وذو الكنفات وذو القرع والفَليق ووَثّاب والعَمُودَان؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد له " . قال آبن عباس وقَتادة : الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه . وقال قَتادة أيضا : الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت

(١) فى حاشية الجمل : جريان — بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد التحتية منقول من اسم طوق القميص . وقابس مقتبس النار وعمودان تثنية عمود والفليق نجم منفرد والمصبح ما يطلع قبل الفجر والفرع بفاء وراء مهملة ساكنة وعين : نجم عند الدلو . ووثاب بتشديد المثلثة سريع الحركة وذو الكتفين تثنية كتف نجم كبير . وهذه نجوم غير مرصودة .
(٢) كذا فى « عقد الجمان » للعينى، وفى الأصل « النطح » . (٣) وفى الجمل : الصروخ .

Marfat.com

أبيـه . ﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾ توكيد . وقال : « رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ » فجاء مذكرا ؛ فالقول عند الخليـل وسيبويه أنه لمـا أخبر عن هذه الأشـياء بالطاعة والسّجود وهما من أفعـال من يعقل أخبر عنها كما يخبر عمن يعقل . وقد تقدم هـذا المعنى فى قـوله : « وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْـكَ »(١) . والعرب تجمع مالا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته ، وإن كان خارجا عن الأصل .

قوله تعـالى : قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

فيه إحدى عشرة مسئلة :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أى يحتالوا فى هلاكك؛ لأن تأويلها ظاهر ؛ فربمـا يحملهم الشيطان على قصدك بسـوء حينئذ . واللام فى « لك » تأكيـد ، كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » .

الثانيـــة ــ الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "لم يبق بعدى من المبشّرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصـالح أو تُرى له" . وقال : "أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا" . وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة، وروى "من سبعين جزءا من النبوّة" . وروى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما "جزءا من أربعين جزءا من النبوّة" . ومن حديث ابن عمر "جزء من تسعة وأربعين جزءا" . ومن حديث العبـاس "جزء من خمسين جزءا من النبـوّة" . ومن حديث أنس "من ستة وعشرين" وعن عُبادة بن الصّامت "من أربعة وأربعين من النبوّة" . والصحيح منها حديث الستة والأربعين، ويتلوه فى الصحة حديث السبعين؛ ولم يخرج مسلم فى صحيحه غير هذين الحديثين ، أما سائرها فمن أحاديث الشيوخ؛ قاله ابن بطّال . قال أبو عبد الله المـازَرىّ : والأكثر والأصح عند أهل الحـديث "من ستة وأربعين" . قال الطّبرىّ : والصواب أن

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤ .

Marfat.com

يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول ؛ فأما قوله : " إنها جزء من سبعين جزءا من النبوّة " فإن ذلك قول عام فى كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها فى منامه على أى أحواله كان؛ وأما قوله : " إنهـا من أربعين — أو — ستة وأربعين " فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التى ذكرت عن الصدّيق — رضى الله عنه — أنه كان بها؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء فى السَّبَرات (١) ، والصبر فى الله على المكروهات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فرؤياه الصالحة — إن شاء الله — جزء من أربعين جزءا من النبـوّة، ومن كانت حاله فى ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين جزءين ؛ ما بين الأربعـين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين ؛ وإلى هـذا المعنى أشار أبو عمـر ابن عبـد البر فقال : اختلاف الآثار فى هـذا الباب فى عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندى اختـلاف متضاد متدافع — والله أعلم — لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحـديث ، وأداء الأمانة ، والدِّين المتين ، وحسن اليقين ؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العـدد ؛ فمن خلصت نيته فى عبـادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق ، وإلى النبوّة أقرب : كما أن الأنبياء يتفاضلون ؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » (٢) .

قلت : فهـذا التأويل يجمع شتات الأحاديث ، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه؛ ذكره أبو سعيد الأَسْفاقُسى (٣) عن بعض أهل العلم قال : معنى قوله : " جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة " فإن الله تعـالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسـلم فى النبوّة ثلاثة وعشرين عاما — فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله تعـالى عنهما — فإذا نسبنا سـتة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من سـتة وأربعين جزءا ؛ وإلى هذا القول أشار المـازَرى فى كتابه « المعـلم » واختاره القونوى (٤) فى تفسيره من سورة « يونس » عند قوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » (٥) . وهو فاسد من وجهين :

(١) السبرات (جمع سبرة) بسكون الباء : شدة البرد . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٧٨ .
(٣) كذا فى الأصول وصوابه : الصفاقسى . (٤) فى ع : الغزنوى . (٥) راجع جـ ٨ ص ٣٥٨ .

Marfat.com

أحدهما — ماروا أبو سَـلَمة عن ابن عباس وعائشة بأن مدّة الوحى كانت عشرين سنة، وأن النبي صلى الله عليه وسـلم بعث على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشر سنين ؛ وهـو قول عروة والشعبيّ وابن شهاب والحسن وعطاء الخرسانى وسعيد بن المسيّب على آختلاف عنه، وهى رواية ربيعة وأبى غالب عن أنس ، وإذا ثبت هذا الحـديث(١) بطل ذلك التأويل — الثـانى : أن سائر الأحاديث فى الأجزاء المختلفة تبق بغير معنى .

الثالثـــة — إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوّة؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شىء من علم الغيب؛ كما قال عليه السلام : "إنه لم يبق من مبشِّرات النبوّة إلا الرؤيا الصادقة فى النوم" الحديث . وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوّة؛ قال صلى الله عليه وسلم : "الرؤيا من الله والحُلُم من الشيطان" وأن التصديق بها حقّ، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن فى إيمانه؛ ولا خلاف فى هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأى والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشرذمة من المعتزلة .

الرابعـــة — إن قيل : إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوّة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلِّط أهلا لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة؛ كمنام رؤيا الملك الذى رأى سبع بقرات ، ومنام الفتيين فى السجن ، ورؤيا بُخْتَنَصَّر، التى فسّرها دانيال فى ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى فى ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، ومنام عاتكة، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره وهى كافرة، وقد ترجم البخارى «باب رؤيا أهل السجن» — فالجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم فى بعض الأوقات لا تكون من الوحى ولا من النبوّة؛ إذ ليس كل من صدق فى حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوّة؛ وقد تقدّم فى « الأنعام(٢) » أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء؛ قال المهلّب : إنما ترجم البخارى

---

(١) فى ع و ى : هذا الخلاف .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣ فما بعدها .

Marfat.com

بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوّة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوّة .

الخامسة — الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هى التى خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقا لما فى اللوح المحفوظ ، والتى هى من خبر الأضغاث[1] هى الحُلْم ، وهى المضافة إلى الشيطان ، وإنما سميت ضِغثا ؛ لأن فيها أشياء متضادة ؛ قال معناه المهلَّب . وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساما تغنى عن قول كل قائل ؛ روى عوف ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان ليُحزن آبن آدم ومنها ما يهتم به فى يقظته فيراه فى منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة " . قال قلت : سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : نعم! سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ لآية . الرؤيا مصدر رأى فى المنام، رؤيا على وزن فُعلى كالسُّقْيا والبُشْرى ؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف . وقد آختلف العلماء فى حقيقة الرؤيا؛ فقيل : هى إدراكٌ فى أجزاء لم تحلّها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا فى آخر الليل لقلة غلبة النوم؛ فيخلق الله تعالى للرائى علما ناشئا ، ويخلق له الذى يراه على ما يراه ليصح الإدراك ، قال آبن العربى : ولا يرى فى المنام إلا ما يصح إدراكه فى اليقظة، ولذلك لا يرى فى المنام شخصا قائما قاعدا بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات . وقيل : إن لله ملَكا يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم، فيمثل له صورا محسوسة ؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع فى الوُجُود ، وتارة تكون لمعانى معقولة غير محسوسة ، وفى الحالتين تكون مُبشِّرةً أو مُنذرة ؛ قال صلى الله عليه وسلم فى صحيح مسلم وغيره : " رأيتُ سوداء[2] ثائرة الرأس تخرج من المدينة إلى مَهْيَعة[3] فأوّلتها الحُمَّى ".

(١) : ع حيز . (٢) أى آمرأة سوداء ، كما فى رواية النسائى .
(٣) المهيعة : هى الجحفة ، ميقات أهل الشام .

Marfat.com

و" رأيت سيفى قد انقطع صدره و بقرا تنحر فأولتهما رجل من أهل بيتى يقتل والبقر نفر من أصحابى يقتلون". و" رأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة". و"رأيت فى يدى سوارين فأولتهما كذابين يخرجان بعدى". إلى غير ذلك مما ضربت له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أولا [فأولا][(1)]، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكر؛ وقد رأى النائم فى زمن يوسف عليه السلام بقرا فأولها يوسف السنين، و رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه .

السابعـــة — إن قيل : إن يوسف عليـه السلام كان صغيرا وقت رؤياه ، والصغير لا حكم لفعله ، فكيف تكون له رؤيا لهـا حكم حتى يقول له أبوه : « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ » ؟ فالجواب — أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدمناه ، فتكون من الصـغير كما يكون منه الإدراك الحقيق فى اليقظة ، وإذا أخبر عما رأى صدق ، فكذلك إذا أخبر عما يرى فى المنام ؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنهـا وجدت كما رأى فلا اعتراض؛ روى أن يوسف عليه السلام كان ابن اثنتى عشرة سنة .

الثامنـــة — هـذه الآية أصل فى ألا تقص الرؤيا على غير شـفيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيهـا ؛ روى أبو رزين العقيلى أن النبى صلى الله عليه وسـلم قال : "الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوة". و"الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلا أو محبا أو ناصحا" أخرجه الترمذى وقال فيه : حديث حسن صحيح ؛ وأبو رزين اسمـه لقيط بن عامر . وقيل لمـالك : أيعبر الرؤيا كل أحد ؟ فقال : أبالنبوة يلعب ؟ وقال مالك : لا يعـبر الرؤيا إلا من يحسنها ، فإن رأى خيرا أخبر به ، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت ؛ قيل : فهل يعبرها على الخير وهى عنده على المكروه لقول من قال إنهـا على ما تأولت عليه ؟ فقال : لا ! ثم قال : الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة .

التاســعة — وفى هـذه الآية دليل على أن مباحا أن يحذر المسلم[(2)] أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلا فى معنى الغيبة؛ لأن يعقوب — عليه السلام — قد حذر يوسف أن

(1) من ع و و ى . (2) فى ع : الرجل .

Marfat.com

يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضا مايدلّ على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا ؛ وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " استعينوا على [إنجاح][1] حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود " . وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا ؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيرا منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه . ويدلّ أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه ؛ فنهاه عن قصص[2] الرؤيا عليهم خوف أن تَغِل بذلك صدورهم ، فيعملوا الحيلة فى هلاكه ؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدلّ على أنهم كانوا غير أنبياء فى ذلك الوقت ، ووقع فى كتاب الطبرىّ لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوىّ، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك ، والتآمر فى قتله ، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء ، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبىّ، إلا أن هذه الزلّة قد جمعت أنواعا من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا فى الصغائر على ماتقدم ويأتى .

العاشــرة — روى البخارىّ عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول : " لم يبـق مـن النبـوة إلا المبشِّرات " قالوا : وما المبشِّرات ؟ قال : " الرؤيا الصالحة " وهـذا الحديث بظاهره يدلّ على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك ؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قِبل الله تعالى لا تسر رائيها ، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة ، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأوّلها بنفسه ، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك . وقد رأى الشافعى رضى الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حَنْبل تدلّ على مِحنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك ، وقد تقدّم فى « يونس » فى تفسير قوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »[3] أنها الرؤيا الصالحة . وهذا وحديث البخارىّ مخرجه على الأغلب، والله أعلم .

---

(١) الزيادة عن « الجامع الصغير » .   (٢) فى ع : قص .   (٣) راجع جـ ٨ ص ٤٥٨ .

Marfat.com

الحـادية عشرة — روى البخارىّ عن أبى سَلَمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت أبا قَتادة يقول: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الرؤيا الحسـنة من الله فإذا رأى أحدكم مايحب فلا يحدّث به إلا من يحب و إذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدّث بها أحدا فإنها لن تضره " . قال علماؤنا : فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها ؛ ألا ترى قول أبى قتادة : إنى كنت لأرى الرؤيا هى أثقل علىّ من الجبل ، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئا . وزاد مسلم من رواية جابر عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحول عن جنبه الذى كان عليه " . وفى حديث أبى هُريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل " . قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض، وإنمـا هذا الأمر بالتحوّل، والصلاة زيادة، فعلى الرائى أن يفعل الجميع،والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحول عن جنبه ، و إذا تمضمض تَفَل و بَصَق ، و إذا قام إلى الصلاة تعوّذ ودعا وتضرع لله تعالى فى أن يكفيه شرها فى حال هى أقرب الأحوال إلى الإجابة، وذلك السَّحَر من الليل .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ الكاف فى موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف، وكذلك الكاف فى قوله : « كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ » و« ما » كافّة . وقيل: « وَكَذَٰلِكَ » أى كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا . قال مقاتل : بالسجود لك . الحسن : بالنبوة . والاجتباء اختيار معالى الأمور للمُجتَبَى، وأصله من جَبَيْتُ

Marfat.com

الشيء أى حصّلته ، ومنه جبيت الماء فى الحوض؛ قاله النحاس . وهذا ثناءٌ من الله تعالى على يوسف عليه السلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التى آتاه الله تعالى؛ من التمكين فى الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث؛ وأجمعوا أن ذلك فى تأويل الرؤيا . قال عبد الله بن شدّاد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة؛ وذلك منتهى الرؤيا . وعَنَى بالأحاديث ما يراه الناس فى المنام، وهى معجزةٌ له؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ. وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك، وكان الصدّيق رضى الله عنه من أعبر الناس لها ، وحصل لابن سيرين فيها التقدُّم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيّب فيما ذكروا . وقد قيل فى تأويل قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أى أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد، فهو إشارة إلى النبوّة، وهو المقصود بقوله : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أى بالنبوّة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك؛ وقيل : بإنجائك من كل مكروه . ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بالخلة، و إنجائه من النار . ﴿ وَإِسْحَقَ ﴾ بالنبوّة . وقيل : من الذبح(1)؛ قاله عكرمة . وأعلمه الله تعالى بقوله : «وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ» أنه سيعطى بنى يعقوب كلهم النبوّة؛ قاله جماعة من المفسرين . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بما يعطيك . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى فعله بك .

قوله تعالى : لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ يعنى من سأل عن حديثهم . وقرأ أهل مكة «آيةٌ» على التوحيد؛ واختار أبو عبيد «آياتٌ» على الجمع؛ قال : لأنها خبر كثير . قال النحاس : و «آية» هنا قراءة حسنة؛ أى لقد كان للذين سألوا عن خبر

(1) تقدم أن الذبيح هو إسماعيل وهو الحق وسيأتى فى « والصافات » أيضا ، وفى ع : والفدا من الذبح .

Marfat.com

يوسف آية فيما خبّروا به، لأنهم سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج آبنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمى؟ — ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجّه اليهودُ [إليهم](١) من المدينة يسألونه عن هذا — فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة، فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة، فكان ذلك آية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت . « آيَاتٌ(٢) » موعظة، وقيل : عبرة . وروى أنها في بعض المصاحف « عبرة » . وقيل : بصيرة . وقيل : عجب، تقول فلان آية في العلم والحسن أي عجب . قال الثعلبيّ في تفسيره : لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه، وقال آبن زيد : كانوا أنبياء، وقالوا : ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه! فبغوه بالعداوة، وقد تقدّم ردّ هذا القول . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ وأسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون ويشجر، وأمهم ليا بنت ليان، وهى بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر، دان ونفتالى وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب آثنى عشر رجلا . قال السّهيلى : وأمّ يعقوب آسمها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب . وقيل : في آسم الأمتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحلّ لأحد بعده، لقول الله تعالى : «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ(٣)» . وقد تقدّم الرّد على ما قاله آبن زيد، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ ﴾ « يوسف » رفع بالابتداء، واللام للتأكيد، وهى التى يتلقى بها القسم، أى والله ليوسف . ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ عطف عليه . ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ خبره، ولا يثنّى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل، وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فتآمروا في كيده . ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أى جماعة، وكانوا عشرة . والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل : إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين الأربعين إلى العشرة، ولا واحد لها من لفظها كالنفر

(١) من ع و ز و ك و ى . (٢) فى ع : آية . بالتوحيد وهو المطابق للتفسير . (٣) راجع جـ ٥ ص ١١٦ .

Marfat.com

والرهط . ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ لم يريدوا ضلال الدين، إذ لو أرادوه لكانوا كفارا؛ بل أرادوا لفى ذهاب عن وجه التدبير، فى إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم فى الانتساب إليه . وقيل : لفى خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخاه علينا .

قوله تعالى : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى قال قائل منهم : « اقتلوا يوسف » ليكون أحسم لمادة الأمر. ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ أى فى أرض، فأسقط الخافض وانتصب الأرض؛ وأنشد سيبويه فيما حذف منه « فى » :

لَدْنٌ بهزّ الكفّ يعسِل متنُه * فيه كما عسَل الطريقَ الثعلبُ[1]

قال النحاس : إلا أنه فى الآية حسن كثير؛ لأنه يتعدّى إلى مفعولين، أحدهما بحرف، فإذا حذفت الحرف تعدّى الفعل إليه . والقائل قيل : هو شمعون، قاله وهب بن منبه . وقال كعب الأحبار : دان . وقال مقاتل : روبيل؛ والله أعلم . والمعنى أرضا تبعد عن أبيه؛ فلا بدّ من هذا الإضمار لأنه كان عند أبيه فى أرض[2] . ﴿ يَخْلُ ﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ معناه: يخلص ويصفو . ﴿ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فيقبل عليكم بكليته . ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد الذنب، وقيل : من بعد يوسف . ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ أى تائبين؛ أى تحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم؛ وفى هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم . وقيل : « صالحين » أى يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل .

قوله تعالى : قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية وقد وصف فيه رمحا لين الهز؛ فشبه اضطرابه فى نفسه أو فى حال هزه بعسلان الثعلب فى سيره؛ والعسلان : سير سريع فى اضطراب . واللدن : الناعم اللين . ويروى : لذ؛ أى مستلذ عند الهزلينه . (شواهد سيبويه) .

(٢) فى ع : أرضه .

Marfat.com

فيه ثلاث عشرة مسـئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ القائل هو يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب؛ قاله ابن عباس . وقيل : روبيل، وهو ابن خالته ؛ وهو الذى قال : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » [الآية](١). وقيل : شمعون . ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة « فى غيابةِ الجبّ » . وقرأ أهل المدينة « فِى غَيَابَاتِ الْجُبِّ » واختار أبو عبيد التوحيد ؛ لأنه على موضع واحد ألقوه فيه ، وأنكر الجمع لهذا . قال النحاس : وهذا تضييق فى اللغة ؛ « وغيابات » على الجمع يجوز [من وجهين](٢) : حكى سيبويه سِيرَ عليه عشيّاناتٍ وأصيلاناتٍ، يريد عشية وأصيلا، فجعل كل وقت منها عشية وأصيلا؛ فكذا جعل كل موضع ممـا يُغَيِّب غَيابة . [والآخر — أن يكون فى الجبّ غيابات (جمـاعة) . ويقال : غاب يَغيبُ](١) غيبًا وغَيابة وغِيابا؛ كما قال الشاعر :

أَلَا فالبِثَا شهرين أو نصفَ ثالثٍ * أَنَا ذَاكُمَا قـــد غيَّبتْنِى غِيَابِيَـا

قال الهروى : والغَيابة شبه لَجَفٍ(٣) أو طاق فى البئر فويق المـاء، يغيب الشىء عن العين . وقال ابن عُزَيْز : كل شىء غيّب عنك شيئا فهو غَيـابة . قلت : ومنه قيـل للقبر غَيابة ؛ قال الشاعر :

فإنْ أنا يومًا غيَّبتْنِي غَيـابَتِي * فَسِيروا بِسَيْرِى فى العَشِيرةِ والأَهلِ

والجبّ الرَّكِيَّة التى لم تُطْوَ ، فإذا طُويت فهى بئر ؛ قال الأعشى :

لئن كنتَ فى جبٍّ ثمـانين قامةً * ورُقِّيتَ أســـبابَ السَّماءِ بسُــلَّمِ(٤)

وسميت جُبًّا لأنها قُطعت فى الأرض قَطْعا؛ وجمع الجبّ جِببة وجِباب وأجباب؛ وجمع بين الغَيابة والجبّ لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم من الجبّ حتى لا يلحقه نظر الناظرين . قيل :

---

(١) من ع . (٢) الزيادة عن النحاس . (٣) اللجف : الناحية من الحوض أو البئر يأكله الماء، فيصير كالكهف . (٤) بعده كما فى الديوان :

ليستدرجنك القـــول حتى تهـــره * وتعـــلم أنى عنـــك لست بمجرم
وتشرق بالقـــول الذى قد أذعتــه * كما شرقت صـــدر القناة من الدم

Marfat.com

هو بئر ببيت المقدس، وقيل : هو بالأردن؛ قاله وهب بن منبّه . مقاتل : وهو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ جزم على جواب الأمر . وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة : « تَلْتَقِطْهُ » بالتاء ، وهذا محمول على المعنى ؛ لأن بعض السيّارة سيّارة؛ وقال سيبويه : سقطت بعض أصابعه ، وأنشد(١) :

وتَشْرَقُ بالقولِ الذى قد أذعتَه * كما شَرِقَتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ

وقال آخر :

أرى مَرَّ السِّنينَ أخَذْنَ منّى * كما أخَذَ السِّرارُ(٢) من الهِلالِ

ولم يقل شَرِق ولا أخذت . والسيّارة الجمع الذى يسيرون فى الطريق للسفر ؛ وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ؛ فإن من التقطه من السيّارة يحمله إلى موضع بعيد ؛ وكان هذا وجها فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربما لا يأذن لهم أبوهم ، وربما يطلع على قصدهم .

الثالثة — وفى هذا ما يدلّ على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أوّلا ولا آخرا ؛ لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم، بل كانوا مسلمين ، فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل: كانوا أنبياء، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبىّ ، فكانت هذه زلّة منهم؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدّمناه . وقيل : ما كانوا فى ذلك الوقت أنبياء ثم نبّأهم الله ؛ وهذا أشبه ، والله أعلم .

الرابعة — قال ابن وهب قال مالك : طُرح يوسف فى الجبّ وهو غلام ، وكذلك روى ابن القاسم عنه، يعنى أنه كان صغيرا؛ والدليل عليه قوله تعالى : «لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ

---

(١) البيت للأعشى ، وهو يخاطب يزيد بن مسهر الشيبانى ، وكانت بينهما مباينة ومهاجاة ، فيقول له : يعود عليك مكروه ما أذعت عنى من القول ونسبته إلى من القبيح ، فلا تجد منه مخلصا . والشرق بالماء كالغصص بالطعام .

(٢) سرار الشهر (بفتح السين المهملة وكسرها) وسرره : آخر ليلة منه .

Marfat.com

فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ » قال : ولا يُلتقط إلا الصغير ؛ وقوله : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ » وذلك [أمر](١) يختص بالصغار؛ وقولهم : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

الخامسة — الالتقاط تناول الشيء من الطريق؛ ومنه اللّقيط واللُّقَطَة ، ونحن نذكر من أحكامها ما دلّت عليه الآية والسُّنة ، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة؛ قال ٱبن عرفة : الالتقاط وجود الشي على غير طلب ؛ ومنه قوله تعالى : « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ » أى يجده من غير أن يحتسبه . وقد ٱختلف العلماء في اللّقيط؛ فقيل : أصله الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد ؛ وروى عن الحسن بن عليّ أنه قضى بأن اللّقيط حرّ، وتلا «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روى عن عليّ وجماعة . وقال إبراهيم النّخَعى : إن نوى رِقه فهو مملوك ، وإن نوى الحسبة فهو حرّ . وقال مالك في موطّئه : الأمر عندنا في المنبوذ أنه حرّ، وأن ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه ويعقلون عنه، وبه قال الشافعى؛ واحتج بقوله عليه السلام: "وإنما الوَلَاء لمن أعتق" قال : فنفى الوَلَاء عن غير المعتِق . واتفق مالك والشافعى وأصحابهما على أن اللّقيط لا يُوالى أحدا، ولا يرثه أحد بالوَلَاء . وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين: اللّقيط يوالى من شاء، فمن ولاه فهو يرثه ويعقِل عنه؛ وعند أبى حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء، ما لم يعقِل عنه الذى والاه، فإن عقَل عنه جنايةً لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبدا . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن عليّ رضى الله عنه : المنبوذ حرّ، فإن أحبّ أن يوالى الذى التقطه والاه، وإن أحبّ أن يوالى غيره والاه؛ ونحوه عن عطاء، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة، وهو حرّ . قال ٱبن العربيّ : إنما كان أصل اللّقيط الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد ، فقضى بالغالب ، كما حكم أنه مسلم أخذا بالغالب ؛ فإن كان في قرية فيها نصارى ومسلمون قال ٱبن القاسم : يُحكم بالأغلب؛ فإن وجد عليه زِىّ اليهود فهو يهودىّ، وإن وجد عليه زِىّ النصارى فهو نصرانىّ، وإلا فهو مسلم، إلا أن يكون أكثر أهل القرية

(١) من ع وك وى .

Marfat.com

على غير الإسلام . وقال غيره : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى لِلقيط بالإسلام تغليبا لحكم الإسلام الذى يعلو ولا يُعلَى عليه ، وهو مقتضى قول أشهب ، قال أشهب : هو مسلم أبدا ، لأنى أجعله مسلما على كل حال ، كما أجعله حرا على كل حال . وآختلف الفقهاء فى المنبوذ تدلّ البيّنة على أنه عبد ؛ فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولها فى ذلك . وإلى هذا ذهب أشهب لقول عمر : هو حرّ ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البيّنة فى أنه عبد . وقال آبن القاسم : تقبل البيّنة فى ذلك ؛ وهو قول الشافعى والكوفى .

السادسة — قال مالك فى اللقيط : إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البيّنة أنه آبنه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحه متعمِّدا ، وإن لم يكن طرحه ولكنه ضلّ منه فلا شىء على الأب ، والملتقط متطوِّع بالنفقة . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقيط فهو متطوِّع ، إلا أن يأمره الحاكم . وقال الأوزاعى : كلُّ من أنفق على من لا تجب عليه نفقة رجع بما أنفق . وقال الشافعى : إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته فى بيت المال . فإن لم يكن ففيه قولان : أحدهما — يستقرض له فى ذمته . والثانى — يقسَّط على المسلمين من غير عوض .

السابعة — وأما اللّقطة والضوالّ فقد اختلف العلماء فى حكمهما ؛ فقالت طائفة من أهل العلم : اللقطة والضوالّ سواء فى المعنى ، والحكم فيهما سواء ؛ وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوى ، وأنكر قول أبى عُبيد القاسم بن سلّام — أن الضالّة لا تكون إلا فى الحيوان واللّقطة فى غير الحيوان — وقال هذا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث الإفك للمسلمين : " إن أمّكم ضلّت قِلادتها " فأطلق ذلك على القلادة .

الثامنة — أجمع العلماء على أن اللّقطة ما لم تكن تافها يسيرا أو شيئا لا بقاء لها فإنها تُعرَّف حولا كاملا ، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحقّ بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمّنه فإن ذلك له ، وإن تصدّق بها فصاحبها مخيّر بين التضمين وبين أن ينزل على أجرها ، فأى ذلك تخيّر كان

(١) فى ع وك وو ى : تشهد . (٢) كذا فى الأصول . (٣) فى ع : الطبرى .

Marfat.com

ذلك له بإجماع ؛ ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة ، ولا تصرف قبل الحول . وأجمعوا أن ضالّة الغنم المخوف عليها له أكلها .

التاســعة — وآختلف الفقهاء فى الأفضـل من تركها أو أخذها ؛ فمن ذلك أن فى الحديث دليـلا على إباحة التقـاط اللّقطة وأخذ الضالّة ما لم تكن إبلا . وقال فى الشاة : " لكَ أو لأخيكَ أو للذئب " يحضّه على أخذها ، ولم يقل فى شىء دعوه حتى يضيع أو يأتيه ربه . ولو كان ترك اللّقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليـه وسلم كما قال فى ضالّة الإبل ، والله أعلم . وجـملة مذهب أصحاب مالك أنه فى سـعة ، إن شاء أخذها وإن شاء تركها ؛ هذا قول إسماعيل بن إسحاق رحمه الله . وقال المزَنىّ عن الشافعى : لا أحب لأحد ترك اللّقطة إن وجدها إذا كان أمينا عليها ؛ قال : وسواء قليل اللّقطة وكثيرها .

العـاشرة — روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجُهَنىّ قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللّقطة فقال : " آعرِف عِفَاصها(1) ووِكَاءَها ثم عرِّفها سنةً فإن جاء صاحبُها وإلا فشأنُك بها " قال : فضالّة الغنم يا رسول الله ؟ قال : " لكَ أو لأخيكَ أو للذئب " قال : فضالة الإبل ؟ قال : " ما لَكَ ولهـا معها سِـقاؤُها وحِذاؤُها ترِدُ المـاءَ وتأكل الشجر حتى يلقاها ربُّها " . وفى حديث أُبَىّ قال : " آحفظ عدَدها ووِعاءَها ووِكاءَها فإن جاء صاحبُها وإلا فآستمتِـع بها " ففى هذا الحديث زيادة العدد ؛ خرجه مسلم وغيره . وأجمع العلماء أن عِفاص اللّقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلّها عليها ؛ فإذا أتى صاحب اللّقطة بجميع أوصافها دُفعت له ؛ قال ابن القاسم : يُجبَر على دفعها ؛ فإن جاء مستحقٌّ يستحقها ببيّنة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئا ، وهل يُحلَّف مع الأوصاف أو لا ؟ قولان : الأول لأشهب ، والثانى لابن القاسم ، ولا تلزمه بيّنة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . وقال أبو حنيفة والشافعى : لا تدفع له إلا إذا أقام بينــة أنها له ؛ وهو بخلاف نصّ الحديث ؛

(1) العفاص : الوعاء الذى يكون به النفقة ، جلدا كان أو غيره . والوكاء هو الخيط الذى يشـدّ به الوعاء . والمراد بالعفاص والوكاء أن يعـلم الملتقط صدق واصفها من كذبه ، وبالحذاء خفها ، فهى تقوى بأخفافها على السير وورود المـاء والشجر .

Marfat.com

ولو كانت البيّنــة شرطا فى الدفع لمـا كان لذكر العِفاص والوِكاء والعَدَد معنى؛ فإنه يستحقها بالبيّنة على كل حال؛ ولمّـا جاز سكوت النبي صلى الله عليــه وسلم عن ذلك، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة . والله أعلم .

الحادية عشرة — نَصّ الحديث على الإبل والغنم و بين حكمهما، وسكت عما عداهما من الحيوان . وقد اختلف علماؤنا فى البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم؟ قولان؛ وكذلك اختلف أئمتنا فى التقاط الخيل والبغال والحمير، وظاهر قول ابن القاسم أنها تلتقط، وقال أشهب وابن كنانة : لا تلتقط ؛ وقول ابن القاسم أصح؛ لقوله عليه السلام : " احفظ على أخيك المؤمن ضالّتـــه " .

الثانية عشرة — واختلف العلمــاء فى النفقة على الضَّوالّ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة، وســواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره؛ قال : وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليــه ويكون أحقّ به كالرهن . وقال الشــافعي : إذا أنفق على الضوالّ مَن أخذها فهو متطوع؛ حكاه عنه الربيع . وقال المُزنى عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دَيْنـا، وما ادّعى قُبِل منه إذا كان مثله قَصْدا . وقال أبو حنيفــة : إذا أنفق على اللّقطة والإبل بغير أمر القاضي فهو متطوع، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دين على صاحبهـا إذا جاء، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبهـا، والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها ، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضى بالنفقة .

الثالثة عشرة — ليس فى قوله صلى الله عليه وسلم فى اللّقطة بعد التعريف: "فاستمتع بها" أو " فشأنك بها " أو "فهي لك " أو "فاستنفقها" أو " ثم كُلْها " أو " فهو مال الله يؤتيه من يشاء " على ما فى صحيح مسلم وغيره، مايدلّ على التمليك، وسقوط الضّمان عن الملتقط إذا جاء ربها؛ فإن فى حديث زيد بن خالد الجُهَنيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : "فإن لم تعرف[1]

(١) (إن لم تعرف) : أى لم تعرف صاحبها .

Marfat.com

فاستنفقها ولتكن وديعة عنـدك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فأدّها إليه " فى رواية " ثم كُلْها فإن جاء صاحبها فأدّها إليه" خرجه البخارى ومسلم . وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحق بها، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللقطة بعد التعريف ؛ لتلك الظواهر، ولا التفات لقوله؛ لمخالفة الناس، ولقوله عليه السلام : " فأدّها إليه " .

قوله تعالى : قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ قيل للحسن : أيحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بنى يعقوب ! ولهذا قيـل : الأب جلّاب والأخ سلّاب ؛ فعنـد ذلك أجمعوا على التفريق بينـه وبين ولده بضرب من الاحتيال . وقالوا ليعقوب : «يا أبانا مالك لا تأمنّا على يوسف » وقيل : لمـا تفاوضوا وافترقوا على رأى المتكلم الثـانى عادوا إلى يعقوب عليه السـلام وقالوا هـذا القول . وفيـه دليل على أنهم سألوه قبـل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتى . قرأ يزيد بن القعقاع وعمرو بن عبيد والزهرى « لا تأمنّا » بالإدغام، وبغير إشمـام وهو القياس؛ لأن سـبيل ما يدغم أن يكون سا كنا . وقرأ طلحة بن مصرّف «لا تأمننا» بنونين ظاهرتين على الأصل. وقرأ يحيى بن وثّاب وأبو رزين — وروى عن الأعمش — « لا تِيمَنّا » بكسر التاء، وهى لغة تميم؛ يقولون: أنت تِضرب؛ وقد تقدّم. وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام ليدلّ على حال الحرف قبل إدغامه . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ أى فى حفظه [وحيطته][(١)] حتى نردّه إليك. قال مقاتل: فى الكلام تقديم وتأخير؛ وذلك أن إخوة يوسـف قالوا لأبيهم : « أرسـله معنا غدا » الآية ؛ فحينئذ قال أبوهم : « إنى ليحزننى أن تذهبوا به » فقالوا حينئذ جوابا لقوله : « مالك لا تأمنّا على يوسف » الآية . ﴿أرسله معنا غدا ﴾ إلى الصحراء. ﴿ يرتع ويلعب ﴾ « غدا » ظرف، والأصل عنـد سيبويه غَدْوٌ، وقد نطق به على الأصـل؛ قال النضر بن شميل : ما بين الفجر وصلاة الصبح يقـال له غُدوة ،

(١) من ع ى . وفى أ و و : وغفلته .

Marfat.com

وكذا بُكرة . « نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ » بالنون و إسكان العين قراءة أهل البصرة . والمعروف من قراءة أهل مكة . « نَرْتَعِ » بالنون وكسر العين . وقراءة أهل الكوفة . « يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ » بالياء و إسكان العين . وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين ؛ القراءة الأولى من قول العرب رَتَع الإنسان والبعير إذا أَكَلا كيف شاءا ؛ والمعنى : نتسع في الخصب؛ وكل مخصب راتع؛ قال :

* فارعَىْ فزارةُ لا هَنَاكِ المَرْتَعُ *

وقال آخر[1] :

تَرْتَعُ ماغَفَلَتْ حتى إذا ٱدّكرتْ * فإنَّمـا هى إقبـالٌ وإدبـارُ

وقال آخر[2] :

أكفرًا بعـد ردِّ المـوتِ عنِّى * و بعد عَطائِكَ المـائةَ الرِّتاعَا

أى الراتعة لكثرة المرعى . وروى مَعْمر عن قَتَادة « ترتع » تسعى ؛ قال النحاس : أخذه من قوله : « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » لأن المعنى : نستبق فى العَدْو إلى غاية بعينها؛ وكذا «يرتع» بإسكان العين، إلا أنه ليوسف وحده صلى الله عليه وسلم . و « يرتع » بكسر العين من رعى الغنم ، أى ليتدرب بذلك و يترجّل؛ فمرة يرتع، ومرة يلعب لصغره . وقال القُتَبِىّ « نرتع » نتحارس ونتحافظ، ويرعى بعضنا بعضا؛ من قولك : رعاك الله ؛ أى حفظك . «ونلعب» من اللعب وقيل لأبى عمرو بن العلاء : كيف قالوا «ونلعب» وهم أنبياء؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحظور الذى هو ضدّ الحق ؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم « ونلعب » . ومنه قوله عليه السلام : "فهلّا بِكْرًا تلاعبها وتلاعبك"[3] .

---

(١) البيت للخنساء من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا . ومعنى : (ترتع) ترعى . تصف ناقة أو بقرة فقدت ولدها ، فكلما غفلت عنه رتعت ، فإذا أدكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ، فضربتها مثلا لفقدها أخاها صخرا .

(٢) هو القطامى .

(٣) الخطاب لجابر بن عبد الله ، وذكر ملا على عن الطيبي : أن الملاعبة عبارة عن الألفة التامة ، فإن الثيب قد تكون معلقة القلب بالزوج الأول ، فلم تكن محبتها كاملة ، بخلاف البكر . و يروى : تداعبها وتداعبك . والدعابة الممازحة .

Marfat.com

وقرأ مجاهد وقتادة : «يُرتِع»[1] على معنى يُرتِع مطيته ، فحذف المفعول؛ « ويَلْعَبُ » بالرفع على الاستئناف؛ والمعنى : هو ممن يلعب . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من كل ما تخاف عليه . ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا، ويحتمل أنهم كانوا رجّالة . وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم ، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضرارا به .

قوله تعالى : قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ في موضع رفع؛ أي ذهابكم به . أخبر عن حزنه لغيبته . ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شدّ على يوسف، فلذلك خافه عليه؛ قاله الكلبي . وقيل : إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل، وكأن يوسف في بطن الوادي ، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله ، فدرأ عنه واحد، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام؛ فكانت العشرة إخوته، لما تمالئوا على قتله ، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتواريه في الأرض هو مقامه في الجب ثلاثة أيام . وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب؛ فخوفه إنما كان من قتلهم له ، فكنى عنهم بالذئب مسائرة لهم؛ قال ابن عباس : فسماهم ذئابا . وقيل : ما خافهم عليه ، ولو خافهم لما أرسله معهم، وإنما خاف الذئب ؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحارى[2] . والذئب مأخوذ من تذاءبت[2] الريح إذا جاءت من كل وجه ؛ كذا قال أحمد بن يحيى ؛ قال : والذئب مهموز

(١) (يرتع) من أرتع ، والذي في تفسير ابن عطية والألوسي وأبي حيان عن مجاهد وقتادة هو (بالنون) وجزم (نلعب) قال ابن عطية : (وقراءة مجاهد وقتادة «نرتع» بضم النون وكسر التاء ، و «نلعب» بالنون والجزم) .

(٢) في ع : البراري . ورد في روح المعاني أن هذا الاشتقاق عند الزمخشري ، وقال الأصمعي : إن تذاءبت مشتق من الذئب ، لأن الذئب يفعله في عدوه ، وتعقب بأن أخذ الفعل من الأسماء الجامدة قليل مخالف للقياس .

Marfat.com

لأنه يجئ من كل وجه . وروى ورش عن نافع « الذِّيبُ » بغير همز ؛ لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة فخففها صارت ياء . ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أى مشتغلون بالرعى .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه . ﴿إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ أى فى حفظنا أغنامنا ؛ أى إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا . وقيل : « لَخَاسِرُونَ » لجاهلون بحقه . وقيل : لعاجزون .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾ « أَنْ » فى موضع نصب ؛ أى على أن يجعلوه فى غيابة الجبّ . قيل فى القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقا غليظا ليحفظنّه، وسلّمه إلى روبيل وقال : ياروبيل ! إنه صغير، وتعلم يابنىّ شفقتى عليه ؛ فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فآسقه ، وإن أعيا[(1)] فآحمله ثم عجّل بردّه إلىّ . قال : فأخذوا يحملونه على أكتافهم، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر، ويعقوب يُشيّعهم ميلا ثم رجع ؛ فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذى كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشدّ مما عند الآخر من الغيظ والعسف ؛ فاستغاث بروبيل وقال : « أنت أكبر إخوتى، والخليفة من بعد والدى علىّ، وأقرب الأخوة إلىّ، فارحمنى وآرحم ضعفى » فلطمه لطمة شديدة وقال : لا قرابة بينى وبينك ، فادع الأحد عشر كوكبا فلتنجك منا ؛ فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه، فتعلق بأخيه يهوذا وقال : يا أخى ! ارحم ضعفى وعجزى وحداثة سنى، وارحم قلب أبيك يعقوب ؛ فما أسرع ما تناسيتم وصيته ونقضتم عهده؛ فرقّ قلب يهوذا فقال : والله لا يصلون إليك أبدا ما دمتُ حيّا، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التى حرم الله من أعظم الخطايا، فردوا هذا الصبىّ إلى أبيه، ونعاهده

(١) أعيا الرجل فى المشى : كَلّ .

Marfat.com

ألا يحدّث والده بشيء مما جرى أبدا ؛ فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عند يعقوب ، والله لئن لم تدعه لنقتلنك معه ، قال : فإن أبيتم إلا ذلك فهاهنا هذا الجبّ الموحش القفر، الذى هو مأوى الحيات والهوام فألقوه فيه ، فإن أصيب بشيء من ذلك فهو المراد ، وقد استرحتم من دمه ، و إن انفلت على أيدى سيّارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد ؛ فأجمع رأيهم على ذلك ؛ فهو قول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ وجواب « لما » محذوف ؛ أى فلما ذهبوا به وأجمعوا على طرحه فى الجب عظمت فتنتهم . وقيل : جواب «لما» قولهم : « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » . وقيل : التقدير فلما ذهبوا به من عند أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب جعلوه فيها ، هذا على مذهب البصريين ، وأما على قول الكوفيين فالجواب . «أوحينا» والواو مقحمة ، والواو عندهم تزاد مع لما وحتى ؛ قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »(١) أى فتحت ، وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ »(٢) أى فار . قال امرؤ القيس :

* فلمّا أجزنا ساحة الحىّ وانتحى(٣) *

أى انتحى ، ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ »(١) أى ناديناه . وفى قوله : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ دليل على نبوّته فى ذلك الوقت . قال الحسن ومجاهد والضّحاك وقتادة : أعطاه الله النبوّة وهو فى الجبّ على حجر مرتفع عن الماء . وقال الكلبيّ : ألقى فى الجبّ وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، فما كان صغيرا ؛ ومن قال كان صغيرا فلا يبعد فى العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه . وقيل : كان وحى إلهام كقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »(٤) . وقيل : كان مناما ، والأول أظهر — والله أعلم — وأن جبريل جاءه بالوحى .

قوله تعالى : ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ماصنعوا ؛ فعلى هذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الجبّ تقوية لقلبه ، وتبشيرا له بالسلامة . الثانى — أنه أوحى إليه بالذى يصنعون به ؛ فعلى هذا [يكون](٥) الوحىُ قبل إلقائه

(١) الصحيح أن الواو فى هذه الآية ليس زائدا وإنما هو للحال مع تقدير قد وذلك لإفادة أن أهل الجنة هيأ الله لهم مايزيد سرورهم بخلاف أهل النار فتحت لهم عند حضورهم زيادة فى حسرتهم . راجع جـ ١٥ ص ٢٨٤ وص ١٠٤
(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠ . (٣) تمام البيت . * بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *
(٤) راجع جـ ١٠ ص ١٣٣ . (٥) من ع .

Marfat.com

فى الجبّ إنذارا له . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف ؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وأخوته بمكانه . وقيل : بوحى الله تعالى بالنبوة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : « الهاء » ليعقوب ؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف ، وأنه سيعرّفهم بأمره ، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه ، والله أعلم . ومما ذكر من قصته إذ ألقى فى الجبّ — ما ذكره السدّى وغيره — أن إخوته لما جعلوا يدلونه فى البئر ، تعلق بشفير البئر ، فربطوا يديه ونزعوا قميصه ؛ فقال : يا إخوتاه ! ردّوا علىّ قميصى أتوارى به فى هذا الجبّ ، فإن متّ كان كفنى ، وإن عشت أوارى به عورتى (1) ؛ فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فلتؤنسك وتكسك ؛ فقال : إنى لم أر شيئا ، فدلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت ؛ فكان فى البئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها . وقيل : إن شمعون هو الذى قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة ، وكان جبريل تحت ساق العرش ، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدى ؛ قال جبريل : فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمى والوقوع فأقعدته على الصخرة سالما . وكان ذلك الجبّ مأوى الهوام ؛ فقام على الصّخرة وجعل يبكى ، فنادوه ، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم ، فأجابهم ؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ؛ فلما وقع عريانا نزل جبريل إليه ؛ وكان إبراهيم حين ألقى فى النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فكان ذلك عند إبراهيم ، ثم ورثه إسحق ، ثم ورثه يعقوب ، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويذة وجعله فى عنقه ، فكان لا يفارقه ؛ فلما ألقى فى الجبّ عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه . قال وهب : فلما قام على الصخرة قال : يا إخوتاه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيتى ، قالوا : وما هى ؟ قال : إذا اجتمعتم كلكم فآنس بعضكم بعضا فاذكروا وحشتى ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى ، وإذا شربتم فاذكروا عطشى ، وإذا رأيتم غريبا فاذكروا غربتى ، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شبابى ؛ فقال له جبريل : يا يوسف ! كف عن هذا واشتغل بالدعاء ، فإن الدعاء عند الله

(1) فى ع : أتوارى به وأستر عورتى .

Marfat.com

بمكان، ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كل غريب، ويا صاحب كل وحيد، ويا ملجأ كل خائف، ويا كاشف كل كربة ، ويا عالم كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، ويا حاضر كل ملإ، يا حيّ يا قيوم! أسألك أن تقذف رجاءك فى قلبى ، حتى لا يكون لى همّ ولا شغل غيرك، وأن تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا، إنك على كل شيء قـدير؛ فقالت الملائكة : إلهنـا ! نسمع صوتا ودعاء ، الصوت صوت صبيّ، والدعاء دعاء نبيّ . وقال الضّحاك : نزل جبريل عليه السـلام على يوسف وهو فى الجبّ فقـال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هـذا الجب ؟ فقال : نعم ! فقـال له : قل يا صانع كلّ مصنوع، ويا جابر كل كسير، ويا شاهـد كل نجوى، ويا حاضر كل ملإ، ويا مفرّج كل كربة ،ويا صاحب كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد، آيتنى بالفرج والرجاء، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحدا سـواك ؛ فرددها يوسف فى ليلته مرارا؛ فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجبّ .

قوله تعـالى : وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ (١٦)

فيـه مسئلتـان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ أى ليلا ، وهو ظرف يكون فى موضع الحال؛ وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار فى الظلمة؛ ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحيـاء فى العينين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار؛ فروى أن يعقوب عليه السلام لمـا سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى فى الغنم شيء؟ قالوا : لا . قال: فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نسـتبق فأكله الذئب ، فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟ على ما يأتى بيانه [إن شاء الله] [1] . وقال السدىّ وابن حبّان : إنه لمـا قالوا أكله الذئب خرّ مغشيا عليـه، فأفاضوا عليه المـاء فلم يتحرك، ونادوه فلم يجب؛ قال وهب : ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نَفَس يعقوب فلم يحسّ بنَفَس، ولم يتحرّك له عِرق؛ فقال لهم يهوذا : ويل لنا من ديّان يوم الدّين ! ضيّعنا أخانا، وقتلنا أبانا، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السّحر ، فأفاق ورأسه

(١) من ع .

Marfat.com

فى حجر روبيل ؛ فقال : يا روبيل ! ألم آتمنك على ولدى؟ ألم أعهد إليك عهدا؟ فقال : يا أبت! كُفّ عنّى بكاءك أخبرك ؛ فكفّ يعقوب بكاءه فقال : يا أبت « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » .

الثانيـة — قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدلّ على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنّعا ؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى؛ كما قال حكيم :

إذا آشتبكتْ دموعٌ فى خُدودٍ * تبيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « نَسْتَبِقُ » نفتعل، من المسابقة . وقيل : أى نَنْتَضِل؛ وكذا فى قراءة عبد الله «إِنَّا ذَهَبْنَا نَنْتَضِل» وهو نوع من المسابقة؛ قاله الزجاج . وقال الأزهرىّ : النِّضال فى السِّهام، والرِّهان فى الخيل، والمسابقة تجمعهما . قال القُشيرىّ أبو نصر : «نَسْتَبِقُ» أى فى الرمى، أو على الفرس ؛ أو على الأقدام ؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العَدْو ، لأنه الآلة فى قتال العدوّ ، ودفع الذئب عن الأغنام . وقال السدّى وآبن حبّان : «نَسْتَبِقُ» نشتد جريا لنرى أيّنا أسبق . قال آبن العربى : المسابقة شِرْعة فى الشّريعة، وخَصْلة بديعة، وعَون على الحرب ؛ وقد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه و بخيله ، وسابق عائشة رضى الله عنها على قدميه فسبقها ؛ فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته؛ فقال لها : " هذه بتلك " .

قلت : وسابق سَلَمة بن الأكوع رجلا لما رجعوا من ذى قَرَد (١) إلى المدينة فسبقه سَلَمة ؛ خرجه مسلم .

(١) ذى قرد : موضع قريب من المدينة أغاروا فيه على لقاح رسول الله عليه الصلاة والسلام فغزاهم .

Marfat.com

الثانيـــة — وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التي قد أُضمِرت[1] [من الحَفْيَاء[2]] وكان أمدها ثَنِيَّة[3] الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضمَّر من الثَّنِيَّة إلى مسجد بني زُرَيق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها؛ وهذا الحديث مع صحته في هـذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقـة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني — أن تكون الخيل متساوية الأحوال. الثالث — ألا يسابق المضمَّر مع غير المضمَّر في أمد واحد وغاية واحدة. والخيـل التي يجب أن تَضمَّر ويسابق عليها، وتقام هذه السّنة فيها هي الخيل المعدّة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثـــة — وأما المسابقة بالنّصال والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمـرو قال: سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلنا منزلا فمنّا من يصلح خباءه، ومنا من يَنْتَضِل، وذكر الحديث. وخرّج النسائيّ عن أبي هريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال: "لا سَبَق[4] إلا في نَصْـل أو خُفّ أو حافر". وثبت ذكر النّصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هريرة، ذكره النسائي؛ وبه يقـول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاريّ عن أنس قال: كان للنبي صلى الله عليـه وسلم ناقة تسمى العَضْباء لا تُسبَق — قال حُمَيد: أولا تكاد تُسبَق — فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: "حقّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه".

الرابعـــة — أجمع المسـلمون على أن السَّبَق[5] لا يجـوز على وجه الرهان إلا في الخف والحافر والنّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبق فيها قِمار. وقد زاد أبو البَخْتَرِيّ

(١) تضمير الخيل: هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن، ثم لا تعلف إلا قوتا لتخف. وقيل: تشد عليها سروجها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها ويشتد لحمها، ويكون ذلك لغزو أو سباق.

(٢) الزيادة عن (موطأ مالك). والحفياء (بالمد ويقصر): موضع بالمدينـة بينه وبين ثنية الوداع ستة أميال أو سـبعة.

(٣) الثنية في الجبل كالعقبة فيه، وقيل: هو الطريق العالي فيه، وقيل: أعلى المسيل في رأسه؛ وثنية الوداع مشرفة على المدينة سميت بذلك؛ لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثم؛ ومنها إلى مسجد بني زريق ميل.

(٤) «لا سبق»: هو بفتح البـاء ما يجعل للسابق على سبقه من المـال؛ وبالسكون مصـدر. قال الخطابي: الصحيح رواية الفتح؛ أي لا يحل أخذ المـال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة.

(٥) في ع ول ك وى: العلماء.

Marfat.com

القاضي في حديث الخف والحافر والنصل « أو جناح » وهي لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته ؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال . وقد روى عن مالك أنه قال : لا سبق إلا في الخيل والرمي ، لأنه قوة على أهل الحرب ؛ قال : وسبق الخيل أحب إلينا من سبق الرمي . وظاهر الحديث يسوى بين السبق على النجب والسبق على الخيل. وقد منع بعض العلماء الرهان في كل شيء إلا في الخيل ؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها . وروى عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة ؛ وقد تؤول قوله[1] ؛ لأن حمله على العموم [في كل شيء[1]] يؤدى إلى إجازة القمار ، وهو محرم باتفاق .

الخامسة — لا يجوز السبق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم، كما ذكرنا، وكذلك الرمي لا يجوز السبق فيه إلا بغاية معلومة ورشق معلوم ، ونوع من الإصابة ؛ مشترط خسقا[2] أو إصابة بغير شرط . والأسباق ثلاثة : سبق يعطيه الوالي أو الرجل غير الوالي من ماله متطوعا فيجعل للسابق شيئا معلوما ؛ فمن سبق أخذه . وسبق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه ، فإن سبقه صاحبه أخذه، وإن سبق هو صاحبه أخذه ؛ وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له ، ولا يرجع إلى ماله ؛ وهذا مما لا خلاف فيه . والسبق الثالث — اختلف فيه ؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئا مثل ما يخرجه صاحبه ، فأيهما سبق أحرز سبقه وسبق صاحبه ؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يدخلا بينهما محللا[3] لا يأمنا أن يسبقهما ؛ فإن سبق المحلل أحرز السبقين جميعا وأخذهما وحده ، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه ، ولا شيء للمحلل فيه ، ولا شيء عليه . وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما . وقال أبو علي بن خيران — من أصحاب الشافعي — : وحكم الفرس المحلل أن يكون مجهولا جريه ؛ وسمي محللا لأنه يحلل السبق للمتسابقين أوله . واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبقه وسبق صاحبه أنه قمار ، ولا يجوز . وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله

(١) في ع وك وو ى : تؤول عليه .　　(٢) خسق السهم وخزق إذا أصاب الرمية ونفذ فيها .
(٣) في ع : السبق

Marfat.com

عليه وسلم قال : " من أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يأمن أن يَسبق فليس بقِمار ومن أدخله وهو يأمن أن يَسبق فهو قِمار " . وفى الموطأ عن سعيد بن المسيب قال : ليس بِرِهان الخيل بأس إذا دخل فيهـا محلِّل، فإن سبق أخذ السبق، وإن سُبق لم يكن عليه شىء؛ وبهذا قال الشافعى وجمهور أهل العلم . وآختلف فى ذلك قول مالك؛ فقال مرة لا يجب المحلِّل فى الخيل، ولا نأخذ فيه بقول سعيد، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحلل؛ وهو الأجود من قوله .

السادســـة — ولا يحمل على الخيل والإبل فى المسابقة إلا محتلم؛ ولو ركبها أربابهـا كان أولى؛ وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لا يركب الخيل فى السباق إلا أربابها . وقال الشافعى : وأقل السَّبق أن يسبق بالهادى[(١)] أو بعضه، أو بالكَفَل أو بعضه . والسبق من الرماة على هذا النحو عنده؛ وقول محمد بن الحسن فى هذا الباب نحو قول الشافعى .

السابعـــة — روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلَّى أبو بكر وثلَّث عمر؛ ومعنى وصلّى أبو بكر: يعنى أن رأس فرسه كان عند صَلَا فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصَّلَوَان موضع العَجُز .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ أى عنـد ثيابنا وأقمشتنا حارسا لهـا . ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنهم لمـا سمعوا أباهم يقول : « وأخاف أن يأكله الذئب » أخذوا ذلك من فيه فتحرّموا به؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه . ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ أى بمصدق . ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ أى وإن كنا؛ قاله المـبرد وآبن إسحق . ﴿ صَادِقِينَ ﴾ فى قولنـا؛ ولم يصدقهم يعقوب لمـا ظهر له منهم من قوة التّهمة وكثرة الأدلة على خلاف ما قالوه على ما يأتى بيانه . وقيل : « ولو كنا صادقين » أى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا، ولاتّهمتنا فى هذه القضية، لشدة محبتك فى يوسف؛ قال معناه الطبرى والزجاج وغيرهما .

(١) الهادى : العنق لتقدمه؛ والجمع (هواد) .

Marfat.com

قوله تعالى : وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « بِدَمٍ كَذِبٍ » قال مجاهد : كان دم سخلة أو جدى ذبحوه[1] . وقال قتادة : كان دم ظبية؛ أى جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه ، فوصف الدم بالمصدر، فصار تقديره : بدم ذى كذب ؛ مثل : « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ » والفاعل والمفعول قد يسميان بالمصدر ؛ يقال : هذا ضَرْبُ الأمير ، أى مضروبه؛ وماء سَكْب أى مسكوب ، وماء غَوْر أى غائر ، ورجل عَدْل أى عادل .

وقرأ الحسن وعائشة : « بِدَمٍ كَدِبٍ » بالدال غير المعجمة ، أى بدم طرِى ؛ يقال للدم الطرى الكَدِب . وحكى أنه المتغير؛ قاله الشعبى . والكدب أيضا البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث ؛ فيجوز أن يكون شبه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظفر من جهة آختلاف اللونين .

الثانيــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التَّنْيِيب[2] ؛ إذ لا يمكن آفتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خرقا ولا أثرا آستدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله آبن عباس وغيره ؛ روى إسرائيل عن سماك بن حرب عن عكرمة عن آبن عباس قال : كان الدم دم سخلة . وروى سفيان عن سماك عن عكرمة عن آبن عباس قال : لما نظر إليه قال كذبتم ؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص . وحكى الماوردى أن فى القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليه بدم كذب ، وحين قُدّ قميصه من دبر ، وحين أُلقِى على وجه أبيه فارتد بصيرا .

(١) فى ع : أو نحوه .　　(٢) فى ع : التخريق .

Marfat.com

قلت : وهـــذا مردود؛ فإن القميص الذى جاءوا عليـه بالدم غير القميص الذى قدّ ، وغير القميص الذى أتاه البشير به . وقد قيل : إن القميص الذى قدّ هو الذى أتى به فارتدّ بصيرا، على ما يأتى بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى . وروى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه؛ فاختلف قولهم ، فآتهمهم ، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشق قيصه قبل أن يفضى إلى جلده، وما أرى بالقميص من شق ؛ وتزعمون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قيصه ؛ هل يريدون إلا ثيابه ؟ ! فقالوا عند ذلك : « وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين » عن الحسن وغيره؛ أى لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا .

الثالثـــة ـــ آستدل الفقهاء بهـذه الآية فى إعمـال الأمارات فى مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام آستدل على كذبهم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت ، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح ، وهى قوة التهمة ؛ ولا خلاف بالحكم بها ، قاله آبن العربى .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ روى أن يعقوب لمـا قالوا له : « فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » قال لهم : ألم يترك الذئب له عضوا فتأتونى به آستأنس به؟ ! ألم يترك لى[(1)] ثوبا أشم فيه رائحته؟ قالوا : بلى! هذا قيصه ملطوخ بدمه؛ فذلك قوله تعالى : « وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أرونى قيصه، فأروه فشمه وقبّله ، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقا ولا تمزيقا، فقال : والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئبـا أحكم منـه ؛ أكل آبنى واختلسه من قيصه ولم يمزقه عليـه ؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا، وأن الذئب لم يأكله ، فأعرض عنهم كالمغضب باكيا حزينا وقال : يامعشر ولدى! دلونى على ولدى ؛ فإن كان حيا رددته إلىّ، وإن كان ميتا كفنته ودفنته ، فقيـل قالوا حينئـذ : ألم تروا إلى أبينـا كيف يكذبنـا فى مقالتنا! تعالوا نخرجه من الجب ونقطعه عضوا عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا

(1) فى ع : له .

Marfat.com

فى مقالتنا ويقطع يأسه؛ فقال يهوذا : والله لئن فعلتم لأكونن لكم عدوا ما بقيت، ولأخبرن أباكم بسوء صنيعكم؛ قالوا : فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئبا، قال : فاصطادوا ذئبا ولطخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا : يا أبانا! إن هذا الذئب الذى يحل بأغنامنا ويفترسها، ولعله الذى أفجعنا بأخينا لا نشك فيه، وهذا دمه عليه؛ فقال يعقوب : أطلقوه؛ فأطلقوه، وتبصبص له الذئب، فأقبل يدنو [منه][1] ويعقوب يقول له : آدن آدن؛ حتى ألصق خدّه بخدّه[2] فقال له يعقوب : أيها الذئب! لم فجعتنى بولدى وأورثتنى حزنا طويلا؟! ثم قال اللهم أنطقه، فأنطقه الله تعالى فقال : والذى اصطفاك نبيا ما أكلت لحمه، ولا مزقت جلده، ولا نتفت شعرة من شعراته، ووالله! ما لى بولدك عهد، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحى مصر فى طلب أخ لى فقد، فلا أدرى أحى هو أم ميت، فاصطادنى أولادك وأوثقونى، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش، وتالله! لا أقمت فى بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش؛ فأطلقه يعقوب وقال : والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم؛ هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذمام أخيه، وأنتم ضيعتم أخاكم، وقد علمت أن الذئب برئ مما جئتم به . ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أى زينت . ﴿ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ غير ما تصفون وتذكرون . ثم قال توطئة لنفسه : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وهى :

الثانيـــة — قال الزجاج : أى فشأنى والذى أعتقده صبر جميل . وقال قُطْرُب : أى فصبرى صبر جميل . وقيل : أى فصبر جميل أولى بى؛ فهو مبتدأ وخبره محذوف . ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال : " هو الذى لا شكوى معه " . وسيأتى له مزيد بيان آخر السورة إن شاء الله . قال أبو حاتم : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف « فصبرا جميلا » قال : وكذا قرأ الأشهب العُقَيْلى؛ قال وكذا فى مصحف أنس وأبى صالح . قال المبرّد : « فصبر جميل » بالرفع أولى من النصب؛ لأن المعنى : قال رب عندى صبر جميل؛ قال : وإنما النصب على المصدر، أى فلأصبرن صبرا جميلا؛ قال :

(١) منه ع وك وى .
(٢) فى ع وك و ى : بفخذه .

Marfat.com

شكا إلىّ جملى طُولَ السُّرى * صبرًا[1] جميلا فكلانا مُبتلَى

والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ولا شكوى . وقيل : المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين ، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم ؛ وفى هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم . وعن حبيب بن أبى ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه ، فكان يرفعهما بخرقة ؛ فقيل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان ؛ فأوحى الله إليه أتشكونى يا يعقوب ؟ ! قال : يارب ! خطيئة أخطأتها فاغفر لى . ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ ابتداء وخبر . ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أى على احتمال ما تصفون من الكذب .

الثالثة — قال ابن أبى رفاعة : ينبغى لأهل الرأى أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب صلى الله عليه وسلم وهو نبى ؛ حين قال له بنوه : « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » فأصاب هنا ؛ ثم قالوا له : « إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ[2] » قال : « بل سولت لكم أنفسكم أمرا » فلم يصب .

قوله تعالى : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أى رفقة مارّة يسيرون من الشام إلى مصر فأخطئوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجب ، وكان الجب فى قفرة بعيدة من العمران ، إنما هو للرعاة والمجتاز ، وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف . ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ فذكر على المعنى ؛ ولو قال : فأرسلت واردها لكان على اللفظ ، مثل « وجاءت » . والوارد الذى يرد الماء يستقى للقوم ؛ وكان اسمه — فيما ذكر المفسرون — مالك بن دعر[3] ،

(١) ويروى (صبر جميل) فى البيت ، وتحمل على إضمار مبتدأ أو خبر . ويروى (صبرا جميل) على نداء الجمل .

(٢) راجع ص ٢٤٤ من هذا الجزء. (٣) دعر : هو بالدال المهملة وبالذال تصحيف كما فى القاموس .

Marfat.com

من العرب العاربة . ﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ أي أرسله ؛ يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليملأها ، ودَلَاها أي أخرجها : عن الأصمعي وغيره . ودلا — من ذات الواو — يدلوا دلوا ، أي جذب وأخرج ، وكذلك أدلى إذا أرسل ، فلما ثقل ردوه إلى الياء ، لأنها أخف من الواو ؛ قاله الكوفيون . وقال الخليل وسيبويه : لما جاوز ثلاثة أحرف رجع[1] إلى الياء ، اتباعا للمستقبل . وجمع دَلْو في أقل العدد أَدْلٍ فإذا كثرت قلت : دُلِيّ ودِلِيّ ؛ فقلبت الواو ياء ، إلا أن الجمع بابه التغيير ، وليفرق بين الواحد والجمع ؛ ودِلاء أيضا . فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان . قال صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء من صحيح مسلم : "فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن" . وقال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جعد الشعر ، ضخم العينين ، مستوى الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والعضدين ، خميص البطن ، صغير السرة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه ، و إذا تكلم رأيت في كلامه شعاع الشمس من ثناياه ، لا يستطيع أحد وصفه ؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية . وقيل : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن ؛ فلما رآه مالك بن دعر قال : « يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلَامٌ » هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة ؛ إلا ابن أبي إسحق فإنه قرأ « يَا بُشْرَيَّ هَذَا غُلَامٌ » فقلب الألف ياء ، لأن هذه الياء يكسر ما قبلها ، فلما لم يجز كسر الألف كان قلبها عوضا . وقرأ أهل الكوفة « يَا بُشْرَى » غير مضاف ؛ وفي معناه قولان : أحدهما — اسم الغلام ، والثاني — [معناه][2] يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك . قال قتاده والسدى : لما أدلى المدلى دلوه تعلق بها يوسف فقال : يابشرى هذا غلام ؛ قال قتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السدى : نادى رجلا اسمه بشرى . قال النحاس : قول قتادة أولى ؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيرا ؛ وإنما يأتي بالكناية كما قال عز وجل : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ[3] » وهو عقبة بن أبي معيط ، وبعده « يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا » وهو أمية

(١) في ع : ردوه . (٢) من ع . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٥ .

Marfat.com

ابن خلف ؛ قاله النحاس . والمعنى فى نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أوكد من قولك تبشرت ، كما تقول : ياعجباه ! أى يا عجب هـذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر؛ وهذا مذهب سيبويه ، وكذا قال السهيلى . وقيل : هو كما تقول : واسروراه ! وأن البشرى مصدر من الاستبشار : وهذا أصح ؛ لأنه لو كان اسما علما لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم ؛ وعلى هذا يكون « بُشْرَاىَ » فى موضع نصب ، لأنه نداء مضاف ؛ ومعنى النداء هاهنا التنبيه ؛ أى انتبهوا لفرحتى وسرورى ؛ وعلى قول السُّدى يكون فى موضع رفع كما تقول : يازيد هذا غلام . ويجوز أن يكون محله نصبا كقولك : يارجلا ، وقوله : « يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ »(1) ولكنه لم ينون « بُشْرَى » لأنه لا ينصرف . « وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً » الهاء كناية عن يوسف عليه السلام ؛ فأما الواو فكناية عن إخوته . وقيل : عن التجار الذين اشتروه ، وقيل : عن الوارد وأصحابه . « بِضَاعَةً » نصب على الحال . قال مجاهد : أسرّه مالك بن دُعْر وأصحابه من التجار الذين معهم فى الرفقة ، وقالوا لهم : هو بضاعة استبضعناها بعضُ أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر ؛ وإنما قالوا هـذا خيفة الشركة . وقال ابن عباس : أسرّه إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الجب ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئس ما صنعتم ! هذا عبد لنا أَبِق ، وقالوا ليوسف بالعبرانيـة : إما أن تُقرّ لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء ، وإما أن نأخذك فنقتلك ؛ فقال : أنا أقر لكم بالعبودية ، فأقر لهم فباعوه منهم . وقيل : إن يهوذا وصّى أخاه يوسف بلسانهم أن اعترف لإخوتك بالعبودية فإنى أخشى إن لم تفعل قتلوك ؛ فلعل الله أن يجعل لك مخرجا ، وتنجو من القتل ، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ؛ فقال مالك : والله ما هذه سمة العبيد ! ، قالوا : هو تربّى فى حجورنا ، وتخلق بأخلاقنا ، وتأدب بآدابنا ؛ فقال : ماتقول ياغلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت فى حجورهم ، وتخلقت بأخلاقهم ؛ فقال مالك : إن بعتموه منى اشتريته(2) منكم ؛ فباعوه منه ؛ فذلك :

قوله تعالى : وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٢ . (٢) فى ع : اشتريتك منهم . أى على الالتفات .

Marfat.com

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ يقال : شريت بمعنى اشتريت، وشريت بمعنى بعت لغة؛ قال الشاعر (١) :

وشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي * مِن بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هَامَهْ

أي بعت . وقال آخر :

فلما شَرَاها فاضتِ العينُ عَبرةً * وفي الصَّدرِ حُزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ (٢)

﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أي نقص ؛ وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أي باعوه بثمن مبخوس، أي منقوص . ولم يكن قصد إخوته مايستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم مايستفيدونه من خلو وجه أبيهم عنه . وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الجب فأخبر إخوته فجاءوا وباعوه من الواردة . وقيل : لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعرفون الخبر، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا : هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم . وقال قتادة : « بَخْسٍ » ظلم . وقال الضحاك ومقاتل والسدى وابن عطاء : « بَخْسٍ » حرام . وقال ابن العربي : ولا وجه له، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم مايستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم مايستفيدون من خلو وجه أبيهم عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطعا؛ أو قالوا (٣) لأصحابهم : أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يُعطوا عنه ثمنا وأن ما أخذوا فيه ربح كله .

قلت : قوله « وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة » يدل على أنهم لو أخذوا القيمة فيه كاملة (٤) كان ذلك جائزا وليس كذلك ؛ فدل على صحة ماقاله السدى وغيره ؛ لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه . وقال عكرمة والشعبي : قليل . وقال ابن حيان : زَيْف . وعن ابن عباس وابن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ كل واحد من إخوته درهمين، وكانوا عشرة ؛ وقاله قتادة والسدى . وقال أبو العالية

(١) هو يزيد بن مفرغ الحميري ، و(برد) اسم عبد كان له ندم على بيعه . (٢) البيت للشماخ ، قاله في رجل باع قوسه من رجل . وحامز : عاصر، وقيل : أي ممض محرق . ويروى : من الوجد . (اللسان) .
(٣) في ع وك وو : وقالوا . (٤) في ع وك وى : وافية كاملة .

Marfat.com

ومقاتل : اثنين وعشرين درهما، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمين؛ وقاله مجاهد . وقال عِكرمة : أربعــين درهما ؛ وما روى عن الصحابة أولى . و « بخس » من نعت « ثمن » . ﴿ دَرَاهِمَ ﴾ على البــدل والتفسير له . ويقال : دراهيم على أنه جمع دِرهام، وقد يكون اسمـا للجمع عند سيبويه، ويكون أيضا عنده على أنه مدّ الكسرة فصارت ياء، وليس هــذا مثل مدّ المقصور؛ لأن مدّ المقصور لا يجوز عند البصريين فى شعر ولا غيره . وأنشد النحويون :

تَنْــفِى يداها الحَصَى فى كلِّ هاجِرةٍ * نَفْىَ الدراهــيمِ تَنْقَادُ الصَّــيَارِيفِ[1]

﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾[2] نعت؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجرى عندهم عدّا لا وزنا بوزن. وقيل: هو عبارة عن قلة الثمن؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما [كان][3] دون الأوقية ، وهى أربعون درهما .

الثانيــة — قال القاضى ابن العربى : وأصل النقدين الوزن؛ قال صلى الله عليه وسلم: ”لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنا بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى“. والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما عينها فلا منفعة فيــه ، ولكن جرى فيها العَدّ[4] تخفيفا عن الخلق لكثرة المعاملة، فيشق الوزن؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لجاز بيع بعضها ببعض عدًّا[4] إذا لم يكن بها نقصــان ولا رجحان ؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك كان كسرها أو قرضها من الفساد فى الأرض حسب ما تقدّم .

الثالثـــة — وٱختلف العلمــاء فى الدراهم والدنانير هل تتعين أم لا ؟ وقــد ٱختلفت الرواية فى ذلك عن مالك : فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين ، وهو الظــاهر من قول مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة . وذهب ٱبن القاسم إلى أنها تتعــين، وحكى عن الكَرْخىّ ؛ وبه قال الشــافعى . وفائدة الخلاف أنا إذا قلنـا لا تتعيّن فإذا قال : بعتك هــذه الدنانير بهذه

(١) البيت للفرزدق؛ وصف ناقة سريعة السير فى الهواجر، فشبه خروج الحصى من تحت مناسمها بارتفاع الدراهم عن الأصابع إذا نقدت .. (٢) فى ع و ى : بوزن . (٣) من ع وك و ى .
(٤) فى ع وك و و ى : العدد .

Marfat.com

الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها ، والدراهم بذمة صاحبها ؛ ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء ، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها .

الرابعة — رُوى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه قضى فى اللقيط أنه حر ، وقرأ : « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وقد مضى القول فيه .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ قيل : المراد إخوته . وقيل : السيارة . وقيل : الواردة ؛ وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبيطا ، لا عند الإخوة ؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أَبِق منا — والزهد قلة الرغبة — ولا عند الواردة لأنهم خافوا آشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أولى .

السادسة — فى هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ، ويكون البيع لازما ؛ ولهذا قال مالك : لو باع درّة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال لم أعلم أنها درّة وحسبتها مُخْشَلَبَة (١) لزمه البيع ولم يلتفت إلى قوله . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » أى فى حسنه ؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شطر الحسن صرف عنه دواعى نفوس القوم إليه إكراما له . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » لم يعلموا منزلته عند الله تعالى . وحكى سيبويه والكسائى : زَهِدت وزَهَدت بكسر الهاء وفتحها .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

(١) المخشلبة : خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي ٱشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ قيل : الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال؛ إذ لم يكن ذلك عقدا، مثل : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ٱشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ »(١). وقيل : إنهم ظنوه فى ظاهر الحال آشتراء، فجرى هذا اللفظ على ظاهر الظن . قال الضّحاك : هذا الذى آشتراه ملك مصر، ولقبه العزيز . السُّهيلى : وآسمه قطفير . وقال آبن إسحٰق : إطفير بن رويحب آشتراه لآمرأته راعيل؛ ذكره المـاوردى . وقيل : كان اسمها زَلِيخَاء . وكان الله ألقى محبـة يوسف على قلب العزيز، فأوصى به أهله ؛ ذكره القُشيرى . وقد ذكر القوابن فى آسمها الثّعلبى وغيره . وقال آبن عباس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر، وهو الريان بن الوليد . وقيل : الوليد بن الريان، وهو رجل من العمالقة . وقيـل : هو فرعون موسى؛ لقول موسى : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » وأنه عاش أربعمائة سنة . وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، على ما يأتى فى « غافر »(٢) بيانه . وكان هذا العزيز الذى آشترى يوسف على خزائن الملك؛ واشـترى يوسف من مالك بن دُعْر بعشرين دينارا ، وزاده حلة ونعلين . وقيل : اشتراه من أهل الرفقة . وقيل : تزايدوا فى ثمنـه فبلغ أضعاف وزنه مسْكا وعنبرا وحريرا وورِقا وذهبا ولآلىء وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله؛ فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن ؛ قاله وهب بن منبّه . وقال وهب أيضا وغيره : ولمـا آشـترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتابا : « هذا ما آشترى مالك بن دعر من بنى يعقوب ، وهم فلان وفلان مملوكا لهم بعشرين درهما، وقد شرطوا له أنه آبق ، وأنه لا ينقلب به إلا مقيدا مسلسلا ، وأعطاهم على ذلك عهد الله . قال : فودّعهم يوسف عند ذلك ، وجعل يقول : حفظكم الله و إن ضيعتمونى، نصركم الله و إن خذلتمونى، رحمكم الله و إن لم ترحمونى ؛ قالوا : فألقت الأغنام ما فى بطونها دما عَبِيطا(٣) لشدّة هـذا التوديع ، وحملوه على قتب بغير غطاء ولا وطاء، مقيـدا مكبّلا مسلسلا، فمرّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمّه — وقد كان وكل به أسود يحرسه فغفل الأسود — فألقى يوسف نفسه على قبر أمّه فجعل يتمرّغ

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٠ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣١٢ . (٣) الدم العبيط : الطرى .

Marfat.com

ويعتنق القبر ويضطرب ويقول : يا أماه ! آرفعي رأسك ترى ولدك مكبلا مقيدا مسلسلا مغلولا؛ فرّقوا بيني وبين والدي، فاسألي الله أن يجمع بيننا في مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين، فتفقده الأسود على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياض على قبر، فتأمله فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضربا وجيعا؛ فقال له : لا تفعل! والله ما هربت ولا أبقت وإنما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودّعها، ولن أرجع إلى ما تكرهون؛ فقال الأسود : والله إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرة وأمك أخرى! فهلا كان هذا عند مواليك؛ فرفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحق آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تغفر لي وترحمني؛ فضجّت الملائكة في السماء، ونزل جبريل فقال له : يا يوسف ! غُضّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء ! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها؟ قال : تثبت يا جبريل، فإن الله حليم لا يعجل؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت، وآرتفع الغبار، وكسفت الشمس، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضا؛ فقال رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثا؟ — فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطّ مثل هذا — فقال الأسود : أنا لطمت ذلك الغلام العبراني فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه، ولا أشك أنه دعا علينا؛ فقال له : ما أردت إلا هلا كنا ! آيتنا به، فأتاه به، فقال له : يا غلام! لقد لطمك فجاءنا ما رأيت؛ فإن كنت تقتص فاقتص ممن شئت، وإن كنت تعفو فهو الظنّ بك؛ قال: قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني؛ فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي ويكرمه، حتى وصل إلى مصر فاغتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر، وردّ عليه جماله، ودخل به البلد نهارا فسطع نوره على الجدران، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطفير وزير الملك؛ قاله آبن عباس على ما تقدّم . وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وآتبع يوسف على دينه، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزائن الأرض؛ فملك بعده قابوس وكان كافرا، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى . ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أي منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن؛ وهو

Marfat.com

مأخوذ من ثوى بالمكان أى أقام به ؛ وقد تقدّم فى « آل عمران[1] » وغيره. ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ أى يكفينا بعض المهمات إذا بلغ . ﴿أَوْ نَتَّخِـذَهُ وَلَدًا﴾ قال آبن عباس : كان حَصُـورًا لا يولد له ، وكذا قال آبن آسحق : كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له . فإن قيل : كيف قال « أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » وهو ملكه ، والولدية مع العبدية تتناقض ؟ قيل له : يعتقه ثم يتخذه ولدا بالتبنّى ؛ وكان التّبنى فى الأمم معلوما عندهم ، وكذلك كان فى أوّل الإسلام ، على ما يأتى بيانه فى « الأحزاب[2] » إن شاء الله تعالى . وقال عبد الله بن مسعود : أحسن الناس فراسة ثلاثة ؛ العزيز حين تفرّس فى يوسف فقـال : « عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِـذَهُ وَلَدًا » ، وبنت شعيب حين قالت لأبيها فى موسى «آسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ آسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ[3]» ، وأبو بكر حين آستخلف عمر . قال آبن العـربى : عجبا للفسرين فى اتفاقهم على جلب هـذا الخبر ! والفراسة هى علم غريب على ما يأتى بيانه فى سورة « الحِجْر[4] » وليس كذلك فيما نقـلوه ؛ لأن الصدّيق إنمـا ولّى عمر بالتجربة فى الأعمال ، والمواظبة على الصحبة وطولهـا ، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنّة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتى بيانه فى «القَصَص[4]» . وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة ؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الكاف فى موضع نصب ؛ أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الجبّ فكذلك مكّنا له ؛ أى عطفنا عليه قلب الملك الذى آشتراه حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مستول عليه . ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أى فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب : « وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » . وقيل : المعنى مكّناه لنوحى إليه بكلام منا ، ونعلمه تأويله وتفسيره ، وتأويل الرؤيا ، وتم الكلام . ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ الهاء راجعة إلى الله تعالى ؛ أى لا يغلب الله شىء ، بل هو الغالب على أمر

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ .
(٢) راجع جـ ١٤ ص ١١٨ فما بعد بعد وص ١٨٨ فما بعد .
(٣) جـ ١٠ ص ٤٢ فما بعد .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٧١ .

Marfat.com

نفسه فيما يريده أن يقول له : كُنْ فَيَكُونُ . وقيل : ترجع إلى يوسف ؛ أى الله غالب على أمر يوسف يدبّره ويحوطه ولا يكله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيدُ كائد . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يطلعون على غيبه . وقيل : المراد بالأكثر الجميع ؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب . وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطلع من يريد على بعض غيبه . وقيل : المعنى «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» أن الله غالب على أمره، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر . وقالت الحكماء فى هذه الآية : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ » حيث أمره يعقوب ألّا يقصّ رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قصّ، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، وافتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال : « يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ » ثم تدبّروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين، أى تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصرّوا عليه حتى أقروا بين يدى يوسف فى آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم : «إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ» ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص [فغلب أمر الله](١) فلم يخدع، وقال : «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا» ثم احتالوا فى أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق فى قلبه، ثم دبّرت امرأة العزيز أنها إن ابتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمر الله حتى قال العزيز: « اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ »، ثم دبّر يوسف أن يتخلّص من السجن بذكر الساقى فغلب أمر الله فنسى الساقى، ولبث يوسف فى السجن بضع سنين .

قوله تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ « أَشُدَّهُ » عند سيبويه جمع ، واحده شِدّة . وقال الكسائى : واحده شَدّ؛ كما قال الشاعر(٢) :

عَهْدِى به شَدَّ النَّهارِ كأنّمَا * خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ

(١) من ع وك وو ى . (٢) هو عنترة العبسى . وشد النهار : أى أشده ، يعنى أعلاه . واللبان : الصدر ، وقيل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين ، ويروى : « البنان » . والعظلم عصارة شجر أو نبت يصبغ به ، أو الوسمة ، وهى شجرة ورقها خضاب .

Marfat.com

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه آستكمال القوة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقتادة : الأَشُدّ ثلاث وثلاثون سنة . وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك آبن أنس: الأَشُدّ بلوغ الحُلُم؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء»(١) و «الأنعام»(٢) مستوفى. ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قيل : جعلناه المستولى على الحُكْم ، فكان يحكم في سلطان الملك؛ أي وآتيناه علما بالحُكْم . وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة . وقيل : الحُكْم النبوّة، والعِلم عِلم الدين؛ وقيـل : علم الرؤيا ؛ ومن قال : أوتى النبوّة صبيا قال : لمـا بلغ أشدّه زدناه فهما وعلما . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعني المؤمنين . وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف؛ قاله الضحاك . وقال الطبري : هذا وإن كان مخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته، كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعـداوة ، وأمكّن لك في الأرض .

قوله تعـالى : وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وهي آمرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها، وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين . والرَّوْد والرِّياد طلب الكلأ؛ وقيل: هي من رويد؛ يقال : فلان يمشي رُوَيْدا، أي برفق؛ فالمراودة الرفق في الطلب؛ يقال

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ فما بعد .

Marfat.com

فى الرجل : راودها عن نفسها، وفى المرأة راودته عن نفسه . والرَّود التأنِّى؛ يقال : أَرْوِدْنى أمهلنى . ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ غلّق للكثير، ولا يقال : غَلَق البـاب ؛ وأَغلق يقع للكثير والقليل؛ كما قال الفَرَزْدق فى أبى عمرو بن العلاء :

ما زلتُ أُغلق أبواباً وأفتحُهـا * حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّـارِ

يقال : إنها كانت سبعة أبواب غلّقتهـا ثم دعته إلى نفسها . ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أى هَلُمّ وأقْبِل وتَعالَ، ولا مصدر له ولا تصريف . قال النحاس : فيها سـبع قراءات ؛ فمن أجلّ ما فيها وأصحّه إسنادا ما رواه الأعمش عن أبى وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ « هَيْتَ لَكَ » قال فقلت : إن قوما يقرءونها « هِيتَ لك » فقال : إنمـا أقرأ كما عُلّمت . قال أبو جعفر : و بعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولا يبعد ذلك؛ لأن قوله : إنمـا أقرأ كما علّمت يدلّ على أنه مرفوع ، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هى الصحيحة من قـراءة ٱبن عباس وسـعيد بن جُبير والحسن ومجاهد وعكرمة؛ و بهـا قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحمزة والكسائىّ . قال عبد الله بن مسعود : لا تقطعوا فى القرآن ؛ فإنما هو مثـل قول أحدكم : هَلُمّ وتَعالَ . وقرأ ٱبن أبى إسحق النحوى « قَالَتْ هَيْتِ لَكَ » بفتح الهـاء وكسر التاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ وٱبن كثير « هَيْتُ لَكَ » بفتح الهـاء وضم التاء؛ قال طَرَفة :

ليس قـومِى بالأَبْعَدِين إذا ما * قال داعٍ من العَشيرة هَيْتُ

فهذه ثلاث قراءات الهـاء فيهنّ مفتوحة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع «وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ» بكسر الهـاء وفتح التاء . وقـرأ يحيى بن وثّاب « وَقَالَت هِيْتُ لَكَ » بكسر الهـاء و بعدها ياء ساكنة والتـاء مضمومة . ورُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه وٱبن عباس ومجاهـد وعكرمة : « وَقَالَتْ هِئْتُ لَكَ » بكسر الهـاء و بعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة . وعن ٱبن عامر وأهل الشام : «وَقَالَتْ هِئْتَ» بكسر الهاء و بالهمزة و بفتح التاء؛ قال أبو جعفر: « هَيْتَ لَكَ » بفتح التاء لالتقـاء السا كنين ، لأنه صوت نحو مَهْ وصَـهْ يجب ألّا يعرب،

Marfat.com

والفتح خفيف؛ لأن قبل التاء ياء مثل أَيْنَ وكَيْفَ؛ ومَن كسر التاء فإنما كسرها لأن الأصل الكسر؛ لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية؛ أى قالت: دعائى لك، فلما حذفت الإضافة بنى على الضم؛ مثل حيثُ و بعدُ . وقراءة أهل المدينة فيها قولان: أحدهما — أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مرّ . والآخر — أن يكون فعلا من هَاءَ يَهِيء مثل جاء يجيء؛ فيكون المعنى فى «هِئْتَ» أى حسنت هيئتك، ويكون «لَكَ» من كلام آخر، كما تقول: لكَ أعنى . ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأتُ لك؛ وكذلك من قرأ « هِيتُ لَكَ » . وأنكر أبو عمرو هذه القراءة؛ قال أبو عبيدة — مَعْمَر بن المُثَنَّى: سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزا فقال أبو عمرو: باطل؛ جعلها من تهيأت! آذهب فاستعرِض العربَ حتى تنتهى إلى اليمن هل تعرف أحدا يقول هذا؟! وقال الكسائى أيضا: لم تُحكَ «هِئْتُ» عن العرب . قال عِكرمة: «هِئْتُ لَكَ» أى تهيأت لك وتزينت وتحسنت، وهى قراءة غير مرضية، لأنها لم تسمع فى العربية . قال النحاس: وهى جيِّدة عند البصريين؛ لأنه يقال: هَاءَ الرجلُ يَهاء ويَهِيء هيأةً فهاء يهىء مثل جاء يجىء وهِئْتُ مثل جئت . وكسر الهـاء فى « هيت » لغـة لقوم يؤثرون كسر الهـاء على فتحها . قال الزجاج: أجود القراءات « هَيْتَ » بفتح الهـاء والتاء؛ قال طَرَفة:

ليس قـومى بالأبعدين إذا ما * قال داعٍ من العشيرة هَيْتَ

بفتح الهـاء والتـاء .

وقال الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه:

أَبلغ أمـير المـؤمنـ * ـينَ أخا العراقِ إذا أَتيتَا

إنّ العراقَ وأهلَهُ * سِلْمٌ إليك فَهَيْتَ هَيْتَا

قال آبن عباس والحسن: « هيت » كلمة بالسريانيـة تدعوه إلى نفسها . وقال السُّدىّ: معناها بالقبطية(١) هلمّ لك . قال أبو عبيد: كان الكسائىّ يقول: هى لغة لأهل حَوْران وقعت إلى أهـل الحجاز معناه تعالَ؛ قال أبو عبيـد: فسألت شيخا عالمـا من حَوْران فذكر أنهـا

(١) فى ع: النبطية .

لغتهم؛ وبه قال عِكْرِمة . وقال مجاهـد وغيره : هى لغة عربيـة تدعوه بها إلى نفسها ، وهى كلمة حثّ وإقبال على الأشـياء ؛ قال الجوهرى : يقـال هَوّت به وهَيّت به إذا صاح به ودعاه ؛ قال :

قـد رابَنِي أنَّ الكَرِيَّ أسْكَتَا * لو كان مَعْنِيًّا بهـا لَهَيَّتَا

أى صاح؛ وقال آخر :

* يَحْدو بهـا كلُّ فتىً هَيَّاتِ *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ أى أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتنى إليه؛ وهو مصدر، أى أعوذ بالله مَعاذا؛ فيحذف المفعول وينتصب المصدر بالفعل المحذوف، و يضاف المصدر إلى اسم الله كما يضاف المصـدر إلى المفعول ، كما تقـول : مررت بزيد مرورَ عمرو أى كمرورى بعمرو . ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ يعنى زوجها ، أى هو سيّدى أكرمنى فلا أخونه؛ قاله مجاهد وابن إسحق والسدّى . وقال الزجاج : أى إن الله ربى تولانى بلطفه، فلا أركب ما حرّمه . ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وفى الخبر أنها قالت له : يا يوسف ! ما أحسن صورة وجهك ! قال : فى الرَّحِم صـوّرنى ربّى؛ قالت : يا يوسف ما أحسن شَعْرك ! قال : هو أول شيء يَبْـلَى منّى فى قبرى؛ قالت : يايوسف ! ما أحسن عينيك ؟ قال : بهما أنظـر إلى ربّى . قالت : يا يوسف ! ارفع بصرك فانظـر فى وجهى ، قال : إنى أخاف العمى فى آخرتى . قالت يا يوسف ! أدنو منك وتتباعد منى ؟! قال : أريد بذلك القرب من ربّى . قالت : يايوسف ! القَيْطونَ[1] [فرشته لك][2] فادخل معى، قال : القَيْطُون لا يسترنى من ربّى . قالت : يايوسف ! فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقض حاجتى، قال : إذًا يذهب من الجنة نصيبى؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن همّ بها . وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمِلْن إلى يوسف مَيْل شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليه هيبة النبوّة؛ فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه . واختلف العلماء فى همّه ؛ ولا خلاف أن همّها كان المعصية ، وأما يوسف فهمّ بها

(١) القيطون : المخدع، أعجمىّ، وقيل : بلغة أهل مصر والبربر .	(٢) من ى .

Marfat.com

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما هم؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فإذًا فى الكلام تقديم وتأخير؛ أى لولا أن رأى برهان[1] ربه هم بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبى عبيدة فلما أتيت على قوله: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير؛ كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها. وقال أحمد بن يحيى: أى همت زليخاء بالمعصية وكانت مصرة، وهم يوسف ولم يواقع ما هم به؛ فبين الهمتين فرق، ذكر هذين القولين الهروى فى كتابه. قال جميل:

هَمَمْتُ بِهَمٍّ من بُثَينةَ لو بَدَا ❊ شَفيتُ غَلِيلاتِ الهَوَى من فُؤادِيَا

آخر:

هَمَمْتُ ولم أفعل وكدتُ وليتنى ❊ تَركتُ على عثمان تبكى حلائلُهْ

فهذا كله حديث نفس من غير عزم. وقيل: هم بها تمنى زوجيتها. وقيل: هم بها أى بضربها[2] ودفعها عن نفسه، والبرهان كفه عن الضرب؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها. وقيل: إن هم يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من آمرأته؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم، فيما ذكر القشيرى أبو نصر، وآبن الأنبارى والنحاس والماوردى وغيرهم. قال آبن عباس: حل الهميان[3] وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: آستلقت على قفاها وقعد بين رجليها ينزع ثيابه. وقال سعيد بن جبير: أطلق تِكّة سراويله. وقال مجاهد: حل السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرجل من آمرأته. قال آبن عباس: ولما قال: «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي». قالوا: والآنكفاف فى مثل هذه الحالة دالّ على الإخلاص، وأعظم للثواب.

(١) فى ع: رأى البرهان برهان.
(٢) هذا هو اللائق بالمعصوم دون سواه من المعانى.
(٣) الهيمان شداد السراويل.

Marfat.com

قلت : وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذى الكفل حسب ما يأتى بيانه فى «ص»[1] إن شاء الله تعالى . وجواب « لولا » على هذا محذوف؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما همّ به؛ ومثله « كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ »[2] وجوابه لم تتنافسوا؛ قال ٱبن عطية : روى هذا القول عن ٱبن عباس و جماعة من السلف ، وقالوا : الحكمة فى ذلك أن يكون مثلا للذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم، ولم يوبقه القرب من الذنب، وهذا كله على أن همّ يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلى زليخاء وأخذ فى حلّ ثيابه وتكّته ونحو ذلك، وهى قد ٱستلقت له ؛ حكاه الطبرى . وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام : وٱبن عباس ومن دونه لا يختلفون فى أنه همّ بها ، وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه، وأشدّ تعظيما للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم . وقال الحسن : إن الله عز وجل لم يذكر معاصى الأنبياء ليعيرهم بها؛ ولكنه ذكرها لكيلا تيئسوا من التوبة. قال الغزنوى : مع أن لزلة الأنبياء حِكما : زيادة الوجل، وشدة الحياء بالخجل، والتخلّى عن عجب العمل ، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل ، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل . قال القُشيرى أبو نصر : وقال قوم جرى من يوسف همّ؛ وكان ذلك [الهمّ][3] حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد، وتناول الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس فى النفس؛ والبرهان صرفه عن هذا الهمّ حتى لم يصر عزما مصمما .

قلت : هذا قول حسن ؛ وممن قال به الحسن . قال ٱبن عطية : الذى أقول به فى هذه الآية إن كون يوسف نبيا فى وقت هذه النازلة لم يصح، ولا تظاهرت به رواية؛ و إذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتى حُكما وعلما ، ويجوز عليه الهمّ الذى هو إرادة الشىء دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الردىء على ما فى ذلك من الخطيئة؛ و إن فرضناه نبيا فى ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندى إلا الهمّ الذى هو خاطر، ولا يصح عليه شىء مما ذكر من حلّ تكّته

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢١٨ و جـ ١١ ص ٣٢٧ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٧٣ (٣) من ع و ك و و .

Marfat.com

ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوة . وما روى من أنه قيل له : « تكون فى ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء » فإنمــا معناه العِدَة بالنبوة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من [هذا](١) التفصيل صحيح؛ لكن قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ » يدلّ على أنه كان نبيًّا على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ وإذا كان نبيًّا فلم يبق إلّا أن يكون الهمّ الذى همّ به ما يخطر فى النفس ولا يثبت فى الصدر؛ وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لاقدرة للمكلّف على دفعه؛ ويكون قوله : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » — إن كان من قول يوسف — أى من هذا الهمّ، أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف، لمخالفة النفس لمــا زكّى به قبل وبُرِّئ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » على ماتقدّم بيانه، وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزّنى ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبي فى أهله؛ فمــا تعرّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفرّ منها؛ حكمة خص بهــا، وعملا بمقتضى ما علّمه الله . وفى صحيح مسلم عن أبى هُريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جَرَّاى(٢) ". وقال عليه السلام مخبرا عن ربه : " إذا همّ عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة " فإن كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفى الصحيح: "إن الله تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها مالم تعمل أو تكلّم به" وقد تقدّم . قال ابن العربى : كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية، — وأىّ إمام — يعرف بابن عطاء ! تكلّم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال : يا شيخ ! يا سيدنا ! فإذًا يوسف همّ وما تمّ ؟ قال : نعم ! لأن العناية من ثَمّ . فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم ، وانظر إلى فطنة العامى فى سؤاله ،

---

(١) من ع . (٢) من جراى : أى من أجلى ، وفى نسخة من صحيح مسلم " من جرائى " .

Marfat.com

وجواب العالم فى آختصاره وآستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية: إن فائدة قوله: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة.

قلت: وإذا تقررت عصمته وبراءته بثناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَب بن عثمان: إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها، فاشتاقته آمرأة فسامته نفسها فامتنع عليها وذكّرها، فقالت: إن لم تفعل لأشهرنك؛ فخرج وتركها، فرأى فى منامه يوسف الصديق عليه السلام جالسا فقال: أنت يوسف؟ فقال: أنا يوسف الذى هممتُ، وأنت سليمان الذى لم تهمّ؟! فإن هذا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوّة وهو محال؛ ولو قدّرنا يوسف غير نبي فدرجته الولاية، فيكون محفوظا كهو؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب، وروجع فى المقال والخطاب، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليه الفتنة، وعظيم المحنة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [«أن» فى موضع رفع أى لولا رؤية برهان ربه](١) والجواب محذوف لعلم السامع؛ أى لكان ما كان. وهذا البرهان غير مذكور فى القرآن؛ فرُوى عن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه أن زليخاء قامت إلى صنم مكلّل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحى من إلهى هذا أن يرانى فى(٢) هذه الصورة؛ فقال يوسف: أنا أولى أن أستحى من الله؛ وهذا أحسن ما قيل فيه، لأن فيه إقامة الدليل. وقيل: رأى مكتوبا فى سقف البيت «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا»(٣). وقال آبن عباس: بدت كفّ مكتوب(٤) عليها «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ»(٥) وقال قوم: تذكر عهد الله وميثاقه. وقيل: نودى يا يوسف! أنت مكتوب فى [ديوان](٦) الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؟! وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدران عاضا على أنملته يتوعده فسكن، وخرجت شهوته من أنامله؛ قاله قَتادة ومجاهد والحسن والضّحاك وأبو صالح وسعيد بن جُبير. وروى الأعمش عن مجاهد قال: حلّ سراويله فتمثل له يعقوب، وقال له:

(١) من ع، ك. (٢) فى ع وك: على. (٣) راجع ج ١٠ ص ٢٥٣.
(٤) فى ع: وعن. (٥) راجع ج ١٩ ص ٢٤٥. (٦) من ع.

Marfat.com

يا يوسف ! فولّى هاربا . وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جُبير قال : مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله ؛ قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب آثنا عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان ، ونقص بتلك الشهوة ولده ؛ وقيل غير هذا . وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمانه ، وآمتنع عن المعصية .

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ الكاف من « كَذَٰلِكَ » يجوز أن تكون رفعا ، بأن يكون خبر آبتداء محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويكون نعتا لمصدر محذوف ؛ أي أريناه البراهين رؤية كذلك . والسوء الشهوة ، والفحشاء المباشرة . وقيل : السوء الثناء القبيح ، والفحشاء الزنى . وقيل : السوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة . وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو وآبن عامر « المخلِصين » بكسر اللام ؛ وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله . وقرأ الباقون بفتح اللام ، وتأويلها : الذين أخلصهم الله لرسالته ؛ وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان مخلِصا في طاعة الله تعالى ، مستخلَصا لرسالة الله تعالى .

قوله تعالى : وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ قالت العلماء : وهذا من آختصار القرآن المعجز الذي يجتمع فيه المعاني ؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فتعاديا ، هي لتردّه إلى نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فأدركته قبل أن يخرج . « وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ » أي من خلفه ؛ قبضت في أعلى قميصه فتخرّق القميص عند طوقه ، ونزل التخريق إلى أسفل القميص .

Marfat.com

والاستباق طلب السّبق إلى الشيء ؛ ومنه السّباق . والقدّ القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا ؛ قال النابغة (١) :

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضَاعَفَ نَسْجُهُ * وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

والقَطّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرْضا . وقال المفضّل بن حرب : قرأت في مصحف « فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ عُطَّ مِنْ دُبُرٍ » أي شُقّ . قال يعقوب : العَطّ الشّق في الجلد الصحيح والثوب الصحيح . وحذفت الألف من «ٱسْتَبَقَا» في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها؛ كما يقال: جاءني عبدُ الله في التثنية؛ ومن العرب من يقول : جاءني عبدا الله بإثبات الألف بغير همز، يجمع بين ساكنين ؛ لأن الثاني مدغم ، والأول حرف مدّ ولين . ومنهم من يقول : عبدا الله بإثبات الألف والهمز ، كما تقول في الوقف .

الثانيــة — في الآية دليل على القياس والاعتبار ، والعمل بالعرف والعادة؛ لما ذكر من قدّ القميص مقبلا ومدبرا ، وهذا أمر آنفرد به المالكية في كتبهم؛ وذلك أن القميص إذا جُبِذ من خلف تمزّق من تلك الجهة ، وإذا جُبِذ من قدّام تمزق من تلك الجهة ، وهذا هو الأغلب (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى ٱلْبَابِ ﴾ أي وجدا العزيز عند الباب، وعُنِيَ بالسيّد الزوج ؛ والقبط يسمّون الزوج سيّدا . يقال : ألفاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كله بمعنى واحد (٣) ؛ فلما رأت زوجها طلبت وجها للحيلة وكادت (٤) فـ ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أي زنى . ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تقول : يُضرب ضربا وجيعا . و « مَا جَزَاءُ » ابتداء، وخبره «أَنْ يُسْجَنَ» . «أَوْ عَذَابٌ» عطف على موضع «أَنْ يُسْجَنَ» لأن المعنى : إلا السّجن . ويجوز أو عذابا أليما بمعنى : أو يعذّب عذابا أليما؛ قاله الكسائي .

---

(١) يصف السيوف ، وقد تقدم شرح البيت بهامش ص ١٠٣ من هذا الجزء .

(٢) في ع و ك : في . (٣) كذا العبارة في الأصول وفي « البحر المحيط » ، ولم نقف على مادة (وارط ووالط ولاط) بمعنى (ألفى) في معاجم اللغة . (٤) من الكيد .

Marfat.com

قوله تعالى : قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ .

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قال العلماء[1] : لمـا برّأت نفسها ؛ ولم تكن صادقة فى حبه ــ لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب ــ قال : « هِىَ رَاوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى » نطق يوسف بالحق فى مقابلة بهتها وكذبها عليه . قال نُوفٌ الشامىّ وغيره : كأنّ يوسف عليه السلام لم يَبِن عن كشف القضية، فلما بَغَت به غضب فقال الحق .

الثانيــة ــ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ لأنهما لمـا تعارضا فى القول آحتاج الملك إلى شاهد ليعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أى حكم حاكم من أهلها ؛ لأنه حكم منه وليس بشهادة . وقد آختلف فى هذا الشاهد على أقوال أربعة : الأوّل ــ أنه طفل فى المهد تكلم؛ قال السّهيلى : وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قوله : " لم يتكلم فى المهـد إلا ثلاثة " وذكر فيهـم شاهد يوسف . وقال القُشيرىّ أبو نصر : قيل [فيه][2] : كان صبيا فى المهد فى الدار وهو آبن خالتها؛ وروى سعيد بن جُبير عن آبن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تكلم أربعة وهم صغار " فذكر منهم شاهد يوسف ؛ فهـذا قول . الثـانى ــ أن الشاهد قدّ القميص ؛ رواه آبن أبى نَجيـح عن مجاهد ، وهو مجـاز صحيح من جهة اللغـة ؛ فإن لسان الحـال أبلغ من لسان المقـال ؛

(١) فى ع : الحسن . (٢) من ع .

Marfat.com

وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخبر عنها بما هى عليه من الصفات ، وذلك كثير فى أشعارها وكلامها ؛ ومن أحلاه قول بعضهم : قال الحائط للوتد لِمَ تَشقُّنى ؟ قال له : سَلْ من يَدقُّنى . إلا أن قول الله تعالى بعد « مِنْ أَهْلِهَا » يبطل أن يكون القميص . الثالث — أنه خَلْق من خلق الله تعالى ليس بإنسى ولا بجنىّ؛ قاله مجاهد أيضا ، وهذا يرده قوله تعالى : « مِنْ أَهْلِهَا » . الرابع — أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها فقال : قد سمعت(١) الاستبدار والجلبة من وراء الباب ، وشق القميص ، فلا يدرى أيكما كان قدّام صاحبه ؛ فإن كان شقّ القميص من قدّامه فأنتِ صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق ؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف ؛ هذا قول الحسن وعِكرمة وقتادة والضّحاك ومجاهد أيضا والسدّى . قال السدّى : كان ابن عمها ؛ وروى عن ابن عباس ، وهو الصحيح فى الباب ، والله أعلم . وروى عن ابن عباس — رواه [عنه(٢)] إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة — قال : كان رجلا ذا لحية . وقال سفيان عن جابر عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس أنه قال : كان من خاصة الملك . وقال عكرمة : لم يكن بصبىّ ، ولكن كان رجلا حكيما . وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : كان رجلا . قال أبو جعفر النحاس : والأشبه بالمعنى — والله أعلم — أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة ؛ ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تغنى عن أن يأتى بدليل من العادة ؛ لأن كلام الطفل آية معجزة ، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة ؛ وليس هذا بمخالف للحديث " تكلم أربعة وهم صغار " منهم صاحب يوسف ؛ يكون المعنى : صغيرا ليس بشيخ ؛ وفى هذا دليل آخر وهو : أن ابن عباس رضى الله عنهما روى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبىّ .

قلت : قد رُوى عن ابن عباس وأبى هُريرة وابن جُبير وهلال بن يِساف(٣) والضّحاك أنه كان صبيا فى المهد ؛ إلا أنه لو كان صبيا تكلم لكان الدليل نفس كلامه ، دون أن يحتاج إلى

---

(١) فى ع : سمعنا . (٢) من ع و ى . (٣) هو بالكسر وقد يفتح .

Marfat.com

استدلال بالقميص، وكان يكون ذلك خرق عادة ، ونوع معجزة ؛ والله أعلم . وسيأتى من تكلم فى المهد من الصبيان فى سورة « البروج »(١) إن شاء الله .

الثالثــة — إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلا صغيرا فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا ؛ وإذا كان رجلا فيصح أن يكون حجة بالحكم بالملامة فى اللقطة وكثير من المواضع ؛ حتى قال مالك فى اللصوص : إذا وجدت معهم أمتعة فجاء قوم فادعوها ، وليست لهم بينة فإن السلطان يتلوّم(٢) لهم فى ذلك ؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم . وقال محمد فى متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل : إن ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة ، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل . وكان شُرَيح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات فى الحكومات ؛ وأصل ذلك هذه الآية ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ ﴾ كان فى موضع جزم بالشرط ، وفيه من النحو ما يشكل ، لأن حروف الشرط تردّ الماضى إلى المستقبل ، وليس هذا فى كان ؛ فقال المبرد محمد بن يزيد : هذا لقوة كان ، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال . وقال الزجاج : المعنى إن يكن ؛ أى إن يُعلَم ، والعلم لم يقع ، وكذا الكون لأنه يؤدى عن العلم . « قُدَّ مِنْ قُبُلٍ » خبر عن « كان » بالفعل الماضى ؛ كما قال زهير :

وكان طَوَى كَشْحًا على مُسْتَكِنَّةٍ * فلا هو أبداها ولم يَتَقَدَّمِ(٣)

وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبى إسحق « مِن قُبُلُ » بضم القاف والباء واللام ، وكذا « دُبُرُ » قال الزجاج : يجعلهما غايتين كقبلُ وبعدُ ؛ كأنه قال : من قُبُلِه ومن دُبُرِه ، فلما حذف المضاف إليه — وهو مراد — صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له . ويجوز « من قُبُلَ » « ومن دُبُرَ » بفتح الراء واللام تشبيها بما لا ينصرف ؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه . وروى محبوب عن أبى عمرو « من قُبْلٍ » « ومن دُبْرٍ » مخففان مجروران .

---

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٨٧ (٢) التلوم : التنظر للأمر تريده .

(٣) الكشح : الجنب ، ويقال : طوى كشحه على كذا إذا أضمره . والمستكنة : الحقد . ويروى : (ولم يتجمجم) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ قيل : قال لها ذلك العزيز عند قولها : « مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا » . وقيل : قاله لها الشاهد . والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدّم في « الأنفال »(١) . ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وإنما قال « عَظِيمٌ » لعظم فتنتهنّ واحتيالهنّ في التخلّص من ورطتهنّ . وقال مقاتل عن يحيى ابن أبي كثير عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول : « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا »(٢) وقال : « إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » " .

قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ القائل هذا هو الشاهد . و « يوسف » نداء مفرد ، أي يا يوسف ، فحذف . « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أي لا تذكره لأحد واكتمه . ثم أقبل عليها فقال : وأنتِ ﴿ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ يقول : استغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك . ﴿ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فغلّب المذكر ؛ والمعنى : من الناس الخاطئين ، أو من القوم الخاطئين ؛ مثل : « إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ »(٣) « وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ »(٤) . وقيل : إن القائل ليوسف أعرض ولها استغفري زوجها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما — أنه لم يكن غيورا ؛ فلذلك كان ساكنا . وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود . الثاني — أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفِي بادرته وعفا عنها(٥) .

قوله تعالى : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٨٦ .	(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٨٠ .	(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٠٧ .
(٤) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٤ .	(٥) في ع وك وى : حلم .

Marfat.com

وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ويقال : « نُسوة » بضم النون، وهى قراءة الأعمش والمفضّل والسُّلَمىّ، والجمع الكثير نساء . ويجوز : وقالت نسوة ، وقال نسوة، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب ؛ وذلك أن القصة آنتشرت فى أهل مصر فتحدث النساء . قيل : آمرأة ساقى العزيز، وآمرأة خبازه، وآمرأة صاحب دوابه، وآمرأة صاحب سجنه . وقيل : آمرأة الحاجب ؛ عن آبن عباس وغيره . ﴿ تُرَٰوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ الفتى فى كلام العرب الشاب، والمرأة فتاة . ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ قيل : شغفها غلبها . وقيل : دخل حبه فى شَغافها ؛ عن مجاهد وغيره . وروى عمرو بن دينار عن عِكرمة عن آبن عباس قال : دخل تحت شَغافها . وقال الحسن : الشَّغف باطن القلب . السدّى وأبو عبيد (١) : شغاف القلب غلافه، وهو جلدة عليه . وقيل : هو وسط القلب ؛ والمعنى فى هذه الأقوال متقارب، والمعنى : وصل حبه إلى شَغافها فغلب عليه ؛ قال النابغة :

وقد حال همٌّ دون ذلك داخلٌ * دخولَ الشَّغافِ تبتغيه الأصابعُ (٢)

وقد قيل : إن الشَّغاف داء، وأنشد الأصمعى للراجز :

* يتبعها وهى له شَغافُ *

وقرأ أبو جعفر بن محمد وآبن محيصن والحسن « شَعَفَهَا » بالعين غير معجمة ؛ قال آبن الأعرابى : معناه أحرق حبه قلبها ؛ قال : وعلى الأول العمل . قال الجوهرىّ : وشَعفه الحبُّ أحرق قلبه . وقال أبو زيد : أمرضه . وقد شُعِف بكذا فهو مشعوف . وقرأ الحسن « قَدْ شَعَفَهَا » قال : بَطَنها حبًّا . قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب ؛

(١) فى ع و ك و ى : أبو عبيدة .

(٢) يعنى أصابع المطببين ؛ يقول : قد حال عن البكاء على الديار هم دخل فى الفؤاد، حتى أصابه منه داء .

Marfat.com

لأن شِعَاف الجبال . أعاليها؛ وقد شُغِف بذلك شُغْفا بإسكان الغين إذا أُولع به ؛ إلا أن أبا عبيدة أنشد بيت آمرئ القيس :

لتقتلنى[1] وقد شَغَفْتُ فؤادَها * كما شَغَفَ المَهْنُوءةَ[2] الرَّجلُ الطَّالِى

قال : فشبهت لوعةُ الحبّ وجَوَاه بذلك . ورُوِى عن الشَّعْبى أنه قال : الشَّغف بالغين المعجمة حُبّ، والشَّعف بالعين غير المعجمة جنونٌ . قال النحاس : وحكى « قد شَغِفَها » بكسر الغين، ولا يعرف فى كلام العرب إلا «شَغَفَها» بفتح الغين، وكذا « شَعَفها » أى تركها مشعوفة . وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن الحسن : الشَّغاف حجاب القلب ، والشَّعاف سويداء القلب ، فلو وصل الحبّ إلى الشَّعاف لماتت ؛ وقال الحسن : ويقال إن الشَّغاف الجلدة اللاصقة بالقلب[3] التى لاترى، وهى الجلدة البيضاء ، فلصق حبّه بقلبها كلصوق الجلدة بالقلب[3] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى هذا الفعل . وقال قَتَادة : «فَتَاهَا» وهو فتى زوجها، لأن يوسف كان عندهم فى حكم المماليك، وكان ينفذ أمرها فيه . وقال مقاتل عن أبى عثمان النَّهْدِىّ عن سلمان الفارسىّ قال : إن آمرأة العزيز آستوهبت زوجها يوسف فوهبه لها، وقال : ما تصنعين به؟ قالت : أتخذه ولدا؛ قال : هو لك؛ فربته حتى أَيْفَعَ وفى نفسها منه ما فى نفسها ، فكانت تنكشف له وتتزيّن وتدعوه من وجه اللطف فعصمه الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أى بغيبتهنّ إياها، وآحتيالهنّ فى ذمها . وقيل : إنها أطلعتهنّ واستأمنتهنّ فأفشين سرها ، فسمى ذلك مكرا . وقوله : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى أرسلت إليهن تدعوهنّ إلى وَلِيمة لتُوقعهنّ فيما وقعت فيه؛ فقال مجاهد عن آبن عباس : إن آمرأة العزيز قالت لزوجها إنى أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النسوة؛ فقال لها : افعلى؛ فاتخذت طعاما، ثم نَجَّدت لهن البيوت؛ نَجَّدت أى زيَّنت؛ والنَّجْد ما يُنَجَّد

(١) فى ى والطبرى : أتقتلنى . وهو الأشبه .

(٢) المهنوءة : المطلية بالقطران ، وإذا هنىء البعير بالقطران يجد له لذة مع حرقة ، كحرقة الهوى مع لذته .

(٣) فى ع و و : الكبد . وليس بصحيح .

Marfat.com

به البيت من المتاع أى يُزيَّن، والجمع نُجود عن أبى عُبيد[(١)]، والتَّنجيد التزيين؛ وأرسلت إليهنّ أن يحضُرن طعامها ، ولا تتخلف منكنّ آمرأة ممن سميتُ . قال وهب بن مُنبِّه : إنهنّ كنّ أربعين آمرأة فجئن على كُرْه منهنّ، وقد قال فيهنّ أُميَّة بن أبى الصَّلْت :

حتى إذا جئنها قسرا * ومهدت لهن أنضادا وكبابا[(٢)]

ويُروى : أنماطا . قال وهب بن [منبه][(٣)] : فجئن وأخذن مجالسهن . ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أى هيأت لهنّ مجالس يتكئن عليها . قال آبن جُبير : فى كل مجلس جامٌ فيه عسل وأُتْرُج وسكّين حاد . وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبير « مُتْكًا » مخففا غير مهموز، والمُتْك هو الأُتْرُج بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد . روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : المُتَّكأ مثقلا [هو][(٣)] الطعام، والمُتْك مخففا [هو][(٣)] الأُتْرُج؛ وقال الشاعر :

نَشْرَبُ الإثم بالصُّواعِ جِهارًا * وتَرَى المُتْكَ بيننا مُسْتَعارًا

وقد تقول أَزْدُ شَنُوءة : الأُتْرُجَّة المُتْكَة؛ قال الجوهرىّ : المُتْك ما تُبقيه الخاتنة . وأصل المُتْك الزُّماوَرْد[(٤)] . والمَتْكاء من النساء التى لم تُخْفَض[(٥)] . قال الفرّاء : حدثنى شيخ من ثقات أهل البصرة أن المُتْك مخففا الزُّماوَرْد . وقال بعضهم : إنه الأُتْرُجّ؛ حكاه الأخفش . آبن زيد : أترجًا وعسلا يؤكل به؛ قال الشاعر[(٦)] :

فَظَلْنا بنعمةٍ وآتّكأنا * وشَرِبْنا الحلالَ من قُلَلِه

أى أكلنا .

النحاس : قوله تعالى : « وَأَعْتَدَتْ » من العَتاد، وهو كل ما جعلته عُدّة لشىء . « مُتَّكَأً » أصح ما قيل فيه ما رواه علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس قال : مجلسا ، وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير : طعام متكأ ، مثل : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »؛ ودلّ على

---

(١) كذا فى الأصول : ولعل الصواب أبو عبيدة كما يؤخذ من اللسان . (٢) كذا البيت فى الأصول .

(٣) من ع . (٤) الزماورد : الرقاق الملفوف باللحم وغيره، أو هو شىء يشبه الأترج .

(٥) خفض الجارية : ختنها ، وكذا الصبى ، والعرف أن الخفض للجارية خاصة والختان للصبى . (٦) هو جميل ابن معمر، والقلل جمع قلة ، والقلة الحب العظيم . وقيل : الجرة الكبيرة . وقيل : الكوز الصغير . وقيل : غير ذلك .

Marfat.com

هذا الحذف «وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً» لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقطع بالسكاكين؛ كذا قال فى كتاب «إعراب القرآن» له . وقال فى كتاب «معانى القرآن» [له](١) : وروى مَعْمَر عن قتادة قال : «المتكأ» الطعام . وقيل : «المتكأ» كل ما آتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة ، إلا أن الروايات قد صحت بذلك . وحكى القُتَبِيّ أنه يقال : آتكأنا عند فلان أى أكلنا ، والأصل فى «متكأ» موتكأ ، ومثله مُتَّزِن ومتَّعد؛ لأنه من وزنت ووعدت ووكأت ، ويقال : آتّكأ يَتَّكئ آتكاء . ﴿ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ مفعولان؛ وحكى الكسائى والفراء أن السِّكين يذكر ويؤنث ، وأنشد الفراء :

فَعَيَّثَ(٢) فِى السَّنَامِ غَدَاةَ قُرٍّ * بِسِكِّينٍ مُوَثَّقَةِ النِّصَابِ

الجوهرىّ : والغالب عليه التذكير ، وقال :

يُرَى نَاصِحـًا فيما بَدَا فإذا خَلَا * فذلك سِكِّينٌ على الحَلْقِ حَاذِقُ

الأصمعى : لا يعرف فى السكين إلا التذكير .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتُ آخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ بضم التاء لالتقاء الساكنين؛ لأن الكسرة تثقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت التاء على الأصل . قيل : إنها قالت لهن : لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن ، ثم قالت لخادمها : إذا قلت لك آدع لى إيلا فآدع يوسف؛ وإيل : صنم كانوا يعبدونه ، وكان يوسف عليه السلام يعمل فى الطين ، وقد شدّ مِئزره ، وحسَر عن ذراعيه؛ فقالت للخادم : آدع لى إيلا؛ أى آدع لى الربّ؛ وإيل بالعبرانية الربّ؛ قال : فتعجب النسوة وقلن : كيف يجيء ؟! فصعدت الخادم فدعت يوسف ، فلما آنحدر قالت لهن : آقطعن ما معكن . ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم؛ قاله وهب بن مُنَبِّه . سعيد بن جُبير : لم يخرج عليهن حتى زينته ، فخرج عليهن فأة فدهشن فيه ، وتحيّرن لحسن وجهه وزينته وما عليه ، فجعلن يقطعن أيديهن ، ويحسبن

(١) من ع .	(٢) عيث فى السنام بالسكين أثر .

Marfat.com

أنهن يقطعن الأترج؛ وآختلف فى معنى «أَكْبَرْنَهُ» فروى جُوَيبر عن الضّحاك عن آبن عباس : أعظمنه وهِبْنه[(١)]؛ وعنه أيضا أَمْنَين وأَمْذين من الدَّهَش؛ وقال الشاعر :

إذا ما رأين الفحلَ من فوق قارةٍ[(٢)] * صَهَلْنَ وأَكْبَرْنَ المنِىَّ المدفقَا

وقال آبن سمعان عن عدة من أصحابه : إنهم قالوا أمذين عشقا؛ وهب بن مُنبّه : عشقنه حتى مات منهن عشرة فى ذلك المجلس دَهَشا وحيرة ووَجْدا بيوسف . وقيل : معناه حضن من الدَّهش؛ قاله قتادة ومقاتل والسُّدىّ[(٣)]؛ قال الشاعر :

نأتى النساءَ على أطهارهنّ ولا * نأتى النّساءَ إذا أَكْبَرْنَ إِكْبَارَا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا : ليس ذلك فى كلام العرب، ولكنه يجوز أن يكنّ حضن من شدّة إعظامهن له ، وقد تفزع المرأة فتسقط ولدها أو تحيض . قال الزجاج : يقال أكبرنه ، ولا يقال حِضْنه ، فليس الإكبار بمعنى الحيض؛ وأجاب الأزهرى فقال : يجوز أَكْبرت بمعنى حاضت؛ لأن المرأة إذا حاضت فى الآبتداء خرجت من حيِّز الصغر إلى الكبر؛ قال : والهاء فى « أَكْبَرْنَهُ » يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية؛ وهذا مزيَّف ، لأن هاء الوقف تسقط فى الوصل، وأمثل منه قول آبن الأنبارى : إن الهاء كناية عن مصدر الفعل، أى أكبرن إكبارا ، بمعنى حِضْن حَيْضا . وعلى قول آبن عباس الأول تعود الهاء إلى يوسف؛ أى أعظمن يوسف وأجْلَلْنه .

قوله تعالى : ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ قال مجاهد : قطّعنها حتى ألقينها . وقيل : خَدَشْنها . وروى آبن أبى نجيح [عن مجاهد][(٤)] قال : حَزًّا بالسكّين ، قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس قطعا تَبِين منه اليد، إنما هو خَدْش وحزّ، وذلك معروف فى اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده . وقال عِكرمة : « أَيْدِيَهُنَّ » أكمامهنّ ، وفيه بُعْـد . وقيل : أناملهنّ ؛ أى ماوجدن ألَمًا فى القطع والجرح، أى لشغل قلوبهن بيوسف، والتقطيع يشير إلى الكثرة، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها فى مواضع ، ويمكن أن يرجع إلى عددهنّ .

(١) فى هامش ع : معنى « أكبرنه » أى عظمنه ودهشن من حسنه .   (٢) القارة : الجبيـل الصغير المنقطع عن الجبال ، وقيل : الصخرة العظيمة ، وقيل غير ذلك .   (٣) قال آبن عطية وقوله : «أكبرنه» معناه أعظمنه واستهولن جماله هذا قول الجمهور . وقال عبد الصمد بن على الهاشمى عن أبيه عن جده : معناه حضن وأنشد :

نأتى النساء على أطهارهن ولا * نأتى النساء إذا أكبرن إكبارا

قال القاضى أبو محمد : وهذا قول ضعيف ومعناه منكور والبيت مصنوع مختلق ؛ لذلك قال الطبرى وغيره من المحققين : ليس عبد الصمد من رواة العلم رحمه الله . من هامش ع .   (٤) من ع وك .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى معاذ الله . وروى الأصمعىّ عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء . « وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ » بإثبات الألف وهو الأصل ، ومن حذفها جعل اللام فى « لله » عوضا منها . وفيها أربع لغات ؛ يقال : حَاشَاكَ وحَاشَا لَكَ وحاشَ لكَ وحَشَا لَكَ . ويقال : حَاشَا زيدٍ وحاشا زيدًا ؛ قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد ابن يزيد يقول : النصب أولى ؛ لأنه قد صحّ أنها فعلٌ لقولهم حاش لزيد ، والحرف لا يحذف منه ؛ وقد قال النابغة :

* وَلَا أحاشِى من الأقوامِ من أَحَدِ[1] *

وقال بعضهم : حاشَ حرف ، وأُحاشِى فعل . ويدلّ على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها . وحكى أبو زيد عن أعرابىّ : اللهم آغفر لى ولمن يَسمع[2] ، حاشا الشيطانَ وأبا الأصبغ[3] ؛ فنصب بها . وقرأ الحسن « وَقُلْنَ حَاشْ لِلَّهِ » بإسكان الشين ، وعنه أيضا « حاش الإله » . ابن مسعود وأُبَىّ : « حَاشَ اللهِ » بغير لام ، ومنه قول الشاعر[4] :

حاشا أبى ثَوْبانَ إنّ بهِ * ضَـنًّا عنِ المَلْحَاةِ والشَّتْمِ

قال الزجاج : وأصل الكلمة من الحاشية ، والحَشَا بمعنى الناحية ، تقول : كنت فى حَشَا فلانٍ أى فى ناحيته ؛ فقولك : حاشا لزيدٍ أى تَنحَّى زيدٌ من هـذا وتباعد عنه ، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين . وقال أبو على : هو فاعل من المحاشاة ؛ أى حاشا يوسف وصار فى حاشية وناحية مما قُرِف به ، أو من أن يكون بشرا ؛ فحاشا وحاش فى الاستثناء حرف جرّ عند سيبويه ، وعلى ما قال المبرّد وأبو علىّ فعل .

قوله تعالى : ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ قال الخليل وسيبويه : « ما » بمنزلة ليس ؛ تقول : ليس زيد قائما ، و « ما هذا بشرا » و « مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ »[5] . وقال الكوفيون : لمـا حذفت الباء

---

(١) صدر البيت : * ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه *
وهو من قصيدة يمدح بها النعمان و يعتذر إليه . (٢) فى ع و ك و و : سمع . (٣) كلام منثور .
(٤) هو سبرة بن عمرو الأسدى ، وقيل : هو الجميح الأسدى ، واسمه منقذ بن الطماح . والملحاة : اللوم . وفى ع : ابن مروان . كذا فى إحدى روايتى اللسان : أبى مروان . وفى ك و ى : ثروان .
(٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٧٢ .

Marfat.com

نصبت؛ وشرح هذا — فيما قاله أحمد بن يحيى — أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الخفض؛ فلما حذفت الباء نصبت لتدلّ على محلها، قال : وهذا قول الفرّاء، قال : ولم تعمل « ما » شيئا؛ فألزمهم البصريون أن يقولوا : زيد القمرَ؛ لأن المعنى كالقمر! فردّ أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل في حروف الخفض من الكاف؛ لأن الكاف تكون آسما . قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين؛ وهذا القول يتناقض؛ لأن الفرّاء أجاز نصًّا[1] ما بمنطلق زيدٌ، وأنشد :

أَمَا واللهِ أنْ لو كنتَ حُرًّا * وما بالحُرِّ أنتَ ولا العَتِيقِ

ومنع نصًّا[1] النصب؛ ولا نعلم بين النحويين آختلافا أنه جائز : ما فيك براغب زيدٌ، وما إليك بقاصدٍ عمرٌو، ثم يحذفون الباء ويرفعون . وحكى البصريون والكوفيون ما زيدٌ منطلقٌ بالرفع، وحكى البصريون أنها لغة تميم، وأنشدوا :

أتيمًا تجعلون إلىّ نِدًّا * وما تيمٌ لِذِى حَسَبٍ نَدِيدُ

النِّد والنَّديد والنَّديدةُ المِثْل والنَّظير . وحكى الكسائى أنها لغة تِهامة ونَجْد . وزعم الفراء أن الرفع أقوى الوجهين : قال أبو إسحق : وهذا غلط؛ كتاب الله عز وجلّ ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى .

قلت : وفى مصحف حَفْصة رضى الله عنها «مَاهَذَا بِشِرًى»[2] ذكره الغَزْنوىّ . قال القُشَيرىّ أبو نصر : وذكرت النّسوة أن [صورة] يوسف أحسن من صورة البشر، بل هو فى صورة مَلَك؛ وقال الله تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»[3] والجمع بين الآيتين أن قولهن : «حَاشَ لِلَّهِ» تبرئة ليوسف عمّا رمته به آمرأة العزيز من المراودة، أى بعد يوسف عن هذا؛ وقولهن : « لله » أى لخوفه، أى براءة لله من هذا؛ أى قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة فى شىء؛ والمعنى : أنه فى التبرئة عن المعاصى كالملائكة؛ فعلى هذا لا تناقض . وقيل : المراد تنزيهه عن مشابهة البشر فى الصورة، لفرط جماله . وقوله : «لله» تأكيد لهذا المعنى؛ فعلى هذا المعنى قالت النسوة ذلك ظنا منهن أن صورة المَلَك أحسن، وما بلغهنّ قوله

(١) فى ع : أجاز أيضا . (٢) فى ع : إن يوسف أحسن صورة من البشر . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ١١٣ .

Marfat.com

تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » فإنه من كتابنا . وقد ظن بعض الضَّعفة أن هذا القول لو كان ظنا باطلا منهن لوجب على الله أن يرد عليهن، ويبين كذبهن، وهذا باطل؛ إذ لا وجوب على الله تعالى ، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الرد عليه؛ وأيضا أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان، وفي الحسن كأنه مَلَك؛ أي لم ير مثله ، لأن الناس لا يرون الملائكة؛ فهو بناء على ظن في أن صورة المَلَك أحسن ، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبعده عن التهم .

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي ما هذا إلا مَلَك ؛ وقال الشاعر[1] :

فلستَ لِإنسيٍّ ولكن لِمَلْأَكٍ * تَنَزَّلَ من جوِّ السماءِ يَصُوبُ

وروى عن الحسن : « مَا هَذَا بِشِرًى » بكسر الباء والشين ، أي ما هذا عبدا مُشترًى ، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع ، فوضع المصدر موضع اسم المفعول ، كما قال : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ » أي مصيده ، وشبهه كثير . ويجوز أن يكون المعنى : ما هذا بثمن ، أي مثله لا يثمن ولا يقوم ؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشترى به : كقولك : ما هذا بألف إذا نفيت قول القائل : هذا بألف . فالباء على هذا متعلقة بمحذوف هو الخبر، كأنه قال : ما هذا مقدرا بشراء . وقراءة العامة أشبه؛ لأن بعده «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيما لشأنه ، ولأن مثل « بِشِرًى » يكتب في المصحف بالياء[2] .

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ لما رأت افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها : «لُمْتُنَّنِي فِيهِ» أي بحبه ، و«ذلك» بمعنى «هذا» وهو اختيار الطَّبري . وقيل : الهاء للحب ، و«ذلك» على بابه ، والمعنى : ذلكن الحب الذي لمتنني فيه ، أي حب هذا هو ذلك الحب . واللوم الوصف بالقبيح . ثم أقرت وقالت : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾[3] أي امتنع ؛

---

(١) هو رجل من عبد القيس جاهلي ، يمدح بعض الملوك ، قيل : هو النعمان ، وقال ابن السيرافي : هو لأبي وجزة يمدح به عبد الله بن الزبير . وملك — كما قال الكسائي — أصله مألك بتقديم الهمزة ؛ من الألوكة ، وهي الرسالة ، ثم قلبت وقدمت اللام فقيل : ملأك ، ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقيل : ملك ، فلما جمعوه ردوها إليه فقالوا : ملائكة وملائك أيضا . (اللسان) . (٢) راجع ج ٦ ص ٣١٧ . (٣) في ه ع : واعلم أنها لما أظهرت عذرها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت : ولقد راودته عن نفسه فاستعصم .

Marfat.com

وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية . وقيل : «آستعصم» أى آستعصى، والمعنى واحد . ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ عاودته المراودة بمحضر منهن ، وهتكت جلباب الحياء، ووعدت بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لوما ولا مقالا (١) خلاف أول أمرها إذ كان ذلك بينه و بينها . ﴿ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أى الأذلاء . وخط المصحف «وليكونا» بالألف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد؛ ونون التأكيد تثقل وتخفف والوقف على قوله : « لَيُسْجَنَنَّ » بالنون لأنها مثقلة، وعلى « ليكونا » بالألف لأنها مخففة، وهى تشبه نون الإعراب فى قولك : رأيت رجلا وزيدا وعمرا، ومثله قوله : « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » ونحوها الوقف عليها بالألف، كقول الأعشى : (٢)

* وَلَا تَعبدِ الشيطان والله فاعبدا *

أى أراد فاعبدًا، فلما وقف عليه كان الوقف بالألف .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أى دخول السجن، لحذف المضاف؛ قاله الزجاج والنحاس . « أَحَبُّ إِلَيَّ » أى أسهل علىّ وأهون من الوقوع فى المعصية ؛ لا أن دخول السجن مما يُحَبّ على التحقيق . وحُكى أن يوسف عليه السلام لما قال : « السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » أوحى الله إليه « يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحبّ إلىّ، ولو قلت العافية أحبّ إلىّ لعوفيت » . وحكى أبو حاتم أن عثمان آبن عفان رضى الله عنه قرأ : « السَّجْن » بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة آبن أبى إسحق

(١) فى ع : جاب (٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٥ .
(٣) صدر البيت : * وذا النصب المنصوب لا تنسكنه *
وهو من قصيدة يمدح بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

Marfat.com

وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب؛ وهو مصدر سَجَنه سَجْنا . ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ أي كيد النّسوان . وقيل : كيد النّسوة اللاتى رأينه؟ فإنهنّ أمرنه بمطاوعة آمرأة العزيز، وقلن له : هى مظلومة وقد ظلمتها . وقيــل : طلبت كل واحدة أن تخـلو به للنصيحة فى آمرأة العزيز، والقصد بذلك أن تعذله فى حقها ، وتأمره بمساعدتها، فلعله يجيب ؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف ! آقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك ؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال : يارب كانت واحدة فصرن جماعة . وقيل : كيد آمرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها فى الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض . والكيد الآحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب كيدا لاحتيال الناس فيها؛ قال عمر بن لجأ :

تَرَاءتْ كَيْ تَكِيدَكَ أُمُّ بِشْرٍ * وكَيْدٌ بالتَّـــبَرُّجِ مَا تَكِيدُ

﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ جواب الشرط ، أى أَمِلْ إليهن؛ من صبا يصبو — إذا مال وآشتاق — صُبُوًّا وصَبْوة؛ قال (١) :

إِلَى هِنْـــدٍ صَبَا قَلْبِي * وهِنْـــدٌ مِثْلُها يُصْبِي

أى إن لم تلطف بى فى آجتناب المعصية وقعت فيهـا . ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَـاهِلِينَ ﴾ أى ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال؛ ودلّ هذا على أن أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله؛ ودلّ أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

قوله تعـالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ لمَـا قال . « وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ » تعرّض للدعاء، وكأنه قال : اللهم آصرف عنى كيـدهنّ ؛ فاستجاب له دعاءه ، ولطف به وعصمه عن الوقوع فى الزنى . « كَيْدَهُنَّ » قيـل : لأنهن جمع قـد راودنه عن نفســه . وقيــل : يعنى كيد النساء . وقيل : يعنى كيد آمرأة العزيز، على ما ذكر فى الآية قبـل ؛ والعموم أولى .

(١) هو يزيد بن ضبة .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ (٣٥)

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ أى ظهر للعزيز وأهـل مشورته « مِن بَعْـدِ أن رأوا الآيات » أى علامات براءة يوسف ــ من قدّ القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحزّ الأيدى، وقلة صبرهنّ عن لقاء يوسف ــ أن يسجنوه كتمانا للقصة ألّا تشيع فى العامة، وللحيلولة بينه وبينها . وقيـل : هى البركات التى كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم ؛ والأول أصح . قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله : « ثُمَّ بَدَا لَهُم مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ » قال : القميص من الآيات، وشهادة الشاهـد من الآيات ، وقطع الأيدى من الآيات، وإعظام النساء إياه من الآيات . وقيل : ألجأها الخجـل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب، لتشتفى إذا مُنعت من نظره؛ قال :

وما صَبـابَةُ مشتاقٍ على أملٍ * مِن اللِّقاء كمشتـاقٍ بلا أَمَلِ

أو كادته رجاء أن يَملّ حبسه فيبذل نفسه .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ «يَسْجُنُنَّهُ» فى موضع الفاعل؛ أى ظهر لهم أن يسجنوه؛ هذا قول سيبويه . قال المبرّد : وهـذا غلط؛ لا يكون الفاعل جملة ، ولكن الفاعل ما دلّ عليـه « بَدَا » وهو مصدر ؛ أى بدا لهم بَدَاءٌ ؛ فحذف لأن الفعل يدلّ عليه ؛ كما قال الشاعر :

وحقّ لمن أبو موسى أبـوهُ * يُوَفِّقه الذى نَصبَ الجبالَا

أى وحقّ الحقُّ، فحـذف . وقيل : المعنى ثم بدا لهم رأىٌ لم يكونوا يعرفونه؛ وحذف هـذا لأن فى الكلام دليلا عليه، وحذف أيضا القول؛ أى قالوا : ليسجننه ، واللام جواب يمين مضمر؛ قاله الفرّاء، وهو فعل مذكّر لا فعـل مؤنث؛ ولو كان فعلا مؤنثا لكان يَسْجُنَّانَّه؛

Marfat.com

ويدلّ على هذا قوله « لَهُمْ » ولم يقل لهنّ، فكأنه أخبر عن النسوة وأعوانهنّ فغلب المذكر؛ قاله أبو عليّ. وقال السّديّ: كان سبب حبس يوسف أن آمرأة العزيز شكت إليه أنه شَهَّرها ونشر خبرها؛ فالضمير على هذا في « لَهُمْ » للملك.

الثالثــة — قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى مدّة غير معلومة؛ قاله كثير من المفسّرين. وقال آبن عبـاس: إلى انقطاع ما شاع في المدينـة. وقال سـعيد بن جُبَيْر: إلى ستة أشهر. وحكى الكِيَا أنه عَنَى ثلاثة عشر شهرا. عِكْرِمة: تسع سنين. الكَلْبيّ: خمس سنين. مقاتل: [سـبع](١). وقـد مضى في « البقـرة »(٢) القول في الحين وما يرتبط به من الأحكام. وقال وهب: أقام في السجن اثنتي عشرة سنة. و «حتى» بمعنى إلى؛ كقوله: « حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ »(٣). وجعل الله الحبس تطهيرا ليوسف صلى الله عليه وسلم من هَمِّه(٤) بالمرأة. وكأن العزيز — وإن عرف براءة يوسف — أطاع المرأة في سجن يوسف. قال آبن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات: حين هَمّ بها فسجن، وحين قال للفتى: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال لإخوته: « إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » فقالوا: « إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ».

الرابعــة — أكره يوسف عليـه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام خمسة أعوام، وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريف قـدره؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجمـاعا. فإن أكره بالضرب فقـد اختلف فيـه العلماء، والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحدّه. وقد قال بعض علمائنا: إنه لا يسقط عنه الحدّ، وهو ضعيف؛ فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين، ولا يصرفه بين بلاءين؛ فإنه من أعظم الحرج في الدين. «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»(٥). وسيأتي بيان هذا في «النحل»(٦) إن شاء الله. وصبر يوسف، واستعاذ به من الكيد، فاستجاب له على ما تقدّم.

(١) من ع. وفي روح المعاني والفخر الرازي عن مقاتل آثنى عشر سنة.　(٢) راجع جـ ١ ص ٣٢١ فما بعد.　(٣) راجع جـ ٢٠ ص ١٣٤.　(٤) من ع.　(٥) راجع جـ ١٢ ص ٩٩.　(٦) راجع جـ ١٠ ص ١٨٢ فما بعد.

Marfat.com

قوله تعالى : وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ « فتيان » تثنية فتى ؛ وهو من ذوات الياء، وقولهم : الفُتُوّ[1] شاذ . قال وهب وغيره : حمل يوسف إلى السجن مقيّدا على حمار ، وطِيف به « هــذا جزاء من يعصى سيدته » وهو يقول : هــذا أيسر من مُقَطَّعات[2] النِّيران ، وسرابيل القَطِران، وشراب الحميم ، وأكل الزّقوم . فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قــد آنقطع رجاؤهم، واشتد بلاؤهم ؛ فجعل يقول لهم : آصبروا وأبشروا تؤجروا ؛ فقالوا له : يا فتى ! ما أحسن حديثك ! لقد بورك لنا في جوارك، من أنت يا فتى؟ قال : أنا يوسف ابن صفيّ الله يعقوب ، ابن ذبيح[3] الله إسحٰق ، ابن خليــل الله إبراهيــم . وقال آبن عباس: لمـا قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى، وأنا أريد أن تسجنه، فسجنه فى السجن؛ فكان يُعزّى فيه الحزين ، ويعود فيه المريض ، ويداوى فيه الجريح ، ويصلى الليل كله، ويبكى حتى تبكى معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن، واستأنس به أهــل السجن؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس[4] فى السجن

(١) فى ع وك وى : الفتوة شاذة .   (٢) مقطعات النيران : هى على نحو قوله تعالى : «قطعت لهم ثياب من نار» أى خيطت وسويت وجعلت لبوسا لهم .   (٣) هذا دليل الوضع لأن الذبيح قطعا إسماعيل عليه السلام .
(٤) فى ع : يحبس .

Marfat.com

مع يوسف، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال [له](١): يا يوسف! لقد أحببتك حبّا لم أحبّ شيئا حبك، فقال: أعوذ بالله من حبك، قال: ولِمَ ذلك؟ فقال: أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه، وأحبتنى سيدتى فنزل بى ما ترى، فكان فى حبسه حتى غضب الملك على خبّازه وصاحب شرابه، وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه، فدسّوا إلى خبّازه وصاحب شرابه أن يسُمّاه جميعا، فأجاب الخبّاز وأبى صاحب الشّراب، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك، فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف، فذلك قوله: « وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ» وقد قيل: إن الخبّاز وضع السم فى الطعام، فلما حضر الطعام قال السّاقى: أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخبّاز: أيها الملك(١) لا تشرب! فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقى: آشربْ! فشرب فلم يضرّه، وقال للخباز: كُلْ، فأبى، فجرّب الطعام على حيوان فنفق مكانه، فحبسهما سنة، وبقيا فى السجن تلك المدة مع يوسف. وآسم الساقى منجا، والآخر مجلث؛ ذكره الثعلبى عن كعب. وقال النقاش: اسم أحدهما شرهم، والآخر سرهم؛ الأوّل بالشين المعجمة، والآخر بالسين المهملة. وقال الطّبرى: الذى رأى أنه يعصر خمرا هو نبو، قال السّهيلى: وذكر آسم الآخر ولم أقيده. وقال « فتيان » لأنهما كانا عبدين، والعبد يسمّى فتى، صغيرا كان أو كبيرا؛ ذكره الماوردى. وقال القُشَيرى: ولعلّ الفتى كان اسما للعبد فى عرفهم؛ ولهذا قال: « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ». ويحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم وإن لم يكن مملوكا. ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذى كان فيه. « قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنبا؛ كان يوسف قال لأهل السجن: إنى أعبّر الأحلام؛ فقال أحد الفتيين لصاحبه: تعال حتى نجرّب هذا العبد العبرانى؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا؛ قاله آبن مسعود. وحكى الطّبرى أنهما سألاه عن علمه فقال: إنى أعبّر الرؤيا؛ فسألاه عن رؤياهما. قال آبن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صدق تأويلها. وفى الصحيح عن أبى هُريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم: "أصدقكم رؤيا أصدقكم

(١) من ع.

Marfat.com

حديثا ". وقيـل : إنهـا كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجريبا ؛ وهـذا قول ابن مسعود والسّدى . وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذبا ، والآخر صادقا ؛ قاله أبو مِجْلَز . وروى الترمذى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من تَحَلَّمَ كاذبا كُلِّف يوم القيامة أن يَعقد بين شَعيرتين [ولن يَعقِد بينهما] (١) " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وعن علىّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من كذب فى حُلُمه كُلِّف يوم القيامة عَقْد شَعيرة " . قال : حديث حسن . قال ابن عباس : لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين ؛ فقال لهما يوسف : مالى أراكما مكروبين؟ قالا : ياسيدنا ! إنا رأينا ما كرهنا ؛ قال : فقصّا علىّ ، فقصّا عليه ؛ قالا : نبئنا بتأويل ما رأينا ؛ وهذا يدلّ على أنها كانت رؤيا منام . ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإحسانه ، أنه كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعَزِّى الحزانى ؛ قال الضّحاك : كان إذا مرض الرجل من أهـل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّـع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له . وقيل : « مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أى العالمين الذين أحسـنوا العلم ؛ قاله الفراء . وقال ابن إسحق : « مِنَ الْمُحْسِنِينَ » لنا إن فسّرته ، كما يقول : افعل كذا وأنت محسن . قال : فـا رأيتمـا ؟ قال الخباز : رأيت كأنى اختبزت فى ثلاثة تنانير، وجعلته فى ثلاث سلال ، فوضعته على رأسى فجاء الطير فأكل منه . وقال الآخر : رأيت كأنى أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض ، فعصرتهن فى ثلاث أوان ، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتى فيما مضى ، فذلك قوله : « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنبا ، بلغة عُمان ، قاله الضّحاك . وقرأ ابن مسعود : « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ عِنَبًا » . وقال الأصمعى : أخبرنى المعتمر بن سليمان أنه لقى أعرابيا ومعه عنب فقال له : ما معك ؟ قال : خمر . وقيل : معنى . « أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنب خمر ، فحذف المضاف . ويقال : خَمْرة وخَمْر وخُمُور ، مثل تمرة وتمر وتُمور . «قال» لهما يوسف : ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ

---

(١) الزيادة من صحيح الترمذى ، قال شارحه : لما تبعته نظرى ظهر لى أن المخبر بما لم ير عقد من الكلام عقدا باطلا لم يشعر به ، أى لم يعلمه ، فقيل له : اعقد بين شعيرتين ولا ينعقد له ذلك أبدا ، عقوبة لعقده بين كلمات لم يكن منها شىء ، لتكون العقوبة من جنس المعصية .

Marfat.com

تُرْزَقَانِهِ ﴾ يعني لايجيئكما غدا طعام من منزلكما ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ لتعلما أنى أعلم تأويل رؤياكما ، فقالا : أفعل ! فقال لهما : يجيئكما كذا وكذا، فكان على ما قال، وكان هـذا من علم الغيب خُصّ به يوسف . وبيّن أن الله خصّه بهذا العلم لأنه ترك ملّة قوم لايؤمنون بالله، يعني دين الملك . ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أوّلا ما يتعلق بالدين لتهتدوا ، ولهذا لم يعبّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، فقال : « يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ » الآية كلها ، على ما يأتى . وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام ليَسْعَدا به (١) . وقيل : إن يوسف كره أن يعبر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما، وأخذ فى غيره فقال : «لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ »فى النوم «إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا » بتفسيره فى اليقظة ، قاله السُّدّىّ ، فقالا له : هذا من فعل العرّافين والكَهَنة ، فقال لهما يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما علّمنيه ربّى ، إنى لا أخبركما به تكهّنا وتنجيما، بل هو بوحى من الله عزّ وجلّ . وقال ابن جُرَيج: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معروفا فأرسل به إليه ، فالمعنى : لايأتيكما طعام ترزقانه فى اليقظة ، فعلى هذا « تُرْزَقَانِهِ » أى يجرى عليكما من جهة الملك أو غيره . ويحتمل يرزقكما الله . قال الحسن : كان يخبرهما بما غاب ، كعيسى عليه السلام . وقيل : إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام، وجعل المعجزة التى يستدلان بها إخبارهما بالغيوب .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ لأنهم أنبياء على الحق . ﴿ مَا كَانَ ﴾ أى ما ينبغى . ﴿ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ «مِنْ» للتأكيد، كقولك: ماجاءنى من أحد . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا ﴾ إشارة إلى عصمته من الزنى . ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل . «ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا » إذ جعلنا أنبياء ، « وَعَلَى النَّاسِ » إذ جعلنا الرسلَ إليهم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكُرُونَ ﴾ على نعمة (٢) التوحيد والإيمان .

---

(١) من ى . وفى أ وح وك وع : ليستعدا به . (٢) كذا فى ع . وفى ا وك وى : نعمه بالتوحيد .

Marfat.com

قوله تعـالى : يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ أى يا ساكنى السجن؛ وذكر الصحبة لطول مقامهما فيه . كقولك : أصحاب الجنة، وأصحاب النار . ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ أى فى الصغر والكبر والتوسط ؛ أومتفرقون فى العدد . ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وقيل : الخطاب لهما ولأهل السجن، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك إلزاما للحجة ؛ أى آلهة شتّى لاتضر ولاتنفع. «خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» الذى قهر كل شىء. نظيره: «آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ»[(١)] . وقيل : أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدّد الإله لتفرقوا فى الإرادة ولعلا بعضهم على بعض ، وبيّن أنها إذا تفرقت لم تكن آلهة .

قوله تعـالى : ﴿ مَا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَـاءً ﴾ بيّن عجز الأصنام وضعفها فقال : «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ» أى من دون الله إلا ذوات أسماء لا معانى لها. ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ من تلقاء أنفسكم . وقيل : عنى بالأسماء المسميات ؛ أى ما تعبدون إلا أصنـاما ليس لها من الإلهية شىء إلا الاسم ؛ لأنهـا جمادات . وقال : «مَا تَعْبُدُونَ» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين ؛ لأنه قصـد جميع من هو على مثل حالها من الشرك . ﴿إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ فحذف المفعول الثـانى للدلالة ؛ والمعنى : سميتموها آلهةً من عند أنفسكم . ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ ذلك فى كتاب . قال سعيد بن جُبير : ﴿ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة . ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الذى هو خالق الكل . ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ . ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَـيِّمُ ﴾ . أى القـويم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢١٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (٤١)

فيــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ أي قال للسـاقى : إنك تُرَدّ على عملك الذى كنت عليه من سقى الملك بعـد ثلاثة أيام ، وقال للآخر : وأما أنت فتُدعَى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيتُ شيئا ؛ قال : رأيت أو لم تر ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ . وحكى أهل اللغـة أن سقى وأسقى لغتان بمعنًى واحد، كما قال الشاعر[(١)] :

سَقَى قومى بَنِى مَجْـدٍ وأَسْقَى　＊　نُمَيراً والقبائلَ من هِلالِ

قال النحاس : الذى عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاه ناوله فشرب ، أو صبّ المـاء فى حلقه ومعنى أَسْقاه جعل له سُقْيا ؛ قال الله تعالى : « وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا[(٢)] » .

الثانيــة — قال علماؤنا : إن قيل من كذب فى رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها؟ قلنا : لا يلزمه ؛ وإنمـا كان ذلك فى يوسف لأنه نبىّ ، وتعبـير النبىّ حكم ، وقـد قال : إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعـالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوّته ؛ فإن قيل : فقـد رَوى عبد الرازق عن مَعْمَر عن قَتَادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إنى رأيتُ كأنى أعْشَبْتُ ثم أجْدبتُ ثم أعْشبتُ ثم أجْدبتُ، فقال له عمر: أنت رجل تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر ، ثم تموت كافرا؛ فقال الرجل : ما رأيت شيئا؛ فقال له عمر : قد قضى لك ما قضى لصاحب يوسف؛ قلنا : ليست لأحد بعد عمر؛ لأن عمر كان مُحَدَّثا[(٣)]، [وكان إذا ظن ظنا[(٤)] كان]

---

(١) هو لبيد؛ ومجد : ابنة تيم بن غالب بن فهر ، وهى أم كلاب وكليب بنى ربيعة . وفاعل سقى هو المطر .

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٥٨ .　　(٣) محدث : ملهم ، أو يلق فى روعه الشىء ، أو يجرى الصواب على لسانه من غير قصد . (القسطلانى) . والمحدث : الذى يحدثه الملك أيضا . أى يلق فى نفسه .

(٤) من ع وك و و ى .

Marfat.com

وإذا تكلم به وقع، على ما ورد فى أخباره، وهى كثيرة، منها — أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهنا فكان كما ظن، خرجه البخارى. ومنها — أنه سأل رجلا عن آسمه فقال له فيه أسماء النار كلها، فقال له : أدرك أهلك فقد آحترقوا، فكان كما قال، خرجه الموطأ. وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الحجر» (١) إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى : وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

فيـه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيقن، فى قول أكثر المفسرين وفسره قتادة على الظن الذى هو خلاف اليقين ؛ قال : إنما ظنّ يوسف نجاته لأن العابر يظن ظنًّا وربك يخلق ما يشاء، والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء وأن ما قاله للفتيين فى تعبير الرؤيا كان عن وحى، وإنما يكون ظنا فى حكم الناس، وأما فى حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع.

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أى سيّدك، وذلك معروف فى اللغة أن يقال للسيّد ربّ ؛ قال الأعشى :

رَبِّى كَرِيمٌ لا يُكَدِّرُ نِعمـةً * وإذا تُنُوشِدَ (٢) فى المَهَارِقِ أَنْشَدَا

أى آذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أنّى مظلوم محبوس بلا ذنب. وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "لا يَقُلْ أحدُكم آسقِ ربَّك أطعِمْ ربك وضِّئْ ربَّك ولا يَقل أحدُكم ربِّى وليقل سيِّدى مولاى ولا يقل أحدُكم عبدى أمَتى وليقلْ فتاىَ فتاتِى غلامى". وفى القرآن : «ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ» «إلى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٢.

(٢) ويروى : (يناشد بالمهارق) يقول : إذا نوشد بما فى الكتب أجاب ؛ أى إذا سئل أعطى. والمهرق : الصحيفة.

Marfat.com

رَبِّكَ» «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» أى صاحبي؛ يعنى العزيز . ويقال لكل من قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربَّه يَرُبُّه، فهو ربٌّ له . قال العلماء قوله عليه السلام: "لا يَقُلْ أحدُكم" "وليَقل" من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى ؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرّم؛ ولأنه قد جاء عنه عليه السلام " أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا " أى مالكها وسيّدها ؛ وهذا موافق للقرآن فى إطلاق ذلك اللفظ؛ فكان محل النهى فى هذا الباب ألّا نتخذ هذه الأسماء عادة فنترك الأولى والأحسن . وقد قيل : إن قول الرجل عبدى وأمتى يجمع معنيين : أحدهما — أن العبودية بالحقيقة إنما هى لله تعالى ؛ ففى قول الواحد من الناس لمملوكه عبدى وأمتى تعظيم عليه ، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه ؛ وذلك غير جائز . والثانى — أن المملوك يدخله من ذلك شيء فى استصغاره بتلك التسمية ، فيحمله ذلك على سوء الطاعة . وقال ابن شعبان فى «الزاهى» : "لا يقل السيّد عبد وأمتى ولا يقل المملوك ربّى ولا ربّتى " وهذا محمول على ما ذكرناه . وقيل : إنما قال صلى الله عليه وسلم " لا يقل العبد ربّى وليقل سيّدى " لأن الرب من أسماء الله تعالى المستعملة بالاتفاق ؛ واختلف فى السيّد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا ؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح ؛ إذ لا التباس ولا إشكال، وإذا قلنا إنه من أسمائه فليس فى الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الربّ ، فيحصل الفرق . وقال ابن العربى : يحتمل أن يكون ذلك جائزا فى شرع يوسف عليه السلام .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ الضمير فى « فَأَنْسَاهُ » فيه قولان : أحدهما — أنه عائد إلى يوسف عليه السلام، أى أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقى الملك — حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك — « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » نسى فى ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به ، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق ؛ فعوقب باللّبث . قال عبد العزيز بن عُمَير الكِنْدىّ : دخل جبريل على يوسف النبي عليه السلام فى السجن فعرفه يوسف ، فقال: يا أخا المنذرين ! مالى أراك بين الخاطئين؟ ! فقال جبريل عليه السلام : يا طاهر [ابن][1] الطاهرين ! يقرئك

(١) من ع .

Marfat.com

السلام رب العالمين ويقـول : أما استحيت إذ آستغثت[1] بالآدميين ؟ ! وعزّتى ! لألبثنّك فى السجن بضع سنين ؛ فقال : يا جبريل ! أهو عنّى راضٍ ؟ قال : نعم ! قال : لا أبالى الساعة . ورُوى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبـه عن الله تعالى فى ذلك وطول سجنه ، وقال له : يا يوسف! من خلّصك من القتل من أيدى إخوتك؟ ! قال : الله تعالى، قال : فمن أخرجك من الجبّ ؟ قال : الله تعالى قال : فمن عصَمك من الفاحشـة ؟ قال : الله تعالى، قال : فمن صرف عنـك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يارب كلمة زلّت منى! أسألك يا إله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهـم السلام أن[2] ترحمنى ؛ فقـال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين . ورَوى أبو سلَمة عن أبى هُريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قال: «آذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ» مالبث فى السجن بضع سنين". وقال آبن عباس: عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لمّا قال للذى نجا منهما « آذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » ولو ذكر يوسف ربه لخلّصه . وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال قال رسـول الله صـلى عليه وسـلم : " لولا كلمة يوسف — يعنى قوله : « اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » — ما لبث فى السجن ما لبث " قال : ثم يبكى الحسن ويقـول : نحن ينزل بنـا الأمر فنشكو إلى الناس . وقيل : إن الهاء تعود على الناجى ، فهو الناسى ؛ أى أنسى الشيطانُ الساقى أن يذكر يوسـف لربه ، أى لسـيده ؛ وفيـه حذف ، أى أنساه الشيطانُ ذكره لربه ؛ وقد رجّح بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لمـا استحق العقاب باللبث فى السجن ؛ إذ الناسى غير مؤاخذ . وأجاب أهل القول الأوّل بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب ؛ ردّ عليهم أهل القول الثانى بقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » فدلّ على أن الناسى [هو][3] الساقى لا يوسف ؛ مع قوله تعالى : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »[4] فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان ، وليس له على الأنبيـاء سطنة ؟ ! قيل : أما

(١) فاستغثت . (٢) فى ع وى : إلا رحمتنى . (٣) من ع . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٨ .

Marfat.com

النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا فى وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلّغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقا، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال صلى الله عليه وسلم: "نسى آدم فنسيت ذريته". وقال: "إنما أنا بشر أنسى كما تنسون". وقد تقدم.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البِضع قطعة من الدّهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن أبى زيد[(١)]: يقال بَضع وبِضع بفتح الباء وكسرها، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال الهَرَوى: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناهما القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع ما دون نصف العِقْد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشىء. وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر الصديق رضى الله عنه: "وكم البضع" فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال، "اذهب فزائد فى الخَطَر[(٢)]". وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبى. قال الماوردى: وهو قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقُطْرُب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعى. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزّجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفرّاء: والبضع لا يُذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفى المدة التى لبث فيها يوسف مسجونا ثلاثة أقاويل: أحدها — سبع سنين، قاله ابن جُرَيج وقتادة ووهب بن مُنبّه، قال وهب: أقام أيوب فى البلاء سبع سنين، وأقام يوسف فى السجن سبع سنين. الثانى — اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث — أربع عشرة

(١) كذا فى ع و ك. وهو الذى عليه اللسان. وفى أ و ى: ابن زيد.

(٢) الخطر (بالتحريك): الرهن والحظ والحديث فى شأن مراهنة أبى بكر الصديق رضى الله عنه لقريش على غلبة الروم؛ وكان المسلمون يحبون غلبة الروم على فارس، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك، لأنهم وفارس ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على أخرى، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: "اذهب فزائد فى الخطر وماددْ فى الأجل" وكان ذلك قبل تحريم الرّهان. راجع صحيح الترمذى فى تفسير أول سورة الروم.

Marfat.com

سنة، قاله الضحاك . وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف فى السجن خمسا و بضعا . وآشتقاقه من بضعت الشيء أى قطعته ، فهو قطعة من العدد ، فعاقب الله يوسف بأن حُبِس ســبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التى مضت ، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله . قال وهب بن مُنَبِّه : حبس يوسف فى السجن ســبع سنين ، ومكث أيوب فى البلاء سبع سنين ، وعذّب بُخْتُنَصَّر بالمسخ سبع سنين . وقال عبد الله بن راشد البصرى عن سعيد بن أبى عَرُوبة : إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنى عشرة سنة .

الخامســـة — فى هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب و إن كان اليقين حاصلا فإن الأمور بيد مُسبِّبها ، ولكنه جعلها سلسلة ، وركَّب بعضها على بعض، فتحريكها سنّة ، والتعويل على المنتهى يقين . والذى يدلّ على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى فى لقيا الخضر، وهذا بيّن فتأملوه .

قوله تعـالى : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ لمـا دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه، فنزل جبريل فسلم على يوسف و بشّره بالفرج وقال : إن الله مخرجك من سجنك، ومُمكِّن لك فى الأرض، يذل لك ملوكها، و يطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهى كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث فى السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولا ليوسف بلاء وشدّة، وجعلها آخرا بشرى ورحمة؛ وذلك أن الملك الأكبر الرّيّان بن الوليد رأى فى نومه كأنما خرج من نهر يابس سبع بقرات سِمـان ، فى أثرهن سبع عِجاف — أى مهازيل — وقـد أقبلت العِجاف على السِّمان فأخذن بآذانهن فأكلنهن، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خُضْر قد أقبل

Marfat.com

عليهن سبع يابسات فأكلهنّ حتى أتين عليهنّ فلم يبق منهنّ شيء وهنّ يابسات، وكذلك البقر كنّ عجافا فلم يزد فيهنّ شيء من أكلهنّ السّمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنّجامة والعرافة والسّحر، وأشراف قومه، فقال: «يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ» فقصّ عليهم، فقال القوم: «أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» قال ابن جريج قال لى عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جُوَيبر عن الضّحاك عن ابن عباس قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعنى بها الكاذبة. وقال الهَرَوى: قوله تعالى: «أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» أى أخلاط أحلام. والضِّغث فى اللغة الحُزْمة من الشيء كالبقل والكلإ وما أشبههما، أى قالوا: ليست رؤياك ببيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث مالا تأويل له من الرؤيا.

قوله تعالى: «سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ» حذفت الهاء من «سبع» فرقا بين المذكر والمؤنث «سِمَانٍ» من نعت البقرات، ويجوز فى غير القرآن سبعَ بقراتٍ سِماناً، نعت للسبع، وكذا خُضرًا، قال الفراء: ومثله. «سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا» (١). وقد مضى فى سورة «البقرة» (٢) اشتقاقها (٣) ومعناها. وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: المَعز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سمانا فهى سِنيّ (٤) رخاء، وإن كانت عجافا كانت شدادا، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبّان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فتنًا مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما فى الخبر "يشبه بعضها بعضا". وفى خبر آخر فى الفتن "كأنها صياصى البقر" (٥) يريد لتشابهها، إلا أن تكون صُفرا كلها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدو يضرب عليهم، وينزل بساحتهم. وقد تدلّ البقرة على الزوجة والخادم والغلّة والسّنَة؛ لما يكون فيها من الولد والغلّة والنبات. ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ من عَجُف يَعجُف، على وزن عَظُم يعظُم، وروى عَجِف يَعجَف على وزن حَمِد يَحمَد.

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٨. (٢) راجع جـ ١ ص ٢١٦. (٣) فى ع: اشتقاق البقرة.
(٤) فى ع و و: سنين رخاء. (٥) صياصى البقر: قرونها.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ جمع الرؤيا رُؤًى : أى أخبرونى بحكم هذه الرؤيا . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عَبَرت النهر، بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يعبر بما[1] يؤول إليه أمرها . واللام فى « للرؤيا » للتّبيين، أى إن كنتم تَعبُرون ، ثم بَيّن فقال : للرؤيا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

فيــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ قال الفراء : و يجوز «أضغاثَ أحلام» قال النحاس : النصب بعيد، لأن المعنى : لم تر شيئا له تأويل، إنما هى أضغاث أحلام، أى أخلاط . وواحد الأضغاث ضِغث، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضِغث؛ قال الشاعر:

* كضِغث حُلْم غُرّ منه حالمُــه *

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، نَفَــوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا أنهــم نفوا عن أنفسهم علم التأويل . وقيــل : نفوا عن أنفسهم علم التعبير . والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التى منها صحيحة ومنها باطلة ، ولهــذا قال الساقى : « أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » فعــلم أن القوم عجــزوا عن التأويل ، لا أنهم آدّعو ألّا تأويل لهــا . وقيــل : إنهم لم يقصدوا تفسيرا ، وإنمــا أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله ، وعلى هذا أيضا فعندهم علم . و «الْأَحْلَامِ» جمع حُلْم، والحُلْم بالضم ما يراه النائم، تقول منه : حَلَم بالفتح وآحتلم، وتقول : حَلَمتُ بكذا وحَلَمته، قال :

فَحَلَمتُها وبَنُو رُفَيْدَةَ[2] دُونَها * لا يَبْعَدَنَّ خَيالُها المَحْــلُومُ

أصله الأناة، ومنه الحِلْم ضد الطَّيش ؛ فقيل لمــا يُرى فى النوم حُلْم لأن النوم حالة أناة وسكون ودَعة

---

(١) فى ع و ى : يخبر .

(٢) رفيدة : أبو حى من العرب ، يقال لهم الرفيدات ؛ كما يقال لآل هبيرة الهبيرات . اللسان .

Marfat.com

الثانيــة — فى الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أوّل ما تعبّر ؛ لأن القوم قالوا : « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » ولم تقع كذلك ؛ فإن يوسف فسّرها على سِنِيّ الجدب والخصب ، فكان كما عبّر ؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر ، فإذا عبّرت وقعت .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا ﴾ يعنى ساقى الملك . « وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى بعد حين ، عن ابن عباس وغيره ؛ ومنه « إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ »[(١)] وأصله الجملة من الحين . وقال ابن دُرُسْتُويه[(٢)] : والأُمّة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال — والله أعلم — : وادّكر بعد حين أمّة ، أو بعد زمن أمة ، وما أشبه ذلك ؛ والأمة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد ، وفى المعنى جمع ؛ وكل جنس من الحيوان أمة ؛ وفى الحديث : "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها" .

قوله تعالى : ﴿ وَٱدَّكَرَ ﴾ أى تذكر حاجة يوسف ، وهى قوله : «اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ» . وقرأ ابن عباس — فيما روى عفّان عن همّام عن قتادة عن عكرمة عنه — «وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ» . النحاس : والمعروف من قراءة ابن عباس وعكرمة والضّحاك «وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ» ، بفتح الهمزة وتخفيف الميم ؛ أى بعد نسيان ؛ قال الشاعر :

أَمِهْتُ وكنتُ لا أَنْسَى حديثًا * كذاكَ الدهرُ يُودِى بالعقولِ

وعن شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعى : « بعد أَمْهٍ » بفتح الألف وإسكان الميم وهاء خالصة ؛ وهو مثل الأَمَه ، وهما لغتان ، ومعناهما النّسيان ؛ ويقال : أَمِهَ يأمَهُ أَمَهًا إذا نَسِىَ ؛ فعلى هذا

(١) راجع ص ٩ من هذا الجزء .

(٢) هو عبدالله بن جعفر بن درستويه (بضم الدال والراء) وضبطه ابن ماكولا (بفتحهما) .

Marfat.com

« وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أَمَه » ؛ ذكره النحاس ؛ ورجل أمِـهٌ(١) ذاهب العقل . قال الجوهري : وأما ما في حديث الزهري "أمه" بمعنى أقر واعترف فهى لغة غير مشهورة . وقرأ الأشهب العُقَيلي — « بَعْـدَ إِمَّة » أى بعد نعمة ؛ أى بعد أن أنعم الله عليـه بالنجاة . ثم قيل : نسي الفتى يوسف لقضاء الله تعالى في بقائه في السجن مدة . وقيل : ما نسي ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذى بسـببه حبس هو والخبّـاز ؛ فقوله : « وَٱدَّكَرَ » أى ذكر وأخبر . قال النحاس : أصل ٱدَّكَرَ اذتكر ، والذال قريبة المخرج من التاء ؛ ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة ، والتاء مهموسة ، فلو أدغموا ذهب الجهر ، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو الدال ؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة ؛ فصار ٱذْدَكَرَ فأدغموا الذال في الدال لرخاوة الدال ولينها ؛ ثم قال : ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾ أى أنا أخبركم . وقرأ الحسن «أَنَا آتِيكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» وقال : كيف ينبئهم العِلج(٢) ؟ ! قال النحاس : ومعنى . «أُنَبِّئُكُم» صحيح حسن ؛ أى أنا أخبركم إذا سألتُ . ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه . ﴿يُوسُفُ﴾ نداء مفرد ، وكذا ﴿الصِّدِّيقُ﴾ أى الكثير الصـدق . ﴿أَفْتِنَا﴾ أى فأرسلوه ، فجاء إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وسأله عن رؤيا الملك . ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ أى إلى الملك وأصحابه . ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ التعبير ، أو « لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ » مكانك من الفضل والعلم فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما له .

قوله تعـالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

فيـه مسئلتـان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ لمـا أعلمه بالرؤيا جعل يفسّرها له ، فقال : السبع من البقرات السّمان والسّنبلات الخضر سـبع سنين مخصبات ؛ وأما البقرات العجاف

(١) في ع : أمه وزامه : ذاهب العقل . والذى في اللسان : أمه الرجل فهو مأموه وهو الذى ليس عقله معه .

(٢) العلج : الكافر من العجم .

Marfat.com

والسّنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبات ؛ فذلك قوله : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أى متوالية متتابعة ؛ وهو مصدر على غير المصدر، لأن معنى « تَزْرَعُونَ » تدأبون كعادتكم فى الزراعة سبع سنين . وقيل : هو حال ؛ أى دائبين . وقيل : صفة لسبع سنين ، أى دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب «دَأَبًا» بتحريك الهمزة، وكذا روى حفص عن عاصم؛ وهما لغتان،(١) وفيه قولان، قول أبى حاتم : إنه من دَئِب . قال النحاس: ولا يعرف أهل اللغة إلا دَأَب . والقول الآخر — إنه حُرِّك لأن فيه حرفا من حروف الحلق ؛ قاله الفراء، قال: وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز إذا كان ثانيه همزة، أو هاء، أو عينا، أو غينا ، أو حاء ، أو خاء ؛ وأصله العادة ؛ قال(٢) :

* كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا *

وقد مضى فى « آل عمران »(٣) القول فيه . ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ قيل : لئلا يتسوّس(٤) ، وليكون أبقى ؛ وهكذا الأمر فى ديار مصر . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أى آستخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة ؛ وهذا القول منه أمر، والأول خبر. ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا، و إن كان الأظهر منه الخبر؛ فيكون معنى : «تَزْرَعُونَ» أى آزرعوا.

الثانية — هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يُفوّت شيئا منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا آستحقاق ؛ هذا مذهب كافة المحقِّقين من أهل السنّة أجمعين ؛ وبسطه فى أصول الفقه .

---

(١) اللغتان «دأبا» بتحريك الهمزة و«دأبا» بسكونها وهى قراءة الجمهور من السبعة كما فى تفسير ابن عطية .
(٢) هو آمرؤ القيس ؛ وتمام البيت : * وجارتها أم الرباب بمأسل *
(٣) راجع جـ ٤ ص ٢٢ فما بعد . (٤) كذا فى ا و ع و ك و ى .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعنى السّنين المجدبات . ﴿يَأْكُلْنَ﴾ مجاز ، والمعنى يأكل أهلهنّ . ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى ما ادّخرتم لأجلهن ؛ ونحوه قول القائل :

نهارُك يا مغرورُ سَهْوٌ وغَفْلَةٌ * ولَيلُكَ نَوْمٌ والرَّدَى لَكَ لازمُ

والنهـار لا يَسهو ، والليل لا ينام ؛ وإنمـا يُسهى فى النهـار ، ويُنام فى الليل . وحكى زيد ابن أسلم عن أبيه : أن يوسف كان يضع طعام الأثنين فيقرِّبه إلى رجل واحد فيأكل بعضه ، حتى إذا كان يومٌ قرَّبه له فأكله كلَّه ؛ فقال يوسف : هــذا أوّل يوم من السّبع الشداد . ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الأسـتثناء . ﴿مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أى ممـا تحبسون لتزرعوا ؛ لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات . وقال أبو عبيدة : تحرزون . وقال قتادة : «تُحْصِنُونَ» تدّخرون ، والمعنى واحد ؛ وهو يدلّ على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة .(١)

الثانيـــة — هذه الآية أصل فى صحة رؤيا الكافر ، وأنها تُخرج على حسب ما رأى ، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن؛ فكيف إذا كانت آية لنبيّ ، ومعجزة لرسول، وتصديقا لمصطفى للتبليغ ، وحجة للواسطة بين الله — جل جلاله — و [بين](٢) عباده .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن فى رؤيا الملك ، ولكنه من علم الغيب الذى آتاه الله . قال قَتادة : زاده الله علم سَنَة لم يسألوه

(١) هذا فيه نظر إن كان المراد الغلاء ؛ لمـا روى عنه عليه الصلاة والسلام " من احتكر حكرة يريد أن يغلى بها على المسلمين فهو خاطىء، وقد برئت منه ذمة الله ورسوله " رواه أحمد والحاكم عن أبى هريرة فى روايات فى النهى عن الاحتكار .   (٢) من ع .

Marfat.com

عنها إظهارا لفضله ، وإعلاما لمكانه من العلم وبمعرفته . ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ من الإغاثة أو الغوث؛ غوَّث الرجل قال واغوثاه، والاسم الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث، واستغاثني فلان فأغثته، والاسم الغِيَاث؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . والغيث المطر؛ وقد غاث الغيث الأرضَ أى أصابها ؛ وغاث الله البلادَ يَغيثها غَيْثا ، وغِيثَت الأرضُ تُغاث غَيْثا، فهى أرض مَغيثة ومَغْيوثة؛ فمعنى «يُغَاثُ النَّاسُ» يُمطَرون . ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والدُّهن؛ ذكره البخاري . وروى حجّاج عن ابن جُرَيج قال : يعصرون العنب خمرا والسّمسم دُهنا، والزيتون زيتا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها؛ ويدلّ ذلك على كثرة النبات . وقيل : «يَعْصِرُونَ» أى يَنجُون؛ وهو من العُصْرة، وهى المَنْجاة . قال أبو عبيدة : والعَصَر بالتحريك المَلْجأ والمَنْجاة ، وكذلك العُصْرة؛ قال أبو زُبَيد[1] :

صادِيًا يَستغيثُ غيرَ مُغَاثٍ ولقد كانَ عُصْرَةَ المَنْجودِ

والمَنْجود الفَزِع . واعتصرتُ بفلان وتَعصرتُ أى التجأت إليه . قال أبو الغوث : «يَعْصِرُونَ» يَسْتَغِلّون؛ وهو من عصر العنب . واعتصرت ماله أى استخرجته من يده . وقرأ عيسى «تُعْصَرُونَ» بضم التاء وفتح الصاد، ومعناه : تُمطَرون؛ من قول [الله][2] : «وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا»[3] وكذلك معنى «تُعصِرون» بضم التاء وكسر الصاد، فيمن قرأه كذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

(١) قاله فى رثاء ابن أخته وكان مات عطشا فى طريق مكة . (٢) من ع . (٣) راجع جـ١٩ ص ١٦٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ﴾ أى فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال : آئتونى به . ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أى يأمره بالخروج قال : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ أى حال النسوة . ﴿ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصحّ براءته [عند](1) الملك مما قُذف به ،وأنه حبس بلا جرم . وروى الترمذىّ عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم](2) يوسف بن يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم — قال — ولو لبِثتُ فى السجن ما لَبِث ثم جاءنى الرسول أجبت — ثم قرأ — « فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » — قال — ورحمةُ الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شـديد [إذ قال « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ](2) فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى ذروة من قومه " . وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له « أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » " وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال " يرحم الله أخى يوسف لقد كان صابرا حليما ولو لبثت فى السجن ما لبثه أجبت الداعىَ ولم ألتمس العُـذر(3) " . وروى نحو هـذا الحديث من طريق عبـد الرحمن بن القاسم صاحب مالك ، فى كتاب التفسير من صحيح البخارى، وليس لابن القاسم فى الديوان غيره . وفى رواية الطّبرىّ " يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسـل إلىّ لخرجت سريعـا أنْ كان لحليما ذا أناة " . وقال صلى الله عليه وسلم : " لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لمـا أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسـول ولو كنت مكانه لبادرتهم البـاب(4) " . قال ابن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرا ، وطلبا لبراءة الساحة ؛ وذلك أنه

---

(1) من ع . وفى ا وك وى : للملك .

(2) الزيادة عن صحيح الترمذى .

(3) كذا فى ع وك وى .

(4) الحديث فى تفسير الطبرى يختلف فى اللفظ عما هنا .

Marfat.com

— فيما روى — خشى أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذى راود آمرأة مولاه ؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبيّن براءته ، ويحقّق منزلته من العفّة والخير؛ وحينئذ يخرج للإحْظَاء والمنزلة ؛ فلهذا قال للرسول : آرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة ، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقصى عن ذنبى ، وينظر فى أمرى هل سجنت بحق أو بظلم ؛ ونَكَب عن آمرأة العزيز حُسن عشرة ، ورعاية لذِمام الملك العزيز له . فإن قيل : كيف مدح النبي صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه فى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخذ لنفسه وجها آخر من الرأى ، له جهة أيضا من الجودة؛ يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذرى بعد ذلك؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هى معرضة لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة؛ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على الأحزم من الأمور؛ وذلك أن ترك الحزم فى مثل هذه النازلة، التاركَ فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ، ربما نَتَج له البقاء فى سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله، فغيره من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التى ذهب النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجَلَد .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ ذكر النّساء جملة ليدخل فيهنّ امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح؛ وذلك حُسن عشرة وأدب؛ وفى الكلام محذوف، أى فاسأله أن يتعرّف ما بال النّسوة . قال آبن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز — وكان قد مات العزيز — فدعاهنّ فـ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أى ما شأنكنّ . ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وذلك أن كل واحدة منهنّ كلمت يوسف فى حق نفسها ، على ما تقدّم، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت آمرأة العزيز ، فكان ذلك مراودة منهنّ . ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أى معاذ الله . ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أى زنى . ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ لما رأت إقرارهنّ ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقرّت

Marfat.com

هي أيضا، وكان ذلك لطفا من الله بيوسف . و « حَصْحَصَ الْحَقُّ » أي تبيّن وظهر؛ وأصله حَصَصَ، فقيل: حَصْحَصَ؛ كما قال: كُبْكِبُوا في كببوا، وكفكف في كفف؛ قاله الزجاج وغيره . وأصل الحَصّ استئصال الشيء؛ يقال: حصّ شعره إذا استأصله جزّا؛ قال أبو القيس بن الأسلت:

قد حَصَّتِ البَيْضَةُ رأسي فما أطْعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاع[1]

وسَنَةٌ حصّاء أي جرداء لا خير فيها؛ قال جرير:

يأوي إليكم بلا مَنٍّ ولا جَحَدٍ مَن ساقه السَّنةُ الحَصّاءُ والذِّيبُ

كأنه أراد أن يقول: والضَّبع، وهي السنة المجدبة؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافية؛ فمعنى « حَصْحَصَ الْحَقُّ » أي انقطع عن الباطل بظهوره وثباته[2]؛ قال:

أَلَا مُبْلِغٌ عَنِّي خِداشًا فإنّه كذوبٌ إذا ما حَصْحَصَ الحقُّ ظالمُ

وقيل: هو مشتق من الحِصّة؛ فالمعنى: بانت حِصّة الحق من حصّة الباطل. وقال مجاهد وقتادة: وأصله مأخوذ من قولهم؛ حَصّ شَعْره إذا استأصل قطعه[3]؛ ومنه الحِصّة من الأرض إذا قطعت منها . والحِصْحِص بالكسر التراب والحجارة؛ ذكره الجوهري . ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا القول منها — وإن لم يكن سأل عنه — إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفسا ظنٌّ، ولا يخالطها شك . وشدّدت النون في « خَطْبُكُنَّ » و « رَاوَدْتُنَّ » لأنها بمنزلة الميم والواو في المذكر .

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(١) البيضة: الخوذة؛ والتهجاع: النومة الخفيفة. (٢) فى ع: بيانه. (٣) فى ع: ف.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ آختلف فيمن قاله ، فقيل : هو من قول آمرأة العزيز ، وهو متصل بقولها : « الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أي أقررتُ بالصدق ليعلم أنى لم أخنه بالغيب[1] أى بالكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وحدت[2] عن الخيانة ؛ ثم قالت : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » بل أنا راودته ؛ وعلى هذا هى كانت مقرّة بالصانع ، ولهذا قالت : « إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقيل : هو من قول يوسف ؛ أى قال يوسف : ذلك الأمر الذى فعلته ، من رد الرسول « لِيَعْلَمَ » العزيز « أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قاله الحسن وقَتادة وغيرهما . ومعنى « بالغيب » وهو غائب . وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك ، وقال : « لِيَعْلَمَ » على الغائب توقيرا للملك . وقيل : قاله إذ عاد إليه الرسول وهو فى السجن بعدُ ؛ قال آبن عباس : جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه ؛ فقال يوسف : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لم أَخُن سيّدى بالغيب ؛ فقال له جبريل عليه السلام : يا يوسف ! ولا حين حَلَلْت الإزار ، وجلست مجلس الرجل من المرأة ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » الآية . وقال السّدّى : إنما قالت له آمرأة العزيز ولا حين حَلَلْت سراويلك يا يوسف ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » . وقيل : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » من قول العزيز ؛ أى ذلك ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب ، وأنى لم أغفل عن مجازاته على أمانته . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ معناه : أن الله لا يهدى الخائنين بكيدهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى ﴾ قيل : هو من قول المرأة . وقال القُشَيرى : فالظاهر أن قوله : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » وقوله : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » من قول يوسف .

قلت : إذا آحتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرّئ يوسف من حَلّ الإزار والسّراويل ؛ وإذا قدرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه ، على ما قدّمناه من القول المختار فى قوله : « وَهَمَّ بِهَا » . قال أبو بكر الأنبارى : من الناس من يقول : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ » من كلام آمرأة العزيز ؛

(١) من ع . (٢) فى ع : خرجت .

Marfat.com

لأنه متصل بقولها : « أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » وهذا مذهب الذين ينفون الهمّ عن يوسف عليه السلام؛ فمن بنى على قولهم قال : من قوله : « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » كلام متصل بعضه ببعض، ولا يكون فيه وقف تام على حقيقة؛ ولسنا نختار هذا القول ولا نذهب إليه . وقال الحسن : لما قال يوسف « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » كره نبيّ الله أن يكون قد زكّى نفسه فقال : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي »(١) لأن تزكية النفس مذمومة؛ قال الله تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ »(٢) وقد بيّناه في « النساء »(٣) . وقيل : هو من قول العزيز؛ أي وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف . ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ أي مشتهية له . ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ في موضع نصب بالاستثناء؛ و « ما » بمعنى مَنْ؛ أي إلا مَن رحم ربي فعصمه؛ و « ما » بمعنى من كثير؛ قال الله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ »(٣) وهو استثناء منقطع، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء ؛ وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرّ غاية و إن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية " قالوا : يا رسول الله ! هذا شرّ صاحب في الأرض . قال : " فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم " .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ لما ثبت للملك براءته مما نُسب إليه؛ وتحقق في القصة أمانته، وفهم أيضا صبره وجَلَده عظمت منزلته عنده، وتيقّن حسن خلاله قال : « ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي » فانظر إلى قول الملك أولا — حين تحقق علمه — « ائْتُونِي بِهِ » فقط، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال(٤) : « ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي » ورُوي عن وهب بن منبّه قال : لما دُعي يوسف وقف بالباب فقال : حسبي ربي من خلقه،

(١) من ع .　(٢) راجع جـ ١٧ ص ١١٠ .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ فما بعد وص ١٢ .　(٤) في ع وروى : قال ثانيا .

Marfat.com

عزّ جاره وجلّ ثناؤه ولا إله غيره. ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره فخرّ له ساجدا، ثم أقعده الملك معه على سريره فقال. «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ». «قَالَ» له يوسف: «ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ» للخزائن «عَلِيمٌ» بوجوه تصرفاتها. وقيل: حافظ للحساب، عليم بالألسن. وفي الخبر: "يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل آجعلني على خزائن الأرض لآستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك سنة". وقيل: إنما تأخر تمليكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله. وقد قيل في هذه القصة: إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره؛ ثم سلّم على الملك بالعربية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان عمّي إسمعيل، ثم دعا [له](١) بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا، فكلما [تكلم الملك](٢) بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملك أمره، وكان يوسف إذ ذاك آبن ثلاثين سنة؛ ثم أجلسه على سريره وقال: أحب أن أسمع منك رؤياي، قال يوسف: نعم أيها الملك! رأيتَ سبع بقرات سِمانٍ شُهْبا غُرًّا حسانا، كشف لك عنهن النيل فطلعن عليك من شاطئه تَشْخُب(٣) أخلافها لبنا؛ فبينا أنت تنظر إليهنّ وتتعجب من حسنهنّ إذ نَضَب النِّيل فغار ماؤه، وبدا أُسُّه(٤)، فخرج من حَمَئه ووَحَله سبع بقرات عِجاف شُعْث غُبْر مُقَلَّصات البطون، ليس لهنّ ضروع ولا أخلاف، لهنّ أنياب وأضراس، وأكفّ كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السّباع، فاختلطن بالسِّمان فافترسنهنّ آفتراس السّباع، فأكلن لحومهنّ، ومزّقن جلودهنّ، وحطّمن عظامهنّ، ومشمشن مخّهنّ؛ فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل! ثم لم يظهر منهنّ سِمَن ولا زيادة بعد أكلهنّ! إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات ممتلئات حبا وماء، وإلى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة في منبت واحد، عروقهنّ في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: أي شيء هذا؟! هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولهن

(١) من ع وى. (٢) من ع. (٣) تشخب: تسيل. (٤) فى ع وى: يبسه.

Marfat.com

فى المـاء، إذ هبّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهن النـار فأحرقتهنّ ؛ فصرن سودا مغبرات ؛ فانتبهتَ مذعورا أيهـا الملك؛ فقال الملك : والله ما شأن هـذه الرؤيا وإن كان عجبا بأعجب مما سمعتُ منك ! فمـا ترى فى رؤياى[1] أيها الصدّيق؟ فقال يوسف : أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مَدَر لنبت ، وأظهر الله فيه النماء والبركة، ثم ترفع الزرع فى قصبه وسنبله تبنى له المخازن العظام[2] ؛ فيكون القصب والسّنبل عَلَفا للدواب، وحبه للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم إلى أهْرائك[3] الخُمُس؛ فيكفيك من الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحى يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز مالم يجتمع لأحد قبلك ؛ فقـال الملك : ومن لى بتدبير هـذه الأمور ؟ ولو جمعت أهـل مصر جميعا ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء ؛ فقال يوسف عليه السلام [عند ذلك[4]] : « ٱجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ » أى على خزائن أرضك ؛ وهى جمع خِزانة ؛ ودخلت الألف واللام عوضا من الإضافة، كقول النابغة :

لَهُمْ شِيمَةٌ لم يُعْطِهَا اللهُ غَيْرَهُمْ ✻ مِنَ الجُودِ والأَحْلَامُ غيرُ كَوَاذِبِ

قوله تعـالى : ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ وهذا يدلّ على أن قوله : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ » جرَى فى السّجن . ويحتمل أنه جرى عند الملك ، ثم قال فى مجلس آخر : « ٱئْتُونِى بِهِ » تأكيـدا « أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى » أى أجعـله خالصا لنفسى ، أفوّض إليـه أمر مملكتى؛ فذهبوا فجاءوا به ؛ ودلّ على هذا ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أى كلّم الملك يوسف، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف ؛ فـ﴿ قَالَ ﴾ الملك : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أى متمكن نافذ القول، « أَمِينٌ » لا تخاف غدرا .

قوله تعـالى : قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

(١) فى ع : فما ترى فى هذه الرؤيا . (٢) فى ع : العظمى . (٣) كذا فى ع وى وك : هو بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان . وهى مخازن الحبوب اليوم . وفى ا وحـ : أمرائك . (٤) من ع وى .

Marfat.com

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال سعيد بن منصور : سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خزانة الأرض ؛ أما سمعت إلى قوله : « ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ » أى على حفظها ، فحذف المضاف . ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ لما وُلّيت ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأمره . وفى التفسير : إنى حاسب كاتب ؛ وأنه أوّل من كتب فى القراطيس . وقيل : « حَفِيظٌ » لتقدير الأقوات « عَلِيمٌ » بسنىّ المجاعات . قال جُوَيبر عن الضّحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رحم الله أخى يوسف لو لم يقل ٱجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك عنه سنة" . قال ابن عباس : لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوّجه وردّاه[1] بسيفه ، ووضع له سريرا من ذهب ، مكللا بالدرّ والياقوت ، وضرب عليه حُلّة من إستبرق ؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع ، عليه ثلاثون فراشا وستون مِرْفقة[2] ، ثم أمره أن يخرج ، فخرج متوّجا ، لونه كالثلج ، ووجهه كالقمر ؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه ، فجلس على السرير ودانت له الملوك ، ودخل الملك بيته مع نسائه ، وفوّض إليه أمر مصر ، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام ، فسلّم سلطانه كلّه إليه ، وهلك قطفير تلك الليالى ، فزوّج الملك يوسف راعيل ٱمرأة العزيز ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟ ! فقالت : أيها الصدّيق لا تلمنى ؛ فإنى كنت ٱمرأة حسناء ناعمة كما ترى ، وكان صاحبى لا يأتى النساء ، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن فغلبتنى نفسى . فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين : إفرائيم بن يوسف ، ومنشا بن يوسف . وقال وهب بن منبّه : إنما كان تزويجه زليخاء ٱمرأة العزيز بين دخلتى الإخوة ، وذلك أن زليخاء مات زوجها و يوسف فى السجن ، وذهب مالها وعمى بصرها بكاء على يوسف ، فصارت تتكفّف الناس ؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها ،

(١) رداه بسيفه : قلده به .
(٢) المرفقة (بالكسر) : المتكأ والمخدة .

Marfat.com

وكان يوسف يركب فى كل أسبوع مرة فى موكب زُهَاء مائة ألف من عظماء قومه ، فقيل لها : لو تعرّضت له لعله يسعفك بشئ ؛ ثم قيل لها : لا تفعلى ، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك ، فقالت : أنا أعلم بخُلُق حبيبى منكم ، ثم تركته حتى إذا ركب فى موكبه ، [قامت][1] فنادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم ، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم ، فقال يوسف : ما هذه ؟ فأتوا بها ؛ فقالت : أنا التى كنت أخدمك على صدور قدمىّ ، وأُرَجِّل جُمّتك بيدىّ[2] ، وتربيت فى بيتى ، وأكرمت مثواك ، لكن فرط مافرط من جهلى وعُتوى فذقت وبال أمرى ، فذهب مالى ، وتضعضع ركنى ، وطال ذلّى ، وعَمِى بصرى ، وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفّف الناس ، فمنهم من يرحمنى ، ومنهم من لا يرحمنى ، وهذا جزاء المفسدين ؛ فبكى يوسف بكاء شديدا ، ثم قال لها : هل بقيت تجدين مما كان فى نفسك من حبك لى شيئا ؟ فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إلىّ من الدنيا بحذافيرها ، لكن ناولنى صدر سوطك ، فناولها فوضعته على صدرها ، فوجد للسوط فى يده اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولا : إن كنتِ أَيِّمًا تزوجناك ، وإن كنتِ ذات بعل أغنيناك ، فقالت للرسول : أعوذ بالله أن يستهزئ بى الملك ! لم يُرِدْنى أيام شبابى وغناى ومالى وعزّى أفيريدنى اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟ ! فأعلمه الرسول بمقالتها ، فلما ركب فى الأسبوع الثانى تعرّضت له ، فقال لها : ألم يبلّغك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها ؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهُيِّئت ، ثم زُفّت إليه ، فقام يوسف يصلّى ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها ، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته ، إكراما ليوسف عليه السلام لمّا عفّ عن محارم الله ، فأصابها فإذا هى عذراء ، فسألها ؛ فقالت : يا نبىّ الله إن زوجى كان عِنّينا لا يأتى النساء ، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف ؛ قال : فعاشا فى خَفْض عيش[3] ، فى كل يوم يجدّد الله لها خيرا ، وولدت له ولدين ؛ إفرائيم ومنشا . وفيما روى

(١) من ع ، ك ، ى . (٢) فى ع : أقدمك على صدور قوى . (٣) خفض عيش : فى سعة وراحة .

Marfat.com

أن الله تعالى ألقى فى قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان فى قلبها، فقال لها : ما شأنك لا تحبيننى كما كنت فى أول مرة؟ فقالت [له][1]: لما ذقت محبة الله تعالى شغلنى ذلك عن كل شىء.

الثانية — قال بعض أهل العلم: فى هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه فى فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك. وقال قوم : إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليومَ غيرُ جائز؛ والأول أولى إذا كان على الشرط الذى ذكرناه. والله أعلم. قال الماوردى: فإن كان المولِّى ظالما فقد اختلف الناس فى جواز الولاية من قبله على قولين : أحدهما — جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وُلِّى من قبل فرعون، ولأن الاعتبار فى حقه بفعله لا بفعل غيره. الثانى — أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولى الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتقلد أعمالهم؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين : أحدهما — أن فرعون يوسف كان صالحا، وإنما الطاغى فرعون موسى. الثانى — أنه نظر فى أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبعة فيه. قال الماوردى: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصّل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام : أحدها — ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد فى تنفيذه كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد. والقسم الثانى — ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الاجتهاد فى مَصْرِفه كأموال الفىء، فلا يجوز تولّيه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق. والقسم الثالث — ما يجوز أن يتولاه لأهله، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين، وتوسطا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز.

الثالثة — ودلّت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا؛ فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) من ع.

Marfat.com

" يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسئلة وُكِلْت إليهـا و إن أُعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها" . وعن أبي بُرْدة قال قال أبو موسى : أقبلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعي رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي صلى الله عليه وسلم يستاك، فقال : "ما تقول يا أبا موسى — أو يا عبد الله بن قيس —" قال قلت : والذى بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما ، وما شـعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأني أنظر إلى سِواكه تحت شفته وقد قلصت[١] ، فقال : " لن — أو — لانستعمل على عملنا من أراده" وذكر الحديث ؛ خرجه مسلم أيضا و غيره ؛ فالجواب : أوّلا — أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهـم فرأى أن ذلك فرض متعين عليـه فإنه لم يكن هنـاك غيره، وهكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعيّن ذلك عليه ، ووجب أن يتولّاها و يسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك ، كما قال يوسف عليـه السلام ، فأما لو كان هناك من يقوم بهـا و يصلح لهـا وعلم بذلك فالأولى ألّا يطلب ؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن : "لا تسأل الإمارة" [وأيضا][٢] فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك ؛ وهذا معنى قوله عليه السلام : "وكل إليها" ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فرّ منها، ثم إن ٱبتلى بهـا فيرجى له التخلص منها ، وهو معنى قوله : "أعين عليها" . الثاني — أنه لم يقل : إني حسيب كريم ، و إن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم][٣] يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم" ولا قال : إني جميل مليح، إنما قال : « إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال. الثالث — إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى

---

(١) قلصت : انقبضت وٱزوت . (٢) من ع . (٣) من ع و ى .

Marfat.com

من قوله تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » . الرابع — أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه ؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر، والله أعلم . [الرابعة][1] ودلّت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ؛ قال الماوردىّ : وليس هذا على الإطلاق فى عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما ٱقترن بوصله ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظَّفر بأهله .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أى ومثل هذا الإنعام الذى أنعمنا عليه فى تقريبه إلى قلب الملك، و إنجائه من السجن مكّنا له فى الأرض؛ [أى][1] أقدرناه على ما يريد . وقال الكِيَا الطَّبَرى قوله تعالى : «وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ» دليل على إجازة الحيلة فى التوصّل إلى المباح، وما فيه الغبطة والصلاح، واستخراج الحقوق، ومثله قوله تعالى : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ »[2] وحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ فى عامل خَيْبر، والذى أدّاه من التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله[3] .

قلت : وهذا مردود على ما يأتى . يقال : مكّناه ومكّنا له ، قال الله تعالى : « مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ »[4] . قال الطَّبَرىّ : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الريّان يوسف على عمل إطفير وعَزَله ؛ قال مجاهد : وأسلم على يديه . قال ٱبن عباس : ملّكه بعد سنة

(١) من ع ، ك ، ى . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢١٢ . (٣) الحديث : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خيبر ، فجاءه بتمر جنيب ، وهو نوع جيد من أنواع التمر ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل تمر خيبر هكذا "فقال : لا والله يارسول الله ، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة ، فقال : "لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا" . (البخارى) . (٤) راجع جـ ٦ ص ٣٩١ .

Marfat.com

ونصف . وروى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن يوسف قال إنى حفيظ علیم إن شاء الله لَمَلَكَ فى وقته" . ثم مات إطفير فزوجه الوليد بزوجة إطفير راعيل، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء، وولدت له ولدين: إفرائيم ومنشا، ابنى يوسف، ومن زعم أنها زَلِيخَاء قال: لم يتزوجها يوسف، وأنها لما رأته فى موكبه بكت، ثم قالت: الحمد لله الذى جعل الملوك عبيدا بالمعصية، والحمد لله الذى جعل العبيد بالطاعة ملوكا، فضمها إليه، فكانت من عياله حتى ماتت عنده، ولم يتزوجها ؛ ذكره الماوردى ؛ وهو خلاف ما تقدم عن وهب، وذكره الثعلبى ؛ فالله أعلم . ولما فوض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطف بالناس، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدل، فأحبه الرجال والنساء، قال وهب والسدى وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون المخصبة، فأمر يوسف بإصلاح المزارع، وأمرهم أن يتوسعوا فى الزراعة، فلما أدركت الغلة أمر بها فجمعت، ثم بنى لها الأهراء، فجمعت فيها فى تلك السنة غلة ضاقت عنها المخازن لكثرتها، ثم جمع عليه غلة كل سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجدبة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا ؛ فإن الله سلط عليكم الجوع سبع سنين . وقال بعض أهل الحكمة : للجوع والقحط علامتان : إحداهما — أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية . والثانية — أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا ويعز إلى الغاية، فاجتمعت هاتان العلامتان فى عهد يوسف، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع ! ! ويأكلون ولا يشبعون، وانتبه الملك، ينادى الجوع الجوع ! ! قال : فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك، ثم أصبح فنادى يوسف فى أرض مصر كلها ؛ معاشر الناس ! لا يزرع أحد زرعا فيضيع البذر ولا يطلع شىء . وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف ؛ قال ابن عباس : لما كان ابتداء القحط بينا الملك فى جوف الليل أصابه الجوع فى نصف الليل، فهتف الملك يا يوسف ! الجوع الجوع ! ! فقال يوسف : هذا أوان القحط ؛ فلما دخلت أول سنة من سنى القحط هلك فيها كل شىء أعدوه فى السنين

Marfat.com

المخصبة ، فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف ؛ فباعهم أول سنة بالنقود ، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ؛ و باعهم فى السنة الثانية بالحلى والجواهر ، حتى لم يبق فى أيدى الناس منها شئ ؛ وباعهم فى السنة الثالثة بالمواشى والدواب ، حتى آحتوى عليها أجمع ، وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والإماء ، حتى آحتوى على الكل ؛ وباعهم فى السنة الخامسة بالعقار والضياع ، حتى ملكها كلها ؛ و باعهم فى السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقهم جميعا و باعهم فى السنة السابعة برقابهم ، حتى لم يبق [فى السنة السابعة][1] بمصر حر ولا عبد إلا صار عبدا له ؛ فقال الناس : والله ما رأينا ملكا أجلّ ولا أعظم من هذا ؛ فقال يوسف لملك مصر : كيف رأيت صنع ربى فيما خوّلنى ! والآن كل هذا لك ، فما ترى فيه ؟ فقال : فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت ، و إنما نحن لك تبع ؛ وما أنا بالذى يستنكف عن عبادتك وطاعتك ، ولا أنا إلا من بعض مماليكك ، وخَوَل من خَوَلك ؛ فقال يوسف عليه السلام : إنى لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم ، ولم أُجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاء ؛ و إنى أشهد الله وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، و رددت عليهم أموالهم وأملاكهم ، و رددت عليك ملكك بشرط أن تستنّ بسنتى . و يروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام فى تلك السنين ، فقيل له : أتجوع و بيدك خزائن الأرض؟ فقال : إنى أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ؛ وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غذاءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين ؛ فمن ثَمّ جعل الملوك غذاءهم نصف النهار .

قوله تعالى : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بإحساننا ، والرحمة النعمة والإحسان . ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى ثوابهم . وقال آبن عباس و وهب : يعنى الصابرين ؛ لصبره فى الجبّ ، وفى الرقّ ، وفى السِّجن ، وصبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة . وقال الماوردى : وآختلف فيما أوتيه يوسف من هذه الحال على قولين : أحدهما — أنه ثواب من الله تعالى على ما آبتلاه . الثانى — أنه أنعم الله عليه بذلك تفضلا منه عليه ، وثوابه باق على حاله فى الآخرة .

(١) من ع .

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أى مانعطيه فى الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه فى الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية العموم فى كل مؤمن متق؛ وأنشدوا:

أَمَا فى رسول الله يوسف أُسْوةٌ * لمثلك محبوسًا على الظُّلم والإفْكِ
أقام جَميلَ الصّبر فى الحبس بُرهة * فآل به الصّبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ

وكتب بعضهم إلى صديق له:

وراء مَضيق الخوف مُتَّسعُ الأَمْنِ * وأول مفـروج به آخرُ الحـزنِ
فلا تيئسنْ فالله مَلَّكَ يوســفًا * خزائنَه بعد الخلاص من السِّجنِ

وأنشد بعضهم:

إذا الحـادثاتُ بَلَغْنَ النُّهى * وَكادتْ تذوبُ لهُنَّ المُهَـجْ
وحلّ البـــلاءُ وقلّ العَـــزَاء * فعنـد التّنـاهِى يكونُ الفَـرَجْ

والشعر فى هذا المعنى كثير.

قوله تعالى: وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أى جاءوا إلى مصر لما أصابهم القحط ليمتاروا؛ وهذا من آختصار القرآن المعجز. قال آبن عباس وغيره: لما أصاب الناس القحط والشدّة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للميرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام فى الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدّة بالناس يجلس [للناس][(1)] عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رءوسهم؛ لكل رأس وَسْقا[(2)]. ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ لأنهم خلّفوه صبيا، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة، مع طول المدّة؛ وهى أربعون سنة. وقيل: أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر: وقيل: رأوه لابس حرير، وفى عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاج، وقد تزيّا بزىّ فرعون مصر؛ ويوسف

(1) من ع وك وو وى. (2) الوسق ستون صاعا؛ والأصل فى الوسق الحمل.

Marfat.com

رآهم على ما كان عهدهم فى الملبس والحلية . ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه . وقيل : أنكروه لأمر خارق آمتحانا آمتحن الله به يعقوب .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يقال : جَهَّزتُ القوم تجهيزا أى تكلفت لهم بجهازهم للسفر؛ وجهاز العروس ما يحتاج إليه عند الإهداء إلى الزوج؛ وجوز بعض الكوفيين الجهاز بكسر الجيم؛ والجهاز فى هـذه الآية الطعام الذى آمتاروه من عنده . قال السُّدىّ : وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيرا ، وهم عشرة ، فقالوا ليوسف : إنّ لنا أخا تخلّف عنا، وبعيره معنا ؛ فسألهم لِمَ تخلف ؟ فقالوا : لحبّ أبيه إياه ؛ وذكروا له أنه كان له أخ أكبر منه فخرج إلى البرّية فهلَك ؛ فقال لهم : أردت أن أرى أخاكم هـذا الذى ذكرتم ، لأعلم وجه محبة أبيكم إيّاه، وأعلم صدقكم؛ ويروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينة، حتى يأتوا بأخيه بنيامين . وقال ابن عباس : قال [يوسف](١) للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا ، وزيّكم مخالف لزيّنا ، فلعلكم جواسيس ؛ فقالوا : والله ! ما نحن بجواسيس، بل نحن بَنُو أبٍ واحد، فهو شيخ صـدّيق؛ قال : فكم عِدّتكم ؟ قالوا : كنا آثنى عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك فيها ؛ قال : فأين الآخر ؟ قالوا : عند أبينا ؛ قال : فمن يعلم صدقكم ؟ قالوا : لا يعرفنا هاهنا أحد ، وقد عرفناك أنسابنا، فبأى شيء تسكن نفسك إلينا ؟ فقال يوسف : ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ إن كنتم صادقين ؛ فأنا أرضى بذلك « أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ » أى أتمه ولا أبخسه ، وأزيدكم حمل بعير لأخيكم « فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى » توعدهم ألّا يبيعهم الطعام إن لم يأتوا به .

قوله تعالى : ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أنه رخص لهم فى السعر فصار زيادة فى الكيل . والثانى — أنه كال لهم بمكيال واف . ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ

(١) من ع وك وى .

Marfat.com

الْمُنْزِلِينَ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم؛ قاله مجاهد. الثاني — وهو محتمل؛ أى خير من نزلتم عليه من المأمونين؛ وهو على التأويل الأول مأخوذ من النُّزْل وهو الطعام، وعلى الثاني من المنزل وهو الدار.

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾ أى فلا أبيعكم شيئا فيما بعد، لأنه قد وفّاهم كيلهم فى هذه الحال. ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أى لا أنزلكم عندى منزلة القريب، ولم يرد أنهم يبعدون منه ولا يعودون إليه؛(١) لأنه على العود حثّهم. قال السُّدّى : وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا؛ فارتهن شمعون عنده؛ قال الكلبي : إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم الجبّ أجملهم قولا، وأحسنهم رأيا. و « تَقْرَبُونِ » فى موضع جزم بالنهى، فلذلك حذفت منه [النون وحذفت(٢)] الياء؛ لأنه رأس آية؛ ولو كان خبرا لكان « تقربون » بفتح النون.

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أى سنطلبه منه، ونسأله أن يرسله معنا. ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أى لضامنون المجيء به، ومحتالون فى ذلك.

مسـألة — إن قيل : كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟ قيل له : عن هذا أربعة أجوبة : أحدها — يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ابتلاء ليعقوب، ليعظم له الثواب؛ فاتبع أمره فيه. الثاني — يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام. الثالث — لتتضاعف المسرّة ليعقوب برجوع ولديه عليه. الرابع — ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته؛ لميل كان منه إليه؛ والأول أظهر، والله أعلم.

قوله تعالى : وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم؛ وهى اختيار أبى حاتم والنحاس وغيرهما. وقرأ سائر الكوفيين « لِفِتْيَانِهِ » وهو اختيار أبى عبيد؛ وقال :

(١) فى الأصول : يبعدوا ، يعودوا . ولم يظهر وجه لحذف النون . (٢) من ع وك وو .

Marfat.com

هو فى مصحف عبد الله كذلك . قال الثعلبى : وهما لغتان جيدتان ؛ مثل الصبيان والصبية قال النحاس : « لِفِتْيَانِهِ » مخالف للسواد الأعظم؛ لأنه فى السواد لا ألف فيه ولا نون، ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع؛ وأيضا فإن فتية أشبه من فتيان؛ لأن فتية عند العرب لأقل العدد، والقليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه . وكان هؤلاء الفتية يسوون جهازهم ، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم فى رحالهم . ويجوز أن يكونوا أحرارا[1]، وكانوا أعوانا له، وبضاعتهم أثمان ما اشتروه من الطعام . وقيل : كانت دراهم ودنانير . وقال ابن عباس : النعال والأدم ومتاع المسافر، ويسمى رَحْلا ؛ قال ابن الأنبارى : يقال للوعاء رَحْل، وللبيت رَحْل . وقال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ لجواز ألّا تسلم فى الطريق . وقيل : إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه[2] . قيل : ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام . وقيل : استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام . وقيل : ليروا فضله، ويرغبوا فى الرجوع إليه .

قوله تعالى : فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ لأنه قال لهم : « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم إياه، وأن شمعون مرتهن حتى يعلم صدق قولهم . ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ أى قالوا عند ذلك :

(١) فى ع : أجراء أو كانوا . وهو الحق .　　(٢) فى ع و ك : بثمن .

Marfat.com

« فَأَرْسِـلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ » والأصـل نكتال، لحذفت الضمة من اللام للجزم، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين. وقراءة أهل الحرمين وأبى عمرو وعاصم «نَكْتَلْ» بالنون وقرأ سائر الكوفيين « يكتل » بالياء، والأول آختيار أبى عبيد ، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال ؛ وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده . قال النحاس : وهذا لا يلزم؛ لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين؛ أن يكون المعنى: فأرسل أخانا يكتل معنا؛ فيكون للجميع، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير ، فيكون فى الكلام دليـل على الجميع، لقوله : « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يناله سوء .

قوله تعـالى :﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى قد فرطتم فى يوسف فكيف آمنكم على أخيه ! . ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا ﴾ نصب على البيان، وهذه قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين «حَافِظًا» على الحال . وقال الزجاج : على البيان؛ وفى هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم؛ ومعنى الآية : حفظ الله له خير من حفظكم إياه . قال كعب الأحبار : لمـا قال يعقـوب : « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا » قال الله تعالى : وعزتى وجلالى لأردّن عليك آبنيك كليهما بعد ما توكلت علىّ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ الآية ليس فيها معنى يشكل . ﴿ مَا نَبْغِي ﴾ «ما» آستفهام فى موضع نصب؛ والمعـنى : أى شىء نطلب وراء هـذا ؟ ! وفّى لنا الكيل، وردّ علينا الثمن؛ أرادوا بذلك أن يُطيّبوا نفس أبيهم . وقيل : هى نافية؛ اى لا نبغى منك دراهم ولا بضاعة ، بل تكفينا بضاعتنا هذه التى ردّت إلينا . ورُوى عن عَلْقَمة « رِدّتْ إِلَيْنَا » بكسر الراء ؛ لأن الأصل رددت ؛ فلمـا أدغم قلبت حركة الدال على الراء . وقـوله : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أى نجلب لهم الطعام ؛ قال الشاعر :

بَعَثْتُكَ مائِرًا فَمَكَثْتَ حَـوْلًا * مَتَى يأتِى غِيَاثُكَ مَن تُغِيثُ

وقرأ السُّلَمِىّ بضم النون ، أى نعينهـم على الميرة . ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أى حِمْل بعير لبنيامين .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ تُؤْتُونِ ﴾ أي تعطوني . ﴿ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أي عهدا يوثق به . قال السدّي : حلفوا بالله ليردّنه إليه ولا يُسلمونه ؛ واللام في ﴿ لَتَأْتُنَّنِي ﴾ لام القسم . ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال مجاهد : إلا أن تَهلِكوا أو تموتوا . وقال قتادة : إلا أن تُغلبوا عليه . قال الزجاج: وهو في موضع نصب . ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أي حافظ للحلف . وقيل : حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل .

الثانية — هذه الآية أصل في جواز الحَمَالة[1] بالعين والوثيقة بالنفس ؛ وقد آختلف العلماء في ذلك ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هي جائزة إذا كان المتحمَّل به مالا . وقد ضعَّف الشافعي الحَمَالة بالوجه في المال؛وله قول كقول مالك . وقال عثمان البَتّي : إذا تكفّل بنفس في قصاص أو جراح فإنه إن لم يجيء به لزمه الدية وأَرْش الجراح، وكانت له في مال الجاني ، إذ لا قصاص على الكفيل ؛ فهذه ثلاثة أقوال في الحمالة بالوجه . والصواب تفرقة مالك في ذلك ، وأنها تكون في المال ، ولا تكون في حدّ أو تعزير ، على ما يأتي بيانه :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(١) الحمالة : الكفالة .

Marfat.com

فيـه سبع مسائل :

الأولى — لما عزموا على الخروج خشي عليهم العين ؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب ؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرَجُل واحد ؛ وكانوا أهل جمال وكمال وبَسْطة ؛ قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم .

الثانيـة — إذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرز من العين ، والعين حق ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القِدر". وفي تعوّذه عليه السلام : "أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة" ما يدل على ذلك . وروى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهل بن حُنيف بالخرّار[(1)] فنزع جُبّة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد عَذْراء! فوُعِك سهل مكانه واشتد وَعْكه، فأُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلا وُعِك، وأنه غير رائح معك يارسول الله ؛ فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "عَلامَ يقتل أحدكم أخاه ألا بَرَّكْتَ[(2)] إن العين حق توضأ له" فتوضأ عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس ؛ في رواية "اغتسل" فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره[(3)] في قدح ثم صبّ عليه؛ فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . وركب سعد بن أبي وقّاص يوما فنظرت إليه امرأة فقالت : إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكَشْحين ؛ فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فغسلت له ؛ ففي هذين الحديثين أن العين حق، وأنها تقتل كما قال [النبي][(4)] صلى الله عليه وسلم ؛ وهـذا قول علماء الأمة ، ومذهب أهل السنة ؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمة ، وبما يشاهد من ذلك في الوجود؛ فكم من رجل

(1) الخرّار : ماء بالمدينة . (2) برّك : قال بارك الله فيه ؛ وهذا القول سطا. تأثير العين وسيأتي معناها .

(3) في ع : مع الناس . (4) من ع .

Marfat.com

أدخلته العين القبر ، وكم من جمل ظهير أدخلته القِدر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال : « وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ »(١) . قال الأصمعي : رأيت رجلا عَيُونا سمع بقرة تحلب فأعجبه شَخْبها فقال : أيتهنّ هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكتا جميعا، المورَّى بهـا والمورَّى عنها . قال الأصمعيّ . وسمعته يقول : إذا رأيتُ الشيء يعجبني وجدتُ حرارة تخرج من عينيّ .

الثالثــة — واجب على كل مسـلم أعجبه شيء أن يُبَرِّك ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر : "ألا برّكت" فدلّ على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا بَرَّك العائن، وأنها إنمـا تعدو إذا لم يُبَرِّك . والتبريك أن يقول : تبـارك الله أحسن الخالقين ! اللهم بارك فيه .

الرابعــة — العائن إذا أصاب بعينــه ولم يُبَرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال ، ويُجبر على ذلك إنْ أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، لاسيما هذا(٢)؛ فإنه قد يخاف على المَعِين الهلاك، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ماينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولاسيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه.

الخامســة — من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة النـاس دفعا لضرره؛ وقد قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيتــه ؛ و إن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، و يكفّ أذاه عن الناس . وقد قيل : إنه يُنفى ؛ وحديث مالك الذى ذكرناه يرد هذه الأقوال؛فإنه عليه السلام لم يأمر فى عامر بحبس ولا بنفى، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا ،وأنه لا يقدح فيه ولا يفسّق به ؛ومن قال: يحبس ويؤمر بلزوم بيته. فذلك ٱحتياط ودفع ضرر، والله أعلم.

السادســة — روى مالك عن حميد بن قيس المكّى أنه قال : دُخل على رســول الله صـلى الله عليه وسـلم بابنى جعفر بن أبى طالب فقال لحاضنتهما : " مالى أراهما ضَارِعين(٣)" فقالت حاضنتهما : يا رسول الله ! إنه تسرع إليهما العين ، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقى لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك ؟ فقال رسول الله صـلى الله عليــه وسلم : " ٱسْتَرْقُوا لهما فإنه

(١) راجع جـ ٢ ص ٥٥ . (٢) فى ع و ك و ى : هنا . (٣) الضارع : النحيف الضاوى الجسم .

Marfat.com

لو سبق شيء القدر سبقته العين ". وهذا الحديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عُمَيس الخَثْعمية عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة متصلة صحاح؛ وفيه أن الرُّقَى مما يُستَدفع به البلاء، وأن العين تؤثر في الإنسان وتَضْرَعه، أي تضعفه وتنحله؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، والله أعلم .

السابعة — أمر صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمَعين ، وأمر هنا بالاسترقاء؛ قال علماؤنا : إنما يسترق من العين إذا لم يعرف العائن؛ وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من شيء أحذره عليكم ؛ أي لا ينفع الحذر مع القدر . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ أي الأمر والقضاء . ﴿ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت ووثقت . ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ أي من أبواب شتى . ﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم . ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء ليس من الأول . ﴿ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أي خاطر خطر بقلبه ؛ وهو وصيته أن يتفرقوا ؛ قال مجاهد : خشية العين ، وقد تقدم القول فيه . وقيل : لئلا يرى الملك عددهم وقوتهم

Marfat.com

فيبطش بهم حسدا أو حذرا؛ قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال : ولا معنى للعين ها هنا . ودلّت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني يعقوب . ﴿ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي بأمر دينه . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه . وقيل : « لَذُو عِلْمٍ » أي عمل؛ فإن العلم أول أسباب العمل، فسمى بما[1] هو بسببه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ قال قتادة : ضمّه إليه، وأنزله معه . وقيل : أمر أن ينزل كل اثنين في منزل، فبقي أخوه منفردا فضمّه إليه وقال : أشفقت عليه من الوحدة، وقال له سرًّا من إخوته : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أي لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له : لا تردّني إليهم، فقال : قد علمت اغتمام يعقوب بي فيزداد غمّه، فأبى بنيامين الخروج؛ فقال يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك : فقال : لا أبالي ! فدس الصاع في رحله؛ إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد، أو أمر بعض خواصّه بذلك . والتّجهيز التسريح وتنجيز الأمر؛ ومنه جهّز على الجريح أي قتله، ونجز أمره . والسقاية والصواع شيء واحد؛ إناء له رأسان في وسطه مَقْبِض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ قاله النقاش عن ابن عباس، وكل شيء يشرب به فهو صواع؛ وأنشد :

* نَشربُ الخمـرَ بالصّواع جِهارًا[2] *

واختلف في جنسه؛ فروى شعبة عن أبي بِشر عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس قال : كان صواع الملك شئ من فضة يشبه المَكُّوك، من فضة مرصع بالجوهر، يجعل على الرأس؛

---

(١) من ع . (٢) البيت تقدّم في ص ١٧٨ من هذا الجزء . برواية : نشرب الإثم .

Marfat.com

وكان للعباس واحد فى الجاهلية ، وسأله نافع[(١)] بن الأزرق ما الصواع ؟ قال : الإناء ؛ قال فيه الأعشى :

له دَرْمَكٌ فى رأسه ومَشارِبٌ * وقِدْرٌ وطَبَّاخٌ وصاعٌ ودَيْسَقُ[(٢)]

وقال عكرمه : كان من فضة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب؛ وبه كال طعامهم مبالغة فى إكرامهم . وقيل : إنما كان يكال به لعزّة الطعام . والصاع يذكّر ويؤنّث ؛ فمن أنثه قال : أَصْوُع ، مثل أَدْوُر ، ومن ذكّره قال أَصْوَاع ؛ مثل أثواب . وقال مجاهد وأبو صالح : الصاع الطَّرْجِهالَة بلغة حِمْير . وفيه قراءات : « صُوَاع » قراءة العامة ؛ و « صُوْغ » بالغين المعجمة، وهى قراءة يحيى بن يَعْمُر؛ قال : وكان إناء أُصِيغ من ذهب . « وصُوع » بالعين غير المعجمة قراءة أبى رجا . « وصُوْع » بصاد مضمومة و واو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أُبىّ[(٣)] . « وصُيَاع » بياء بين الصاد والألف ؛ قراءة سعيد بن جُبير . « وصاع » بألف بين الصاد والعين ؛ وهى قراءة أبى هريرة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أى نادى منادٍ وأعلم . « وَأَذَّنَ » للتكثير ؛ فكأنه نادى مرارا « أَيَّتُهَا الْعِيرُ » . والعير ما آمتير عليه من الحمير والإبل والبغال . قال مجاهد : كان عِيرهم حميرا . قال أبو عبيدة : العير الإبل المرحولة المركوبة؛ والمعنى : يا أصحاب العير، كقوله : « وَآسْأَلِ الْقَرْيَةَ » ويا خيل الله اركبى : أى يا أصحاب خيل الله، وسيأتى . وهنا آعتراضان : الأوّل — إن قيل : كيف رضى بنيامين بالقعود طوعا وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن ، ووافقه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم بُرَاء وهو — الثانى — فالجواب عن الأوّل : أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير، أو لا تراه لما فقده قال : « يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ » ولم يعرّج على بنيامين ؛ ولعل يوسف إنما وافقه على القعود بوحى ؛ فلا آعتراض . وأما نسبة

(١) كذا فى أ و ع و ك و ى . ولعله الأشبه ؛ وفى و : مالك . (٢) الديسق : خوان من فضة . والبيت من قصيدة يمدح بها المحلق مطلعها :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق * وما بى من سقم وما بى معشق

(٣) فى ع : أبى جعفر . والذى فى شواذ ابن خالويه : صواغ سعيد بن جبير . بغين معجمة ، وابن عطية .

Marfat.com

يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب : أن القوم كانوا قد سرقوه من أبيه فألقوه فى الجبّ، ثم باعوه؛ فاستحقّوا هذا الاسم بذلك الفعل، فصدق إطلاق ذلك عليهم . جواب آخر — وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السُّرّاق ؛ والمعنى : إنّ شيئا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه . جواب آخر — وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه، وفصله عنهم إليه ، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدسّ الصاع فى رحله، ولا أخبره بنفسه . وقد قيل : إن معنى الكلام الاستفهام؛ أى أو إنكم لسارقون ؟ كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ »[(1)] أى أوَ تلك نعمة تمنها علىّ؟ والغرض ألّا يعزى إلى يوسف صلى الله عليه وسلم الكذب .

قوله تعالى : قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّا ذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ . البعير هنا الجمل فى قول أكثر المفسرين . وقيل : إنه الحمار، وهى لغة لبعض العرب؛ قاله مجاهد واختاره . وقال مجاهد : الزعيم هو المؤذن الذى قال : « أَيَّتُهَا الْعِيرُ » . والزعيم والكفيل والحميل والضّمين والقَبِيل سواء والزعيم الرئيس .

قال[(2)] :

وإنّى زعيمٌ إنْ رَجعتُ مُملَّكا * بسَيْرٍ تَرَى منهُ الفُرَانِقَ أَزْوَرَا

وقالت ليلى الأخيلية ترثى[(3)] أخاها :

ومُخَرَّقٍ عنهُ القميصُ تخالُهُ * يومَ اللِّقاءِ من الحياءِ سَقِيمَا

(1) راجع جـ ١٣ ص ٩٣ . (2) هو امرؤ القيس . والفرانق : سبع يصيح بين يدى الأسد كأنه ينذر الناس به ؛ وهو فارسى معرب . والأزور : المائل فى شق ؛ أى إن ملكنى قيصر فإنى أسير سيرا شديدا يميل منه الفرانق من شدته بجانب . (3) كذا فى الأصل ولعله ترثى توبة . وفى صفته بخرق القميص أقوال : الأول — أن ذلك إشارة إلى جذب العفاة له . الثانى — أنه يؤثر بجيد ثيابه فيكسوها و يكتفى بمعاوزها . الثالث — أنه غليظ المناكب، وإذا كان كذلك أسرع الخرق إلى قميصه . الرابع — أنه كثير الغزوات متصل فى الأسفار، فقميصه منخرق لذلك .

Marfat.com

حَـتَّى إذا رَفَـعَ اللِّوَاءَ رأيتَـهُ * [تحتَ اللِّواءِ][1] على الخميسِ زَعِيمَا

الثانيـــة — إن قيل : كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول، وضمان المجهول لا يصح ؟ قيل له : حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالوَسْق ؛ فصح ضمانه، غير أنه [كان][2] بدل مالٍ للسارق، ولا يحل للسارق ذلك، فلعله كان يصحّ فى شرعهم أو كان هذا جعالة ، و بذل مال لمن [كان][2] يفتّش و يطلب .

الثالثـــة — قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليلان : أحدهما — جواز الجُعْل وقد أجيز للضرورة ؛ فإنه يجوز فيـه من الجهالة مالا يجوز فى غيره؛ فإذا قال الرجل : من فعـل كذا فله كذا صح . وشأن الجُعْل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه؛ بخـلاف الإجارة؛ فإنه يتقدّر فيهـا العوض والمعوض من الجهتين ؛ وهو من العقود الجائزة التى يجوز لأحدهما فسخه، إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع و بعده، إذا رضِى بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له فى العمل . ولا يشترط فى عقد الجُعْل حضور المتعاقدين ، كسائر العقود ؛ لقوله : « وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْـلُ بَعِيرٍ » و بهذا كله قال الشافعى .

الرابعـــة — متى قال الإنسان ، من جاء بعبدى الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة؛ وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "من جاء بآبق فله أربعون درهما" ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد ولهذا قال أصحابنا : إن من فعل بالإنسان ما يجب عليـه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر.

قلت : وخالفنا فى هذا كله الشافعى .

---

(١) كذا فى « أمالى القالى » «والشعر والشعراء» و « الحماسة » . وفى الأصول : يوم الهياج .

(٢) من ع .

Marfat.com

الخامسة — الدليل الثاني — جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام، قال علماؤنا : إذا قال الرجل تحمّلت أو تكفّلت أو ضمنت أو وأنا حَميل لك أو زعيم أو كَفيل أو ضامن أو قَبيل ، أو هو لك عندي أو عليّ أو إليّ أو قِبَلي فذلك كله حَمَالة لازمة ، وقد آختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه ، هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون: من تكفّل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذي على المطلوب إن مات ؛ وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه . وقال مالك والليث والأوزاعي : إذا تكفّل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال، ويرجع به على المطلوب ؛ فإن آشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا أضمن المال فلا شيء عليه من المال؛ والحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم، وإنما يطلب بمال ؛ فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوّته عليه ، وعزه منه؛ فلذلك لزمه المال . وآحتج الطحاوي للكوفيين فقال : أما ضمان المال بموت المكفول [به](١) فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال ، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة — وآختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما ؟ فقال الثوري والكوفيون والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحق : يأخذ من شاء حتى يستوفي حقه ؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب ؛ لأن التبدية بالذي عليه الحق أولى ، إلا أن يكون معدما فإنه يؤخذ من الحميل ، لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة ؛ وهذا قول حسن . والقياس أن للرجل مطالبة أي الرجلين شاء . وقال آبن أبي ليلى : إذا ضمن الرجل عن صاحبه مالا تحول على الكفيل وبرئ صاحب الأصل ، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء ؛ وآحتج ببراءة الميت من الدين بضمان أبي قتادة(٢) ، وبنحوه قال أبو ثور .

(١) من ع و ى . (٢) الحديث : روى سلمة بن الأكوع أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بجنازة فقال : "هل عليه من دين" قالوا : نعم، قال : "هل ترك شيئا" قالوا : لا، قال : "صلوا على صاحبكم" قال أبو قتادة : صل عليه يا رسول الله وعليّ دينه ، فصلى عليه .

Marfat.com

السابعـــة ــ الزعامـــة لا تكون إلا فى الحقـــوق التى تجـــوز[1] النيابة فيها ، ممـا يتعلق بالذمة من الأموال ، وكان ثابتـا مستقرا ؛ فـلا تصح الحمالة بالكتابة لأنهـا ليست بدين ثابت مستقر ؛ لأن العبـد إن عجز رَقَّ وآنفسخت الكتابة ؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيـه ، ويسجن المدعى عليه الحد، حتى ينظر فى أمره .

وشذّ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة فى الحدود والقصاص، وقالا : إذا قال المقذوف أو المدعى القصاص بينتى حاضرة كفله ثلاثة أيام ؛ وآحتج لهم الطحاوى بمـا رواه حمـزة ابن عمرو عن عمر وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهـم حكموا بالكفالة بالنفس بمحضر الصحابة .

قوله تعـالى : قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَـدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَـا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَـا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَـدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يروى أنهـم كانوا لا ينزلون على أحد ظلما، ولا يرعون زرع أحد، وأنهـم جمعوا على أفواه إبلهم الأكِمَّة لئـلا تعيث فى زروع الناس . ثم قال : ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يروى أنهم ردّوا البضاعة التى كانت فى رحالهم؛ أى فمن ردّ ما وجد فكيف يكون سارقا ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا فَمَـا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ المعنى: فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم؟ فأجاب إخوة يوسف : ﴿ جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أى يُسْتعبَد ويُسْترَق . «فجَزَاؤُهُ» مبتدأ، و «مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ» خبره، والتقدير : جزاؤه آستعباد من وُجد فى رحله ؛ فهو كناية عن الاستـعباد؛ وفى الجملة معنى التوكيد، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهـذا جزاؤه . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أى كذلك نفعـل فى الظالمين إذا سرقوا أن يُسـترَقُّوا ، وكان هـذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه . وقولهم هذا قول من لم يَسْتَرِب نفسـه ؛

(١) ف ع : تجب .

Marfat.com

لأنهم التزموا استرقاق من وجد فى رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفى ما أخذ ؛ قاله الحسن والسدّى وغيرهما .

مســئلة — قد تقدّم فى سورة « المــائدة »(١) أن القطع فى السرقة ناسخ لمــا تقدّم من الشرائع ، أو لمــا كان فى شرع يعقوب من آسترقاق السارق ، والله أعلم .

قوله تعــالى : فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

قوله تعــالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ إنمــا بدأ يوسف برحالهم لنفى التهمة والرّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه . والوعاء يقال بضم الواو وكسرها ، لغتان ؛ وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ يعنى بنيامين ؛ أى آستخرج السّقاية أو الصّواع عند من يؤنث ، وقال : « وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ » فذكّر ؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رءوسهم ، وظنّوا الظنون كلها ، وأقبلوا عليــه وقالوا ويلك يا بنيامين ! ما رأينا كاليوم قطّ ، ولدت أمك « راحيل » أخوين لِصّــين ! قال لهم أخــوهم : والله ماسرقتــه ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى . ويروى(٢) أنهم قالوا له : يابنيامين ! أسرقت ؟ قال : لا والله ؛ قالوا : فمن جعل الصّواع فى رحلك ؟ قال : الذى جعل البضاعة فى رحالكم . ويقال : إن المفتش كان إذا فرغ من رحل رجل آستغفر الله عزّ وجلّ تائبــا من فعله ذلك ؛ وظاهر كلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف ؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصّواع حتى فرغ منهم ، وآنتهى إلى رحل بنيامين فقال : ما أظن هذا الفتى رضى بهذا ولا أخذ شيئا ، فقال له إخوته : والله لانبرح حتى تفتشه ؛ فهو أطيب لنفسك ونفوسنا ، ففتش فأخرج السّقاية ؛ وهــذا التفتيش من يوسف يقتضى أن المؤذّن سرّقهم برأيه ؛ فيقال : إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى ؛ ويقوّى ذلك قوله تعــالى : « كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » .

(١) راجع جـ ٦ ص ١٦٢ . (٢) فى ع : ويقال .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ .

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : « كِدْنَا » معناه صنعنا ؛ عن ٱبن عباس . القُتَبِيّ : دبّرنا . ابن الأنبارى : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادتْ وكِدتُّ وتلك خيرُ إرادةٍ * لوعاد مِن عهد الصِّبَا ما قـد مَضَى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحِيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافا لأبى حنيفة فى تجويزه الحيل و إن خالفت الأصول ، وخرمت التحليل .

الثانيـــة ـــ أجمع العلمـاء على أن للرجل قبـل حلول الحول التصرف فى ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعى أنه لايحل له التحيل ولا النقصان، ولا أن يفرق بين مجتمع ، ولا أن يجمـع بين متفرق . وقال مالك : إذا فوّت[1] من ماله شيئا ينوى به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند الحول ، أخذا منه بقـوله عليه السلام : " خشية الصدقة " . وقال أبو حنيفة : إن نوى بتفريقه[2] الفرار من الزكاة قبـل الحول بيوم لايضرّه ؛ لأن الزكاة لاتلزم إلا بتمام الحـول ، ولا يتوجه إليه معنى قوله : " خَشْيَةَ الصَّدَقة " إلا حينئذ . قال ٱبن العربى : سمعت أبا بكر محمـد بن الوليد الفِهْرى وغيره يقـول : كان شيخنا قاضى القضاة أبو عبد الله محمـد بن على الدّامَغَانى صاحب عشرات آلاف [دينار][3] من المـال، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم : كبرَت سِنّى، وضعفت قوّتى ، وهذا مال لاأحتاجه فهو لكم ، ثم يخرجه فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دورِ بنيه ؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا : يا أبانا ! إنما أملنا حياتك، وأما المـال فأىّ رغبة لنـا فيه مادمت حيا ؛ أنت ومالك لنـا ، نخذه إليك، ويسـير الرجال به حتى يضعوه بين يديه ، فيرده إلى موضـعه؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأى أبى حنيفة فى التفريق بين المجتمع ، والجمع بين المتفرق ؛ وهذا خطب عظيم وقد صنف البخارىّ رضى الله عنه فى جامعه كتابا مقصودا فقال : « كتاب الحِيل » .

(١) فى ع : فرق . (٢) فى ع : بتفويته . (٣) من ع وى .

Marfat.com

قلت : وترجم فيه أبوابا منها : « باب الزكاة وألّا يفرّق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرّق خشية الصدقة » . وأدخل فيه حديث أنس بن مالك، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة ؛ وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس . الحديث ؛ وفى آخره : " أفلح إن صدق " أو " دخل الجنة إن صَدَقَ " . وقال بعض الناس : فى عشرين ومائة بعير حِقّتان ؛ فإن أهلكها متعمدا أو وهبها أو احتال فيها فرارا من الزكاة فلا شىء عليه ؛ ثم أردف بحديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون كنز أحدكم يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ويقول أنا كنزك " الحديث ، قال المهلب : إنما قصد البخارى فى هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يتحيل بها أحد فى إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى ، وفهم من قوله : " أفلح إن صدق " أن من رام أن ينتقص شيئا من فرائض الله بحيلة يحتالها أنه لا يفلح ، ولا يقوم بذلك عذرُه عند الله ؛ وما أجازه الفقهاء من تصرف صاحب المال فى ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الهرب من الزكاة ؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط ، والله حسيبه ؛ وهو كمن فرّ من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم ، واستعمل سفرا لا يحتاج إليه ، رغبةً عن فرض الله الذى كتبه الله على المؤمنين ؛ فالوعيد متوجّه عليه ؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأىّ وجه متعمدا[(1)] كيف تطؤه الإبل ، ويمثل له ماله شجاعا أقرع ! ؟ وهذا يدلّ على أن الفرار من الزكاة لا يحلّ ، وهو مطالب بذلك فى الآخرة .

الثالثة — قال ابن العربى : قال بعض علماء الشافعية فى قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ » . دليل على وجه الحيلة إلى المباح ، واستخراج الحقوق ؛ وهذا وَهَم عظيم ؛ وقوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » قيل فيه : كما مكّنّا ليوسف ملك نفسه عن امرأة العزيز مكّنّا له ملك الأرض عن العزيز ، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره . قال الشفعوى : ومثله قوله عز وجل : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ »[(2)] وهذا ليس

(1) فى ع وى : بأى وجه منعها .   (2) راجع جـ ١٥ ص ٢١٢ .

Marfat.com

حيلة، إنما هو حمل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد . قال الشفعوى : ومثله حديث أبى سعيد الخدرى فى عامل خيبر أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر جَنِيب ، الحديث ؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعا (١) و يبتاع جَنيبا من الذى باع منه الجمع أو من غيره . وقالت المالكية : معناه من غيره ؛ لئلا يكون جَنيبا بجمع ، والدراهم ربا ؛ كما قال ابن عباس : جريرة بجريرة (٢) والدراهم ربا .

قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أى سلطانه ، عن ابن عباس . ابن عيسى : عاداته ، أى يظلم بلا حجة . مجاهد : فى حكمه ، وهو استرقاق السراق . ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى إلا بأن يشاء الله أن يجعل السّقاية فى رحله تَعِلّة وعذرا له . وقال قتادة : بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين ، ولكن شاء الله أن يجرى على ألسنتهم حكم بنى إسرائيل ، على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بالعلم والإيمان . وقرئ « نرفع درجاتِ من نشاء » بمعنى : نرفع من نشاء درجات ؛ وقد مضى فى « الأنعام » (٣) وقوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ روى إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة عن ابن عباس قال : يكون ذا أعلم من ذا وذا أعلم من ذا ، والله فوق كل عالم . و روى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جُبير قال : كنا عند ابن عباس رحمه الله فتحدّث بحديث فتعجب منه رجل فقال : سبحان الله ! وفوق كل ذى علم عليم ؛ فقال ابن عباس : بئس ما قلت ؛ الله العليم وهو فوق كل عالم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

(١) الجمع : تمر مختلط من أنواع متفرقة ، وليس مرغوبا فيه . (٢) كذا فى الأصل وفى « أحكام القرآن لابن العربى » ولعل العبارة كما فى ع : حريرة بالمهملة . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٠ فما بعدها .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَـدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْـلُ ﴾ المعنى : أى آقتـدى بأخيـه ، ولو آقتدى بنا ما سرق ؛ و إنمـا قالوا ذلك ليبرءوا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ؛ وأنه إن سرق فقـد جذبه عِرْق أخيـه السّارق ؛ لأن الاشتراك فى الأنساب يشا كل فى الأخلاق . وقـد آختلفوا فى السرقـة التى نسبوا إلى يوسف ؛ فروى عن مجاهد وغيره أن عمة يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت صارت إليها مِنْطقة إسحق لسنّها ؛ لأنهـم كانوا يتوارثون بالسنّ ، وهـذا ممـا نُسِخ حكمه بشرعنا ، وكان من سَرَق آستُعبِد . وكانت عمة يوسف حَضَنَتْه وأحبّته حبًا شديدا ؛ فلما ترعرع وشَبّ قال لها يعقوب : سلّمى يوسف إلىّ ، فلست أقدر أن يغيب عنى ساعة ؛ فولعتْ به ، وأشفقت من فراقه ، فقالت له : دعه عندى أياما أنظر إليه فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى مِنطَقة إسحق ، فحزمتهـا على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدتُ مِنْطقة إسحق ، فانظروا مَن أخذها ومَن أصابها ؛ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوا ، فوجدت مع يوسف . فقالت : إنه والله لى سلم أصنع فيه ما شئت ؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ؛ فأمسكته حتى ماتت ؛ فبذلك عيّره إخوته فى قولهم : «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ» . ومن هاهنا تعلّم يوسف وضع السقاية فى رَحْلِ أخيه كما عملت به عمته . وقال سعيد بن جُبير : إنما أمرته أن يسرق صنما كان لجدّه أبى أمه ، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق ، وكان ذلك منهما تغييرا للنكر ؛ فرموه بالسرقة وعيّروه بها ؛ وقاله قتادة . وفى كتاب الزجّاج : أنه كان صنم ذهب . وقال عطية العَوْفى : إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق (١) فخبأه فعيّروه بذلك . وقيل : إنه كان يسرق من طعام المـائدة للمساكين ؛ حكاه آبن عيسى . وقيل : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه ؛ قاله الحسن .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِـهِ وَلَمْ يُبْـدِهَا لَهُمْ ﴾ أى أسرّ فى نفسه قولهم : « إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » قاله آبن شجرة وآبن عيسى . وقيل : إنه أسرّ فى نفسه قوله : ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ ثم جهر فقال : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

(١) العرق (بالفتح) هنا القطعة من اللحم المطبوخ .

Marfat.com

[قاله ابن عباس ، أى أنتم شر مكانا ممن نسبتموه إلى هذه السرقة . ومعنى قوله « والله أعلم بما تصفون »] (1) أى الله أعلم أن ما قلـتم كذب ، وإن كانت لله رضا . وقد قيـل : إن إخوة يوسف فى ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ خاطبوه باسم العزيز إذ كان فى تلك اللحظـة بعزل الأول أو موته (2) . وقولهم : « إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا » أى كبير القدر، ولم يريدوا كبر السنّ؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ . « فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ » أى عبدًا بَدَلَه ؛ وقد قيل : إن هذا مجاز ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقه ؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله : آقتلنى ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنك مبالغ فى آستنزاله . ويحتمـل أن يكون قولهم : « فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ » حقيقة ؛ وبعيد عليهم وهم أنبياء (3) أن يروا اسـترقاق حر، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة ؛ أى خذ أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك ؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه ، ويعرف يعقوب جلية الأمر؛ فمنع يوسف عليه السلام من ذلك ، إذ الحمالة فى الحدود ونحوها — بمعنى إحضار المضمون فقط — جائزة مع التراضى ، غير لازمة إذا أبى الطالب ؛ وأما الحمالة فى مثل هذا على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة ، فلا يجوز إجماعا . وفى « الواضحة » : إن الحمالة فى الوجه فقط فى [جميع] (4) الحدود جائزة ، إلا فى النفس . وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة فى النفس . وآختلف فيها عن الشافعى ؛ فمرة ضعّفها ، ومرة أجازها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بمـا رأوا من إحسانه فى جميع أفعاله معهم ، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحسانا علينا فى هذه اليد إن أسديتها إلينا ؛ وهذا تأويل آبن إسحق .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ مصدر . ﴿ أَنْ نَأْخُذَ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى من أن نأخذ . ﴿ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا ﴾ فى موضع نصب بـ « نأخذ » . ﴿ مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ أى معاذ الله أن نأخذ البرىء بالمجرم ، ونخالف ما تعاقدنا عليه . ﴿ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ أى أن نأخذ غيره .

(1) من ع . (2) هو قطفير . (3) قد مضى أنهم ليسوا بأنبياء على الصحيح . (4) من ع .

Marfat.com

قوله تعالى : فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ (٨٠)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ ﴾ أى يئسوا ؛ مثل عَجِب واستعجب ، وسَخِر واستسخر . ﴿ خَلَصُوا ﴾ أى انفردوا وليس هو معهم . ﴿ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال من المضمر فى « خَلَصُوا » وهو واحد يؤدّى عن جمع ، كما فى هذه الآية ؛ و يقع على الواحد كقوله تعالى : « وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا »[1] و جمعه أَنْجِيَة ؛ قال الشاعر[2] :

إِنِّى إذا ما القومُ كانوا أَنْجِيَهْ * وٱضْطَرَبَ القومُ ٱضطراتَ الأَرْشِيَهْ

* هُنَاكَ أَوْصِينِي وَلَا تُوصِى بِيَهْ *

وقرأ ابن كثير : « ٱسْتَايَسُوا » « وَلَا تَايَسُوا » « إنه لَا يَايَسُ » « أَفَلَمْ يَايَسِ » بألف من غير همز على القلب ؛ قدّمت الهمزة وأخّرت الياء ، ثم قلبت الهمزة ألفا لأنها ساكنة قبلها فتحة؛ والأصل قراءة الجماعة ؛ لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء — يأسا — والإياس ليس بمصدر أَيِسَ ؛ بل هو مصدر أُسْتُهُ أَوْسًا وَإِيَاسًا أى أعطيته . وقال قوم : أَيِسَ وَيَئِسَ لغتان ؛ أى فلما يئسوا من ردّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس، يتناجون فيما عَرَض لهم . والنَّجِىّ فعيل بمعنى المناجى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قال قَتَادة : هو روبيل، كان أكبرهم فى السنّ . مجاهد : هو شمعون، كان أكبرهم فى الرأى . وقال الكلبى : يهوذا ؛ وكان أعقلهم . وقال محمد ابن كعب وابن إسحق : هو لَاوِى ، وهو أبو الأنبياء . ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ

(١) راجع جـ ١١ ص ١١٣ . (٢) هو سحيم بن وثيل اليربوعى يصف قوما أتعبهم السير والسفر فرقدوا على ركابهم واضطربوا عليها ، وشدّ بعضهم على ناقته حذار سقوطه . وقيل : إنما ضربه مثلا لنزول الأمر المهم . والأرشية الحبال التى يستق بها ، والمراد أنه ثابت الجأش . و (أوصينى ولا توصى) بالياء لأنه يخاطب مؤنثا .

Marfat.com

مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أى عهدا من الله فى حفظ ابنه، وردّه إليه . ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ «ما» فى محل نصب عطفا على «أن» والمعنى : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله، وتعلموا تفريطكم فى يوسف؛ ذكره النحاس وغيره . و«من» فى قوله : «وَمِنْ قَبْلُ» متعلقة بـ«تعلموا» . ويجوز أن تكون «ما» زائدة؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما «مِنْ قَبْلُ» و«فِي يُوسُفَ» بالفعل وهو «فَرَّطْتُمْ» . ويجوز أن تكون «ما» والفعل مصدرا، و«مِنْ قَبْلُ» متعلقا بفعل مضمر؛ التقدير: تفريطكم فى يوسف واقع من قبل؛ فما والفعل فى موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذى يتعلق به «مِنْ قَبْلُ» . ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أى الزمها(١)، ولا أبرح مقيما فيها؛ يقال: بَرِحَ بَرَاحًا وبُرُوحا أى زال، فإذا دخل النفى صار مثبتا . ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالرجوع فإنى أستحى منه . ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالممرّ مع أخى فأمضى معه إلى أبى . وقيل : المعنى أو يحكم الله لى بالسيف فأحارب وآخذ أخى، أو أعجز فأنصرف بعذر، وذلك أن يعقوب قال : «لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ» ومن حارب وعجز فقد أحيط به؛ وقال ابن عباس : وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يردّ وجهه مائة ألف؛ يقوم شعره فى صدره مثل المَسَالّ فتنفذ من ثيابه . وجاء فى الخبر أن يهوذا قال لإخوته — وكان أشدّهم غضبا — : إما أن تكفونى الملك ومن معه أكفكم أهل مصر؛ وإما أن تكفونى أهل مصر أكفكم الملك ومن معه؛ قالوا: بل آكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر؛ فبعث واحدا من إخوته فعدّوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق، فأخذ كل واحد منهم سوقا؛ ثم إنّ يهوذا دخل على يوسف وقال : أيها الملك ! لئن لم تخلِّ معنا أخانا لأصيحن صيحة لا تبقى فى مدينتك حاملا إلا أسقطت مافى بطنها؛ وكان ذلك خاصة فيهم عند الغضب؛ فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهوذا واشتدّ غضبه، وانتفجت(٢) شعراته؛ وكذا كان كل واحد من بنى يعقوب؛ كان إذا غضب، اقشعرّ جلده، وانتفخ جسده، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب، حتى تقطر من كل شعرة قطرة دم؛ وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهدّم البنيان، وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم

(١) فى ى : أى من الأرض . (٢) نفجت : ثارت بقوّة .

Marfat.com

والطير إلا وضعت ما فى بطنها، تماما أو غير تمام؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دما، أو تمسكه يدٌ من نسل يعقوب؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تمّ وكمل كلّم ولدا له صغيرا بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كتفى يهوذا من حيث لا يراه؛ ففعل فسكن غضبه (١) وألقى السيف فالتفت يمينا وشمالا لعله يرى أحدا من إخوته فلم يره؛ فخرج مسرعا إلى إخوته وقال: هل حضرنى منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فأين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل؛ فخرج فلقيه، وقد احتمل صخرة عظيمة؛ قال: ما تصنع بهذه؟ قال أذهب إلى السوق الذى وقع فى نصيبى أشدخ بها رءوس كل من فيه؛ قال: فارجع فردّها، أو ألقها فى البحر، ولا تحدثنّ حدثا؛ فوالذى اتخذ إبراهيم خليلا! لقد مسّنى كفّ من نسل يعقوب. ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشدّهم بطشا، فقال: يا معشر العبرانيين! أتظنون أنه ليس أحد أشدّ منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فركله برجله فدحا به من خلف الجدار — الركْل الضرب بالرجل الواحدة؛ وقد ركله يركُله؛ قاله الجوهرى — ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه [لجنبه (٢)]، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بصُواعِه فوضع بين يديه، ثم نقره نقرة فخرج طنينه، فالتفت إليهم وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبى هؤلاء همّ ولا غمّ ولا كرب إلا بسببهم، ثم نقر نقرة ثانية وقال: إنه يخبرنى أن هؤلاء أخذوا أخا لهم صغيرا فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه؛ فقالوا: أيها العزيز! استر علينا ستر الله عليك، وامنن علينا منّ الله عليك؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول: إن هؤلاء طرحوا صغيرهم فى الجُبّ، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله؛ ثم نقره رابعة وقال: إنه يخبرنى أنكم أذنبتم ذنبا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه، ولم تتوبوا إليه، ثم نقره خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذى زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم نقره سادسة وقال إنه يقول: لو كنتم أنبياء أو بنى أنبياء ما كذبتم ولا عققتم والدكم؛ لأجعلنّكم نكالا للعالمين. ايتونى بالحدادين أقطع

(١) فى ى: غيظه. (٢) فى ع وى: بجنبه وفى و: لجنبه.

Marfat.com

أيديهم وأرجلهم ، فتضرعوا وبكوا وأظهروا التـوبة وقالوا : لو قـد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حىّ لنكونن طوع يده ، وترابا يطأ علينا برجله ؛ فلمـا رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم : آخرجوا عنى ! قد خلّيت سبيلكم إكراما لأبيكم، ولولا هو لجعلتكم نكالا .

قوله تعـالى : ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعـالى : ﴿ٱرْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ﴾ قاله الذى قال : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » . ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وقرأ آبن عباس والضّحاك وأبو رزين « إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ » . النحاس : وحدثنى محمد بن أحمد بن عمر قال حدّثنا ابن شاذان(1) قال حدّثنا أحمد بن أبى سُرَيج البغدادىّ قال : سمعت الكسائىّ يقرأ : « يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ » بضم السين وتشديد الراء مكسورة ؛ على مالم يُسمّ فاعله ؛ أى نُسب إلى السرقة ورُمى بها ؛ مثـل خوّنته وفسّقته وفجّرته إذا نسبته إلى هذه الخلال . وقال الزجاج : « سُرِّقَ » يحتمل معنيين : أحدهما ــ علم منه السَّرق، والآخر ــ آتهم بالسَّرق . قال الجوهرى : والسَّرِق والسَّرِقة بكسر الراء فيهما هو آسم الشىء المسروق، والمصدر سَرَق يَسْرِق سَرَقًا بالفتح .

قوله تعـالى : ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَـا عَلِمْنَا﴾ .

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَـا عَلِمْنَا» يريدون ما شهدنا قطّ إلا بما علمنا، وأما الآن فقـد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب ؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين : دَسّ هذا فى رحلى مَن دَسّ بضاعتكم فى رحالكم ؛ قال معناه ابن إسحق . وقيل المعنى : ما شهدنا عنـد يوسف بأن السارق يُسترقّ إلا بمـا علمنا من دينك ؛ قاله آبن زيد . ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أى لم نعلم وقت أخذناه منك أنه يَسْرِق فلا نأخذه . وقال مجاهد وقتادة : ما كنا

(١) هو العباس بن الفضل بن شاذان، كما فى « غاية النهاية » .

Marfat.com

نعلم أن ابنك يُسترق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا: نحفظ أخانا فيما نطيق. وقال ابن عباس: يعنون أنه سَرَق ليلا وهم نيام، والغيب هو الليل بلغة حِمْير؛ وعنه: ما كنا نعلم ما يصنع في ليله ونهاره وذهابه وإيابه. وقيل: ما دام بمرأى منا لم يجر خَلَل، فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته. وقيل معناه: قد أُخذت السِّرقة من رَحْله، ونحن أخرجناها وننظر إليها، ولا علم لنا بالغيب، فلعلهم سَرَّقوه ولم يَسرِق.

الثانية — تضمّنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا، فلا تسمع إلا ممن عَلِم، ولا تقبل إلا منهم، وهذا هو الأصل في الشهادات؛ ولهذا قال أصحابنا: شهادة الأعمى جائزة، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة؛ وكذلك الشهادة على الخطّ — إذا تيقّن أنه خطّه أو خطّ فلان — صحيحة فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به وإن لم يُشهِده المشهود عليه؛ قال الله تعالى: « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[1] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بخير الشهداء خيرُ الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها[2]" وقد مضى في "البقرة".

الثالثة — اختلف قول مالك في شهادة المرور؛ وهو أن يقول: مررت بفلان فسمعته يقول كذا فإن استوعب القول شهد في أحد قوليه، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يُشهداه. والصحيح أداء الشهادة عند الاستيعاب؛ وبه قال جماعة العلماء، وهو الحق؛ لأنه [قد[3]] حصل المطلوب، وتعين عليه أداء العلم؛ فكان خير الشهداء إذا أعلم المشهود له، وشر الشهداء إذا كتمها [والله أعلم[4]].

الرابعة — إذا ادّعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردّت؛ لأنه ادّعى باطلا فأكذبه العِيان ظاهرا.

قوله تعالى: وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٢٢. (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٩٩. (٣) من ع. (٤) من ك ى.

Marfat.com

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ﴾ حقّقوا بها شهادتهم عنده، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم. فقولهم: « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ » أى أهلها ؛ فحُذف؛ ويريدون بالقرية مصر. وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وآمتاروا منها. وقيل المعنى : « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ » وإن كانت جمادا، فأنت نبىّ الله، وهو ينطق الجماد لك[(١)] ؛ وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار؛ قال سيبويه : ولا يجوز كلّم هندا وأنت تريد غلام هند ؛ لأن هذا يُشكل. والقول فى العير كالقول فى القرية سواء. ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى قولنا.

الثانيــة ــ فى هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق، وعلم أنه قد يُظن به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهّم أن يرفع التهمة وكلّ ريبة عن نفسه، ويصرح[(٢)] بالحق الذى هو عليه، حتى لا يبقى لأحد متكلَّم ؛ وقد فعل هذا نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفية يقلبها[(٣)] من المسجد: "على رسلكما إنما هى صفية بنت حُيَىّ" فقالا : سبحان الله ! وكبُر عليهما ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا " رواه البخارى ومسلم.

قوله تعالى : قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أى زيّنت. ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ أن آبنى سَرَق وما سَرَق، وإنما ذلك لأمر يريده الله. ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى فشأنى صبر جميل ؛ أو صبر جميل أولى بى، على ما تقدّم أول السورة.

---

(١) فى ى : أنت نبى والله ينطق الجماد لك.

(٢) كذا فى الأصول. ولعل الواو زائدة فيكون يصرح خبر أن.

(٣) يقلبها : يردّها.

Marfat.com

الثانيــة — الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه فى نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدى [بنبي الله](١) يعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم أجمعين . وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن قَتادة عن الحسن قال : ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحبّ إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء ، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو . وقال ابن جُريج عن مجاهد فى قوله تعالى : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » أى لا أشكو ذلك إلى أحد . وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء ابن أبى رَباح عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ بَثَّ لم يَصْبِر " . وقد تقدّم فى « البقرة »(٢) أن الصبر عند أوّل الصّدمة ، وثواب من ذكر مصيبته وآسترجع وإن تقادم عهدها . وقال جُوَيبر عن الضحّاك عن ابن عباس قال : إن يعقوب أعطى على يوسف أجر مائة شهيد ، وكذلك من آحتسب من هذه الأمة فى مصيبته فله [مثل](٣) أجر يعقوب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ لأنه كان عنده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت ، وإنما غاب عنه خبره ؛ لأن يوسف حُمِل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئا ، ثم آشتراه الملك فكان فى داره لا يظهر للناس ، ثم حُبس ، فلما تمكن آحتال فى أن يعلم أبوه خبره ؛ ولم يُوجّه برسول لأنه كرِه من إخوته أن يعرفوا ذلك فلا يَدَعوا الرسول يَصلُ إليه . وقال : « بهم » لأنهم ثلاثة ؛ يوسف وأخوه ، والمتخلّف من أجل أخيه ، وهو القائل : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بحالى . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فيما يقضى .

قوله تعالى : وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم ؛ وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بنيامين تتامّ حزنه ، وبلغ جهده ، وجدّد الله مصيبته له فى يوسف فقال : ﴿ يَا أَسَفَا

(١) من ع . وفى ى : بأيوب ، بدل يعقوب . وهو من أغلاط الناسخ .
(٢) راجع ج ٢ ص ١٧٤ ، ١٧٥ .   (٣) من ع وك وى .

Marfat.com

عَلَى يُوسُفَ ﴾ ونَسِيَ ٱبنه بنيامين فلم يذكره؛ عن ٱبن عباس . وقال سعيد بن جُبير : لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال : « يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ » . قال قَتادة والحسن : والمعنى يا حزناه[(1)] ! وقال مجاهد والضحّاك : يا جزعاه ! ؛ قال كُثَيِّر :

فيا أسفا للقلب كيف ٱنصرافُهُ ... وللنَّفسِ لمّا سلّيت فتسلّت

والأسف شدّة الحزن على ما فات . والنداء على معنى : تعالَ يا أسف فإنه من أوقاتك. وقال الزجاج : الأصل يا أسفي ؛ فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة . ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ قيل : لم يبصر بهما ست سنين، وأنه عَمِيَ ؛ قاله مقاتل . وقيل : قد تبيضّ العين ويبقى شيء من الرؤية، والله أعلم بحال يعقوب ؛ وإنما ٱبيضّت عيناه من البكاء، ولكن سبب البكاء الحزن، فلهذا قال : « مِنَ الْحُزْنِ » . وقيل : إن يعقوب كان يصلّي، ويوسف نائما معترضا بين يديه، فَغَطّ في نومه، فالتفت يعقوب إليه، ثم غَطّ ثانية فالتفت إليه، ثم غَطّ ثالثة فالتفت إليه سرورا به وبغطيطه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ملائكته : « ٱنظروا إلى صَفِيِّ وٱبن خليلي قائما في مناجاتي يلتفت إلى غيري، وعِزّتي وجَلالي ! لأنزعنّ الحدقتين اللتين التفت بهما، ولأفرقنّ بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة ؛ ليعلم العاملون أن من قام بين يديّ يجب عليه مراقبة نظري » .

الثانيـــة ــ هذا يدلّ على أن الالتفات في الصلاة ــ وإن لم يُبطل ــ يدلّ على العقوبة عليها، والنقص فيها، وقد روى البخاري عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصـلاة فقال : " هو ٱختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد " . وسيأتي ما للعلماء في هذا في أوّل سورة « المؤمنون » موعبا إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة ــ قال النحاس : فإن سأل قوم عن معنى شـدّة حزن يعقوب ــ صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا ــ فللعلماء في هــذا ثلاثة أجوبة : منهـا ــ أن يعقوب صلى الله عليه وسلم لما علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم حيّ خاف على دِينه، فاشتدّ حزنه لذلك . وقيل : إنما حزن لأنه سلّمه إليهم صغيرا، فندم على ذلك . والجواب الثالث ــ وهو أبينُها ــ هو أن

(1) في و ى : واحزناه .

Marfat.com

الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الوَلْولة وشقّ الثياب، والكلام بما لا ينبغي . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الربّ". وقد بيّن الله جلّ وعزّ ذلك بقوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثّه؛ ومنه كَظْم الغيظ وهو إخفاؤه؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال الله تعالى : « إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ »(١) أي مملوء كربا . ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم ؛ وهو المشتمل على حزنه . وعن ابن عباس : كظيم مغموم ؛ قال الشاعر :

فإنْ أَكُ كاظِماً لِمُصَابِ شَاسٍ * فإنى اليومَ مُنطلقٌ لسانى

وقال ابن جُريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : ذهبت عيناه من الحزن « فَهُوَ كَظِيمٌ » قال : فهو مكروب . وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس فى قوله : « فَهُوَ كَظِيمٌ » قال : فهو كَمِد؛ يقول : يعلم أن يوسف حيّ، وأنه لا يدرى أين هو ؛ فهو كَمِد من ذلك . قال الجوهري : الكَمَد الحزن المكتوم ؛ تقول منه كَمِد الرجلُ فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ . النحاس . يقال فلان كظيم وكاظم؛ أى حزين لا يشكو حزنه؛ قال الشاعر :

فحضضتُ قومى واحتسبتُ قتالَهُم * والقومُ من خوف المنَايا كُظَّم

قوله تعالى : قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أى قال له ولده : « تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ » قال الكسائى : فَتَأْتُ وفَتِئْتُ أفعل ذلك أى مازلتُ . وزعم الفراء أن « لا » مضمرة؛ أى لا تفتأ ، وأنشد(٢) :

فقلتُ يمينُ الله أبرحُ قاعِدًا * ولو قطعُوا رأسى لديك وأوصالى

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٣ . (٢) البيت لامرئ القيس و« يمين » بالرفع على الابتداء وإضمار الخبر؛ والتقدير : يمين الله لازمى ؛ وبالنصب على إضمار فعل ، وهو كثير فى كلام العرب كقولهم : أمانة الله . وقد وصف أنه طرق محبوبته تخوفته الرقباء ، وأمرته بالانصراف ، فقال لها هذا ، وأراد : لا أبرح فحذف « لا » . والأوصال (جمع وصل) وهى المفاصل .

Marfat.com

أى لا أبرح؛ قال النحاس : والذى قال حسن صحيح . وزعم الخليل وسيبويه أن «لا» تضمر فى القسم ،لأنه ليس فيه إشكال؛ولو كان واجبا[1] لكان باللام والنون؛ وإنما قالوا له ذلك لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك؛ يقال : ما زال يفعـل كذا، وما فتئ وفَتَأَ فهما لغتان ، ولا يستعملان إلا مع الجحد قال الشاعر[2] :

فما فتئت حتى كأن غُبَارَها[3] * سُرَادِقُ يومٍ ذى رياحٍ تُرَفَّعُ

أى ما برحت فتفتأ تبرح . وقال آبن عباس : تزال . ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أى تالفا .

وقال آبن عباس ومجاهد : دَنفا من المرض ، وهو ما دون الموت ؛ قال الشاعر :

سَــرَى هَمِّى فأمرضَـنى * وقِـــدْمًا زادنى مَرَضَـا

كذاكَ الحبُّ قبـلَ اليـو * مِ ممَّـا يُورِثُ الحَـرَضَا

وقال قَتَادة : هرِما . الضحّاك : باليًا دائرًا . محمد بن إسحق : فاسدا لاعقل لك . الفراء : الحارض الفاسد الجسم والعقل؛ وكذا الحَرَض.ابن زيد: الحَرَض الذى قد رُدّ إلى أرذل العمر. الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم . المؤرِّج : ذائبا من الهم . وقال الأخفش : ذاهبا. آبن الأنبارىّ : هالكا، وكلها متقاربة . وأصل الحَرَض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم، عن أبى عُبيدة وغيره ؛ وقال العَرْجىّ :

إنى آمرُؤٌ لَجَّ بى حُبٌّ فأحْرَضَـنِى * حتى بَلِيتُ وحتى شَـــفَّنِى السَّقَمُ

قال النحاس : يقـال حَرَض حَرَضًا وحَرُض حُرُوضا وحُرُوضـة إذا بلِى وسـقم ، ورجل حارِض وحَرَض ، إلا أن حَرَضا لايثنّى ولا يجمع ، ومثله قَمِن وحَرِىّ لا يثنيان ولا يجمعان . الثعلبىّ : ومن العرب من يقول حارِض للذكر، والمؤنثة حارِضة، فإذا وصف بهذا اللفظ ثنّى وجمع وأنّث . ويقال : حَرِض يحرَض حَرَاضَةً فهو حَرِيض وحَرِضٌ. ويقال : رجل مُحْرَض، ويُنْشَـــد :

طَلَبَتْـهُ الخيلُ يومًا كاملا * ولَوْ آلفَتْهُ لأضحَى مُحْرَضَـا

(١) فى ع : موجبا . (٢) هو أوس بن حجر التميمى الجاهلى . (٣) الضمير للخيـل .

Marfat.com

وقال امرؤ القيس :

أَرَى المرءَ ذا الأذْوَادِ يُصبِحُ مُحْرَضًا * كإحْرَاضِ بِكْرٍ في الدِّيارِ مَرِيضِ (١)

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهمّ إذا أسقمه، ورجل حارض أى أحمق . وقرأ أنس : «حُرُضا» بضم الحاء وسكون الراء، أى مثل عود الأشنان . وقرأ الحسن بضم الحاء والراء . قال الجوهرى : الحَرَض والحُرُض الأشنان . ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أى الميتين، وهو قول الجميع؛ وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقةً عليه، وإن كانوا السبب فى ذلك .

قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ حقيقة البثّ فى اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التى لا يتهيأ له أن يخفيها؛ وهو من بثثته أى فرقته، فسميت المصيبة بَثًّا مجازا، قال ذو الرُّمّة :

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي * فما زِلْتُ أَبْكِي عِندهُ وأُخَاطِبُهْ
وأُسْقِيهِ (٢) حتى كاد مما أُبِثُّهُ * تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

وقال ابن عباس : « بَثّي » همّي . الحسن : حاجتى . وقيل : أشد الحزن، وحقيقته ما ذكرناه . ﴿وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ معطوف عليه، أعاده بغير لفظه . ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأنى سأسجد له . قاله ابن عباس . قتادة : إنى أعلم من إحسان الله تعالى إلىّ ما يوجب حسن ظنّى به . وقيل : قال يعقوب لملك الموت هل قبضت روح يوسف ؟ قال : لا، فأكد هذا رجاءه . وقال السدى : أعلم أن يوسف حىّ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وخُلُقه وقوله أحسّت نفس يعقوب أنه ولده فطمع، وقال : لعله يوسف . [وقال : لا يكون فى الأرض صديق إلا نبىّ . وقيل : أعلم من إجابة دعاء المضطرين ما لا تعلمون (٣)] .

قوله تعالى : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

(١) الأذواد : جمع ذود، وهو القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع . والبكر : الفتى من الإبل؛ يقول : أرى المرء ذا المال يدركه الهرم والمرض، والفناء بعد ذلك فلا تغنى كثرة ماله، كما أن البكر يدركه ذلك .

(٢) أسقيه أدعو له بالسقيا . (٣) من و و ي .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ هذا يدل على أنه تيقن حياته ؛ إما بالرؤيا ، وإما بإنطاق الله تعالى الذئب كما فى أول القصة ، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض رُوحه ؛ وهو أظهر . والتَّحسُّس طلب الشيء بالحواسّ ؛ فهو تفعّل من الحسّ ، أى اذهبوا إلى هذا الذى طلب منكم أخاكم ، واحتال عليكم فى أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه . ويروى أن ملك الموت قال له : اطلبه من هاهنا ! وأشار إلى ناحية مصر . وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف بردّ البضاعة ، واحتباس أخيه ، وإظهار الكرامة ؛ فلذلك وجّههم إلى جهة مصر دون غيرها . ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾ أى لا تقنطوا من فرج الله ؛ قاله ابن زيد ؛ يريد : أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط فى الشدّة . وقال قتادة والضحاك : من رحمة الله . ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ دليل على أن القنوط من الكبائر ، وهو اليأس ، وسيأتى فى « الزُّمَر »(1) بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ أى الممتنع . ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر ؛ وفى الكلام حذف ، أى فخرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف قالوا : « مَسَّنَا » أى أصابنا « وَأَهْلَنَا الضُّرُّ » أى الجوع والحاجة ؛ وفى هذا دليل على جواز الشكوى عند الضُّر ، أى الجوع ؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضّر من الفقر وغيره أن يبدى حالته إلى من يرجو منه النفع ؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه ؛ ولا يكون ذلك قدحا فى التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكّى على سبيل التسخط ؛ والصبر والتجلد فى النوائب أحسن ، والتعفف عن المسألة أفضل ؛ وأحسن الكلام

(1) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٧ .

Marfat.com

فى الشكوى سؤال المولى زوال البلوى ؛ وذلك قول يعقوب : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى من جميل صنعه ، وغريب لطفه ، وعائدته على عباده ؛ فأما الشكوى على غير مُشْكٍ فهو السَّفه ، إلا أن يكون على وجه البثّ والتسلّى ؛ كما قال ابن دُرَيْد :

لَا تَحْسَبَنْ يا دهرُ أَنِّى ضارعٌ * لِنَكْبَةٍ تَعْرِقُنِى عَرْقَ المُدَى
مَارَسْتَ مَنْ لَوْ هَوَتِ(١) الأفلاكُ مِنْ * جَوَانِبِ الجوّ عليه ما شَكَا
لكنّها نَفْثَةُ مَصْدُورٍ إذا * جَاشَ لُغَامٌ(٢) مِن نَوَاحِيهَا غَمَا

قوله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ﴾ البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شىء ؛ تقول : أبضعت الشىء واستبضعته أى جعلته بضاعة ؛ وفى المثل : كمستبضع التمر إلى هَجَر(٣) .

قوله تعالى : ﴿ مُزْجَاةٍ ﴾ صفة لبضاعة ؛ والإزجاء السَّوْق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَابًا(٤) » والمعنى أنها بضاعة تدفع ؛ ولا يقبلها كل أحد . قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . آختلف فى تعيينها هنا(٥) ؛ فقيل : كانت قديدًا وحيسا(٦) ؛ ذكره الواقدىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وقيل : خَلَقُ الغرائر والحبال ؛ روى عن ابن عباس . وقيل : متاع الأعراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث . وقيل : الحبة الخضراء والصَّنوبر وهو البُطْم ، حبّ شجرٍ بالشام ، يؤكل و يعصر الزيت منه لعمل الصابون ؛ قاله أبو صالح ؛ فباعوها بدراهم لا تَنفُق فى الطعام ، وتَنفُق فيما بين الناس ؛ فقالوا : خذها منا بحساب جيادٍ تَنفُق فى الطعام . وقيل : دراهم رديئة ؛ قاله ابن عباس أيضا . وقيل : ليس عليها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف . وقال الضحاك : النعال والأدم ؛ وعنه : كانت سويقا منخلا . والله أعلم .

---

(١) من ع .
(٢) الزبد ؛ وهو ما يلقيه البعير من فمه ؛ وغما : سقط ؛ يقال : غما البعير الزبد إذا رماه ينفض رأسه ومشفره .
(٣) هجر : مدينة بالبحرين .
(٤) راجع جـ ١٢ ص ٢٨٧ .
(٥) من ع و ى .
(٦) كذا فى الأصول وفى البحر : قديد وحش .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ .

فيــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : «فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ» يريدون كما تبيع بالدراهم الجياد لاتنقصنا بمكان دراهمنا ؛ هذا قول أكثر المفسرين . وقال ابن جريج : « فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ » يريدون الكيل الذى كان قـد كاله لأخيهم . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى تفضل علينا بمـا بين سعر الجياد والرديئة . قاله سعيد بن جُبير والسدى والحسن : لأن الصدقة تحرم على الأنبياء . وقيل المعنى: « تَصَدَّقْ عَلَيْنَا » بالزيادة على حقّنا ؛ قاله سفيان بن عُيَيْنة . قال مجاهد : ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليــه وسلم . وقال آبن جُريج : المعنى « تَصَــدَّقْ عَلَيْنَا » بردّ أخينا إلينا . وقال آبن شجرة : « تَصَدَّقْ عَلَيْنَا » تجوّز عنا؛ وآستشهد بقول الشاعر :

تَصدّقْ علينا يا آبن عفّان[(١)] وآحتَسِبْ ۞ وأمّر علينـا الأشـــعرىّ ليـالِيَا

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ يعنى فى الآخرة؛ يقال: هذا من مَعاريض الكلام؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يجزيك بصدقتك ، فقالوا لفظا يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجه بالتأويل؛ قاله النقاش وفى الحديث : " إن فى المعاريض[(٢)] لمندوحةً عن الكذب " .

الثانيــــة ــ آستدلّ مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيّال على البائع ؛ قال آبن القاسم وآبن نافع قال مالك : قالوا ليوســف « فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ » فكان يوسف هو الذى يكيل، وكذلك الوزّان والعدّاد وغيرهم، لأن الرجل إذا باع عِدّة معلومة من طعامه ، وأوجب العقد عليه ، وجب عليــه أن يبرزها ويميّز حق المشترى من حقه، إلا أن يبيع منه مُعيّنا ــ صبرة[(٣)] أو مالا حقّ توفية فيه ــ فخلّى [ما[(٤)]] بينه وبينه، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن؛ ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية، وإن تلف فهو منه قبل التوفية .

(١) فى ى : يا بن حسان . (٢) المعاريض : جمع معراض ، من التعريض وهو خلاف التصريح من القول .
(٣) الصبرة : الطعام المجتمع كالكومة . (٤) من ع .

Marfat.com

الثالثة — وأما أجرة النقد فعلى البائع أيضا؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول: إنها طيّبة، فأنت الذى تدّعى الرداءة فآنظر لنفسك؛ وأيضا فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه، وكذلك لايجب على الذى [يجب] (١) عليه القصاص؛ لأنه لايجب عليه أن يقطع يد نفسه، إلا أن يمكن من ذلك طائعا؛ ألا ترى أن فرضا عليه أن يفدى يده، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه، فأجر القطاع على المقتص. وقال الشافعى فى المشهور عنه: إنها على المقتص منه كالبائع.

الرابعة — يكره للرجل أن يقول فى دعائه: اللهم تصدّق علىّ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغى الثواب، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا ربّ غيره؛ وسمع الحسن رجلا يقول: اللهم تصدّق علىّ؛ فقال الحسن: يا هذا! إن الله لا يتصدّق إنما يتصدّق من يبتغى الثواب؛ أما سمعت قول الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ» قل: اللهم أعطنى وتفضّل علىّ.

قوله تعالى: قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: «قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ» آستفهام بمعنى التذكير والتوبيخ، وهو الذى قال الله (٢): «لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا» الآية (٣). «إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ» دليل على أنهم

(١) من ع و و ى.　(٢) أى تصديق قول الله، كما فى تفسير الفخر وفى ع: قال الرب.
(٣) من ع.

Marfat.com

كانوا صغارا فى وقت أخذهم ليوسف، غير أنبياء؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ ويدلّ على أنه حسنت حالهم الآن؛ أى فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال؛ قال معناه ابن عباس والحسن؛ ويكون قولهم: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» على هذا، لأنهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفا منه. وقيل: جاهلون بما تؤول إليه العاقبة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ لما دخلوا عليه فقالوا: «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» فخضعوا له وتواضعوا رق لهم، وعرفهم بنفسه، فقال: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ» فتنبهوا فقالوا: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ» قاله ابن إسحق. وقيل: إن يوسف تبسّم فشبهوه بيوسف وآستفهموا. قال ابن عباس لما قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ» الآية، ثم تبسم يوسف — وكان إذا تبسم كأنّ ثناياه اللؤلؤ المنظوم — فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الآستفهام: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ». وعن ابن عباس أيضا: أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان فى قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شِبْه الشامة، فلما قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ» رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ». وقال ابن عباس: كتب يعقوب إليه يطلب ردّ آبنه، وفى الكتاب: من يعقوب صفىّ الله آبن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر — أما بعد — فإنّا أهل بيت بلاء ومِحَن، ابتلى الله جدّى إبراهيم بنمروذ وناره، ثم ابتلى أبى إسحق بالذبح، ثم آبتلانى بولد كان لى أحبّ أولادى إلىّ حتى كُفّ بصرى من البكاء، وإنى لم أسرق ولم ألِدْ سارقا والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب آرتعدت مفاصله، واقشعر جلده، وأرخى عينيه بالبكاء، وعِيل صبره فباح بالسرّ. وقرأ ابن كثير «إِنَّكَ» على الخبر، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله: «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ»[1]. ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ أى أنا المظلوم والمراد قتله، ولم يقل أنا هو تعظيما للقصة. ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أى بالنجاة والملك. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أى يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصى. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى الصابرين فى بلائه، القائمين بطاعته. وقرأ آبن كثير: «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي» بإثبات الياء؛ والقراءة بها جائزة على أن تجعل

(١) راجع ج ١٣ ص ٩٣.

Marfat.com

«مَنْ» بمعنى الذى، وتدخل «يتَّقِ» فى الصلة، فتثبت الياء لا غير، وترفع «ويصبر». وقد يجوز أن تجزم «ويصبر» على أن تجعل «يتق» فى موضع جزم و«من» للشرط، وتثبت الياء، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التى كانت فى الياء على الأصل؛ كما قال:

ثم نادِى إذا دَخلتَ دِمَشْقًا * يا يزيدُ بنَ خالدِ بنِ يزيد

وقال آخر:

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِى * بما لاقَتْ لَبُونُ بنِى زيادِ

وقراءة الجماعة ظاهرة، والهاء فى «إِنَّهُ» كناية عن الحديث، والجملة الخبر.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الأصل همزتان خففت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، واسم الفاعل مُؤثِر، والمصدر إيثار. ويقال: أثَرْتُ التراب إثارةً فأنا مُثير؛ وهو أيضا على أَفْعَل ثم أُعِلّ، والأصل أَثْيَر(١) نقلت حركة الياء على الثاء، فانقلبت الياء ألفا، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. وأَثَرْتُ الحديث على فَعَلْتُ فأنا آثِر؛ والمعنى: لقد فضّلك الله علينا، واختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك. ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أى مذنبين من خَطِئ يَخْطَأ إذا أتى الخطيئة، وفى ضمن هذا سؤال العفو. وقيل لابن عباس: كيف قالوا «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» وقد تعمدوا لذلك؟ قال: وإن تعمّدوا لذلك، فما تعمدوا حتى أخطئوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تخطّى المنهاج الذى عليه من الحق، حتى يقع فى الشبهة والمعصية.

قوله تعالى: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أى قال يوسف — وكان حليما موفّقا —: «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» وتمّ الكلام. ومعنى «اليوم»: الوقت. والتثريب التعيير والتوبيخ، أى لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثورى وغيره؛ ومنه قوله عليه السلام: "إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يُثَرِّب عليها" أى لا يعيرها؛ وقال بشر:

فعَفَوتُ عنهم عفوَ غيرِ مُثَرِّبٍ * وتركتهم لعقابِ يومٍ سَرْمَدِ

(١) كذا فى الأصل وإعراب القرآن للنحاس. ويلاحظ أن عين الفعل واو لا ياء، وعليه فالأصل أنور، نقلت حركة الواو إلى ما قبلها فقلبت ألفا، ثم حذفت — عند اتصال الفعل بضمير متحرك — لالتقاء الساكنين.

Marfat.com

وقال الأصمعي : ثَرَّبْتُ عليه وعَرَّبْتُ عليه بمعنى إذا قبحتَ عليه فعله . وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة ، وحقّ الإخوة ، ولكم عندي العفو والصفح ؛ وأصل التثريب الإفساد ، وهي لغة أهل الحجاز . وعن ابن عباس أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتي الباب يوم فتح مكة ، وقد لاذ النـاسُ بالبيت فقال : " الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده " ثم قال : " ماذا تظنون يامعشر قريش " قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقـد قدرت ، قال : " وأنا أقـول كما قال أخي يوسف «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» " فقال عمر رضي الله عنه : ففضتُ عرقا من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذلك أني قـد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة : اليـوم ننتقم منكم ونفعل ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال آستحييت من قولي . ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ مستقبل فيـه معنى الدعاء ؛ سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم . وأجاز الأخفش الوقف على « عَلَيْكُمْ » والأول هو المستعمل ؛ فإن في الوقف على «عليكم» والابتداء بـ «الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» جزم بالمغفرة في اليوم ، وذلك لا يكون إلا عن وحي ، وهـذا بيّن . وقال عطاء الخراساني : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ؛ ألم تر قول يوسف : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ » وقال يعقوب : « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » .

قوله تعالى : ﴿ آذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ نعت للقميص ، والقميص مذكر ، فأما قول الشاعر[(1)]:

تَدعو هَوازِنُ والقميصُ مُفاضَةٌ * فوق النِّطاقِ تُشَدُّ بالأزرارِ

فتقديره : [والقميص][(2)] دِرعٌ مُفاضةٌ . قاله النحاس . وقال ابن السدي عن أبيه عن مجاهد : قال لهم يوسف : «آذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا » قال : كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدّ على يعقوب بصره ، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذي ألبسه الله في النـار من حرير الجنـة ، وكان كساه إسحق ، وكان إسحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص في قَصَبة من فضة وعلّقه في عُنق يوسف ، لِمـا كان يخاف عليـه من

(١) هو جرير . (٢) الزيادة عن النحاس .

Marfat.com

العين ، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة ، و[أن][1] ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مُبتلًى إلا عُوفي[1] . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره ، وكان الذى حمل قميصه يهوذا ، قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته ، وأنا الذى أحمله الآن لأسره ، وليعود إليه بصره فحمله ؛ حكاه السدي . ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لتتخذوا مصر دارا . قال مسروق : فكانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة . وقد قيل : إن القميص الذى بعثه هو القميص الذى قد من دُبره ، ليعلم يعقوب أنه عُصِم من الزنى ؛ والقول الأول أصح ، وقد روى مرفوعا من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره القُشَيْرى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ أى خرجت منطلقة من مصر إلى الشام ، يقال : فَصَلَ فُصولا ، وفَصَلْتُه فَصْلًا ، فهو لازم ومتعد . ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أى قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ . وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه ، فقال لمن بقى : « إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » . قال ابن عباس : هاجت[2] ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه ، وبينهما مسيرة ثمان ليال . وقال الحسن : مسيرة عشر ليال ؛

(١) من ى . (٢) فى ى : هبت .

وعنه أيضا مَسيرة شهر . وقال مالك [بن أنس](١) رضي الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتدّ إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد : هبّت ريح فصَفَقَت(٢) القميص فراحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فعند ذلك قال : « إِنِّى لَأَجِدُ » أي أشم ؛ فهو وجود بحاسة الشم . ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : لولا أن تُسفّهون ؛ ومنه قول النابغة :

إلّا سُـليمان إذ قال المليـكُ لَهُ * قُمْ في البريّة فآحْدُدْها عن الفَنَدِ(٣)

أي عن السَّفَه . وقال سعيد بن جُبير والضحاك : لولا أن تكذّبون . والفَنَد الكذب . وقد أَفْنَد إِفْنادا كَذَب ؛ ومنه قول الشاعر :

هل في آفتـخار الكريم من أَوَدِ(٤) * أَمْ هل لقول الصَّدُوق من فَنَدِ

أي من كذب . وقيل : لولا أن تُقَبِّحون ؛ قاله أبو عمرو ؛ والتّفنيد التقبيح ، قال الشاعر :

يا صاحبيّ دعا لومي وتَفْنِيدِي * فليس ما فاتَ مِن أمري بمردودِ

وقال آبن الأعرابي : « لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » لولا أن تُضعّفوا رأيي ؛ وقاله ابن إسحق . والفند ضعف الرأي من كِبر . وقول رابع : تُضلّلون ، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلوموني ؛ والتفنيد اللوم وتضعيف الرأي . وقال الحسن وقَتادة ومجاهد أيضا : تُهرِّمون ؛ وكله متقارب المعنى ، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي ؛ يقال : فَنّده تفنيدا إذا أعجزه ، كما قال :

* أهلكني باللوم والتفنيد *

ويقال : أفند إذا تكلم بالخطأ ؛ والفند الخطأ في الكلام والرأي ، كما قال النابغة :

* ... فآحددها عن الفَنَد *

أي آمنعها عن الفساد في العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد ؛ قال الشاعر :

يا عاذليّ دَعَا المَـلَامَ وأَقْصِرَا * طالَ الهـوَى وأطلتما التّفْنِيـدا

---

(١) من روى .   (٢) صفقت الريح الشيء ، وصفقته إذا قلبته يمينا وشمالا وردّدته .

(٣) شبه الشاعر النعمان بسيدنا سليمان عليه السلام لعظم ملكه ؛ وقبل البيت :

ولا أرى فاعلا في النـاس يشبهه * ولا أحاشي من الأقوام من أحد

وروى : فأرددها . وآحددها : احبسها . والفند أيضا الخطأ في الرأي . والظلم أيضا .   (٤) أود : عوج .

Marfat.com

ويقال : أَفْنَدَ فلاناً الدهرُ إذا أفسده ؛ ومنه قول ابن مُقْبِل :

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ ما أَرادَ فإنَّهُ * إذا كُلِّفَ الإفنادَ بالناس أَفْنَدَا

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ أى لفى ذهاب عن طريق الصواب . وقال ابن عباس وابن زيد : لفى خطئك الماضى من حبّ يوسف لا تنساه . وقال سعيد ابن جُبير : لفى جنونك القديم . قال الحسن : وهذا عقوق . وقال قَتادة وسفيان : لفى محبتك القديمة . وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات . وقيل : إن الذى قال له ذلك من بقى معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر . وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقرابته . وقيل : بنو بنيه وكانوا صغارا ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أى على عينيه . ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾ «أَنْ» زائدة ، والبشير قيل هو شمعون . وقيل : يهوذا قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به مُلَطَّخا بالدّم ؛ قاله ابن عباس . وعن السدّى أنه قال لإخوته : قد علمتم أنى ذهبت إليه بقميص التَّرْحة فدعونى أذهب إليه بقميص الفَرْحة . وقال يحيى بن يمان عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أىّ دِينٍ تركت يوسف؟ قال : على الإسلام ؛ قال : الآن تمت النعمة ؛ وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئا يُثِيبه به ؛ فقال : والله ما أصبتُ عندنا شيئا ، وما خبزنا شيئا منذ سبع ليال ، ولكن هوّن الله عليك سكراتِ الموت .

قلت : وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز ، وأفضل العطايا والذخائر . ودلّت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر . وفى الباب حديث كعب بن مالك — الطويل — وفيه : « فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشّرنى نزعت ثوبىّ فكسوتهما إياه ببشارته » وذكر الحديث ، وقد تقدّم بكماله فى قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا[1] ، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ٱرتجى حصول ما يستبشر به ، وهو دليل على

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٨٢ فما بعد .

Marfat.com

جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والترح . ومن هذا الباب جواز حذاقة[1] الصبيان، و إطعام الطعام فيها ؛ وقد نحر عمر بعد [حفظه][2] سورة « البقرة » جزورا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذكّرهم قوله : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ في الكلام حذف ، التقدير: فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا ؛ وهذا يدلّ على أن الذى قال له : « تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لا ولده ؛ فإنهم كانوا غُيَّبا ، وكان يكون ذلك زيادة في العقوق . والله أعلم . و إنما سألوه المغفرة ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله .

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما فى نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له ؛ فإنه يجب عليه أن يتحلّل[3] له و يخبره بالمظلمة[4] وقدرها ؛ وهل ينفعه التّحليل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدْر وبالٌ ر بما لم تطب نفس المظلوم فى التّحلل منها . والله أعلم . وفى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت له مَظلِمة لأخيه من عِرضه أو شيء فليحلّله منه اليوم قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مَظلمته و إن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه " قال المهلّب فقوله صلى الله عليه وسلم : " أُخذ منه بقدر مَظلمته " يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارا إليها مبيّنة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ قال ابن عباس : أخّر دعاءه إلى السَّحر . وقال المُثَنَّى بن الصَّبَّاح عن طاوس قال : سحَرَ ليلة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفى دعاء الحفظ — من كتاب الترمذى — عن ابن عباس أنه قال : بينما نحن عند رسول الله

---

(١) حذق الغلام القرآن : مهر فيه . فى ع : جواز الفرح بحذاق الصبيان . (٢) من ا ، ع ، ك ، و ، ى . (٣) فى ع و ك : منه . (٤) مظلمة (بكسر اللام) وحكى فتحها .

صلى الله عليه وسلم إذ جاءه عليّ بن أبي طالب — رضي الله عنه — فقال : — بأبي أنت وأمّي — تَفَلّتَ هذا القرآنُ من صدري، فما أجدني أقدر عليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفلا أعلمك كلماتٍ ينفعُكَ اللهُ بهنّ وينفعُ بهنّ من علّمتَه ويُثبِّت ما تعلمتَ في صدرك" قال : أجل يا رسول الله! فعلّمني؛ قال : "إذا كان ليلة الجمعة فإن ٱستطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخي يعقوب لبنيه «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» يقول حتى تأتي ليلة الجمعة" وذكر الحديث . وقال أيوب بن أبي تميمة السَّخْتِيَاني عن سعيد بن جُبير قال : «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» في الليالي البيض، في الثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب . وعن عامر الشّعبي قال : «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» أي أسأل يوسف إن عفا عنكم ٱستغفرت لكم ربي؛ وذكر سُنَيد بن داود قال : حدّثنا هشيم قال حدّثنا عبد الرحمن بن إسحق عن محارب بن دِثَار عن عمّه قال : كنت آتي المسجد في السَّحر فأمرّ بدار ٱبن مسعود فأسمعه يقول : اللهم إنك أمرتني فأطعت، ودعوتني فأجبت، وهذا سَحَرٌ فٱغفر لي، فلقيت ٱبن مسعود فقلت : كلمات أسمعك تقولهنّ في السحر؟ فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السَّحَر بقوله : «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي قصرًا كان له هناك . ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قيل : إن يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة وجهازا، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعا؛ فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه، أي ضمّ؛ ويعني بأبويه أباه وخالته، وكانت أمّه قد ماتت في ولادة أخيه بنيامين . وقيل : أحيا الله [له][(1)] أمّه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له، قاله الحسن؛ وقد تقدّم في «البقرة» أن الله تعالى أحيا لنبيه عليه السلام أباه وأمه فآمنا به .

قوله تعالى : ﴿ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ قال ٱبن جريج : أي سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله؛ قال : وهذا من تقديم القرآن وتأخيره؛ قال النحاس : يذهب ٱبن جُرَيج إلى أنهم قد دخلوا مصر فكيف يقول : «ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» . وقيل : إنما قال : «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» تبرّكًا وجزمًا . «آمنين» من القَحْط، أو من فرعون؛ وكانوا لا يدخلونها إلا بجوازه .

(1) من ا ع و ى .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَـرْشِ ﴾ قال قَتادة : يريد السَّرير، وقد تقدّمت محامله ؛ وقد يُعبر بالعرش عن المُلْك والمَلِك نفسه ؛ ومنه قول النابغة الذّبيانيّ :

* عُروشٌ تفانَوْا بعد عِزٍّ وأَمْنَةٍ *

وقد تقدّم[1] .

قوله تعـالى : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » الهاء في « خَرُّوا لَهُ » قيل : إنها تعود على الله تعالى؛ المعنى : وخرّوا شكرا لله سجدا ؛ و يوسف كالقِبْلة لتحقيق رؤياه، ورُوى عن الحسن ؛ قال النّقاش : وهذا خطأ ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى في أوّل السورة : « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » . وكان تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف ، والصغير للكبير؛ سجد يعقوب وخالته وإخوته ليوسف عليه السلام، فاقشعر جلده وقال : «هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ» وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرون سنة . وقال سلمان الفارسيّ وعبد الله بن شدّاد : أربعون سنة؛ قال عبد الله بن شـدّاد : وذلك آخر ما تبطئ الرؤيا . وقال قَتادة : خمس وثلاثون سنة . وقال السدّي وسعيد بن جُبير وعِكرمة : ست وثلاثون سنة . وقال الحسن وجسر ابن فَرْقَد وفُضَيل بن عِياض : ثمانون سنة . وقال وهب بن مُنبِّه : أُلقي يوسف في الجبّ وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمـانين سنة، وعاش بعد أن التقي بأبيه ثلاثا وعشرين

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٠ .

Marfat.com

سنة، ومات وهو آبن مائة وعشرين سنة . وفى التوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من آمرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورحمة آمرأة أيوب . وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة . وقيل : إن يعقوب بقى عند يوسف عشرين سنة ، ثم توفى صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقام عنده ثمانى عشرة سنة . وقال بعض المحدّثين : بضعا وأربعين سنة ؛ وكان بين يعقوب و يوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله . وقال آبن إسحق : ثمانى عشرة سنة ، والله أعلم .

الثانيـة — قال سعيد بن جُبير عن قَتَادة عن الحسن — فى قوله : « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » — قال : لم يكن سجودا ، لكنه سنة كانت فيهم ، يُومئون برءوسهم إيماء ، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثورى والضحّاك وغيرهما : كان سجودا كالسجود المعهود عندنا ، وهو كان تحيتهم . وقيل : كان آنحناء كالركوع ، ولم يكن خرورا على الأرض ، وهكذا كان سلامهم بالتكفّى والآنحناء ، وقد نسخ الله ذلك كله فى شرعنا ، وجعل الكلام بدلا عن الآنحناء . وأجمع المفسّرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة ؛ قال قَتَادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

قلت : هـذا الآنحناء والتكفّى الذى نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية ، وعند العجم ، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض ؛ حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد فى نفسه كأنه لا يُؤبه به ، وأنه لا قدر له ؛ وكذلك إذا آلتقوا آنحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثة مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء . نَكَبوا عن السُّنَن ، وأعرضوا عن السُّنَن . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول ! أينحنى بعضنا الى بعض إذا آلتقينا ؟ قال : " لا " ؛ قلنا : أفيعتَنق بعضنا بعضا ؟ قال " لا " . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضا ؟ قال " نعم " . خرّجه أبو عمر فى « التمهيد » فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قوموا إلى سيّدكم وخَيْرِكم " — يعنى سعد بن معاذ — قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعيّنة ؛ وقد قيل : إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار ؛ وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثّر ذلك في نفسه ، فإن أثّر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظا لم يجزعوْنه على ذلك ؛

Marfat.com

لقوله صلى الله عليـه وسلم : " من سره أن يتمثّل له الناس قياما فليتبوّأ مقعده من النار".
وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهٌ أكرَم عليهم من وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه، لمـا يعرفون من كراهته لذلك .

الثالثـــة — فإن قيـل : فما تقول فى الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك جائز إذا بَعـد
عنك ، لتعيّن له به وقت السلام ، فإن كان دانيًا فلا ؛ وقد قيـل بالمنع فى القرب والبعـد ؛
لمـا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من تَشبَّه بغيرنا فليس منا" . وقال :
" لا تُسلِّموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكُفّ والنّصارى بالإشارة" . وإذا
سـلَّم فإنه لا يَنحنى، ولا أن يُقبِّل مع السّلام يده ، ولأن الآنحناء على معنى التواضـع لا ينبغى
إلا لله . وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أفعالهم التى أحدثوها تعظيما
منهم لكبرائهم ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم : "لا تقوموا عند رأسى كما تقوم الأعاجم عند
رءوس أكاسرتها" فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة؛ فقد صافح النبى صلى الله عليه وسلم جعفر
ابن أبى طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال : " تصافحوا يذهب
الغِلّ" وروى غالب التمّـار عن الشّعبي أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا إذا التقوا
تصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تعانقوا ؛ فإن قيل (١) : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى
ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة ، وذهب إلى هذا سُحْنون وغيره من أصحابنا ؛
وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة،وهو الذى يدلّ عليه معنى ما فى الموطأ؛
وعلى جواز المصافحـة جماعة العلماء من السلف والخلف . قال ابن العربى : إنمـا كره مالك
المصافحة لأنه لم يرها أمرا عاما فى الدِّين (٢) ، ولا منقولا نقل السلام؛ ولو كانت منه لاستوى معه.

قلت : قد جاء فى المصافحة حديث يدلّ على الترغيب فيها ،والدأب عليها والمحافظة ؛وهو
ما رواه البَرَاء بن عازب قال :لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدى فقلت : يارسول
الله ! أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم ؟ فقال : " نحن أحق بالمصافحة منهم مامن
مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبُهما بينهما" .

(١) فى ا وح وك وى : الرابعة . ويلاحظ أن المسائل ثلاث . (٢) فى ع ، و ، ى : سنة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الجب استعمالا للكرم؛ لئلا يُذَكِّر إخوته صنيعهم بعد عفوه [عنهم] بقوله . « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ »[1] .

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذِكْرُ الجَفَا فى وقت الصَّفا جَفَا . وهو قول صحيح دَلَّ عليه الكتاب . وقيل : لأن فى دخوله السجن كان باختياره بقوله : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » وكان فى الجب بإرادة الله تعالى له . وقيل : لأنه كان فى السجن مع اللصوص والعُصَاة ، وفى الجب مع الله تعالى ؛ وأيضا فإن المنّة فى النجاة من السجن كانت أكبر ، لأنه دخله بسبب أَمْرٍ هَمَّ به ؛ وأيضا دخله باختياره إذ قال : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » فكان الكَرْب فيه أكثر ، وقال فيه أيضا : « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » فعوقب فيه .

﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواش وبرية ؛ وقيل : كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسَكَنها ، وأن الله لم يبعث نبيا من أهل البادية . وقيل : إنه كان خرج إلى بَدَا ، وهو موضع ؛ وإياه عنى جَميل بقوله :

وأنت التى حَبَّبْتِ شَغْبًا[2] إلى بَدَا * إلىّ وأوطانى بلادٌ سِواهُمَا

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل . يقال : بَدَا القومُ بَدْوًا إذا أَتَوا بَدَا ، كما يقال : غَاروا غَوْرًا أى أَتَوا الغَوْر ؛ والمعنى : وجاء بكم من مكان بَدَا ؛ ذكره القشيرىّ ، وحكاه الماوَرْدىّ عن الضحّاك عن ابن عباس . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ بإيقاع الحسد ؛ قاله ابن عباس . وقيل : أفسد ما بينى و بين إخوتى ؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكرما منه . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أى رفيق بعباده . وقال الخَطَّابىّ : اللطيف هو البَرّ بعباده الذى يَلْطُف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبّب لهم مصالحهم من حيث لا يَحتسبون ؛ كقوله : « اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ »[3] . وقيل : اللطيف العالم بدقائق الأمور ؛ والمراد هنا الإكرام والرفق . قال قَتادة : لطف بيوسف بإخراجه من السجن ، وجاءه بأهله من البدو ، ونزع عن قلبه نزغ الشيطان . و يروى أن يعقوب لمـا قدم بأهله وولده وشارَف أرض مصر وبلغ ذلك يوسف استأذن فرعون — واسمه الريان — أن يأذن له فى تلقّى أبيه يعقوب . وأخبره

(١) من ع و ك .
(٢) شغب : موضع بين المدينة والشام . و (بدا) يروى منونا وغير منون .
(٣) راجع جـ ١٦ ص ١٦ .

Marfat.com

بقدومه فأذن له، وأمر الملأ من أصحابه بالركوب معه؛ فخرج يوسف والملك معه فى أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خَلْق الله أعلم بهم؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب، فكان يعقوب يمشى متكئا على يد يهوذا؛ فنظر يعقوب إلى الخيل والناس والعساكر فقال: يا يهوذا! هذا فرعون مصر؟ قال: لا، بل هذا ابنك يوسف؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمُنع[1] من ذلك، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل؛ فابتدأ يعقوب بالسلام فقال: السلام عليك يا مُذْهِب الأحزان، وبكى وبكى معه يوسف؛ فبكى يعقوب فرحا، وبكى يوسف لما رأى بأبيه من الحزن؛ قال ابن عباس: فالبكاء أربعة، بكاءٌ من الخوف، وبكاءٌ من الجزع، وبكاء من الفرح، وبكاءُ رياءٍ. ثم قال يعقوب: الحمد لله الذى أقرّ عينى بعد الهموم والأحزان، ودخل مصر فى اثنين وثمانين من أهل بيته؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام؛ رواه عِكرمة عن ابن عباس. وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة [ألف][2] وسبعون ألفا. وقال الربيع بن خُثَيم: دخلوها وهم اثنان وسبعون ألفا، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف. وقال وهب: [بن منبه][2] دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة وصغير، وخرجوا منها مع موسى فرارا من فرعون، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين، سوى الذرية والهَرْمى والزَّمْنى؛ وكانت الذرّية ألف ألف ومائتى ألف سوى المقاتلة. وقال أهل التواريخ: أقام يعقوب بمصر أربعا وعشرين سنة فى أغبط حال ونعمة، ومات بمصر، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام ففعل، ثم انصرف إلى مصر. قال سعيد بن جُبير: نقل يعقوب صلى الله عليه وسلم فى تابوت من ساج إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يوم مات عِيصُو، فدفنا فى قبر واحد؛ فمن ثَمّ تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس، مَنْ فَعَل ذلك منهم؛ ووُلد يعقوب وعِيصُو فى بطن واحد، ودفنا فى قبر واحد وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا[3] وأربعين سنة.

---

(١) أى منعه يعقوب عليه السلام لأن القادم يسلم؛ قاله العينى فى «عقد الجمان». وقال الألوسى: ليعلم أن يعقوب أكرم على الله منه. (٢) من ع. (٣) فى ع و ك و ى: تسعا. والمشهور ما ذكر.

قوله تعالى : رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّالِحِينَ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ قال قتادة : لم يتمنّ الموت أحدٌ، نبيٌّ ولا غيره إلّا يوسف عليه السلام، حين تكاملت عليه النِّعم وجمع له الشمل آشتاق إلى لقاء ربه عزّ وجلّ . وقيل : إن يوسف لم يتمنّ الموت ، و إنما تمنّى الوفاة على الإسلام ؛ أى إذا جاء أَجَلِي تَوَفَّنِي مسلما ؛ وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : لا يتمنى الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت، أو رجل يفرّ من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاء الله عزّ وجلّ . وثبت فى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يتمنّين أحدُكم الموت لضُرٍّ نزل به فإن كان لابدّ متمنيا فليقل آللهم أَحْيِنى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفّنى إذا كانت الوفاة خيرا لى" رواه مسلم . وفيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يتمنّى أحدُكم الموت ولا يَدْعُ[(1)] به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم آنقطع عمله و إنه لا يزيد المؤمنَ عُمُره إلا خيرا" .
و إذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تمنى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل ؟ هذا بعيد! إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزا فى شرعه؛ أَمَا أنه يجوز تمنّى الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها، وخوف ذهاب الدين، على ما بيّناه فى كتاب «التذكرة» .
و«مِن» من قوله : « مِنَ الْمُلْكِ » للتبعيض، وكذلك قوله : « وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» لأن مُلْك مصر ما كان كل المُلْك، وعلم التّعبير ما كان كلّ العلوم . وقيل : « مِنَ » للجنس كقوله : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ »[(2)] . وقيل : للتأكيد . أى آتيتنى الملك وعلمتنى تأويل الأحاديث .

(١) قيل : وجه صحة عطفه على النفى من حيث إنه بمعنى النهى . وقال ابن حجر : فيه إيماء إلى أن الأوّل نهى على بابه ، و يكون قد جمع بين لغتى حذف حرف العلة و إثباته . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٥٤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ نصب على النعت للنداء، وهو ربّ، وهو نداء مضاف؛ والتقدير: يا ربّ! ويجوز أن يكون نداء ثانيا . والفاطر الخالق؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات، أي خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء، ولا مثال سبق؛ وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى؛ عند قوله : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ »(١) وزدناه بيانا فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى . ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي ﴾ أى ناصرى ومتولى أمورى فى الدنيا والآخرة . ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يريد آباءه الثلاثة؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب، فتوفاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر، ودُفن فى النيل فى صندوق من رخام؛ وذلك أنه لما مات تشاحّ الناس عليه؛ كلٌّ يحب أنْ يدفن فى محلّتهم، لما يرجون من بركته؛ وآجتمعوا على ذلك حتى همُّوا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه فى النّيل من حيث مَفرِق الماء بمصر، فيمرّ عليه الماء، ثم يتفرّق فى جميع مصر، فيكونوا فيه شَرَعا ففعلوا؛ فلما خرج موسى ببنى إسرائيل أخرجه من النيل : ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه لدعوته : « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام . وعن الحسن قال : أُلقى يوسف فى الجبّ وهو آبن سبع عشرة سنة، وكان فى العبودية والسّجن والملك ثمانين سنة ، ثم جُمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؛ وكان له من الولد إفرائيم، ومنشا، ورحمة، زوجة أيوب؛ فى قول آبن لَهيعة . قال الزّهرىّ : وولد لإفرائيم — بن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ؛ فهو يوشع بن نون، وهو فتى موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونبأه الله فى زمن موسى عليه السلام؛ فكان بعده نبيا ، وهو الذى آفتتح أريحا، وقَتل من كان بها من الجبابرة، وآستوقفت له الشمس حسب ما تقدّم فى « المائدة »(٢) . وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا ، قبل موسى بن عمران . وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه ، والعالم هو الذى خرق

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٦ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٦ ص ١٣٠ فما بعد .

Marfat.com

السفينة، وقتــل الغُلامَ، وبنَى الجدارَ، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ، وكان ابن عباس ينكر ذلك؛ والحق الذى قاله ابن عباس؛ وكذلك فى القرآن . ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون ، وكان فيما بينهما شعيب ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبر ثان . قال الزجاج : ويجوز أن يكون « ذَٰلِكَ » بمعنى الذى ، « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » خبره؛ أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعنى هو الذى قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » أى نعلمك بوحى هذا إليك . ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أى مع إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ فى إلقاء يوسف فى الجب . ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أى بيوسف فى إلقائه فى الجبّ . وقيل : « يَمْكُرُونَ » بيعقوب حين جاءوه بالقميص مُلطّخا بالدم؛ أى ماشاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ظنّ أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون ، فلم يؤمنوا ؛ فنزلت الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم؛ أى ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول : حَرَص يحرِص، مثل : ضَرَب يضرِب . وفى لغة ضعيفة حَرِص يحرَص مثل حَمِد يحمَد . والحِرْص طلب الشيء باختيار[(١)] .

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ « مِنْ » صلة؛ أى ما تسألهم جُعْلا . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى ما هو ؛ يعنى القرآن والوحى . ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أى عظة وتذكرة ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) قال الراغب فى مفردات القرآن : الحرص فرط الشره وفرط الإرادة.

Marfat.com

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال الخليل وسيبويه : هى « أىّ » دخل عليها كاف التشبيه وبُنيت معها ، فصار فى الكلام معنى كَمْ ، وقد مضى فى « آل عمران » القول فيها مستوفى[1] . ومضى القول فى آية «السَّمَوَاتِ والأَرْضِ» فى «البقرة»[2] . وقيل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة ؛ أى هم غافلون معرضون عن تأملها . وقرأ عِكرمة وعمرو بن فائد « وَالْأَرْضُ » رفعا آبتداء، وخبره، ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ . وقرأ السدّى « وَالْأَرْضَ » نصبًا بإضمار فعل، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرأ ابن مسعود : « يمشون عليها » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ نزلت فى قوم أقرّوا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وعامر والشّعبي وأكثر المفسرين . وقال عِكرمة هو قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ »[3] ثم يصفونه بغير صفته ويجعلون له أندادا؛ وعن الحسن أيضا : أنهم أهل كتاب معهم شِركٌ وإيمان، آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ فلا يصح إيمانهم ؛ حكاه ابن الأنبارى . وقال ابن عباس : نزلت فى تلبية مشركى العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك . وعنه أيضا أنهم النصارى . وعنه أيضا أنهم المشبّهة ، آمنوا مجملا وأشركوا

(١) راجع ٤ ص ٢٢٨ فما بعد . (٢) راجع ج ٢ ص ١٩٢ فما بعد .

(٣) راجع ج ١٦ ص ١٢٣ .

Marfat.com

مفصّلا . وقيل : نزلت فى المنافقين؛ المعنى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ » أى باللسان إلا وهو كافر بقلبه؛ ذكره الماوردىّ عن الحسن أيضا . وقال عطاء : هذا فى الدعاء؛ وذلك أن الكفار ينسون ربهم فى الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء؛ بيانه : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ»[1] الآية . وقوله : «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ»[1] الآية . وفى آية أخرى : « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ »[2] . وقيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص ، ونحو هذا ؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : وقد يقع فى هذا القول والذى قبله كثير من عوام المسلمين ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقيل : نزلت هذه الآية فى قصة الدخان ؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدخان فى سنى القحط قالوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ»[3] فذلك إيمانهم ، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب؛ بيانه قوله : « إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » والعود لا يكون إلا بعد ابتداء؛ فيكون معنى : « إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أى إلا وهم عائدون [إلى الشرك][4] ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : مُجَلِّلة[5] . وقال مجاهد: عذاب يغشاهم؛ نظيره . «يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ»[6] . وقال قتادة : وقيعة تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق والقوارع . ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ يعنى القيامة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ نصب على الحال؛ وأصله المصدر . وقال المبرد : جاء عن العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولهم : وقع أمر بغتة وفجأة؛ قال النحاس : ومعنى . « بَغْتَةً » إصابة من حيث لم يتوقع[4] . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وهو توكيد . وقوله : «بَغْتَةً» قال ابن عباس : تصيح الصيحة بالناس وهم فى أسواقهم ومواضعهم ، كما قال : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتى[2] .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ وص ٣١٧
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٧٢ وص ٣٨ .
(٣) راجع جـ ١٦ ص ١٣٢ .
(٤) من ع ، وفى ع : أصابهم .
(٥) مجللة : عامة التغطية .
(٦) راجع جـ ١٣ ص .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي ﴾ ابتداء وخبر ؛ أى قل يا محمد هذه طريقى وسُنّتى ومنهاجى ؛ قاله ابن زيد . وقال الربيع : دعوتى . مقاتل : دينى ، والمعنى واحد ؛ أى الذى أنا عليه وأدعو إليه يؤدّى إلى الجنة . ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ أى على يقين وحق ؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا . ﴿ أَنَا ﴾ توكيد . ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ عطف على المضمر . ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أى قل يا محمد : « وسبحان الله » . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين يتخذون من دون الله أندادا .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي[1] إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ هذا ردّ على القائلين : « لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ[2] » أى أرسلنا رجالا ليس فيهم امرأة ولا جِنّىّ ولا مَلَك ؛ وهذا يردّ ما يُروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن فى النّساء أربع نبيّات حوّاء وآسية وأمّ موسى ومريم " . وقد تقدّم فى « آل عمران[3] » شىء من هذا . « مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » يريد المدائن ؛ ولم يبعث الله نبيّا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو ؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيّا من أهل البادية قطّ ، ولا من النّساء ، ولا من الجنّ . وقال قتادة : « مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » أى من أهـل الأمصار ؛ لأنهم أعلم وأحلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميّا مدنيا ؛ وإنما قالوا آدميّا تحرزا ؛ من قوله : « يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ[4] » والله أعلم .

---

(١) وقراءة نافع والجمهور : يوحى . بالبناء للمجهول .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٩٣ .
(٣) راجع جـ ٤ ص ٨٢ فما بعد . وجـ ٦ ص ٢٥١ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٨ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذّبة لأنبيائهم فيعتبروا . ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ابتداء وخبره . وزعم الفرّاء أن الدار هى الآخرة ، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ ، كيوم الخميس ، و بارحة الأولى ؛ قال الشاعر :

ولو أَقْوَتْ عليكَ دِيارُ عَبْسٍ(١) * عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ اليَقينِ

أى عِرفانا يقينا ، واحتجّ الكسائى بقولهم : صلاة الأولى ، واحتجّ الأخفش بمسجد الجامع . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرف به ، والأجود الصلاة الأولى ، ومن قال صلاة الأولى فمعناه : عند صلاة الفريضة الأولى ، و إنما سمّيت الأولى لأنها أوّل ما صُلّى حين فُرضت الصّلاة ، وأوّل ما أظهر ، فلذلك قيل لها أيضا الظهر . والتقدير : ولدار الحال الآخرة خير ، وهذا قول البصريين ؛ والمراد بهذه الدار الجنة ، أى هى خير للمتقين . وقرئ : « وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ » . وقرأ نافع وعاصم و يعقوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ تقدم القراءة فيه ومعناه(٢) . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم . وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ، ينبغى الوقوف عليه لئلا يزلّ الإنسان فيكون فى سواء الجحيم . المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب(٣) . «حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ » أى يئسوا من إيمان قومهم . «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا » بالتشديد ؛ أى أيقنوا أن قومهم كذّبوهم . وقيل المعنى : حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذّبوهم ، لا أنّ القوم كذّبوا ، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسبوا أنهم يُكذّبونهم ؛ أى خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شكّ ؛ فيكون «وَظَنُّوا» على بابه فى هذا التأويل . وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو عبد الرحمن السُّلَمىّ وأبو جعفر بن القَعْقاع والحسن وقَتَادة وأبو رَجاء العُطَارِدىّ وعاصم وحمزة والكسائى و يحيى بن وثّاب والأعمش وخَلَف « كُذِبُوا » بالتخفيف ؛ أى ظنّ القوم أن الرسل كذَبوهم فيما أخبروا به من العذاب ،

(١) وفى رواية : « فإنك لو حللت ديار عبس » ، فى ع و ك و ى : عرفت الدار .
(٢) راجع ص ٢٤١ من هذا الجزء . (٣) من ع و حـ الجمل عن القرطبي . وفى أ و حـ و ك و ى : بالعقاب .

Marfat.com

ولم يصدقوا. وقيل : المعنى ظنّ الأمم أن الرسل قد كَذَبوا فيما وعدوا به من نصرهم. وفي رواية عن ابن عباس ؛ ظنّ الرسلُ أن الله أخلف ما وعدهم . وقيل : لم تصح هذه الرواية ؛ لأنه لا يظنّ بالرسلُ هذا الظنّ ، ومن ظنّ هذا الظنّ لا يستحق النّصر ؛ فكيف قال : ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ ؟ ! قال القشيري أبو نصر : ولا يبعد إن صحت الرواية أن المراد خطر بقلوب الرسل[1] هذا من غير أن يتحققوه في نفوسهم ؛ وفي الخبر : " إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تعمل به " . ويجوز أن يقال : قربوا من ذلك الظنّ ، كقولك : بلغت المنزل ، أي قربت منه . وذكر الثعلبي والنحاس عن ابن عباس قال : كانوا بشرا فضعُفوا من طول البلاء ، ونسوا وظنّوا أنّهم أخلِفوا ؛ ثم تلا : « حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ »[2] . وقال الترمذي الحكيم : وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعد ما وعد الله النصر ، لا من تهمة لوعد الله ، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثا ينقض ذلك الشرط والعهد الذي عهد إليهم ؛ فكانت إذا طالت [عليهم][1] المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه . وقال المهدوي عن ابن عباس : ظنّت الرسل أنهم قد أُخلِفوا على ما يلحق البشر ؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى »[2] الآية . والقراءة الأولى أولى . وقرأ مجاهد وحميد — « قَدْ كَذَبوا » بفتح الكاف والذال مخففا ، على معنى : وظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كَذَبوا ، لما رأوا من تفضّل الله عزّ وجلّ في تأخير العذاب . ويجوز أن يكون المعنى : و[لما] أيقن الرسل أن قومهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم جاء الرسلَ نصرُنا . وفي البخاري عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزّ وجلّ : « حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ » قال قلت : أَكُذِبوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشة : كُذِّبوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل ! لعمري ! لقد استيقنوا بذلك ؛ فقلت لها : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا » قالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل [الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل][3]

(١) من ع . وهو الصواب ؛ وفي غيرها البشر . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٣ فما بعد ، وص ٢٧٢ .
(٣) الزيادة من صحيح البخاري .

Marfat.com

ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم [قد](١) كذبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك .
وفى قوله تعالى : « جَاءَهُمْ نَصْرُنَا » قولان : أحدهما — جاء الرسلَ نصرُ الله؛ قاله مجاهد .
الثانى — جاء قومهم عذاب الله؛ قاله ابن عباس . ﴿ فَنُنْجِيَ(٢) مَنْ نَشَاءُ ﴾ قيل : الأنبياء ومن آمن معهم . وروى عن عاصم « فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ » بنون واحدة مفتوحة الياء، و « مَنْ » فى موضع رفع، آسم ما لم يسم فاعله؛ وآختار أبو عبيد هذه القراءة لأنها فى مصحف عثمان، وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة. وقرأ آبن مُحَيْصِن(٣) « فَنَجَا » فعل ماض، و « مَنْ » فى موضع رفع لأنه الفاعل، وعلى قراءة الباقين نصبا على المفعول . ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى الكافرين المشركين .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ أى فى قصة يوسف وأبيه وإخوته، أو فى قصص الأمم. ﴿ عِبْرَةٌ ﴾ أى فكرة وتذكرة وعظة. ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى العقول. وقال محمد بن إسحاق عن الزهرى عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيْمِى : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا وأربعين سنة، وتُوُفِّى أخوه عِيصُو معه فى يوم واحد، وقُبِرا فى قبر واحد؛ فذلك قوله : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » إلى آخر السورة . ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ أى ما كان القرآن حديثا يفترى، أو ما كانت هذه القصة حديثا يفترى . ﴿ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى [ولكن كان(٤) تصديق، ويجوز الرفع بمعنى لكن هو تصديق الذى بين يديه أى] ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى؛ وهذا تأويل من زعم أنه القرآن . ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام، والشرائع والأحكام . ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(١) من ع .
(٢) قراءة نافع وكذا باقى السبعة بنونين ما عدا عاصما كما يأتى .
(٣) يعنى فى الرسم .
(٤) من ع وك .

Marfat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ســـورة الرعـــد

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، ومدنيـة فى قول الكلبى ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة ؛ وهما قوله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » [إلى آخرهما[1]] .

قوله تعـالى : الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ المر تلك آيات الكتاب ﴾ تقدّم القول فيها . ﴿ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى وهذا القرآن الذى أنزل إليك . ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ لا كما يقول المشركون : إنك تأتى به من تلقاء نفسك ؛ فاعتصم به ، وآعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . « وَالَّذِى » فى موضع رفع عطفا على « آيَاتُ » أو على الابتداء ، و « الْحَقُّ » خبره ؛ ويجوز أن يكون موضـعه جرا على تقدير : وآيات الذى أنزل إليـك ، وارتفاع « الحقّ » على هذا على إضمار مبتدأ ، تقديره : ذلك الحق ؛ كقوله تعالى : « وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقَّ[2] » يعنى ذلك الحقّ . قال الفرّاء : وإن شئت جعلت « الَّذِى » خفضا نعتا للكتاب ، وإن كانت فيــه الواو كما يقال : أتانا هــذا الكتاب عن أبى حفص والفاروق ؛ ومنه قول الشـاعر :

إلى الملكِ القَرْمِ وآبنِ الهُمَامِ ... وليثِ الكَتيبةِ فى المُزْدَحَمْ[3]

يريد : إلى الملك القَرْم بن الهمام ، ليث الكتيبة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(١) الزيادة من تفسير البحر .   (٢) راجع جـ ٢ ص ١٦٢ فما بعد .
(٣) القرم (بفتح القاف) : السيد ؛ والكتيبة : الجيش ؛ والمزدحم : محل الازدحام .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٢)

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الآية . لما بين تعالى أن القرآن حق ، بين أن من أنزله قادر على الكمال؛ فانظروا فى مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته ؛ وقد تقدم هذا المعنى . وفى قوله : « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » قولان : أحدهما — أنها مرفوعة بغير عمد ترونها ؛ قاله قتادة وإياس بن معاوية وغيرهما . الثانى — لها عمد، ولكنا لا نراه ؛ قال ابن عباس : لها عمد على جبل قاف ؛ ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التى يمسك بها السموات والأرض ، وهى غير مرئية لنا ؛ ذكره الزجاج . وقال ابن عباس أيضا : هى توحيد المؤمن . أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر ؛ ذكره الغزنوى . والعمد جمع عمود ؛ قال النابغة :

وخيّس الجنّ إنى قد أذنت لهم　　يبنون تدمر بالصُّفّاح والعمد (١)

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدم الكلام فيه (٢) . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى ذللهما لمنافع خلقه ومصالح عباده؛ وكل مخلوق مذلل للخالق . ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا ، وقيام الساعة التى عندها تكور الشمس ، ويخسف القمر، وتنكدر النجوم ، وتنتثر الكواكب . وقال ابن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها لا يجاوزانها . وقيل : معنى الأجل المسمى أن القمر يقطع فلكه فى شهر، والشمس فى سنة . ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أى يصرفه على ما يريد . ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أى يبينها ؛ أى من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة ؛ ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .

---

(١) ويروى : وخبر الجن . وخيس : ذلل ؛ وتدمر : بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام . والصفاح حجارة عراض رقاق . وعمد : جمع عمود .　(٢) راجع ج ٧ ص ٢١٩ .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ لمّا بيّن آيات السّموات بيّن آيات الأرض؛ أى بسط الأرض طولا وعرضا . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ ﴾ أى جبالا ثوابت؛ واحدها راسية؛ لأن الأرض ترسو بها ، أى تثبت ؛ والإرساء الثّبوت ؛ قال عنترة :

فَصَـبَرْتُ عَارِفَةً لذلك حُـرَّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجَبَـانِ تَطَلَّعُ[1]

وقال جميل :

أُحِبُّـها والذى أَرْسَى قواعِـدَهُ * حُبًّـا إذا ظَهَـرت آياتُه بَطَنَا

وقال ابن عباس وعطاء : أوّل جبل وُضع على الأرض أبو قُبيس[2] .

مســـئلة — فى هـذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة ، وردّ على من زعم أن الأرض تهوى أبوابها عليها ؛ وزعم ابن الرّاوندى أن تحت الأرض جسما صَعّادا كالرِّيح الصعّادة؛ وهى منحدرة فاعتدل الهاوى والصعادى فى الجِرْم والقوّة فتوافقا . وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين، أحدهما منحدر، والآخر مصعد، فاعتدلا، فلذلك وقفت . والذى عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدّها ، وأن حركتها إنمـا تكون فى العادة بزلزلة تصيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَـارًا ﴾ أى مياها جارية فى الأرض ، فيهـا منافع الخلق . ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ بمعنى صنفين . قال أبو عبيدة : الزوج واحد ، ويكون اثنين . الفراء : يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى ؛ وهـذا خلاف

(١) قبل البيت :

وعرفت أن منيتى إن تأتنى * لا ينجنى منها الفرار الأسرع

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .

Marfat.com

النص . وقيـل : معنى « زَوْجَيْنِ » نوعان ، كالحُـلْو والحامض ، والرطب واليـابس ، والأبيض والأسـود ، والصغير والكبير . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات وعلامات ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ في الكلام حذف ؛ المعنى : وفى الأرض قِطع متجاورات وغير متجاورات ؛ كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »[1] والمعنى : وتقيكم البَرْد، ثم حذف لعلم السامع . والمتجاورات المـدن وما كان عامرا، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر .

الثـانية — قوله تعـالى : « مُتَجَاوِرَاتٌ » أى قُرًى متدانيات ، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيهـا زروع وجنات ، ثم تتفاوت فى الثمار والتمر ؛ فيكون البعض حُلْوا ، والبعض حامضا ؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف التمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفى هـذا أدلّ دليل على وحدانيته وعِظم صمديته، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته؛ فإنه نبّه سبحانه بقوله : « تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقـدور بقدرته ؛ وهـذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالمـاء والتراب والفاعل له الطبيعة لمـا وقع الاختلاف . وقيـل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البِقاع ؛ فمن تربة عذبة ، ومن تربة سبخة مـع تجاورهما ؛ وهـذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ جلّ وعزّ تعـالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٩ فما بعد .

Marfat.com

الثالثـــة — ذهبت الكفرة — لعنهم الله — إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع، وادّعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقرّوا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض. وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلا؛ والدليل على أن الحادث لابدّ له من مُحدِث أنه يَحدُث في وقت، ويَحدُث ما هو من جنسه في وقت آخر؛ فلو كان حدوثه في وقتـه لاختصاصه به لوجب أن يحـدُث في وقته كل ما هو من جنسه؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل مُخصِّص خصّصه به، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ وآستيفاء هذا في علم الكلام.

الرابعـــة — قوله تعـالى: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ قـرأ الحسن «وَجَنَّاتٍ» بكسر التاء، على التقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله: «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ». ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على «كل» التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات. الباقون: «جَنَّاتٌ» بالرفع على تقدير: و بينهما جنات. ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع. آبن كثير وأبو عمرو وحفص عطفا على الجنات؛ أي على تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل. وخفضها الباقون نَسَقا على الأعناب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجَنّات؛ ويجوز أن يكون معطوفا على «كُلّ» حسب ما تقدّم في «وجنّات». وقرأ مجاهد والسُّلَمي وغيرهما «صُنْوَانٌ» بضم الصاد، الباقون بالكسر؛ وهما لغتـان؛ وهما جمع صِنْو، وهي النَّخَلات والنَّخلتان، يجمعهن أصلٌ واحد، وتتشعب منه رءوس فتصير نخيلا؛ نظيرها قِنْوان، واحدها قِنو. وروى أبو إسحاق عن البَرَاء قال: الصِّنْوان المجتمع، وغير الصِّنْوان المتفرق؛ النحاس: وكذلك هو في اللغـة؛ يقال للنخلة إذا كانت فيها نخـلة أخرى أو أكثر صِنْوان. والصِّنو المِثل؛ ومنه قول النبي صلى الله عليـه وسلم: "عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه". ولا فرق فيها بين التّثنية والجمع، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التّثنية؛ قال الشاعر:

العـلمُ والحلمُ خُلّتا كـرَمٍ * للمرء زَيْنٌ إذا هُمَا آجْتَمعا
صِنْـوانِ لا يُسْتَتمُّ حُسْنُهما * إلّا بجمـع ذا وذاكَ معَـا

Marfat.com

الخامســة ــ قوله تعـالى : ﴿ يُسْقَى بِمَـاءٍ وَاحِدٍ ﴾ كصالح بنى آدم وخبيثهم ، أبوهم واحد؛ قاله النحاس والبخاري . وقرأ عاصم وابن عامر : «يُسْقَى» بالياء، أى يُسقى ذلك كله . وقرأ الباقون بالتـاء، لقوله : « جَنَّاتٌ » واختاره أبو حاتم وأبو عبيـدة ؛ قال أبو عمرو : والتأنيث أحسن؛ لقوله : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ ﴾ ولم يقـل بعضه . وقرأ حمزة والكسائى وغيرهما « وَيُفَضِّلُ » بالياء ردًا على قوله : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » و « يُفَصِّـلُ » و « يُغْشِى » الباقون بالنون على معنى : ونحن نفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول لعليّ رضى الله عنه : " الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة " ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسـلم « وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » حتى بلغ قوله : « يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » و « الْأُكُلِ » التمر . قال ابن عباس : يعنى الحلو والحامض والفارسيّ(١) والدقَل(٢) . وروى مرفوعا من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى قوله تعالى : «وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ» قال : "الفارسى والدَّقَل والحُلْو والحامض" ذكره الثعلبيّ . قال الحسن : المراد بهذه الآية المثل ؛ ضربه الله تعـالى لبنى آدم ، أصلهم واحد ، وهم مختلفون فى الخير والشر والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التى تسقى بماء واحد؛ ومنه قول الشاعر :

النـاسُ كالنَّبْتِ والنَّبْتُ ألوانٌ * منها شجرُ الصَّندلِ والكافورِ والبان
* ومنها شجر يَنضحُ طول الدّهرِ قطران *

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى لعـلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعـالى : وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

(١) التمر الفارسى : نوع جيد نسبة إلى فارس .
(٢) الدقل : ردىء التمر .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ؛ والله تعالى لا يتعجّب ، ولا يجوز عليه التعجب ؛ لأنه تغيّر النفس بما تخفى أسبابه ، و إنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيّه والمؤمنون . وقيل المعنى : أى إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأنى خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق ؛ لأن الإعادة فى معنى الابتداء . وقيل : الآية فى منكرى الصانع ؛ أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لابد له من مغير فهو محل التعجب ؛ ونظم الآية يدل على الأول والثانى ؛ لقوله : ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ أى أنبعث إذا كنا ترابا ؟ ! . ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقرئ « إِنَّا » . و﴿ الْأَغْلَالُ ﴾ جمع غلّ ، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق ؛ أى يغلّون يوم القيامة ؛ بدليل قوله : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ » (٢) إلى قوله : « ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم .

قوله تعـالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العـذاب ؛ قيل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ » (٣) . قال قتادة : طلبوا العقوبة قبل العافية ؛ وقـد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هـذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيـل : « قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى قبل الإيمـان الذى يرجى به الأمان والحسنات . و﴿ الْمَثُلَاتُ ﴾ العقوبات ؛ الواحدة مَثُلَة . وروى عن الأعمش أنه قرأ « الْمُثْلَات » بضم الميم وإسكان الثاء ؛ وهذا جمع مُثْلَة ، و يجوز

(١) فى حـ الجمل عن القرطبي : العجب تغير النفس بما تخفى أسبابه وذلك فى حق الله تعالى محال .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٢ . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ .

Marfat.com

« المَثُلَات » تبـدل من الضمة فتحة لثقلها ، وقيـل : يؤتى بالفتحة عوضا من الهاء . وروى عن الأعمش أنه قرأ « المَثْلَات » بفتح الميم وإسكان الثاء ، فهذا جمع مَثْلة ، ثم حذف الضمة لثقلها ، ذكره جميعه النحاس رحمه الله . وعلى قراءة الجماعة واحده مَثُلة ، نحو صَدُقة [وصُدُقة][1] ، وتميم تضم الثاء والميم جميعا ، واحدها على لغتهم مُثْلة ، بضم الميم وجزم الثاء ، مثل : غُرْفة وغُرُفات ، والفعل منه مَثَلْتُ به أَمْثُل مَثْلا ، بفتح الميم وسكون الثاء . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِـرَةٍ ﴾ أى لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنـوا ، وعن المذنبين إذا تابوا . وقال ابن عباس : أرجى آية فى كتاب الله تعالى « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِـمْ » . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ إذا أصروا على الكفر . وروى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : لمـا نزلت : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هَنَأَ أحدا عيشٌ ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتّكل كل أحد " .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْـهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . لمـا اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّمَـا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ أى مُعْلِم . ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أى نبى يدعوهم إلى الله . وقيـل : الهادى الله ؛ أى عليك الإنذار ، والله هادى كل قوم إن أراد هدايتهم .

قوله تعـالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾

فيـه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ﴾ أى من ذكر وأنثى ، صبيح وقبيح ، صالح وطالح ؛ وقد تقدم فى سـورة « الأنعام »[2] أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده

(١) من ا .   (٢) راجع جـ ٧ ص ١ فما بعد .

Marfat.com

لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخارى عن آبن عمر أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مفاتيح الغيب خمس " الحديث . وفيـه " لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله " .
واختلف العلمـاء فى تأويل قوله : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ فقـال قتادة : المعنى ما تُسقط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة؛ وكذلك قال آبن عباس . وقال مجاهد : إذا حاضت المرأة فى حملها كان ذلك نقصانا فى ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تماما لما نقص؛ وعنه : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداد منه . وقيل : الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد ، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها . وقيل : الغيض آنقطاع دم الحيض . « وَمَا تَزْدَادُ » بدم النفاس بعد الوضع .

الثانيـــة — فى هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعى فى أحد قوليه . وقال عطاء والشعبي وغيرهما : لا تحيض؛ و به قال أبو حنيفة؛ ودليله الآية . قال ابن عبـاس فى تأويلها : إنه حيض الحبالى ، وكذلك روى عن عِكْرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة ، وأنهـا كانت تفتى النساء الحوامل إذا حِضْن أن يتركن الصـلاة ؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون ، ولم ينكر منهم أحد عليهـا ، فصار كالإجماع ؛ قاله ابن القصّار (١) . وذكر أن رجلين تنازعا ولدا، فترافعا إلى عمر رضى الله عنه فعرضه على القَافَة ، فألحقه القَافَة بهما ، فَعلَاه عمر بالدرة، وسأل نِسوة من قريش فقال : آنظُرْن ما شأن هذا الولد؟ فقلن : إن الأول خلا بها وخلّاها ، فحاضت على الحمل، فظنّت أن عِدّتها انقضت ؛ فدخل بها الثانى، فانتعش الولد بمـاء الثانى؛ فقال عمر : الله أكبر! وألحقه بالأول ، ولم يقل إن الحامل لا تحيض ، ولا قال ذلك أحد من الصحابة ؛ فدلّ أنه إجماع ، والله أعلم . احتجّ المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضا لمـا صَحّ استبراء الأمة بحيض؛ وهو إجماع . وروى عن مالك فى كتاب محمد ما يقتضى أنه ليس بحيض .

الثالثـــة — فى هـذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر .

(١) فى الطبعة الأولى : قاله ابن عباس قال ابن القصار . وليست عبارة الأصول كذلك لهذا حذفناها .

Marfat.com

الرابعــة — وهذه الســتة الأشهر هي بالأهلّة كسائر أشهر الشريعة ؛ ولذلك قد روى في المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنـه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها؛ حكاه ابن عطية .

الخامسة — واختلف العلمـاء في أكثر الحمل ؛ فروى ابن جُرَيج عن جَميلة بنت سعد عن عائشـة قالت : لا يكون الحمـل أكثر من سنتين قدر ما يتحوّل ظِل المِغـزَل ؛ ذكره الدَّارَقُطْني. وقالت جَميلة بنت سعد — أخت عبيد بن سعد، وعن الليث بن سعد — : إن أكثره ثلاث سنين . وعن الشافعي أربع سنين؛ وروى عن مالك في إحدى روايتيه، والمشهور عنه خمس سنين؛ وروى عنه لا حدّ له ، ولو زاد على العشرة الأعوام؛ وهي الرواية الثالثة عنه. وعن الزّهري ست وسبع . قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع ؛ والشافعي : مُدّةُ الغاية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : سنتان لا غير . ومحمد بن عبد الحكم يقول : سنة لا أكثر . وداود يقول : تسعة أشهر، لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر : وهذه مسئلة لا أصل لهـا إلا الاجتهاد، والرّد إلى ما عُرِف من أمر النّساء و بالله التوفيق . رَوى الدَّارَقُطْنِيّ عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمـالك بن أنس إني حدّثت عن عائشة أنها قالت : لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قَدْر ظِلّ المِغْزَل ، فقال : سبحان الله ! مَن يقول هذا؟ ! هذه جارتنا آمرأة محمد بن عَجْلان، تحمل وتضع في أربع سنين، آمرأة صدق، وزوجها رجل صدق ؛ حملت ثلاثة أبطن في آثنتي عشرة سنة ، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره عن المبارك ابنُ[1] مجاهد قال : مشهور عندنا كانت آمرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين ، وكانت تسمى حاملة الفيل . وروى أيضا قال : بينما مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقـال : يا أبا يحيى ! آدع لآمرأة حبلى منـذ أربع سنين قـد أصبحت في كرب شـديد ؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القـوم إلا أنّا أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هـذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنهـا الساعة ، و إن كان في بطنها جارية فأبدلها [بها][1] غلاما، فإنك تَمْحُو ماتشاء وتُثْبِت ، وعندك

(١) من ا . وفي و : ابن المبارك .

Marfat.com

أم الكتاب، ورفع مالك يده، ورفع الناس أيديهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال: أدرك امرأتك؛ فذهب الرجل؛ فما حطّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جَعْد قَطَطٌ(١)، ابن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ما قُطعت سراره؛ ورُوى أيضا أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين! إنى غبت عن امرأتى سنتين فجئت وهى حبلى؛ فشاور عمر النـاس فى رجمها، فقال معاذ بن جبل: يا أمير المؤمنين! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما فى بطنها سبيل؛ فاتركها حتى تضع، فتركها، فوضعت غلاما قد خرجت ثنيتاه؛ فعرف الرجل الشـبه فقال: ابنى وربِّ الكعبة!؛ فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ؛ لولا معاذ لهلك عمر. وقال الضحّاك: وضعتنى أمى وقد حملت بى فى بطنها سنتين، فولدتنى وقد خرجت سِنّى. ويذكر عن مالك أنه حمل به فى بطن أمه سنتين، وقيل: ثلاث سنين. ويقال: إن محمد بن عجلان مكث فى بطن أُمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا، فشُقّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه. وقال حمّاد ابن سلمة: إنمـا سمى هرِم بن حيان هَرِما لأنه بقى فى بطن أُمه أربع سنين. وذكر الغَزْنَوى أن الضحّاك وُلد لسنتين، وقـد طلعت سِـنّه فسُمّى ضحّاكا. عبّـاد بن العوّام: ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه، فمرّ به طير فقال: كش.

السادســة — قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد؛ لأن علم ذلك استأثر الله به، فلا يجوز أن يحكم فى شىء منه إلا بقدْر ما أظهره لنـا، ووُجد ظاهرا فى النساء نادرا أو معتادا؛ ولمّـا وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك، والنفاس والحيض لمّـا لم نجد فيه أمرا مستقرا رجعنا فيه إلى ما يوجد فى النادر منهنّ(٣).

السابعــــة — قال ابن العربى: نقل بعض المتساهلين من المـالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر، وهذا ما لم ينطق به قطّ إلا هالكٌ، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبّر الحمل

---

(١) جعد قطط: شديد الجعودة. (٢) سرر الصبى: ما تقطعه القابلة.

(٣) قال محققه: ورد فى الحديث أقل الحيض وأكثره؛ روى الطبرانى عن أبى أمامة عنه صـلى الله عليه وسلم "أقل الحيض ثلاث وأكثره عشرة" ورواه الربيع بن حبيب فى مسنده عن أنس.

Marfat.com

فى الرَّحِم الكواكب السبعة؛ تأخذه شهرا شهرا، ويكون الشهر الرابع منها للشمس. ولذلك يتحرك ويضطرب، وإذا تكامل التداول فى السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد فى الشهر الثامن إلى زُحل، فيُبْقِله بَرْده؛ فياليتنى تمكنت من مناظرتهم أو مقاتلتهم! ما بال المرجع بعد تمام الدّور يكون إلى زُحل دون غيره؟ آلله أخبركم بهذا أم على الله تفترون؟! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا؟! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة!.

الثامنــة — قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ يعنى من النقصان والزيادة. ويقال: «بمقدار» قدر خروج الولد من بطن أمّه، وقَدْر مكثه فى بطنها إلى خروجه. وقال قَتَادة: فى الرزق والأجل. والمقدار القَدْر؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم.

قلت: هذه الآية تمدّح الله سبحانه وتعالى بها بأنه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهدوه. فالغيب مصدر بمعنى الغائب. والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبّه سبحانه على انفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذى يخفى على الخلق، فلا يجوز أن يشاركه فى ذلك أحد؛ فأما أهل الطبّ الذين يستدلّون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تُركوا وماهم عليه، ولم يقدح ذلك فى الممدوح؛ فإن العادة يجوز انكسارها، والعلم لا يجوز تبدّله. و﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذى كل شىء دونه. ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ عما يقول المشركون، المستعلى على كل شىء بقدرته وقَهْره؛ وقد ذكرناهما فى شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله.

قوله تعالى: سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ إسرار القول: ما حدّث به المرءُ نفسه، والجهر ما حدّث به غيره؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

Marfat.com

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر. و «مِنْكُمْ» يحتمل أن يكون وصفا لـ «سواء» التقدير: سرّ من أسرّ وجهر من جهر سواء منكم؛ ويجوز أن يتعلق «بسواء» على معنى: يستوى منكم، كقولك: مررت بزيد. ويجوز أن يكون على تقدير: سر من أسرّ منكم وجهر من جهر منكم. ويجوز أن يكون التقدير: ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، كما تقول: عدل زيد وعمرو أى ذوا عدل. وقيل: «سواء» أى مستوٍ، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أى يستوى فى علم الله السرّ والجهر، والظاهر فى الطرقات، والمستخفى فى الظلمات. وقال الأخفش وقُطْرُب: المستخفى بالليل الظاهر؛ ومنه خَفَيْتُ الشيء وأخْفَيته أى أظهرتُه؛ وأخفيت الشيء أى استخرجته؛ ومنه قيل للنَّبَّاش: المختفى. وقال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ من أَنْفَاقِهِنّ[(١)] كأنَّما * خَفَاهُنَّ وَدْقٌ من عَشِيّ مُجَلِّبِ

والسّارب المتوارى، أى الداخل سَرَبا؛ ومنه قولهم: انْسَرَب الوحشيُّ إذا دخل فى كِنَاسه. وقال ابن عباس: «مُسْتَخْفٍ» مستتر، «وَسَارِبٌ» ظاهر. مجاهد: «مُسْتَخْفٍ» بالمعاصى، «وَسَارِبٌ» ظاهر. وقيل: معنى «سَارِبٌ» ذاهب؛ [(٢)][قال] الكسائى: سَرَب يَسْرُب سَرْبا وسُرُوبا إذا ذهب؛ وقال الشاعر[(٣)]:

وكُلُّ أناسٍ قارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ * ونحنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ

أى ذاهب. وقال أبو رجاء: السّارب الذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشاعر[(٤)]:

* أنّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقال القُتَبِىّ: «سَارِبٌ بِالنَّهَارِ» أى منصرف فى حوائجه بسرعة؛ من قولهم: انْسَرَب الماء. وقال الأصمعىّ: خَلِّ سِرْبَه أى طريقه.

(١) أنفاق (جمع نفق): وهو سرب فى الأرض إلى موضع آخر، واستعاره امرؤ القيس لجحرة الفترة والودق: المطر. وغيث مجلب: مصوّت، ويروى مخلب (بالخاء). (٢) من أ و ح و و. (٣) هو الأخنس ابن شهاب التغلبى ويريد أن الناس أقاموا فى موضع واحد لا يجترئون على النقلة، وحبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعه إبلهم خوفا أن يغار عليها، ونحن أعزاء خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاء. (٤) هو قيس بن الخطيم، وتمام البيت:

* وتقرب الأحلام غير قريب *

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ أى لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . وقال : « مُعَقِّبَاتٌ » والملائكة ذُكْران لأنه جمع مُعَقِّبَة ؛ يقال : مَلَك مُعَقِّب ، وملائكة مُعَقِّبة ، ثم مُعَقِّبات جمع الجمع . وقرأ بعضهم — « لَهُ مَعَاقِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » . ومعاقيب جمع مُعْقِب[1] ؛ وقيل للملائكة معقبة على لفظ الملائكة . وقيل : أنّث لكثرة ذلك منهم ؛ نحو نسّابة وعلّامة وراوية ؛ قاله الجوهري وغيره . والتّعقب العود بعد البدء ؛ قال الله تعالى : « وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ[2] » أى لم يرجع ؛ وفى الحديث[3] : " مُعَقِّبَاتٌ لا يَخِيبُ قائِلُهنّ — أو — فاعِلُهنّ " فذكر التسبيح والتحميد والتكبير . قال أبو الهيثم : سُمّين « مُعَقِّبات » لأنهن عادت مرّة بعد مرّة ، فِعْل من عَمِل عملًا ثم عاد إليه فقد عَقَّب . والمعقبات من الإبل اللواتى يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض ؛ فإذا آنصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى . وقوله : ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى المستخفى بالليل والسارب بالنهار . ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ آختلف فى [هذا[4]] الحفظ ؛ فقيل : يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرّة ، لطفا منه به ، فإذا جاء القَدَر خلّوا بينه وبينه ؛ قاله آبن عباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما . قال أبو مِجْلَز : جاء رجل من مُراد[5] إلى على فقال : احترس فإن ناسا من مُراد يريدون قتلك ؛ فقال : إن مع كل

---

(١) قال الزمخشرى : جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيهما ، والياء عوض من حذف إحدى القافين فى التكسير . وقال ابن جنى : إنه تكسير معقب كمطعم ومطاعيم ، كأنه جمع على معاقبة ، ثم حذفت الهاء من الجمع وعوضت الياء عنها ؛ قال الألوسى : ولعله الأظهر . « روح المعانى » .　　(٢) راجع جـ ١٣ ص ١٦٠ .

(٣) الحديث فى الدعاء وهو بتمامه فى « صحيح مسلم » : "معقبات لا يخيب قائلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة" . سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة ، أو لأنها تقال عقب كل صلاة .　　(٤) من أ و حـ و و .　　(٥) مراد (بالضم وآخره دال مهملة) : قبيلة من قبائل العرب سميت باسم أبيها .

Marfat.com

رجل ملكين يحفظانه مالم يُقدَّر، فإذا جاء القدر خليا بينه و بين قدر الله ، و إن الأجل حصن حصينة؛ وعلى هذا، « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى بأمر الله و بإذنه ؛ فـ « مِن » بمعنى الباء ؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض . وقيل : « مِنْ » بمعنى « عن » ؛ أى يحفظونه عن أمر الله ، وهذا قريب من الأول ؛ أى حفظهم عن أمر الله لامن عند أنفسهم ؛ وهذا قول الحسن ؛ تقول : كسوته عن عُرْى ومن عُرْى ؛ ومنــه قوله عز وجل : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ »(١) أى عن جوع . وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لاتحلّ به عقوبة ؛ لأن الله لايغير ما بقوم من النّعمة والعافية حتى يُغيّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإن أصرّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النّقمة، وتزول عنهم الحَفَظة المعقبات . وقيل : يحفظونه من الجنّ ؛ قال كعب : لولا أن الله وكّل بكم ملائكة يَذُبُّون عنكم فى مَطْعَمكم وَمَشْرَبكم وعوراتكم لتخطّفتكم الجنّ . وملائكة العذاب من أمر الله ؛ وخصّهم بأن قال : « مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » لأنهم غير معاينين ؛ كما قال : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي »(٢) أى ليس مما تشاهدونه أنتم . وقال الفرّاء : فى الكلام تقديم وتأخير، تقديره ، له معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ؛ وهو مروىّ عن مجاهد وآبن جُرَيج والنَّخعىّ ؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجنّ من أمر الله لاتقديم فيه ولا تأخير . وقال آبن جريج : إن المعنى يحفظون عليه عمله ، فحذف المضاف . وقال قتادة : يكتبون أقواله وأفعاله . ويجوز إذا كانت المعقبات الملائكة أن تكون الهاء فى « له » لله عز وجل ، كما ذكرنا ؛ ويجوز أن تكون للمستخفى، فهذا قول . وقيل : « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » يعنى به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى أن الملائكة تحفظه من أعدائه ؛ وقد جرى ذكر الرسول فى قوله : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » اى سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به فى أنه لايضرّ النبي صلى الله عليه وسلم، بل له معقبات يحفظونه عليه السلام ؛ و يجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » أى يحفظون الهادى من بين يديه ومن خلفه . وقول رابع — أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٠٩ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٣ .

Marfat.com

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعكْرِمة ؛ وكذلك قال الضّحاك : هو السّلطان المتحرّس من أمر الله، المشركُ . وقد قيل : إن فى الكلام على هذا التأويل نفيا محذوفا، تقديره :لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره الماوردىّ . قال المهدوىّ : ومن جعل المعقّبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه . وقيل : سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حرّاس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصى، ويحفظونه من أن ينجع فيه وعظٌ؛ قال القُشَيرىّ : وهذا لايمنع الربّ من الإمهال إلى أن يحقّ العذاب؛ وهو إذا غيّر هـذا العاصى ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للعقوبة؛ فكأنّه الذى يحلّ العقوبة بنفسه؛ فقوله : « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى من آمتثال أمر الله. وقال عبد الرحمن بن زيد: المعقّبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه فى عباده؛ قال الماوردىّ : ومن قال بهذا القول ففى تأويل قوله : « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » وجهان : أحدهما — يحفظونه من الموت مالم يأت أجل؛ قاله الضحاك . الثانى — يحفظونه من الجنّ والهوامّ المؤذية، ما لم يأت قَدَرٌ؛ — قاله أبو أمامة وكعب الأحبار — فإذا جاء المقدور خلّوا عنه؛ والصحيح أن المعقّبات الملائكة، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وآبن جريج ؛ ورُوى عن ابن عباس، واختاره النحاس، وآحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم : "يتعاقبون[(١)] فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار" الحديثَ، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرأ — « معقّبات من بين يديه ورقباء من خلفه [من أمر الله][(٢)] يحفظونه » فهذا قد بيّن المعنى . وقال كِنانة العَدَوىّ : دخل عثمان رضى الله تعالى عنه على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! أخبرنى عن العبد كم معه من مَلَك ؟ قال : "مَلَك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذى على اليمين أمير على الذى على الشمال فإذا عَملت حسنة كُتبت عشرا وإذا عملت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين أأكتب قال لا لعله يستغفر الله تعالى أو يتوب إليه فإذا قال ثلاثا قال نعم آكتب أراحنا الله تعالى منه

(١) الحديث فى ابن عطية : "يتعاقب فيكم ملائكة" والبحث فى رواية القرطبي سندا ومتنا فى العسقلانى جـ ٢ ص ٢٨ . (٢) الزيادة من تفسير الطبرى .

Marfat.com

فبئس القـرين هو ما أقلّ مراقبتـه لله عز وجل وأقل آسـتحياءه منا يقـول الله تعـالى «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ»(١) وملَكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» [وملَك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لله رفعـك وإذا تجبّرت على الله قصمك](٢) وملَكان على شفتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملَك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك وملَكان على عينيك فهـؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى يتـداولون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملَكا على كل آدمى وإبليس مع آبن آدم بالنهار وولده بالليل ". ذكره الثعلبيّ . قال الحسن : المعقّبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر . وآختيار الطّبرىّ : أن المعقّبات المواكب بين أيدى الأمراء وخلفهم؛ والهاء فى « له » لهنّ؛ على ما تقدّم . وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين : أحدهما — قضى حلوله ووقوعه بصاحبه؛ فذلك لا يدفعـه أحد ولا يغيره . والآخر — قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتـوبة والدعاء والصدقة والحفـظ .

قوله تعـالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه لا يغـيّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم ، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أُحد بسبب تغيير الرّماة بأنفسهم، إلى غير هـذا من أمثلة الشّريعة؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال صلى الله عليه وسـلم — وقد سُئل أَنهلك وفينا الصّالحون ؟ قال — " نعم إذا كثُر الخُبْث "(٣) . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أى هلاكا وعذابا، ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ . وقيل: إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه . وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١ . (٢) الزيادة من تفسير الطبرى وغيره .
(٣) المراد بالخبث الفسق والفجور .

Marfat.com

أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ أي ملجأ ؛ وهو معنى قول السُّدي . وقيل : من ناصر يمنعهم من عذابه ؛ وقال الشاعر :

* ما في السماء سوى الرحمن من والِ *

ووالٍ ووليّ كقادر وقدير .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أي بالمطر . « والسَّحاب » جمع ، والواحدة سَحابة ، وسُحُب وسَحائب في الجمع أيضا . ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ قد مضى في « البقرة »(١) القول في الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ؛ وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛ أي يريكم البرق في السماء خوفا للمسافر ، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق ؛ قال الله تعالى : « أَذًى مِنْ مَطَرٍ »(٢) وطمعا للحاضر أن يكون عقبه مطر وخصْب ؛ قال معناه قتادة ومجاهد وغيرهما . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق ، وطمعا في غيثه المزيل للقحط . « وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » قال مجاهد : أي بالماء . « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » من قال إن الرعد صوت السحاب فيجوز أن يُسبِّح الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرعد ملَكا لدخل في جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك قال : معنى « مِنْ خِيفَتِهِ » من خيفة الله ؛ قاله الطَّبَري وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٧٢ .

Marfat.com

خائفون من الله ليس كخـوف ابن آدم ؛ لا يعـرف واحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره ، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب ؛ وعنه قال : الرّعد ملَك يَسوق السّحاب ، و إن بخار الماء لفي نُقْرة إبهامه ، وأنه مُوكّل بالسّحاب يصرفه حيث يؤمر ، وأنه يسبّح الله ؛ فإذا سبّح الرّعد لم يبق ملَك في السّماء إلا رفع صوته بالتّسبيح ، فعندها ينزل القَطْر ، وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان الذى سَبَّحتَ له . وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صـوت الرّعد قال : سبحان الذى يُسبِّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته ، ثم يقول : إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد . وقيل : إنه ملَك جالس على كرسيّ بين السماء والأرض ، وعن يمينه سبعون ألف ملَك ، وعن يساره مثل ذلك ؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح سبّح الجميع من خوف الله ، و إذا أقبل على يساره وسبح سَبّح الجميع من خوف الله .

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر الماورديّ عن ابن عباس وعليّ بن أبي طالب ومجاهد : نزلت في يهوديّ قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أخبرني! مِن أيّ شيء ربّك ، أمِن لؤلؤ أم من ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأحرقته . وقيل : نزلت في بعض كفّار العرب ؛ قال الحسن : كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي صلى الله عليه وسلم نفَرا يدعونه إلى الله ورسوله والإسلام فقال لهم : أخبروني عن ربّ محمد ما هو ، وممّ هو ، أمِن فضة أم من حديد أم نحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته ؛ فقال : أُجيبُ محمدا إلى ربّ لا يعرفه ! فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هذا ؛ فبينا النّفَر ينازعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم ، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة ، فأحرقت الكافر وهم جلوس ؛ فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : احترق صاحبكم ، فقالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » . ذكره الثعلبي عن الحسن ؛ والقشيري بمعناه عن أنس ، وسيأتي . وقيل : نزلت الآية في أربد بن ربيعة أخي لَبيد بن ربيعة ، وفي عامر بن الطُّفَيل ؛ قال ابن عباس : أقبل عامر بن الطُّفَيل وأَرْبَد بن ربيعة

Marfat.com

العامريان يريدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد جالس فى نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور، وكان من أجمل الناس؛ فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يارسول الله عامر بن الطُّفَيْل قد أقبل نحوك؛ فقال: "دَعْه فإن يُرِد الله به خيرا يَهْدِه" فأقبل حتى قام عليه فقال؛ يا محمد مالى إن أسلمت ؟ فقال: " لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين " . قال : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟ قال : " ليس ذاك إلىّ إنمـا ذلك إلى الله يجعـله حيث يشاء " . قال : أفتجعلنى على الوَبَر وأنت على المَدَر؟ قال : " لا " . قال : فمـا تجعل لى ؟ قال : " أجعل لك أَعِنّـة الخيل تغزوا عليها فى سـبيل الله " . قال : أو ليس لى أعنّـة الخيل اليوم ؟ قم معى أكلمك؛ فقـام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عامر أومأ إلى أَرْبَد : إذا رأيتنى أكلمه فدُرْ من خلفه واضرِبه بالسيف ؛ فجعل يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم و يراجعه؛ فاخترط أَرْبَد من سيفه شـبرا ثم حبسه الله، فلم يقدر على سَـلّه ، ويَبِست يده على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقة فى يوم صائف صاحٍ فأحرقته، وولّى عامر هاربا وقال: يا محمد ! دعوت ربك على أربد حتى قتلته؛ والله لأملأنّها عليك خيلا جُرْدا، وفتيانا مُرْدا؛ فقال عليه السلام: " يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة " يعنى الأوس والخَزْرَج؛ فنزل عامر بيت آمرأة سَلُولية؛ وأصبح وهو يقول : والله لئن أَصْحَرَ[(١)] لى محمدٌ وصاحبه ـــ يريد مَلَك الموت ـــ لأنفذتهما برمحى ؛ فأرسل الله مَلَكا فلطمه بجناحه فأذراه[(٢)] فى التراب ؛ وخرجت على ركبته غُدّة عظيمة فى الوقت ؛ فعاد إلى بيت السَّلولية وهو يقول : غُدّة كغدة البعير، وموت فى بيت سَلُولية ؛ ثم ركب على فرسه فمـات على ظهره . ورَثَى لَبِيد بن ربيعة أخاه أَرْبَد فقال :

يا عينُ هلّا بَكَيتِ أَرْبَد إذْ قُمْـ * ـنَا وقَامَ الخُصُـــوم فى كَبَـد[(٣)]
أَخْشَى على أَرْبَد الحُتُوفَ ولا * أَرْهَبُ نَوْءَ السِّماكِ وَالأَسَـد
فَجَّعَنِي الرَّعْدُ والصَّـوَاعِقُ بالفا * رِسِ يَـوْمَ الكَرِيهَـة النَّجِدِ[(٤)]

(١) أصحر الرجل : إذا خرج إلى الصحراء .
(٢) أذراه : قلعه ورمى به .
(٣) كبد : شـــدة وعناء .
(٤) النجد : السريع الإجابة .

Marfat.com

وفيـــه قال :

إن الرزيّة لا رزيّة مثلها * فقدان كلّ أخٍ كضوء الكوكب

يا أربدَ الخير الكريم جدوده * أفردتني أمشي بقرنٍ أعضب (١)

وأسلم لبيد بعد ذلك رضى الله عنه .

مسألة — روى أبان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تأخذ الصاعقة ذاكراً لله عزّ وجلّ" . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول : "سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعليّ ديتـه (٢)" . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس عن أبيـه عن جده قال : كنا مع عمر فى سفر فأصابنا رعد وبرد ، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفى ممـا يكون فى ذلك الرعد ؛ ففعلنا فعوفينا ؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإذا بَرَدَة (٣) قد أصابت أنفـه فأثّرت به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال بَرَدَة أصابت أنفى فأثرت ، فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنـا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عُوفى ممـا يكون فى ذلك الرعد ؛ فقلنا فعوفينا ؛ فقال عمر : أفلا قلتم لنـا حتى نقولها ؟ وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة (٤) » .

قوله تعـالى : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ يعنى جدال اليهودىّ حين سأل عن الله تعالى : من أىّ شيء هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جُريج : جدال أَرْبَد فيما همّ به من قتل النبي صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون ، «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ» حالا ، ويجوز أن يكون منقطعا . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل ، فقال لرسول الله : أخبرنى عن إلهـك هذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحـاس ؟

---

(١) قرن أعضب : مكسور . (٢) فى العبارة سقط والذى فى تفسير البغوى : عن ابن عباس : من سمع صوت الرعد فقال . الحديث ثم قال : فإن أصابته صاعقة فعلى ديته . محققه .

(٣) البرد (بالتحريك) : حب الغمام . (٤) راجع جـ ١ ص ٢١٦ فما بعد .

Marfat.com

فاستعظم ذلك، فرجع إليه فأعلمه، فقال: "ٱرجع إليه فادعه" فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ». ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن الأعرابي: «المِحال» المكر، والمكر من الله عزّ وجلّ التدبير بالحق. النحاس: المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» أي النقمة. وقال الأزهريّ: «المِحال» أي القوّة والشدّة. والمَحْل: الشدّة، الميم أصلية، وماحَلْتُ فلانا مِحالًا أي قاويته حتى يتبيّن أينا أشدّ. وقال أبو عبيد: «المحال» العقوبة والمكروه. وقال ابن عَرَفة: «المِحال» الجدال، يقال: ماحَلَ عن أمره أي جادل. وقال القُتَبِيّ: أي شديد الكيد، وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان، وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ٱبن قتيبة أن الميم فيه زائدة، بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعال أوّله ميم مكسورة فهي أصلية، مثل: مِهاد ومِلاك ومِراس، وغير ذلك من الحروف. ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو مثل: مِزْوَد ومِحْوَل[1] ومِحْوَر، وغيرها من الحروف، وقال[2]: وقرأ الأعرج — «وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ» بفتح الميم، وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول، ذكر هذا كله أبو عبيد الهَرَوِيّ، إلا ما ذكرناه أوّلا عن ابن الأعرابيّ، وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها — شديد العداوة، قاله ابن عباس. وثانيها — شديد الحَوْل، قاله ابن عباس أيضا. وثالثها — شديد الأخذ، قاله عليّ بن أبي طالب. ورابعها — شديد الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها — شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها — شديد الغضب، قاله وهب بن مُنَبِّه. وسابعها — شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط، قاله الحسن أيضا. وثامنها — شديد الحيلة، قاله قَتَادة. وقال أبو عبيدة مَعْمَر: المِحال والمماحلة المماكرة والمغالبة، وأنشد للأعشى:

فرعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ في غُصُنِ المجْـ * ـدِ كثير النَّدَى شديد المحال

(١) أي والباء في ذوات الياء كالمعير والمزيل. كما في اللسان.
(٢) أي الأزهري كما في اللسان مادة «محل».

Marfat.com

وقال آخـــر[1] :

وَلَبْس بَيْن أقـوامٍ فكُلٌّ * أَعَدَّ له الشَّغَازِبَ والمِحَالَا

وقال عبد المطلب :

لاهُــمَّ إنَّ المَــرْءَ يَمْـ * ـنَعُ رَحْلَه فَامْنَـعْ حِلَالَك[2]

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُـم وَمِحَـا * لُهُـمْ عَـدْوًا مِحَـالَك

قوله تعـالى : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أى لله دعوة الصدق . قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : لا إله إلا الله . وقال الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق . وقيل : إن الإخلاص فى الدعاء هو دعوة الحق ؛ قاله بعض المتأخرين . وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ؛ فإنه لايدعى فيه إلا إياه ، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ »[2] ؛ قال المـاوردى : وهو أشبه بسياق الآية ؛ لأنه قال : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾[3] يعنى الأصنام والأوثان . ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أى لايستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء . ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ ضرب الله عز وجل المـاء مثلا ليأسهم من الإجابة لدعائهم ؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثَلًا بالقابض المـاء باليد ؛ قال :

فأصبحتُ فيما كان بَيْنى وبينها * من الودّ مثلَ القابِضِ المـاء باليدِ

---

(١) هو ذو الرّمة ، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبى بردة بن أبى موسى . واللبس : الاختلاط . والشغازب ، قال الأصمعى : الشغزبية ضرب من الحيلة فى الصراع ؛ وهو أن يدخل الرجل بين رجلى صاحبه فيصرعه ؛ والمعنى : فكل رجل من القوم أعد له حجة وكيدا . (٢) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون ؛ يريد بهم سكان الحرم . ويروى : غدوا : الغدو أصل الغد وهو اليوم الذى يأتى بعد يومك فحذفت لامه . المحال . ويروى : أبدا محالك . البحر . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٩١ .

Marfat.com

وفى معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها — أن الذى يدعو إلهـا من دون الله كالظمآن الذى يدعو المـاء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا، لأن المـاء لا يستجيب، وما المـاء ببالغ إليه؛ قاله مجاهد . الثانى — أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى المـاء وقد بسط كفّه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه، لكذب ظنه، وفساد توهمه؛ قاله ابن عباس . الثالث — أنه كباسط كفه إلى المـاء ليقبض عليه فلا يجد فى كفه شيء منه . وزعم الفراء أن المراد بالمـاء ها هنا البئر؛ لأنها معدن للمـاء، وأن المثل كمن مدّ يده إلى البئر بغير رِشاء؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن المـاءَ ماءُ أَبِي وجَـدّى * وبئرى ذُو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

قال على رضى الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر، فلا يبلغ قعر البئر، ولا المـاء يرتفع إليه؛ ومعنى «إِلَّا كَبَاسِطِ» إلا كاستجابة باسط كفيه «إِلَى الْمَـاءِ» فالمصدر مضاف إلى الباسط، ثم حذف المضاف؛ وفاعل المصدر المضاف مراد فى المعنى وهو المـاء؛ والمعنى : إلا كإجابة باسط كفيه إلى المـاء؛ واللام فى قوله : «لِيَبْلُغَ فَاهُ» متعلقة بالبسط؛ وقوله : «وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ» كناية عن المـاء؛ أى وما المـاء ببالغ فاه . ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم؛ أى ما الفم ببالغ المـاء . ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أى ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال، لأنها شرك . وقيل : إلا فى ضلال أى يضلّ عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه سبيلا ؛ كما قال : « أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا[1] » وقال ابن عباس : أى أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعا، والكافر يسجد كَرها بالسيف . وعن قتادة أيضا : يسجد الكافر كارها حين لا ينفعه الإيمان . وقال الزجاج : سجود الكافر كَرها مافيه من الخضوع وأثر الصّنعة .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٣ .

Marfat.com

وقال ابن زيد: «طَوْعًا» من دخل فى الإسلام رغبة، و «كَرها» من دخل فيه رهبة بالسيف. وقيل: «طوعا» من طالت مدة إسلامه فألف السجود، و «كَرها» من يكره نفسه لله تعالى؛ فالآية فى المؤمنين، وعلى هـذا يكون معنى «وَالْأَرْضِ» و بعض من فى الأرض. قال القُشَيْرى: وفى الآية مسلكان: أحدهما — أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد طوعا، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمنافقين؛ فالآية محمولة على هؤلاء، ذكره الفراء. وقيل على هذا القول: الآية فى المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقّة، ولكنهم يتحملون المشقة إخلاصا و إيمانا، إلى أن يألفوا الحق ويَمْرُنوا عليه. والمسلك الثانى — وهو الصحيح — إجراء الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان: أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعا، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذ به. والثانى — وهو الحق — أن المؤمن يسجد ببدنه طوعا، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهـذا كقوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»[1] وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة. ﴿وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أى ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنها تبين فى هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء؛ وهو كقوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع؛ وظل الكافر يسجد كرها وهو كاره. وقال ابن الأنبارى: يجعل للظلال عقول تسجد بها وتخشع بها، كما جعل للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت. قال القُشَيْرى: فى هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة، وأما الظلال فآثار وأعراض، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال: سجدت النخلة أى مالت. و «الآصال» جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب، ثم أصائل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلى:

لَعَمْرِى لَأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ * وأَقعدُ فى أَفْيَائِهِ بالأَصَائِلِ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ وص ١١١.

Marfat.com

و « ظِلَالُهُمْ » يجوز أن يكون معطوفا على « مَنْ » و يجوز أن يكون ٱرتفع بالٱبتـداء والخبر محذوف؛ التقدير : وظلالهم سُجَّـد بالغدو والآصال و « بالغدو » يجـوز أن يكون مصدرا، و يجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوى كونه جمعا مقابلة الجمع الذى هو الآصال به .

قوله تعـالى : قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للشركين : « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » ثم أمره أن يقول[لهم](1) : هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك ، وجهلوا مَن هو . ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ هذا يدل على ٱعترافهم بأن الله هو الخالق [وإلا] لم يكن للاحتجاج بقوله : « قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » معنى؛ دليله قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »(2) أى فإذا ٱعترفتم فلِمَ تعبدون غيره؟ ! وذلك الغـير لا ينفع ولا يضرّ؛ وهو إلزام صحيح . ثم ضرب لهـم مثلا فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ فكذلك لا يستوى المؤمن الذى يبصر الحق ، والمشرك الذى لا يبصر الحق . وقيل : الأعمى مَثَلٌ لمـا عبدوه من دون الله، والبصير مَثَلُ الله تعالى : ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ أى الشرك والإيمـان . وقرأ ٱبن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائى «يستوى» بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيق . الباقون بالتاء، واختاره أبو عبيد، قال : لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل . و « الظلمات والنور » مثـل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك . ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا من تمام الاحتجاج؛ أى خَلَق غيرالله مثل

(1) من أ و و و ى .
(2) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٨ .

Marfat.com

خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم . ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى قل لهم يا محمد : « اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ »، فلزم لذلك أن يعبده كل شيء . والآية ردّ على المشركين والقَدَرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ ﴾ قبل كل شيء . ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الغالب لكل شيء، الذى يغلب فى مراده كل مريد . قال القُشَيْرِيّ أبو نصر: ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع؛ أى سَلْهم عن خالق السموات والأرض ، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم ، و يقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن عجز الجماد وعجز كل مخلوق عن خلق السموات والأرض معلوم؛ و إذا تقرر هذا و بان أن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداد الشريك له ؟! و بيّن فى أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟! .

قوله تعالى : أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩)

قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ ضرب مثلا للحق والباطل؛ فشبّه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء، فإنه يضمحلّ و يعلق بجنبات الأودية ، وتدفعه الرياح؛ فكذلك يذهب الكفر و يضمحلّ ، على ما نبيّنه . قال مجاهد :

Marfat.com

« فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » قال : بقدر ملئها. وقال ابن جُرَيج : بقدر صغرها وكبرها . وقرأ الأشهب العُقَيْلى والحسن « بِقَدْرِهَا » بسكون الدال، والمعنى واحد. وقيل : معناها بما قدّر لها . والأودية جمع الوادى ؛ وسمّى واديا لخروجه وسيلانه ؛ فالوادى على هـذا آسم للماء السائل. وقال أبو على : « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ » توسع ؛ أى سال ماؤها فحذف، قال : ومعنى « بِقَدَرِهَا » بقدر مياهها ؛ لأن الأودية ماسالت بقدر أنفسها . « فَٱحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى طالعا عاليا مرتفعا فوق المـاء، وتمّ الكلام؛ قاله مجاهد. ثم قال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ وهو المثل الثانى . ﴿ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴾ أى حلية الذهب والفضة . ﴿ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ قال مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زَبَدٌ مِثْلُهُ » أى يعلو هذه الأشياء زبـد كما يعلو السيل؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن المـاء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا، كذلك ما يوقد عليه فى النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يَنبثّ فى الأرض من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله تراب الأرض. وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ قال مجاهد: جمودا. وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو ابن العلاء : أَجْفَأَتِ القِدْرُ إذا غَلَت حتى ينصبّ(١) زَبَدُها ، وإذا جَمَـد فى أسفلها . والجُفَاء ما أجفاه الوادى أى رمَى به. وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ « جُفَالًا » قال أبو عبيدة : يقال أَجْفَلَت القِدْرُ إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته . ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال مجـاهد : هو المـاء الخالص الصّـافى . وقيل : المـاء وما خلص من الذهب والفضـة والحديد والنحاس والرصاص ؛ وهو أن المثلَين ضربهما الله للحقّ فى ثباته ، والباطـل فى اضمحلاله ؛ فالباطل وإن علا فى بعض الأحوال فإنه يضمحلّ كاضمحلال الزّبد والخَبَث . وقيل : المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ؛ فَشبّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه، وشبّه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل فى الأودية بحسب سعتها وضيقها . قال ابن عباس : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » قال : قـرآنا ؛ « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » قال : الأودية قـلوب العباد . قال صـاحب

(١) فى ز و ى : ينضب . بالمعجمة .

Marfat.com

«سوق العروس»[(١)] إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مَثَّل القرآن بالمـاء، ومَثَّل القلوب بالأودية، ومثل المُحْكَم بالصافى، ومثل المتشابه بالزبد. وقيل: الزبد مخايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تِلِّعها، كما أن ماء السيل يجرى صافيا فيرفع ما يجد فى الوادى باقيا، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السَّنية، والأخلاق الزكية؛ التى بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء. وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى وحفص «يُوقِدُونَ» بالياء واختاره أبو عبيد؛ لقوله: «يَنْفَعُ النَّاسَ» فأخبر، ولا مخاطبة ها هنا. الباقون بالتاء لقوله فى أول الكلام: «أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» الآية. وقوله: «فِى النَّارِ» متعلق بمحذوف، وهو فى موضع الحال، وذو الحال الهاء التى فى «عَلَيْهِ» التقدير: ومما توقدون عليـه ثابتا فى النار أو كائنا. وفى قوله: «فِى النَّارِ» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التى هى آسم ذى الحال ولا يستقيم أن يتعلق «فِى النَّارِ» بـ «يوقدون» من حيث لا يستقيم أوقدتُ عليه فى النار؛ لأن الموقَد عليه يكون فى النار، فيصير قوله: «فِى النَّارِ» غير مفيد. وقوله: «آبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ» مفعول له. «زَبَدٌ مِثْلُهُ» ابتداء وخبر؛ أى زبد مثل زبد السيل. وقيل: إن خبر «زبد» قوله: «فِى النَّارِ» الكسائى: «زَبَدٌ» ابتداء، و «مِثْلُهُ» نعت له، والخبر فى الجملـة التى قبله، وهو «مِمَّا يُوقِدُونَ». ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أى كما بين لكم هذه الأمثال فكذلك يضربهـا بينات. تم الكلام، ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ آسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ﴾ أى أجابوا؛ واستجاب بمعنى أجاب؛ قال[(٢)]:

فلم يَستجبْه عند ذاكَ مُجيب

وقد تقـدم؛ أى أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات. ﴿الْحُسْنَى﴾ لأنها فى نهاية الحسن. وقيل: من الحسنى النصر فى الدنيا، والنعيم المقيم غدا. ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾

---

(١) هو: أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبرى، نزيل مكة المكرمة، المتوفى بها سنة ٤٧٨ وكتابه «سوق العروس» فى علم القراءات. (كشف الظنون).

(٢) هو: كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار، وصدر البيت: وداع دعا يا من يجيب إلى الندى.

Marfat.com

أى لم يجيبوا إلى الإيمان به . ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أى من الأموال . ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ ملك لهم . ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ من عذاب يوم القيامة ؛ نظيره فى « آل عمران » « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا »(1) ، « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ » حسب ماتقدم بيانه هناك . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أى لا يقبل لهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة . وقال فَرْقَد السَّبَخِي(2) قال [لى](3) إبراهيم النَّخَعِيّ : يافرقد ! أتدرى ماسوء الحساب ؟ قلت لا ! قال أن يحاسَب الرجل بذنبه كلّه لايفقد منه شيء . ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أى مسكنهم ومقامهم . ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى الفراش الذى مهدوا لأنفسهم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ هذا مَثَل ضربه الله للؤمن والكافر ، ورُوى أنها نزلت فى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وأبى جهل لعنه الله . والمراد بالعَمى عَمَى القلب ، والجاهل بالدين أعمى القلب . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ هذا من صفة ذوى الألباب ، أى إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله . والعهد آسم للجنس ؛ أى بجميع عهود الله ، وهى أوامره ونواهيه التى وصّى بها عَبيده ؛ ويدخل فى هذه الألفاظ التزامُ جميع الفروض ، وتجنبُ جميع المعاصى . وقوله : ﴿ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق ، أى إذا عقدوا فى طاعة الله عهدا لم ينقضوه . قال قَتادة : تقدم الله إلى عباده فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية ؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه ، وهو الذى أخذه

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٢١ فما بعد . وص ١٣١ فما بعد .
(2) السبخى : (بفتحتين) نسبة إلى السبخة موضع بالبصرة .　　(3) من ى .

Marfat.com

الله على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم . وقال القفّال : هو ماركب فى عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات .

الثانية — روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال : " ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم " وكنا حديث عهد ببيعة[1] فقلنا : قد بايعناك [حتى قالها ثلاثا ، فبسطنا أيدينا فبايعناه ، فقال قائل : يارسول الله ! إنا قد بايعناك][2] فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : " أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتُصلّوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتُطيعوا — وأسرّ كلمةً خفية — قال لا تسألوا الناس شيئا " . قال : ولقد كان بعض أولئك النفر يسقط سَوْطه فما يسأل أحدا أن يناوله إياه . قال ابن العربى : من أعظم المواثيق فى الذكر ألّا يُسأل سواه ؛ فقد كان أبو حمزة الخراسانى من كبار العبّاد سمع أن أناسا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألّا يسألوا أحدا شيئا ، الحديث ؛ فقال أبو حمزة : ربِّ ! إن هؤلاء عاهدوا نبيّك إذ رأوه ، وأنا أعاهدك ألّا أسأل أحدا شيئا ؛ قال : فخرج حاجّا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشى فى الطريق من الليل إذ بقى عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم ، فبينما هو يمشى إليهم إذ سقط فى بئر على حاشية الطريق ؛ فلما حلّ فى قعره قال : أستغيث لعل أحدا يسمعنى . ثم قال : إن الذى عاهدته يرانى ويسمعنى ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مرّ بذلك البئر نفر، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبغى سدّ هذا البئر؛ ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البئر وغطّوها بالتراب؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ؛ ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد عاهدت مَن يراك ؟ فسكَتَ وتوكّل ، ثم آستند فى قعر البئر مفكرا فى أمره فإذا بالتراب يقع عليه ، والخشب يرفع عنه ، وسمع فى أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطيته يدى فأقلّنى فى مرة واحدة إلى فم البئر ، فخرجت فلم أر أحدا ؛ فسمعت هاتفا يقول : كيف رأيت ثمرة التوكل ؛ وأنشد :

(١) فى و : ببيعته . (٢) الزيادة من كتب الحديث .

Marfat.com

نَهانِي حَيائِي منكَ أن أكشفَ الهوى * فأغنيتَني بالعِلْم منـكَ عن الكَشْف
تَلَطَّفْتَ فى أمرى فأبديت شاهـدى * إلى غائبى واللُّطفُ يُـدرَكُ باللُّطْف
تَراءيتَ لى بالعـلم حتّى كأنما * تُخـبِّرُنى بالغيب أنـكَ فى كفِّ
أَرانِى وبى من هَيْبتى لكَ وَحْشَةٌ * فتؤنِسُنى باللُّطف منـكَ و بالعطف
وتُحيِي مُحِبًّا أنت فى الحبِّ حَتْفُـهُ * وذا عَجَبٌ كيف الحياةُ مَعَ الحَتْف

قال ابن العربى : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا . قال أبو الفرج الجوزىّ : سكوت هـذا الرجل فى هـذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفســه ، وذلك لا يحلّ ؛ ولو فهم معنى التوكل لعـلم أنه لا ينـافى آستغاثته فى تلك الحالة ؛ كما لم يخرج رسـول الله صلى الله عليـه وسلم من التوكل بإخفائه الخروجَ من مكة ، وآستئجاره دليـلا ، وآستكتامه ذلك الأمر ، وآستتاره فى الغـار ، وقـوله لسُرَاقة : " اخْفِ عنّا " . فالتوكل الممدوح لا يُنال بفعل محظور ؛ وسكوت هذا الواقع فى البئر محظور عليـه ، وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمى آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتلب بها النفع ، فإذا عطلها مدّعيا للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل ، وردّا لحكمة التواضع ؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى ، وليس من ضرورته قطع الأسباب ؛ ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار ؛ قاله سفيان الثّورى وغيره ، لأنه قد دلّ على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان على نفســه . وقال أبو الفـرج : ولا التفات إلى قول أبى حمـزة : « فجاء أسد فأخرجنى » فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله آتفاقا ، وقد يكون لطفا من الله تعالى بالعبد الجاهل ، ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به ، إنمـا ينكر فعله الذى هو كَسْبه ، وهو إعانته على نفسه التى هى وديعة لله تعالى عنده ، وقد أمره بحفظها .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَـلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّـا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَـةً وَيَدْرَءُونَ

Marfat.com

بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ظاهر فى صلة الأرحام، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات . ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل : فى قطع الرّحم . وقيل : فى جميع المعاصى . ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ . سوء الحساب الاستقصاء فيه والمناقشة ؛ ومن نوقش الحساب عُذّب . وقال ابن عباس وسعيد بن جُبَير : معنى . « يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ » الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم . الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم . ويحتمل رابعا : أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح ؛ « وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » فيما أمرهم بوصله ، « وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » فى تركه ؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا ، وبالله توفيقنا .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل : « الَّذِينَ » مستأنف ؛ لأن « صَبَرُوا » ماض فلا ينعطف على « يُوفُونَ » . وقيل : هو من وصف من تقدّم ، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضى ، وتارة بلفظ المستقبل ؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا ؛ ولما كان « الَّذِينَ » يتضمن الشرط [و] الماضى فى الشرط كالمستقبل جاز ذلك ؛ ولهذا قال : « الَّذِينَ يُوفُونَ » ثم قال : « وَالَّذِينَ صَبَرُوا » ثم عطف عليه فقال : « وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » قال ابن زيد : صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصية الله . وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب ، والحوادث والنوائب . وقال أبو عِمْران الجَوْنى : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله . (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) أدّوها بفروضها وخشوعها فى مواقيتها . ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعنى الزكاة المفروضة ؛ عن ابن عباس ، وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة »[1] وغيرها . ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أى يدفعون بالعمل

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٩ .

Marfat.com

الصالح السيء من الأعمال؛ قاله ابن عباس. ابن زيد: يدفعون الشر بالخير. سعيد بن جُبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضحاك: يدفعون الفحش بالسلام. جُوَيبر: يدفعون الظلم بالعفو. ابن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القُتَبي: يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسفه السيئة، والحلم الحسنة. وقيل: إذا همّوا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ»(١) ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: "وأَتْبِع السيئة الحسنةَ تمحُها وخالِق الناسَ بخُلُق حَسَن". قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبة الآخرة، وهي الجنة بدل النار، والدار غدا داران: الجنة للطيع، والنار للعاصي؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لامحالة. وقيل: عنى بالدار دار الدنيا؛ أي لهم جزاء ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي لهم جنات عدن؛ فـ«جَنَّاتُ عَدْنٍ» بدل من «عُقْبَى» ويجوز أن تكون تفسيرا لـ«عُقْبَى الدَّارِ» أي لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عُقْبَى الدَّارِ» حَدَث و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» عين، والحدث إنما يفسر بحدث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جَنَّاتُ عَدْنٍ» خبر ابتداء محذوف. و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» وسط الجنة وقَصَبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القُشَيري أبو نصر عبد الملك. وفي صحيح البخاري: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة" فيحتمل أن يكون «جنات» كذلك إن صح(٢) فذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن في الجنة قصرا يقال له عَدْن، حوله البُرُوج والمروج؛ فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبَرة(٣) لايدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. و«عدن» مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيه؛ على ماياتي بيانه في سورة «الكهف»(٤) إن شاء الله تعالى. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يجوز أن

---

(١) راجع ص ١١٠ من هذا الجزء.　(٢) في ى: خير.　(٣) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها): ضروب من البرود اليمنية المخطط.　(٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٥ فما بعد.

Marfat.com

يكون معطوفا على « أُولَئِكَ » المعنى : أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار. ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير المرفوع فى « يَدْخُلُونَهَا » وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم ؛ أى من كان صالحا، لا يدخلونها بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « مَنْ » نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آبائهم، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامة لهم . وقال ابن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول ، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعيّة . قال القُشَيْرِىّ : وفى هذا نظر ؛ لأنه لابد من الإيمان، فالقول فى اشتراط العمل الصالح كالقول فى اشتراط الإيمان . فالأظهر أن هذا الصلاح فى جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غدًا تتمّ عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم فى الجنة ، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ؛ بل برحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ أى بالتحف والهدايا من عند الله تكرمة لهم . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم ﴾ أى يقولون : سلام عليكم؛ فأضمر القول، أى قد سلمتم من الآفات والمحن . وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أى سلمكم الله ، فهو خبر معناه الدعاء؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية . ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أى بصبركم ؛ فـ«ـما» مع الفعل بمعنى المصدر، والباء فى « بما » متعلقة بمعنى « سَلَامٌ عَلَيْكُم » ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أى هذه الكرامة بصبركم، أى على أمر الله تعالى ونهيه ؛ قاله سعيد بن جُبَير. وقيل: على الفقر فى الدنيا؛ قاله أبو عِمران الجونىّ . وقيل : على الجهاد فى سبيل الله ؛ كما روى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله" ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : " المجاهدون الذين تُسَدّ بهم الثغور وتُتّقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبى صلى الله عليه وسلم يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : " السلام عليكم بما صبرتم فنعم

Marfat.com

عقبى الدار" وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره البيهقي عن أبى هريرة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتى الشهداء، فإذا أتى فرضة الشعب[1] يقول: "السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار". ثم كان أبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم يفعله، وكان عمر بعد أبى بكر يفعله، وكان عثمان بعد عمر يفعله. وقال الحسن البصرى رحمه الله: «بما صبرتم» عن فضول الدنيا. وقيل: «بما صبرتم» على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية؛ قال معناه الفضيل بن عياض. ابن زيد: «بما صبرتم» عما تحبونه إذا فقدتموه. ويحتمل سابعا — «بما صبرتم» عن اتباع الشهوات. وعن عبد الله بن سلام وعلى بن الحسين رضى الله عنهم [أنهما[2] قالا]: إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقم أهل الصبر؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ قالوا: قبل الحساب؟ قالوا نعم! فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها عن معاصى الله وصبرناها على البلاء والمحن فى الدنيا. قال على بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وقال ابن سلام: فتقول لهم الملائكة: «سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ». «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» أى نعم عاقبة الدار التى كنتم فيها؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذى أنتم فيه؛ فالعقبى على هذا اسم، و «الدار» هى الدنيا. وقال أبو عمران الجونى: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن النار. وعنه: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن الدنيا.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾

(١) فرضة الشعب: فوهته. والشعب: ما انفرج بين جبلين. والشهداء كانوا بجبل أحد.
(٢) فى الأصل: «أنه قال».

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ لما ذكر الموفين بعهده ، والمواصلين لأمره ، وذكر مالهم ذكر عكسهم . نقض الميثاق : ترك أمره . وقيل : إهمال عقولهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ أى من الأرحام. والإيمان بجميع الأنبياء . ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى بالكفر وآرتكاب المعاصى ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أى الطرد والإبعاد من الرحمة . ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أى سوء المنقلب، وهو جهنم . وقال سعد بن أبى وقاص : والله الذى لا إله إلا هو ! إنهم الحرورية .

قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بيّن أنه تعالى الذى يبسط الرزق ويقدر فى الدنيا، لأنها دار آمتحان ؛ فبسط الرزق على الكافر لا يدلّ على كرامته ، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدلّ على إهانتهم . « وَيَقْدِرُ » أى يضيق ؛ ومنه . « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ »[1] أى ضيّق . وقيل : « يقدر » يعطى بقدر الكفاية . ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعنى مشركى مكة ؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجهلوا ماعند الله؛ وهو معطوف على « وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » . وفى الآية تقديم وتأخير؛ التقدير : والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا . ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أى فى جنبها . ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أى متاع من الأمتعة، كالقصعة والسُّكُرُّجة[2] . وقال مجاهد : شيء قليل ذاهب ؛ من مَتَعَ النهارُ إذا ارتفع ، فلابدّ له من زوال . آبن عباس : زادٌ كزاد الراعى . وقيل : متاع الحياة الدنيا مايُستمتع بها منها . وقيل : مايتزود منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ، « وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » ثم آبتدأ . « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسّع ويضيّق .

قوله تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٧٠ . (٢) السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهى فارسية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ بين في مواضع أن آقتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدلّ على الصدق . والقائل عبد الله ابن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات . ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ ﴾ عزّ وجلّ ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي كما أضلكم بعد ماأنزل من الآيات وحرمكم الآستدلال بها يضلكم عند نزول غيرها . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي من رجع . والهاء في « إليه » للحق ، أو للإسلام ، أو لله عزّ وجلّ ؛ على تقدير : ويهدى إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه . وقيل : هي للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ « الذين » في موضع نصب ، لأنه مفعول ؛ أي يهدى الله الذين آمنوا . وقيل بدل من قوله : « مَنْ أَنَابَ » فهو في محل نصب أيضا . ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن ؛ قال : أي وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم ؛ قاله قتادة : وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : بالقرآن . وقال سفيان بن عيينة : بأمره . مقاتل : بوعده آبن عباس : بالحلف باسمه ، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه ؛ كما توجل بذكر عدله وآنتقامه وقضائه . وقيل : « بِذِكْرِ اللَّهِ » أي يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة . ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أي قلوب المؤمنين . قال آبن عباس : هـذا في الحلف ؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : « بِذِكْرِ اللَّهِ » أي بطاعة الله . وقيل : بثواب الله . وقيل : بوعد الله . وقال مجاهد : هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ ﴾ آبتداء وخبره . وقيل : معناه لهم طُوبَى ، فـ « طُوبَى » رفع بالآبتداء ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : جعل

Marfat.com

لهم طُوبى، ويعطف عليه «وَحُسْنُ مَآب» على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب.
وذكر عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر عن يحيى بن أبي كَثير عن عمرو بن أبي يزيد البِكَالِي عن عُتْبة ابن عَبْد السُّلَمى قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض فقال: فيها فاكهة؟ قال: "نعم شجرة تدعى طوبى" قال: يا رسول الله! أي شجرة أرضنا تشبه؟ قال "لا تشبه شيئا من شجر أرضك أأتيت الشام هناك شجرة تدعى الجوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها". قال: يا رسول الله! فما عظم أصلها! قال: لو ٱرْتَحَلت جَذَعة من إبل أهلك ما أحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتها هَرَما". وذكر الحديث، وقد كَتَبْنَاه بكماله في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»، والحمد لله. وذكر ٱبن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر عن الأشعث عن عبد الله عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوبى؛ يقول الله تعالى لها: تفتَّق لعبدي عما شاء؛ فتَفَتَّق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، وتَفَتَّق عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النَّجائب والثِّياب.
وذكر ٱبن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبي أُمامة الباهلي قال: «طُوبَى» شجرة في الجنة ليس منها دار إلا وفيها غصن منها، ولا طير حسن إلا هو فيها، ولا ثمرة إلا هي منها؛ وقد قيل: إن أصلها في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة، ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة، كما ٱنتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا. وقال ٱبن عباس: «طُوبَى لَهُمْ» فرح لهم وقرة عين؛ وعنه أيضا أن «طوبى» ٱسم الجنة بالحبشية؛ وقاله سعيد بن جُبَير. الربيع بن أنس: هو البستان بلغة الهند؛ قال القُشَيْري: إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين.
وقال قَتَادة: «طُوبَى لَهُمْ» حسنى لهم. عِكْرِمة: نعمى لهم. إبراهيم النَّخَعي: خير لهم؛ وعنه أيضا كرامة من الله لهم. الضَّحاك: غبطة لهم. النحاس: وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب؛ أي العيش الطِّيب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطِّيب.
وقال الزَّجاج: طُوبَى فُعْلى من الطِّيب، وهي الحالة المستطابة لهم؛ والأصل طُيْبَى، فصارت الياء واوا لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا: موسر وموقن.

Marfat.com

قلت : والصحيح أنها شجرة؛ للحديث المرفوع الذى ذكرناه، وهو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلى ؛ ذكره أبو عمر فى التمهيد، ومنه نقلناه؛ وذكره أيضا الثعلبي فى تفسيره ؛ وذكر أيضا المهدوى والقُشَيرى عن معاوية بن قُرَّة عن أبيــه أن رسول الله صلى الله عليه وســلم قال : "طوبى شجرة فى الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبت الحليّ والحُلَل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة" ومن أراد زيادة على هــذه الأخبار فليطالع الثعلبيّ . وقال آبن عباس : « طُــوبَى » شجرة فى الجنــة أصلها فى دار عليّ ، وفى دار كل مؤمن منهـا غُصْن . وقال أبو جعفر محمد بن على : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : «طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ» قال : "شجرة أصلها فى دارى وفروعها فى الجنة" ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : "شجرة أصلها فى دار عليّ وفروعها فى الجنــة" . فقيل له : يا رســول الله ! سئلت عنها فقلت : "أصلها فى دارى وفروعها فى الجنــة" ثم سئلت عنها فقلت : "أصلها فى دار على وفروعها فى الجنة" فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن دارى ودار عليّ غدا فى الجنة واحدة فى مكان واحد" وعنه صلى الله عليه وسلم : "هى شجرة أصلها فى دارى وما من دار من دوركم إلا مُدَلّى فيها غصن منها" ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ آب إذا رجع . وقيــل : تقدير الكلام الَّذِينَ آمَنُـوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

قوله تعــالى : ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أى أرسلناك كما أرسلنا الأنبيــاء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شبّه الإنعام على من أُرسل إليه محمد عليه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ قال مقــاتل وآبن جُريج : نزلت فى صُلح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا

Marfat.com

أن يكتبوا كتاب الصُّلح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سُهَيل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة ، يعنون مُسَيْلِمة الكذاب ، اكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : "اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك ؛ ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله ؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا نقاتلهم ؛ فقال : "لا ولكن اكتب ما يريدون" فنزلت . وقال ابن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : "اسجدوا للرحمن" (١) قالوا وما الرحمن ؟ فنزلت . ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : الذي أنكرتم . ﴿ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ولا معبود سواه ، هو واحد بذاته ، وإن اختلفت أسماء صفاته . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ واعتمدت ووثقت . ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي مرجعي غدا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت ، رضًا بقضائه ، وتسليما لأمره . وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحِجْر ويقول : "يا الله يا رحمن" فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل . « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ » (٢) .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ هذا متصل بقوله : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » . وذلك أن نفرا من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية المخزوميان

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٢ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٦٤ .

Marfat.com

جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم؛ فقال له عبد الله : إن سرّك أن نتبعك فسيِّر لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنّا حتى تنفسح؛ فإنها أرض ضيّقة، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا، حتى نغرس ونزرع؛ فلستَ كما زعمتَ بأهون على ربك من داود حين سخّر له الجبال تسير معه، وسخِّر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضي عليها ميرتنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا؛ فقد كان سليمان سخّرت له الريح كما زعمتَ؛ فلستَ بأهون على ربك من سليمان بن داود، وأحْيِ لنا قُصَيًّا[1] جدّك، أو من شئتَ أنت من موتانا نسأله؛ أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولست بأهون على الله منه؛ فأنزل الله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» الآية؛ قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضّحاك؛ والجواب محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازا، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه؛ كما قال امرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً * وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

يعنى لهان علىّ؛ هذا معنى قول قتادة؛ قال: لو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم. وقيل: الجواب متقدم، وفى الكلام تقديم وتأخير؛ أى وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا. الفراء: يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن. الزّجاج: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا» إلى قوله: «الْمَوْتَى» لما آمنوا، والجواب المضمر هنا ما أظهر فى قوله: «وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ» إلى قوله: «مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ»[2]. ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أى هو المالك لجميع الأمور، الفاعل لما يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الفراء قال الكلبى: «ييئس» بمعنى يعلم، لغة النّخع؛ وحكاه القُشَيْرى عن ابن عباس؛ أى أفلم يعلموا؛ وقاله الجوهرى فى الصحاح.

---

(١) هو قصى بن كلاب.

(٢) راجع جـ ٧ ص ٦٦.

Marfat.com

وقيل : هو لغة هَوَازِن ؛ أى أفلم يعلم ؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن . وقال أبو عبيدة : أفلم يعلموا ويتبيّنوا ، وأنشد فى ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصرى[1] :

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونَنِي * أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّى ٱبْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

يَيْسرونى من المَيْسر ، وقد تقدم فى « البقرة »[2] ويروى يأسرونى من الأَسْر . وقال رَباح بن عدىّ :

أَلَمْ يَيْئَسِ الأقوامُ أَنّى [أنا][3] ٱبْنُهُ * وإنْ كنتُ عن أرضِ العَشِيرةِ نائيًا

فى كتاب الرد « أنى أنا آبنه » وكذا ذكره الغزنوى : ألم يعلم ؛ والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس المعروف ؛ أى أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم ؛ لأن المؤمنين تمنّوا نزول الآيات طمعا فى إيمان الكفار . وقرأ علىّ وابن عباس : « أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ الَّذِينَ آمَنُوا » من البيان . قال القُشيرى : وقيل لابن عباس المكتوب « أَفَلَمْ يَيْئَسِ » قال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس ؛ أى زاد بعض الحروف حتى صار « ييئس » . قال أبو بكر الأنبارىّ : روى عن عِكرمة عن ابن أبى نجيح أنه قرأ — «أفلم يتبين الذين آمنوا» وبها احتجّ من زعم أنه الصواب فى التلاوة ؛ وهو باطل عن ابن عباس ، لأن مجاهدا وسعيد بن جُبَير حكيا الحرف عن ابن عباس ، على ما هو فى المصحف بقراءة أبى عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جُبَير عن ابن عباس ؛ ثم إن معناه : أفلم يتبين ؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التى خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها ، وتأتى بتأويلها ، وإن أراد الله المعنى الآخر الذى اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردوا ؛

---

(١) ذكر فى « لسان العرب » أن قائل البيت هو سحيم بن وثيل اليربوعى ؛ وذكر بعض العلماء أنه قال لولده جابر ابن سحيم بدليل قوله فيه : « أنى ابن فارس زهدم » وزهدم : فرس سحيم . وقوله : ييسروننى من إيسار الجزور ؛ أى يجتزروننى و يقتسموننى ؛ وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه سباء فضربوا عليه بالميسر يحاسبون على قسمة فدائه .

(٢) راجع ج ٣ ص ٥٣ .

(٣) من البحر لأبى حيان ، وكتاب الرد .

Marfat.com

وأمّا سقوطه يبطل القرآن ، ولزوم أصحابه البهتان . ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ « أن » مخففة من الثقيلة ، أي أنه لو يشاء الله ﴿لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وهو يرد على القدرية وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوهم ؛ ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمع قوارع ؛ والأصل في القرع الضرب ؛ قال (١) :

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبٍ * قَرْعُ القَوَاقِيزِ أَفْوَاهَ الأَبَارِيقِ

أي لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أربد أو من قتل أو من أسر أو جدب ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء ؛ كما نزل بالمستهزئين ، وهم رؤساء المشركين . وقال عكرمة عن ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضا وعكرمة : القارعة الطلائع والسرايا التي كان يُنفذها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أي القارعة . ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قاله قتادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تحلّ أنت قريبا من دارهم . وقيل : نزلت الآية بالمدينة ؛ أي لا تزال تصيبهم القوارع فتنزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقُرى المدينة ومكة . ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ في فتح مكة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : نزلت بمكة ؛ أي تصيبهم القوارع ، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد . فتحلّ قريبا من دارهم ، أو تحلّ بهم محاصرا لهم ؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولقلاع خيبر ، ويأتي وعد الله بالإذن لك في قتالهم وقهرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا

(١) هو الأقيشر الأسدي ، واسمه المغيرة بن عبد الله . والتلاد : المال القديم الموروث . والنشب : الضياع والبساتين وما جدده بعمله . والقوافيز (جمع قاقوزة) وهي أوان يشرب بها الخمر .

Marfat.com

عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ تقدم معنى الاستهزاء فى « البقرة »(١) ومعنى الإملاء فى « آل عمران »(٢) أى سَخِر بهم، وأزرى عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان فى علمى أنه يؤمن منهم؛ فلما حقّ القضاء أخذتهم بالعقوبة . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى فكيف رأيت ماصنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركى قومك .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ليس هـذا القيام القيام الذى هو ضدّ القعود، بل هو بمعنى التولّى لأمور الخلق؛ كما يقال : قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أى يقدرها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها؛ فالمعنى : أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف؛ والمعنى : أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل . وقيل : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ » أى عالم؛ قاله الأعمش . قال الشاعر :

فلولا رجالٌ من قريشٍ أعِزّةٌ * سَرقتُم ثيابَ البيتِ واللهُ قائمُ

أى عالم؛ فالله عالم بكسب كل نفس . وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكلون ببنى آدم؛ عن الضحاك . ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ حال؛ أى أو قد جعلوا، أو عطف على «ٱسْتُهْزِئَ» أى ٱستهزءوا وجعلوا؛ أى سمّوا ﴿ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ يعنى أصناما جعلوها آلهـة . ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أى قل لهم يا محمد : «سَمُّوهُمْ» أى بيّنوا أسماءهم، على جهة التهديد؛ أى إنما يسمّون : اللات والعُزّى ومَنَاة وهُبَل . ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ « أم » استفهام توبيخ، أى أتنبئونه؛ وهو على التحقيق عطف على ٱستفهام متقـدّم فى المعنى؛ لأن قوله : « سَمُّوهُمْ » معنـاه : أَلَهُمْ أسماء الخالقين . «أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ»؟ . وقيل : المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه . «أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ» يعلمه؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه أحالوا، وإن قالوا :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٧ فما بعد .   (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٨٦ فما بعد .

Marfat.com

بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ؛ فإذا سموهم اللّات والعُـزّى فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكا . وقيـل : « أَمْ تُنَبِّئُونَهُ » عطف على قوله : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ » أى أفمن هو قائم ، أم تنبئون الله بمـا لا يعلم ؛ أى أنتم تدعون لله شريكا ، والله لا يعلم لنفسه شريكا ؛ أفتنبئونه بشريك له فى الأرض وهو لا يعلمه ! وإنمـا خصّ الأرض بنفى الشريك عنها وإن لم يكن له شريك فى غير الأرض لأنهم آدّعوا له شركاء فى الأرض . ومعنى ﴿ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ : الذى أنزل الله على أنبيائه . وقال قَتَادة : معناه بباطل من القول ؛ ومنه قول الشاعر :

أَعَيَّرْتَنَـا أَلْبَانَهـا ولُحُـومَهَا ⁎ وذلِكَ عارٌ يابن رَيْطَةَ ظَاهِرُ

أى باطل . وقال الضّحاك : بكذب من القول . ويحتمل خامسا[(١)] — أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم ؛ ويكون معنى الكلام : أتخبرونه بذلك مشاهدين ، أم تقولون محتجين . ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ أى دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكرهم ؛ قيل : آستدراك على هـذا الوجه ، أى ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكرهم . وقرأ آبن عبـاس ومجاهد — « بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ » مسمّى الفاعل ؛ وعلى قراءة الجماعة فالذى زَيَّن للكافرين مكرهم الله تعـالى ، وقيل : الشيطان . ويجوز أن يسمى الكفر مكرا ؛ لأن مكرهم بالرسول كان كفرا . ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى صدّهم الله ؛ وهى قراءة حمزة والكسائى . الباقون بالفتح ؛ أى صدّوا غيرهم ؛ واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ »[(٢)] وقـوله : « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ »[(٣)] . وقراءة الضم أيضا حسنة فى « زين » و « صدّوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك فى مذهب أهل السنة ؛ ففيه إثبات القَدَر ، وهو اختيار أبى عبيد . وقرأ يحيى بن وثّاب وعلقمة — « وصِدّوا » بكسر الصاد ؛ وكذلك . « هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا »[(٤)] بكسر الراء أيضا على مالم يسم فاعله ؛ وأصلها صددوا ورددت ، فلمـا أدغمت الدال الأولى فى الثانيـة نقلت حركتهـا على ما قبلهـا فانكسر . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ ﴾ بخذلانه . ﴿ فَمَـا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى موفّق ؛ وفى هذا إثبات قراءة الكوفيين

(١) كذا فى الأصول . ويبدو أن فى العبارة نقصا ، ولعل الرابع ما فى البحر : وقيـل . . أم متصلة والتقدير أم تنبؤنه بظاهر من القول لا حقيقة له .
(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٥ .
(٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٣ .
(٤) راجع ص ٢٢٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

ومن تابعهم؛ لقــوله : « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ » ، فكذلك قوله : « وَصُدُّوا » . ومعظم القراء يقفون على الدال من غير الياء؛ وكذلك « والٍ » و « واقٍ » ؛ لأنك تقول فى الرجل : هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين . وقرئ « فَمَا لَهُ مِنْ هَادِى » ، و « وَالِى » و « وَاقِى » بالياء؛ وهو على لغة من يقول : هذا داعى ووالى وواقى بالياء؛ لأن حذف الياء فى حالة الوصل لالتقائها مع التنوين، وقد أمنا هذا فى الوقف؛ فردّت الياء فصار هادى ووالى وواقى . وقال الخليل فى نداء قاضٍ : يا قاضى بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النداء، كما لا تنوين فى نحو الداعى والمتعالى .

قوله تعـالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى للشركين الصادّين، بالقتل والسّبى والإسار، وغير ذلك من الأسقام والمصائب . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أى أشـدّ؛ من قولك : شَـقّ علىّ كذا يَشُـقّ . ﴿ وَمَا لَهُـمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ أى مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع . و « مِن » زائدة .

قوله تعـالى : مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ آختلف النحاة فى رفع « مَثَلُ » فقال سيبويه : آرتفع بالابتـداء والخبر محذوف؛ والتقدير : وفيما يتـلى عليكم مَثَلُ الجنـة . وقال الخليل : آرتفع بالابتداء وخبره « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى صفة الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ كقولك : قولى يقوم زيد؛ فقولى مبتدأ، ويقوم زيد خبره؛ والمثل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ »(١) وقال : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى »(٢) أى الصفة العليا؛ وأنكره أبو على وقال : لم يسمع مَثَل بمعنى الصفة؛ إنمـا معناه الشبه ؛ ألا تراه يجرى مجـراه فى مواضعه ومتصرفاته ، كقولهم : مررت برجل مثلك ؛ كما تقول : مررت برجل شبهك؛ قال : ويفسد أيضا من جهة المعـنى؛ لأن مثلا

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٩٢ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٩ .

Marfat.com

إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام : صفة الجنة التى فيها أنهار، وذلك غير مستقيم؛ لأن الأنهار فى الجنة نفسها لا صفتها . وقال الزجاج: مَثَّل الله عز وجل لنا ما غاب عنا بما نراه؛ والمعنى : مَثَلُ الجنّة جَنّةٌ تجرى من تحتها الأنهار؛ وأنكره أبو علىّ فقال : لا يخلوا المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفى كلا الوجهين لا يصح ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح، لأنك إذا قلت : صفة الجنّة جنّة، فجعلت الجنة خبرا لم يستقم ذلك؛ لأن الجنة لا تكون الصفة، وكذلك أيضا شبه الجنة جنة؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التى بين المتماثلين ، وهو حَدَث؛ والجنّة غير حَدَث؛ فلا يكون الأول الثانى . وقال الفراء : المثل مقحم للتأكيد؛ والمعنى : الجنّة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ والعرب تفعل ذلك كثيرا بالمثل؛ كقوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »(1)(2)؛ أى ليس هو كشىء . وقيل التقدير : صفة الجنة التى وعد المتقون صفة جنّة «تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» . وقيل معناه : شبه الجنة التى وعد المتقون فى الحسن والنعمة والخلود كشبه النار فى العذاب والشدّة والخلود؛ قاله مقاتل . ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ لا ينقطع؛ وفى الخبر : " إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى " وقد بيناه فى «التذكرة» . ﴿وَظِلُّهَا﴾ أى وظلها كذلك؛ فحذف؛ أى ثمرها لا ينقطع، وظلّها لا يزول؛ وهذا ردّ على الجَهْمِيّة فى زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى . ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أى عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى بعض من أوتى الكتاب يفرح بالقرآن ، كابن سَلَام وسَلْمان، والذين جاءوا من الحبشة؛ فاللفظ عام، والمراد الخصوص. وقال قَتادة: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن؛ وقاله مجاهد

(1) راجع جـ ١٦ ص ٨ . (2) فى ى : ليس كهو شىء .

Marfat.com

وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم . وقال أكثر العلماء : كان ذكر الرحمن فى القرآن قليلا فى أول ما أنزل ، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة ؛ فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فأنزل الله تعالى : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ »(١) فقالت قريش : ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين ، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مسيلمة الكذاب ؛ فنزلت : « وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ »(٢) « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ » ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : « وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » . ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ يعنى مشركى مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزبون على النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : ومن أعداء المسلمين من ينكر بعض ما فى القرآن ؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرأ أبو خالد(٣) بالرفع على الاستئناف أى أفرده بالعبادة وحده لا شريك له ، وأتبرأ عن المشركين ، ومن قال : المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، ومن اعتقد التشبيه كاليهود . ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أى إلى عبادته أدعو الناس . ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أى أرجع فى أمورى كلها .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا ؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربى ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الآية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا ، أى بلسان العرب ؛ ويريد بالحكم مافيه

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٢ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٧ .
(٣) فى حـ و ا و ى : أبو خليد : وهو عتبة بن حماد الحكمى روى عن نافع . غاية النهاية .

Marfat.com

من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم.
﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى أهواء المشركين فى عبادة ما دون الله، وفى التوجيه إلى غير الكعبة. ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى ناصر ينصرك. ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يمنعك من عذابه؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد الأمة.

قوله تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)

فيه مسئلتان:

الأولى — قيل: إن اليهود عابوا على النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج، وعيرته بذلك وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن النساء؛ فأنزل الله هذه الآية، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أى جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص فى الوحى.

الثانية — هذه الآية تدل على الترغيب فى النكاح والحض عليه، وتنهى عن التبتل، وهو ترك النكاح، وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية، والسنة واردة بمعناها؛ قال صلى الله عليه وسلم: "تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم" الحديث. وقد تقدم فى «آل عمران»(١) وقال: "من تزوج فقد آستكمل نصف الدين فليتق الله فى النصف الثانى"(٢). ومعنى ذلك أن النكاح يعف عن الزنى، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما الجنة فقال: "من وقاه الله شر آثنتين ولج الجنة ما بين لحييه وما بين رجليه" خرجه الموطأ وغيره. وفى صحيح البخارى عن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي

(١) راجع ج ٤ ص ٧٢ فما بعد. (٢) روى ابن الجوزى فى العلل "من تزوج فقد أحرز نصف دينه فليتق الله فى النصف الباقى" وراجع الحديث بطرقه فى ج ٢ كشف الخفا ص ٢٣٩ ففيه بحث.

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ماتقدّم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم : أمّا أنا فإنى أصلّى الليل أبدا ، وقال الآخر : إنى أصوم الدهر فلا أُفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم [إليهم] (١) فقال : "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأُفطر وأصلّى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنّتى فليس منى". خرجه مسلم بمعناه؛ وهذا أبين . وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقّاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولو أجاز له ذلك لاَختصينا ، وقد تقدم في « آل عمران » (٢) الحضّ على طلب الولد والردّ على من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : إنى لأتزوج المرأة ومالى فيها من حاجة ، وأطؤها وما أشتهيها ؛ قيل له : وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : حبّى أن يخرج الله منّى من يكاثر به النبي صلى الله عليه وسلم النبيّين يوم القيامة ؛ وإنى سمعته يقول : "عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواها وأحسن أخلاقا وأنتق أرحاما وإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة" يعنى بقوله : "أنتق أرحاما" أقبل للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق ؛ لأنها ترمى بالأولاد رميا . وخرج أبو داود عن معقِل بن يَسار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أصبت آمرأة ذات حسب وجمال ، وأنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال "لا" ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال : "تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم" . صححه أبو محمد عبد الحق وحسْبك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ عاد الكلام إلى ما آقترحوا من الآيات — ماتقدم ذكره فى هذه السورة — فأنزل [الله] (٣) ذلك فيهم؛ وظاهر الكلام حظر ومعناه النفى؛ لأنه لا يحظر على أحد مالا يقدر عليه . ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أى لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، المعنى : لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء

(١) من ى . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٢ ، وجـ ٦ ص ٢٦٠ فما بعد . (٣) من ع .

Marfat.com

والضحاك؛ أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت، ووقت معلوم؛ نظيره. «لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ»(١)؛ بين أن المراد ليس على اقتراح الأمم فى نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب. وقيل: المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقدر لا تقف عليه الملائكة. وذكر الترمذي الحكيم فى «نوادر الأصول» عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال: لما آرتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طور سيناء رأى الجبار فى إصبعه خاتما، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قال: شيء من حلى الرجال، قال: فهل عليه شيء من أسمائى مكتوب أو كلامى؟ قال: لا، قال: فاكتب عليه «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ».

قوله تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)

قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتى به. «وَيُثْبِتُ» ما يشاء؛ أى يؤخره إلى وقته؛ يقال: محوت الكتاب محوا، أى أذهبت أثره. «وَيُثْبِتُ» أى ويثبته؛ كقوله: «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ»(٢) أى والذاكرات الله.

وقرأ آبن كثير وأبو عمرو وعاصم «وَيُثْبِتُ» بالتخفيف، وشدد الباقون؛ وهى قراءة آبن عباس، وآختيار أبى حاتم وأبى عبيد لكثرة من قرأ بها؛ لقوله: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا»(٣). وقال آبن عمر: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت". وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء(٤)؛ الخلق والخُلُق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة؛ وعنه: هما كتابان سوى أم الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الذى لا يتغير منه شيء. قال القشيري: وقيل السعادة والشقاوة والخَلق والخُلُق والرزق لا تتغير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفى هذا القول نوع تحكم.

قلت: مثل هذا لا يدرك بالرأى والآجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفا، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة فى جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم، وهذا

(١) راجع ج ٧ ص ١١.
(٢) راجع ج ١٤ ص ١٨٥.
(٣) راجع ص ٣٦٢ من هذا الجزء.
(٤) فى أ و ز: إلا ستا.

Marfat.com

يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وآبن مسعود وأبى وائل وكعب الأحبار وغيرهم، وهو قول الكلبي . وعن أبى عثمان النهدى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى و يقول : اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها ، و إن كنت كتبتنى فى أهل الشقاوة والذنب فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتنى فى السعداء فأثبتنى فيهم ، و إن كنت كتبتنى فى الأشـقياء فآمحنى من الأشقياء وآكتبنى فى السعداء؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعنـدك أم الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت كتبتنا أشـقياء فآمح وآكتبنا سعداء ، و إن كنت كتبتنا سـعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقال كعب لعمر بن الخطاب : لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة . « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » . وقال مالك ابن دينار فى المـرأة التى دعا لهـا : اللهم إن كان فى بطنها جارية فأبدلهـا غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقد تقدّم فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: "من سرّه أن يُبْسَط له فى رزقه ويُنْسَأ له فى أثره(1) فليَصِلْ رَحِمَه". ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ أَحَبَّ" فذكره بلفظه سواء ؛ وفيـه تأويلان : أحدهما — معنوى ؛ وهو ما يبقى بعـده من الثناء الجميل والذكر الحسن ، والأجر المتكرر ، فكأنه لم يمت . والآخر — يؤخر أجله المكتوب فى اللوح المحفوظ ؛ والذى فى علم الله ثابت لا تبدّل له ، كما قال : « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » . وقيل لآبن عباس لمـا روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أحب أن يمد الله فى عمره وأجله ويبسط له فى رزقه فليتق الله وليَصِلْ رَحِمَه" كيف يزاد فى العمر والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ »(2) . فالأجل الأوّل أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل

(1) الأثر : الأجل . سمى به لأنه يتبع العمر . وأصله من أثر مشيه فى الأرض فإن مات لا يبـقى له أثر ولا يرى لأقدامه فى الأرض أثر النهاية .

(2) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ .

Marfat.com

الثاني — يعني المسمى عنده — من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البَرْزخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البَرْزخ ماشاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أَجَل عمره في الدنيا ماشاء، فيزيده في أجل البَرْزَخ؛ فإذاتحتم الأَجل في علمه السابق آمتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى: « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »(١) فتوافق الخبر والآية؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأَجَل على ظاهر اللفظ، في آختيار حبر الأمة، والله أعلم. وقال مجاهد: يُحكم الله أمر السَّنة في رمضان فيمحو مايشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه. وقال الضّحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحَفَظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن آبن عباس. وقال الْكَلْبِي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم. ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويثبت مافيه الثواب والعقاب. وقال قَتَادة وآبن زيد وسعيد بن جُبَيْر: يمحو الله مايشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحدّثنا بكر بن سهل، قال حدّثنا أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، «يَمْحُو اللهُ مَايَشَاءُ» يقول: يبدل الله من القرآن مايشاء فينسخه، «ويثبت» ما يشاء فلا يبدله، « وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » يقول: جملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ والمنسوخ. وقال سعيد بن جُبَير أيضا: يغفر ما يشاء — يعني — من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره. وقال عِكرِمة: يمحو ما يشاء — يعني بالتوبة — جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [قال تعالى](٢): « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا »(٣) الآية. وقال

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠١.　　(٢) الزيادة من « البحر المحيط ».
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٧٧.

Marfat.com

الحسن : « يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ » من جاء أجله ، « وَيُثْبِتُ » من لم يأت أجله . وقال الحسن : يمحو الآباء، ويثبت الأبناء . وعنه أيضا : يُنسى الحفظة من الذنوب ولا يُنسى . وقال السدى : « يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ » يعنى : القمر، « وَيُثْبِتُ » يعنى : الشمس ؛ بيانه قوله : « فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً »(١) وقال الربيع بن أنس : هذا فى الأرواح حالة النوم ؛ يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته بجأة أمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه؛ بيانه قوله : « اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »(٢) الآية . وقال على بن أبى طالب يمحو الله مايشاء من القرون، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ »(٢) ويثبت مايشاء منها ، كقوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ »(٣) فيمحو قرنا ، ويثبت قرنا . وقيل : هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله ؛ فهو الذى يمحو ، والذى يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من ديوان السيئات ، ويثبته فى ديوان الحسنات ؛ ذكره الثعلبى والماوردى عن ابن عباس . وقيل : يمحو الله مايشاء — يعنى الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال قيس بن عُبَاد فى اليوم العاشر من رجب : هو اليوم الذى يمحو الله فيه ما يشاء، ويثبت فيه ما يشاء ؛ وقد تقدم عن مجاهد أن ذلك يكون فى رمضان . وقال ابن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء، لها دفتان من ياقوتة حمراء، لله فيه(٤) كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله سبحانه يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت مايشاء ويمحو مايشاء" . والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله ؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء ، وقد تقدم أن من القضاء ما يكون واقعا محتوما ، وهو الثابت ؛ ومنه ما يكون مصروفا بأسباب ، وهو المحو ، والله أعلم . الغزنوى : وعندى أن ما فى اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة؛ فيحتمل التبديل ؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال ؛ وما فى علمه من تقدير الأشياء لا يبدل . « وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » أى أصل ما كتب من الآجال

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٧ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٥ وص ٢٢ .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٢٠ فما بعد . (٤) من ى .

Marfat.com

وغيرها . وقيل : أم الكتاب اللوح المحفوظ الذى لا يبدّل ولا يغير . وقد قيل : إنه يجرى فيه التبديل . وقيل : إنما يجرى فى الجرائد الأخر . وسئل آبن عباس عن أم الكتاب فقال : عِلْم الله ماهو خالق، وما خلقُه عاملون؛ فقال لعلمه : كن كتابا، ولا تبديل فى علم الله. وعنه أنه الذِّكْر؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ »(١) وهـذا يرجع معناه إلى الأول؛ وهو معنى قول كعب . قال كعب الأحبار : أم الكتاب علم الله تعالى بما خلق وبمـا هو خالق .

قوله تعـالى : وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُـمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَـا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِـدُهُمْ ﴾ « ما » زائدة ، والتقدير : وإن نرينك بعض الذى نعدهم، أى من العذاب لقوله : « لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَـا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ فليس عليك إلا البلاغ؛ أى التبليغ؛ ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أى الجزاء والعقوبة .

قوله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعنى أهل مكة، ﴿ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ أى نقصـدها . ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » موت علمـائها وصلحائها . قال القُشَـيرى : وعلى هـذا فالأطراف الأشراف ؛ وقـد قال آبن الأعرابى : الطَّرَف والطُّرْف الرجل الكريم ؛ ولكن هـذا القول بعيـد ، لأن مقصود الآية : أنا أرينـاهم النقصان فى أمورهم ، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجـز ؛ إلا أن يحمل قول ابن عبـاس على موت أحبار اليهود والنصارى . وقال مجاهـد أيضا

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤٩ .

Marfat.com

وقتـادة والحسن : هو ما يغلب عليـه المسلمون ممـا فى أيدى المشركين ؛ وروى ذلك عن آبن عباس ، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران فى ناحية منها ؛ وعن مجاهد : نقصانها خرابها وموت أهلها . وذكر وكيع بن الجراح عن طلحة بن عُمَير عن عطاء بن أبى رَبَاح فى قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهاب فقهائها وخيار أهلها . قال أبو عمـر بن عبد البر : قول عطاء فى تأويل الآية حسن جدا؛ تلقاه أهل العلم بالقبول .

قلت : وحكاه المهدوى عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأول نفسه؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد، « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلمـاء ؛ ومعروف فى اللغـة أن الطَّرف الكريم من كل شىء ؛ وهـذا خلاف ما آرتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبـد الكريم من قول آبن عباس . وقال عِكْرِمة والشّعبى : هو النقصان وقبض الأنفس . قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حَشّك (١) . وقال الآخر : لضاق عليك حشّ تتبرز فيه . قيـل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبـل قريش وهلاك أرضهم بعدهم؛ والمعنى : أو لم تر قريش هلاك من قبلهم، وخراب أرضهم بعدهم؟ ! أفلا يخافون أن يحلّ بهم مثل ذلك؛ وروى ذلك أيضا عن آبن عباس ومجاهد وآبن جُرَيج . وعن آبن عباس أيضا أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها . وقيل : [نقصها] (٢) بجَوْر وُلاتها .

قلت : وهذا صحيح معنى ؛ فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وآنجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة ، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أى ليس يتعقب حكمـه أحد بنقص ولا تغيير . ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى الانتقام من الكافريـن ، سريع الثواب للؤمن . وقيل : لا يحتاج فى حسابه إلى رَوِيّة قلب ، ولا عقد بنَان؛ حسب ما تقدّم فى « البقرة » (٣) بيـانه .

(١) الحش : موضع قضاء الحاجة . (٢) ن ى . (٣) راجع جـ ٢ ص ٤٣٤ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى من قبل مشركى مكة ، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم . ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أى هو مخلوق له مكر الماكرين ، فلا يضر إلا بإذنه . وقيل : فلله خير المكر ؛ أى يجازيهم به . ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ، فيجازى عليه . ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ كذا قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو . الباقون : «الْكُفَّارُ» على الجمع . وقيل : عنى [به](١) أبو جهل . ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أى عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا ، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ؛ وهذا تهديد ووعيد .

قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قال قتادة : هم مشركو العرب ؛ أى لست بنبى ولا رسول ، وإنما أنت متقول ؛ أى لما لم يأتهم بما اقترحوا قالوا ذلك . ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ أى قل لهم يا محمد : « كَفَى بِاللَّهِ » أى كفى الله ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بصدق وكذبكم . ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهذا احتجاج على مشركى العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — فى التفاسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم ؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وتميم الدارى والنجاشى وأصحابه ؛ قاله قتادة وسعيد بن جبير . وروى الترمذى عن ابن أخى عبد الله بن سلام قال : لما أريد [قتل] عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال له عثمان : ماجاء بك؟ قال : جئت فى نصرتك ؛ قال : اخرج إلى الناس فاطردهم عنى ، فإنك خارج خير لى من داخل ؛ [قال](١) فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس فقال : أيها الناس ! إنه كان اسمى فى الجاهلية فلان(٢) ، فسمانى

(١) من ى .	(٢) فى ى : سفين ، ولعله تحريف عن حصين .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، ونزلت فيّ آيات من كتاب الله؛ فنزلت فيّ . « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » (١) ونزلت فيّ . « قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بكماله في كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جُبَيْر « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » ؟ قال : هو عبد الله بن سَلَام .

قلت : وكيف يكون عبد الله بن سَلَام وهذه السورة مكية (١) وآبن سَلَام ما أسلم إلا بالمدينة ؟ ! ذكره الثعلبي . وقال القُشَيري : وقال آبن جُبَير السورة مكية وآبن سَلَام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على آبن سَلَام؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول آبن عباس . وقال الحسن ومجاهد والضّحاك : هو الله تعالى؛ وكانوا يقرءون « وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سَلَام وسَلْمان؛ لأنهم يَرَوْن أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة . ورُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمِ الْكِتَابِ » وإن كان في الرواية ضعف ، وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وروى محبوب عن إسمعيل بن محمد اليمانيّ أنه قرأ كذلك — « وَمِنْ عِنْدِهِ » بكسر الميم والعين والدال « عُلِمَ الْكِتَابُ » بضم العين ورفع الكتاب . وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سَلَام فقال : إنما ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين، والله أعلم . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه عليّ فعوّل على أحد وجهين : إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه . ولقول النبي صلى الله عليه وسلم . " أنا مدينة العلم وعلى بابها " وهو حديث باطل (٢)؛ النبيّ صلى الله عليه وسلم مدينة علم وأصحابه أبوابها؛ فمنهم الباب المنفسح، ومنهم المتوسط ، على قدر منازلهم في العلوم . وأما من قال

(١) قيل : السورة مدنية إلا « ولو أن قرآنا » الآيتين . قاله قتادة . وفيهما مدني كثير كقصة بن الطفيل وأربد . ابن عطية .

(٢) في كشف الخفا بحث قيم في هذا الحديث جـ ١ ص ٢٠٣ فما بعد . وجزم ابن تيمية بأنه من وضع الشيعة .

Marfat.com

أنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يَعْلَم الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال هو عبد الله بن سَلَام فعول على حديث الترمذيّ؛ وليس يمتنع أن ينزل فى عبد الله بن سَلَام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لفظا ؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى قريشا؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفة النبوّة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سَلَام وغيره يحتمل أيضا؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التى أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

[صلى الله على محمد وآله وسلم تسليما](١)

تفسـير سـورة إبراهـيم

مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنيتين وقيل : ثلاث ، نزلت فى الذين حاربوا الله ورسوله وهى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً » إلى قوله : « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » .

قوله تعالى : الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ تقدم معناه . ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ أى بالكتاب ، وهو القرآن ، أى بدعائك إليه . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم ؛ وهذا على التمثيل ؛ لأن الكفر بمنزلة الظلمة ؛ والإسلام بمنزلة النور . وقيل : من البدعة إلى السُّنة ، ومن الشك إلى اليقين ؛ والمعنى متقارب . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، والباء فى « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » متعلقة بـ«تخرج» وأضيف الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعى والمنذر الهادى . ﴿ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقلِ الفاضلِ من غير واو ، لأنهما شيء واحد ؛ والله هو العزيز الذى لا مثل له ولا شبيه . وقيل : « الْعَزِيزِ » الذى لا يغلبه غالب . وقيل : « الْعَزِيزِ » المنيع فى ملكه وسلطانه . « الْحَمِيدِ » أى المحمود بكل لسان ، والممجد فى كل مكان على كل حال . وروى مِقْسَم عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعيسى بن مريم ، وقوم كفروا به ، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعيسى ، وكفر الذين آمنوا بعيسى ؛ فنزلت هذه الآية ، ذكره الماوردى .

(١) فى و ، ى .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى ملكا وعبيدا وآختراعا وخلقا. وقرأ نافع وآبن عامر وغيرهما : «اللهُ» بالرفع على الآبتداء «الَّذى» خبره . وقيل : « الَّذى » صفة ، والخبر مضمر؛ أى الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض قادر على كل شيء . الباقون بالخفض نعتا للعزيز الحميد فقدم النعت على المنعوت ؛ كقولك : مررت بالظريف زيدٍ . وقيل : على البدل من « الْحَمِيدِ » وليس صفة؛ لأن اسم الله صار كالعَلَم فلا يوصف؛ كما لا يوصف بزيد وعمرو، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأن معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد . وقال أبو عمرو : والخفض على التقديم والتأخير، مجازه : إلى صراط الله العزيز الحميد الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . وكان يعقوب إذا وقف على «الْحَمِيدِ» رفع، وإذا وصل خفض على النعت . قال آبن الأنبارى : من خفض وقف على « وَمَا فِي الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قد تقدّم معنى الويل فى «البقرة»[(1)] وقال الزجاج : هى كلمة تقال للعذاب والهلكة . « مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » أى فى جهنم . ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك . فـ«الَّذِينَ» فى موضع خفض صفة لهم . وقيل : فى موضع رفع خبر ابتداء مضمر؛ أى هم الذين . وقيل : « الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ» مبتدأ وخبره . «أُولَئِكَ» . وكل من آثر الدنيا وزهرتها، وآستحب

(١) راجع جـ ٢ ص ٧ فما بعد .

Marfat.com

البقاء فى نعيمها على النعيم فى الآخرة، وصدّ عن سبيل الله — أى صرف الناس عنه وهو دين الله، الذى جاءت به الرســل، فى قول ابن عباس وغيره — فهو داخل فى هذه الآية ؛ وقد قال صلى الله عليه وسـلم : „ إنّ أخوف ما أخاف على أمّتى الأئمـة المضلّون " وهو حديث صحيح . وما أكثر ما هم فى هذه الأزمان، والله المستعان . وقيل : «يَسْتَحِبُّونَ» أى يلتمسون الدنيا من غير وجهها ؛ لأن نعمة الله لاتلتمس إلا بطاعته دون معصيته . ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى يطلبون لها زيغا وميلا لموافقة أهوائهـم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم . والسبيل تذكّر وتؤنّث . والعوج بكسر العين فى الدّين والأمر والأرض، وفى كل ما لم يكن قائمـا ؛ وبفتح العين فى كل ما كان قائمـا، كالحائط والرّمح ونحوه ؛ وقـد تقدم فى « آل عمران »(١) وغيرها . ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى ذهاب عن الحق بعيد عنه .

قوله تعـالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ﴾ أى قبلك يا محمد ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أى بلغتهم، ليبيّنوا لهم أمر دينهم ؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة ؛ فهى اسم جنس يقع على القليل والكثير ؛ ولا حجـة للعجم وغيرهم فى هـذه الآية ؛ لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي صلى الله عليـه وسلم ترجمـة يفهمها لزمته الحجـة ؛ وقد قال الله تعـالى : «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا»(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : „ أرسل كلُّ نبىّ إلى أمته بلسانها وأرسلنى الله إلى كلّ أحمرَ وأسودَ من خَلْقه " . وقال صلى الله عليـه وسلم : „ والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىّ ولا نصرانىّ ثم لم يؤمن بالذى أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النـار ". خرجه مسلم، وقد تقدّم . ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ردّ على القَدَرية فى نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس بمعطوف على

(١) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٠ .

Marfat.com

« ليبين » لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال . ويجوز النصب في « يضل » لأن الإرسال صار سببا للإضلال؛ فيكون كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا »(١) وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم؛ فصار كأنه سبب لكفرهم . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ أي بحجتنا وبراهيننا؛ أي بالمعجزات الدالة على صدقه . قال مجاهد : هي التسع الآيات(٢) . ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ نظيره قوله تعالى لنبينا عليه السلام أول السورة : « لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ . وقيل : « أَنْ » هنا بمعنى أي، كقوله تعالى : « وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا »(٣) أي امشوا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ أي قل لهم قولا يتذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بنعم الله عليهم؛ وقاله أبيّ بن كعب ورواه مرفوعا؛ أي بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التيه إلى سائر النعم، وقد تسمى النعم الأيام؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم(٤) :

* وأيامٍ لنا غُرٍّ طوالٍ *

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٥٢ . (٢) الآيات التسع هي : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات . (٣) راجع جـ ١٥ ص ١٥١ . (٤) البيت من معلقته وتمامه :

* عصينا الملك فيها أن ندينا *

وقد يكون تسميتها غرا لعلوهم على الملك وامتناعهم منه، فأيامهم غر لهم، وطوال على أعدائهم؛ وعليه فلا دليل في البيت على أن الأيام بمعنى النعم . وأيام بالجر عطف على (بأنا) في البيت قبله، ويجوز أن تجعل الواو بدلا من رب .

Marfat.com

وعن ابن عباس أيضا ومقاتل : بوقائع الله فى الأمم السالفة ؛ يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أى بوقائعها . قال ابن زيد : يعنى الأيام التى انتقم فيها من الأمم الخالية ؛ وكذلك روى ابن وهب عن مالك قال : بلاؤه . وقال الطبرى : وعظهم بما سلف فى الأيام الماضية لهم ؛ أى بما كان فى أيام الله من النعمة[1] والمحنة ؛ وقد كانوا عبيدا مستذلين ؛ وكنى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . وروى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بينا موسى عليه السلام فى قومه يذكرهم بأيام الله وأيامُ الله بَلاؤه ونعماؤه " وذكر حديث الخضر ؛ ودلّ هذا على جواز الوعظ المرقّق للقلوب ، المقوِّى لليقين ، الخالى من كل بدعة ، والمنزه عن كل ضلالة وشبهة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أى فى التذكير بأيام الله ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات . ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أى كثير الصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه . ﴿ شَكُورٍ ﴾ لنعم الله . وقال قتادة : هو العبد ؛ إذا أُعطى شكر ، وإذا ٱبتُلِىَ صَبر . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر – ثم تلا هذه الآية – « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » " . ونحوه عن الشعبى موقوفا . وتَوارَى الحسن البصرى عن الحجّاج سبعَ سنين ؛ فلما بلغه موته قال : اللهم قد أمتّه فأمِت سُنّته ؛ وسجد شكرا ، وقرأ : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » . وإنما خص بالآيات كل صبار شكور ؛ لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها ؛ كما قال : « إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا[2] » وإن كان منذرا للجميع .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾

(١) فى ا و ز : النقمة والمحنة . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٠٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ تقدم فى « البقرة »(١) مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ قيل : هو من قول موسى لقومه . وقيل : هو من قول الله ؛ أى واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . و « تَأَذَّنَ » وأذن بمعنى أَعْلَمَ ؛ مثل أَوْعَدَ وتَوَعَّدَ ؛ روى معنى ذلك عن الحسن وغيره . ومنه الأذان ، لأنه إعلام ؛ قال الشاعر :

فَلَمْ نَشْعُرْ بضوءِ الصّبحِ حتّى * سمعنا فى مَجَالِسِنا الأَذِينَا

وكان ابن مسعود يقرأ : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ » والمعنى واحد . ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أى لئن شكرتم إنعامى لأزيدنكم من فضلى . الحسن : لئن شكرتم نعمتى لأزيدنكم من طاعتى . ابن عباس : لئن وَحَّدْتُم وأطعتم لأزيدنّكم من الثواب ، والمعنى متقارب فى هذه الأقوال ؛ والآية نصٌّ فى أن الشكر سبب المزيد ؛ وقد تقدم فى « البقرة »(٢) ما للعلماء فى معنى الشكر . وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال : ألّا تَتَقَوَّى بنعمه على معاصيه . وحكى عن داود عليه السلام أنه قال : أى رب كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة مجدّدة منك علىّ . قال : يا داود الآن شكرتنى .

قلت : فحقيقة الشكر على هذا الاعترافُ بالنعمة للنعم ، وألّا يصرفها فى غير طاعته ؛ وأنشد الهادى وهو يأكل :

أَنالَكَ رِزقَه لتقومَ فيـهِ * بطاعتِهِ وتَشكرَ بعضَ حقّه
فلم تشكُرْ لِنعمتِهِ ولكنْ * قَوِيتَ على معاصِيه برزقه

فغُصَّ باللقمة ، وخنقته العَبْرة . وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للمزيد . ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أى جحدتم حقّى . وقيل : نِعَمِى ؛ وَعَد بالعذاب على الكفر ، كما وَعَد بالزيادة على الشكر ، وحذفت الفاء التى فى جواب الشرط من « إن » للشهرة .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٣١ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٧١ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أى لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغنى . «الْحَمِيدُ» أى المحمود .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ النبأ الخبر، والجمع الأنباء ؛ قال (١) :

* أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالأنباءُ تَنْمِى *

ثم قيل : هو من قول موسى . وقيل : من قول الله ؛ أى وآذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . وقيل : هو آبتداء خطاب من الله تعالى . وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله فى كتابه . وقوله : ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أى لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يعرف نسبهم إلا الله ؛ والنسابون وإن نسبوا إلى آدم فلا يدعون إحصاء جميع الأمم ، وإنما ينسبون البعض ، ويمسكون عن نسب البعض ؛ وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع النسابين ينسبون إلى معدّ بن عدنان ثم زادوا فقال : "كذب النسابون إن الله يقول : «لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ»" . وقد روى عن عُروة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا أحدا يعرف ما بين عدنان وإسمعيل . وقال آبن عباس : بين عدنان وإسمعيل ثلاثون

---

(١) القائل هو : قيس بن زهير، وتمام البيت : * بما لاقت لبون بنى زياد * . وبعده :

ومحبسها على القرشى تشرى * بأدراع وأسياف حداد

وبنو زياد : الربيع بن زياد وإخوته ، أخذ لقيس درعا فاستاق قيس إبل الربيع لمكة وباعها لعبد الله بن جدعان ـ وهو مراده بالقرشى ـ بدروع وسيوف .

Marfat.com

أبا لا يعرفون . وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ : « لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ » : كذب النسابون .
﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والدلالات . ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي جعل أولئك القوم أيدى أنفسهم فى أفواههم ليَعَضُّوها (١) غيظا مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم؛ قاله ابن مسعود، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ : «عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ (٢) » . وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . وقال أبو صالح : كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم : أن اسكت، تكذيبا له، وردًّا لقوله؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . والضميران للكفار؛ والقول الأول أصحها إسنادا؛ قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن أبى إسحق عن أبى الأحوص [عن (٣)] عبد الله فى قوله تعالى « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ » قال : عضُّوا عليها غيظا؛ وقال الشاعر :

لو أنّ سَلْمَى أبصرتْ تَخَدُّدِى (٤) ＊ ودِقّةً فى عظمِ ساقى ويَدِى
وبُعْدَ أهلِى وجفاءَ عُوَّدِى ＊ عَضّتْ من الوَجْدِ بأطرافِ اليدِ

وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران (٢) » مجوّدا، والحمد لله . وقال مجاهد وقتادة : ردّوا على الرسل قولهم وكذّبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأول للرسل، والثانى للكفار . وقال الحسن وغيره : جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ردًّا لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار، والثانى للرسل . وقيل معناه : أومأوا للرسل أن يسكتوا . وقال مقاتل : أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : ردّ الرسل أيدى القوم فى أفواههم . وقيل : إن الأيدى هنا النِّعَم؛ أى ردّوا نِعَم الرسل بأفواههم، أى بالنطق والتكذيب؛ ومجىء الرسل بالشرائع نِعَمٌ؛ والمعنى : كذّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل . و « فى » بمعنى الباء؛ يقال : جلست فى البيت وبالبيت؛ وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض . وقال أبو عبيدة : هو ضرب مَثَل؛ أى لم يُؤْمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن

---

(١) من ى ، وهى رواية ابن عباس . وفى ا و حـ و و : عضا .　(٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٢ .
(٣) من ى .　(٤) التخدد : أن يضطرب اللحم من الهزال .

Marfat.com

الجواب وسكت : قد ردّ يده فى فيه؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال القُتَبيّ : لم نسمع أحدا من العرب يقول : ردّ يده فى فيـه إذا ترك ما أمر به، وإنمـا المعنى : عضوا على الأيدى حنقا وغيظا ؛ لقول الشاعر :

يَرُدُّون فى فِيـهِ غِشَّ الحَسُو * دِ حتى يَعَضَّ علىّ الأكُفَّا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه وكفّيه . وقال آخر :

قَـد أَفنَى أنَامِـلَهُ أَزْمُهُ[(١)] * فأضحَى يَعَضُّ علىّ الوَظِيفَا

وقالوا : — يعنى الأمم للرسل — ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَـا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أى بالإرسـال على زعمكم، لا أنهم أقرّوا أنهم أُرسلوا . ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ أى فى ريب ومرية . ﴿مِمَّـا تَدْعُونَنَا إِلَيْـهِ﴾ من التوحيد . ﴿مُرِيبٍ﴾ أى موجب للريبة ؛ يقال : أربته إذ فعلت أمرا أوجب ريبة وشكّا؛ أى نظنّ أنكم تطلبون الملك والدنيا .

قوله تعـالى : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ آستفهام معناه الإنكار؛ أى لا شك فى الله، أى فى توحيده؛ قاله قتادة . وقيل : فى طاعته . ويحتمل وجها ثالثا : أفى قدرة الله شك؟! لأنهم متفقون عليهـا ومختلفون فيما عداها ؛ يدلّ عليـه قوله : ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهـا ومخترعها ومنشئهـا وموجدها بعد العدم ، لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له . ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أى إلى طاعته بالرسل والكتب . ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيد : « مِنْ » زائدة . وقال سيبويه : هى للتبعيض ؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع .

(١) أزمة : عضا ؛ والوظيف لكل ذى أربع : ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق .

Marfat.com

وقيـل : « مِن » للبدل وليست بزائدة ولا مُبَعِّضَـة ؛ أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب . ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ يعنى الموت ، فلا يعذبكم فى الدنيا . ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ ﴾ أى ما أنتم . ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ فى الهيئة والصورة ؛ تأكلون مما نأكل ، وتشربون مما نشرب ، ولسـتم ملائكة . ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة ظاهرة ؛ وكان هذا محالا منهم ؛ فإن الرسـل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات .

قوله تعالى : قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى فى الصورة والهيئة كما قلتم . ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى يتفضّل عليه بالنبوّة . وقيل ؛ بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية . وقال سهل بن عبد الله : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه .

قلت : وهذا قول حسن ؛ وقد خرّج الطبرىّ من حديث ابن عمر قال قلت لأبى ذرّ : يا عمّ أوصنى ؛ قال : سألت رسـول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال : " ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمنّ بها على من يشاء من عباده وما منّ الله تعالى على عباده بمثل أن يُلهمهم ذِكره " . ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ ﴾ أى بحجة وآية . ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أى بمشـيئته ، وليس ذلك فى قدرتنا ؛ أى لا نستطيع أن نأتى بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته ؛ فلفظه لفظ الخبر ، ومعناه النفى ، لأنه لا يحظـر على أحد ما لا يقدر عليـه . ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ تقدّم معناه .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ « ما » استفهام في موضع رفع بالابتداء ، و « لَنَا » الخبر، وما بعدها في موضع الحال؛ التقدير : أيّ شيء لنا في ترك التوكل على الله . ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أي الطريق الذي يوصل إلى رحمته ، وينجي من سخطه ونقمته . ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ لام قسم ؛ مجازه : والله لنصبرن ﴿عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ به ؛ أي من الإهانة والضرب ، والتكذيب والقتل ، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا . ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا﴾ اللام لام قسم ؛ أي والله لنخرجنكم . ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أي حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا ؛ قاله الطبري وغيره . قال ابن العربي : وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير ؛ فإنّ « أو » على بابها من التخيير ؛ خيّر الكفار الرسل بين أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم ؛ وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده ؛ ألا ترى إلى قوله : « وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا »[(1)] وقد تقدم هذا المعنى في « الأعراف »[(2)] وغيرها . ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ أي إلى ديننا ، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي مقامه بين يديّ يوم القيامة ؛ فأضيف المصدر إلى الفاعل . والمقام مصدر كالقيام ؛ يقال : قام قياما ومَقاما ؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به . والمقام بفتح الميم مكان الإقامة ، وبالضم فعل الإقامة ؛ و « ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي » أي قيامي عليه ، ومراقبتي له ؛ قال الله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ »[(3)] . وقال الأخفش : « ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي » أي عذابي ، « وَخَافَ وَعِيدِ » أي القرآن وزواجره . وقيل : إنه العذاب . والوعيد الاسم من الوعد .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٠١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٠ . (٣) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا ﴾ أى وٱستنصروا ؛ أى أذن للرسل فى الاستفتاح على قومهم ، والدعاء بهلاكهم ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد مضى فى « البقرة »[1] . ومنه الحديث : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين ، أى يستنصر . وقال ابن زيد : استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ »[2] الآية . وروى عن ابن عباس . وقيل قال الرسول : "إنهم كذبونى فافتح بينى و بينهم فتحا" وقالت الأمم : إن كان هؤلاء صادقين فعذّبنا ؛ عن ابن عباس أيضا ؛ نظيره « ٱئْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »[3] « ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ »[4] . ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ الجبار المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا ؛ هكذا هو عند أهل اللغة ، ذكره النحاس . والعنيد المعاند للحق والمجانب له ؛ عن ٱبن عباس وغيره ؛ يقال : عَنَد عن قومه أى تباعد عنهم . وقيل : هو من العَنَد ، وهو الناحية وعاند فلان أى أخذ فى ناحية مُعْرِضا ؛ قال الشاعر :

إذا نزلتُ فٱجعلونى وَسَطا ﴿ إنّى كبيرٌ لا أُطيقُ العُنَّدا

وقال الهَرَوى قوله تعالى : «جَبَّارٍ عَنِيدٍ» أى جائر عن القصد ؛ وهو العَنُود والعَنِيد والعانِد ؛ وفى حديث ٱبن عباس وسُئل عن المستحاضة فقال : إنه عِرْقٌ عانِدٌ . قال أبو عبيد : هو الذى عَنَد و بَغَى كالإنسان يعاند ؛ فهذا العرق فى كثرة ما يخرج منه بمنزلته . وقال شَمِر : العاند الذى لا يرقأ . وقال عمر يذكر سيرته : أَضُمُّ العَنُود ؛ قال الليث : العنود من الإبل الذى لا يخالطها إنما هو فى ناحية أبدا ؛ أراد من هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها . وقال مقاتل : العنيد المتكبر . وقال ابن كَيْسان : هو الشامخ بأنفه . وقيل : العَنُود والعَنِيد الذى

---

(١) راجع ج ٢ ص ٢٦ فما بعد . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٩٨ . (٣) راجع ج ١٣ ص ٣٤١ .
(٤) راجع ج ٧ ص ٢٤٠ .

Marfat.com

يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها ؛ تقول العرب : شر الإبل العنود الذى يخرج عن الطريق . وقيل : العنيد العاصى . وقال قتادة : العنيد الذى أبى أن يقول لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفا ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أى متكبر . وقيل : إن المراد به فى الآية أبو جهل ؛ ذكره المهدوى . وحكى الماوردى فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله عز وجل : « وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » فمزق المصحف وأنشأ يقول :

أتُوعِدُ كلَّ جبَّارٍ عَنيدٍ * فها أنا ذاكَ جبَّارٌ عَنيدُ
إذا ما جِئتَ ربَّكَ يوم حَشْرٍ * فَقُلْ يارَبِّ مَزَّقَنِي الوليدُ

فلم يلبث [إلا] (١) أياما حتى قُتل شرَّ قِتلةٍ ، وصُلب رأسه على قصره ، ثم على سُور بلده .

قوله تعالى : ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أى من وراء ذلك الكافر جهنم ، أى من بعد هلاكه . ووراء بمعنى بعدُ ؛ قال النابغة :

حَلفتُ فلم أترك لنفسكَ رِيبةً * وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ (٢)

أى بعد الله جلّ جلالُه ، وكذلك قوله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى من بعده ، وقوله تعالى : « وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ (٣) » أى بما سواه ؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيد : بما بعده . وقيل : « مِنْ وَرَائِهِ » أى من أمامه ، ومنه قول الشاعر :

ومِنْ ورائِكَ يومٌ أنتَ بالِغُه * لاحاضرٌ مُعجِزٌ عنه ولا بادِى

وقال آخر :

أترجُو بنو مروانَ سمعِى وطاعتِى * وقومى تميمٌ والفلاةُ ورائيا

وقال لبيد :

أليس ورائِى إنْ [تَراختْ] (٤) مَنِيَّتِى * لُزومُ العَصَا تُحنَى عليها الأصابعُ

(١) من و . (٢) ويروى : مهرب . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٩ . (٤) كذا فى ديوانه واللسان ، وفى الأصل : « إن بلغت منيتى » .

Marfat.com

يريد أمامي . وفى التنزيل: « كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ »[١] أى أمامهم؛ وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو علىّ قُطرُب وغيرهما . وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من ورائك، أى سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان أى فى طلبه وسأصل إليه . وقال النحاس : فى قوله « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ » أى من أمامه، وليس من الأضداد ولكنه من توارى؛ أى آستتر . وقال الأزهرى : إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد ، وقاله أبو عبيـدة أيضا ، واشتقاقهما مما توارى واستتر، فجهنم تَوَارَى ولا تظهر، فصارت من وراء لأنها لاترى ؛ حكاه ابن الأنبارى وهو حسن .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَـدِيدٍ ﴾ أى من ماء مثـل الصديد ، كما يقال للرجل الشجاع أسد، أى مثل الأسد ، وهو تمثيل وتشبيه . وقيل : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم . وقال محمد بن كعب القُرَظىّ والربيع بن أنَس : هو غُسَالة أهل النار ، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزوانى . وقيـل : هو من ماء كرهته تَصِدّ عنـه ، فيكون الصديد مأخوذا من الصدّ . وذكر ابن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عُبيد الله بن بُسْر عن أبى أُمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ » قال : "يُقرَّب إلى فِيهِ فيكرهه فإذا أدنى منه شَوَى وجهه ووقعت فَرْوة رأسه فإذا شرب به قطَّع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله: «وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ»[٢] ويقول الله: «وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ»[٣]" خرجه الترمذى، وقال: حديث غريب، وعُبيد الله بن بُسْر الذى روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبى أمامة لعله أن يكون أخا عبد الله ابن بُسْر . ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أى يتحسّاه جُرَعا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته . ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أى يبتلعه؛ يقال : جرع المـاء وآجترعه وتجرعه بمعنى . وساغ الشَّرابُ فى الحلق يسوغ سَوْغا إذا كان سَلِسا سهلا ، وأساغه اللهُ إساغةً . و « يَكَادُ » صلة ؛ أى يسيغه بعـد إبطاء، قال الله تعالى : « وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ »[٤] أى فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال : « يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ »[٥] فهذا يدلّ على الإساغة . وقال ابن عباس : يجيزه ولا يمر به[٦] . ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٧ . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٩ .
(٤) راجع جـ ١ ص ٤٥٥ . (٥) راجع جـ ١٢ ص ٢٧ . (٦) كذا فى الأصل ؛ ولعله «لا يجيزه ولا يمر به» .

Marfat.com

مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أى يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه ، كقوله : « لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ »(1) . وقال إبراهيم التيمى : يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره؛ للآلام التى فى كل مكان من جسده . وقال الضحاك : إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجليه . وقال الأخفش : يعنى البلايا التى تصيب الكافر فى النار سماها موتا ، وهى من أعظم الموت . وقيل : إنه لايبقى عضو من أعضائه إلا وكل به نوع من العذاب ؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها فى فرد لحظة ؛ إما حية تنهشه ، أو عقرب تلسبه(2) ، أو نار تسفعه ، أو قيد برجليه ، أو غل فى عنقه ، أو سلسلة يقرن بها ، أو تابوت يكون فيه ، أو زقوم أوحميم ، أو غير ذلك من العذاب . وقال محمد بن كعب : إذا دعا الكافر فى جهنم بالشراب فرآه مات موتات ، فإذا دنا منه مات موتات ، فإذا شرب منه مات موتات ؛ فذلك قوله : « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . قال الضحاك : لايموت فيستريح . وقال ابن جريج : تعلق روحه فى حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ؛ ونظيره قوله : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا »(3) . وقيل : يخلق الله فى جسده آلاما كل واحد منها كألم الموت . وقيل : « وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » لتطاول شدائد الموت به ، وامتداد سكراته عليه ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابه .

قلت : ويظهر من هذا أنه يموت ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا »(4) وبذلك وردت السنة ؛ فأحوال الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائما ، والله أعلم . ﴿ وَمِن وَرَائِهِ ﴾ أى من أمامه . ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أى شديد متواصل الآلام من غير فتور ؛ ومنه قوله : « وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً »(5) أى شدة وقوة . وقال فضيل بن عياض فى قول الله تعالى : « وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » قال : حبس الأنفاس .

(1) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٢ . (2) تلسبه : تلدغه ، وتسفعه تسود وجهه . (3) راجع جـ ١١ ص ٢٢٥ . (4) راجع جـ ١٤ ص (5) راجع جـ ٨ ص ٢٩٨ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ اختلف النحويون في رفع « مَثَلُ » فقال سيبويه : ارتفع بالابتداء والخبر مضمر؛ التقدير : وفيما يُتلى عليكم أو يُقَصّ « مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ » ثم ابتدأ فقال : « أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ » أي كمثل رماد ﴿ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ . وقال الزجاج : أي مَثَل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالُهم كرماد؛ وهو عند الفراء على إلغاء المَثَل؛ التقدير : والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد . وعنه أيضا أنه على حذف مضاف ؛ التقدير : مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد؛ وذكر الأول عنه المهدوي، والثاني القُشَيري والثعلبي ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال: صفة فلان أسمر؛ فـ« مَثَلُ » بمعنى صفة. ويجوز في الكلام جر« أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الَّذِينَ» واتصل هذا بقوله : «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» والمعنى : أعمالهم مُحْبَطة غير مقبولة . والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء؛ فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الرِّيحُ الشديدة الرَّمادَ في يوم عاصف . والعَصْفُ شدة الريح؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفي وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثة أقاويل : أحدها — أن العُصُوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به ؛ لأن الريح تكون فيه، فجاز أن يقال : يوم عاصف، كما يقال: يوم حارّ ويوم بارد، والبرد والحر فيهما . والثاني — أن يريد «فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ» الريح ؛ لأنها ذكرت في أول الكلمة، كما قال الشاعر:

* إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمسِ كاسِفُ *

يريد كاسف الشمس فحذف؛ لأنه قد مرّ ذكره؛ ذكرهما الهَرَوي . والثالث — أنه من نعت الريح ؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ ؛ ذكره

Marfat.com

الثعلبي والماوردي . وقرأ ابن [أبي] (١) إسحق وإبراهيم بن أبي بكر « في يومِ عاصفٍ » (٢) .
﴿ لا يقدرون ﴾ يعني الكفار . ﴿ مما كسبوا على شيء ﴾ يريد في الآخرة ؛ أي من ثواب ما عملوا من البر في الدنيا ، لإحباطه بالكفر . ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي الخسران الكبير ، وإنما جعله كبيرا بعيدا لفوات استدراكه بالموت .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ الرؤية هنا رؤية القلب ؛ لأن المعنى : ألم يتنه علمك إليه ؟ . وقرأ حمزة والكسائي — « خالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . ومعنى « بِالْحَقِّ » ليستدل بها على قدرته . ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أيها الناس؛ أي هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء؛ فلا تعصوه فإنكم إن عصيتموه ﴿ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبدال . ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي منيع متعذر .

قوله تعالى : وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)

(١) من ا و ز و و و ي والبحر . (٢) هذه القراءة بإضافة يوم إلى عاصف ، ومن قرأ بها أقام الصفة مقام الموصوف ؛ أي في يوم ريح عاصف . وقراءة نافع وابن جعفر : الرياح . على الجمع .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي برزوا من قبورهم ، يعني يوم القيامة . والبُرُوز الظهور . والبَرَاز المكان الواسع لظهوره ، ومنه امرأة بَرْزة[(١)] أي تظهر للناس ، فمعنى «بَرَزُوا» ظهروا من قبورهم . وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال ، واتصل هذا بقوله : «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» أي وقاربوا لما استفتحوا فأهلكوا ، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعا لا يسترهم عنه ساتر . «لِلَّهِ» لأجل أمر الله إياهم بالبروز . ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾ يعني الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة . ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ يجوز أن يكون تَبَعٌ مصدرا ، التقدير : ذوى تبع . ويجوز أن يكون جمع تابع ، مثل حارس وحَرَس ، وخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد ، وباقر وبَقَر[(٢)] . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أي دافعون ﴿ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي شيئا ، و«من» صلة ؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع . ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل ؛ لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ هذا ابتداء خبره «أَجَزِعْنَا» أي : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي من مهرب وملجأ . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى الاسم ؛ يقال : حَاصَ فلان عن كذا أي فر وزاغ يَحِيص حَيْصًا وحُيُوصًا وحَيَصَانًا ؛ والمعنى : مالنا وجه نتباعد به عن النار . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقول أهل النار إذا اشتد بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمَّ فلنجزع فيجزعون و يصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ» " . وقال محمد بن كعب القُرَظي : ذُكِر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون ، فهلمّ فلنصبر ؛ فلعلّ الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصّبر إذ صبروا ؛ فأجمعوا رأيهم على الصّبر فصبروا ، فطال صبرهم فجزعوا ، فنادوا : «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا

(١) قال في المصباح : امرأة برزة عفيفة تبرز للرجال وتتحدث معهم وهي المرأة التي أسنت و خرجت عن حد المحجوبات . اهـ . وامرأة برزة بارزة المحاسن . قال الراغب : لأن رفعتها بالعفة لا إن اللفظة اقتضت ذلك .

(٢) بقر : شق ووسع

Marfat.com

مَالَنَا مِنْ مَحِيص » أى مَنجًى ، فقام إبليس عند ذلك فقال : « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ» يقول: لست بمغنٍ عنكم شيئا «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ » الحديث بطوله ، وقد كتبناه فى كتاب « التذكرة » بكماله .

قوله تعالى :﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ قال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيبا فى جنهم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعا . ومعنى: «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» أى حُصِّل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، على ما يأتى بيانه فى « مريم » عليها السلام (١) .

﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ يعنى البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصى فصدقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم . وروى ابن المبارك من حديث عُقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة قال : " فيقول عيسى أدلّكم على النبي الأمى فيأتونى فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب ريح شمّها أحدٌ حتى آتى ربى فيشفّعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ماهو غير إبليس هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيثور مجلسه من أنتن ريح شمّها أحدٌ ثم يعظُم نحيبهم ويقول عند ذلك: « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ» (٢) الآية . «وَعْدَ الْحَقِّ» هو إضافة الشيء إلى نعته كقولهم: مسجد الجامع؛ قال الفرّاء قال البصريون: وعدكم وعد اليوم الحقّ أو وعدكم وعد الوعد الحق فصدّقكم ؛ فحذف المصدر لدلالة الحال. ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى من حجة وبيان؛ أى ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزيّنته لكم فى الدنيا، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أى أغويتكم فتابعتمونى . وقيل : لم أقهركم على ما دعوتكم إليه . « إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ » هو استثناء منقطع ؛ أى لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لى باختياركم ، « فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » . وقيل : « وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » أى على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن

(١) راجع جـ ١١ ص ١٠٥ . (٢) كذا فى الأصول .

Marfat.com

دعوتكم فاستجبتم لى؛ وهذا على أنه خَطَب العاصىَ المؤمنَ والكافرَ الجاحد؛ وفيه نظر؛ لقوله: «لَمَّا قُضِىَ الأَمْرُ» فإنه يدلّ على أنه خَطَب الكفّار دون العاصين الموحّدين؛ والله أعلم. ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ إذا جئتمونى من غير حجة. ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أى بمغيثكم. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ أى بمغيثيّ. والصّارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة والمعاونة، والمُصْرِخ هو المغيث. قال سَلَامة بن جَنْدَل:

كنّا إذا ما أتانا صارِخٌ فَزِعٌ * كان الصُّراخُ له قَرْعُ الظَّنابيب[(1)]

وقال أُميّة بن أبى الصَّلْت:

ولا تجزعوا إنّى لكم غيرُ مُصْرِخٍ * وليس لكم عندى غَناءٌ ولا نَصْرُ

يقال: صَرَخ فلان أى استغاث يَصرُخ صَرْخا وصُرَاخا وصَرْخة. واصطرخ بمعنى صَرَخ. والتَّصرخ تَكلُّف الصُّراخ. والمُصْرِخ المُغيث، والمستصرِخ المستغيث؛ تقول منه: استصرخنى فأصرختُه. والصَّريخ صوت المستصرِخ. والصَّريخ أيضا الصارِخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد؛ قاله الجوهرى. وقراءة العامة «بِمُصْرِخِيَّ» بفتح الياء. وقرأ الأعمش وحمزة «بمصرِخِيِ» بكسر الياء. والأصل فيها بمصرخيين فذهبت النون للإضافة، وأدغمت ياء الجماعة فى ياء الإضافة، فمن نصب فلأجل التضعيف، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ماقبلها تعيّن فيها الفتح مثل: هَوَاىَ وعَصاىَ، فإن تحرك ماقبلها جاز الفتح والإسكان، مثل: غلامىَ وغلامىْ، ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر؛ لأن الياء أخت الكسرة. وقال الفرّاء: قراءة حمزة وَهَمٌ منه، وقَلّ مَن سلم منهم عن خطأ[(2)]. وقال الزجّاج: هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف. وقال قُطْرُب: هذه لغة بنى يَرْبُوع يزيدون على ياء الإضافة ياء. القُشَيرىّ: والذى يغنى عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيحٌ أو ردىءٌ، بل هو فى القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذى قرأ به حمزة أفصح. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ

(١) الظنابيب (جمع) ظنبوب؛ وهو حرف الساق اليابس من قدم. وقرع الظنبوب أن يقرع الرجل ظنبوب البعير ليتنوخ له فيركبه، والمراد هنا سرعة الإجابة.
(٢) أى من القرّاء.

Marfat.com

مِنْ قَبْلُ﴾ أى كفرت بإشراككم إياى مع الله تعالى فى الطاعة؛ فـ « ما » بمعنى المصدر .
وقال ابن جريج : إنى كفرت اليوم بما كنتم تدعونه فى الدنيا من الشّرك بالله تعالى . قتادة[1] :
إنى عصيت الله . الثورى : كفرت بطاعتكم إياى فى الدنيا . ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .
وفى هــذه الآيات ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم؛ أنظر إلى قول
المتبوعين : « لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ » وقول إبليس : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ » كيف
اعترفوا بالحق فى صفات الله تعالى وهم فى دركات النار؛ كما قال فى موضع آخر : « كُلَّمَا أُلْقِيَ
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا » إلى قوله : « فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ »[2] واعترافهم فى دركات لظى بالحق
ليس بنافع ، و إنما ينفع الاعتراف صاحبَه فى الدنيا ؛ قال الله عز وجل : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا
بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ »[3] و « عسى »[4] من الله واجبة .

قوله تعالى : وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ أى فى جنات لأن دخلت
لا يتعدى ، كما لا يتعدى نقيضه وهو خرجت ، ولا يقاس عليه ؛ قاله المهدوى . ولما أخبر
تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة أيضا . وقراءة الجماعة « أُدْخِلَ » على أنه فعل
مبنى للمفعول . وقرأ الحسن « وَأُدْخِلُ » على الاستقبال والاستئناف . ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى
بأمره . وقيل : بمشيئته وتيسيره . وقال : « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » ولم يقل : بإذنى تعظيما وتفخيما .
﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ تقدم فى « يونس »[3] . والحمد لله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ
طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ
بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

(١) كذا فى ع ، وفى أ و جـ و و : ابن بحر .
(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢١٢ .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٤١ وص ٣١٣ .
(٤) أى ما دلت عليه محقق الحصول من الله .

Marfat.com

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ لما ذكر تعالى مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، ذكر مثل أقوال المؤمنين وغيرها ، ثم فسر ذلك المثل فقال : ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ الثمر ، فحذف لدلالة الكلام عليه . قال ابن عباس : الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن . وقال مجاهد وابن جريج : الكلمة الطيبة الإيمان . عطية العوفي والربيع بن أنس : هي المؤمن نفسه . وقال مجاهد أيضا وعكرمة : الشجرة النخلة ؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة في قلب المؤمن — وهو الإيمان — شبهه بالنخلة في المنبت ، وشبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة ، وثواب الله له بالثمر . وروى من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة الإيمان عروقها والصلاة أصلها والزكاة فروعها والصيام أغصانها والتأذى في الله نباتها وحسن الخلق ورقها والكف عن محارم الله ثمرتها " . ويجوز أن يكون المعنى : أصل النخلة ثابت في الأرض ؛ أي عروقها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها ، فهي زاكية نامية . وخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع (١) فيه رطب ، فقال : " مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا — قال — هي النخلة وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ — قال — هي الحنظل " . وروى عن أنس قوله [وقال] : وهو أصح (٢) . وخرج الدارقطني عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدرون ما هي " فوقع في نفسي أنها النخلة . قال السهيلي : ولا يصح فيها ما روى عن علي بن أبي طالب أنها جوزة الهند ؛ لما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر " إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي — ثم قال — هي النخلة " خرجه مالك في « الموطأ » من رواية ابن القاسم وغيره إلا يحيى فإنه أسقطه من روايته . وخرجه أهل الصحيح و زاد

(١) القناع : الطبق من عسب النخل يوضع فيه الطعام والفاكهة .　(٢) أي قال الترمذي : والحديث الموقوف أصح .

Marfat.com

فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوى رِحلة[(١)]؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وهى النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة". فبيّن معنى الحديث والمماثلة.

قال: وذكر الغزنوىّ عنه عليه السلام "مَثَلُ المؤمن كالنّخلة إن صاحبتَه نفعك وإن جالستَه نفعك وإن شاورتَه نفعك كالنخلة كل شئ منها ينتفع به". وقال: "كُلُوا من عَمّتكم" يعنى النخلة خلقت من فَضْلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تبقى، وبقلبها تحيا، وثمرها بامتزاج الذكر والأنثى. وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبّهت به؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلا؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان فى الالتقاح لأنها لا تحمل حتى تُلَقّح قال النبى صلى الله عليه وسلم: "خير المال سِكّة مأبُورَة ومُهْرَة مأمورة"[(٢)]. والإبّار اللقاح وسيأتى فى سورة «الحِجر»[(٣)] بيانه. ولأنها من فضلة طينة آدم. ويقال: إن الله عز وجل لما صوّر آدم من الطّين فَضَلت قطعة طين فصوّرها بيده وغرسها فى جنة عَدْن. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أكرموا عَمّتكم" قالوا: ومن عمتنا يارسول الله؟ قال: "النخلة". ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قال الربيع: «كُلَّ حِينٍ» غدوة وعشية كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس. وعنه «تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ» قال: هو شجرة [جوزة][(٤)] الهند لا تتعطل من ثمرة، تحمل فى كل شهر؛ شبّه عمل المؤمن لله عز وجل فى كل وقت بالنخلة التى تؤتى أكلها فى أوقات مختلفة. وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل فى جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير فى الأوقات كلها. وقال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعيّ بيت النّابغة:

تَنَاذَرَهـا الرّاقُونَ مِن سُوءِ سَمّها * تُطَلِّقُه حِينًا وحِينًا تُرَاجِعُ[(٥)]

(١) أى يجب أن يرحل إليها لروايتها. (٢) السكّة: الطريقة المصطفة من النخل، والمهرة المأمورة الكثيرة النسل والنتاج؛ أراد خير المال نتاج أو زرع. (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٥. (٤) من ى.

(٥) البيت فى وصف حية؛ و«تناذرها الراقون» أى أنذر بعضهم بعضا ألا يتعرضوا لها. ومعنى: «تطلقه حينا وحينا تراجع» أنها تخفى الأوجاع عن السليم تارة، وتارة تشتد عليه. ويروى: «من سوء سمعها» أى أنها لا تجيب الراق لا أنها صماء؛ لقولهم: أسمع من حية.

Marfat.com

فهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت ، فالإيمان ثابت فى قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع فى السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النّخلة فى أوقات السنة كلها ، من الرطب والبُسْر والبلح والزَّهو[(١)] والتمر والطَّلع . وفى رواية عن ابن عباس : إن الشجرة شجرة فى الجنة تمر فى كل وقت . و «مَثَلًا» مفعول بـ«ضَرَبَ » ، « وكَلِمَةً » بدل منه، والكاف فى قوله : « كَشَجَرَةٍ » فى موضع نصب على الحال من « كَلِمَة » التقدير : كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : " تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ " لما كانت الأشجار تؤتى أكلها كل سنة مرة كان فى ذلك بيان حكم الحين ؛ ولهذا قلنا : من حلف ألّا يكلّم فلانا حينا ، ولا يقول كذا حينا إن الحين سنة . وقد ورد الحين فى موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ[(٢)] » قيل فى « التفسير » : أربعون عاما . وحكى عكرمة أن رجلا قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حُرٌّ ، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله ، فسألنى عنها فقلت : إن من الحين حينا لا يدرك ، قوله : « وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ[(٣)] » فأرى أن تُمسك ما بين صِرام[(٤)] النّخلة إلى حَمْلها ، فكأنه أعجبه ؛ وهو قول أبى حنيفة فى الحين أنه ستة أشهر اتباعا لعكرمة وغيره . وقد مضى ما للعلماء فى الحين فى « البقرة[(٥)] » مستوفى والحمد لله . ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى الأشباه ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ويعتبرون ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الكلمة الخبيثة كلمة الكفر . وقيل : الكافر نفسه . والشجرة الخبيثة شجرة الحَنْظَل كما فى حديث أنس ، وهو قول ابن عباس ومجاهد

(١) الزهو : البسر الملون . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١١٩ . (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٥٠
(٤) صرام النخلة : حين يقطع ثمرها . (٥) راجع جـ ١ ص ٣٢١ فما بعد .

Marfat.com

وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا : أنها شجرة لم تخلق على الأرض . وقيل : هى شجرة الثوم؛ عن ابن عباس أيضا . وقيل : الكَمْأة أو الطحلبة . وقيل : الكَشُوث، وهى شجرة لا ورق لها ولا عروق فى الأرض؛ قال الشاعر :

* وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصلٌ ولا ورقٌ (١) *

﴿ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ اقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط (٢) :

هـو الجلاءُ الذى يَجتثُّ أصلَكُمُ * فمن رأى مثلَ ذا يومًا ومن سَمِعَا

وقال المؤرج : أخذت جثتها وهى نفسها، والجثة شخص الإنسان قاعدا أو قائما . وجَثّه قلعه، واجتثه اقتلعه من فوق الأرض؛ أى ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض . ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أى من أصل فى الأرض . وقيل: من ثبات؛ فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد له قولٌ طيّب ولا عملٌ صالح . وروى معاوية ابن صالح عن علىّ بن أبى طلحة فى قوله تعالى : «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً» قال: لا إله إلا الله «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ» قال : المؤمن؛ «أَصْلُهَا ثَابِتٌ» لا إله إلا الله ثابتة فى قلب المؤمن؛ «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ» قال : الشرك، «كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ» قال : المشرك؛ «ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ» أى ليس للشرك أصل يعمل عليه . وقيل : يرجع المثل إلى الدعاء إلى الإيمان، والدعاء إلى الشرك؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشىء .

قوله تعالى : يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ قال ابن عباس : هو لا إله إلا الله . وروى النسائى عن البراء قال قال : « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ

---

(١) تمامه :

* ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر *

يريد أنهم لا حسب لهم ولا نسب . ورواية اللسان والتاج : هو الكشوث .

(٢) هو لقيط بن معمر الأيادى، والبيت من قصيدة بعث بها إلى قومه يحذرهم كسرى وجيشه ؛ فلم يلتفتوا إلى قوله ، فظفر بهم كسرى وهزمهم .

Marfat.com

فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ » نزلت فى عذاب القبر ؛ يقال : مَن ربك ؟ فيقول : ربىَ الله ودينى دين محمد، فذلك قوله : « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ » .

قلت : وقد جاء هكذا موقوفا فى بعض طرق مسلم عن البَرَاء [أنه](1) قوله ، والصحيح فيه الرفع كما فى صحيح مسلم وكتاب النسائى وأبى داود وابن ماجه وغيرهم، عن البَرَاء(2) عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وذكر البخارىّ ؛ حدّثنا جعفر بن عمر ، قال حدّثنا شُعْبة عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن سعد بن عبيدة عن البَرَاء بن عازب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أقعد المؤمنُ فى قبره أتاه آتٍ ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ » " . وقد بيّنا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » وبيّنا هناك من يُفتَن فى قبره ويُسأل، فمن أراد الوقوف عليه تأمّله هناك . وقال سهل بن عمّار : رأيت يزيد بن هرون فى المنام بعد موته ، فقلت له : مافعل الله بك؟ فقال : أتانى فى قبرى مَلَكان فظّان غليظان ، فقالا : مادينك ومن ربك ومن نبيّك ؟ فأخذت بلحيتى البيضاء وقلت : ألمثلى يقال هذا وقد علّمتُ الناسَ جوابكما ثمانين سنة ؟ ! فذهبا وقالا : أَكَتَبْتَ عن حَرِيز بن عثمان(3) ؟ قلت نعم ! فقالا : إنه كان يبغض [عليا](4) فأبغضه الله . وقيل : معنى، « يُثَبِّتُ اللهُ » يُديمهم الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن روَاحة :

يُثَبِّتُ اللهُ ما آتاكَ من حَسَنٍ　＊　تثبيتَ موسى ونَصرًا كالذى نُصِرا

وقيل : يثبتهم فى الدارين جزاء لهم على القول الثابت . وقال القفّال وجماعة : « فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى فى القبر؛ لأن الموتى فى الدنيا إلى أن يبعثوا، «وَفِى الْآخِرَةِ» أى عند الحساب؛ وحكاه الماوردىّ عن البَرَاء قال : المراد بالحياة الدنيا المُسَاءلة فى القبر ، وبالآخرة المُسَاءلة فى القيامة : ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى عن حجتهم فى قبورهم كما ضلّوا فى الدنيا

---

(1) أى قول البراء .　　(2) فى ى : قال البراء .　　(3) فى التهذيب غير هذا فليراجع .

(4) فى الأصول « عثمان » ومثله فى كتاب « التذكرة » للؤلف . والذى فى « تهذيب التهذيب » أنه كان يبغض عليا .

Marfat.com

بكفرهم فلا يُلقَّنهم كلمة الحق . فإذا سـئلوا فى قبورهم قالوا : لا ندرى ؛ فيقول : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ[1] ؛ وعنـد ذلك يُضرَب بالمقامع[2] على ما ثبت فى الأخبار ؛ وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التـذكرة » . وقيـل : يمهلهم حتى يزدادوا ضلالا فى الدنيـا . ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من عذاب قوم و إضـلال قوم . وقيـل : إن سبب نزول هـذه الآية ماروى عن النبى صلى الله عليـه وسلم لمـا وصف مُسَاءلة مُنْكَر ونكير وما يكون من جواب الميت قال عمر: يارسـول الله أيكون معى عقلى ؟ قال : " نعم " قال : كُفِيتُ إذًا ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر فى تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم ؛ عن ابن عباس وعلىّ وغيرهما . وقيل : نزلت فى المشركين الذين قاتلوا النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر . قال أبو الطُّفَيل : سمعت عليًّا رضى الله عنه يقول : هم قريش الذين نُحِروا يوم بدر . وقيل : نزلت فى الأفْجَرَيْن من قريش بنى مخزوم و بنى أمية ، فأما بنو أمية فمتِّعوا إلى حين ؛ وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بَدْر ؛ قاله على بن أبى طالب وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما . وقول رابع : أنهم مُتنصِّرة العرب جَبَلَة بن الأَيْهَـم وأصحابه حين لَطَم فجعل له عمر القصاص بمثلها ، فلم يرض وأَنِف فارتدّ مُتنصرا ولَحِق بالروم فى جماعة من قومه ؛ عن ابن عباس وقتادة . ولمـا صار إلى بلد الروم ندم فقال :

(١) قيل فى معنى « ولا تليت » : ولا تلوت ؛ أى لا قرأت ؛ من تلا يتلو ؛ وقالوا تليت بالياء ليعاقب بها الياء فى دريت . (٢) المقامع : سياط من حديد رءوسها معوجة .

Marfat.com

تَنَصَّرَتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تَكَنَّفَنِي منها لَجَاجٌ ونَخْـوةٌ * وبِعْتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فياليتنى أَرْعَى المَخَاضَ ببَلْدةٍ * ولم أنكرِ القـولَ الذى قاله عُمَرْ

وقال الحسن : إنها عامة فى جميع المشركين . ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ ﴾ أى أنزلوهم . قال ابن عباس : هم قادة المشركين يوم بدر . «أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ» أى الذين اتبعوهم . ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قيل : جهنم ؛ قاله ابن زيد . وقيل : يوم بدر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب ومجاهد . والبوار الهلاك؛ ومنه قول الشاعر :

فلم أَرَ مثلهـم أبطالَ حَرْبٍ * غداةَ الحربِ إذْ خِيفَ البَوَارُ

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ بيّن أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد، وعلى هـذا لا يجوز الوقف على «دَارَ الْبَوَارِ» لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن «دَارَ الْبَوَارِ» فلو رفعها رافع بإضمار، على معنى: هى جهنم، أو بما عاد من الضمير فى «يَصْلَوْنَهَا» لحسن الوقف على «دَارَ الْبَوَارِ» . ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أى المستقر . قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أصناما عبدوها ؛ وقد تقدم فى «البقرة»(1) . ﴿ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى عن دينه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك فى الحج(2) «لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» ومثله فى «لقمان»(2) و «الزمر»(2) وضمها الباقون على معنى لِيُضلوا الناس عن سبيله ، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضلّون عن سبيل الله على اللزوم، أى عاقبتهم إلى الإضلال والضلال؛ فهذه لام العاقبة . ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ وعيد لهم، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع . ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى مردّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم .

قوله تعالى : قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ (31)

(1) راجع جـ ١ ص ٢٣٠ فما بعدها .
(2) راجع جـ ١٢ ص ١٦ ، وجـ ١٤ ص ٥٦ ، وجـ ١٥ ص ٢٣٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي إن أهـل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقّق عبوديته أن ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني الصلوات الخمس، أي قل لهم أقيموا، والأمر معه شرط مقدّر، تقول : أطع الله يُدخلك الجنة ؛ أي إن أطعته يدخلك الجنة ؛ هذا قول الفراء . وقال الزجّاج : « يُقِيمُوا » مجزوم بمعنى اللام، أي ليقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دلّ على الغائب بـ « قل » . قال : ويحتمل أن يقال : «يُقِيمُوا» جواب أمر محذوف؛ أي قل لهم أقيموا الصـلاة يقيموا الصلاة . ﴿ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ يعني الزكاة؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الجمهور : السرّ ما خفي والعلانية ما ظهر . وقال القاسم ابن يحيى : إن السرّ التطوع والعلانية الفرض، وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[(1)] مجوّدا عند قوله : « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ » . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ تقدم في « البقرة »[(1)] أيضا . و « خِلَالٌ » جمع خلة كقُلّة وقِلال . قال[(2)] :

* فلستُ بمَقْلِيِّ الخِـلَالِ ولا قَالِي *

قوله تعـالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي أبدعها واخترعها على غير مثال سبق . ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي من السّحاب . ﴿ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي من الشجر

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ فما بعد وص ٢٦٦ فما بعد .

(٢) قاله امرؤ القيس ، وصدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

Marfat.com

ثمرات ﴿ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ تقدم معناه في «البقرة»[1] . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ يعني البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أي في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره ، والدُّؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية . وقيل : دائبين في السير امتثالا لأمر الله ، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران ؛ روى معناه عن ابن عباس . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي لتسكنوا في الليل ، ولتبتغوا من فضله في النهار ، كما قال : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أي أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا ؛ فحذف ؛ عن الأخفش . وقيل : المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه ، ومن كل ما لم تسألوه فحذف ، فلم نسأله شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه التي ابتدأنا بها . وهذا كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »[3] على ما يأتي . وقيل : « من » زائدة ؛ أي آتاكم كلّ ما سألتموه . وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما « وَآتَاكُمْ مِنْ كُلٍّ » بالتنوين « مَا سَأَلْتُمُوهُ » وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة ؛ هي على النفي أي من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شيء ما سألتموه أي الذي ما سألتموه . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ أي نعم الله . ﴿ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ولا تطيقوا عدّها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسمع والبصر وتقويم الصّور إلى غير ذلك من العافية والرزق ؛ [نعم لا تحصى][4] وهذه النعم من الله ، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر؟ ! وهلا استعنتم بها على الطاعة؟ ! ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص ؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل . وقيل : جميع الكفار .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٤ . (٢) راجع ج ١٣ ص ١٠٨ . (٣) راجع ج ١٠ ص ١٦٠ .
(٤) من ا و ج و و ى .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِنًا ﴾ يعنى مكة وقـد مضى فى « البقرة »(١) . ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ أى اجعلنى جانبا عن عبادتها، وأراد بقوله : « بنىّ » بنيه من صُلْبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنما . وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له . وقرأ الجَحْدَرىّ وعيسى « وَأَجْنِبْنِي » بقطع الألف والمعنى واحد؛ يقال : جَنَبْتُ ذلك الأمر، وأجنبته وجنّبته إياه فتجانبـه واجتنبه أى تركه . وكان إبراهيم التَّيْمىّ يقول فى قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول « وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ » كما عبدها أبى وقومى .

قوله تعـالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لمـا كانت سببا للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازا؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعل(٢) . ﴿ فَمَن تَبِعَنِي ﴾ فى التوحيد . ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى من أهـل دينى . ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ أى أصرّ على الشرك . ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل : قال هـذا قبل أن يعرّفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به . وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت . وقال مقاتل بن حيان : « وَمَنْ عَصَانِي » فيما دون الشرك .

قوله تعـالى : رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ روى البخارى عن ابن عباس : أول ما اتخذ النّساء المِنْطَق من قِبل أم إسمعيل؛ اتخـذت مِنْطَقا(٣) لتُعفّى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسمعيل وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة فوق زمزم فى أعلى المسجد؛ وليس بمكة يومئذ أحد، وليس

(١) راجع جـ ٢ ص ١١٧ فما بعد . (٢) فى ى : لا تعقل . (٣) المنطق : النطاق وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشىء، وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها

Marfat.com

بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسمعيل، فقالت : يا إبراهيم ! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس(١) ولاشيء، فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم. قالت إذا لا يضيّعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثّنية حيث لا يرونه، آستقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال : « ربِّ إنّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ » حتى بلغ « يَشْكُرُونَ » وجعلت أم إسمعيل تُرضع إسمعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السّقاء عطشت وعطش آبنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى — أو قال يتلبّط(٢) — فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصّفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم آستقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصّفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : "فذلك سعي الناس بينهما" فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه ! تريد نفسها، ثم تسمّعت فسمعت أيضا فقالت : قد أسمعتَ إن كان عندك غواث(٣) ! فإذا هي بالملَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه — أو قال بجناحه — حتى ظهر الماء، فجعلت تحوّضه وتقول بيدها هكذا(٤)، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : "يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم — أو قال : لو لم تغرف من الماء — لكانت زمزم عينا معينا" قال : فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملَك : لا تخافي الضّيعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيّع أهله؛ وذكر الحديث بطوله .

---

(١) في ى و ر : أنيس .		(٢) يتلبط : يتمرغ .

(٣) غواث : (بالفتح) كالغياث (بالكسر) من الإغاثة وهي الإعانة .

(٤) « وتقول بيدها هكذا » : هو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل . (قسطلاني) .

Marfat.com

مسألة — لايجوز لأحد أن يتعلق بهـذا فى طرح ولده وعياله بأرض مَضيعة اتكالا على العزيز الرحيم، واقتداء بفعل إبراهيم الخليل ، كما تقول غُلاة الصُّوفية فى حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله فى الحديث : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . وقـد روى أن سارة لما غارت من هاجر بعـد أن ولدت إسمعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فروى أنه ركب البراق هو وهاجر والطّفل فجاء فى يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك ابنه وأمته هنالك وركب منصرفا من يومه، فكان ذلك كله بوحى من الله تعالى، فلما ولّى دعا بضمن هذه الآية .

الثانيـــة — لما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخطّ الموضع للبيت المكرم، والبلد الحرام، أرسل المَلَك فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء ، وفى الصحيح : أن أبا ذر رضى الله عنه اجتزأ به ثلاثين بين يوم وليـلة ، قال أبو ذر : ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسّرت عُكَنى(١)، وما أجد على كبدى سَخْفَة(٢) جوع ؛ وذكر الحـديث . وروى الدّارَقُطنى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماء زمزم لِما شُرب له إن شربته تستشفى به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربته لقطع ظمئك قطعه وهى هَزْمة(٣) جبريل وسُقْيا الله إسمعيل". وروى أيضا عن عِكرمة قال : كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إنى أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء. قال ابن العربى : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحّت نيّته، وسلمت طويته، ولم يكن به مكذّبا، ولا يشربه مجرّبا، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرّبين . وقال أبو عبدالله محمد بن علىّ الترمذى وحدثنى أبى رحمه الله قال : دخلت الطّواف فى ليلة ظلماء فأخذنى من البول ما شغلنى ، فجعلت أعتصر(٤) حتى آذانى، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام، وذلك أيام الحج؛ فذكرت هذا الحديث، فدخلت زمزم فتضلّعت(٥) منه، فذهب عنى إلى الصباح . وروى عن عبدالله بن عمرو : إن فى زمزم عينا فى الجنة من قِبل الركن .

(١) جمع عكنة . وهى ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا .
(٢) سخفة الجوع : رقته وهزاله .
(٣) هزمة جبريل : أى ضربها برجله فنبع الماء .
(٤) العصر: المنع والحبس .
(٥) تضلع : أكثر من الشرب حتى تمدد جنبه وأضلاعه .

Marfat.com

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ « مِنْ » في قوله تعالى : « مِنْ ذُرِّيَّتِي » للتبعيض أي أسكنت بعض ذريتي ؛ يعني إسمعيل وأمه ، لأن إسحق كان بالشام . وقيل : هي صلة ؛ أي أسكنت ذريتي .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ يدلّ على أن البيت كان قديما على ما روى قبل الطّوفان، وقد مضى هذا المعنى في سورة « البقرة »(١) . وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرّم، أي يحرم فيه ما يستباح في غيره من جماع وآستحلال . وقيل : محرّم على الجبابرة، وأن تنتهك حرمته ، ويستخفّ بحقّه؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى القول في هذا في « المائدة »(٢) .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ خصّها من جملة الدّين لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد؛ قال صلى الله عليه وسلم : "خمس صلوات كتبهن الله على العباد". الحديث . واللام في « لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » لام كي؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة بـ « أَسْكَنْتُ » ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رغب إلى الله [أن يأتمنهم و](٣) أن يوفقهم لإقامة الصلاة .

السادسة — تضمّنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى « رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أي أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه . وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بمائة صلاة، وآحتجوا بحديث عبد الله بن الزّبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة". قال الإمام الحافظ أبو عمر : وأسند هذا الحديث حبيبٌ المعلّم عن عطاء بن أبي رَبَاح عن عبد الله ابن الزّبير وجوّده ، ولم يخلط في لفظه ولا في معناه ، وكان ثقة . قال ابن أبي خَيْثَمة سمعت

(١) راجع جـ ٢ ص ١٢٠ فما بعد . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٢٥ . (٣) من ى .

Marfat.com

يحيى بن مَعين يقول : حبيبٌ المعلّم ثقة . وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبي يقول : حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثَه! وسئل أبو زُرْعة الرازيّ عن حبيب المعلم فقال: بصرى ثقة.

قلت — وقد خرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبي رَبَاح عن عبد الله بن الزبير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الحافظُ أبو حاتم محمد ابن حاتم التميمى البُستِى فى المسند الصحيح له ، فالحديث صحيح وهو الحجة عند التنازع والاختلاف . والحمد لله . قال أبو عمر : وقد روى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير؛ رواه موسى الجُهَنى عن نافع عن ابن عمر؛ وموسى الجهنيّ [الكوفى] (١) ثقة، أثنى عليه القطّان وأحمد ويحيى وجماعتهم، وروى عنه شعبة والثوريّ ويحيى بن سعيد . وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه". وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرَّقة قد روى عنه أبو زُرْعة الرازيّ (٢) ، وأخذ عنه ابن وضّاح، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به . فإن كان حفِظ فهما حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المعلم . وروى محمد بن وضّاح، حدثنا يوسف بن عدىّ عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل ". قال أبو عمر : وهذا كله نصٌّ فى موضع الخلاف قاطع له عند من أُلهِمَ رشدَه، ولم تَمِل به عصبيّته . وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف وعن أَصْبَغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة فى المسجد الحرام على الصلاة فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم على ما فى هذا الباب . وقد اتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لها فى كل بلد إلا مكة فإنها تُصلَّى فى المسجد الحرام . وكان عمر وعلى وابن مسعود وأبو الدَّرْدَاء وجابر يفضّلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم؛ وإلى هذا ذهب الشافعى، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين، وروى مثله عن مالك؛ ذكر ابن وهب فى جامعه عن مالك أن

(١) من ى . هو موسى بن عبد الله الجهنى الكوفى . (٢) فى ى : حفظ فيهما حديثان .

Marfat.com

آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض قال : يارب هذه أحب إليك أن تُعبَد فيها ؟ قال : بل مكة . والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة ، وآختلف أهل البصرة والبغداديون فى ذلك ؛ فطائفة تقول مكة ، وطائفة تقول المدينة .

قوله تعالى : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهى القلوب ، وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر :

وإن فـؤاداً قادنى بصَبابةٍ * إليك على طول المـدى لَصَبُورُ

وقيل : جمع وَفْد ، والأصل أوفدة ، فقدّمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هى ، فكأنه قال : واجعل وفودا من الناس تَهْوِى إليهم ؛ أى تنزع ؛ يقال : هوِى نحوه إذا مال ، وهوت الناقة تَهوِى هُوِيًّا فهى هاوية إذا عَدَت عَدْوا شديدا كأنها فى هواء بئر ، وقوله : « تَهْوِى إِلَيْهِمْ » مأخوذ منه . قال ابن عباس ومجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس ، ولكن قال : « مِنَ النَّاسِ » فهم المسلمون ؛ فقوله : « تَهْوِى إِلَيْهِمْ » أى تحنّ إليهم ، وتحنّ إلى زيارة البيت . وقرأ مجاهد « تَهْوَى إِلَيْهِمْ »(١) أى تهواهم وتجلّهم . ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فاستجاب الله دعاءه ، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار ، وبما يجلب إليهم من الأمصار . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : " فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكَته فلم يجد إسمعيل ، فسأل آمرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَرٍّ ، نحن فى ضيق وشدة ؛ فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغيِّر عَتَبة بابه ، فلما جاء إسمعيل كأنه آنس شيئا(٢) فقال : هل جاءكم من أحد ! قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنى عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشتنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشىء : قالت : أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غيّر عَتَبة بابك ؛ قال : ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك آلحقى بأهلك ؛ فطلقها وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده ، ودخل على آمرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . قال :

(١) قال الألوسى : مضارع هوى بمعنى أحب عدى بإلى . (٢) أى كأنه أبصر ورأى شيئا لم يعهده .

Marfat.com

كيف أنتم ؟ وسألهـا عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله . قال : ما طعامكم؟قالت : اللحم . قال فما شرابكم؟قالت : المـاء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والمـاء. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه " . قال : فهما لا يخلو عليهما[1] أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ؛ وذكر الحـديث . وقال ابن عباس : قول إبراهيم «فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ» سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكْنى بمكة، فيصير بيتا محرما، وكل ذلك كان والحمد لله . وأول من سكنه جُرْهُم . ففى البخاريّ — بعد قوله : وإن الله لا يُضيّع أهلَه — وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، وكذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرْهُم قافلين من طريق كُدًا ، فنزلوا بأسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا[2] فقالوا : إن هـذا الطائر ليَدُور على ماء ! لَعهدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جَرِيًّا[3] أو جَرِيَّين فإذا هُم بالمـاء ، فأخبروهم بالمـاء فأقبلوا . قال : وأم إسمعيل عند المـاء ، فقالوا : أتأذنين لنـا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حقّ لكم فى المـاء . قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسـلم : " [فألفى[4]] ذلك أمّ إسمعيل وهى تحب الأنس " فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، شبّ الغلامُ ، وماتت أم إسمعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكَته ؛ الحديث .

قوله تعالى : رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

---

(١) فى و : عنهما . (٢) العائف هنا هو الذى يتردد على المـاء ولا يمضى . (٣) الجرى : الرسول .

(٤) ألفى أى وجد ذلك الحى الجرهمى أم إسمعيل ، أو ألفى استئذان جرهم بالنزول أم إسمعيل والحال أنها تحب الأنس ؛ ففاعل ألفى (ذلك) و(ذلك) إشارة إلى الاستئذان .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أى ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا. وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسمعيل وأمه حيث أسكنا بواد غير ذى زرع . ﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ قيل : هو من قول إبراهيم . وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : « رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ » قال الله : « وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ﴾ أى على كبر سنى وسن امرأتى ؛ قال ابن عباس : ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة . وقال سعيد بن جبير : بُشّر إبراهيمُ بإسحق بعد عشر ومائة سنة . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أى من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ أى واجعل من ذريتى من يقيمها . ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ أى عبادتى كما قال : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »(١) . وقال عليه السلام : "الدعاء مخ العبادة" وقد تقدم فى « البقرة »(٢) . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : استغفر إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله . قال القُشَيرىّ : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره فى استغفاره لأبيه دون أمه .

قلت : وعلى هذا قراءة سعيد بن جبير، « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي » يعنى أباه . وقيل : استغفر لهما طمعا فى إيمانهما . وقيل : استغفر لها بشرط أن يُسلما . وقيل : أراد آدم وحواء . وقد رُوى أن العبد إذا قال : اللهم اغفر لى ولوالدى وكان أبواه قد ماتا كافرين انصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع . وقيل : إنه أراد ولديه إسمعيل وإسحق . وكان إبراهيم النخعى يقرأ : «وَلِوَلَدَيَّ» يعنى ابنيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر ؛ ذكره الماوَرْدى والنحاس . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : «لِلْمُؤْمِنِينَ» كلهم وهو أظهر. ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أى يوم يقوم الناس للحساب .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٦ .　　(٢) راجع جـ ٢ ص ٣٠٩ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بعـد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ؛ أى آصبر كما صبر إبراهيم ، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنّة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مِهْران : هـذا وعيد للظالم ، وتعزية للظلوم . ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يعنى مشركى مكة يمهلهم ويؤخر عذابهم . وقراءة العامة « يُؤَخِّرُهُم » بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللّهَ » . وقرأ الحسن والسُّلَمى وروى عن أبى عمرو أيضا « نُؤَخِّرُهُمْ » بالنون للتعظيم . ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى لاتغمض من هول ماتراه فى ذلك اليوم ، قاله الفراء . يقال : شَخَص الرجلُ بَصرَه وشَخَص البصرُ نفسُه أى سَمَا وطَمَح من هـول مايرى . قال ابن عبـاس : تَشخص أبصار الخـلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحـيرة فلا يَرْمَضُون . ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى مسرعين ؛ قاله الحسن وقَتادة وسعيد بن جبير ؛ مأخوذ من أهطع يُهطع إهطاعا إذا أسرع . ومنه قوله تعالى : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ »(١) أى مسرعين . قال الشاعر :

بدِجْلة دارُهُمْ ولقد أراهُمْ * بدِجْلةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماعِ

وقيل : المهطع الذى ينظر فى ذل وخشوع ؛ أى ناظرين من غير أن يَطْرِفوا ؛ قاله ابن عباس ، وقال مجاهد والضّحّاك : « مُهْطِعِينَ » أى مديمى النظر . وقال النحاس : والمعروف فى اللغة أن يقال : أهطع إذا أسرع ؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعا يعنى الإسراع مع إدامة النظر . وقال ابن زيد : المهطع الذى لايرفع رأسه . ﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ أى رافعى رءوسهم ينظرون فى ذلّ . وإقناع الرأس رفعـه ؛ قاله ابن عباس ومجاهـد . قال ابن عرفة والقُتَبِي وغيرهما : المقنع الذى يرفع رأسه ويقبل ببصره على مابين يديه ؛ ومنه الإقناع فى الصلاة(٢)

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٣٠ . (٢) الإقناع فى الصلاة أن يرفع المصلى رأسه حتى يكون أعلى من ظهره .

Marfat.com

وأقنع صوته إذا رفعه . وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد . وقيل : ناكسي رءوسهم؛ قال المهدوى : و يقال أقنع إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلّة وخضوعا، والآية محتملة الوجهين، وقاله المبرّد، والقول الأول أعرف في اللغة؛ قال الراجز :

أَنْغَضَ(١) نَحْوِى رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا * كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شيئاً أَطْمَعَا

وقال الشّمّاخ يصف إبلا :

يُبَاكِرْنَ العِضَاهَ(٢) بِمُقْنَعَاتٍ * نَوَاجِذُهُنّ كالحَدَإِ الوَقِيعِ(٣)

يعني : برءوس مرفوعات إليها لتتناولهن . ومنه قيل : مِقْنَعة لارتفاعها . ومنه قَنِع الرجل إذا رَضِي؛ أي رفع رأسه عن السؤال . وقَنَع إذا سأل أي أتى ما يتقنّع منه ؛ عن النحاس . وفم مُقْنَع أي معطوفة أسنانه إلى داخل . ورجل مُقَنَّع بالتشديد ؛ أي عليه بَيْضة قاله الجوهري . ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر . يقال : طَرَف الرجلُ يَطْرِف طَرْفا إذا أطبق جَفْنه على الآخر، فسمّى النظر طَرْفا لأنه به يكون . والطَّرْف العين . قال عنترة :

وَأَغُضّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي * حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا

وقال جميل :

وَأَقْصِر طَرْفِي دُونَ جُمْلٍ كَرَامَةً * لِجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الذي أنَا قَاصِرُهْ

﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي لا تغنى شيئا من شدّة الخوف . ابن عباس : خاليةٌ من كل خير . السُّدّيّ : خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم ؛ وقال مجاهد ومُرّة وابن زيد : خاوية خربة مُتخرِّقة(٤) ليس فيها خير ولا عقل ؛ كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء : إنما هو هَوَاءٌ ؛ وقاله ابن عباس . والهواء في اللغة المجوَّف الخالي ؛ ومنه قول حسان :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي * فأنتَ مُجَوَّفٌ(٥) نَخِبٌ هَوَاءُ

(١) أنغض رأسه : حركه . (٢) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك . والحدأ (بفتح الحاء) وقيل : (بكسرها) جمع حدأة ؛ وهى الفأس ذات الرأسين ؛ والوقيع : المحدد . شبه الشاعر أسنان الإبل بالفؤس في الحدة .

(٣) أى على الرأس من المرأة . (٤) في و : محترقة . (٥) المجوف والمجوّف : الجبان الذى لا قلب له . والنخب : من النخب بمعنى النزع . يقال : رجل نخب أى جبان ؛ كأنه منتزع الفؤاد .

Marfat.com

وقال زهير يصف ناقة صغيرة الرأس :

كأن الرحل منها فوق صـعل[1] * من الظلمان جؤجؤه هـــواء

فارغ أى خال ؛ وفى التنزيل : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا[2] » أى من كل شىء إلا من هم موسى . وقيل : فى الكلام إضمار ؛ أى ذات هواء وخلاء .

قوله تعالى : وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ ﴾ قال ابن عباس : أراد أهل مكة . ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو يوم القيامة ؛ أى خوفهم ذلك اليوم . وإنما خصّهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثواب ، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصى . ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى فى ذلك اليوم ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا ﴾ أى أمهلنا . ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة . ﴿ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أى إلى الإسلام . ﴿ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ . فيجابوا : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى دار الدنيا . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ قال مجاهـد : هو قسم قريش أنهـم لا يبعثون . ابن جريج : هو ما حكاه عنهم فى قوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ[3] » . « مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيه تأويلان : أحدهما — مالكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أى لا تبعثون ولا تحشرون ؛ وهذا قول مجاهد . الثانى — « مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » أى من العـذاب . وذكر البيهقى عن محمـد بن كعب القرظى قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربعة ، فإذا كان فى الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا ، يقولون : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ[4] » فيجيبهم الله « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » .

(١) "فوق صعل" شبه الناقة فى سرعتها بالظليم وهو ذكر النعام ، فكأن رحلها فوقه . والصعل : الصغير الرأس ، وبذلك يوصف الظليم والجؤجؤ الصدر. (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٥٤ . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٠٥ .
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٦ .

Marfat.com

ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ »(١) فيجيبهم الله تعالى : « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ » فيجيبهم الله تعالى « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيبهم الله تعالى : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ »(١) . ويقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ فيجيبهم الله تعالى : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ »(٢) فلا يتكلمون بعدها أبدا ؛ خرجه ابن المبارك فى « دقائقه » بأطول من هـذا — وقد كتبناه فى كتاب « التذكرة » — وزاد فى الحديث « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » قال هـذه الثالثة ، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء ، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم فى وجه بعض ، وأطبقت عليهم ؛ قال : فحدثنى الأزهر ابن أبى الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله : « هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »(٣) .

قوله تعالى : وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى فى بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم ، بعد ما تبيّن لكم ما فعلنا بهم ، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال فى القرآن . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ « وَنُبَيِّنْ لَكُمْ » بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضى ؛ وليناسب قوله : « كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » . وقراءة الجماعة ، « وَتَبَيَّنَ » وهى مثلها فى المعنى ؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم .

(١) راجع جـ ١٤ ص ٩٥ ، وص ٣٥١ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ . (٣) راجع جـ ١٩ ص ١٦٤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أى بالشرك بالله وتكذيب الرسـل والمعـاندة ؛ عن آبن عباس وغيره . ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ « إن » بمعنى «ما» أى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه ؛ «وإن» بمعنى «ما» فى القرآن فى مواضع خمسة : أحدها هذا . الثانى — « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ»(١) . الثالث — «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا»(٢) أى ما كنا . الرابع — « قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ »(٣) . الخامس — « وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ »(٣) . وقرأ الجماعة « وإن كان » بالنون . وقرأ عمرو بن علىّ وابن مسعود وأبىّ «وإن كاد» بالدال.والعامة على كسر اللام فى «لتزول» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصبا.وقرأ ابن محيصن وابن جريج والكسائىّ «لَتَزُولُ» بفتح اللام الأول على أنها لام الابتداء ورفع الثانية « وإن » مخففة من الثقيلة ، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم ؛ أى ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه ؛ قال الطّبرىّ : الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة؛ قال أبو بكر الأنبارىّ : ولا حجة على مصحف المسلمين فى الحديث الذى حدّثناه أحمد بن الحسين : حدّثنا عثمان بن أبى شيبة حدّثنا وكيع بن الجـراح عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن دانيـل(٤) قال سمعت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : إن جبّـارا من الجبابرة قال لا أنتهى حتى أعلم من فى السموات ، فعَمَد إلى فراخ نُسُور،فأمر أن تطعم اللحم،حتى آشتدت وعَضِلت وآستعلجت(٥) أمر بأن يُتخذ تابوتٌ يسع فيه رجلين؛ وأن يجعل فيه عصا فى رأسها لحم شديد حمرته ، وأن يُستوثق من أرجل النسور بالأوتاد؛ وتُشدّ إلى قوائم التابوت ، ثم جلس هو وصاحب له فى التابوت وأثار النّسورَ،فلما رأت اللحم طلبته،فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله؛ فقال الجبّار لصاحبه : آفتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذباب، فقال : أغلق الباب؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد، فقال الجبّار لصاحبه : آفتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بعُدا، فقال: نَكِّس العصا فنكّسها، فانقضّت النّسور . فلمـا وقع التابوت على الأرض سمعت له هدّة كادت الجبال تزول عن

(١) راجع ج٨ ص ٣٨٢ . (٢) راجع ج١١ ص ٢٧٥ . (٣) راجع ج ١٦ ص ١١٩ وص ٢٠٨
(٤) هذا السند فى كل الأصول ولم نقف عليه رغم البحث . (٥) استعلجت : غلظت .

Marfat.com

مراتبها منها، قال : فسمعت عليّاً رضى الله عنه يقرأ[1] « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ » بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية . وقد ذكر الثعلبي هذا الخبر بمعناه، وأن الجبّار هو النمرود الذى حاجّ إبراهيم فى ربّه، وقال عكرمة : كان معه فى التابوت غلام أمرد، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليه ملطخا بالدماء وقال : كُفِيتُ نَفْسَكَ[2] إِلَهَ السَّماء . قال عكرمة : تلطّخ بدم سمكة من السماء، قذفت نفسها إليه من بحر فى الهواء معلّق . وقيل : طائر من الطير أصابه السّهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنكِّس اللحم، فهبطت النّسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنّسور ففزعت، وظنّت أنه قد حدث بها حدث من السماء، وأنّ الساعة قد قامت، فذلك قوله : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » . قال القُشيرى : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة فى الجبال. وذكر الماوردى عن ابن عباس : أن النّمرود بن كنعان بَنَى الصّرح فى قرية الرسّ من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعا، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعا، وصعد منه مع النّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصنا، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه، فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصّرح عليهم فهلكوا جميعا، فهذا معنى « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ » وفى الجبال التى عَنَى زوالها بمكرهم وجهان : أحدهما — جبال الأرض . الثانى — الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال . وقال القُشيرى : « وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ » أى هو عالم بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف . « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بكسر اللام؛ أى ما كان مكرهم مكرا يكون له أثر وخطر عند الله تعالى، فالجبال مَثَل لأمر النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ » فى تقديرهم « لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » وتؤثر فى إبطال الإسلام . وقرئ « لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية؛ أى كان مكرا عظيما تزول منه الجبال، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله

(١) تعقب هذه القصة ابن عطية فى تفسيره بعد أن حكاها عن الطبرى بقوله : « وذلك عندى لا يصح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه، وفى هذه القصة ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيد أن يغرر أحد بنفسه فى مثل هذا » . (٢) عبارة الثعلبى فى « قصص الأنبياء » : (كفيت شغل إله السماء) .

Marfat.com

عليه وسلم ، وهو كقوله تعالى : « وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا [(١)] » والجبال لا تزول ولكنّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون .

قوله تعالى : فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ ٱسمُ الله تعالى و « مخلف » مفعولا تحسب ؛ و « رُسُلَهُ » مفعول « وَعْدِهِ » وهو على الاتساع ، والمعنى : مخلف وعده رسلَه ؛ قال الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ * وسائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ [(٢)]

قال القُتَبِيّ : هو من المقدّم الذي يوضحه التأخير، والمؤخّر الذي يوضحه التقديم، وسواء في قولك : مخلف وعده رسلَه ، ومخلف رسله وعدَه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ أي من أعدائه . ومن أسمائه المنتقم وقد بيّناه في « الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ أي اذكر يوم تبدّل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله . وقيل : هو صفة لقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » . واختلف في كيفية تبديل

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٦ .

(٢) يصف الشاعر هاجرة قد ألجأت الثيران إلى كنسها ، فترى الثور مدخلا لرأسه في ظل كناسه لما يجده من الحرارة، وسائره بارز للشمس .

Marfat.com

الأرض ، فقال كثير من الناس : إن تبدّل الأرض عبارة عن تغير صفاتها ، وتسوية آكامها ، ونسف جبالهـا ، ومدّ أرضها ؛ ورواه ابن مسعود رضى الله عنه ؛ خرجه ابن ماجه فى سننه وذكره ابن المبارك من حديث شَهْر بن حَوْشَب ، قال حدّثنى ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرضُ مدَّ الأديم وزيد فى سعتها كذا وكذا ؛ وذكر الحديث . وروى مرفوعا من حديث أبى هُريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " تبدّل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمـدّها مدّ الأديم العُـكَاظىّ (١) لا ترى فيها عِوجا ولا أَمْتًا ثم يزجر الله الخلق زجرةً فإذا هم فى الثانية فى مثـل مواضعهم من الأولى [من كان فى بطنها ففى بطنها ومن كان على ظهـرها كان على ظهرها] (٢) " ذكره الغَزْنَوىّ . وتبديل السماء تكوير شمسها وقمـرها ، وتناثر نجومها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : اختلاف أحوالها ، فمرة كالمهل (٣) ومرة كالدّهان (٤) ؛ حكاه ابن الأنبارىّ ؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبيّنـا فى كتاب « التذكرة » وذكرنا ما للعلماء فى ذلك ، وأن الصحيح إزالة هـذه الأرض حسب ما ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . روى مسـلم عن ثَوْبان مولَى رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال : كنت قائمـا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجـاءه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك ؛ وذكر الحديث ، وفيـه : فقال اليهودىّ أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " فى الظُّلمة دون الجسر (٥) " . وذكر الحديث . وخرّج عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : " على الصراط " . خرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء ، وخرجه الترمذىّ عن عائشة وأنهـا هى السائلة ، قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ فهذه الأحاديث تنصّ على أن السموات والأرض تُبدَّل وتُزال ، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجسر . وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه

(١) أديم عكاظى : منسوب إلى عكاظ ، وهو ممـا حمل إليها فبيع بها . وعكاظ : اسم سوق من أسواق الجاهلية مشهورة كانت بقرب مكة . والأمت : المكان المرتفع والتلال الصغار والانخفاض والارتفاع .

(٢) عبارة الأصل هنا ناقصة ومحرفة ، والزيادة والتصويب من تفسير الطبرى وكتاب « التذكرة » للؤلف .

(٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٤ . (٤) راجع جـ ١٧ ص ١٧٣ . (٥) الجسر : الصراط .

Marfat.com

وسلم : "يُحشَر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاءَ عَفْراء كقُرْصَة النَّقِيّ[1] ليس فيها عَلَمٌ لأحد" .

وقال جابر : سألت أبا جعفر محمد بن عليّ عن قول الله عز وجل : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » قال : تُبدّل خُبْزة يأكل منها الخلق يوم القيامة ، ثم قرأ : « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ[2] » . وقال ابن مسعود : إنها تبدّل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمَل عليها خطيئة . وقال ابن عباس : بأرض من فضّة بيضاء . وقال عليّ رضي الله عنه : تبدّل الأرض يومئذ من فضة والسماء من ذهب وهذا تبديل للعين ، وحسبك . ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ أى من قبورهم ، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ﴾ وهم المشركون . ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ أى مشدودين ﴿ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ وهى الأغلال والقيود ، واحدها صَفَد وصَفَد . ويقال : صَفَدته صَفْدا أى قيّدته والاسم الصَّفَد ، فإذا أردت التكثير قلت : صفّدته تصفيدا ؛ قال عمرو بن كُلْثوم :

فآبُوا بالنِّهاب وبالسَّبايا * وأُبْنا بالمُلوك مُصَفَّدينا

أى مقيّدينا . وقال حسان :

مِن كلّ مأسورٍ يُشَدُّ صِفادُهُ * صَقْرٍ إذا لاقى الكَريهةَ حامِ

أى غلّه ، وأصفدته إصفادا أعطيته . وقيل : صَفَدته وأَصْفَدته جاريان فى القيد والإعطاء جميعا ؛ قال النابغة :

* فلم أُعرِضْ أبيتَ اللّعنَ[3] بالصَّفَد *

فالصَّفَد العطاء ؛ لأنه يُقيِّد ويُعْبِد ؛ قال أبو الطيب :

وقَيَّدتُ نفسِى فى ذَرَاكَ[4] مَحَبّةً * ومَن وجَدَ الإحسانَ قَيْدًا تَقيّدا

(١) النقى : الدقيق الحوارى . والحوارىّ : ما حوّر أى بيض . والعلم الأثر

(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٧٢ . (٣) معنى أبيت اللعن : أى أبيت أن تأتى شيئا تلعن عليه ، وصدر البيت :

* هذا الثناء فإن تسمع لقائله *

(٤) الذرا (بالفتح) : الدار ونواحيها ، وكل ما استترت به ؛ تقول : أنا فى ذرا فلان أى فى كنفه وستره .

Marfat.com

قيل : يقرن كل كافر مع شيطان فى غُل، بيانه قوله : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ »(١) يعنى قرناءهم من الشياطين . وقيل : إنهم الكفار يجمعون فى الأصفاد كما اجتمعوا فى الدنيا على المعاصى . ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أى قمصهم، عن ابن دُرَيد وغيره، واحدها سربال، والفعل تَسربلتُ وسَربلتُ غيرى ؛ قال كعب بن مالك :

تَلْقَاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ * مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِى الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

« مِنْ قَطِرَانٍ » يعنى قطران الإبل الذى تُهْنَأ به(٢)؛ قاله الحسن . وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم. وفى الصحيح : أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودِرْع من جَرَب . وروى عن حماد أنهم قالوا: هو النُّحاس . وقرأ عيسى بن عمر : «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وتسكين الطاء.وفيه قراءة ثالثة: كسر القاف وجزم الطاء، ومنه قول أبى النَّجْم :

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَرَقَ الْمَنْتُوحَا(٣) * لَبَّسَهُ الْقِطْرَانَ وَالْمُسُوحَا

وقراءة رابعة : « مِنْ قِطْرٍ آنٍ(٤) » رويت عن ابن عباس وأبى هُريرة وعِكْرِمة وسعيد بن جُبير ويعقوب؛ والقِطْر النحاس والصُّفْر المذاب؛ ومنه قوله تعالى : « آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا »(٥) . والآن : الذى قد آنتهى إلى حَرّه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ »(٦) . ﴿ وَتَغْشَى ﴾ أى تضرب ﴿ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ فتغشيها . ﴿ لِيَجْزِىَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ أى بما كسبت. ﴿ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى هذا الذى أنزلنا إليك بلاغ ؛ أى تبليغ وعظة . ﴿ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ أى ليخوّفوا عقاب الله عز وجل ، وقرئ . «وَلِيَنْذَرُوا» بفتح الياء والذال، يقال: نَذِرت بالشيء أَنْذَر إذا علمت به فاستعددتَ له ،ولم يستعملوا منه مصدرا كما لم يستعملوا من عسى وليس، وكأنهم آستغنوا بأن والفعل كقولك : سَرَّنى أن نَذِرتُ بالشيء. ﴿ وَلِيَعْلَمُوا

(١) راجع جـ ١٥ ص ٧٢ . (٢) تهنأ به : تزهن . (٣) نتح العرق خرج من الجلد .
(٤) « قطر » : ضبطه فى « روح المعانى » بفتح القاف وكسر الطاء، وتنوين الراء، ومثله فى « البحر المحيط » ، وضبط بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء، ففيه ثلاث لغات . (٥) راجع جـ ١١ ص ٦٢ .
(٦) راجع جـ ١٧ ص ١٧٥ .

Marfat.com

أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين . ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي وليتّعظ أصحاب العقول . وهـذه اللامات فى « وَلِيُنْذَرُوا » « وَلِيَعْلَمُوا » « وَلِيَذَّكَّرَ » متعلقة بمحذوف ، التقدير : ولذلك أنزلناه . وروى يمـان بن رِئاب أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصـديق رضى الله عنـه . وسئل بعضهم هل لكتاب الله عنوان ؟ فقال : نعم ، قيـل : وأين هـو ؟ قال قوله تعالى : « هَـٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ » إلى آخرها . تم تفسير سورة إبراهيم عليه السلام والحمد لله .

محققـــه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

تم الجزء التـاسع من تفسير القرطبي

يتـلوه إن شاء الله تعـالى الجزء العـاشر ، وأوله :

ســـورة « الحجـــر »

Marfat.com

بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء التاسع من " تفسير القرطبي "

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء العاشر

اعاد طبعه
دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان
١٩٦٥

Marfat.com

فهرس الجزء العاشر

تفسير سورة الحجر

صفحة

تفسير قوله تعالى : « آلر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » ١

تفسير قوله تعالى : « رُبَمَا يودّ الذين كفروا ... » الآية . الكلام على « رُبَمَا » ١

تفسير قوله تعالى : « ذَرْهُمْ يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِم الأمل ... » فيه مسألتان : بيان أن الآية منسوخة بالسيف . النهى عن طول الأمل والحرص على الدنيا . ٢

تفسير قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية ... » الآيات ٣

تفسير قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر ... » الآيات . بيان أن الله تعالى حفظ القرآن من أن يزاد فيه أو ينقص منه ، فلم يزل محفوظا إلى اليوم ٥

تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا من قبلك ... » . الآية . ماجاء فى معنى « الشِّيَع » . ٦

تفسير قوله تعالى : « كذلك نَسْلُكه فى قلوب ... » الآيات . اختلاف العلماء فى عود الضمير، هل هو عائد على القرآن، أو على الضلال والشرك والاستهزاء . ٧

تفسير قوله تعالى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ... » الآيات . الكلام فى عود الضمير فى قوله : «عليهم» و «فظلوا» . ما فى معنى قوله : «سُكِّرَتْ» من أقوال . ٨

تفسير قوله تعالى : « ولقد جعلنا فى السماء بُروجا ... » الآيات . الدليل على كمال قدرة الله تعالى . بيان أسماء هذه البروج، وأنه يستدل بها على الطرقات والأوقات والخِصْب والجَدْب . بيان أن الشياطين كانت لاتحجب عن السماء، وأنهم كانوا يدخلونها و يلقون أخبارها على الكهنة و يزيدون عليها إلى مبعث النبي عليه السلام . رَمْيهم بالشهب عند استراق السمع . آختلاف فى الشهاب هل يقتل أم لا . وهل كان رَمْىٌ بالشهب قبل المبعث ٩

تفسير قوله تعالى : « والأرض مددناها وألْقَيْنَا فيها رَواسِىَ » الآيات ١٢

تفسير قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح ... » الآية . فيه خمس مسائل : الكلام على الرياح . قول العلماء فى لقاح القمح، وإبار النخل . إجماعهم أن البستان

Marfat.com

صفحة

إذا انشق طلع إناثه فأخر إباره وقد أبر غيره أن حكمه حكم ما أبر . وأن الثمر المؤبر لا يدخل مع الأصول فى البيع إلا بالشرط . النهى عن بيع الملاقح، وهل هى الفحول من الإبل، أو الإناث التى فى بطونها أولادها ١٥

تفسير قوله تعالى : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » فيه ثلاث مسائل : بيان مافى الآية من التأويلات . الدليل على فضل أول الوقت فى الصلاة، وعلى فضل الصف الأول فيها، وكذا فضل الصف الأول فى القتال ١٩

تفسير قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال ... » الآيات . الكلام على المادة التى خلق منها آدم عليه السلام ، والمادة التى خلق منها الجان ٢١

تفسير قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا ... » الآيات . أقوال العلماء فى الروح ، وأن سجود الملائكة لآدم كان سجود تحية لا سجود عبادة ... ٢٤

تفسير قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ... » الآيات . الكلام على الاستثناء فى هذه الآية . الفرق بين الشياطين والجن . اختلف الفقهاء فى جواز الاستثناء من الجنس غير الجنس . امتناع إبليس من السجود . الدليل على جواز استثناء القليل من الكثير والعكس . أبواب جهنم وتخصيص كل طائفة بباب ٢٥

تفسير قوله تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون ... » بيان المراد بالعيون ٣٢

تفسير قوله تعالى : « ونزعنا ما فى صدورهم من غِلّ ... » كيف ينزع الغل من قلوب المتقين، وهل هو فى الدنيا أم فى الآخرة . ماقيل فى السُّرُر ٣٣

تفسير قوله تعالى : « نَبِّئْ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » . بيان سبب نزول الآية... ٣٤

تفسير قوله تعالى : « ونبئهم عن ضيف إبراهيم ... » الآيات . تبشير الملائكة لإبراهيم بإسحاق عليهما السلام وتعجبه من ذلك . بيان أوجه القراءات فى قوله «تُبَشِّرون» وقوله : «من القانطين» . أقوال العلماء فى الاستثناء الواقع فى هذه الآيات، وإجماعهم على أن الاستثناء من النفى إثبات، ومن الإثبات نفى ... ٣٤

تفسير قوله تعالى : « فلما جاء آل لوط المرسلون ... » الآيات . قدوم الملائكة إلى لوط عليه السلام، وقصة لوط مع قومه لما أرادوا الفاحشة منهم ٣٨

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « لَعَمْرُكَ إنهم لفي سكرتهم يَعْمَهُون » فيه ثلاث مسائل : إجماع المفسرين على أن هذا قسم من الله تعالى بحياة محمد عليه السلام تشريفا له . بيان أن القسم بقولك «لعمرى ولعمرك» ونحوه جاء فى أشعار العرب ، والكثير من العلماء على كراهيته . مذهب مالك فيمن قال : لعمرك ، والتين والزيتون ، ونحو هذا ، أن اليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالمخلوق ٣٩

تفسير قوله تعالى : « فأخذتهم الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ» الآيات ٤٢

تفسير قوله تعالى : «إن فى ذلك لآياتٍ للْمُتَوَسِّمِينَ» فيه مسألتان : ما جاء فى التوسُّم والفراسة . هل يحكم بالفراسة فى الأحكام ٤٢

تفسير قوله تعالى : « وإنها لبسبيل مُقيم ... » الآيات . بيان معنى . «الأَيْكة» . ٤٥

تفسير قوله تعالى : « ولقد كذّب أصحاب الحِجْر المرسلين » . ما جاء فى معانى « الحِجر » والمراد به هنا . استنبط العلماء من هذه الآية ثمان مسائل : كراهة دخول مساكن الذين ظلموا أنفسهم . ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم . أمر رسول الله صلى عليه وسلم بعلف ما عجن من بئر ثمود الإبل . فى أمره عليه السلام بعلف الإبل العجين دليل على جواز حمل الرجل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها . الدليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين . ما جاء من النهى عن الصلاة فى بعض المواضع . جواز التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طاهرا نظيفا . البستان الذى يلقى فيه النتن والعذرة ليكرم لا يصلى فيه حتى يُسقى ثلاث مرات ٤٥

تفسير قوله تعالى : « وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ... » الآيات . قيل : إن المراد بالآيات الناقة ، بيان ما كان فيها من آيات ٥٣

تفسير قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » . اختلف العلماء فى السبع المثانى ، هل هى الفاتحة أم غيرها ٥٤

تفسير قوله تعالى : «لا تَمُدَّنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ... » الآية . سبب نزول الآية . الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام ٥٦

تفسير قوله تعالى : «وقل إنى أنا النذير المبين . كما أنزلنا على المُقْتَسِمِينَ ...»الآيات . اختلف فى «المقتسمين» على أقوال سبعة . ما جاء فى قوله : «عِضِين » ٥٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين ... » الآية تدل على محاسبة الجميع وسؤالهم كافرهم ومؤمنهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب . سؤال الكافر ومحاسبته ٥٩

تفسير قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ... » الآيات . بيان المراد من قوله : « فاصدع » . ذكر الخمسة الذين كانوا يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم وسبب هلاكهم ٦١

تفسير قوله تعالى : « فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » المراد بالتسبيح هنا الصلاة . الجمهور من العلماء على أن هذه الآية ليست محل سجود ٦٣

تفسير قوله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » معنى « اليقين » . الفرق بين الرجل يقول لامرأته : أنت طالق أبدا ، أو يقول : طلقتها حياتها ٦٤

سورة النحل

تفسير قوله تعالى : «أتى أمر الله فلا تستعجلوه ... » بيان المراد فى قوله : «أمر الله» ٦٥

تفسير قوله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره ... » الآية . أوجه القراءات فى قوله : «ينزل» . اختلاف العلماء فى معنى الروح فى هذه الآية ٦٧

تفسير قوله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق ... » الآيات . بيان أدلة التوحيد ، الاستدلال بخلق الإنسان وأحواله على وجود الله تعالى ٦٨

تفسير قوله تعالى : «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : الكلام على الأنعام . معنى الدفء . فى الآية دليل على لباس الصوف ٦٨

تفسير قوله تعالى : «ولكم فيها جمال ...» الآية . مافى الأنعام والدواب من الجمال . ٧٠

تفسير قوله تعالى : « وتحمل أثقالكم ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : المراد من شق الأنفس ، ومعنى لشق . جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها على قدر ماتحتمله . ٧١

تفسير قوله تعالى : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها ... » الآية . فيه ثمان مسائل : ما ملكه الإنسان من الحيوان جاز له تسخيره وكراؤه ، وأن الكراء يجرى مجرى البيوع فيما يحل منه ويحرم . الإجماع على أن من اكترى دابة ليحمل عليها عشرة أقفزة قمح فحمل عليها ما اشترط أو أخف منه فتلف أن لاضمان عليه .

Marfat.com

صفحة

اختلافهم فى الرجل يكترى الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمّى، فيتعدى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع الى المكان المأذون له فى المصير إليه . اختلافهم فى جواز أكل لحوم الخيل . بيان أن البغال تلحق بالحمير فى الحرمة . الدليل على أن الخيل لا زكاة فيها . قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإبل عِزٌّ لأهلها والغنم بركة والخيل معقود فى نواصيها الخير" . الكلام على قوله: « ويخلق ما لا تعلمون » ٧٣

تفسير قوله تعالى: «وعلى الله قَصْدُ السبيل ... » الآية . بيان المراد بقصد السبيل . ٨١

تفسير قوله تعالى: « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم ... » الآيات . معنى السوم . فى هذه الآيات دليل على قدرة الله ووحدانيته ٨٢

تفسير قوله تعالى: « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طَرِيًّا ... » الآية . فيه تسع مسائل: الكلام على تسخير البحر ، اختلاف العلماء فى السمك هل يسمى لحما . بيان أن اللحوم أصناف مختلفة لا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلا . المشهور أن الجراد يجوز بيع بعضه ببعض متفاضلا . اختلف فيمن حلف ألا يأكل لحما . المراد بحلية البحر . لا حُرمة على الرجال والنساء فيما يخرج من البحر . الكلام على لبس الذهب والحرير للرجال، والتختُّم بخاتم الفضة والتحلّى به . من حلف ألا يلبس حليا فلبس لؤلؤا لم يحنث . معنى المَخْر ٨٥

تفسير قوله تعالى: « وألْقَى فى الأرض رواسِىَ أن تَميد بكم ... » الآية . فى الآية دليل على استعمال الأسباب ٩٠

تفسير قوله تعالى: « وعلاماتٍ وبالنَّجْم هم يهتدون » بيان أن العلامات هى معالم الطرق بالنهار . اختلف فى النجوم الذى يقع بها الاهتداء . حكم استقبال القبلة . ٩١

تفسير قوله تعالى: « أفمن يَخْلُق كمن لا يخلق ... » الآيات . بيان أن الله تعالى هو الأحق بالعبادة لأنه هو الخالق للأشياء . بيان أن الآيات تبكيت للكفار . ٩٣

تفسير قوله تعالى: « إلهكم إله واحد ... » الآيات . بيان أن الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم لا تقبل الوعظ . بيان أن الكبر فِسْق وهو أصل العصيان ... ٩٤

تفسير قوله تعالى: « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ... » الآية . دعوى المشركين أن ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو من الأباطيل والتُّرَّهات ٩٥

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ... » الآية . بيان أن دعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم 96

تفسير قوله تعالى : « قد مكر الذين من قبلهم ... » الآية . بيان قصة النمرود بن كنعان وبنائه الصرح وكيف سقط عليهم 97

تفسير قوله تعالى : « ثم يوم القيامة يخزيهم ... » الآيات . بيان مايلقاه المشركون يوم القيامة من الهوان 98

تفسير قوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا .. » الآيات ... 100

تفسير قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ... » الآيات . الكلام على إنكار الكفار للبعث 105

تفسير قوله تعالى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » . فى الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق ، وأن الله تعالى مريد لجميع الحوادث خيرها وشرها... 106

تفسير قوله تعالى : « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا ... » الآيات . اختلاف العلماء فى سبب نزول هذه الآيات . واختلافهم أيضا فى الحسنة المرادة فى الآية . 106

تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ... » الآيات . الرد على مشركى مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . بيان أن الرسول عليه السلام مبين عن الله عز وجل مراده مما أجمله فى كتابه . الكلام على وعيد المشركين الذين احتالوا فى إبطال الإسلام ، ومعنى أخذهم على تخوف... 108

تفسير قوله تعالى : « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض ... » الآيات . بيان أن كل ما فى السموات والأرض يسجد لله تعالى 112

تفسير قوله تعالى : « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ... » الآيات . النهى عن اتخاذ آلهة غير الله . بيان أن الطاعة لا تكون إلا لله 113

تفسير قوله تعالى : « ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ... » الآيات . ذكر قبائح المشركين من جعلهم لآلهتهم نصيبا من أموالهم يتقربون بها إليهم ، ومن زعمهم أن الملائكة بنات الله... 115

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وإذا بُشّر أحدُهم بالأنثى ظلّ وجهه مُسْوَدًّا ... » الآيات .
بيان بغض العرب فى الجاهلية للبنات، وما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية .
بيان أن البنات بليّة، وأن فى الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقى من النار ... ١١٦

تفسير قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الناس بظلمهم ... » الآيات . بيان أن الله تعالى
لو آخذ الخلق بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة من نبيّ ولا غيره ١١٩

تفسير قوله تعالى : « تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ... » الآيات . تسلية للنبيّ
صلى الله عليه وسلم بأن مَن تقدمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم ١٢١

تفسير قوله تعالى : « وإن لكم فى الأنعام لَعِبْرَة ... » الآية . فيه عشر مسائل :
بيان المراد بالأنعام وما فيها من العبرة . الاختلاف فى الضمير من قوله : « مما
فى بطونه » على ماذا يعود . استنبط بعض العلماء من عود هذا الضمير أن لبن
الفحل يفيد التحريم . الكلام على تحويل اللبن من الدم . الدليل على أن المنيّ
ليس بنجس . الدليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره ، وأن لبن
الميتة لا يجوز الانتفاع به، وعلى استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها ... ١٢٢

تفسير قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب ... » الآية . فيه مسئلتان :
بيان أن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر . بيان معنى السكر . أقوال من ذهب
من العلماء إلى جواز شرب ما دون السكر من النبيذ ١٢٧

تفسير قوله تعالى : « وأوحى ربّك إلى النحل ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :
بيان أن الوحى قد يكون بمعنى الإلهام . لم سمى النحل نحلا . الكلام على بيوت
النحل ، وأن الله تعالى ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدّسة ١٣٣

تفسير قوله تعالى : ثم كلى من كل الثمرات ... » الآية . فيه تسع مسائل : الجمهور
من الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل . اختلف فى الضمير من قوله :
« فيه شفاء للناس » هل هو راجع للعسل أو القرآن . الرد على من زعم أن هذه
الآية يراد بها أهل البيت . اختلف فى شفاء العسل للناس هل يقتضى العموم
فى كل علة وفى كل إنسان أم على الخصوص . الدليل على جواز التعالج بشرب الدواء
وغيره، والرد على الصوفية الذين لا يجوّزون المداواة . الاختلاف فى زكاة العسل . ١٣٤

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : «واللهُ خلقكم ثم يتوفّاكم ...» الآية . بيان الاحتجاج على منكرى البعث بحالة الإنسان وتطوراته ١٤٠

تفسير قوله تعالى : «واللهُ فَضّل بعضكم على بعض فى الرزق ...» الآية . بيان أن هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لعبدة الأصنام ١٤١

تفسير قوله تعالى : « واللهُ جعل لكم من أنفسكم أزواجا ... » الآية . فيه خمس مسائل : بيان أن الولد يتبع أمه فى الرق والحرية . معنى الحفدة . ما جاء فى خدمة الزوجة فى بيت زوجها ، وأن الرجل يخدم زوجته فيما خف من الخدمة ويُعينها ، وعليه أن ينفق على خادمة واحدة ، وقيل على قدر الثروة والمنزلة ... ١٤٢

تفسير قوله تعالى : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا ... » الآية بيان أن الله تعالى ضرب هذه الآية مثلا يبيّن ضلالة المشركين ، وأنه لاتساوى بينه وبين الأصنام . ذكر ما جاء فى نقصان رتبة العبد عن الحُرّ فى الملكية وأنه لا يَملك . بيان أن طلاق العبد بيد سيده . بيان أن الرزق ما وقع الاغتذاء به ١٤٦

تفسير قوله تعالى : « وضرب الله مثلا رجلَين أحدُهما أَبكَمُ ... » الآية . اختلف فى الأبكم والذى يأمر بالعدل ١٤٩

تفسير قوله تعالى : « ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة ... » الآيات . معنى إتيان الساعة كلمح البصر ١٥٠

تفسير قوله تعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ... » الآية . فيه عشر مسائل : تعديد نعم الله تعالى على الناس فى البيوت . جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار . بيان أن صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز الانتفاع به ، واختلف فى القرن والسن والعظم ، وطهارة جلد الميتة إذا دبغ . الكلام على جلد الخنزير والكلب وما لا يؤكل لحمه . اختلف فى الدباغ التى تطهر به جلود الميتة ما هو . ١٥٢

تفسير قوله تعالى : «والله جعل لكم مما خلق ظِلالًا ...» الآية . فيه ست مسائل : بيان أن الله تعالى جعل للناس فى الجبال مأوى يتحصنون به ويعتزلون عن الخلق فيه . الدليل على اتخاذ العباد عُدّة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء ١٥٩

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فإن تولّوا فإنما عليك البلاغ ... » الآيات . بيان أن إعراض المشركين عن الإسلام لم يكن لعدم معرفتهم نعمة الله بل كانوا يعرفونها ثم ينكرونها ، وفى معرفتهم و إنكارهم ثمانية أقوال ١٦١

تفسير قوله تعالى : « و إذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ... » الآيات . بيان أن المشركين يتبعون يوم القيامة أصنامهم التى عبدوها ، وستنطق تلك الآلهة بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة . زيادة العذاب على المشركين يوم القيامة ... ١٦٣

تفسير قوله تعالى : « ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم ... » الآية . بيان أن لكل أمة شهيدا عليها يوم القيامة و إن لم يكن نبيًّا ١٦٤

تفسير قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ... » الآية . فيه ست مسائل هذه الآية هى أجمع آية فى القرآن لخير يُمتثل ولشر يُجتنب . الاختلاف فى تأويل العدل والإحسان . إعطاء ذى القربى . معنى الفحشاء والمنكر والبغْى ١٦٥

تفسير قوله تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أنه يجب الوفاء بجميع ما يُعقد باللسان و يلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة فيما يوافق الدِّين . اختلف فى سبب نزول هذه الآية . الكلام على حِلْف الفضول . النهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها . وما معنى التوكيد ... ١٦٩

تفسير قوله تعالى : « ولا تكونوا كالتى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ... الآية . المقصود من الآية النهى عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم ١٧١

تفسير قوله تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلًا بينكم ... » الآية . النهى عن عقد الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد... ... ... ١٧٢

تفسير قوله تعالى : « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ... » الآيات التحذير عن الرشا وأخذ الأموال على نقض العهد ١٧٣

تفسير قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى ... » الآية . ذكر أقوال العلماء فى معنى الحياة الطيبة ١٧٤

تفسير قوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ... » الآية . بيان أن الاستعاذة تكون قبل قراءة القرآن لا بعده ١٧٤

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ... » الآيات . بيان أن الشيطان لا سلطان له على المؤمنين المتوكلين، إنما سلطانه على الكافرين 175

تفسير قوله تعالى : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل ... » الآيات . الكلام على أن الله تعالى شرع الأحكام وتبديل البعض بالبعض 176

تفسير قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ... » الآيات . بيان دعوى المشركين أن النبي صلوات الله عليه إنما يُعلّمه بَشَرٌ ، اختلاف العلماء في اسمه . الكلام على العجمة 177

تفسير قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه ... » الآية . فيه إحدى وعشرون مسألة : بيان أن من ارتد بعد إيمانه فعليه غضب . من هم المرتدون . الكلام على من أكرهه المشركون على الكفر . سمح الله تعالى بالكفر به عند الإكراه . حكم من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل . بيان أن الرخصة إذا جاءت في القول دون الفعل . إجماع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره . اختلافهم في الإكراه على الزنى . الكلام على طلاق المكره وعتاقه وبيعه ونكاحه . هل تحد المرأة إذا استُكرهت على الزنى . اختلافهم في وجوب الصداق للمستكرهة . إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لما لا يحل أسلمها ولم يقتل نفسه دونها . الكلام على يمين المكره . إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجرى على لسانه إلا مجرى المعاريض . أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل إنه أعظم أجرا عند الله ممن اختار الرخصة ، واختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له . واختلفوا أيضا في حد الإكراه 180

تفسير قوله تعالى : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ... » الآية 192

تفسير قوله تعالى : « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ... » الآية . الكلام على مخاصمة الروح للجسد يوم القيامة 193

تفسير قوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ...» الآية . بيان أن هذه الآية متصلة بذكر المشركين في الآيات السابقة ، وهي ضرب مَثَل لهم 193

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعـالى : فكلوا ممـا رزقكم الله حلالا طيبا ... » الآيات ١٩٥

تفسير قوله تعالى : « ولا تقولوا لمـا تصف ألسنتكم الكذب ... » الآيات . فيه مسئلتان : الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب وأحلوا مافى بطون الأنعام و إن كانت ميتة . التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ١٩٥

تفسير قوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرّمنا ماقصصنا عليك من قبل ... » الآية . بيّن الله تعالى أن الأنعام والحرث حلال لهذه الأمة أما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء. ١٩٧

تفسير قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ... » الآيات . بيـان أن الرسول عليه السـلام دعا مشركى العرب إلى ملة إبراهيم ١٩٧

تفسير قوله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ... » أمر الله نبيه عليه السـلام باتباع ملة إبراهيم فى عقائد الشرع دون الفرع . جواز اتباع الأفضل للمفضـول ١٩٨

تفسير قوله تعالى : « إنمـا جُعِل السبت على الذين اختلفوا فيه ... » جُعِل السبت تغليظا على اليهود فى رفض الأعمـال بسبب اختلافهم فى تعظيم يوم الجمعـة ، كيفية ما وقع لهم من الاختلاف . بيان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر باتباع الحق ، وحذّر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود... ١٩٩

تفسير قوله تعالى : « ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ... » الكلام على أن هذه الآية نزلت بمكة فى وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمر النبيّ عليه السـلام أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلاطف ولين ٢٠٠

تفسير قوله تعالى : « و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ... » الآية . فيه أربع مسائل : الآية نزلت فى شأن التمثيل بحمزة عم النبيّ عليه السلام يوم أحد . وقيل نزلت فيمن أصيب بظلامة ألا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتعداه إلى غيره . اختلف فيمن ظلمه رجل فى أخذ مال ثم ائتمن الظالم المظلوم على مال هل يجوز له خيانته فى القدر الذى ظلمه . جواز التماثل فى القصاص ٢٠٠

تفسير قوله تعـالى : « واصبر وما صـبرك إلا بالله ... » الآيات ٢٠٢

Marfat.com

ســـــورة الإســـــراء

صفحة

تفسير قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ... » الآية . فيه ثمان مسائل : الكلام على معنى « سبحان » و « أسرى » . تشريف النبيّ صلى الله عليه وسلم بالعبودية . أقوال العلماء فى حديث الإسراء . اختلافهم فى تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراء بالروح أو الجسد . معنى بركة المسجد الأقصى . بيان ما رآه النبيّ صلى الله عليه وسلم من الآيات ليلة مسراه ٢٠٤

تفسير قوله تعالى : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى ... » الآيات ٢١٢

تفسير قوله تعالى : « فإذا جاء وعد أولاهما ... » الآيات . أقوال العلماء فى الإفساد الذى وقع من بنى إسرائيل وعقابهم عليه . ردّ الكرّة لبنى إسرائيل على أعدائهم . قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام وما وقع بسبب القتل لبنى إسرائيل ٢١٥

تفسير قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ... » الآيات . بيان أن القرآن يهدى لأقوم الطرق وهو الإيمان والتوحيد ٢٢٤

تفسير قوله تعالى : « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ... » الآية . النص دعاء الرجل على نفسه وولده . بيان أن طبع الإنسان العجلة ، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير . بيان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يجعل دعاءه على من لا يستحق من المؤمنين رحمة وكفارة له ٢٢٥

تفسير قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين ... » الآية . جعل الله الليل والنهار علامتين على وحدانيته وكمال قدرته . الكلام على الآيتين، وعلى محو آية الليل . الحكمة فى جعل آية النهار مبصرة ٢٢٧

تفسير قوله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ...» الآيات . أقوال العلماء فى معنى طائر الإنسان ٢٢٩

تفسير قوله تعالى : « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ... » الآية . بيان أن كل مكلف ملزم بعمله ، ولا تؤخذ نفس بإثم أخرى . أقوال العلماء فى أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . الكلام على قوله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » هل هذا فى حكم الدنيا وأن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الإنذار ، أو هو عام فى الدنيا والآخرة . الدليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ٢٣٠

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أن الذنوب سبب فى هلاك الأمم ، وأن المعاصى إذا ظهرت ولم تغيّر كانت سببا فى هلاك الجميع . معنى « أمَّرنا » ٢٣٢

تفسير قوله تعالى : « من كان يريد العاجلة ... » الآيات . الكلام على صفة المنافق الذى يلبس الإسلام والطاعة لينال عاجل الدنيا . بيان أن من عمل للآخرة وأخلص فى عمله قبل منه ٢٣٥

تفسير قوله تعالى : « كُلًّا نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء ... » الآيات . بيان أن الله تعالى يرزق المؤمنين والكافرين ١٣٦

تفسير قوله تعالى : «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ... » الآيات . فيه ست عشرة مسألة . بيان أن القضاء يستعمل فى اللغة على وجوه . جعل الله تعالى برّ الوالدين مقرونا بعبادته وتوحيده ، وأن من البرّ بهما ألا يتعرض الإنسان لسبهما ولا يعقّهما . بيان أن عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما . قول العلماء فى أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع . لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين . النهى عن الخروج للجهاد بغير إذن الأبوين إذا لم يتعين الجهاد . اختلفوا فى الوالدين المشركين هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية . من تمام بر الوالدين صلة أهل ودهما . ألزم الله مراعاة أحوالهما فى حالة الكبر أكثر مما ألزمه من قبل ، وألا يقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرّم وأن يجعل نفسه مع أبويه فى خير ذلة . ما فى قوله : « أُفّ » من اللغات . الخطاب فى هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . الكلام على الترحم والاستغفار للأبوين ٢٣٦

تفسير قوله تعالى : « ربكم أعلم بما فى نفوسكم ... » الآية ٢٤٦

تفسير قوله تعالى : «وآتِ ذا القربى حقه والمسكين ...» الآيات . الأمر بإيتاء ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل . النهى عن التبذير فى الأموال . بيان حد التبذير . ٢٤٧

تفسير قوله تعالى : «و إما تُعرِضَنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ... » الآية ٢٤٨

تفسير قوله تعالى : «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ...» الآية . فيه أربع مسائل : بيان أن هذا مجاز عبّر به عن البخيل الذى لا يقدر من قلبه على إخراج شىء من ماله .

Marfat.com

صفحة

النهى عن الإفراط فى الإنفاق . بيان أن هذا الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، علمه الله كيفية الإنفاق وأمره بالاقتصاد ٢٤٩

تفسير قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق .. » الآية . الكلام على معنى الإملاق والخِطْء ٢٥٣

تفسير قوله تعالى : « ولا تقربوا الزنى ... » الآية . تحريم الزنى وأنه من الكبائر

تفسير قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ... » الآيات . بيان أنه تعالى قد جعل لولىّ المقتول ظلما سلطانا . اختلف العلماء فى الولىّ وفى معنى سلطانا . فى قوله : « فلا يسرف فى القتل » ثلاثة أقوال ٢٥٤

تفسير قوله تعالى : « وأَوْفُوا الكيل إذا كِلْتُم ... » الآية . الأمر بإيفاء الكيل والعدل فى الميزان . بيان أن هـذه الآية تقتضى أن الكيل على البائع ٢٥٦

تفسير قوله تعالى : « ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ... » الآية . فيه ست مسائل : النهى عن قول الزور والقذف وما أشبه ذلك . بيان أن هـذه الآية تضمنت الحكم بالقافة . أسامة بن زيد والقَدْح فى نسبه وحكم مُجَزِّز القائف فيه . استدل جمهور العلماء بسرور النبي صلى الله عليه وسلم بقول مُجَزِّز على الرجوع إلى القافة عند التنازع فى الولد . اختلف الآخذون بأقوال القافة ؛ هل يؤخذ بذلك فى أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء . وهـل يكتفى بقول واحد من القافة أو لا بد من اثنين لأنها شهادة . بيان أن الله سبحانه يسأل كل عضو من أعضاء الإنسان عما اكتسب . وقيل : يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده... ٢٥٧

تفسير قوله تعالى : « ولا تَمْشِ فى الأرض مَرَحًا ... » الآيات . فيه خمس مسائل : بيان أن الله تعالى نهى عن الخيلاء وأمر بالتواضع . إقبال الإنسان على الصيد ونحوه تَرَفُّهًا دون حاجة إلى ذلك داخل فى هـذه الآية . المراد بخرق الأرض نَقْبُها لا قطعها بالمسافة . استدل العلماء بهذه الآية على ذَم الرقص وتعاطيه ... ٢٦٠

تفسير قوله تعالى : « ذلك مما أَوْحَى إليك ربك ... » الآية . بيـان أن الإشارة إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التى تضمنتها الآيات المتقدمة . الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد كل من سمع الآية من البشر... ... ... ٢٦٤

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « أفأصفاكم ربكم بالبنين ... » الآية . الرد على القائلين بأن الملائكة بنات الله ٢٦٤

تفسير قوله تعالى : « ولقد صرّفنا فى هذا القرآن ليذّكروا ... » الآية . لم يجعل الله القرآن نوعا واحدا ، بل وعدا ووعيدا ومحكما ومتشابها ونهيا وأمرا وناسخا ومنسوخا وأخبارا وأمثالا ٢٦٤

تفسير قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون ... » الآيات . الرد على عُبّاد الأصنام فى اعتقادهم أن الأصنام تقربهم الى الله زُلْفى ٢٦٥

تفسير قوله تعالى : « تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ... » الآية . كل شىء من الجماد وغيره يسبح لله . اختلف فى هذا التسبيح هل هو تسبيح الدلالة أو تسبيح الحقيقة . الكلام على غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور . ٢٦٦

تفسير قوله تعالى : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك ... » الآيات . بيان أن الآية نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن ، فحجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن وكانوا يمرون به ولا يرونه ٢٦٩

تفسير قوله تعالى : « نحن أعلم بما يستمعون به ... » الآية . ادعاء المشركين أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ساحر ومجنون ٢٧٢

تفسير قوله تعالى : « وقالوا أئذا كنا عظاما ورُفاتا ... » الآية . جحد المشركين للبعث وإنكاره ٢٧٣

تفسير قوله تعالى : « قل كونوا حجارة أو حديدا ... » الآيات . الرد على المشركين فى إنكارهم البعث . معنى النَّغض . الدعاء إلى المحشر وخروج أهل القبور . ٢٧٤

تفسير قوله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ... » الآية . اختلاف العلماء فى سبب نزول الآية . بيان نزغ الشيطان وإغوائه الإنسان ٢٧٦

تفسير قوله تعالى : « ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم ... » الآيات . اختلف فى هذا الخطاب هل هو للمشركين أو للمؤمنين . محاجة اليهود فى إنكارهم القرآن . الزبور كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ، بل مجرد تمجيد ودعاء ٢٧٨

تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوَسيلة ... » الآية . بيان أن من عبدهم المشركون يطلبون من الله القربى ويتضرعون إليه فى طلب الجنة ٢٧٩

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « و إن من قرية إلا نحن مُهلكوها ... » الآية . إذا ظهر الزنى والربا فى قرية أذن الله فى هلاكهم ٢٨٠

تفسير قوله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ... » الآية . الحكمة فى عدم إجابة المشركين إلى ما اقترحوه من الآيات . وما هى «الآيات» ٢٨٠

تفسير قوله تعالى : « و إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ... » الآية . معنى هذه الإحاطة . أقوال العلماء فى الرؤيا التى رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت فتنة للناس . الكلام على الشجرة الملعونة . بيان خبر ابن إسحاق عن مسرى الرسول صلوات الله عليه... ... ... ٢٨١

تفسير قوله تعالى : « و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... » الآيات . قصة إبليس حين عصى وأبى السجود . وعيد إبليس ومن تبعه... ... ... ٢٨٦

تفسير قوله تعالى : « واَسْتَفزِز من استطعت منهم بصوتك ... » الآية . فيه ست مسائل : بيان أن الأمر أمر تعجيز وأن المراد بصوت إبليس كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى . معنى استفزازه للعباد ومشاركته فى الأموال والأولاد . الدليل على تحريم المزامير والغناء واللهو ٢٨٨

تفسير قوله تعالى : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر ... » الآية . بيان أن الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده... ... ... ٢٩٠

تفسير قوله تعالى : « و إذا مسّكم الضرّ فى البحر ... » الآية . بيان أن الآية تحقير لمن يدعى إلها من دون الله ٢٩١

تفسير قوله تعالى : « أفأمنتم أن يَخسِف بكم ... » الآيات . بيـان معنى الخسف والحاصب والقاصف... ... ... ٢٩١

تفسير قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم ... » الآية . ذكر ما امتن الله تعالى به على بنى آدم . تفضيل الملائكة على الإنس والجن . الكلام على تناول الطيبات من الرزق ٢٩٣

تفسير قوله تعالى : « يوم ندعوا كلّ أناس بإمامهم ... » . المعنى المراد من إمام كل أمّة... ... ... ٢٩٦

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ومن كان فى هذه أَعْمَى فهو فى الآخرة أعمى ... » ٢٩٨

تفسير قوله تعالى : « وإن كادوا لَيَفْتِنُونَكَ عن الذى أوحينا إليك ... » الآية ... ٢٩٩

تفسير قوله تعالى : « ولولا أن ثَبَّتْنَاك لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم ... » بيان أن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شىء من أحكام الدين . الكلام على أنه كلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم ٣٠٠

تفسير قوله تعالى : « وإن كادوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ من الأرض ... » الآية . بيان أن الآية نزلت فى أهل مكة لما هموا بإخراج الرسول عليه السلام من المدينة ... ٣٠١

تفسير قوله تعالى : « أقم الصلاة لِدُلُوكِ الشمس ... » الآية فيه سبع مسائل : أمر الله نبيه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة ، وأن هذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة . معنى الدلوك ومعنى الغسق . اختلف فى آخر وقت المغرب . المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح . اختلاف العلماء فى القراءة فى الصلاة . فضل التكبير بصلاة الصبح ٣٠٢

تفسير قوله تعالى : « ومن الليل فَتَهَجَّدْ به نافلة لك ... » الآية . فيه ست مسائل معنى التهجّد . تخصيص النبيّ صلى الله عليه وسلم بالذكر دون أمته . اختلافهم فى المقام المحمود . الكلام على شفاعات النبيّ عليه السلام . القول فى كون القيام بالليل سببا للمقام المحمود... ... ... ٣٠٧

تفسير قوله تعالى : « وقل رب أدخلنى مُدْخَلَ صِدْقٍ ... » الآية . معنى الإدخال والإخراج فى هذه الآية ٣١٢

تفسير قوله تعالى : « وقل جاء الحق و زَهَقَ الباطل ... » فيه ثلاث مسائل : بيان أنه كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما وقد كسرها النبيّ صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة عام الفتح . فى الآية دليل على كسر نُصُب المشركين وكسر آلة الباطل وما لا يصلح إلا لمعصية الله تعالى ، كالطنابير والعيدان والمزامير ... ٣١٣

تفسير قوله تعالى : « وننزّل من القرآن ما هو شفاء و رحمة ... » الآية . فيه سبع مسائل : القول فى كون القرآن شفاء . ما جاء فى التداوى بالقرآن . اختلف العلماء فى النُّشْرة ، وهى أن تكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن ثم تغسله بالماء

Marfat.com

صفحة

.. وتمسح به المريض أو تسقيه . تعليق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى على أعناق المرضى على وجه التبرك بها . ماجعله الله تعالى من الرحمة فى القرآن وفضل تلاوته . ٣١٥

تفسير قوله تعالى : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ... » الآية ... ٣٢١

تفسير قوله تعالى : « قل كلٌّ يعمل على شاكلته ... » الآية . الكلام على أن كل واحد يعمل على ما يشا كل أصله وأخلاقه التى ألفها ٣٢١

تفسير قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح... » الآية سؤال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم عن الروح ، الاختلاف فيه . معنى قوله « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ٣٢٣

تفسير قوله تعالى : « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ... » الآيات . بيان أن أول ما يفقد من أمر الدين الأمانة ، وآخر ما يفقد الصلاة ، وأن القرآن يسرى فى ليلة فيذهب بما فى المصاحف وما فى القلوب وتصبح الناس كالبهائم . ٣٢٥

تفسير قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ... » الآية . الرد على الكفار فى قولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا ٣٢٦

تفسير قوله تعالى : « ولقد صرّفنا فى هذا القرآن ... » الآية . بيان أن الله تعالى وجه القول فى القرآن بكل مَثَل يجب به الاعتبار من الآيات والعبر والأوامر والنواهى وأقاصيص الأولين ، وقد تبيّن الحق للمشركين فأبَوْا إلا الكفر ٣٢٧

تفسير قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ... » الآيات . بيان أن الآية نزلت فى رؤساء قريش وبيان ما اقترحوه على النبي عليه السلام ٣٢٧

تفسير قوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ... » الآيات . الكلام على معاندة المشركين وقولهم : إن الله أجلّ من أن يكون رسوله من البشر . بيان الحكمة فى عدم إرسال الملائكة رسلا ٣٣٢

تفسير قوله تعالى : « من يهد الله فهو المهتدى » الآيات . الكلام على حشر الكفار يوم القيامة ، والرد عليهم فى إنكارهم البعث ٣٣٣

تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات ... » الآيات . اختلاف العلماء فى تعيين التسع آيات التى أوتيها موسى عليه السلام . قصة موسى مع فرعون . الكلام على معنى « مثبورا » ٣٣٥

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وقرآنا فَرَقناه لتقرأه على الناس على مُكْث ... » الآية . اختلاف العلماء فى المدّة التى نزل فيها القرآن . واختلافهم فى معنى « مُكْث » ٣٣٩

تفسير قوله تعالى : « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ... » الآية . قول العلماء فى المعنى المراد من قوله : « إن الذين أوتوا العلم من قبله » ٣٤٠

تفسير قوله تعالى : « ويقولونَ سبحانَ رَبِّنَا ... » . فى الآية دليل على جواز التسبيح فى السجود ٣٤١

تفسير قوله تعالى : « ويَخِرُّون للأذقان يبكون ... » الآية . فيه أربع مسائل : شأن العالم أن يخشع عند استماع القرآن ويخضع له . جواز البكاء فى الصلاة من خوف الله تعالى أو على معصيته فى دين الله . اختلاف فى الأنين فى الصلاة . ٣٤١

تفسير قوله تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ... » الآية . سبب نزول هذه الآية . معنى قوله : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » . المراد بالصلاة هنا القراءة ٣٤٢

تفسير قوله تعالى : « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ... » الآية . الرد على اليهود والنصارى والعرب فى قولهم : عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه . بيان فضل هذه الآية وأنها خاتمة التوراة ٣٤٤

سورة الكهف

الكلام على فضائل سورة الكهف ٣٤٦

تفسير قوله تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ... » الآيات . خبر قريش وأخبار اليهود مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، وسؤاله عن حديث الفتية، وعن نبإ رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الروح ما هى . قوله عليه السلام لهم « أخبركم غدا » ولم يقل إن شاء الله، وتأخر الوحى عنه ... ٣٤٦

تفسير قوله تعالى : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ... » الآيات . بيان أن اليهود والنصارى وقريشا نسبوا لله ما ليس لهم به من علم ونهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الحزن على من كفر ٣٥٣

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : «إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها ...» الآيات . فيه مسألتان : بيان ما جعله الله تعالى على الأرض من الزينة : وأقوال العلماء في الزينة المرادة . جعل الله الدنيا مستطابة في ذوقها ، وابتلى الله بها عباده لينظر أيهم أحسن عملا . بيان أن حسن العمل أخذ بحق و إنفاقٌ في حق مع الإيمان وأداء الفرائض واجتناب المحارم . أقوال العلماء في الزهد ٣٥٣

تفسير قوله تعالى : « أم حَسِبْتَ أنّ أصْحابَ الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عَجَباً ... » الآية خطاب للنبيّ عليه السلام ، و بيان أن ما عظمه عليك السائلون من الكفرة عن الفِتْية وعن ذي القَرْنين وعن الروح ليس بأعجب من آيات الله ، بل خَلْقُ السموات والأرض ، أو شأنك في الإسراء أعجب من خبرهم . معنى الكهف والرقيم . ٣٥٦

تفسير قوله تعالى : « إذ أوى الفِتْيَةُ إلى الكهف ... » الآيات . حديث الفتية وفي أي زمن كانوا . بيان أن الآية صريحة في الفرار بالدّين وهجرة الأهل والأوطان والأموال خوف الفتنة . الكلام على العزلة . إلقاء النوم على الفتية و بعثهم . الاختلاف في الحزبين . بيان أنهم كانوا شبابا وأحداثا حكم لهم بالفتوة حين آمنوا بلا وساطة . قول أهل اللغة في الفتوّة ٣٥٨

تفسير قوله تعالى : « ورَبَطْنا على قلوبهم إذ قاموا ... » الآية . إيمان الفِتْية بالله تعالى ، وما حباهم به من عزم وقوة صبر . بيان أن الصوفية تعلّقت في أفعالها بهذه الآية والرد عليهم . تنديد الفتية بأهل عصرهم في عبادتهم الأصنام تقليدا من غير حجة ٣٦٥

تفسير قوله تعالى : «و إذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ... » الآية ٣٦٧

تفسير قوله تعالى : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ... » الآيات . بيان أن الله تعالى حفظ أصحاب الكهف عن تطرق البلاء وتغير الأبدان والألوان بهم ، والتأذي بحر أو برد . تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تأكل الأرض لحومهم . الكلام على كلبهم والاختلاف في اسمه ، وهل كان كلبا حقيقة أم أحدهم . اقتناء الكلاب والقول فيه . من أحب أهل الخير نال من بركتهم . معنى الوصيد . بيان أنه لا يجسر أحد على الدنو من أصحاب الكهف ٣٦٨

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ... » الآيات . بيان أن الله تعالى أيقظ أصحاب الكهف من نومهم على ما كانوا عليه من هيأتهم فى ثيابهم وأحوالهم . بعث أصحاب الكهف أحدهم ليأتى لهم بالطعام . فى هذه البعثة دليل على الوكالة وصحتها ، وهى جائزة فى كل حق تجوز النيابة فيه . بيان أن الآية تضمنت جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم ، جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معا . ٣٧٤

تفسير قوله تعالى : « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ... » الآية . اختلاف أهل بلدة الفتية فى الحشر و بعث الأجساد من القبور . بيان أن إيقاظهم كان دليلا على أن القيامة حق والبعث حق . الكلام على أنهم لما ماتوا ميتة الحق اختلف فيما يبنى عليهم ليكون معلما لهم . النهى عن اتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها . القول فى تجصيص القبور والكتابة عليها وارتفاعها والنهى عنه . الكلام على الدفن فى التابوت واللحد ٣٧٨

تفسير قوله تعالى : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ... » الآية . الكلام على عدة أصحاب الكهف والاختلاف فيه . كلام النحويين على واو العطف هنا . فى الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شىء من العلم ٣٨٢

تفسير قوله تعالى : « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا ... » الآيات . معاتبة النبى صلى الله عليه وسلم على قوله للكفار : غدا أخبركم ، ولم يقل إن شاء الله . الكلام على الاستثناء فى هذه الآية . اختلاف فى الذكر المأمور به ٣٨٤

تفسير قوله تعالى : « ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين ... » الآيات . بيان مدة لبث أصحاب الكهف فى كهفهم . هل ماتوا ، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ... ٣٨٦

تفسير قوله تعالى : «واتل ما أوحى إليك ...» الآية . تمام قصة أصحاب الكهف . ٣٨٩

تفسير قوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ... » الآية . ما اقترحه بعض المؤلفة قلوبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من إبعاد فقراء المسلمين من مجلسه وتقريب صناديد أهل مكة . نهيه عن إطاعتهم ٣٩٠

تفسير قوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ... » الآية . بيان أن هذا ليس بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد لمن غفل قلبه عن ذكر الله . بيان ما أعده الله للظالمين من العذاب والهوان . معنى السرادق ٣٩٢

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع ... » الآيات
بيان ما أعده الله للمؤمنين من النعيم والثواب . والكلام على لبس أهل الجنة ... ٣٩٥
تفسير قوله تعالى : « واضرب لهم مَثَلًا رَجُلَيْنِ ... » الآيات . بيان أن هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف من مجالسة المؤمنين . الاختلاف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما . قصة الرجلين وما كان من شأنهما . كلام النحاة في لفظ كلتا وكلا . ٣٩٨
تفسير قوله تعالى : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله ... » الآيات . بيان أن هذا توبيخ ووصية من الأخ المؤمن للكافر ورد عليه . بيان أنه ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول : « ماشاء الله لا قوة إلا بالله » . فضل « لا حول ولا قوة إلا بالله » . الكلام على المعنى اللغوى لمفردات هذه الآيات ٤٠٦
تفسير قوله تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ... » الآية . بيان أن الله تعالى شبه حالة الدنيا بالماء الذى ينزل من السماء فلا يستقر فى موضع ٤١٢
تفسير قوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ... » بيان أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى . الكلام على معنى . « الباقيات الصالحات ٤١٣
تفسير قوله تعالى : « ويوم نسير الجبال ... » الآية ٤١٦
تفسير قوله تعالى : « وعُرِضوا على ربك صَفًّا ... » الآية . بيان أن هذا خطاب لمنكرى البعث . كيفية العرض يوم القيامة... ... ... ٤١٧
تفسير قوله تعالى : « وَوُضِع الكتاب فترى المجرمين ...» الآية . الكلام على الآخرة . ٤١٨
تفسير قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا ... » الآية . توبيخ الكفرة على اتخاذهم إبليس وذريته أولياء . الكلام على ذريته . بيان أسمائهم وأعمالهم ٤١٩

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحجر

قوله تعالى : ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾

تقدّم معناه [1] . و « الكتاب » قيل فيه : إنه اسم لجنس الكتب المتقدّمة من التوراة والإنجيل ، ثم قرنهما بالكتاب المبين . وقيل : الكتاب هو القرآن ، جمع له بين الاسمين .

قوله تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

« رُبَّ » لا تدخل على الفعل ، فإذا لحقتها « ما » هيأتها للدخول على الفعل تقول : ربما قام زيد ، وربما يقوم زيد . ويجوز أن تكون « ما » نكرة بمعنى شيء ، و « يودّ » صفة له ؛ أى رب شيء يودّ الكافر . وقرأ نافع وعاصم « رُبَمَا » مخفف الباء . الباقون مشدّدة ، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ربما ؛ قال الشاعر :

رُبَمَا ضربةٍ بسيف صقيلٍ * بين بُصْرَى وطعنةٍ نجلاء [2]

وتميم وقيس وربيعة يثقلونها . وحكى فيها : رُبَّمَا ورُبَمَا ، ورُبَّتَمَا ورُبَتَمَا ، بتخفيف الباء وتشديدها أيضاً [3] . وأصلها أن تستعمل فى القليل وقد تستعمل فى الكثير ؛ أى يودّ الكفار فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين ؛ قاله الكوفيون . ومنه قول الشاعر :

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٠٤ (٢) البيت لعدى بن الرعلاء الغسانى . و بصرى : بلدة قرب الشام ، هى كرسى حوران ، كان يقوم فيها سوق للجاهلية . قال صاحب خزانة الأدب : « ... وإنما صح إضافة بين إلى بصرى لاشتمالها على متعدّد من الأمكنة ؛ أى بين أماكن بصرى ونواحيها . وروى الشريف الحسينى فى حماسته : « دون بصرى » ودون هنا بمعنى قبل أو بمعنى خلف . وقال العينى : بمعنى عند » . راجع الخزانة فى الشاهد التاسع والتسعين بعد السبعمائة .

(٣) قال ابن هشام فى المغنى : «وفى رب ست عشرة لغة : ضم الراء وفتحها ، وكلاهما مع التشديد والتخفيف . والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ، ساكنة أو محركة ، ومع التجرد منها ؛ فهذه اثنتا عشرة . والضم والفتح مع إسكان الباء وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف » .

Marfat.com

ألا ربّمـا أهدتْ لك العـينُ نظرةً * قُصاراك منها أنهـا عنك لا تُجـدِي(١)

وقال بعضهـم : هى للتقليل فى هـذا الموضع ؛ لأنهـم قالوا ذلك فى بعض المواضـع لا فى كلها؛ لشغلهم بالعذاب ، والله أعلم . وقال : « رُبَمَـا يودُّ » وهى إنما تكون لمـا وقع؛ لأنه لصدق الوعد كأنه عِيان قد كان . وخرّج الطبرانىّ أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناسا من أمتى يدخلون النار بذنوبهم فيكونون فى النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيرهم أهل الشرك ؛ يقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم وإيمانكم نفعكم فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله من النـار — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليـه وسلم — رُبَمَـا يودّ الذين كفـروا لو كانوا مسـلمين " . قال الحسن : إذا رأى المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنـة وما رأوهم فى النـار تمنوا أنهـم كانوا مسلمين . وقال الضحاك : هـذا التمنى إنمـا هو عنـد المعاينة فى الدنيا حين تبين لهم الهـدى من الضلالة . وقيل : فى القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذلّ الكافرين .

قوله تعـالى : ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

فيه مسألتـان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ تهديدٌ لهم . ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أى يشغلهم عن الطاعة . يقال : ألهـاه عن كذا أى شـغله . ولَهِىَ هو عن الشىء يَلْهَى . ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا رأوا القيـامة وذاقوا وبال ماصنعوا . وهـذه الآية منسوخة بالسيف .

الثانيـــة — فى مسند البزّار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " . وطول الأمل داء

(١) أى لا تغنى ؛ يقال : ما يجدى عنك هذا ؛ أى ما يغنى . وفى بعض نسخ الأصل : لا تجزى ؛ بالزاى ؛ وهى بمعنى لا تغنى .

Marfat.com

عضال ومرض مزمن ، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتدّ علاجه ، ولم يفارقه داء ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء و يئس من برئه الحكماء والعلماء . وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانكباب عليها ، والحب لهـا والإعراض عن الآخرة . وروى[1] عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نجـا أول هـذه الأمة باليقين والزهـد و يهلك آخرها بالبخل والأمل " . و يروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال : يأهل دمشق ، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ؟ إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرا و يبنون مشـيدا ويأملون بعيدا ، فأصبح جمعهم بورا و بنيـانهم قبورا وأملهم غرورا . هذه عاد قد ملأت البـلاد أهلا ومالا وخيلا ورجالا ، فمن يشترى منى اليوم تركتهـم بدرهمين ! وأنشـــد :

يا ذا المؤمل آمالا و إن بَعُـدتْ * منـه و يزعم أن يَحْظَى بأقصاها
أنّى تفوزُ بمـا ترجوه وَيْكَ وما * أصبحتَ فى ثقة من نَيْل أدناها

وقال الحسن : ما أطال عبـدٌ الأمل إلا أساء العمل . وصدق رضى الله عنه ! فالأمل يكسل عن العمل و يورث التراخى والتوانى ، و يعقب التشاغل والتقاعس ، و يخلد إلى الأرض و يميل إلى الهوى . وهـذا أمر قد شوهد بالعيـان فلا يحتاج إلى بيـان ولا يُطْلَبُ صاحبه ببرهان ؛ كما أن قِصر الأمل يبعث على العمل ، و يحيل على المبادرة ، و يحث على المسابقة .

قوله تعـالى : وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَـا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾

أى أجل مؤقت كتب لهم فى اللوح المحفوظ .

قوله تعـالى : مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْخِرُونَ ﴿٥﴾

« من » صلة ؛ كقولك : ما جاءنى من أحد . أى لا تتجـاوز أجلها فتزيد عليـه ، ولا تتقدّم قبله . ونظيره قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »[2] .

(١) فى ى : يروى . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠١ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾

قاله كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم على جهة الاستهزاء ، ثم طلبوا منه إتيان الملائكة دلالة على صدقه . و﴿ لَوْمَا ﴾ تحضيض على الفعل كلولا وهلا . وقال الفراء : الميم في « لوما » بدل من اللام في لولا . ومثله استولى على الشيء واستوى عليه ، ومثله خالمته وخاللته ، فهو خلمي وخلي ؛ أي صديق . وعلى هذا يجوز « لوما » بمعنى الخبر ، تقول : لوما زيد لضرب عمرو . قال الكسائي : لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام . قال ابن مقبل :

لوما الحياءُ ولَوْمَا الدِّينُ عبتُكما * ببعض ما فيكما إذ عبتما عَوَرِي

يريد لولا الحياء . وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد . وأنشد أهل اللغة على ذلك :

تعدُّون عقْرَ النِّيب أفضلَ مجدِكم * بَنِي ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المقنَّعا (١)

أي هلا تعدون الكميّ المقنعا .

قوله تعـالى : ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾

قرأ حفص وحمزة والكسائي ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو بكر والمفضل « ما تُنَزَّلُ الملائكةُ » . الباقون « ما تَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ » وتقديره : ما تتنزل بتاءين حذفت إحداهما تخفيفا ، وقد شدد التاء البزي ، واختاره أبو حاتم اعتبارا بقوله : « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ » (٢) . ومعنى « إِلَّا بِالْحَقِّ » إلا بالقرآن . وقيل : بالرسالة ؛ عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا . ﴿ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ﴾ أي لو تنزلت الملائكة بإهلاكهم لما أمهلوا ولا قبلت لهم توبة . وقيل : المعنى لو تنزلت الملائكة تشهد لك فكفروا

---

(١) البيت لجرير يهجو الفرزدق . والعقر : ضرب قوائم الناقة بالسيف . والنيب (بكسر النون) : جمع ناب ، وهي الناقة المسنة . وضوطرى : هو الرجل الضخم اللئيم الذي لاغناء عنده ؛ وهي كلمة ذم وسب . والكمي : الشجاع المتكمي في سلاحه ؛ لأنه كمّى نفسه أي سترها بالدرع والبيضة . والمقنع : الذي على رأسه البيضة والمغفر .

(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٣٣ .

Marfat.com

بعد ذلك لم ينظروا . وأصل « إذًا » إذ أن — ومعناه حينئذ — فضم إليها أن ، واستثقلوا الهمزة فحذفوها .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يزاد فيه أو ينقص منه . قال قتادة وثابت البُنَانيّ : حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلا أو تنقص منه حقا ؛ فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا ، وقال فى غيره : « بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا »[1] ، فوكل حفظه إليهم فبدّلوا وغيروا . أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبى الحسن على بن خلف بن معزوز الكومى التلمسانى قال : قرئ على الشيخة العالمة[2] فخر النساء شهدة بنت أبى نصر[3] أحمد بن الفرج الدينورىّ وذلك بمنزلها بدار السلام فى آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة ، قيل لها : أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبى قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة ، أخبرنا على بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا أبو على عيسى بن محمد بن أحمد ابن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المعروف بالطومارىّ حدثنا الحسين بن فهم قال : سمعت يحيى بن أكثم يقول : كان للمأمون — وهو أمير إذ ذاك — مجلس نظر ، فدخل فى جملة الناس رجل يهودى حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، قال : فلما أن تقوّض المجلس دعاه المأمون فقال له : إسرائيلى؟ قال نعم . قال له : أسلم حتى أفعل بك وأصنع ، ووعده . فقال ، دينى ودين آبائى ! وانصرف . قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما ، قال : فتكلم على الفقه فأحسن الكلام ؛ فلما تقوّض المجلس دعاه المأمون وقال : ألست صاحبنا بالأمس؟ قال له : بلى . قال : فما كان سبب إسلامك؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان ، وأنت [مع ما][4] ترانى حسن

(١) راجع جـ ٦ ص ١٨٨ (٢) فى ى : الصالحة . (٣) فى و : أبى بكر . (٤) من ى .

Marfat.com

الخط ، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشتريت منى، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيهـا ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشتريت منى وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ و زدت فيها ونقصت، وأدخلتها الورّاقين فتصفحوها ، فلما أن أوجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامى. قال يحيي بن أكثم : فحججت تلك السنة فلقيت سـفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لى : مصداق هذا فى كتاب الله عز وجل. قال قلت : فى أى موضـع ؟ قال : فى قول الله تبارك وتعالى فى التوراة والإنجيل : « بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ ٱللَّهِ » ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع . وقيل : «وإنا له لحافظون» أى لمحمد صلى الله عليـه وسلم من أن يتقوّل علينا أو نتقول عليه . أو « وإنا له لحافظون » من أن يكاد أو يقتل . نظيره « وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ »[(1)] . و « نَحْنُ » يجـوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و « نزلنا » الخبر . والجملة خبر « إنّ » . و يجوز أن يكون « نحن » تأكيدا لاسم « إن » فى موضع نصب ، ولا تكون فاصلة لأن الذى بعدها ليس بمعرفة و إنما هو جملة ، والجمل تكون نعوتا للنكرات فحكمها حكم النكرات .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾

المعنى : ولقد أرسلنا من قبلك رسـلا ، فحذف . والشيع جمـع شيعة وهى الأمة، أى فى أممهم؛ قاله ابن عباس وقتادة . الحسن : فى فرقهم. والشيعة : الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة المتفقة الكلمة . فكأن الشِّيع الفِرق؛ ومنه قوله تعالى : «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا»[(2)] . وأصله مأخوذ من الشياع وهـو الحطب الصغار يوقد به الكبار — كما تقدم فى « الأنعام » . وقال الكلبي : إن الشِّيع هنا القرى .

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٤٢ .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾

تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فعل بمن قبلك من الرسل .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ أى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك . ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ من قومك؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما . أى كما سلكناه فى قلوب من تقدم من شيع الأولين كذلك نسلكه فى قلوب مشركى قومك حتى لا يؤمنوا بك، كما لم يؤمن من قبلهم برسلهم . وروى ابن جُريج عن مجاهد قال: نسلك التكذيب . والسَّلْك: إدخال الشيء فى الشيء كإدخال الخيط فى المِخْيَط . يقال : سلكه يسلُكه سَلْكا وسُلوكا، وأسلكه إسلاكا . وسلك الطريق سُلوكا وسَلْكا وأسلكه دخله، والشيءُ فى غيره مثله، والشيء كذلك والرُّمْحَ، والخيط فى الجوهر؛ كله فَعَلَ وأفعَلَ . وقال عدِىّ بن زيد :

* وقد سلكوك فى يوم عَصيب[(١)] *

والسِّلك (بالكسر) الخيط . وفى الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة . وقيل : المعنى نسلك القرآن فى قلوبهم فيكذبون به . وقال[(٢)] الحسن ومجاهد وقتادة القول الذى عليه أكثر أهل التفسير، وهو ألزم حجة على المعتزلة . وعن الحسن أيضا : نسلك الذكر إلزاما للحجة؛ ذكره الغَزْنوىّ . ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أى مضت سنة الله بإهلاك الكفار، فما أقرب هؤلاء من الهلاك . وقيل : «خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ» بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر، فهم يقتدون بأولئك .

---

(١) هذا عجز البيت، وصدره كما فى اللسان وشعراء النصرانية :

* وكنت لزاز خصمك لم أعرد *

(٢) فى الأصول : «وقرأ» .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

يقال : ظل يفعل كذا ، أى يفعله بالنهار . والمصدر الظُّلول . أى لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعللوا بالخيالات ؛ كما قالوا للقرآن المعجز : إنه سحر . ﴿يَعْرُجُونَ﴾ من عَرَج يَعْرُج أى صعد . والمعارج المصاعد . أى لو صعدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : الضمير فى «عليهم» للمشركين ، وفى «فظلوا» للملائكة ، تذهب وتجيء . أى لو كشف لهؤلاء حتى يعاينوا أبوابا فى السماء تصعد فيها الملائكة وتنزل لقالوا : رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له ؛ عن ابن عباس وقتادة . ومعنى ﴿ سُكِّرَتْ ﴾ سُدّت بالسحر ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال الحسن : سُحرت . الكلبى : أُغشيت أبصارنا ؛ وعنه أيضا عَمِيت . قتادة : أُخذت . وقال المؤرِّج : دِيرَ بنا ، من الدوران ؛ أى صارت أبصارنا سكرى . جُوَيْبِر : خُدعت . وقال أبو عمرو بن العلاء : « سكرت » غُشِّيت وغُطِّيت . ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مِغْفَر * وجعلت عين الحَرُور تَسْكُر

وقال مجاهد : « سُكِّرت » حبست . ومنه قول أوس بن حَجَر :

فصرت على ليلة ساهرة[(١)] * فليست بطَلْقٍ ولا ساكِرَهْ

قلت : وهذه أقوال متقاربة يجمعها قولك : منعت . قال ابن عُزَيز : «سُكِّرَتْ أبصارنا» سُدّت أبصارنا ؛ هو من قولك : سكرت النهر إذا سددته . ويقال : وهو من سُكْر الشراب ، كأن العين يلحقها ما يلحق الشارب إذا سكِر . وقرأ ابن كثير «سَكِرَتْ» بالتخفيف . والباقون بالتشديد . قال ابن الأعرابى : سُكِرت ملئت[(٢)] . قال المهدوى : والتخفيف والتشديد

---

(١) فى اللسان مادة سكر : «جذلت» بالجيم والذال المفتوحتين ؛ ومعنى «جذل» انتصب وثبت لا يبرح . وليلة طلق : مشرق لا برد فيها ولا حرّ ، ولا مطر ولا قرّ . (٢) عبارة ابن الأعرابى كما فى نسخ الأصل : « سكرت ملئت ، وسكرت ملكت » ولم نر ما يؤيد هذا ، ولعله تكرير من النساخ مع تحريف .

Marfat.com

فى «سكِرت» ظاهران، التشديد للتكثير والتخفيف يؤدّى عن معناه . والمعروف أن «سكر» لايتعدى . قال أبو على : يجوز أن يكون سُمِع متعديا فى البصر . ومن قرأ «سَكِرت» فإنه شبه ما عرض لأبصارهم بحال السكران، كأنها جرت مجرى السكران لعدم تحصيله . وقد قيل : إنه بالتخفيف [من] سكر الشراب، و بالتشديد أُخذت ، ذكرهما الماوردى . وقال النحاس : والمعروف من قراءة مجاهـد والحسن « سكِرت » بالتخفيف . قال الحسن : أى سُحِرت . وحكى أبو عبيد عن أبى عبيدة أنه يقال : سُكِّرت أبصارهم إذا غَشِيها سَمادير[1] حتى لايبصروا . وقال الفراء : من قرأ « سَـكَرت » أخذه من سكور الريح[2] . قال النحاس . وهـذه الأقوال متقاربة . والأصـل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمـه الله تعالى، قال : هـو من السكر فى الشراب . وهذا قول حسن ؛ أى غشيهم ماغطى أبصارهم كما غشى السكرانَ ما غطى عقله . وسُكور الريح سكونها وفتورها : فهو يرجع إلى معنى التحيير .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

لمـا ذكر كفر الكافرين وعجز أصـنامهم ذكر كمال قدرته ليُستدلّ بها على وحدانيتـه . والبروج : القصور والمنـازل . قال ابن عباس : أى جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر؛ أى منازلها . وأسماء هذه البروج : الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأَسَد، والسُّنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَـدْى ، والدّلو، والحوت . والعرب تَعُدّ المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجلِّ العلوم ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجَدْب . وقالوا : الفلك اثنا عشر برجا، كلّ برج مِيلان ونصف . وأصل البروج الظهور؛ ومنه تبرّج المـرأة بإظهار زينتها . وقد تقدّم هـذا المعنى فى النسـاء[3] . وقال الحسن وقتادة : البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها . وقيل : الكواكب العظام ؛ قاله أبو صالح ،

(١) السمادير : ضعف البصر . وقيل : هو الذى يتراءى للإنسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب .
(٢) سكونها بعد الهبوب . (٣) راجع جـ ٥ ص ٢٨٤ .

Marfat.com

يعنى السبعة السيارة[(١)]. وقال قوم : « بُرُوجاً » ؛ أى قصورا و بيوتا فيها الحَرَس ، خلقها الله فى السماء . فالله أعلم . ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ يعنى السماء؛ كما قال فى سورة الملك : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ[(٢)] » . ﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ للمعتبرين والمتفكرين .

قوله تعالى : وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾

أى مرجوم . والرجم الرمى بالحجارة . وقيل : الرجم اللعن والطرد . وقد تقدّم[(٣)] . وقال الكسائى : كل رجيم فى القرآن فهو بمعنى الشتم . وزعم الكلبى أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى ، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحفظ جميعها بعد بعثه وحُرِست منهم بالشُّهُب . وقاله ابن عباس رضى الله عنه . قال ابن عباس : وقد كانت الشياطين لا يحجبون عن السماء ، فكانوا يدخلونها و يلقون أخبارها على الكهنة ، فيزيدون عليها تسعا فيحدّثون بها أهل الأرض ؛ الكلمة حق والتسع باطل ؛ فإذا رأوا شيئا مما قالوه صدّقوهم فيما جاءوا به ، فلما ولد عيسى بن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمِىَ بشهاب[(٤)] ؛ على ما يأتى .

قوله تعالى : إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

أى لكن من استرق السمع ، أى الخطفة اليسيرة ، فهو استثناء منقطع . وقيل : هو متصل ، أى إلا ممن استرق السمع . أى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحى وغيره ، إلا من استرق السمع فإنا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحى ، فأما الوحى فلا تسمع منه شيئا ؛ لقوله : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ[(٥)] » . و إذا استمع الشياطين

---

(١) وهى — حسب ترتيبها التصاعدى — : القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المريخ، المشترى، زحل .

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢١٠ . (٣) راجع جـ ٩ ص ٩١ . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٦٤ جـ ١٩ ص ١٠

(٥) راجع جـ ١٣ ص

Marfat.com

إلى شيء ليس بوحى فإنهم يقذفونه إلى الكهنة فى أسرع من طرفة عين ، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم[(١)] ؛ ذكره الحسن وابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ أتبعه : أدركه ولحقه . وشهاب : كوكب مضيء . وكذلك شهاب ثاقب . وقوله : « بِشِهَابٍ قَبَسٍ[(٢)] » بشعلة نار فى رأس عود؛ قاله ابن عُزَيز . وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب فى إثر عِفْرِيَةٍ[(٣)] * مسوَّمٌ فى سواد الليل مُنْقَضِب

وسمى الكوكب شهابا لبريقه ، يشبه النار . وقيل : شهاب لشعلة من نار، قبس لأهل الأرض فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه . قال ابن عباس : تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو، فيُرْمَى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ما شاء الله فيلتهب، فيأتى أصحابه وهو يلتهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا ، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعا، فيحدّثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل . فإذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان، صدقوهم بكل ما جاءوا به من كذبهم . وسيأتى هذا المعنى مرفوعا فى سورة « سبأ[(٤)] » إن شاء الله تعالى .

واختلف فى الشهاب هل يقتل أم لا . فقال ابن عباس : الشهاب يجرح ويُحرق ويخبل ولا يقتل . وقال الحسن وطائفة : يَقتل ؛ فعلى هذا القول فى قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما — أنهم يُقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكَهانة . والثانى — أنهم يُقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لانقطع الاستراق وانقطع الإحراق؛ ذكره الماوردى .

---

(١) الخبل (بسكون الباء) : فساد الأعضاء .   (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٥٦ .   (٣) أى إثر شيطان، ومسوّم : معلم . ومنقضب : منقض من مكانه .   (٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٥ .

Marfat.com

قلت : والقول الأول أصح على ما يأتي بيانه في « الصافات » واختلف هـل كان رمىٌ بالشهب قبل المبعث؟ فقال الأكثرون نعم . وقيل : لا، وإنمـا ذلك بعد المبعث . وسيأتي بيان هذه المسألة في سورة «الجن»(١) إن شاء الله تعالى . وفي «الصافات» أيضا. قال الزجاج: والرمى بالشهب من آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده؛ لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق و بالسـيل . ولا يبعد أن يقال : انقضاض الكواكب كان في قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوما للشياطين،ثم صار رجوما حين ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال العلماء : نحن نرى انقضاض الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصـير نارا إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يرمون بشعلة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سرى . والشّهاب في اللغة النار الساطعة . وذكر أبو داود عن عامر الشعبي قال : لمـا بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبـل، فأتوا عبد ياليل بن عمرو الثقفي فقالوا : إن الناس قـد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيّبوا أنعامهم لمـا رأوا في النجوم . فقـال لهم — وكان رجلا أعمى — : لا تعجلوا وانظروا فإن كانت النجوم التي تُعرف فهي عند فناء الناس، وإن كانت لا تعرف فهي من حدث . فنظروا فإذا هي نجوم لا تعرف، فقالوا : هذا من حدث . فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَـا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ هـذا من نعمه أيضا، ومما يدلّ على كمال قدرته . قال ابن عباس : بسطناها على وجه المـاء؛ كما قال : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا »(١) أى

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٠، وص ٢٠١ .

Marfat.com

بسطها . وقال : « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ »(١) . وهو يرد على من زعم أنها كالكرة . وقد تقدّم(٢) . ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثابتة لئلا تتحرّك بأهلها . ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ أى مقدّر معلوم ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير . وإنما قال : « مَوْزُونٍ » لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء . قال الشاعر :

قد كنتُ قبـلَ لقائكم ذا مِرّة * عنـدى لِكُلّ مخاصِمٍ ميزانه

وقال قتادة : موزون يعنى مقسوم . وقال مجاهد : موزون معدود . ويقال : هـذا كلام موزون ؛ أى منظوم غير منتثر . فعلى هذا أى أنبتنا فى الأرض مايوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن . وقد قال الله عز وجل فى الحيوان : « وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً »(٣) . والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد . وقيل : « أَنْبَتْنَا فِيهَا » أى فى الجبال « مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ » من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقزدير ، حتى الزّرنيخ والكحل ، كل ذلك يوزن وزنا . روى معناه عن الحسن وابن زيد . وقيـل : أنبتنا فى الأرض الثمـار مما يكال ويوزن . وقيل : ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجلّ قدرا وأعم نفعا ممـا لا ثمن له . ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَـا مَعَايِشَ ﴾ يعنى المطاعم والمشارب التى يعيشون بها ؛ واحدها معيشة (بسكون الياء) . ومنه قول جرير :

تكلفنى مَعيشــةَ آلِ زيدٍ   ومَنْ لى بالمرقّق والصِّناب(٤)

والأصل مَعْيِشة على مَفْعِلة (بتحريك الياء) . وقد تقدّم فى الأعراف(٥) . وقيل : إنها الملابس ؛ قاله الحسن . وقيـل : إنها التصرف فى أسـباب الرزق مدّة الحيـاة . قال المـاوردىّ : وهو الظاهر . ﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ يريد الدواب والأنعام ؛ قاله مجاهد . وعنده أيضا هم العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم : « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ »(٦) ولفظ « من » يجوز أن يتناول العبيد والدواب إذا اجتمعوا ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل ، غلب من يعقل . أى

(١) راجع جـ ١٧ ص ٥٢ .   (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ .
(٣) راجع جـ ٤ ص ٦٩ .   (٤) الرقاق الأرغفة الرقيقة الواسعة والخردل المضروب بالزبيب يؤتدم به .
(٥) راجع جـ ٧ ص ١٦٧ .   (٦) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٢ .

Marfat.com

جعلنا لكم فيها معايش وعبيـدا و إماء ودوابّ وأولادا نرزقهم ولا ترزقونهم . فـ « من » على هـذا التأويل فى موضع نصب ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيـل : أراد به الوحش . قال سعيد : قرأ علينا منصور « وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ » قال : الوحش . فـ « من » على هذا تكون لمـا لا يعقل ، مثـل « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ »(١) الآية . وهى فى محـل خفض عطفا على الكاف والميم فى قوله : « لَكُمْ » . وفيه قبح عنـد البصريين ؛ فإنه لا يجوز عندهم عطف الظاهر على المضمر إلا بإعادة حرف الجر ؛ مثـل مررت به و بزيد . ولا يجوز مررت به وزيد إلا فى الشعر . كما قال :

فاليـومَ قرّبت تهجونا وتَشْـتِمنا ✽ فاذهبْ فمـا بك والأيامِ مِن عَجَب

وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(١) وسورة « النساء »(٢) .

قوله تعـالى : وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِنـدَنَا خَزَآئِنُـهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُـهُ ﴾ أى وإن من شىء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ؛ يعنى المطر المنزل من السماء، لأن به نبات كل شىء . قال الحسن : المطر خزائن كل شىء. وقيل: الخزائن المفاتيح، أى فى السماء مفاتيح الأرزاق ؛ قاله الكلبى. والمعنى واحد. ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ أى ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه ؛ كما قال : « وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ »(٤) . وروى عن ابن مسعود والحكم بن عتيبة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطرا من عام ، ولكن الله يقسمه كيف شاء ، فيمطر قوم ويحرم آخرون ، وربمـا كان المطر فى البحار والقفار . والخزائن جمع الخزانة ، وهو الموضع الذى يستر فيه الإنسان ماله . والخزانة أيضا مصـدر خَزَنَ يَخْزُن . وما كان فى خزانة الإنسان كان مُعَدًّا له . فكذلك ما يقدر عليه الرب

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٩١ . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٠ .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٧ .

Marfat.com

فكأنه مُعَدٌّ عنده؛ قاله القشيري. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: في العرش مثال كل شيء خلقه الله في البر والبحر. وهو تأويل قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ». والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد؛ كقوله: «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ»(١) وقوله: «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ»(٢). وقيل: الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالا لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء.

قوله تعالى: وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ﴾ قراءة العامة «الرِّيَاحَ» بالجمع. وقرأ حمزة بالتوحيد؛ لأن معنى الريح الجمع أيضا وإن كان لفظها لفظ الواحد. كما يقال: جاءت الريح من كل جانب. كما يقال: أرض سَبَاسِبُ(٣) وثوب أخلاقٌ. وكذلك تفعل العرب في كل شيء اتسع. وأما وجه قراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها بـ﴿لَوَاقِحَ﴾ وهي جمع. ومعنى «لَوَاقِحَ» حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسَّحاب والخير والنفع. قال الأزهري: وجعل الريح لاقحا لأنها تحمل السحاب؛ أي تُقِلّه وتصرّفه ثم تَمْرِيه(٤) فتستَدِرّه؛ أي تنزله؛ قال الله تعالى: «حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا»(٥) أي حملت. وناقة لاقح ونُوق لواقح إذا حملت الأجنة في بطونها. وقيل: لواقح بمعنى مُلْقِحة وهو الأصل، ولكنها لا تلقح إلا وهي في نفسها لاقح، كأن الرياح لَقِحت بخير. وقيل: ذوات لقح، وكل ذلك صحيح؛ أي منها ما يُلقح الشجر؛ كقولهم: عيشة راضية؛ أي فيها رضًا، وليل نائم؛ أي فيه نوم. ومنها ما تأتي بالسحاب. يقال: لَقِحت الناقة (بالكسر) لَقَحا ولَقَاحا (بالفتح) فهي لاقح. وألقحها الفحل أي ألقى إليها

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٣٤.
(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٦٠.
(٣) السبسب: الأرض المستوية البعيدة.
(٤) مرت الريح السحاب: إذا أنزلت منه المطر.
(٥) راجع جـ ٧ ص ٢٢٨.

Marfat.com

المـاء فحملته ؛ فالرياح كالفحل للسحاب . قال الجوهرى : ورياح لواقح ولا يقال مَلاقح ، وهو من النوادر . وحكى المهـدوى عن أبى عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح ، ذهب إلى أنه جمع مُلقِحة ومُلقِح، ثم حذفت زوائده . وقيـل : هو جمع لاقحـة ولاقح ، على معنى ذات اللّقاح على النسب . ويجوز أن يكون معنى لاقح حاملا . والعرب تقول للجنوب : لاقح وحامل ، وللشّمال حائل وعقيم . وقال عبيد بن عُمير : يرسـل الله المبشِّرة فتقُمّ الأرض قمّا (١) ، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب ، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه ، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر . وقيل : الريح الملاقح التى تحمـل الندى فتمجّه فى السحاب ، فإذا اجتمع فيـه صار مطرا . وعن أبى هريرة قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الريح الجنوب من الجنـة وهى الريح اللواقح التى ذكرها الله فى كتابه وفيهـا منافع للناس" . وروى عنه عليـه السلام أنه قال : "ما هبّت جنوب إلا أنبع الله بها عينا غَدقة" . وقال أبو بكر بن عياش : لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعـد أن تعمل الرياح الأربع فيها ؛ فالصَّبا تهيّجه ، والدَّبُور تُلقحه ، والجنوب تُدِرّه ، والشمال تفرّقه .

الثانيـــة — روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك — واللفظ لأشهب — قال مالك : قال الله تعـالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ » فلقاح القمح عنـدى أن يحبب ويُسَنْبِل ، ولا أدرى ما ييبَس فى أكمامه ، ولكن يُحبّب حتى يكون لو يبس حينئذ لم يكن فسادًا لا خير فيه . ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت ، وليس ذلك بأن تورّد . قال ابن العربى : إنمـا عوّل مالك فى هـذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل ، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبب الثمر وتسنبله ؛ لأنه سُمى باسم تشترك فيـه كل حاملة وهو اللقاح ؛ وعليه جاء الحديث "نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن بيع الحَبّ حتى يشتد" . قال ابن عبد البر : الإبّار عنـد أهل العلم فى النخل التلقيح ، وهو أن يؤخذ شىء من طلع [ذكور] النخل فيُدْخَل بين ظهرانى طلع الإناث .

(١) قم البيت : كنسه .

Marfat.com

ومعنى ذلك فى سائر الثمار طلوع الثمرة من التين وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظورا إليها . والمعتبر عنـد مالك وأصحابه فيما يذكر من الثمـار التذكير ، وفيما لا يذكّر أن يثبت من نواره ما يثبت ويسـقط ما يسقط . وحدّ ذلك فى الزرع ظهوره من الأرض؛ قاله مالك . وقد روى عنه أن إباره أن يحبّب ، ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إناثه فأخّر إباره وقد أبر غيره ممن حاله مثل حاله ، أن حكمه حكم ما أبر؛ لأنه قد جاء عليه وقت الأبار وثمرته ظاهرة بعد تغيبها فى الحب . فإن أبر بعض الحائط كان ما لم يؤبر تبعـا له . كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائر الحائط تبعا لذلك الصلاح فى جواز بيعه .

الثالثـــة — روى الأئمة كلّهم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من ابتاع نخـلا بعد أن تؤبّر فثمرتها للذى باعها إلا أن يشـترط المبتاع ، ومن ابتاع عبدا فماله للذى باعه إلا أن يشترط المبتاع " . قال علماؤنا : إنما لم يدخل الثمر المؤبّر مع الأصول فى البيع إلا بالشرط؛ لأنه عين موجودة يحاط بها أمن سقوطها غالبا . بخلاف التى لم تؤبر؛ إذ ليس سـقوطها مأمونا فلم يتحقق لهـا وجود ، فلم يجز للبائع اشـتراطها ولا استثناؤها؛ لأنها كالجنين . وهذا هو المشهور من مذهب مالك . وقيل : يجوز استثناؤها؛ وهو قول الشافعى .

الرابعـــة — لو اشتُرِى النخل وبقى الثمر للبائع جاز لمشترى الأصل شراء الثمرة قبل طِيبها على مشهور قول مالك ، ويرى لهـا حكم التبعية وإن أفردت بالعقد ، وعنه فى رواية : لا يجوز . وبذلك قال الشافعى وأبو حنيفة والثورى وأهـل الظاهر وفقهاء الحديث . وهو الأظهر من أحاديث النهى عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها .

الخامســـة — ومما يتعلق بهذا الباب النهى عن بيع الملاقح؛ والملاقح الفحول من الإبل ، الواحد مُلقِح . والملاقح أيضا الإناث التى فى بطونها أولادُها ، الواحدة ملقَحة (بفتح القاف) والملاقيح ما فى بطون النوق من الأجنة ، الواحدة ملقوحة ، ومن قولهم : لُقِحت ؛ كالمحموم من حم ، والمجنون من جُنّ ، وفى هـذا جاء النهى . وقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم :

Marfat.com

أنه نهى عن المَجْر وهو بيـع ما فى بطون الإناث . ونهى عن المضامين والملاقيح . قال ابو عبيد : المضامين ما فى البطون ، وهى الأجنة . والملاقيح ما فى أصلاب الفحول . وهو قول سعيد بن المسيّب وغيره . وقيـل بالعكس : إن المضامين ما فى بطون الجمال ، والملاقيح ما فى بطون الإناث . وهو قول ابن حبيب وغيره . وأىّ الأمرين كان ، فعلماء المسلمين مجمعون على أن ذلك لا يجوز . وذكر المزنى عن ابن هشام شاهـدا بأن الملاقيح ما فى البطون لبعض الأعراب :

مَنيّتى مَلاقِحًا فى الأبْطُنِ * تُنْتَـج ما تَلْقَحُ بعـد أزْمُنِ (١)

وذكر الجوهرى على ذلك شاهدا قول الراجز :

إنّا وَجَـدْنا طَرَدَ الهَـوَاملِ * خيرا من التأْنان والمسـائلِ (٢)

وعِـدَةِ العـامِ وعامٍ قابـلِ * مَلْقوحـةً فى بطن نابٍ حائلِ

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب . وكل ما علاك فأظلّك يسمى سماء . وقيل : من جهة السماء . ﴿ مَاءً ﴾ أى قطرا . ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أى جعلنا ذلك المطر لسقياكم وشرب مواشيكم وأرضكم . وقيل : سقى وأسقى بمعنى . وقيل : بالفرق، وقد تقدم (٣) . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أى ليست خزائنه عندكم ؛ أى نحن الخازنون لهذا المـاء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا . ومثـله « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » (٤) ، « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ » (٥) . وقال سفيان : لستم بمانعين المطر .

قوله تعـالى : وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾

أى الأرض ومن عليها ، ولا يبقى شىء سوانا . نظيره « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ » (٦) . فملك كل شىء لله تعالى . ولكن ملك عباده أملاكا فإذا ماتوا انقطعت

---

(١) كذا فى الأصول واللسان . وفى ى : منيتى . (٢) الهوامل : الإبل المهملة . والتأنان : الأنين . والناب : الناقة المسنة . والحائل : التى لم تحبل . (٣) راجع جـ ١ ص ٤١٧ . (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٩ فما بعده . (٥) راجع جـ ١٢ ص ١١٢ . (٦) راجع جـ ١١ ص ١٠٩ .

Marfat.com

الأعاوى ، فكان الله وارثا من هذا الوجه . وقيل : الإحياء فى هذه الآية إحياء النطفة فى الأرحام . فأما البعث فقد ذكره بعد هذا فى قوله : « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ فيه ثمان تأويلات : الأول — «الْمُسْتَقْدِمِينَ» فى الخلق إلى اليوم، و «الْمُسْتَأْخِرِينَ» الذين لم يخلقوا بعد؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما . الثانى — « المستقدمين » الأموات، و « المستأخرين » الأحياء ؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثالث — « المستقدمين » من تقدم أمة محمد ، و «المستأخرين» أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد . الرابع — «المستقدمين» فى الطاعة والخير ، و « المستأخرين » فى المعصية والشر ؛ قاله الحسن وقتادة أيضا . الخامس — « المستقدمين » فى صفوف الحرب ، و « المستأخرين » فيها ؛ قاله سعيد بن المسيب . السادس — «المستقدمين» من قتل فى الجهاد، و «المستأخرين» من لم يقتل؛ قاله القرظى . السابع — « المستقدمين » أوّل الخلق، و « المستأخرين » آخر الخلق ؛ قاله الشعبى . الثامن — « المستقدمين » فى صفوف الصلاة » و « المستأخرين » فيها بسبب النساء . وكل هذا معلوم لله تعالى ؛ فإنه عالم بكل موجود ومعدوم ، وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة . إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية ؛ لما رواه النسائى والترمذى عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس؛ فكان بعض القوم يتقدّم حتى يكون فى الصف الأوّل لئلا يراها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه ، فأنزل الله عزوجل «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ» . وروى عن أبى الجوزاء ولم يذكر ابن عباس ، وهو أصح[1] .

(1) فى ى : الصحيح .

Marfat.com

الثانيـــة ــ هذا يدل على فضل أوّل الوقت فى الصلاة وعلى فضل الصف الأوّل؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : „ لو يعلم الناس ما فى النـداء والصف الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا[1] عليه لاستهموا ‟ . فإذا جاء الرجل عند الزوال فنزل فى الصف الأوّل مجاور الإمام ، حاز ثلاث مراتب فى الفضل : أوّل الوقت والصف الأوّل، ومجاورة الإمام . فإن جاء عنـد الزوال فنزل فى الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأوّل، فقد حاز فضل أوّل الوقت وفاته فضل الصف الأوّل والمجاورة . فإن جاء وقت الزوال ونزل فى الصف الأوّل دون ما يلى الإمام فقد حاز فضل أوّل الوقت وفضل الصف الأوّل، وفاته مجاورة الإمام . فإن جاء بعد الزوال ونزل فى الصف الأوّل فقـد فاته فضيلة أوّل الوقت ؛ وحاز فضيلة الصف الأوّل ومجاورة الإمام . وهكذا . ومجاورة الإمام لا تكون لكل أحد، وإنما هى كما قال صلى الله عليه وسلم : „ لِيَلِيَنِي منكم أولو الأحلام والنهى ‟ الحديث . فما يلى الإمام ينبغى أن يكون لمن كانت هذه صفته . فإن نزلهـا غيره أخر وتقـدّم هو إلى الموضع ؛ لأنه حقـه بأمر صاحب الشرع ، كالمحراب هو موضع الإمام تقدّم أو تأخر . قاله ابن العربى .

قلت : وعليـه يحمل قول عمر رضى الله عنه : تأخر يا فلان ، تقدّم يا فلان ؛ ثم يتقدّم فيكبر . وقد روى عن كعب أن الرجل من هذه الأمة ليخرّ ساجدا فيغفر لمن خلفه . وكان كعب يتوخى الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك ، ويذكر أنه وجده كذلك فى التوراة . ذكره الترمذي الحكيم فى نوادر الأصول . وسيأتى فى سورة « الصافات »[2] زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة ــ وكما تدل هـذه الآية على فضل الصف الأوّل فى الصلاة ، فكذلك تدل على فضل الصف الأوّل فى القتال؛ فإن القيام فى نحر العدوّ ، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل ؛ فالتقدّم إليـه أفضل ، ولا خلاف فيه ولا خفاء به . ولم يكن أحد يتقدّم الحرب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان أشجع الناس . قال البراء : كنا والله إذا احمرّ البأس نتقى به ، وإن الشجاع منا للذى يحاذى به ، يعنى النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أى إلا أن يقترعوا .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ١٣٧ فما بعده .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أى للحساب والجزاء . ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تقدم(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى آدم عليه السلام . ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ أى من طين يابس ؛ عن ابن عباس وغيره . والصلصال : الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جف ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار ؛ عن أبى عبيدة . وهو قول أكثر المفسرين . وأنشد أهل اللغة :

* كعَدْوِ المصَلْصِل الجَوّال(٢) *

وقال مجاهد : هو الطين المنتن ؛ واختاره الكسائى . قال : وهو من قول العرب : صلّ اللحمُ وأصلّ إذا أنتن — مطبوخا كان أو نيئا — يَصِل صلولا ؛ قال الحُطَيئة :

ذاك فتًى يبذُل ذا قِدْرِه * لا يُفسِد اللحمَ لدَيْه الصُّلولْ

وطين صَلّال ومِصْلال ؛ أى يصوّت إذا نقرته كما يصوّت الحديد . فكان أوّل ترابا ، أى متفرّق الأجزاء ثم بُلّ فصار طينا ، ثم تُرِك حتى أنتن فصار حمأ مسنونا ؛ أى متغيرا ، ثم يَبِس فصار صلصالا ؛ على قول الجمهور . وقد مضى فى «البقرة» بيانُ(١) هذا . والحمأ : الطين الأسود ، وكذلك الحمأة بالتسكين ؛ تقول منه : حمِئت البئر حمأ (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها . وحَمِئت البئر حمأ (بالتحريك) كثرت حمأتُها . وأحمأتها إحماء ألقيت فيها الحمأة ؛ عن ابن السكيت . وقال أبو عبيدة : الحمأة (بسكون الميم) مثل الكمأة . والجمع حَمْءٌ ، مثل تمرة وتمر . والحَمَأ المصدر مثل الهلَع والجزَع ، ثم سُمى به . والمسنون المتغيِّر . قال ابن عباس : هو التراب المبتل المنتن ،

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٧ ، وص ٢٧٩ .

(٢) هذا عجز البيت ، وتمامه كما فى اللسان :

عنتريس تعدو إذا مسها الصو * ت كعدو المصلصل الجوال

Marfat.com

فجعل صلصالا كالفخار . ومثله قول مجاهد وقتادة ، قالا : المنتن المتغير ؛ من قولهم : قد أسن المـاء إذا تغيّر؛ ومنه « يتسنّه » (١) و « مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ » (٢) . ومنه قول أبى قيس بن الأسلت :

سقت صداى رُضابا غير ذى أسن * كالمسك فُتّ على ماء العناقيـد

وقال الفراء : هو المتغير، وأصله من قولهم : سننت الحجر على الحجر إذا حككته به . وما يخرج من الحجرين يقال له : السنانة والسّنين ؛ ومنه المسن . قال الشاعر :

ثم خاصرتُها إلى القبـة الخضـ (٣) ـراء تمشى فى مَرْمَرٍ مسنون

أى محكوك مُملّس . حُكى أن يزيد بن معاوية قال لأبيه : ألا ترى عبد الرحمن بن حسّان يشبب بابنتك . فقال معاوية : وما قال ؟ فقال قال :

هى زَهْرَاءُ مثـــل لـؤلـؤة الغـوّ * اص مِيزَت من جَوْهرٍ مَكْنُونِ

فقال معاوية : صدق ! فقال يزيد [إنه يقول (٤)] :

وإذا ما نَسَـبْتَها لم تجـدها * فى سَـناء من المكارم دونِ

فقال : صـدق ! فقال : أين قوله : ثم خاصرتها ... البيت . فقال معاوية : كذب . وقال أبو عبيدة : المسنون المصبوب، وهو من قول العـرب : سننت المـاء وغيره على الوجه إذا صببته . والسّن الصب . وروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : المسنون الرّطب؛ وهذا بمعنى المصبوب؛ لأنه لا يكون مصبوبا إلا وهو رطب . النحاس : وهذا قول حسن ؛ لأنه يقال : سننت الشيء أى صببته . قال أبو عمرو بن العلاء : ومنه الأثر المروىّ عن عمر (٥) أنه كان يَسُنّ المـاء على وجهه ولا يَشُنّه . والشّن (بالشين) تفريق المـاء : و بالسين المهملة صبّه من غير تفريق . وقال سيبويه : المسنون المصوّر . أخذ من سُنّة الوجه وهو صورته . وقال ذو الرمة :

تُرِيك سُـنّة وجهٍ غيرَ مُقْـرِفَة * مَلْسَاء ليس بهـا خال ولا نَدَبُ (٦)

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٨٨ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٦ (٣) فى اللسان : الخضراء .
(٤) الزيادة عن اللسان . (٥) فى نهاية ابن الأثير : « ابن عمر » .
(٦) السنة : الصورة . والمقرفة : التى دنت من الهجينة . والندب : الأثر من الجراح والقراح . وقوله : غير مقرفة ؛ أى غير هجينة ، عتيقة كريمة . خال : شامة ؛ وندب : أثر الجرح .

Marfat.com

وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم؛ من قولهم : وجه مسنون إذا كان فيه طول . وقد قيـل : إن الصلصال التراب المدقق؛ حكاه المهدوى . ومن قال : إن الصلصال هو المنتن فأصله صلّال ، فأبدل من إحدى اللامين الصاد . و « مِنْ حَمَإٍ » مفسر لجنس الصلصال ؛ كقولك : أخذت هذا من رجل من العرب .

قوله تعـالى : وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبـل خلق آدم . وقال الحسن : يعنى إبليس، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام. وسُمِّى جانًّا لتواريه عن الأعين. وفى صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لما صور الله تعالى آدم عليه السلام فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به وينظر ما هو فلما رآه أجـوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمـالك (١) " . ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ قال ابن مسـعود : نار السموم التى خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . وقال ابن عباس : السموم الريح الحارة التى تقتل . وعنه : أنهـا نار لا دخان لها ، والصواعق تكون منها ، وهى نار تكون بين السماء والحجاب . فإذا أحدث الله أمرا اخترقت الحجاب فهـوت الصاعقة إلى ما أمرت . فالهـدّة (٢) التى تسمعون خرق ذلك الحجاب . وقال الحسن : نار السموم نار دونها حجاب، والذى تسمعون من انغطاط السحاب صـوتها . وعن ابن عباس أيضا قال : كان إبليس من حىّ من أحياء الملائكة يقـال لهم الجن خلقوا من نار السـموم من بين الملائكة — قال — وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار .

قلت : هذا فيه نظر؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر؛ إذ مثله لا يقال من جهة الرأى . وقد خرّج مسـلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "خلقت الملائكة من نور وخلق الجـان من مارج من نار وخلق آدم ممـا وُصف لكم" .

(١) أى لا يملك نفسـه ويحبسها عن الشهوات . وقيل : لا يملك نفسه عنـد الغضب . وقيل : لا يملك دفع الوسواس عنه . (٢) الهدة : صوت وقع الحائط ونحوه ، والهدة : صوت ما يقع من السحاب .

Marfat.com

قوله : " خلقت الملائكة من نور " يقتضى العموم . والله أعلم . وقال الجوهرى : مارج من نار نارٌ لا دخان لها خلق منها الجان ، والسموم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سمَّ يومُنا فهو يوم مسموم ، والجمع سمائم . قال أبو عبيدة : السَّموم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحَرُور بالليل وقد تكون بالنهار . القشيرى : وسُمِّيت الريح الحارة سموما لدخولها [بلطفها][1] فى مَسام البدن .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ تقدم فى «البقرة»[2] . ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ من طين ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أى سوّيت خلقه وصورته . ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى ﴾ النفخ إجراء الريح فى الشىء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ؛ فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفا وتكريما ؛ كقوله : " أرضى وسمائى و بيتى وناقة الله وشهر الله " . ومثله « وروحٌ منه » وقد تقدم فى « النساء »[3] مبيّنا . وذكرنا فى كتاب (التذكرة) الأحاديث الواردة التى تدلّ على أن الروح جسم لطيف ، وأن النفس والروح اسمان لمسمًّى واحد . وسيأتى ذلك إن شاء الله . ومن قال إن الروح هو الحياة قال أراد : فإذا ركّبت فيه الحياة . ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أى خرّوا له ساجدين . وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة . ولله أن يفضل من يريد ؛ ففضل الأنبياء على الملائكة . وقد تقدم فى «البقرة»[2] هذا المعنى . وقال القفّال : كانوا أفضل من آدم ، وامتحنهم [الله][1] بالسجود له تعريضا لهم للثواب الجزيل . وهو مذهب المعتزلة . وقيل : أمروا بالسجود لله عند آدم ، وكان آدم قِبلة لهم .

---

(١) من ى . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٦١ ، وص ٢٩١ فما بعد . (٣) راجع جـ ٦ ص ٢٢

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — لا شك أن إبليس كان مأمورا بالسجود ؛ لقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ »[1] وإنما منعه من ذلك الاستكبارُ والاستعظام ؛ كما تقدّم في « البقرة »[2] بيانه . ثم قيل : كان من الملائكة ؛ فهو استثناء من الجنس . وقال قوم : لم يكن من الملائكة ؛ فهو استثناء منقطع . وقد مضى في « البقرة »[2] هذا كله مستوفى . وقال ابن عباس : الجان أبو الجن وليسوا شياطين . والشياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر . فآدم أبو الإنس . والجان أبو الجن . وإبليس أبو الشياطين ؛ ذكره الماوردي . والذى تقدّم في « البقرة » خلاف هذا ، فتأمله هناك .

الثانية — الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعي ، حتى لو قال : لفلان عليّ دينار إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة ، وما جانس ذلك كان مقبولا ، ويسقط عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة . ويستوى في ذلك المكيلات والموزونات والمقدّرات . وقال مالك وأبو حنيفة رضى الله عنهما : استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل جائز ، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم قُبل . فأما إذا استثنى المقوّمات من المكيلات أو الموزونات ، والمكيلات من المقوّمات ، مثل أن يقول : عليّ عشرة دنانير إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا دينارا لا يصح الاستثناء ، ويلزم المقرّ جميع المبلغ . وقال محمد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح ، ويلزم المقرّ جملة[3] ما أقرّ به . والدليل

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٩ . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ وص ٢٩٤ . (٣) في ى : جميع .

Marfat.com

لقول الشافعي أن لفظ الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس؛ قال الله تعالى: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا»[1] فآستثنى السلام من جملة اللغو. ومثله «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ» وإبليس ليس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى: «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»[2]. وقال الشاعر:

وبلدةٍ ليس بها أنيس * إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ

فاستثنى اليعافير وهي ذكور الظباء، والعيس وهي الجمال البيض من الأنيس؛ ومثله قول النابغة[3]:

... ... * ... ...

قوله تعالى: قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي ما المانع لك. ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي في ألا تكون. ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ بين تكبّره وحسده، وأنه خير منه، إذ هو من نار والنار تأكل الطين؛ كما تقدّم في «الأعراف»[4] بيانه. ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من السموات، أو من جنة عدن، أو من جملة الملائكة. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي مرجوم بالشهب. وقيل: ملعون مشئوم. وقد تقدّم هذا كلّه مستوفى في البقرة والأعراف[5]. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ أي لعنتي؛ كما في سورة «ص».

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٦ . (٢) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء . (٣) لم يذكر المؤلف رحمة الله عليه قول النابغة، أو لعله سقط من الناسخ. وكأنه يشير إلى قوله:

حلفت يمينا غير ذي مثنوية * ولا علم إلا حسن ظن بصاحب

وهذا البيت أورده سيبويه في كتابه شاهدا على نصب ما بعد إلا على الاستثناء المنقطع؛ لأن حسن الظن ليس من العلم. والمثنوية: الاستثناء في اليمين. والمعنى: حلفت غير مستثن في يميني حسن ظن مني بصاحبي قام عندي مقام العلم الذي يوجب اليمين. (راجع كتاب سيبويه). (٤) راجع جـ ٧ ص ١٧٠ (٥) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٨

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ هـذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى ، وأنه أهـل أن يجاب له دعاء ؛ ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه ؛ كفعل الآيس من السلامة. وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لاموت فيه ولا بعـده . قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ يعنى من المؤجلين . ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ قال ابن عباس : أراد به النفخة الأولى ، أى حين تموت الخلائق . وقيـل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس . فيموت إبليس ثم يبعث ؛ قال الله تعـالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »(١) . وفى كلام الله تعالى له قولان : أحدهما — كلمه على لسان رسوله . الثـانى — كلمه تغليظا فى الوعيـد لا على وجه التكرمة والتقـريب .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ تقدم معنى الإغواء والزينـة فى الأعراف(٢) . وتزيينه هنـا يكون بوجهين : إما بفعل المعـاصى ، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة . ومعنى : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لأضلنهم عن طريق الهدى . وروى ابن لَهيعة عبـدُ الله عن دُرّاج أبى السـمح عن أبى الهيـثم عن أبى سـعيد الخدرى قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس قال يارب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم فقال الرب وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى " .

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٦٤ . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٤ و ١٩٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام ؛ أى الذين استخلصتهم وأخلصتهم. وقرأ الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء . حكى أبو ثمامة أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام عن المخلصين لله فقال : "الذى يعمل ولا يحب أن يحمده الناس" .

قوله تعالى : ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

قال عمر بن الخطاب : معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجُم به على الجنة . الحسن : « علىّ » بمعنى إلىّ . مجاهد والكسائى : هذا على الوعيد والتهديد ؛ كقولك لمن تهدده : طريقك علىّ ومصيرك إلىّ . وكقوله : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ »(1) . فكان معنى الكلام : هذا طريق مرجعه إلىّ فأجازى كُلًّا بعمله ، يعنى طريق العبودية . وقيل : المعنى علىّ أن أدلّ على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان . وقيل : بالتوفيق والهداية . وقرأ ابن سيرين وقتادة والحسن وقيس بن عُبَاد وأبو رجاء وحُميد ويعقوب « هذا صِراط علىٌّ مستقيم » برفع « علىّ » وتنوينه ؛ ومعناه رفيع مستقيم ، أى رفيع فى الدين والحق . وقيل : رفيع أن يُنال ، مستقيم أن يمال .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قال العلماء : يعنى على قلوبهم . وقال ابن عيينة : أى فى أن يلقيهم فى ذنب يمنعهم عفوى ويضيّقه عليهم . وهؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

(1) راجع جـ ٢٠ ص ٥٠ .

Marfat.com

قلت : لعل قائلا يقول : قـد أخبر الله عن صـفة آدم وحواء عليهما السلام بقوله : « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ »(١) ، وعن جملة من أصحاب نبيه بقوله : « إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا »(٢) فالجواب ما ذكر ، وهو أنه ليس له سلطان على قلوبهم ، ولا موضع إيمـانهم ، ولا يلقيهم فى ذنب يؤول إلى عدم القبول ، بل تزيله التوبة وتمحوه الأَوْبة(٣) . ولم يكن خروج آدم عقوبة لمـا تناول ؛ على ما تقدم فى « البقرة »(١) بيانه . وأما أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقد مضى عنهم القول فى آل عمران(٢) . ثم إن قوله سبحانه : « لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » يحتمل أن يكون خاصا فيمن حفظه الله ، ويحتمل أن يكون فى أكثر الأوقات والأحوال ، وقد يكون فى تسلطه تفريج كربة و إزالة غمة ؛ كما فعل ببلال ، إذ أتاه يهدّيه كما يهدَى الصبيّ حتى نام ، ونام النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس ، وفزعوا وقالوا : ما كفارة ماصنعنا بتفريطنا فى صلاتنا؟ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ليس فى النوم تفريط" ففرّج عنهم . ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أى الضالين المشركين . أى سلطانه على هؤلاء ؛ دليله « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ »(٤) .

الثانيـــة — وهذه الآية والتى قبلها دليـل على جواز ٱستثناء القليل من الكثير والكثير من القليل ؛ مثـل أن يقول : عشرة إلا درهما . أو يقول : عشرة إلا تسعة . وقال أحمد ٱبن حنبل : لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فمـا دونه . وأما ٱستثناء الأكثر من الجملة فلا يصح . ودليلنا هذه الآية ، فإن فيها ٱستثناء « الْغَاوِينَ » من العباد والعباد من الغاوين ، وذلك يدلّ على ٱستثناء الأقل من الجملة وٱستثناء الأكثر من الجملة جائز .

قوله تعـالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَـا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

(١) راجع جـ ١ ص ١١ وص ٣٢١ وجـ ٤ ص ٢٤٣ .	(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٣ .
(٣) فى ى : العفو .	(٤) راجع ص ١٧٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعنى إبليس ومن اتبعه . ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ أى أطباق، طبق فوق طبق ﴿ لِكُلِّ بَابٍ ﴾ أى لكل طبقة ﴿ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ أى حظ معلوم . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إبراهيم أبوهارون الغنوى قال: سمعت حطان ابن عبد الله الرقاشى يقول سمعت عليا رضى الله عنه يقول : هل تدرون كيف أبواب جهنم؟ قلنا : هى مثل أبوابنا . قال لا ، هى هكذا بعضها فوق بعض — زاد الثعلبى: ووضع إحدى يديه على الأخرى — وأن الله وضع الجنان على الأرض، والنيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم ، وفوقها الحُطَمة ، وفوقها سَقَر ، وفوقها الجحيم؛ وفوقها لَظَى، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وكل باب أشدّ حرا من الذى يليه سبعين مرة .

قلت : كذا وقع هذا التفسير . والذى عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدركات، وهى مختصة بالعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهى التى تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سـعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية . قال الضحاك : فى الدَّرك الأعلى المحمديون، وفى الثانى النصارى، وفى الثالث اليهود، وفى الرابع الصابئون، وفى الخامس المجوس ، وفى السادس مشركو العرب ، وفى السابع المنـافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المـائدة . قال الله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » — وقد تقدّم فى النساء(1) — ، وقال : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »(2) ، وقال : « فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ »(3) . وقسم معاذ بن جبل رضى الله عنه العلماء السوء من هذه الأمة تقسيما على تلك الأبواب؛ ذكرناه فى كتاب (التذكرة). وروى الترمذى من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل سيفه على أمتى " قال : حديث غريب . وقال أُبَىّ بن كعب : لجهنم سبعة أبواب باب منها للحرورية(4) . وقال وهب بن منبه : بين كل بابين مسيرة سبعين

(1) راجع ج ٥ ص ٤٢٤ . (2) راجع ج ١٥ ص ٣١٨ . (3) راجع ج ٦ ص ٣٦٨ .

(4) فى كتاب الدر المنثور للسيوطى : « قال كعب رضى الله عنه : للشهيد نور، ولمن قاتل الحرورية عشرة أنوار . وكان يقول : لجهنم سبعة أبواب : باب منها للحرورية . قال : «ولقد خرجوا فى زمان داود عليه السلام» .

Marfat.com

سنة، كل باب أشد حرًّا من الذي فوقه بسبعين ضعفا . وقد ذكرنا هذا كلّه في كتاب التذكرة .

وروى سلّام الطويل عن أبي سفيان عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى : « لها سبعة أبواب لِكل بابٍ مِنهم جزء مقسوم » "جزء أشركوا بالله ، وجزء شكوا في الله ، وجزء غفلوا عن الله ، وجزء آثروا شهواتهم على الله ، وجزء شفوْا غيظهم بغضب الله ، وجزء صيّروا رغبتهم بحظهم من الله ، وجزء عتَوا على الله" . ذكره الحليمي أبو عبدالله الحسين بن الحسن في كتاب (منهاج الدين) له ، وقال : فإن كان ثابتا فالمشركون بالله هم الثنوية(١) . والشاكون هم الذين لا يدرون أن لهم إلهـا أو لا إله لهم ، ويشكون في شريعته أنها من عنده أم لا . والغافلون عن الله هم الذين يجحدونه أصلا ولا يثبتونه ، وهم الدهرية . والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون في المعاصي ؛ لتكذيبهم رسل الله وأمره ونهيه . والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الداعين إليه ، المعذِّبون من ينصح لهم أو يذهب غير مذهبهم ، والمصيّرون رغبتهم بحظهم من الله هم المنكرون بالبعث والحساب ؛ فهم يعبدون ما يرغبون فيه ، لهم جميع حظهم من الله تعالى ، والعاتون على الله الذين لا يبالون بأن يكون ما هم فيـه حقا أو باطلا ، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون . والله أعلم بمـا أراد رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت الحديث . ويروى أن سلمان الفارسي رضى الله عنه لمـا سمع هـذه الآية « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » فرّ ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل ، فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » ؟ فوالذي بعثك بالحق لقـد قطعت قلبي ؛ فأنزل الله تعالى « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » . وقال بلال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلي في مسجد المدينة وحده ، فمرّت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُم جُزْءٌ مَقْسُومٌ » فخرّت الأعرابية مغشيا عليهـا ، وسمع النبيّ صلى الله عليه وسلم وجبتها(٢) فانصرف ودعا بمـاء فصب على وجهها

(١) في ى : الوثنية . (٢) الوجبة : صوت الشيء يسقط فيسمع له كالهدّة .

Marfat.com

حتى أفاقت وجلست ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا هذه مالك "؟ فقالت : أهذا شيء من كتاب الله المنزل ، أو تقوله من تلقاء نفسك ؟ فقال : " يا أعرابية ، بل هو من كتاب الله تعـالى المنزل " فقالت : كل عضـو من أعضائى يعـذب على كل باب منهـا ؟ قال : " يا أعرابية ، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب أهل كل منها على قدر أعمالهم " فقالت : والله إنى امرأة مسكينة ، مالى مال ، ومالى إلا سبعة أعبد ، أشهدك يا رسول الله ، أن كل عبد منهم عن كل باب من أبواب جهنم حر لوجه الله تعالى . فأتاه جبريل فقال : " يا رسول الله ، بشر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها أبواب الجنة كلها " .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى الذين اتقوا الفواحش والشرك . « فِي جَنَّاتٍ » أى بساتين . « وعُيُونٍ » هى الأنهـار الأربعة : ماء وخمر ولبن وعسل . وأما العيون المذكورة فى سورة « الإنسان »(١) : الكافور والزنجبيل والسلسبيل ، وفى « المطففين »(١) : التسنيم ، فيأتى ذكرها وأهلها إن شاء الله . وضم العين من « عُيُونٍ » على الأصل ، والكسر مراعاة للياء . وقرئ بهما . ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَـلَامٍ آمِـنِينَ ﴾ قراءة العامة « ادْخُلُوهَا » بوصل الألف وضم الخاء ، من دخل يدخل ، على الأمر . تقديره : قيـل ادخلوها . وقرأ الحسن وأبو العالية ورويس عن يعقوب « ٱدْخِلُوها » بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخـاء على الفعـل المجهول ؛ من أدخل . أى أدخلهم الله إياها . ومذهبهم كسر التنوين فى مثـل « بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجَنَّةَ »(٢) وشبهه ؛ إلا أنهم هاهنا ألقوا حركة الهمزة على التنوين ؛ إذ هى ألف قطع ، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان . ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أى بسلامة من كل داء وآفة . وقيل : بتحية من الله لهم . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من الموت والعذاب والعزل والزوال .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٢٣ ، ١٣٩ — ١٤٠ — ٢٦٢ .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٤ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

قال ابن عباس : أوّل مايدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان ، فيشربون من إحدى العينين فيذهب الله مافى قلوبهم من غل، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم ، وتجرى عليهم نضرة النعيم ؛ ونحوه عن علىّ رضى الله عنه . وقال علىّ بن الحسين : نزلت فى أبى بكر وعمر وعلىّ والصحابة ، يعنى ما كان بينهم فى الجاهلية من الغل . والقول الأوّل أظهر ، يدل عليه سياق الآية . وقال علىّ رضى الله عنه : أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء . والغل : الحقد والعداوة ؛ يقال منه : غَلّ يغِلّ . ويقال : من الغلول وهو السرقة من المغنم : غَلّ يَغُلّ . ويقال من الخيانة : أغل يُغِل . كما قال[1] :

جَزَى الله عنا حَمْزَةَ ٱبنةَ نَوفلٍ　＊　جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانة كاذبِ

وقد مضى هذا فى آل عمران[2] . ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أى لاينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلًا وتحابُبًا ؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : الأسرة تدور كيفما شاءوا ، فلا يرى أحد قفا أحد . وقيل : « متقابلين » قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهن بالودّ . وسرر جمع سرير ؛ مثل جديد وجُدُد . وقيل : هو من السرور ؛ فكأنه مكان رفيع ممهد للسرور . والأوّل أظهر . قال ابن عباس : على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر، السرير ما بين صَنْعَاء[3] إلى الجَابية وما بين عَدَن إلى أَيْلَة . و « إخْوانًا » نصب على الحال من « المُتَّقِين »

(١) البيت للنمر بن تولب من أبيات فى أم أولاده . وكان من حديثها أن أخاه الحارث بن تولب سيد قومه أغار على بنى أسد فسبى منهم امرأة منهم يقال لها : «جمرة بنت نوفل» فوهبها لأخيه النمر ففركته فخبئها حتى استقرت وولدت له أولادا ، ثم قالت له فى بعض أيامها : إنى قد اشتقت إلى أهلى ، فقال لها : إنى أخاف إن صرت إلى أهلك أن تغلبينى على نفسك فواثقته لترجعن إليه ، ثم خانت عهده . (راجع الأغانى ج١٩ ص١٥٨ طبع بولاق) . وفى التاج : جمرة . بجيم . فركته : أبغضته .　　(٢) راجع ج ٤ ص ٢٥٥　　(٣) صنعاء : موضعان ، أحدهما باليمن وهى العظمى ، وأخرى قرية بالغوطة . والجابية : قرية من أعمال دمشق . وعدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . وأيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر . (عن معجم البلدان) .

Marfat.com

أو من المضمر فى « ٱدْخُلُوهَا » ، أو من المضمر فى « آمِنِينَ » ، أو يكون حالا مقدرة من الهاء والميم فى « صُدُورِهِمْ » . ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أى إعياء وتعب . ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا يزول، وأن أهلها فيها باقون . «أُكُلُهَا دَائِمٌ»[1] . «إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ»[2] .

قوله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾

هذه الآية وزان قوله عليه السلام : " لو يعلم المؤمن ما عنـد الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد " أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وقد تقـدم فى الفاتحة[3] . وهكذا ينبغى للإنسان أن يذكر نفسـه وغيره فيخوّف ويرجّى ، ويكون الخوف فى الصحة أغلب عليه منـه فى المرض . وجاء فى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : " أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنـار" فشق ذلك عليهم فنزلت الآية . ذكره المـاوردىّ والمهدوىّ . ولفظ الثعلبىّ عن ابن عمر قال : أطلع علينا النبى صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة ونحن نضحك فقال : " مالكم تضحكون لا أراكم تضحكون " ثم أدبر حتى إذا كان عنـد الحجر رجع القهقرى فقال لنـا : " إنى لمـا خرجت جاءنى جبريل فقال يا محمد لم تقنط عبادى من رحمتى « نَبِّئْ عِبادِى أنّى أنَا الغَفُورُ الرَّحِيم . وأن عَذابِى هُوَ العذابُ الأَلِيم " . فالقنوط إياس ، والرجاء إهمال ، وخير الأمور أوساطها .

قوله تعالى : ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢١٨ . (٣) راجع جـ ١ ص ١٣٩ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ضيف إبراهيم : الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط . وقد تقدّم ذكرهم(١) . وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد . وسمى الضيف ضيفا لإضافته إليـك ونزوله عليك . وقد مضى من حكم الضيف فى « هود »(١) ما يكفى والحمد لله . ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْـهِ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر . ضافه وأضافه أماله ؛ ومنـه الحديث "حين تضيف الشـمس للغروب" ، وضـيفوفة(٢) السهم ، والإضافة النحوية . ﴿فَقَالُوا سَـلَامًا﴾ أى سلموا سـلاما . ﴿قَالَ إِنَّا مِنـكُمْ وَجِلُونَ﴾ أى فزعون خائفون ، وإنمـا قال هـذا بعد أن قرّب العجل ورآهم لا يأكلون ، على ما تقـدّم فى هود(١) . وقيل : أنكر السـلام ولم يكن فى بلادهم رسم السـلام . ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أى قالت الملائكة لا تخف . ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أى حليم(٣) ؛ قاله مقاتل . وقال الجمهور : عالم . وهو إسحاق . ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ الْكِبَرُ﴾ « أنْ » مصدرية ؛ أى على مس الكبر إياى وزوجتى ، وقد تقـدّم فى هود وإبراهيم(١) ؛ حيث يقـول : ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ استفهام تعجب . وقيل : استفهام حقيق . وقرأ الحسن « تُوجَلْ » بضم التاء . والأعمش «بشرتمونى» بغير ألف ، ونافع وشيبة «تبشّرونِ» بكسر النون والتخفيف ؛ مثل «أتحاجّونى» وقد تقدّم تعليله(٤) . وقـرأ ابن كثير وابن محيصن « تبشرونِّ » بكسر النون مشدّدة ، تقـديره تبشروننى ، فأدغم النون فى النون . الباقون « تبشرونَ » بنصب النون بغير إضافة .

قوله تعـالى : ﴿قَالُوا بَشَّرْنَـٰكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أى بمـا لا خلف فيه ، وأن الولد لابدّ منـه . ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ أى من الآيسـين من الولد ، وكان قـد أيس من الولد لفـرط

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٢ ، ص ٦٤ فما بعد ، ص ٣٧٥ .
(٢) ضاف السهم : عدل عن الهدف أو الرمية . (٣) فى ى : حكيم . (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٨ .

Marfat.com

الكبر . وقراءة العـامة « مِنَ القَانِطِينَ » بالألف . وقـرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب « من القَنِطِينَ » بلا ألف . وروى عن أبي عمـرو . وهو مقصور من « القَانِطِينَ » . ويجوز أن يكون من لغة من قال : قنِط يقنط ، مثـل حذِر يحذر . وفتح النون وكسرها من « يقنِطُ » لغتان قرئ بهما . وحكى فيه « يقنُط » بالضم . ولم يأت فيه « قنَط يقنَط » [و] من فتح النون في المـاضى والمستقبل فإنه جمـع بين اللغتين ، فأخذ في المـاضى بلغة من قال : قنَط يقنِط ، وفي المستقبل بلغة من قال : قنِط يقنَط ؛ ذكره المهدوى .

قوله تعـالى : قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

أى المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب . يعنى أنه آستبعد الولد لكبر سنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى .

قوله تعـالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — لمـا علم أنهم ملائكة — إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشراهم بالولد — قال : فمـا خطبكم ؟ والخطب الأمر الخطير . أى فمـا أمركم وشأنكم وما الذى جئتم به . ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَـوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ أى مشركين ضالين . وفي الكلام إضمار ؛ أى أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم . ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أتباعه وأهـل دينه . ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ وقـرأ حمزة والكسائى « لَمُنْجُوهُمْ » بالتخفيـف من أنجى . الباقون : بالتشديد من نجّى ، واختاره أبو عبيـد وأبو حاتم . والتنجية والإنجـاء التخليص . ﴿إِلَّا آمْرَأَتَهُ﴾ استثنى من آل لوط آمرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهـلاك . وقـد تقدمت قصـة قوم لوط

Marfat.com

فى « الأعراف »(١) وسورة « هود »(٢) بمـا فيه كفاية . ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى قضينا وكتبنا إنها لمن الباقين فى العذاب . والغابر : الباقى .

قال(٣) :

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأغبارها * إنك لا تدرى من النَّاتِجُ

الأغبار بقايا اللبن . وقـرأ أبو بكروالمفضـل « قَدَرْنَا » بالتخفيف هنا وفى النمـل(٤)، وشدد الباقون . الهروِىّ : يقال قدَر وقدَّر، بمعنًى .

الثانيـــة — لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أن الاستثناء من النفى إثبات ومن الإثبـات نفى؛ فإذا قال رجل : له علىّ عشرة دراهم إلا أربعـة إلا درهمـا ؛ ثبت الإقرار بسبعة؛ لأن الدرهم مستثنى من الأربعة، وهو مثبت لأنه مستثنى من منفى، وكانت الأربعة منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة . وكذلك لو قال : علىّ خمسة دراهم إلا درهما إلا ثلثيه ؛ كان عليه أربعة دراهم وثلث . وكذلك إذا قال : لفلان علىّ عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة؛ كان الاستثناء الثانى راجعا إلى ما قبله ، والثالث إلى الثانى فيكون عليـه درهمان ؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها ثمانية عشر : والتسعة نفى والسبعة نفى فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان ، وهو القـدر الواجب بالإقرار لا غير . فقوله سـبحانه : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا امْرَأَتَهُ » فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين، ثم قال : «إِلَّا امْرَأَتَهُ» فاستثناها من آل لوط ، فرجعت فى التأويل إلى القوم المجرمين كما بيّنا . وهكذا الحكم فى الطلاق، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين إلا واحدة طلقت اثنتين ؛ لأن الواحدة رجعت إلى الباقى من المستثنى منه وهى الثلاث . وكذا كل ما جاء من هذا فتفهمه .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٣ . (٢) راجع ج ٩ ص ٦٢ .

(٣) القائل هو الحارث بن حلزة . والكسع : ضرب ضرع الناقة بالماء البارد ليجف لبنها و يتراد فى ظهرها فيكون أقوى لها على الجـدب فى العام القابل . والشول : جمع شائلة وهى من الإبل التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها . والأغبار : جمع الغبر، وهى بقية اللبن فى الضرع . (٤) راجع ج ١٣ ص ٢١٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ المُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أى لا أعرفكم . وقيل : كانوا شبابا ورأى جمالا فخاف عليهم من فتنة قومه ، فهذا هو الإنكار . ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أى يشكون أنه نازل بهم، وهو العذاب . ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أى بالصدق . وقيل : بالعذاب . ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أى فى هلاكهم . ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ تقدم فى هود[1] . ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أى كن من ورائهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب . ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ نهوا عن الالتفات ليجدّوا فى السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح . وقيل : المعنى لا يتخلف . ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال ابن عباس : يعنى الشام . مقاتل : يعنى صَفَد ، قرية من قرى لوط . وقد تقدم . وقيل : إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين ، وإنما سمى اليقين لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيعهم ، فقال لجبريل : من أين يخسف بهم؟ قال : "من ها هنا" وحدّ له حدّا ، وذهب جبريل؛ فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب ، فلما اهتزت الأرض قال إبراهيم : "أيقنت بالله" فسمى اليقين .

قوله تعالى : وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٩ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْـهِ ﴾ أى أوحينا إلى لوط . ﴿ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ نظيره « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَـلَمُوا »[(1)] . ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أى عنـد طلوع الصبح . وقد تقدّم[(2)] . ﴿ وَجَاءَ أَهْـلُ الْمَدِينَةِ ﴾ أى أهل مدينـة لوط ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ مستبشرين بالأضياف طمعا منهم فى ركوب الفاحشة . ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ أى أضياف . ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ أى تخجلون . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ يجوز أن يكون من الخزى وهو الذل والهوان ، ويجوز أن يكون من الخـزاية وهو الحياء والخجـل . وقد تقـدّم فى هود[(2)] . ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى عن أن تضيـف أحدا لأنا نريد منهم الفاحشة . وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء ؛ عن الحسن . وقد تقدّم فى الأعراف[(3)] . وقيل : أو لم ننهك عن أن تكلمنا فى أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة . ﴿ قَالَ هَـٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أى فتزوّجوهنّ ولا تركنوا إلى الحرام . وقد تقدّم بيان هذا فى هود[(2)] .

قوله تعـالى : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قال القـاضى أبو بكر بن العربىّ : قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعـالى هاهنا بحياة محمد صلى الله عليـه وسلم تشريفا له ، أن قومه من قريش فى سـكرتهم يعمهون وفى حيرتهم يترددون .

قلت : وهكذا قال القاضى عياض : أجمع أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم . وأصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال . ومعناه و بقـائك يا محمد . وقيـل : وحياتك . وهـذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم البرية عنده . قال ابن العربى : «ما الذى يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٧ (٢) راجع جـ ٩ ص ٤١ وص ٧٧ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥

Marfat.com

ما شاء ، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفيه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم على الله منه ؛ أولا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد ، فإذا أقسم بحياة لوط لحياة محمد أرفع . ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يجر له ذكر لغير ضرورة » .

قلت : ما قاله حسن ؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاما معترضا فى قصة لوط . قال القشيرى أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم فى تفسيره : ويحتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط ، أى كانوا فى سكرتهم يعمهون . وقيل : لما وعظ لوط قومه وقال هؤلاء بناتى قالت الملائكة : يا لوط ، « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » ولا يدرون ما يحل بهم صباحا . فإن قيل : فقد أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين ؛ فما فى هذا ؟ قيل له : ما من شىء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضله على ما يدخل فى عداده ، فكذلك نبينا صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أفضل ممن هو فى عداده . والعمر والعمر (بضم العين وفتحها) لغتان ومعناهما واحد ؛ إلا أنه لا يستعمل فى القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال . وتقول : عَمْرَكَ الله ، أى أسأل الله تعميرك . و« لَعَمْرُكَ » رفع بالابتداء وخبره محذوف ، المعنى لعمرك مما أقسم به .

الثانيــة ـــ كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمرى ؛ لأن معناه وحياتى . قال إبراهيم النخعى : يكره للرجل أن يقول لعمرى ؛ لأنه حالف بحياة نفسه ، وذلك من كلام ضعفة الرجال . ونحو هذا قال مالك : إن المستضعفين من الرجال والمؤنثين يقسمون بحياتك وعيشك ، وليس من كلام أهل الذُّكْران ، وإن كان الله سبحانه أقسم به فى هذه القصة ، فذلك بيان لشرف المنزلة والرفعة لمكانه ، فلا يحمل عليه سواه ولا يستعمل فى غيره . وقال ابن حبيب : ينبغى أن يصرف « لعمرك » فى الكلام لهذه الآية . وقال قتادة : هو من كلام العرب . قال ابن العربى : وبه أقول ، لكن الشرع قد قطعه فى الاستعمال وردّ القسم إليه .

قلت : القسم بـ « لعمرك ولعمرى » ونحوه فى أشعار العرب وفصيح كلامها كثير .

Marfat.com

قال النابغة :

لعَمْرِى وما عمـــرِى علىّ بهيّنٍ ＊ لقد نَطقتْ بُطْـلا علىّ الأقارع (١)

آخـــر :

لعَمْرُك إن الموت ما أخطأ الفتى ＊ لكالطِّوَل المرْخَى وثِنْياه باليـدِ (٢)

آخـــر :

أيّها المنكح الـثُّرَيّا سُهيـلًا ＊ عَمْـــرَكَ الله كيف يلتقـان

آخـــر :

إذا رَضِيتْ علىّ بنو قُشَـــير ＊ لعَمْـــرُ اللهِ أعجبنى رضاهـا

وقال بعض أهل المعانى : لا يجوز هـذا ؛ لأنه لا يقال لله عمر ، و إنمـا هو تعالى أزلىّ . ذكره الزهراوى .

الثالثـــة — قد مضى الكلام فيما يحلف به وما لا يجوز الحلف به فى « المـائدة (٣) » ، وذكرنا هناك قول أحمد بن حنبل فيمن أقسم بالنبىّ صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة . قال ابن خو يزمنداد : من جوّز الحلف بغير الله تعالى مما يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس يقول إنها يمين تتعلق بها كفارة ؛ إلا أنه من قصد الكذب كان ملوما ؛ لأنه فى الباطن مستخِف بما وجب عليه تعظيمه . قالوا : وقوله تعالى « لعمرك » أى وحياتك . و إذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه فإنمـا أراد بيان التصريح لنـا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته . وعلى مذهب مالك معنى قوله : « لعمرك » و « التينِ والزيتونِ (٤) » « والطورِ . وكِتَابٍ مسـطورٍ (٥) » « والنجم إذا هوى » «والشمسِ وضحاها (٤) » «لا أقسِم بهذا البلدِ . وأنت حِل بهذا البلدِ . ووالِدٍ وما ولد (٤) » . كل هذا معناه : وخالق التين والزيتون ، و برب الكتاب المسطور ، و برب البلد الذى حللت به ، وخالق عيشك وحياتك ، وحـق محمد ؛ فاليمين والقسم حاصل به سـبحانه لا بالمخلوق . قال ابن خو يزمنداد : ومن جوّز اليمين بغير الله تعالى تأوّل قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تحلفوا

(١) أراد بالأقارع بنى قريع بن عوف ، وكانوا قد وشوا به إلى النعمان .
(٢) البيت لطرفة بن العبد . والطول : الحبل . وثنياه : ما ثنى منه .　(٣) راجع ج ٦ ص ٢٦٩ وما بعدها .
(٤) راجع ج ٢٠ ص ١١٠ وص ٧٢ وص ٥٩ .　(٥) راجع ج ١٧ ص ٥٨ وص ٨١ .

Marfat.com

بآبائكم" وقال : إنما نهى عن الحلف بالآباء الكفار، ألا ترى أنه قال لما حلفوا بآبائهم : "للجبل عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية". ومالك حمل الحديث على ظاهره. قال ابن خويزمنداد : واستدل أيضا من جوّز ذلك بأن أيمان المسلمين جرت منذ عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا أن يحلفوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكم أحدهم صاحبه قال : احلف لى بحق ما حواه هذا القبر، و بحق ساكن هذا القبر، يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكذلك بالحرم والمشاعر العظام، والركن والمقام والمحراب وما يتلى فيه (١).

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ نصب على الحال، أى وقت شروق الشمس. يقال : أشرقت الشمس أى أضاءت، وشَرقت إذا طلعت. وقيل : هما لغتان بمعنًى. وأشرق القوم أى دخلوا فى وقت شروق الشمس. مثل أصبحوا وأمسوا، وهو المراد فى الآية. وقيل : أراد شروق الفجر. وقيل : أوّل العذاب كان عند الصبح وامتدّ إلى شروق الشمس، فكان تمام الهلاك عند ذلك. والله أعلم. و « الصَّيْحَةُ » العذاب. وتقدّم ذكر « سِجِّيل » (٢).

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ روى الترمذيّ الحكيم فى (نوادر الأصول) من حديث أبى سعيد الخدرىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "للمتفرسين" وهو قول مجاهد. وروى أبو عيسى الترمذىّ عن أبى سعيد الخدرىّ قال قال رسول الله صلى الله

(١) تأمل هذا مع قوله عليه الصلاة والسلام " من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ".

(٢) راجع ج ٩ ص ٨١.

Marfat.com

عليه وسلم : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله — ثم قرأ — « إنّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِلمتوسِّمِينَ » " . قال : هذا حديث غريب . وقال مقاتل وابن زيد : للتوسمين للتفكرين . الضحاك : للناظرين . قال الشاعر[1] :

أو كلما وردتْ عُكَاظَ قبيلةٌ * بعثوا إليّ عريفَهم يتَوَسَّمُ

وقال قتادة : للمعتبرين؛ قال زهير :

وفيهنّ مَلْهًى للصديق ومنظَرٌ * أنيقٌ لعينِ الناظرِ المتوسِّمِ

وقال أبو عبيدة : للتبصرين، والمعنى متقارب . وروى الترمذي الحكيم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لله عز وجل عبادا يعرفون الناس بالتوسُّم " . قال العلماء : التوسم تفعل من الوسم، وهى العلامة التى يستدل بها على مطلوب غيرها . يقال : توسّمت فيه الخيرَ إذا رأيت مِيسم ذلك فيه ؛ ومنه قول عبد الله ابن رواحة للنبي صلى الله عليه وسلم :

إنى توسّمت فيك الخير أعرفه * والله يعلم أنى ثابت البصر

آخر :

توسَّمتُه لما رأيتُ مَهابةً * عليه وقلتُ المرءُ من آل هاشم

واتّسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يعرف بها . وتوسم الرجل طلب كلأ الوَسْمِيّ . وأنشد :

وأصبحن كالدوم النواعِم غدوة * على وِجْهَةٍ من ظاعنٍ مُتَوَسِّمِ

وقال ثعلب : الواسم الناظر إليك من فَرْقك إلى قدمك . وأصل التوسم التثبت والتفكر؛ مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة فى جلد البعير وغيره ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر . زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهيره من أدناس المعاصى وكُدُورة الأخلاق وفُضول الدنيا . روى نَهْشَل عن ابن عباس « لِلمتوسمين » قال : لأهل الصلاح والخير . وزعمت الصوفية أنها كرامة . وقيل : بل هى استدلال بالعلامات،

(١) هو طريف بن تميم العنبرى (عن شواهد سيبويه) .

Marfat.com

ومن العلامات ما يبـدو ظاهرا لكل أحد وبأول نظرة ، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادئ النظر . قال الحسن : المتوسِّمون هم الذين يتوسَّمون الأمور فيعلمون أن الذى أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار ؛ فهذا من الدلائل الظاهرة . ومثـله قول ابن عباس : ما سألنى أحد عن شيء إلا عرفت أفقيهٌ هو أو غير فقيه . وروى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما : أراه نجارا[(1)]، وقال الآخر : بل حدادا ، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجارا[(1)] وأنا اليوم حداد . وروى عن جُنْدُب بن عبد الله البجلي أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال : من سمّع سمّع الله به ، ومن راءى راءى الله به . فقلنا له : كأنك عرضت بهذا الرجل ، فقال : إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غدا حَرُورِيا ؛ فكان رأس الحَرُورِية ، واسمه مِرْداس . وروى عن الحسن البصرى أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال : هذا سيد فتيان البصرة إن لم يحدث ، فكان من أمره من القدر ما كان ، حتى هجره عامة إخوانه . وقال لأيوب : هذا سيد فتيان أهل البصرة ، ولم يستثن . وروى عن الشعبي أنه قال لداود الأزدى وهو يُماريه : إنك لا تموت حتى تُكْوَى فى رأسك ، وكان كذلك . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه قوم من مَذْحِج فيهم الأشتر ، فصعّد فيه النظر وصوّبه وقال : أيهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث . فقال : ما له قاتله الله ! إنى لأرى للسلمين منه يوما عصيبا ؛ فكان منه فى الفتنة ما كان . وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : أن أنس بن مالك دخل عليه ، وكان قد مَرّ بالسوق فنظر إلى امرأة ، فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم علىّ وفى عينيه أثر الزنى ! فقال له أنس : أوَحْيًا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لا ! ولكن برهان وفراسة وصدق . ومثله كثير عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

الثانيـــة — قال [القاضى][(2)] أبو بكر بن العربى : «إذا ثبت أن التوسم والتفرس من مدارك المعانى فإن ذلك لا يترتب عليه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرس . وقد كان قاضى القضاة الشامى المالكى ببغداد أيام كونى بالشام يحكم بالفراسة فى الأحكام ، جَرْيًا على طريق إياس

(1) فى ى : تاجرا . (2) من ى .

Marfat.com

ابن معاوية أيام كان قاضيا ، وكان شيخنا فخر الإسلام أبو بكر الشاسي صنف جزءا في الرد عليه ، كتبه لي بخطه وأعطانيه ، وذلك صحيح ؛ فإن مدارك الأحكام معلومة شرعا مدركة قطعا وليست الفراسة منها .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني قرى قوم لوط . ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي على طريق قومك يا محمد إلى الشام . ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لعبرة للمصدقين . ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ يريد قوم شعيب ، كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر مثمر . والأيكة : الغيضة ، وهي جماعة الشجر ، والجمع الأيك . ويروى أن شجرهم كان دوما وهو المقل . قال النابغة :

تجلو بقادمتي حمامة أيكة * بردا أسف لثاته بالإثمد

وقيل : الأيكة اسم القرية . وقيل : اسم البلدة . وقال أبو عبيدة : الأيكة وليكة مدينتهم ، بمنزلة بكة من مكة[1] . وتقدم خبر شعيب وقومه . ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي بطريق واضح في نفسه ، يعني مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة يعتبر بهما من يمر عليهما .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾

الحجر ينطلق على معان : منها حجر الكعبة . ومنها الحرام ؛ قال الله تعالى : « وَحِجْرًا مَّحْجُورًا[2] » أي حراما محرما . والحجر العقل ؛ قال الله تعالى : « لِّذِي حِجْرٍ[3] » والحجر حجر القميص ؛ والفتح أفصح . والحجر الفرس الأنثى . والحجر ديار ثمود ، وهو المراد هنا ،

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٥٨ . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٤٢ .

Marfat.com

أى المدينة؛ قاله الأزهرى . قتادة : وهى ما بين مكة وتَبُوكَ، وهو الوادى الذى فيه ثمود . الطبرى : هى أرض بين الحجاز والشام، وهم قوم صالح . وقال : ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ وهو صالح وحده، ولكن من كذب نبيا فقد كذب الأنبياء كلهم ؛ لأنهم على دين واحد فى الأصول فلا يجوز التفريق بينهم . وقيـل : كذبوا صالحا ومن تبعه ومن تقدّمه من النبيين أيضا . والله أعلم . روى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا نزل الحجر فى غزوة تَبُوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجنّا واستقينا . فأمرهم رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن يُهرِيقوا المـاء وأن يطرحوا ذلك العجين . وفى الصحيح عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود ، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهرِيقوا ما استقوا و يعلفوا الابل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البـئر التى تَرِدها النـاقة . وروى أيضا عن ابن عمر قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حَذَرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم " ثم زجر[1] فأسرع .

قلت : ففى هذه الآية التى بين الشارع حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل، استنبطها العلماء واختلف فى بعضها الفقهاء، فأولها — كراهة دخول تلك المواضع، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار؛ فإن دخل الإنسان شيئا من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التى أرشد إليها النبى صلى الله عليه وسلم من الاعتبار والخوف والإسراع . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا أرض بابل فإنها ملعونة " .

مسـألة : أمر النبى صلى الله عليـه وسلم بهرق ما استقوا من بئر ثمود و إلقـاء ما عجن وخبز به لأجل أنه ماء سخط، فلم يجز الانتفاع به فرارا من سخط الله . وقال "اعلفوه الإبل".

(١) أى زجر صلى الله عليه وسلم ناقته .

Marfat.com

قلت : وهكذا حكم المـاء النجس وما يعجن به . وثانيها — قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم ؛ إذ لا تكليف عليها ؛ وكذلك قال فى العسل النجس : إنه يعلفه النحل . وثالثهـا — أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلف ما عجن بهذا المـاء الإبل ، ولم يأمر بطرحه كما أمر فى لحوم الحُمُر الإنسية يوم خَيْبَر ؛ فدل على أن لحم الحُمُر أشد فى التحريم وأغلظ فى التنجيس . وقد أمر رسـول الله صلى الله عليه وسلم بكسب الحجام أن يُعلف الناضحَ والرقيق ، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تنجيس . قال الشافعىّ : ولو كان حراما لم يأمره أن يطعمه رقيقه ؛ لأنه متعبّد فيـه كما تعبّد فى نفسه . ورابعها — فى أمره صلى الله عليه وسلم بعلف الإبل العجين دليـلٌ على جواز حمـل الرجل النجاسـة إلى كلابه ليأكلوها ؛ خلافا لمن منع ذلك من أصحابنـا وقال : تطلق الكلاب عليهـا ولا يحملها إليها . وخامسها — أمره صلى الله عليه وسلم أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين ، وإن تقـادمت أعصارهم وخفيت آثارهم ؛ كما أن فى الأول دليـلا على بغض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم . هذا ، وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات ، لكن المقرون بالمحبوب محبوب ، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض ؛ كما قال كثير :

أحبّ لحبهـا السودانَ حتى * أحبّ لحبها سُـودَ الكلاب

وكما قال آخر :

أمر على الدّيار ديارِ ليـلَى * أقبّل ذا الجدارَ وذا الجدارا

وما تلك الديارُ شغفنَ قلبي * ولكن حُبُّ من سكن الديارا (٢)

وسادسها — منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط وبقعة غضب . قال ابن العربىّ : فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله صلى الله عليه وسلم : "جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا" فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة

(١) الناضح : البعير يستقى عليه . (٢) الرواية المشهورة : « وما حب الديار » . والبيتان لمجنون ليلى . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد التسعين بعد المـائتين) .

Marfat.com

فيها . وقد روى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى فى سبع مواطن : فى المزبلة والمجـزرة والمقبرة وقارعة الطريق ، وفى الحمام وفى معاطن الإبل وفوق بيت الله . وفى الباب عن أبى مَرْثَد وجابر وأنس: حديث ابن عمر إسناده ليس بذاك القوى، وقد تُكُلِّم فى زيد بن جبيرة من قِبل حفظه . وقد زاد علماؤنا : الدار المغصوبة والكنيسة والبِيعة والبيت الذى فيه تمـاثيل، والأرض المغصوبة أو موضعا تستقبل فيه نائمـا أو وجه رجل أو جدارا عليه نجاسة . قال ابن العربىّ : ومن هـذا المواضع ما منع لحق الغير، ومنه ما منع لحق الله تعالى، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لغلبتها ؛ فمـا منع لأجل النجاسة إن فرش فيـه ثوب طاهر كالحمـام والمقبرة فيها أو إليهـا فإن ذلك جائز فى المدونة . وذكر أبو مصعب عنه الكراهة . وفرق علماؤنا بين المقبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة ، وبين مقبرة المسلمين والمشركين؛ لأنها دار عذاب وبقعة سخط كالحِجر . وقال مالك فى المجموعة : لا يصلى فى أعطان الإبل وإن فرش ثوبا ؛ كأنه رأى لها علتين : الاستتار بها(١) ونفارها فتفسد على المصلى صلاته ، فإن كانت واحدة(٢) فلا بأس ؛ كما كان النبىّ صلى الله عليه وسـلم يفعل ؛ فى الحديث الصحيح . وقال مالك : لا يصلى على بساط فيه تمـاثيل إلا من ضرورة . وكره ابن القاسم الصـلاة إلى القبلة فيها تمـاثيل ، وفى الدار المغصوبة ، فإن فعل أجزأه . وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة فى الدار المغصوبة لا تجزى . قال ابن العربىّ : وذلك عندى بخلاف الأرض فإن الدار لا تدخل إلا بإذن ، والأرض وإن كانت ملكا فإن المسجدية فيها قائمة لا يبطلها الملك .

قلت : الصحيح — إن شاء الله — الذى يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة . وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن هـذا وادٍ به شيطان " وقد رواه مَعْمَر عن الزهرىّ فقال : وأخرجوا عن الموضع الذى أصابتكم فيه الغفلة . وقولِ علىّ : نهانى رسـول الله صلى الله عليه وسلم أن أصلى بأرض بَابِل فإنها ملعونة . وقولِه عليه

(١) فى الموطأ : « لأنها يستتر بها للبول والغائط ؛ فلا تكاد تسلم مباركها من النجاسة » .
(٢) أى ناقة واحدة .

Marfat.com

الســلام حين مرّ بالحِجر من ثمود : " لا تدخلوا على هــؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين " ونهيه عن الصلاة فى معاطن الإبل إلى غير ذلك ممـا فى هذا الباب ، فإنه مردود إلى الأصول المجتمع عليهـا والدلائل الصحيح مجيئها . قال الإمام الحافظ أبو عمر : المختار عندنا فى هــذا الباب أن ذلك الوادى وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلى فيها كلها ما لم تكن فيها نجاســة متيقنة تمنـع من ذلك ، ولا معـنى لاعتلال من آعتل بأن موضع النوم عن الصــلاة موضع شيطان ، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيه الصلاة ، وكل ماروى فى هذا الباب من النهى عن الصــلاة فى المقبرة وبأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك ممـا فى هذا المعنى ، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع لعموم قوله صلى الله عليــه وسلم : " جعلت لى الأرض كلها مسجدا وطهورا " ، وقوله صلى الله عليه وسلم مخبرا أن ذلك من فضائله ومما خص به ، وفضائله عنــد أهل العلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص . قال صــلى الله عليه وســلم : " أوتيت خمسـا " — وقـد روى سـتا ، وقد روى ثلاثا وأربعـا ، وهى تنتهى إلى أزيد من تسـع (١) ، قال فيهن — " لم يؤتهن أحد قبلى بعثت إلى الأحمر والأســود ونصرت بالرعب وجعلت أمتى خير الأمم وأحلت لى الغنـائم وجعلت لى الأرض مسـجدا وطهورا وأوتيت الشفاعة وبعثت بجوامع الكلم وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح الأرض فوضعت فى يدى وأعطيت الكوثر وختم بى النبيون " رواها جماعة من الصحابة . وبعضهم يذكر بعضها ، ويذكر بعضهم ما لم يذكر غيره ، وهى صحاح كلها . وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها النقصان ؛ ألا ترى أنه كان عبدا قبل أن يكون نبيا ثم كان نبيا قبل أن يكون رسولا ؛ وكذلك روى عنه . وقال : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " ثم نزلت : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » (٢) . وسمـع رجلا يقـول : يا خير البرية ؛ فقـال : " ذاك إبراهيم " وقال : " لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متا " وقال : " السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام " ثم قال بعد ذلك كله : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " . ففضائله صلى الله عليه وسلم لم تزل

(١) فى روى : سبع .		(٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦١ .

Marfat.com

تزداد إلى أن قبضه الله؛ فمن هاهنا قلنا : إنه لا يجوز عليها النسخ ولا الاستثناء ولا النقصان، وجائز فيها الزيادة . وبقوله صلى الله عليـه وسلم : "جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا" أجزنا الصـلاة فى المقبرة والحمام وفى كل موضع من الأرض إذا كان طاهرا من الأنجاس . وقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذر : "حيثما أدركتك الصلاة فصل فإن الأرض كلها مسجد" ذكره البخارى ولم يخص موضعا من موضع . وأما من احتج بحديث ابن وهب قال : أخبرنى يحيى بن أيوب عن زيد بن جبيرة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمر، حديث الترمذى الذى ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جبيرة وأنكروه عليـه، ولا يعرف هـذا الحديث مسـندا إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جبيرة . وقد كتب الليث بن سـعد إلى عبـد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث ، وكتب إليـه عبد الله بن نافع لا أعلم من حدث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل . ذكره الحلوانى عن سعيد بن أبى مريم عن الليث، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها . وقد روى عن على بن أبى طالب قال : نهانى حبيبى صلى الله عليـه وسلم أن أصلى فى المقبرة ، ونهانى أن أصلى فى أرض بابل فإنها ملعونة . وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه ، وأبو صالح الذى رواه عن على هو سعيد ابن عبـد الرحمن الغِفارى ، بصرى ليس بمشهور ولا يصح له سمـاع عن على ، ومَن دونه مجهولون لا يُعرفون . قال أبو عمر : وفى البـاب عن على من قوله غيرَ مرفوع حديثٌ حسن الإسناد، رواه الفضل بن دُكين قال : حدثنا المغيرة بن أبى الحر الكِندى قال حدثنى أبو العَنبس حُجر بن عنبس قال : خرجنا مع على إلى الحرورية ، فلمـا جاوزنا سـوريا وقع بأرض بابل ، قلنـا : يا أمـير المؤمنين أمسيتَ ، الصلاةَ الصـلاةَ ؛ فأبى أن يكلم أحدا . قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد أمسيتَ . قال بلى ، ولكن لا أصلى فى أرض خسف الله بها . والمغيرة بن أبى الحر كوفى ثقة ؛ قاله يحيى بن معين وغيره . وحُجر بن عنبس من كبار أصحاب على . وروى الترمذى عن أبى سـعيد الخدرى قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام" . قال الترمذى : رواه سفيان الثورى عن عمرو بن

Marfat.com

يحيى عن أبيـه عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم مرسلا، وكأنه أثبت وأصح . قال أبو عمـر : فسقط الاحتجاج به عنـد من لايرى المرسـل حجة ، ولو ثبت كان الوجه ماذكرناه . ولسنا نقول كما قال بعض المنتحلين لمذهب المدنيين : إن المقبرة فى هـذا الحديث وغيره أريد بهـا مقبرة المشركين خاصة ؛ فإن قال : المقبرة والحمام بالألف واللام ؛ فغير جائز أن يرد ذلك إلى مقبرة دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه ، فهو قول لا دليل عليـه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح ، ولا مدخل له فى القياس ولا فى المعقول، ولا دل عليه فحوى الخطاب ولا خرج عليه الخبر . ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين : إما أن يكون من أجل اختلاف الكفار إليهـا بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر ؛ لأن كل موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك ، وقد جلّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن يتكلم بمـا لا معنى له . أو يكون من أجل أنهـا بقعة سخط ، فلو كان كذلك ما كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم ليبنى مسجده فى مقبرة المشركين وينبشها ويسويهـا ويبنى عليها، ولو جاز لقائل أن يخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هـذا الحديث . وكل من كره الصلاة فى المقبرة لم يخص مقبرة من مقبرة ؛ لأن الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى معهود ، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لبينـه صلى الله عليه وسلم ولم يهمله ؛ لأنه بعث مبينا . ولو ساغ لجاهل أن يقول : مقبرة كذا لجاز لآخر أن يقول : حمام كذا ؛ لأن فى الحديث المقبرة والحمـام . وكذلك قوله : المزبلة والمجزرة؛ غير جائز أن يقال : مزبلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا ؛ لأن التحكم فى دين الله غير جائز .

وأجمع العلماء على أن التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيبا طاهرا نظيفا جائز . وكذلك أجمعوا على أن من صلى فى كنيسة أو بيعة على موضع طاهر ، أن صلاته ماضية جائزة . وقد تقدم هذا فى سورة «براءة»[1] . ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة سخط من المقبرة؛

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٥٥ .

Marfat.com

لأنها بقعة يعصى الله و يكفر به فيها ، وليس كذلك المقبرة . وقـد وردت السنة باتخاذ البيع والكنائس مساجد . روى النسائى عن طَـلْق بن علىّ قال : خرجنا وفدا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فبايعناه وصلينا معه ، وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا ، وذكر الحديث . وفيه : " فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم واتخذوها مسجدا " . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم . وقـد تقدّم فى « براءة » (١) . وحسبك بمسجد النبى صلى الله عليه وسلم الذى أُسّس على التقوى مبنيـا فى مقبرة المشركين ؛ وهو حجة على كل من كره الصلاة فيها . وممن كره الصلاة فى المقبرة سواء كانت لمسلمين أو مشركين الثورى وأبو حنيفـة والأوزاعىّ والشـافعىّ وأصحابهم . وعند الثورىّ لا يعيد . وعند الشافعى أجزأه إذا صلى فى المقبرة فى موضع ليس فيه نجاسة ؛ للأحاديث المعلومة فى ذلك ، ولحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلوا فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا " ، ولحديث أبى مُرثد الغنوىّ عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه قال : " لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " . وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد ، ولا حجة فيهما ؛ لأنهما محتملان للتأويل ، ولا يجب أن يمتنع من الصلاة فى كل موضع طاهر إلا بدليل لا يحتمل تأويلا . ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه من خطل القول الذى لا يشتغل بمثله ، ولا وجه له فى نظر ولا فى صحيح أثر .

وثامنها (٢) — الحائط يلقى فيه النتن والعذرة ليكرم فلا يصلى فيه حتى يسقى ثلاث مرات ، لما رواه الدارقطنى عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الحائط يلقى فيه العذرة والنتن قال : " إذا سقى ثلاث مرات فصل فيه " . وخرجه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التى تلقى فيها العذرات وهذا الزبل ، أيصلى فيها ؟ فقال : إذا سقيت ثلاث مرات فصل فيهـا . رفع ذلك إلى النبى صلى الله عليـه وسلم . اختلفا فى الإسناد ، والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٥٤ فما بعد . (٢) أراد ثامن المسائل التى استنبطها الفقهاء . والحائط الحديقة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ أى بآياتنا . كقوله : « آتِنَا غَدَاءَنَا »[(١)] أى بغدائنا . والمراد الناقة ، وكان فيها آيات جمة : خروجها من الصخرة ، ودُنُوُّ نتاجها عند خروجها ، وعِظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعا . ويحتمل أنه كان لصالح آيات أُخَر سوى الناقة ، كالبئر وغيره . ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى لم يعتبروا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

النحت فى كلام العرب : البرى والنجر . نحته ينحته (بالكسر[(٢)]) نحتا أى براه . والنحاتة البراية . والمِنحت ما ينحت به . وفى التنزيل « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ[(٣)] » أى تنجرون وتصنعون . فكانوا يتخذون من الجبال بيوتا لأنفسهم بشدة قوتهم . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من أن تسقط عليهم أو تخرب . وقيل : آمنين من الموت . وقيل : من العذاب . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أى فى وقت الصبح ، وهو نصب على الحال . وقد تقدّم ذكر الصيحة فى هود والأعراف[(٤)] . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأموال والحصون فى الجبال ، ولا ما أعطوه من القوّة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٢ .
(٢) وبالفتح وبه قرأ الحسن وذكر فى المثلثات أن التواتر هو الصحيح .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٩٦ .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٦١ وجـ ٧ ص ٢٤٢ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى للزوال والفناء. وقيـل : أى لأجازى المحسن والمسىء ؛ كما قال : « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »[1] . ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَـةٌ﴾ أى لكائنة فيجزى كل بعمله . ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ مثل «وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً»[2] أى تجاوز عنهم يا محمد، واعف عفوا حسنا؛ ثم نسخ بالسيف . قال قتادة : نسخه قوله : « فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ »[3] . وأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال لهم : " لقد جئتكم بالذبح وبعثت بالحصّاد[4] ولم أبعث بالزراعة "؛ قاله عكرمة ومجاهد . وقيـل : ليس بمنسوخ، وأنه أمر بالصفح فى حق نفسه فيما بينه و بينهم . والصفح : الإعراض ؛ عن الحسن وغيره[5] . ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ أى المقدّر للخلق والأخلاق . ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأهل الوفاق والنفاق .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

اختلف العلماء فى السبع المثانى؛ فقيل : الفاتحة ؛ قاله علىّ بن أبى طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة، من حديث أبىّ بن كعب وأبى سعيد بن المعلى . وقد تقدّم فى تفسير الفاتحة[6] . وخرّج الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى " . قال : هذا حديث حسن صحيح . وهذا نص، وقـد تقدّم فى الفاتحة . وقال الشاعر :

نشـــدتكم بمنزّل القـــرآن * أمّ الكتاب السبع من مثانى

وقال ابن عبـاس : هى السـبع الطُّوَل : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمـائدة ، والأنعـام، والأعراف ، والأنفال والتوبة معا ؛ إذ ليس بينهما التسمية . روى النسائىّ :

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٠٥ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٤٤ . (٣) راجع جـ ٥ ص ٣١٠ .
(٤) كذا فى الأصول وتفسير الطبرى . وفى كتاب الجامع الصغير : «بالجهاد» . (٥) كذا فى الأصول .
(٦) راجع جـ ١ ص ١٠٨ .

Marfat.com

حدثنا على بن حجر أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ قال : السبع الطول : وسميت مثاني لأن العبر والأحكام والحدود ثنيت فيها . وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هذه الآية بمكة ، ولم ينزل من الطول شيء إذ ذاك . وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوما : فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمدا صلى الله عليه وسلم و إن لم ينزل عليه بعد . وممن قال إنها السبع الطول : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد . وقال جرير :

جزى الله الفرزدق حين يُمْسي * مُضيعا للفصّل والمثاني

وقيل : المثاني القرآن كله؛ قال الله تعالى : « كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ »[1] . هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك ، وقاله ابن عباس . وقيل له : مثاني؛ لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقد كان نورا ساطعا يُهتدى به * يُخَصّ بتنزيل المثاني المعظّم

أي القرآن . وقيل : المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نِعَم وأنباء قرون؛ قاله زياد بن أبي مريم . والصحيح الأول لأنه نص . وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثاني ما يمنع من تسمية غيرها بذلك؛ إلا أنه إذا ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص في شيء لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده .

قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ فيه إضمار تقديره : وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام . وقد تقدّم[2] في الفاتحة . وقيل : الواو مقحمة ، التقدير : ولقد آتيناك سبعا من المثاني القرآن العظيم . ومنه قول الشاعر :

إلى الملك القَرْمِ وابنِ الهُمام * وليثِ الكتيبة في المُزْدَحَم

وقد تقدّم عند قوله : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى »[3] .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ . (٢) راجع جـ ١ ص ١١٢ . (٣) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ .

Marfat.com

قوله تعـالى : لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ المعنى: قد أغنيتك بالقرآن عما فى أيدى الناس ؛ فإنه ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ؛ أى ليس منا من رأى أنه ليس يَغْنَى بما عنده من القرآن حتى يطمح بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المَوْلَى . يقال: إنه وافى سبع قوافل من بُصْرَى وأذرِعات ليهود قُريظة والنضِير فى يوم واحد ، فيها البُرّ والطِّيب والجَوْهَر وأمتعة البحر، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله ، فأنزل الله تعالى «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى» أى فهى خير لكم من القوافل السبع ، فلا تمدن أعينكم إليها . وإلى هذا صار ابن عيينة ،وأورد قوله عليه السلام: "ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن " أى من لم يستغن به . وقد تقدّم هـذا المعنى فى أوّل الكتاب[1] . ومعنى ﴿ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ أى أمثالا فى النعم ، أى الأغنياء بعضهم أمثال بعض فى الغنى، فهم أزواج .

الثانيـــة — هذه الآية تقتضى الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام، وإقبال العبد على عبادة مولاه . ومثله « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ[2] » الآية . وليس كذلك؛ فإنه روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حبب إلىّ من دنياكم[3] النساء والطيب وجعلت قرّة عينى فى الصلاة " . وكان عليه الصلاة والسلام يتشاغل بالنساء، جِبِلّة الآدمية وتشوف الخلقة الإنسانيـة ، ويحافظ على الطِّيب ، ولا تقرّ له عين إلا فى الصلاة لدى مناجاة المولى، ويرى أن مناجاته أحرى من ذلك وأولى، ولم يكن فى دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلّية[4] كما كان فى دين عيسى ،

(١) راجع جـ ١ ص ١٢ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٦١ . (٣) كذا فى سنن النسائى ومسند الإمام أحمد . والذى فى الأصول : « حبب إلىّ من دنيا كم ثلاث... الخ» وبكلمة « ثلاث» لا يستقيم الكلام . راجع كشف الخفا جـ ١ ص ٣٣٨ ففيه بحث شيق واف . (٤) أى الانقطاع الكلى عن الدنيا فإنه من معانى الرهبانية .

Marfat.com

وإنما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة عن الحرج خفيفة على الآدمى، يأخذ من الادمية بشهواتها ويرجع إلى الله بقلب سليم . ورأى القراء والمخلصون من الفضلاء الانكفاف عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات اليوم أولى؛ لما غلب على الدنيا من الحرام، واضطر العبد فى المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعة من تحرم مصانعته، فكانت القراءة أفضل، والفرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل؛ قال صلى الله عليه وسلم : "يأتى على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف[1] الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن".

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا . وقيل : المعنى لا تحزن على ما متعوا به فى الدنيا فلك فى الآخرة أفضل منه . وقيل : لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب . ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ألن جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم . وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح، أى وقور ساكن . والجناحان من ابن آدم جانباه؛ ومنه « وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ »[2] وجناح الطائر يده . وقال الشاعر :

وحَسْبُك فِتيَةٌ لزعيم قوم * يمد على أخى سُقْم جناحا

أى تواضعا ولينا .

قوله تعالى : وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

فى الكلام حذف؛ أى إنى أنا النذير المبين عذابا، فحذف المفعول، إذ كان الإنذار يدل عليه، كما قال فى موضع آخر : « أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ »[3] . وقيل : الكاف زائدة، أى أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين؛ كقوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ »[4] . وقيل : أنذرتكم

(١) أى رءوسها .
(٢) راجع جـ ١١ ص ١٩٠ .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٦ .
(٤) راجع جـ ١٦ ص ٧ .

Marfat.com

مثل ما أنزلنا بالمقتسمين . وقيل : المعنى كما أنزلنا على المقتسمين ، أى من العذاب وكفيناك المستهزئين ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين الذين بغوا ، فإنا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى .

وآختلف فى « المقتسمين » على أقوال سبعة : الأول — قال مقاتل والفراء : هم ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فآقتسموا أعقاب[1] مكة وأنقابها وفجاجها يقولون لمن سلكها : لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة ؛ فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن . وسُمّوا المقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق ، فأماتهم الله شر ميتة ، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حكما على باب المسجد ، فإذا سألوه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : صدق أولئك . الثانى — قال قتادة : هم قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا ، وبعضه سحرا ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين . الثالث — قال ابن عباس : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وكذلك قال عكرمة : هم أهل الكتاب ، وسُمّوا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . وهو القول الرابع . الخامس — قال قتادة : قسموا كتابهم ففرقوه وبددوه وحرفوه . السادس — قال زيد بن أسلم : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين ؛ كما قال تعالى : « تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ[2] » . السابع — قال الأخفش : هم قوم اقتسموا أيمانا تحالفوا عليها . وقيل : إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبه بن الحجاج ؛ ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

هذه صفة المقتسمين . وقيل : هو مبتدأ وخبره « لَنَسْأَلَنَّهُمْ » . وواحد العضين عضة ، من عضّيت الشيء تعضية أى فرقته ؛ وكل فرقة عضة . وقال بعضهم : كانت فى الأصل

(١) الأعقاب ما بعد مكة من الطرق يفد منها الناس ، والأنقاب : منافذ الجبال ، والفجاج : الطرق الواسعة .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٢١٦ .

Marfat.com

عِضْوَة فنقصت الواو، ولذلك جمعت عضين ؛ كما قالوا : عِزِين في جميع عِزَة ، والأصل عِزْوة، وكذلك ثُبَة وثبين . ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين . قال ابن عباس : آمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقيل : فرّقوا أقاويلهم فيه فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا. عضوته أى فرقته . قال الشاعر — هو رؤبة — :

* وليس دين الله بالمُعَضَّى *

أى بالمفترق . ويقال : نقصانه الهاء وأصله عِضْهة ؛ لأن العِضَه والعِضين في لغة قريش السحر . وهم يقولون للساحر : عاضه وللساحرة عاضهة . قال الشاعر :

أعـوذ بربى من النـافثا * تِ في عُقَـد العاضـه المُعْضِه

وفي الحديث : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمُسْتَعْضِهَة، وفسر : الساحرة والمستسحِرة . والمعنى: أكثروا البُهْت على القرآن ونوّعوا الكذب فيه، فقالوا: سحر وأساطير الأولين ، وأنه مفترى ، إلى غير ذلك . ونظير عِضة في النقصان شَـفة، والأصل شَفْهة . كما قالوا : سنَة، والأصل سنْهة ، فنقصوا الهاء الأصلية وأثبتت هاء العلامة وهى للتأنيث . وقيل : هو من العَضْه وهى النميمة . والعَضِيهة البهتان، وهو أن يعضَه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيـه . يقال عَضَهه عضْها رماه بالبهتان . وقـد أعْضَهْت أى جئت بالبهتان . قال الكسائى : العِضـة الكذب والبهتان، وجمعها عِضون، مثل عِزة وعزون، قال تعـالى : «الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ» . ويقال : عضّوه أى آمنوا بمـا أحبوا منه وكفروا بالباقى، فأحبط كفرهم إيمـانهم . وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العِضاة ، وهى شجر الوادى ويخرج كالشوك .

قوله تعـالى : فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعـالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى لنسألن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا في الدنيا . وفي البخارى : وقال عِدة من أهل العلم في قوله : «فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» عن لا إله إلا الله .

Marfat.com

قلت : وهذا قد روى مرفوعا ، روى الترمذى الحكيم قال : حدثنا الجارود بن معاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نَهِيك عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » قال : " عن قول لا إله إلا الله " قال أبو عبد الله : معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفائها ؛ وذلك أن الله تعالى ذكر فى تنزيله العمل فقال « عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ولم يقل عما كانوا يقولون ، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان ، فإنما المعنىّ به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قولٌ والعملَ عملٌ . وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عن لا إله إلا الله " أى عن الوفاء بها والصدق لمقالها . كما قال الحسن البصرى : ليس الإيمان بالتحلى ولا الدين بالتمنى ولكن ما وَقَر فى القلوب وصدقته الأعمال . ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة " قيل : يارسول الله، وما إخلاصها؟ قال : " أن تحجُزه عن محارم الله " . رواه زيد بن أرقم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عهد إلىّ ألا يأتينى أحد من أمتى بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئا إلا وَجَبت له الجنة " قالوا : يا رسول الله وما الذى يخلط بلا إله إلا الله ؟ قال : " حرصا على الدنيا وجَمْعا لها ومنعا لها ، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة " . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صَفْقَة دنياهم على دينهم فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله ردّت عليهم وقال الله كذبتم " . أسانيدها فى نوادر الأصول .

قلت والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه فى كتاب (التذكرة) . فإن قيل : وهل يسأل الكافر ويحاسب؟ قلنا : فيه خلاف ، وذكرناه فى التذكرة . والذى يظهر سؤاله ؛ للآية وقوله : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ»(١) وقوله : «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ»(٢) . فإن قيل: فقد قال تعالى :

(١) راجع جـ ١٥ ص ٧٢ . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٣٨ .

Marfat.com

« وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »(١) وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ »(٢) ، وقال : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ »(٣) ، وقال : « إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ »(٤) . قلنا : القيامة مواطن ، فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه . قال عكرمة : القيامة مواطن ، يسأل فى بعضها ولا يسأل فى بعضها . وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ؛ لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم : لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه ؟ واعتمد قُطْرُب هذا القول . وقيل : « لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » يعنى المؤمنين المكلفين ؛ بيانه قوله تعالى : « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »(٥) . والقول بالعموم أولى كما ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى بالذى تؤمر به ، أى بلغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم ، فقد أمرك الله بذلك . والصدع : الشق . وتصدّع القوم أى تفرقوا ؛ ومنه « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ »(٦) أى يتفرقون . وصدعته فانصدع أى انشق . وأصل الصدع الفرق والشّق . قال أبو ذؤيب يصف الحمار وأُتُنَه :

وكأنهن رِبابة وكأنه * يَسَرٌ يفيض على القِداح ويَصْدَع(٧)

أى يفرق ويشق . فقوله : « اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » قال الفراء : أراد فاصدع بالأمر ، أى أظهر دينك ، فـ « ما » مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر . وقال ابن الأعرابى : معنى اصدع بما تؤمر ، أى اقصد . وقيل : « فاصدع بما تؤمر » أى فرّق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض ؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣١٥ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٧٣ . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٣٤ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ . (٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٧٤ . (٦) راجع جـ ١٤ ص ٢١ .
(٧) الربابة : الجلدة التى تجمع فيها السهام . واليسر : صاحب الميسر الذى يضرب بالقداح .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم، فقد برأك الله عما يقولون . وقال ابن عباس : هو منسوخ بقوله «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ»(١) .
وقال عبد الله بن عبيد : ما زال النبيّ صلى الله عليـه وسلم مستخفيا حتى نزل قوله تعـالى : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » فخـرج هو وأصحابه . وقال مجـاهد : أراد الجهر بالقرآن فى الصلاة . « وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » لا تبـال بهم . وقال ابن إسحاق : لمـا تمـادوا فى الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله تعالى ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ . والمعـنى اصدع بمـا تؤمر ولا تخف غير الله ؛ فإن الله كافيك من أذاك كما كفاك المستهزئين، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسـد أبو زَمْعَة . والأسود بن عبـد يَغُوث ، والحارث بن الطُّلاطِلَة ، أهلكهم الله جميعا ، قيل : يوم بَدْر فى يوم واحد؛ لاستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق : أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليـه وسلم وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسـول الله صلى الله عليه وسلم فمرّ به الأسـود ابن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعَمِي ووجِعت عينه، فجعل يضرب برأسه الجدار . ومرّ به الأسود بن عبـد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنُه فمـات منه حَبَنًا . (يقال : حبِن (بالكسر) حَبَنا وحُبِن للفعول عظم بطنه بالمـاء الأصفر، فهو أحْبَن، والمرأة حَبْناء؛ قاله فى الصحاح) . ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين، وهو يجرّ سَبَلَه(٢)، وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يَرِيش نَبْلًا له فتعلق سهم من نبـله بإزاره فخدش فى رجله ذلك الخدش وليس بشىء ، فانتقض به فقتله . ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فرَبَض به على شِبْرِقَة(٣) فدخلت فى أخمص قدمه شوكة فقتلته . ومرّ به الحارث بن الطُّلاطِلَة ، فأشار إلى رأسه

(١) راجع جـ ٨ ص ٧٢ . (٢) السبل (بالتحريك) : الثياب المسبلة ؛ يفعل ذلك كبرا واختيالا .
(٣) الشبرق : نبت حجازى يؤكل ، وله شوك .

Marfat.com

وامتخط قيحا فقتــله . وقد ذُكر فى سبب موتهم اختلاف قريب من هــذا . وقيل : إنهم[1] المراد بقوله تعالى : « فَخَـرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ »[2] . شبه ما أصابهم فى موتهم بالسقف الواقع عليهم ؛ على ما يأتى .

قوله تعــالى : ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

هذه صفة المستهزئين . وقيل : هو ابتداء وخبره « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » .

قوله تعــالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعــالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ أى قلبك ؛ لأن الصدر محل القلب . ﴿ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أى بمــا تسمعه من تكذيبك وردّ قولك، وتناله و يناله أصحابك من أعدائك.

قوله تعــالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أى فافزع إلى الصلاة، فهى غاية التسبيح ونهاية التقديس؛ وذلك تفسير لقوله : ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ولا خفاء أن غاية القرب فى الصلاة حال السجود ، كما قال عليه السلام : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأخلصوا[3] الدعاء" . ولذلك خص السجود بالذكر .

الثانيــة — قال ابن العربى : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه ، فرأى هــذا الموضوع محل سجود فى القرآن ، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من البيت المقدس طهّره الله، يسجد فى هذا الموضوع وسجدت معه فيها، ولم يره جماهير العلماء .

قلت : قد ذكر أبو بكر النقاش أن ها هنا سجدةً عنــد أبى حذيفة و يمَــان بن رِئاب ، ورأى أنها واجبة .

(١) المخط : السيلان والخروج .		(٢) راجع ص٩٧ من هذا الجزء .

(٣) الرواية « فأكثروا » كما فى الجامع الصغير .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

فيه مسألة واحدة — وهو أن اليقين الموت . أمره بعبادته إذ[1] قصر عباده فى خدمته، وأن ذلك يجب عليـه . فإن قيل : فـا فائدة قوله : « حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »؟ وكان قوله : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ » كافيـا فى الأمر بالعبادة ، قيـل له : الفائدة فى هذا أنه لوقال : «وَاعْبُدْ رَبَّكَ » مطلقا ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا؛ و إذا قال : « حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت . فإن قيل : كيف قال سبحانه «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ»؟ ولم يقل أبدا ؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله : أبدا ؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد . وقد تقدّم هـذا المعنى[2] . والمراد استمرار العبادة مدّة حياته ؛ كما قال العبـد الصالح : «وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا» . و يتركب على هذا أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق أبدا، وقال : نويت يوما أو شهرا كانت عليـه الرجعة . ولو قال : طلقتها حياتها لم يراجعها . والدليل على أن اليقين الموت حديث أمّ العلاء الأنصارية، وكانت من المبايعات ، وفيه : فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " أما عثمان — أعنى عثمان بن مظعون — فقد جاءه اليقين و إنى لأرجو له الخير والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به " وذكر الحـديث[3] . انفرد بإخراجه البخارى رحمـه الله ! وكان عمر بن عبـد العزيز يقول : ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدّون له ؛ يعنى كأنهم فيه شاكون . وقد قيل : إن اليقين هنا الحق الذى لا ريب فيه من نصرك على أعدائك ؛ قاله ابن شجرة ؛ والأول أصح ، وهو قول مجاهـد وقتادة والحسن . والله أعلم . وقـد روى جبير بن نُفير عن أبى مسـلم الخَوْلانى أنه سمعه يقول إن النبى صلى الله عليـه وسلم قال : "ما أوحى إلىّ أن أجمع المـال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلىّ أن سبح بحمـد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " .

(١) فى ى : وقد . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٣ . (٣) راجع صحيح البخارى جـ ٣ ص ١٥١ طبعة بولاق .

Marfat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النحل

وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمّى سورة النِّعم بسبب ماعدّد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هى مكية غير قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » الآية[1]؛ نزلت بالمدينة فى شأن التمثيل بحمزة وقتلى أُحُد . وغير قوله تعالى : « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ[1] » . وغير قوله : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا[1] » الآية . وأما قوله : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا[1] » فمكيّ فى شأن هجرة الحبشة . وقال ابن عباس : هى مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة، وهى قوله : « وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا — إلى قوله — بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[1] » .

قوله تعالى : أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)

قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ قيل : « أَتَى » بمعنى يأتى ؛ فهو كقولك : إن أكرمتنى أكرمتك . وقد تقدّم أن أخبار الله تعالى فى الماضى والمستقبل سواء؛ لأنه آتٍ لا محالة، كقوله : « وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ[2] » . و « أمر الله » عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله . قال الحسن وابن جُرَيج والضّحاك : إنه ماجاء به القرآن من فرائضه وأحكامه . وفيه بعد؛ لأنه لم يُنقل أن أحدا من الصحابة ٱستعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش

(١) راجع ص ٢٠٠ من هذا الجزء، وص ٢٠٢ ، وص ١٩٢ ، وص ١٠٦ ، وص ١٧٣ .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٩ .

Marfat.com

وغيرهم ، حتى قال النَّضر بن الحارث : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ » الآية ، فآستعجلَ العذاب .

قلت : قد يستدل الضحاك بقول عمر رضى الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر ؛ خرّجه مسلم والبخارى . وقد تقدم فى سورة البقرة (١) .
وقال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وهو كقوله : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (٢) » . وقيل : هو يوم القيامة أو ما يدلّ على قربها من أشراطها . قال ابن عباس : لما نزلت « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنشَقَّ الْقَمَرُ (٣) » قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون ، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا ، فقالوا ما نرى شيئا ! فنزلت « ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ (٤) » الآية . فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة ، فآمتدت الأيام فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت : « أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ » فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وخافوا ، فنزلت : « فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » فاطمأنوا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بأصبعيه : السبّابة والتى تليها يقول : أن كادت لتسبقنى فسبقتها .
وقال ابن عباس : كان بعث النبى صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، وأن جبريل لما مرّ بأهل السموات مبعوثا إلى محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : الله أكبر ، قد قامت الساعة .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تنزيها له عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ، وذلك أنهم يقولون : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه بالعجز الذى لا يوصف به إلا المخلوق ، وذلك شرك . وقيل : « عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن إشراكهم . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، أى ارتفع عن الذين أشركوا به .

---

(١) راجع ج ٢ ص ١١٢ . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٠ .
(٣) راجع ج ١٧ ص ١٢٥ . (٤) راجع ج ١١ ص ٢٦٦ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ (٢)

قرأ المفضّل عن عاصم « تَنَزَّلُ الملائكةُ » والأصل تتنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الكسائى عن أبى بكر عن عاصم باختلاف عنه، والأعمش « تُنَزَّلُ الملائكةُ » غير مسمى الفاعل. وقرأ الجُعْفىّ عن أبى بكر عن عاصم « نُنَزِّلُ الملائكةَ » بالنون مسمّى الفاعل، الباقون « يُنَزِّلُ » بالياء مسمى الفاعل، والضمير فيه لاسم الله عز وجل. وروى عن قتادة « نُنْزِل الملائكة » بالنون والتخفيف. وقرأ الأعمش « تَنْزِلُ » بفتح التاء وكسر الزاى، من النزول. « الملائكةُ » رفعا مثل « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ »(١). ﴿ بِالرُّوحِ ﴾ أى بالوحى وهو النبوّة؛ قاله ابن عباس. نظيره « يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ »(٢). الربيع بن أنس : بكلام الله وهو القرآن. وقيل : هو بيان الحق الذى يجب اتباعه. وقيل : أرواح الخلق؛ قاله مجاهد، لاينزل ملك إلا ومعه روح. وكذا روى عن ابن عباس أن الروح خلق من خلق الله عز وجل كصور ابن آدم، لاينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم. وقيل : بالرحمة؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل : بالهداية؛ لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان، وهو معنى قول الزجاج : قال الزجاج : الروح ماكان فيه من أمر الله حياةٌ بالإرشاد إلى أمره. وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل. والباء فى قوله : « بِالرُّوحِ » بمعنى مع، كقولك : خرج بثيابه، أى مع ثيابه. ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أى بأمره. ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى على الذين اختارهم الله للنبوّة. وهذا ردّ لقولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »(٣). ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ تحذير من عبادة الأوثان، ولذلك جاء الإنذار؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه. ودلّ على ذلك قوله : « فَاتَّقُونِ ». و « أن » فى موضع نصب بنزع الخافض، أى بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله، فـ « أن » فى محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه.

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣٣. (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٩. (٣) راجع جـ ١٦ ص ٨٢.

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣)

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى للزوال والفناء . وقيل : « بالحق » أى للدلالة على قدرته ، وأن له أن يتعبّد العباد بالطاعة وأن يحيي الخلق بعد الموت . ﴿ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى من هذه الأصنام التى لا تقدر على خلق شىء .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (٤)

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ لما ذكر الدليل على توحيده ذكر بعده الإنسان ومناكدته وتعدّى طوره . « والإنسان » اسم للجنس . وروى أن المراد به أُبَىّ بن خلف الجُمَحى ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال : أترى يحيي الله هذا بعد ما قد رَمّ . وفى هذا أيضا نزل : « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ » أى خلق الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب ، فنقله أطوارا إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاصم فى الأمور . فمعنى الكلام التعجيب من الإنسان « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ »(١) وقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ أى مخاصم ، كالنسيب بمعنى المناسب . أى يخاصم الله عز وجل فى قدرته . و﴿ مُبِينٌ ﴾ أى ظاهر الخصومة . وقيل : يُبَيِّن عن نفسه الخصومة بالباطل . والمُبِين : هو المفصح عما فى ضميره بمنطقه .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٥)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ لما ذكر الإنسان ذكر ما منّ به عليه . والأنعام : الإبل والبقر والغنم . وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل ، ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة . قال حسان :

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٥٧ ، ٥٨ .

Marfat.com

عفَت ذاتُ الأصابع فالجِواءُ * إلى عَذْراءَ منزلُها خَلاءُ (١)
دِيارٌ من بَني الحَسْحاس قَفْرٌ * تُعَفِّيها الروامِسُ والسماءُ (٢)
وكانت لا يزال بها أنيس * خِلالَ مُرُوجِها نَعَمٌ وشاءُ

فالنَّعم هنا الإبل خاصّةً . وقال الجوهري : والنَّعَم واحد الأنعام وهي المال الراعية، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل . قال الفرّاء : وهو ذكر لا يؤنث، يقولون : هذا نَعَم وارد ، ويجمع على نُعْمان مثل حَمَل وحُمْلان . والأنعام تذكر وتؤنث؛ قال الله تعالى : « مِمَّا في بُطُونِهِ » (٣) . وفي موضع «مِمَّا في بُطُونِها» (٤) . وانتصب الأنعام عطفا على الإنسان، أو بفعل مقدّر، وهو أوجه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ دِفْءٌ ﴾ الدفء : السخانة، وهو ما استدفئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ملابسُ ولُحُفٌ وقُطُف (٥) : وروى عن ابن عباس : دفؤها نسلها؛ والله أعلم . قال الجوهري في الصحاح : الدفء نِتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها؛ قال الله تعالى : « لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ » . وفي الحديث " لنا من دِفئهم ما سلّموا بالميثاق " . والدفء أيضا : السخونة ، تقول منه : دَفِئَ الرجل دفَاءة مثل كَرِه كراهة . وكذلك دَفِئَ دَفَأً مثل ظَمِئَ ظمأً . والاسم الدِّفْء (بالكسر) وهو الشيء الذي يدفئك، والجمع الأدفاء . تقول : ما عليه دفء؛ لأنه اسم . ولا تقول : ما عليك دَفاءة؛ لأنه مصدر . وتقول : اقعد في دِفء هذا الحائط أي كِنّه . ورجل دفِئ على فَعِل إذا لبس ما يدفئه . وكذلك رجل دفآن وامرأة دفأى . وقد أدفأه الثوب وتدفأ هو بالثوب واستدفأ به ، وادّفأ به وهو افتعل ؛ أي لبس ما يدفئه . ودَفُؤت ليلتنا، وهو يوم دفِيء على فعيل وليلة دفيئة ، وكذلك الثوب والبيت . والمدفئة الإبل الكثيرة؛ لأن بعضها يدفئ بعضا بأنفاسها، وقد يشدّد . والمُدْفَاة الإبل الكثيرة الأوبار والشحوم؛ عن الأصمعي . وأنشد الشماخ :

وكيف يَضِيع صاحبُ مُدْفَآتٍ * على أثْباجِهن مِن الصَّقِيعِ (٦)

(١) ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام . وعذراء : قرية بغوطة دمشق . (٢) الحسحاس : اسم رجل . والروامس : الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار . (٣) راجع ص ١٢٢ من هذا الجزء .
(٤) راجع ج ١٢ ص ١١٧ . (٥) القطف (جمع قطيفة) كساء له خمل ؛ أي وبر .
(٦) أثباج : جمع ثبج ، وهو وسطها . وقيل : ظهرها . وقيل : ما بين كاهلها وظهرها .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ قال ابن عباس : المنافع نسل كل دابّة . مجاهد : الركوب والحمل والألبان واللحوم والسمن . ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع . وقيل : المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح .

الثالثـة : دلت هذه الآية على لباس الصوف ؛ وقد لبسه رسـول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله كموسى وغيره . وفي حديث المغيرة : فغسل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين ... الحديث، خرجه مسلم وغيره . قال ابن العربي : وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين ، وهو يلبس لينا وخشنا وجيدا ومُقارِبا (١) ورديئا ، و إليه نسب جماعة من الناس الصوفية ؛ لأنه لباسهم في الغالب ، فالياء للنسب والهاء للتأنيث . وقد أنشدني بعض أشياخهم بالبيت المقدس طهره الله :

تشاجر الناسُ في الصوفيّ واختلفوا * فيه وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحَلُ هـذا الاسمَ غيرفتًى * صَافَى فصُوفِيَ حتى سُمِّيَ الصوفي

قوله تعـالى : وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

الجمال ما يتجمل به و يتزين . والجمـال : الحسن . وقد جمُـل الرجل (بالضم) جمالا فهو جميل، والمرأة جميلة، وجملاء أيضا؛ عن الكسائي . وأنشد :

فهي جمْـلاء كبدرٍ طالع * بذّت الخـلقَ جميعا بالجمـال

وقول أبي ذؤيب :

* جمالَكَ أيّها القلبُ القريح (٢) *

يريد : الزم تجمّلك وحياءك ولا تجزع جزعا قبيحا . قال علماؤنا : فالجمـال يكون في الصورة وتركيب الخِلقة ، ويكون في الأخلاق الباطنة ، و يكون في الأفعال . فأما جمال الخِلْقة فهو

(١) شيء مقارب (بكسر الراء) : وسط بين الجيد والرديء . (٢) هذا صدر البيت ، وعجزه كما في اللسان :

* ستلقى من تحب فتستريح *

Marfat.com

أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائما ، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر . وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة ، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد . وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية بجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم . وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئيّ بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها هذه نَعَم فلان ؛ قاله السدّيّ . ولأنها إذا راحت توفّر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها ؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعا ؛ قاله قتادة . ولهذا المعنى قدّم الرّواح على السراح لتكامل درّها وسرور النفس بها إذ ذاك . والله أعلم . وروى أشهب عن مالك قال : يقول الله عز وجل « وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ » وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه . والرّواح رجوعها بالعشي من المرعى ، والسراح بالغداة ؛ تقول : سرحت الإبل أسرحها سرحا وسروحا إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها ، وسرحت هي . المتعدّي واللازم واحد .

قوله تعالى : وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ الأثقال أثقال الناس من متاع وطعام وغيره ، وهو ما يثقل الإنسانَ حمله . وقيل : المراد أبدانهم ؛ يدل على ذلك قوله تعالى : « وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (١) » . والبلد مكة ، في قول عكرمة . وقيل : هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر . وشق الأنفس : مشقتها وغاية جهدها . وقراءة العامة بكسر الشين . قال الجوهري : والشق المشقة ؛ ومنه قوله تعالى : « لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ »

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٧ ، ولعل الأثقال في الزلزلة : الكنوز .

Marfat.com

وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة . قال المهدوى : وكسر الشين وفتحها فى « شِقّ » متقاربان، وهما بمعنى المشقة؛ وهو من الشق فى العصا ونحوها ؛ لأنه ينال منها كالمشقة من الإنسان . وقال الثعلبى : وقرأ أبو جعفر « إِلَّا بِشَـقِّ الأَنْفُسِ » وهمـا لغتان ، مثل رِق ورَق وجِص وجَص ورِطل ورَطل . و ينشد قول الشاعر بكسر الشين وفتحها :

وذى إبل يَسْـعَى و يحسبها له ✽ أخِى نَصَبٍ من شِـقّها ودُؤوبِ [(١)]

و يجوز أن يكون بمعنى المصدر، من شققت عليه أَشُق شَقًّا . والشق أيضا بالكسر النصف، يقال : أخذت شِق الشاة وشِقّة الشاة . وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى؛ أى لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوة وذهاب شِق منها، أى لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر . والشِّق أيضا الناحية من الجبل . وفى حديث أم زَرْع : وجدنى فى أهل غُنيمة بِشِق . قال أبو عبيـد : هو اسم موضع . والشق أيضا : الشقيق ، يقال : هو أخى وشِق نفسى . وشِقّ اسم كاهن من كهّان العرب . والشق أيضا : الجانب؛ ومنه قول آمرئ القيس :

إذا ما بَكَى مِن خَلْفها انصرفَتْ له ✽ بِشِـقّ وتحتِى شِـــقُّها لم يحوّلِ

فهو مشترك .

الثانيـــة — منّ الله سبحانه بالأنعام عموما ، وخص الإبل هنا بالذكر فى حمل الأثقال على سائر الأنعام ؛ فإن الغنم للسرح والذبح ، والبقر للحرث ، والإبل للحمل . وفى صحيح مسـلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليهـا التفتت إليه البقرة فقالت إنى لم أخلق لهـذا ولكنى إنمـا خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله تعجبا وفزعا أبقرةٌ تَكَلَّم“ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” وإنى أومن به وأبو بكر وعمر “ . فدل هذا الحديث على أن البقرة لا يحمل عليها ولا تركب، و إنمـا هى للحرث وللأكل والنسل والرِّسْل [(٢)] .

---

(١) هو النمر بن تولب، كما فى اللسان مادة شقق : وفى جوهرى : يقنى . (٢) الرسل (بالكسر) : اللبن .

Marfat.com

الثالثـــة — فى هذه الآية دليل على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها، ولكن على قدر ما تحتمله من غير إسراف فى الحمل مع الرفق فى السير . وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها . وروى مسلم من حديث أبى هريرة قال قال رســول الله صــلى الله عليه وســلم : " إذا سافرتم فى الخِصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتم فى السنة فبادروا بها نِقْيَها[1] " رواه مالك فى الموطأ عن أبى عبيــد عن خالد بن معدان . وروى معاوية بن قُرّة قال : كان لأبى الدّرداء جمل يقال له دَمُّون، فكان يقول : يادمون ، لاتخاصمنى عنــد ربك . فالدواب عُجْم لا تقدر أن تحتال لنفسها ما تحتاج إليــه ، ولا تقدر أن تفصح بحوائجها ، فمن ارتفق بمرافقها ثم ضيعها من حوائجها فقد ضيع الشكر وتعرّض للخصومة بين يدى الله تعــالى . وروى مطر بن محمد قال : حدّثنا أبو داود قال حدّثنا ابن خالد قال حدّثنا المسيّب بن آدم قال . رأيت عمــر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب جمّالا وقال : تحمل على بعيرك ما لا يطيق ؟ .

قوله تعــالى : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

فيه ثمــان مسائل :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ وَٱلْخَيْلَ ﴾ بالنصب معطوف، أى وخلق الخيــل . وقرأ ٱبن أبى عَبْــلة « والخيلُ والبِغالُ والحميرُ » بالرفع فيهــا كلها . وسميت الخيل خيلا لٱختيالها فى المِشية . وواحد الخيل خائل، كضائن واحد ضأن . وقيل : لا واحد له . وقد تقدم هذا فى « آل عمران[2] »، وذكرنا الأحاديث هناك . ولمــا أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر

(١) قوله « فى السنة » أى فى القحط وانعدام نبات الأرض فى يبسها . والنق (بكسر النون وسكون القاف) هو المخ . ومعناه : أسرعوا فى السير بالإبل لتصلوا إلى المقصــد وفيها بقية من قوتها ؛ إذ ليس فى الأرض ما يقويها على السير .　　(٢) راجع جـ ٤ ص ٣٢ .

Marfat.com

دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام . وقيل : دخلت ولكن أفردها بالذكر لمـا يتعلق بهـا من الركوب؛ فإنه يكثر فى الخيل والبغال والحمير .

الثانيـــة — قال العلماء : ملّكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذللها لنا، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها رحمـة منه تعـالى لنا، وما ملّكه الإنسانُ وجاز له تسخيره من الحيوان فكراؤه له جائز بإجماع أهل العلم، لا اختلاف بينهم فى ذلك . وحكم كراء الرواحل والدواب مذكور فى كتب الفقه .

الثالثـــة — لا خلاف بين العلماء فى اكتراء الدواب والرواحل للحمل عليها والسفر بها؛ لقوله تعالى : « وَتَحمِلُ أَثقَالَكُمْ » الآية . وأجازوا أن يُكرِى الرجلُ الدابة والراحلة إلى مدينة بعينها وإن لم يُسَمِّ أين ينزل منهـا، وكم من مَنْهل(١) ينزل فيـه، وكيف صفة سيره، وكم ينزل فى طريقه، واجتزوا بالمتعارف بين الناس فى ذلك . قال علماؤنا : والكراء يجرى مجرى البيوع فيما يحل منـه ويحرم . قال ابن القاسم : فيمن اكترى دابة إلى موضع كذا بثوب مَرَوِىّ ولم يصف رقعته وذرعه، لم يجز؛ لأن مالكا لا يجيز هـذا فى البيع، ولا يجيز فى ثمن الكراء إلا ما يجوز فى ثمن البيع .

قلت : ولا يُختلف فى هذا إن شاء الله؛ لأن ذلك إجارة . قال ابن المنذر : وأجمع كل مَن يُحفظ عنه من أهل العـلم على أن من اكترى دابة ليحمل عليهـا عشرة أقفزة قمح فحمل عليها ما اشترط فتلفت أن لا شىء عليه . وهكذا إن حمل عليها عشرة أقفزة شعيرا . واختلفوا فيمن اكترى دابة ليحمل عليهـا عشرة أقفزة فحمل عليها أحد عشر قفـيزا، فكان الشافعىّ وأبو ثَوْر يقولان : هو ضامن لقيمة الدابة وعليـه الكراء . وقال ابن أبى لَيْلَى : عليه قيمتها ولا أجر عليـه . وفيه قول ثالث — وهو أن عليـه الكراء وعليه جزء من أجر وجزء من قيمة الدابة بقدر ما زاد من الحمل؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد . وقال ابن القاسم صاحب مالك : لا ضمان عليـه فى قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يفدح الدابة، ويُعلم أن مثله

(١) المنهل : المشرب، ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السفارة على المياه مناهل .

Marfat.com

لا تعطَب فيه الدابة ، ولرَبّ الدابة أجر القفيز الزائد مع الكراء الأول ؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة . وذلك بخـلاف مجاوزة المسافة ؛ لأن مجاوزة المسافة تَعَـدٍّ كله فيضمن إذا هلكت فى قليـله وكثيره . والزيادة على الحمل المشترط اجتمع فيـه إذنٌ وتعدّ ، فإذا كانت الزيادة لا تعطب فى مثلها عُلم أن هلاكها ممـا أذن له فيه .

الرابعـــة — واختلف أهل العلم فى الرجل يكترى الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمى ، فيتعدّى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون له فى المصير إليه . فقالت طائفة : إذا جاوز ذلك المكان ضمن وليس عليه فى التعدى كراء ؛ هكذا قال الثورى . وقال أبو حنيفة : الأجر له فيما سمّى ، ولا أجر له فيما لم يسم ؛ لأنه خالف فهو ضامن ، و به قال يعقوب . وقال الشافعى : عليـه الكراء الذى سمى ، وكراء المثـل فيما جاوز ذلك ، ولو عطبت لزمه قيمتها . ونحوه قال الفقهاء السبعة ، مشيخة أهل المدينة قالوا : إذا بلغ المسافة ثم زاد فعليه كراء الزيادة إن سلمت و إن هلكت ضمن . وقال أحمد و إسحاق وأبو ثور : عليـه الكراء والضمان . قال ابن المنذر : و به نقول . وقال ابن القاسم : إذا بلغ المكترى الغاية التى اكترى إليها ثم زاد ميـلا ونحوه أو أميالا أو زيادة كثيرة فعطِبت الدابة ، فلربّهـا كراؤه الأول والخيار فى أخذه كراء الزائد بالغا ما بلغ ، أو قيمة الدابة يوم التعدّى . ابن الموّاز : وقد روى أنه ضامن ولو زاد خطوة . وقال ابن القاسم عن مالك فى زيادة الميل ونحو : وأما مايعدل الناس إليه فى المرحلة فلا يضمن . وقال ابن حبيب عن ابن المـاجشون وأصبغ : إذا كانت الزيادة يسيرة أو جاوز الأمد الذى تكاراها إليه بيسير ، ثم رجع بها سالمـة إلى موضع تكاراها إليه فماتت ، أو ماتت فى الطريق إلى الموضع الذى تكاراها إليه ، فليس له إلا كراء الزيادة ، كرَدّه لمـا تسلّف من الوديعـة . ولو زاد كثيرا مما فيه مقام الأيام الكثيرة التى يتغير فى مثلها سوقها فهو ضامن ، كما لو ماتت فى مجاوزة الأمد أو المسافة ؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يعلم أن ذلك مما لم يعن على قتلها فهلاكها بعـد ردّها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلّف من الوديعة بعد ردّه لا محالة . و إن كانت الزيادة كثيرة فتلك الزيادة قد أعانت على قتلها .

Marfat.com

الخامســة — قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى : «وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً» فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل؛ ونحوه عن أشهب . ولهذا قال أصحابنا : لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لما نص على الركوب والزينة دلّ على أن ما عداه بخلافه . وقال في الأنعام : « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » مع ما امتنّ الله منها من الدفء والمنافع ، فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها . وبهذه الآية احتج ابن عباس والحَكَم بن عُتَيبة ، قال الحكم : لحوم الخيل حرام في كتاب الله ، وقرأ هذه الآية والتي قبلها وقال : هذه للأكل وهذه للركوب . وسئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها ، وتلا هذه الآية وقال : هذه للركوب، وقرأ الآية التي قبلها « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ » ثم قال : هذه للأكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم ، واحتجوا بما خرجه أبو داود والنسائي والدّارَقُطْني وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المقدام ابن مَعْدِيكَرِب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، وكل ذي ناب من السباع أو مخلب من الطير . لفظ الدّارَقُطْني . وعند النسائي أيضا عن خالد بن الوليد أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير" . وقال الجمهور من الفقهاء والمحدّثين : هي مباحة . وروى عن أبي حنيفة . وشذّت طائفة فقالت بالتحريم؛ منهم الحَكَم كما ذكرنا، وروى عن أبي حنيفة . حكى الثلاث روايات عنه الرُّوياني في بحر المذهب على مذهب الشافعي .

قلت : الصحيح الذي يدلّ عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة؛ أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل؛ إذ لو دلّت عليه لدلّت على تحريم لحوم الحُمُر، والسورة مكية، وأيّ حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحُمُر عامَ خَيْبَر وقد ثبت في الأخبار تحليلُ الخيـل على ما يأتي . وأيضا لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها ، وهو حمـل الأثقال والأكل ، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرّحا به، وقد تُركب ويحرث بها؛ قال الله تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا

Marfat.com

مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(١) » . وقال فى الخيل : « لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً » فذكر أيضا أغلب منافعها والمقصود منها، ولم يذكر حمل الأثقال عليها، وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل . وقد بيّنه نبيّه عليه السلام الذى جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتى، ولا يلزم من كونها خلقت للركوب والزينة ألّا تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذى أنطق كلّ شىء فقالت : إنما خلقت للحرث . فيلزم مَن علّل أن الخيل لا تؤكل لأنها خلقت للركوب ألا تؤكل البقر لأنها خُلقت للحرث . وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها ، فكذلك الخيل بالسُّنّة الثابتة فيها . روى مسلم من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبَر عن لحوم الحُمُر الأهلية وأذِن فى لحوم الخيل . وقال النَّسائى عن جابر : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبَر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحُمُر . وفى رواية عن جابر قال : كنا نأكل لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : الرواية عن جابر بأنهم أكلوها فى خَيْبَر حكايةُ حال وقضيّةٌ فى عَيْن ، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورةٍ ، ولا يحتج بقضايا الأحوال . قلنا : الرواية عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيل ذلك الاحتمال، ولئن سلمناه فمعنا حديث أسماء قالت : نَحَرْنا فرسا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة فأكلناه؛ رواه مسلم . وكل تأويل من غير ترجيح فى مقابلة النص فإنما هو دعوى، لا يلتفت إليه ولا يعرج عليه . وقد روى الدَّارَقُطْنِيّ زيادة حسنة ترفع كل تأويل فى حديث أسماء، قالت أسماء : كان لنا فرس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها . فذَبْحُها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال . وبالله التوفيق . فإن قيل : حيوان من ذوات الحوافر فلا يؤكل كالحمار ؟ قلنا : هذا قياس الشبه وقد اختلف أرباب الأصول فى القول به ، ولئن سلمناه فهو منتقض بالخنزير؛ فإنه ذو ظِلْف وقد بايَنَ ذوات الأظلاف ، وعلى أن القياس إذا كان فى مقابلة النص فهو فاسد الوضع لا التفات إليه . قال الطبرىّ : وفى إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٤ .

السادسـة — وأما البغال فإنها تلحق بالحمير، إن قلنا إن الخيل لا تؤكل؛ فإنها تكون متولدة من عينين لا يؤكلان . وإن قلنا إن الخيل تؤكل ، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فغلب التحريم على ما يلزم فى الأصول . وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهـل الذكاة والآخر ليس من أهلها ، لا تكون ذكاة ولا تحـلّ به الذبيحـة . وقد مضى فى « الأنعـام »(١) الكلام فى تحريم الحُمُر فلا معنى للإعادة . وقد علّل تحريم أكل الحمار بأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوط؛ فسمّى رجسا .

السابعـة — فى الآية دليل على أن الخيـل لا زكاة فيهـا ؛ لأن الله سبحانه منّ علينا بما أباحنا منها وكرمنا به من منافعها ، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل . وقد روى مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يَسَار عن عِراك بن مالك عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ليس على المسلم فى عبده ولا فرسه صدقة" . وروى أبو داود عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس فى الخيل والرقيق زكاة إلا زكاة الفطر فى الرقيق" . وبه قال مالك والشافعيّ والأوزاعيّ والليث وأبو يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة : إن كانت إناثا كلها أو ذكورا وإناثا ، ففى كل فرس دينـار إذا كانت سائمة، وإن شاء قوّمها فأخرج عن كل مائتى درهم خمسة دراهم . واحتج بأثر عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " فى الخيـل السائمة فى كل فرس دينـار" وبقوله صلى الله عليه وسـلم : " الخيـل ثلاثة ... " الحديث . وفيـه : " ولم ينس حق الله فى رقابهـا ولا ظهورها " .
والجواب عن الأول أنه حديث لم يروه إلا غورك(٢) السعدى عن جعفر بن محمد عن أبيـه عن جابر . قال الدَّارَقُطْنِيّ ؛ تفرد به غورك عن جعفر وهو ضعيف جدا، ومن دونه ضعفاء . وأما الحديث فالحق المذكور فيه هو الخروج عليها إذا وقع النفير وتعين بها لقتال العدو إذا تعين ذلك عليـه ، ويحمل المنقطعين عليها إذا احتاجوا لذلك، وهذا واجب عليه إذا تعين ذلك ، كما يتعيّن عليه أن يطعمهم عنـد الضرورة ، فهذه حقوق الله فى رقابها . فإن قيل ؛ هذا هو

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥ فما بعد . (٢) هو غورك بن الحضرمى أبو عبد الله . (عن الدارقطنى) .

Marfat.com

الحق الذى فى ظهورها وبقى الحق الذى فى رقابها ؛ قيل : قد روى " لا ينسى حق الله فيها " ولا فرق بين قوله : " حق الله فيها " أو " فى رقابها وظهورها " فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد ؛ لأن الحق يتعلق بجملتها . وقد قال جماعة من العلماء : إن الحق هنا حُسْن ملكها وتعهّد شبعها والإحسان إليها وركوبها غير مشقوق عليها ؛ كما جاء فى الحديث " لا تتخذوا ظهورها كراسى " . وإنما خص رقابها بالذكر لأن الرقاب والأعناق تستعار كثيرا فى مواضع الحقوق اللازمة والفروض الواجبة ؛ ومنه قوله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ »(١) وكثر عندهم استعمال ذلك واستعارته حتى جعلوه فى الرِّباع والأموال ؛ ألا ترى قول كثير :

غَمْرُ الرداء إذا تبسّم ضاحكا(٢) * غَلِقَتْ لِضَحْكَتِه رِقابُ المال

وأيضا فإن الحيوان الذى تجب فيه الزكاة له نصاب من جنسه ، ولما خرجت الخيل عن ذلك علمنا سقوط الزكاة فيها . وأيضا فإيجابه الزكاة فى إناثها منفردة دون الذكور تناقض منه ، وليس فى الحديث فصل بينهما . ونقيس الإناث على الذكور فى نفى الصدقة بأنه حيوان مُقْتَنًى لنسله لا لدرّه ، ولا تجب الزكاة فى ذكوره فلم تجب فى إناثه كالبغال والحمير . وقد روى عنه أنه لا زكاة فى إناثها وإن انفردت كذكورها منفردة ؛ وهذا الذى عليه الجمهور . قال ابن عبد البر : الخبر فى صدقة الخيل عن عمر صحيح من حديث الزهرى وغيره . وقد روى من حديث مالك ، رواه عنه جُوَيرية عن الزُّهْرى أن السائب بن يزيد قال : لقد رأيت أبى يقوّم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر . وهذا حجة لأبى حنيفة وشيخه حماد بن أبى سليمان ، لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة فى الخيل غيرهما . تفرد به جويرية عن مالك وهو ثقة .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَزِينَةً ﴾ منصوب بإضمار فعل ، المعنى : وجعلها زينة . وقيل : هو مفعول من أجله . والزينة : ما يُتزيّن به ، وهذا الجمال والتزيين وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله سبحانه لعباده فيه ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الإبل عِزٌّ

(١) راجع جـ ٥ ص

(٢) الغمر : الماء الكثير . ورجل غمر الرداء ، وغمر الخلق ، أى واسع الخلق ، كثير المعروف سخىّ .

Marfat.com

لأهلها والغنم بركةٌ والخيل فى نواصيها الخير" . خرجه البرقانى وابن ماجه فى السنن . وقد تقدّم فى الأنعام . وإنما جمع النبيّ صلى الله عليه وسلم العز فى الإبل؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزو وإن نقصها الكر والفر . وجعل البركة فى الغنم لمـا فيهـا من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد؛ فإنها تلد فى العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح ولين الجانب؛ بخلاف الفدّادين[1] أهل الوبر. وقرن النبيّ صلى الله عليـه وسلم الخير بنواصى الخيل بقيـة الدهر لمـا فيهـا من الغنيمة المستفادة للكسب والمعائش، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وغلب الكفار وإعلاء كلمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الجمهور : من الخلق . وقيل : من أنواع الحشرات والهوام فى أسافل الأرض والبر والبحر ممـا لم يره البشر ولم يسمعوا به . وقيل : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » مما أعد الله فى الجنة لأهلها وفى النار لأهلها، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر . وقال قتادة والسدّى : هو خلق السوس فى الثياب والدود فى الفواكه . ابن عباس : عين تحت العرش؛ حكاه المـاوردىّ . الثعلبى : وقال ابن عباس عن يمين العرش نهر من النور مثـل السموات السبع والأرضين السـبع والبحار السبع سبعين مرة، يدخله جبريل كل سحر فيغتسل فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله وعظما إلى عظمه، ثم ينتفض فيخرج الله من كل ريشة سبعين ألف قطرة ، ويخرج من كل قطرة سبعة آلاف ملك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور، وفى الكعبة سـبعون ألفا لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . وقول خامس[2] — وهو ماروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها " أرض بيضاء، مسيرة الشمس ثلاثين يوما مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله تعالى يعصى فى الأرض " قالوا : يارسول الله، من ولد آدم؟ قال : " لا يعلمون أن الله خلق آدم " . قالوا: يارسول الله، فأين إبليس منهم؟ قال : " لا يعلمون أن الله خلق إبليس " — ثم تلا " وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " ذكره المـاوردى .

(١) الفدادون : أصحاب الإبل الكثيرة الذين يملك أحدهم المـائتين من الإبل إلى الألف . فى ى : أهل الإبل .

(٢) كذا فى الأصول . والمتبادر سادس .

Marfat.com

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكر البيهقي عن الشعبي قال : إن لله عبادا من وراء الأندلس كما بيننا وبين الأندلس ، ما يرون أن الله عصاه مخلوق ، رضراضهم(١) الدر والياقوت وجبالهم الذهب والفضة ، لا يحرثون(٢) ولا يزرعون ولا يعملون عملا ، لهم شجر على أبوابهم لها ثمر هي طعامهم وشجر لها أوراق عراض هي لباسهم ؛ ذكره في بدء الخلق من (كتاب الأسماء والصفات) . وخرج من حديث موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " .

قوله تعالى : وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ أي على الله بيان قصد السبيل ، فحذف المضاف وهو البيان . والسبيل : الإسلام ، أي على الله بيانه بالرسل والحجج والبراهين . وقصد السبيل : استقامة الطريق ؛ يقال : طريق قاصد أي يؤدي إلى المطلوب . ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أي ومن السبيل جائر ؛ أي عادل عن الحق فلا يهتدى به ؛ ومنه قول امرئ القيس :

ومن الطريقة جائر وهدًى * قَصْدُ السبيل ومنه ذو دَخَلٍ

وقال طَرَفة :

عَدَوْلِيَّةٌ أو من سَفِين ابن يَامِنٍ * يَجُور بها المَلَّاح طَوْرًا ويَهتدي

العدولية سفينة منسوبة إلى عَدَوْلَى قرية بالبحرين . والعدولي : الملاح ؛ قاله في الصحاح . وفي التنزيل « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ » وقد تقدم(٣) . وقيل : المعنى ومنهم جائر عن السبيل الحق ، أي عادل عنه فلا يهتدي إليه . وفيهم قولان ، أحدهما — أنهم أهل الأهواء المختلفة ؛ قاله ابن عباس . الثاني — ملل الكفر من اليهودية والمجوسية

(١) الرضراض : الحصى أو مادق من الحصى . (٢) في ى : يحترثون . (٣) راجع جـ ٧ ص ١٣٧

Marfat.com

والنصرانية. وفى مصحف عبد الله « ومنكم جائر » وكذا قرأ علىّ « ومنكم » بالكاف.وقيل: المعنى وعنها جائر؛ أى عن السبيل. فـ « من » بمعنى عن. وقال ابن عباس : أى من أراد الله أن يهديه سهل له طريق الإيمان، ومن أراد أن يضله ثقل عليه الإيمان وفروعه.وقيل: معنى « قَصْدُ السَّبِيلِ » مسيركم ورجوعكم. والسبيل واحدة بمعنى الجمع، ولذلك أنث الكناية فقال : « وَمِنْهَا » والسبيل مؤنثة فى لغة أهل الحجاز.

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بين أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس فى تأويل الآية، ويردّ على القدرية ومن وافقها كما تقدّم.

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)

الشراب ما يُشرب، والشجر معروف. أى ينبت من الأمطار أشجارا وعروشا ونباتا. وَ﴿ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون إبلكم؛ يقال : سامت السائمة تسوم سَوْمًا أى رعت، فهى سائمة. والسَّوَام والسائم بمعنًى، وهو المال الراعى. وجمع السائم والسائمة سوائم. وأسمتها أنا أى أخرجتها إلى الرَّعْي، فأنا مُسِيم وهى مُسامة وسائمة. قال :

* أَوْلَى لك آبنَ مُسِيمة الأجمال[(١)] *

وأصل السَّوْم الإبعاد فى المرعى. وقال الزجاج : أخذ من السُّومة وهى العلامة؛ أى أنها تؤثر فى الأرض علامات برعيها، أو لأنها تُعلَّم للإرسال فى المرعى.

قلت : والخيل المسومة تكون المرعيّة. وتكون المعلّمة. وقوله : « مُسَوِّمِينَ » قال الأخفش تكون مُعلَّمين وتكون مُرْسَلين؛ من قولك : سوّم فيها الخيل أى أرسلها، ومنه السائمة، وإنما جاء بالياء والنون لأن الخيل سُوِّمت وعليها ركبانها.

(١) هذا عجز بيت، وصدره كما فى تفسير الطبرى :

* مثل ابن بزعة أو كآخر مثله *

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾

قوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم « ننبت » بالنون على التعظيم . العامة بالياء على معنى ينبت الله لكم ؛ يقال : نبتت الأرض وأنبتت بمعنًى، ونبت البقل وأنبت بمعنى . وأنشد الفراء :

رأيتُ ذوِى الحاجاتِ حول بيوتهم * قَطِينا بها حتى إذا أنبت البقـلُ

أى نبت . وأنبته الله فهو منبوت ، على غير قياس . وأنبت الغلام نبتت عانته . ونَبَّتَ الشجرَ غرسه[1]؛ يقال : نبِّت أجلَك بين عينيك . ونَبَّتُّ الصبيَّ تنبيتا ربيته . والمنبِت موضع النبات ؛ يقال : ما أحسن نابِتة بنى فلان؛ أى ما يَنْبُت عليه أموالهم وأولادهم . ونَبَتَتْ لهم نابتة إذا نشأ لهم نشء صغار . و إن بنى فلان لنابتةُ شر . والنوابت من الأحداث الأغمار . والنبيت حىّ من اليمن[2] . واليَنْبوت شجـر[3]، كله عن الجوهرى . ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ جمع زيتونة . و يقال للشجرة نفسها : زيتونة، وللثمرة زيتونة . وقد مضى فى سورة « الأنعام[4] » حكم زكاة هذه الثمار فلا معنى للإعادة . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإنزال والإنبات . ﴿لَآيَةً﴾ أى دلالة . ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أى للسكون والأعمال؛ كما قال : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيـهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ[5] » . ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أى مذللات لمعـرفة الأوقات ونضج الثمـار والزرع والاهتداء بالنجوم فى الظلمات . وقرأ [ابن عباس و][6] ابن عامر وأهل الشام «والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ»

(١) فى جـ : بنت الشجر غرسته . (٢) أبو حى من اليمن واسمه عمرو بن مالك .
(٣) الذى فى القاموس : الينبوت شجر الخشخاش وشجر آخر عظام أو شجر الخروب .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٩٩ فابعدها . (٥) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٨ . (٦) فى جـ .

Marfat.com

بالرفع على الابتداء والخبر . الباقون بالنصب عطفا على ما قبله . وقرأ حفص عن عاصم برفع « والنُّجُومُ مسخراتٌ » خبره . وقرئ « وَالشمسَ والقمرَ والنجومَ » بالنصب [عطفا على الليل والنهار، ورفع والنجوم على الابتداء] (١) . « مسخراتٌ » بالرفع، وهو خبر ابتداء محذوف أى هى مسخرات، وهى فى قراءة من نصبها حال مؤكدة؛ كقوله : «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً» (٢) . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى عن الله ما نبههم عليه ووفقهم له .

قوله تعالى : وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ أى وسخر ما ذرأ فى الأرض لكم . « ذَرَأَ » أى خلق؛ ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذَرْءاً خلقهم، فهو ذارئ؛ ومنه الذُّرِّيَّة وهى نسْل الثقلين، إلا أن العرب تركت همزها، والجمع الذرارى . يقال : أنْمَى الله ذَرْأَك وذروَك، أى ذريتك . وأصــل الذَّرو والذَّرْءِ التفريق عن جمع . وفى الحديث (٣) " ذرء النار " أى أنهم خلقوا لهــا .

الثانيــــة ــ ماذرأه الله سبحانه منه مسخرٌ مذلّل كالدوابّ والأنعام والأشجار وغيرها، ومنه غير ذلك . والدليل عليه مارواه مالك فى الموطأ عن كعب الأحبار قال: لولا كلمات أقولهن لجعلتنى يهودُ حمارا . فقيل له : وما هن ؟ فقــال : أعوذ بوجه الله العظيم الذى ليس شىء أعظم منــه، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلهــا ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق وبَرَأَ وذَرَأَ . وفيـــه عن يحيى بن سعيد أنه قال : أُسْرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار، الحديث . وفيه : وشر ما ذَرَأَ فى الأرض . وقد ذكرناه وما فى معناه فى غير هذا الموضع .

---

(١) من جـ . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٩ . (٣) أى فى حديث عمر رضى الله وقد كتب إلى خالد : وإنى لأظنكم آل المغيرة ذرء النار .

Marfat.com

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ «مختلفا» نصب على الحال . و « ألوانُه » هيئاته ومناظره ، يعنى الدواب والشجر وغيرها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أى فى اختلاف ألوانها . ﴿ لَآيَةً ﴾ أى لعبرة . ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى يتعظون و يعلمون أن فى تسخير هذه المكونات لعلامات على وحدانية الله تعالى ، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ تسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره ، وهـذه نعمة من نعم الله علينا ، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا . وقد مضى الكلام فى البحر[(١)] وفى صيده . وسماه هنا لحمـا واللحوم عند مالك ثلاثة أجناس : فلحم ذوات الأربع جنس ، ولحم ذوات الريش جنس ، ولحم ذوات المـاء جنس . فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلا ، ويجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضـلا ، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسمك يجوز متفاضـلا . وقال أبو حنيفة : اللحوم كلها أصناف مختلفة كأصولها ؛ فلحم البقر صنف ، ولحم الغنم صنف ، ولحم الإبل صنف ، وكذلك الوحش مختلف ، وكذلك الطير ، وكذلك السمك ، وهو أحد قـولى الشافعىّ . والقول الآخر أن الكل من النَّعَم والصـيد والطير والسمك جنس واحد لا يجوز التفاضل فيـه . والقول الأوّل هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . ودليلنا هو أن الله تعالى فرّق بين أسماء الأنعام فى حياتها فقال : « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ[(٢)] »

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ وجـ ٦ ص ٣١٨ .
(٢) راجع جـ ٧ ص ١١٣ .

Marfat.com

ثم قال : « وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ » فلما أن أمّ بالجميع الى اللحم[(١)] قال : « أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ » فجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز . وقال فى موضع آخر : « وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ[(٢)] » وهذا جمع طائر الذى هو الواحد، لقوله تعالى : « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ[(٣)] » فجمع لحم الطير كله باسم واحد . وقال هنا : « لَحْمًا طَرِيًّا » فجمع أصناف السمك بذكر واحد، فكان صغاره ككباره فى الجمع بينهما . وقد روى عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المعز بلحم الكباش أشىء واحد ؟ فقال لا ؛ ولا مخالف له فصار كالإجماع، والله أعلم . ولا حجة للمخالف فى نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام إلا مثلا بمثل ؛ فإن الطعام فى الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات ولا يتناول اللحم ؛ ألا ترى أن القائل إذا قال : أكلت اليوم طعاما لم يسبق الفهم منه إلى أكل اللحم، وأيضا فإنه معارض بقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم" وهذان جنسان، وأيضا فقد اتفقنا على جواز بيع اللحم بلحم الطير[(٤)] متفاضلا لعلة أنه بيع طعام لا زكاة له بيع بلحم ليس فيه الزكاة، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلا .

الثانيـــة — وأما الجراد فالمشهور عندنا جواز بيع بعضه ببعض متفاضلا . وذكر عن سُحنون أنه يمنع من ذلك ، وإليه مال بعض المتأخرين ورآه مما يدّخر .

الثالثـــة — اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحما ؛ فقال ابن القاسم : يحنث بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة . وقال أشهب فى المجموعة . لا يحنث إلا بأكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره، مراعاة للعرف والعادة، وتقديما لها على إطلاق اللفظ اللغوى[(٥)]، وهو أحسن .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعنى به اللؤلؤ والمرجان ؛ لقوله تعالى : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ[(٢)] » . وإخراج الحلية إنما هى فيما عرف من الملح فقط . ويقال : إن فى الزُّمُرّذ بحريا . وقد خُطِّئ الهُذَلى فى قوله فى وصف الدرّة :

---

(١) فى الأصول : « فلما أن أم الجميع » . يريد : فلما أن قصد بالجميع الى اللحم .

(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٢ فما بعد وص ١٦١ فما بعد . (٣) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ فما بعد .

(٤) فى جـ و ى : اللبن . (٥) فى ى : وهذا حسن .

Marfat.com

فجـاء بها من دُرّة لَطِميّة * على وجهها ماء الفرات يَدوم[1]

فجعلها من المـاء الحلو . فالحلية حق وهي نِحلةٌ الله تعالى لآدم وولده . خلق آدم وتُوِّج وكُلِّل بإكليل الجنـة، وختم بالخاتم الذى ورثه عنه سليمان بن داود صلوات الله عليهم، وكان يقال له : خاتم العِزّ فيما روى .

الخامســة — امتنّ الله سبحانه على الرجال والنساء امتنانا عاما بمـا يخرج من البحر، فلا يحرم عليهم شيء منه، وإنمـا حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير : روى الصحيح عن عمر بن الخطـاب قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " لاتلبسوا الحرير فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة " . وسيأتى فى سورة « الحج » الكلام فيـه إن شاء الله[2] . وروى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ذهب، وجعل فصه ممـا يلى باطن كفه، ونقش فيه محمد رسول الله؛ فاتخذ الناس مثله، فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال : " لا ألبسه أبدا " ثم اتخـذ خاتمـا من فضة فاتخـذ الناس خواتيم الفضة . قال ابن عمر: فلبس الخاتم بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، حتى وقع من عثمان فى بئر أَرِيس[3] . قال أبو داود : لم يختلف الناس على عثمان حتى سقط الخاتم من يده . وأجمع العلماء على جواز التختم بالورِق على الجملة للرجال . قال الخطابى : وكره للنساء التختم بالفضـة؛ لأنه من زِيّ الرجال، فإن لم يجدْنَ ذهبا فليصفّرنه بزعفران أو بشبهه . وجمهور العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجال خاتم الذهب؛ إلا ما روى عن أبى بكر بن عبـد الرحمن وخَبّاب، وهو خلاف شاذّ، وكل منهما لم يبلغهما النهى والنسخ . والله أعلم . وأما مارواه أنس بن مالك أنه رأى فى يد رسـول الله صلى الله عليـه وسلم خاتمـا من ورِق يوما واحدا، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتم من ورِق ولبسوها، فطرح رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمه فطرح الناس خواتيمهم — أخرجه الصحيحان واللفظ للبخارى — فهو عند العلماء

(١) اللطمية : الجمال التى تحمل العطر . وقيل : اللطيمة العنبرة التى لطمت بالمسك ففتقت به حتى نشبت رائحتها، وهى اللطيمة .　(٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٨ .　(٣) حديقة بالقرب من مسجد قباء .

Marfat.com

وهم من ابن شهاب؛ لأن الذى نبذ رسـول الله صلى الله عليه وسلم إنمـا هو خاتم الذهب . رواه عبد العزيز بن صهيب وثابت وقتادة عن أ س، وهو خلاف ماروى ابن شهاب عن أنس فوجب القضاء بالجماعة على الواحد إذا خالفها، مع ما يشهد للجماعة من حديث ابن عمر .

السادســـة — إذا ثبت جواز التختم للرجال بخاتم الفضة والتحلى به، فقد كره ابن سيرين وغيره من العلماء نقشه وأن يكون فيه ذكر الله . وأجاز نقشه جماعة من العلماء . ثم إذا نقش عليـه اسم الله أو كلمة حكمة أو كلمات من القـرآن وجعله فى شمـاله ، فهل يدخل به الخلاء ويستنجى بشماله؟ خففه سـعيد بن المسيب ومالك . قيل لمـالك : إن كان فى الخـاتم ذكر الله ويلبسه فى الشمال أيستنجى به؟ قال : أرجو أن يكون خفيفا . وروى عنه الكراهة وهو الأولى . وعلى المنع من ذلك أكثر أصحابه . وقد روى همام عن ابن جريج عن الزهرى عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء وضع خاتمه . قال أبو داود : هذا حديث منكر، و إنمـا يعرف عن ابن جريج عن زيادة بن سعد عن الزهرى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ورق ثم ألقاه . قال أبو داود : لم يحدّث بهذا إلا همام .

السابعـــة — روى البخارى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من فضة ونقش فيه « محمد رسول الله » وقال : "إنى اتخذت خاتما من ورق ونقشت فيه محمد رسول الله فلا ينقشنّ أحد على نقشه". قال علماؤنا : فهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه . قال مالك : ومن شأن الخلفاء والقضاة نقش أسمائهم على خواتيمهم، ونهيه عليه السلام : ألا ينقشنّ أحد على نقش خاتمه، من أجل أن ذلك اسمه وصفته برسالة الله له إلى خلقه . وروى أهل الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغير ذى سلطان . ورووا فى ذلك حديثا عن أبى ريحانة، وهو حديث لا حجة فيه لضعفه . وقوله عليه السلام : "لا ينقشنّ أحد على نقشه" يرده ، ويدل على جواز اتخـاذ الخاتم لجميع النـاس، إذا لم ينقش على نقش خاتمه . وكان نقش خاتم الزهرى « محمد يسأل الله العافيـة » . وكان نقش خاتم مالك « حسبى الله ونعم الوكيل » . وذكر الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) أن نقش خاتم موسى عليه السلام

Marfat.com

« لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » وقد مضى فى الرعد(١) . وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتمـا بألف درهم فكتب إليه : إنه بلغنى أنك اشتريت خاتما بألف درهم ، فبعه وأطعم منه ألف جائع ، واشتر خاتما من حديد بدرهم، واكتب عليه « رحم الله آمرءا عرف قدر نفسه » .

الثامنــــة — من حلف ألا يلبس حليـا فلبس لؤلؤا لم يحنث؛ وبه قال أبو حنيفة . قال ابن خويزمنداد : لأن هذا وإن كان الاسم اللغوى يتناوله فلم يقصده باليمين، والأيمان تُخَصّ بالعرف؛ ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنث؟ وكذلك لا يستضئ بسراج فجلس فى الشمس لا يحنث ، وإن كان الله تعالى قد سمى الأرض فراشـا والشمس سراجا . وقال الشافعى وأبو يوسف ومحمد : من حلف ألا يلبس حليا ولبس اللؤلؤ فإنه يحنث؛ لقوله تعالى : « وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » والذى يخرج منـه : اللؤلؤ والمرجان .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ قد تقدم ذكر الفلك وركوب البحر فى « البقرة »(٢) وغيرها . وقوله : « مَوَاخِرَ » قال ابن عباس : جَوارِىَ، من جرت تجرى . سعيد بن جبير : معترضة . الحسن : مواقر . قتادة والضحاك : أى تذهب وتجىء، مقبلة ومدبرة بريح واحدة . وقيـل : « مَوَاخِرَ » ملججة فى داخل البحر ؛ وأصل المَخْر شق المـاء عن يمين وشمال . مَخَرت السفينة تَمْخَر وتَمْخُر مَخْرا ومُخُورا إذا جرت تشق المـاء مع صوت؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ » يعنى جَوارِى . قاله الجوهرى، ومَخَر السابحُ إذا شق المـاء بصدره، ومَخَر الأرض شقها للزراعة، ومَخَرها بالمـاء إذا حبس المـاء فيها حتى تصير أرِيضَة ؛ أى خليقةً بجودة نبات الزرع . وقال الطبرى : المخر فى اللغة صوت هبوب الريح ؛ ولم يقيّد كونه فى ماء، وقال : إن من ذلك قول واصـل مولى أبى عُيَيْنة : إذا أراد أحدكم البول فليتمخر الريح؛ أى لينظر فى صوتها فى الأجسام من أين تهُب ، فيتجنب استقبالها لئـلا ترد عليـه بوله . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْـلِهِ ﴾ أى ولتركبوه للتجارة وطلب الربح . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تقدم جميع هذا فى « البقرة » والحمد لله .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٩ .　　(٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ وجـ ٢ ص ١٩٤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ ﴾ أى جبالا ثابتة . رسا يرسو إذا ثبت وأقام . قال :

فصبرتُ عارِفةً لذلك حُرَّةً * ترسو إذا نفسُ الجبان تَطَلَّعُ (١)

﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أى لئلا تميد ؛ عنـد الكوفيين . وكراهية أن تميد ؛ على قول البصريين . والمَيْـد : الاضطراب يمينا وشمالا ؛ ماد الشيء يَميد مَيْـدا إذا تحـرك ؛ ومادت الأغصان تمايلت ، وماد الرجل تبختر . قال وهب بن منبه : خلق الله الأرض فجعلت تميـد وتمور ، فقـالت الملائكة : إن هــذه غير مقرّة أحدا على ظهـرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ، ولم تدر الملائكة مِمّ خلقت الجبال . وقال عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه : لمـا خلق الله الأرض قَمَصَت ومالت وقالت : أى رب! أتجعل عليّ من يعمل بالمعاصى والخطايا ، ويلقى على الجيف والنتن ! فأرسى الله تعالى فيهـا من الجبال ما ترون وما لا ترون . وروى الترمذى فى آخر (كتاب التفسير) : حدثنا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوام بن حَوْشَب عن سليمان بن أبى سليمان عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لمـا خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فعاد بهـا عليها فاستقرت فعجب الملائكة من شدّة الجبال فقالوا : يا رب فهل مِن خلقك شيء أشدّ من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشدّ من الحديد قال نعم النار فقالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشـدّ من النار قال نعم المـاء قالوا يارب فهـل من خلقك شيء أشـدّ من المـاء قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشـدّ من الريح قال نعم ابنُ آدم تصـدّق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله" . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه .

---

(١) البيت لعنترة العبسى . يقول : حبست نفسا عارفة ، أى صابرة . وقبله :

وعلمت أن منيتى إن تأتنى * لا ينجى منهـا الفـرار الأسرع

Marfat.com

قلت : وفى هذه الآية أدل دليل على استعمال الأسباب، وقد كان قادرا على سكونها دون الجبال . وقد تقدّم هذا المعنى . ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى وجعل فيها أنهارا، أو ألق فيهـا أنهارا . ﴿ وَسُبُلًا ﴾ أى طرقا ومسالك . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى إلى حيث تقصدون من البـلاد فلا تضلون ولا تتحيرون .

قوله تعـالى : وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ قال ابن عباس : العلامات معالم الطرق بالنهار ؛ أى جعل للطرق علامات يقع الاهتداء بها . ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يعنى بالليل ، والنجم يراد به النجوم . وقرأ ابن وثاب « وبِالنُّجْم » . الحسن : بضم النون والجيم جميعا ومراده النجوم ، فقصره ؛ كما قال الشاعر :

إنّ الفقـير بيننا قاضٍ حَكَمْ * أن تَرِد المـاءَ إذا غاب النُّجُم

وكذلك القول لمن قرأ « النُّجْم » إلا أنه سكّن استخفافا . ويجوز أن يكون النُّجُم جمـع نَجْم كسَقْف وسُقُف . واختلف فى النجوم ؛ فقال الفرّاء : الجَدْىُ والفرْقَدان . وقيل : الثريا . قال الشاعر :

حتى إذا ما استقَلّ النّجْمُ فى غَلَس * وغُودِر البقـلُ مَلْوِىٌّ ومحصـودُ (١)

أى منـه ملوِىّ ومنه محصود ، وذلك عنـد طلوع الثريا يكون . وقال الكلبى : العلامات الجبال . وقال مجاهد : هى النجومُ ؛ لأن من النجوم ما يهتدى بهـا ، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها ؛ وقاله قتادة والنخعىّ . وقيل : تم الكلام عند قوله : « وَعَلَامَاتٍ » ثم ابتدأ وقال : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » . وعلى الأوّل : أى وجعل لكم علامات ونجوما تهتدون بها . ومن العلامات الرياح يهتدى بهـا . وفى المراد بالاهتداء قولان : أحدهما — فى الأسفار،

(١) البيت لذى الرمة . ومعنى « استقل » طلع فى آخر الليـل . وفى ديوانه : « أحصد » بدل « غودر » . وأحصد : حان حصاده .

Marfat.com

وهـذا قول الجمهور . الثانى — فى القبلة . وقال ابن عباس : سألت رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » قال : " هو الجَدْىُ يا ابن عباس، عليه قبلتكم وبه تهتدون فى بركم وبحركم " ذكره الماوردى .

الثانيـــة — قال ابن العـربى : أما جميع النجوم فلا يهتدى بهـا إلا العارف بمطالعها ومغاربها، والفرق بين الجنوبى والشمالى منها، وذلك قليل فى الآخرين . وأما الثُّرَيّا فلا يهتدى بها الا من يهتدى بجميع النجوم . وإنما الهدى لكل أحد بالجَدْى والفرقدين؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السَّمْت الثابتة فى المكان، فإنهـا تدور على القطب الثابت دورانا محصّلا، فهى أبدا هَـدْىُ الخلق فى البر إذا عميت الطرق ، وفى البحر عنـد مجرى السفن ، وفى القبلة إذا جُهِل السَّمت ، وذلك على الجمـلة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر فـا استقبلت فهو سَمْت الجهة .

قلت : وسأل ابن عباس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجم فقال : " هو الجدى عليـه قبلتكم وبه تهتـدون فى بركم وبحركم " . وذلك أن آخر الجَـدْى بنات نَعْش الصغرى والقطب الذى تستوى عليه القبلة بينها .

الثالثـــة — قال علمـاؤنا : وحكم استقبال القبلة على وجهين : أحدهما — أن يراها ويعاينها فيلزمه استقبالهـا وإصابتها وقصـد جهتها بجميع بدنه . والآخر — أن تكون الكعبة بحيث لا يراها فيلزمه التوجّه نحوها وتلقاءها بالدلائل، وهى الشمس والقمر والنجوم والرياح وكل ما يمكن به معرفة جهتها ، ومن غابت عنـه وصلّى مجتهدا إلى غير ناحيتها وهو ممن يمكنه الاجتهاد فلا صلاة له ؛ فإذا صلى مجتهدا مستدِلّا ثم انكشف له بعـد الفراغ من صلاته أنه صلّى إلى غير القبـلة أعاد إن كان فى وقتها، وليس ذلك بواجب عليه؛ لأنه قد أدّى فرضـه على ما أمِر به . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(1) مستوفى والحمد لله :

(1) راجع جـ ٢ ص ١٦٠

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ﴾ هو الله تعـالى . ﴿ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ يريد الأصـنام . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أخبر عن الأوثان التى لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ، كما يخبر عمن يعمل على ما تستعمله العـرب فى ذلك ؛ فإنهـم كانوا يعبدونهـا فذكرت بلفظ « من » كقوله : « أَلَهُمْ أَرْجُلٌ »[1] . وقيل : لاقتران الضمير فى الذكر بالخالق . قال الفراء : هو كقول العرب : اشتبه على الراكب وجمله فلا أدرى من ذا ومن ذا ؛ و إن كان أحدهما غير إنسان . قال المهدوى : ويسأل بـ«من» عن البارئ تعالى ولا يسأل عنه بـ«ما» ؛ لأن «ما» إنما يسأل بها عن الأجناس ، والله تعالى ليس بذى جنس ، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى »[2] ولم يجب حين قال له : « وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ »[3] إلا بجواب « من » وأضرب عن جواب « ما » حين كان السؤال فاسـدا . ومعنى الآية : من كان قادرا على خلق الأشـياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحق ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع ؛ « هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ »[4] « أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ »[5] .

قوله تعـالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ تقدم فى إبراهيم[6] . ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُـونَ ﴾ أى ما تبطنونه وما تظهرونه . وقد تقدم جميع هذا مستوفى .

قوله تعـالى : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٢ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٠٣ . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٩٨ .
(٤) راجع جـ ١٤ ص ٥٨ وص ٣٥٥ . (٥) راجع جـ ١٦ ص ١٧٩ . (٦) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ قراءة العامة « تَدْعُونَ » بالتاء لأن ماقبله خطاب . روى أبو بكر عن عاصم وهبيرةُ عن حفص « يَدْعُونَ » بالياء، وهى قراءة يعقوب . فأما قوله : « مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » فكلهم بالتاء على الخطاب؛ إلا ما روى هبيرةُ عن حفص عن عاصم أنه قرأ بالياء . ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ أى لا يقدرون على خلق شيء ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾. ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أى هم أموات ، يعنى الأصنام ، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر، أى هى جمادات فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ وقرأ السلمى «إِيَّان» بكسر الهمزة، وهما لغتان، موضعه نصب بـ«يبعثون» وهى فى معنى الاستفهام . والمعنى : لا يدرون متى يبعثون . وعبّر عنها كما عبّر عن الآدميين؛ لأنهم زعموا أنها تعقل عنهم وتعلم وتشفع لهم عند الله تعالى، فجرى خطابهم على ذلك . وقد قيل : إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة ولها أرواح فتتبرأ من عبادتهم، وهى فى الدنيا جماد لا تعلم متى تبعث . قال ابن عباس؛ تبعث الأصنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينها فيتبرءون من عبدتها، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار . وقيـل : إن الأصنام تطرح فى النار مع عبدتها يوم القيامة ؛ دليله « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »(١) . وقيل: تم الكلام عند قوله : « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ » ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات ، وهـذا الموت موت كفر . « وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى وما يدرى الكفار متى يبعثون، أى وقت البعث ؛ لأنهـم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدوا للقاء الله . وقيل : أى وما يدريهم متى الساعة، ولعلها تكون قريبا .

قوله تعـالى : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لمـا بيّن استحالة الإشراك بالله تعالى بيّن أن المعبود واحد لا رب غيره ولا معبود سواه . ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ ﴾ أى لا تقبل الوعظ ولا ينجع فيهـا الذكر ، وهذا ردّ على القـدرية . ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى متكبرون متعظمون عن قبول الحق . وقد تقدم فى « البقرة »(1) معنى الاستكبار . ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى من القـول والعمل فيجازيهم . قال الخليل : « لَا جَرَمَ » كلمة تحقيق ولا تكون إلا جوابا ؛ يقال : فعلوا ذلك ؛ فيقال : لا جرم سيندمون . أى حقا أن لهم النـار . وقد مضى القول فى هـذا فى « هود »(2) مستوفى . ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ أى لا يثيبهم ولا يثنى عليهـم . وعن الحسين بن على أنه مر بمساكين قد قدّموا كسرا بينهم(3) وهم يأكلون فقالوا: الغداء يا أبا عبد الله ، فنزل وجلس معهم وقال : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ فلمـا فرغ قال : قد أجبتكم فأجيبونى ؛ فقاموا معـه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم وانصرفوا . قال العلماء : وكل ذنب يمكن التستّر منـه و إخفاؤه إلا الكبر ؛ فإنه فسق يلزمه الإعلان ، وهو أصل العصيان كله . وفى الحديث الصحيح " إن المتكبرين يحشرون أمثال الذرّ يوم القيامة يطؤهم النـاس بأقدامهم لتكبرهم " . أو كما قال صـلى الله عليـه وسلم : " تَصْغُر لهم أجسامُهم فى المحشر حتى يضرهم صِغَرُها وتعظم لهم فى النار حتى يضرهم عِظَمُها ".

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ يعنى وإذا قيل لمن تقدم ذكره ممن لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكرة بالبعث « مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ » . قيل: القائل النضر بن الحارث، وأن الآية نزلت فيـه ، وكان خرج إلى الحيرة فاشترى أحاديث (كليلة ودمنـة) فكان يقرأ على قريش و يقول : ما يقـرأ محمد على أصحـابه إلا أساطير الأولين ؛ أى ليس هو من تنزيل

(1) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ .　　(2) راجع جـ ٩ ص ٢٠ .　　(3) فى جـ و ى : لهم .

Marfat.com

ربنـا . وقيل : إن المؤمنين هم القائلون لهم اختبارا فأجابوا بقـولهم : « أَسَاطِيرُ الأوّلِينَ » فأقـرّوا بإنكار[1] شيء هو أساطير الأولين . والأساطير : الأباطيل والتُّرهات . وقد تقـدّم في الأنعام[2] . والقول في « مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ » كالقول في « مَاذَا يُنْفِقُونَ[3] » وقوله : ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ خبر ابتداء محذوف ، التقدير : الذي أنزله أساطير الأولين .

قوله تعـالى : لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ قيـل : هي لام كي ، وهي متعلقة بمـا قبلها . وقيـل : لام العاقبة ؛ كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا[4] » . أي قولهم في القرآن والنبيّ أدّاهم إلى أن حمـلوا أوزارهم؛ أي ذنوبهم . ﴿كَامِلَةً﴾ لم يتركوا منهـا شيئا لنكبة أصابتهم في الدنيـا بكفرهم . وقيل : هي لام الأمر ، والمعنى التهدّد . ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال مجاهد : يحملون وِزْرَ من أضلّوه ولا يُنْقَص من إثم المضل شيء . وفي الخبر "أيمـا داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء وأيمـا داعٍ دعا إلى هدى فاتّبِـع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء" خرّجه مسـلم بمعناه . و « مِن » للجنس لا للتبعيض ؛ فدعاة الضلالة عليهم مثـل أوزار من اتبعهم . وقـوله : ﴿بِغَـيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يضلون الخلق جهـلا منهم بمـا يلزمهم من الآثام ؛ إذ لو علموا لمـا أضلوا . ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس الوزر الذي يحمـلونه . ونظير هـذه الآية « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ[4] » وقد تقدّم في آخر « الأنعام[5] » بيان قـوله : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

---

(١) في جوى : بإزال .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠٥ .
(٣) راجع جـ ٣ ص ٣٦ .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٥٢ ، ص ٣٣٠ .
(٥) راجع جـ ٧ ص ١٥٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدّمين فكانت العاقبة الجميلة للرسل . ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما : إنه النُّمْرُوذ بن كَنْعَان وقومه ، أرادوا صعود السماء وقتال أهله ؛ فَبَنَوا الصرح لِيصعَدوا منه بعد أن صنع بالنسور ما صنع ، فخرّ . كما تقدّم بيانه فى آخر سـورة « إبراهيم »[(١)] . ومعنى « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ » أى أتى أمره البنيان، إما زلزلة أو ريحا فخرّبته . قال ابن عباس ووهب : كان طول الصَّرْح فى السماء خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف . وقال كعب ومقاتل . كان طوله فرسخين، فهبت ريح فألقت رأسه فى البحر وخرّ عليهم الباقى . ولمـا سقط الصرحُ تبلبلت ألْسُن النـاس من الفزع يومئـذ ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا ، فلذلك سمى بابل ، وما كان لسان قبل ذلك إلا السُّرْيانية . وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة »[(٢)] . وقرأ ابن هُرْمُز وابن مُحَيْصِن « السُّقُف » بضم السين والقاف جميعا . وضم مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفا ؛ كما تقدّم فى « وبِالنُّجُم » فى الوجهين . والأشبه أن يكون جمع سقف . والقواعد : أصول البناء، و إذا اختلت القواعد سقط البناء . وقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن الأعرابى : وكّد ليعلمك أنهم كانوا حالِّين تحته . والعرب تقول : خرّ علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه و إن لم يكن وقع عليه . فجاء بقوله : « مِنْ فَوْقِهِمْ » ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب، فقال : « مِنْ فَوْقِهِمْ » أى عليهم وقع وكانوا تحتـه فهلكوا وما أفلتـوا . وقيل : إن المراد بالسقف السماء؛ أى إن العذاب أتاهم من السماء التى هى فوقهم؛ قاله ابن عباس . وقيل : إن قوله : « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ

(١) راجع ج ٩ ص ٣٨١ .　　(٢) راجع ج ١ ص ٢٨٣ .

Marfat.com

«القَوَاعِدِ» تمثيل ، والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليـه بنيانه . وقيل : المعنى أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه . وقيل : المعنى أبطل مكرهم وتدبيرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه . وعلى هـذا اختُلف فى الذين خرّ عليهم السقف ؛ فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدّم . وقيل : إنه بُخْتَنَصّر وأصحابه ؛ قاله بعض المفسرين . وقيل : المراد المقتسمون الذين ذكرهم الله فى سورة الحِجْر[1] ؛ قاله الكلبيّ . وعلى هذا التأويل يخرج وجه التمثيل، والله أعلم . ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى من حيث ظنوا أنهم فى أمان . وقال ابن عباس : يعنى البعوضة التى أهلك الله بها نمروذا[2] .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم . ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ أى بزعمكم وفى دعواكم ، أى الآلهة التى عبدتم دونى ، وهو سؤال توبيخ . ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أى تعـادون أنبيائى بسببهم ، فليدفعوا عنكم هـذا العـذاب . وقرأ ابن كثير «شُرَكَايَ» بيـاء مفتوحة من غير همز ، والباقون بالهمز . نافع «تُشَاقُّونِ» بكسر النون على الإضافة ، أى تعادوننى فيهم . وفتحها الباقون . ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال ابن عباس : أى الملائكة . وقيـل : المؤمنون . ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أى الهوان والذل يوم القيامة . ﴿وَالسُّوءَ﴾ أى العذاب . ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(١) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء . (٢) وجح بعض اللغويين بالذال المعجمة وجوّز بعضهم الوجهين .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ هذا من صفة الكافرين . و « ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » نصب على الحال؛ أى وهم ظالمون أنفسهم إذ أوردوها موارد الهلاك . ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ أى الاستسلام . أى أقروا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت وقالوا: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ أى من شرك . فقالت لهم الملائكة : ﴿ بَلَى ﴾ قد كنتم تعملون الأسواء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال عكرمة : نزلت هذه الآية بالمدينة فى قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا ، فأخرجتهم قريش إلى بدر كرها فقتلوا بها؛ فقال : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ بقبض أرواحهم . ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فى مقامهم بمكة وتركهم الهجرة . ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ يعنى فى خروجهم معهم . وفيه ثلاثة أوجه : أحدها — أنه الصلح؛ قاله الأخفش . الثانى — الاستسلام؛ قاله قطرب . الثالث — الخضوع؛ قاله مقاتل . ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ يعنى من كفر . ﴿ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى أن أعمالكم[(١)] أعمال الكفار . وقيل : إن بعض المسلمين لما رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى المشركين؛ فنزلت فيهم . وعلى القول الأول فلا يخرج كافر ولا منافق من الدنيا حتى ينقاد ويستسلم ، ويخضع ويذل ، ولا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان؛ كما قال : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا[(٢)] » وقد تقدم هذا المعنى . وتقدم فى « الأنفال[(٣)] » إن الكفار يتوفون بالضرب والهوان ، وكذلك فى « الأنعام[(٤)] » . وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة .

قوله تعـالى : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ذلك عند الموت . وقيل : هو بشارة لهم بعذاب القبر؛ إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين . وقيل : لا تصل أهل الدركة الثانية إليها مثلا إلا بدخول الدركة الأولى ثم الثانية والثالثة هكذا . وقيل : لكل دركة

(١) كذا فى ج و ى . وفى ا و و : أعمالهم .
(٢) راجع ج ١٥ ص ٣٣٥ .
(٣) راجع ج ٨ ص ٢٨ .
(٤) راجع ج ٧ ص ١٤٤ وما بعدها .

Marfat.com

باب مفـرد، فالبعض يدخلون من باب والبعض يدخلون من باب آخر . فالله أعلم .
﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى ماكثين فيها . ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ﴾ أى مقام ﴿ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الذين تكبروا عن الإيمـان وعن عبادة الله تعـالى ، وقد بيّنهم بقوله الحـق : « إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيـلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ »(١) .

قوله تعـالى : وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ أى قالوا : أنزل خيرا؛ وتمّ الكلام . و « مَاذَا » على هذا اسم واحد . وكان يَرِدُ الرجل من العرب مكة فى أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عليه السلام فيقولون : ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون . ويسأل المؤمنين فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى، والمراد القرآن . وقيل : إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة . قال الثعلبى : فإن قيل : لِمَ ارتفع الجواب فى قوله : « أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » وانتصب فى قوله : « خَـيْرًا » ؟ فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنهم قالوا : الذى يقوله محمد هو أساطير الأولين . والمؤمنون آمنـوا بالنزول فقالوا : أنزل خيرا . وهذا مفهوم معناه من الإعراب ، والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ قيل : هو من كلام الله عز وجل . وقيل : هو من جملة كلام الذين اتقوا . والحسنة هنا : الجنة ؛ أى من أطاع الله فله الجنة غدا . وقيل : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا » اليوم حسنة فى الدنيا من النصر والفتح والغنيمة : ﴿ وَلَدَارُ

(١) راجع جـ ١٥ ص ٧٥ .

Marfat.com

الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ أى ما ينالون فى الآخرة من ثواب الجنـة خير وأعظم من دار الدنيـا ؛ لفنائها وبقاء الآخرة . ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ فيه وجهان — قال الحسن : المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة . وقيل : المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة؛ وهذا قول الجمهور. وعلى هذا تكون ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بدلا من الدار فلذلك ارتفع . وقيل : ارتفع على تقدير هى جنات، فهى مبيِّنة لقوله : « دَارُ الْمُتَّقِينَ »، أو تكون مرفوعة بالابتـداء، التقدير : جنات عدن نعم دار المتقـين . ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ فى موضع الصـفة، أى مدخولة . وقيل : « جَنَّاتُ » رفع بالابتداء، وخبره « يَدْخُلُونَهَا » وعليه يخرج قول الحسن والله أعلم . ﴿ تَجْـرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تقـدم معناه فى البقـرة[1] . ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ أى مما تمنوه وأرادوه . ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى مثل هذا الجزاء يجزى الله المتقين . ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ قرأ الأعمش وحمزة « يَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ » فى الموضعين بالياء، واختاره أبو عبيد ؛ لما روى عن ابن مسعود أنه قال : إن قريشا زعموا أن الملائكة إناث فذكِّروهم أنتم . الباقون بالتـاء ؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة . و﴿ طَيِّبِينَ ﴾ فيه ستة أقوال : الأول — « طَيِّبِينَ » طاهرين من الشرك . الثانى — صالحين . الثالث — زاكية أفعالهم وأقوالهم . الرابع — طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى . الخامس — طيبـة نفوسهم بالرجوع إلى الله . السـادس — « طيبين » أن تكون وفاتهم طيبـة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ؛ بخـلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط . والله أعلم . ﴿ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة . الثانى — أن يكون تبشيرا لهم بالجنـة ؛ لأن السلام أمان . وذكر ابن المبارك قال : حدثنى حيوة قال أخبرنى أبو صخر[2] عن محمد بن كعب القُرَظِىّ قال : إذا استنقعت[3] نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك ولىّ الله ، الله يقرأ عليك السلام . ثم نزع بهـذه الآية « الَّذِينَ

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ . (٢) فى الطبرى : أبو صخر أنه سمع . (٣) استنقع الماء : اجتمع وثبت . أى إذا اجتمعت نفس المؤمن فى فيه تريد الخروج ، كما يستنقع الماء فى قراره ؛ وأراد بالنفس الروح .

Marfat.com

تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » . وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام. وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده لتقر عينه . وقد أتينا على هذا فى (كتاب التذكرة) وذكرنا هناك الأخبار الواردة فى هذا المعنى، والحمد لله . وقوله : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون معناه ابشروا بدخول الجنة . الثانى — أن يقولوا ذلك لهم فى الآخرة . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى فى الدنيا من الصالحات .

قوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ هذا راجع إلى الكفار، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم . وقرأ الأعمش وابن وثّاب وحمزة والكسائى وخلف « يأتيهم الملائكة » بالياء . والباقون بالتاء على ما تقدّم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أى بالعذاب من القتل كيوم بَدْر ، أو الزلزلة والخسف فى الدنيا . وقيل : المراد يوم القيامة . والقوم لم ينتظروا هذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها ، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب ، فأضيف ذلك إليهم ، أى عاقبتهم العذاب . ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى أصروا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا . ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى بتعذيبهم وإهلاكهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك .

قوله تعالى : فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ قيل : فيه تقديم وتأخير، التقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم ودار . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب استهزائهم .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا ، و « مِن » صـلة . قال الزجاج : قالوه استهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين . وقد مضى هذا فى سورة «الأنعام» مبينا معنًى وإعرابا فلا معنى للإعادة (١) . ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَـلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من كان قبلهم بالرسل فأهلكوا . ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى ليس عليهم إلا التبليغ، وأما الهداية فهى إلى الله تعالى .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُـولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى بأن اعبـدوا الله ووحده . ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أى اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ أى أرشده إلى دينه وعبادته .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٢٨ .

Marfat.com

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ أى بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره، وهذا يرد على القدرية ، لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلهم ووفقهم للهدى ، والله تعالى يقول : « فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » وقد تقدم هذا فى غير موضع . ﴿ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى فسيروا معتبرين فى الأرض . ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك .

قوله تعالى : إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ ﴾ أى إن تطلب يا محمد بجهدك هداهم . ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ ﴾ أى لا يرشد من أضله ، أى من سبق له من الله الضلالة لم يهده . وهذه قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة . فـ « يَهْدِى » فعل مستقبل وماضيه هدى . و « مَنْ » فى موضع نصب بـ « يَهْدِى » ويجوز أن يكون هدى يهدى بمعنى اهتدى يهتدى ؛ رواه أبو عبيد عن الفراء قال : كما قرئ « أَمَّنْ لَا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدَى »[1] بمعنى يهتدى . قال أبو عبيد . ولا نعلم أحدا روى هذا غير الفراء ، وليس بمتهم فيما يحكيه . النحاس . حكى لى عن محمد ابن يزيد كأن معنى « لا يَهْدِى مَنْ يُضِلّ » من علم ذلك منه وسبق ذلك له عنده ، قال : ولا يكون يهدى بمعنى يهتدى إلا أن يكون يُهْدَى أو يَهِدِّى . وعلى قول الفراء « يَهْدِى » بمعنى يهتدى ، فيكون « مَن » فى موضع رفع ، والعائد إلى « مَن » الهاء المحذوفة من الصلة ، والعائد إلى اسم « إن » الضمير المستكن فى « يُضِلّ » . وقرأ الباقون « لا يُهْدَى » بضم الياء وفتح الدال ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، على معنى من أضله الله لم يهده هادٍ ؛ دليله قوله : « مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ » و « مَن » فى موضع رفع على أنه اسم مالم يُسَمَّ فاعله ، وهى بمعنى الذى ، والعائد عليها من صلتها محذوف ، والعائد على اسم إن من « فإنّ اللهَ » الضمير المستكن فى « يُضِلّ » . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ تقدم معناه .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٤٢ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ هـذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله وبالغـوا فى تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت . ووجه التعجيب أنهـم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجّزونه عن بعث الأموات . وقال أبو العالية : كان لرجل من المسـلمين على مشرك دين فتقاضاه، وكان فى بعض كلامه : والذى أرجوه بعـد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت؛ فنزلت الآية . وقال قتادة : ذكر لنـا أن ابن عباس قال له رجل : يابن عباس، إن ناسا يزعمون أن علياً مبعوث بعد الموت قبل الساعة، و يتأولون هذه الآية . فقال ابن عباس : كذب أولئك! إنما هذه الآية عامة للناس، لو كان علىّ مبعوثا قبل القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه . ﴿ بَلَىٰ ﴾ هـذا ردّ عليهم؛ أى بلى ليبعثنهم[(1)] . ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ مصدر مؤكد؛ لأن قوله : «يبعثهم» يدل على الوعد، أى وعد البعث وعدا حقا . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مبعوثون . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم " قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبـه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد". وقد تقدّم[(2)]، و يأتى .

قوله تعـالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ أى ليظهر لهم . ﴿ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أى من أمر البعث . ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالبعث وأقسموا عليـه ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ وقيـل : المعنى

---

(١) أى يبعثهم المقدر . (٢) راجع جـ ٢ ص ٥٨ .

Marfat.com

ولقـد بعثنا فى كل أمة رسـولا ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، والذى اختلف فيـه المشركون والمسلمون أمور : منها البعث ، ومنها عبادة الأصنام ، ومنها إقرار قوم بأن محمدا حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد ؛ كأبى طالب .

قوله تعـالى : إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

أعلمهم سهولة الخلق عليه ، أى إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب فى إحيـائهم ، ولا فى غير ذلك ممـا نحدثه ؛ لأنا إنمـا نقول له كن فيكون . قراءة ابن عامر والكسائى « فَيَكُونَ » نصبا عطفا على أن نقول . وقال الزجاج : يجـوز أن يكون نصبـا على جواب « كن » . الباقون بالرفع على معنى فهو يكون . وقد مضى القول فيه فى «البقرة» مستوفى (١) . وقال ابن الأنبارى : أوقع لفظ الشىء على المعلوم عند الله قبل الخلق لأنه بمنزلة ما وجد وشوهد . وفى الآية دليل على أن القرآن غير مخـلوق ؛ لأنه لو كان قوله : « كن » مخلوقا لاحتاج إلى قول ثان ، والثانى إلى ثالث وتسلسل وكان محالا . وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجميع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها ؛ والدليـل على ذلك أن من يرى فى سلطانه ما يكرهه ولا يريده فلأحد شيئين : إما لكونه جاهلا لا يدرى ، وإما لكونه مغلوبا لا يطيق ، ولا يجوز ذلك فى وصفه سبحانه ، وقد قام الدليل على أنه خالق لاكتساب العباد ، ويستحيل أن يكون فاعلا لشئ وهو غير مريد له ؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا ، فلو لم يكن الحق سبحانه مريدا لها لكانت تلك الأفعال تحصل من غير قصد ؛ وهذا قول الطبيعيين ، وقد أجمع الموحِّدون على خلافه وفساده .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٩٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قد تقدّم في « النساء » معنى الهجرة[(١)]، وهي ترك الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله ، وترك السيئات . وقيل: «في» بمعنى اللام، أي لله . «مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا» أي عذبوا في الله . نزلت في صهيب وبلال وخبّاب وعمّار ، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا ، فلما خلوهم هاجروا إلى المدينة؛ قاله الكلبي . وقيل : نزلت في أبي جَنْدل بن سهيل . وقال قتادة : المراد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ؛ ثم بوّأهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . والآية تعم الجميع . ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ في الحسنة ستة أقوال : الأول — نزول المدينة؛ قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة . الثاني — الرزق الحسن؛ قاله مجاهد. الثالث — النصر على عدوّهم ؛ قاله الضحاك . الرابع — إنه لسان صدق؛ حكاه ابن جريج . الخامس — ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات . السادس — ما بقي لهم في الدنيا من الثناء، وما صار فيها لأولادهم من الشرف . وكلّ ذلك اجتمع لهم بفضل الله، والحمد لله . ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي ولأجر دار الآخرة أكبر، أي أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده؛ «وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا»[(٢)] . ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك . قيل: هو راجع إلى المؤمنين . أي لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا . وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال : هذا ما وعدكم الله في الدنيا وما ادّخر لكم في الآخرة أكثر؛ ثم تلا عليهم هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٤٢﴾

قيل : ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من «الذين» الأول . وقيل : من الضمير في «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ» وقيل : هم الذين صبروا على دينهم . ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كل أمورهم . وقال بعض أهل التحقيق : خيار الخلق من إذا نابه أمر صبر، وإذا عجز عن أمر توكل ؛ قال الله تعالى : «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤٧ وما بعدها . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٤٢ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ قراءة العامة «يُوحَى» بالياء وفتح الحاء . وقرأ حفص عن عاصم « نوحى إليهم » بنون العظمة وكسر الحاء . نزلت فى مشركى مكة حيث أنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فهلّا بعث إلينا ملكا؛ فردّ الله تعالى عليهم بقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ» إلى الأمم الماضية يا محمد « إِلَّا رِجَالًا » آدميين . ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ قال سفيان : يعنى مؤمنى أهل الكتاب . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا . وقيل: المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر . رُوِىَ معناه عن ابن عباس ومجاهد . وقال ابن عباس : أهل الذكر أهل القرآن . وقيل : أهل العلم، والمعنى متقارب . ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ قيل : « بالبينات » متعلق بـ « أرسلنا » . وفى الكلام تقديم وتأخير ، أى ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا — أى غير رجال، فـ« إِلَّا » بمعنى غير؛ كقوله : لا إله إلا الله، وهذا قول الكلبي — نوحى إليهم. وقيل: فى الكلام حذف دل عليه « أرسلنا » أى أرسلناهم بالبينات والزبر . ولا يتعلق «بِالبيّنات» بـ «أرسلنا» الأوّل على هذا القول؛ لأن ما قبل «إلا» لا يعمل فيما بعدها، و إنما يتعلق بأرسلنا المقدّرة ، أى أرسلناهم بالبينات . وقيل : مفعول بـ « تعلمون » والباء زائدة ، أو نصب بإضمار أعنى؛ كما قال الأعشى :

وليس مُجيرًا إن أتى الحىَّ خائف * ولا قائلا إلا هو المتعيَّبا

Marfat.com

أى أعنى المتعيّب . والبينات : الحجج والبراهين . والزُّبُر : الكُتُب . وقد تقدّم فى آل عمران[1] .
﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فى هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك . فالرسول صلى الله عليه وسلم مُبيِّن عن الله عز وجل مراده مما أجمله فى كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يفصّله . وقد تقدم هذا المعنى مستوفًى فى مقدّمة الكتاب ، والحمد لله . ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيتعظون .

قوله تعالى : أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى بالسيئات ، وهذا وعيد للشركين الذين احتالوا فى إبطال الإسلام . ﴿ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ قال ابن عباس : كما خسف بقارون، يقال : خَسَفَ المكانُ يخسِف خسوفا ذهب فى الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفا أى غاب به فيها؛ ومنه قوله : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ »[2] . وخَسَفَ هو فى الأرض وخُسِف به . والاستفهام بمعنى الإنكار ؛ أى يجب ألا يأمنوا عقوبة تلحقهم كما لحقت المكذبين . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ كما فعل بقوم لوط وغيرهم . وقيل : يريد يوم بَدْر ؛ فإنهم أهلكوا ذلك اليوم ، ولم يكن شىء منه فى حسابهم . ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أى فى أسفارهم وتصرفهم ؛ قاله قتادة . ﴿ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى سابقين الله ولا فائتيه . وقيل : « فِي تَقَلُّبِهِمْ » على فراشهم أينما كانوا . وقال الضحاك : بالليل والنهار. ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أى على تنقّص من أموالهم

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٦ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣١٧ .

Marfat.com

ومواشيهم وزروعهم . وكذا قال ابن الأعرابى : أى على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلهم . وقال الضحاك : هو من الخوف؛ المعنى : يأخذ طائفة ويدع طائفة ، فتخاف الباقية أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها . وقال الحسن : « عَلَىٰ تَخَوُّفٍ » أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى ، وهذا هو معنى القول الذى قبله بعينه ، وهما راجعان إلى المعنى الأول ، وأن التخوف التنقص ، تخوّفه تنقصه ، وتخوّفه الدهر وتخوّنه (بالفاء والنون) بمعنًى ؛ يقال : تخوّننى فلان حق إذا تنقصك . قال ذوالرمة :

لا ، بل هو الشَّوْقُ مِن دارٍ تخوّنها * مَرًّا سحابٌ ومرًّا بارِحٌ تَرِبُ (١)

وقال لبيد :

* تخوّنها نزولى وارتحالى * (٢)

أى تنقص لحمها وشحمها . وقال الهيثم بن عدى : التخوّف (بالفاء) التنقص ، لغة لأزدِ شنوءة . وأنشد :

تخوّف غَدْرهم مالى وأهدى * سلاسلَ فى الحلوق لها صليل

وقال سعيد بن المسيب : بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال : يأيها الناس ، ما تقولون فى قول الله عز وجل : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ » فسكت الناس ، فقال شيخ من بنى هُذَيْل : هى لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوّف التنقص . فخرج رجل فقال : يا فلان، ما فعل دَيْنُك ؟ قال : تخوّفته ، أى تنقّصته ؛ فرجع فأخبر عمر فقال عمر : أتعرف العرب ذلك فى أشعارهم ؟ قال نعم؛ قال شاعرنا أبو كَبِير الهُذَلِى (٣) يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمكه واكتنازه :

تخوّف الرَّحْلُ منها تامِكًا قَرِدًا * كما تخوّف عُودَ النَّبْعَة السَّفَنُ (٤)

---

(١) البارح : الريح الحارة فى الصيف التى فيها تراب كثير. (٢) هذا عجز البيت ، وصدره كما فى اللسان :

* عُذافرة تُقَمِّص بالرُّداف *

(٣) كذا فى جميع الأصول ، والذى فى اللسان أنه لابن مقبل وقيل : لذى الرمة .

(٤) القرد : معناه هنا : المتراكم بعضه فوق بعض من السمن . والنبعة : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسى .

Marfat.com

فقال عمر : يأيها الناس، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم . تمك السنام يتمك تمكا، أى طال وارتفع، فهو تامك . والسَّفَنُ والمسفن ما يُنجر به الخشب . وقال الليث بن سعد : «عَلَى تَخَوُّفٍ» على عجل . وقيل : على تقريع بما قدّموه من ذنوبهم، وهذا مروى عن ابن عباس أيضا . وقال قتادة : «على تخوف» أن يعاقب أو يتجاوز . ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى لا يعاجل بل يمهل .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾

قرأ حمزة والكسائى وخلف ويحيى والأعمش ﴿ تَرَوْا ﴾ بالتاء، على أن الخطاب لجميع الناس . الباقون بالياء خبرا عن الذين يمكرون السيئات؛ وهو الاختيار . ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يعنى من جسم قائم له ظل من شجرة أو جبل؛ قاله ابن عباس . وإن كانت الأشياء كلها سميعة مطيعة لله تعالى . ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتاء لتأنيث الظلال . الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد . أى يميل من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال ويتقلص ثم يعود فى آخر النهار على حالة أخرى؛ فدورانها وميلانها من موضع إلى موضع سجودها؛ ومنه قيل للظل بالعشى : فىْء؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق، أى رجع . والفىء الرجوع؛ ومنه «حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ»[1] . روى معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما، وقد مضى هذا المعنى فى سورة «الرعد»[2] . وقال الزجاج : يعنى سجود الجسم، وسجوده انقياده وما يرى فيه من أثر الصنعة، وهذا عام فى كل جسم . ومعنى ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى خاضعون صاغرون . والدخور : الصغار والذل . يقال : دَخَر الرجل (بالفتح) فهو داخر، وأدخره الله . وقال ذو الرمة :

فلم يبق إلا داخر فى مُخَيَّس * ومُنْجَحِرٌ[3] فى غير أرضك فى جُحْرِ

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٣١٥ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠٢ . (٣) كذا فى كتب اللغة . يقال : انجحر الضب إذا دخل الجحر . والذى فى الأصول وديوان ذى الرمة : «منجحر فى غير أرضك فى جحر» بتقديم الحاء على الجيم فى الكلمتين، وكذا فى جـ .

Marfat.com

كذا نسبه الماوردي لذى الرمة، ونسبه الجوهري للفرزدق وقال : المُخَيِّس اسم سجن كان بالعراق ، أى موضع التذلل . وقال[1] :

أما ترانى كَيِّسًا مُكَيَّسا * بَنَيْتُ بعدَ نافع مُخَيِّسا

ووحد اليمين فى قوله : «عَنِ ٱلْيَمِينِ» وجمع الشمائل؛ لأن معنى اليمين و إن كان واحدا الجمعُ . ولو قال[2] : عن الأيمان والشمائل، واليمين والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال لجاز؛ لأن المعنى للكثرة . وأيضا فمن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان فى شيء واحد أن تجمع إحداهما وتفرد الأخرى؛ كقوله تعالى : «خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ»[3] وكقوله : «وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ»[4] ولو قال على أسماعهم و إلى الأنوار لجاز . ويجوز أن يكون ردّ اليمين على لفظ «ما» والشمال على معناها . ومثل هذا فى الكلام كثير. قال الشاعر[5]:

الواردون وتَيم فى ذُرَا سَبَإ * قد عَضَّ أعناقَهم جِلْدُ الجواميس

ولم يقل جلود . وقيل : وحد اليمين لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين ثم فى حال يميل إلى جهة الشمال ثم حالات[6] ، فسماها شمائل .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أى من كل ما يدب على الأرض. ﴿وَالمَلَائِكَةُ﴾ يعنى الملائكة الذين فى الأرض، و إنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم

(١) القائل هو سيدنا على رضى الله عنه . ونافع : سجن بالكوفة كان غير مستوثق البناء، وكان من قصب ، وكان المحبوسون يهربون منه . وقيل : إنه نقب وأفلت منه المحبسون ؛ فهدمه على رضى الله عنه و بنى المخيس لهم من مدر .

(٢) أى قائل فى غير القرآن . (٣) راجع جـ ١ ص ١٨٩ . (٤) راجع جـ ٦ ص ١١٧ .

(٥) البيت لجرير . ورواية ديوانه : تدعوك تيم وتيم فى قرى سبأ * ... ... الخ

(٦) هكذا وردت هذه الجملة فى الأصول . ولعل صوابها : لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين فى حال ، ثم يميل إلى جهة الشمال فى حالات ؛ فسماها شمائل . والذى فى البحر لأبى حيان : «وقيل : وحد اليمين و جمع الشمائل لأن الابتداء عن اليمين ، ثم ينقبض شيئا فشيئا حالا بعد حال ؛ فهو بمعنى الجمع ، فصدق على كل حال لفظة الشمال فتعدد بتعدد الحالات» .

Marfat.com

بشرف المنزلة ، فـيزهم من صفة الدبيب بالذكر وإن دخلوا فيها ؛ كقوله : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (١) » . وقيـل : لخروجهم من جملة مايدبّ لمـا جعل الله لهم من الأجنحة ، فلم يدخلوا فى الجمـلة فلذلك ذكروا . وقيل : أراد « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ » من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب ، « وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ » وتسجد ملائكة الأرض . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادة ربهم . وهـذا ردّ على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله . ومعـنى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أى عقاب ربهـم وعذابه ؛ لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء. وقيل : المعنى يخافون قدرة ربهم التى هى فوق قدرتهم ؛ ففى الكلام حذف . وقيل : معـنى « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ » يعنى الملائكة ، يخـافون ربهم وهى من فوق مافى الأرض من دابّة ومع ذلك يخافون ؛ فلأن يخافَ مَن دونهم أولى ؛ دليل هذا القول قوله تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يعنى الملائكة .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ قيل : المعنى لا تتخذوا آثنين إلهين . وقيل : جاء قوله : « آثنين » توكيـدا . ولمـا كان الإله الحق لا يتعدّد وأن كل من يتعدّد فليس بإله ، اقتُصر على ذكر الاثنين ؛ لأنه قُصد نفى التعديد . ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ يعنى ذاته المقدّسة . وقد قام الدليل العقلى والشرعى على وحدانيته حسبما تقدم فى « البقرة » (٢) بيانه وذكرناه فى آسمـه الواحد فى شرح الأسماء ، والحمـد لله . ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أى خافون . وقد تقدّم فى « البقرة (٣) » .

قوله تعـالى : وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٨٥ .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٠ وما بعدها .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٣٢ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ الدين : الطاعة والإخلاص . و « وَاصِبًا » معناه دائما ؛ قاله الفراء ، حكاه الجوهري . وصَبَ الشيءُ يصِب وُصوبا ، أي دام . ووصَب الرجلُ على الأمر إذا واظب عليه . والمعنى : طاعة الله واجبة أبدا . وممن قال واصبا دائما : الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك . ومنه قوله تعالى : « وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ »[1] أي دائم . وقال الدُّؤَلي :

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه * بذم يكون الدهرَ أجمع واصبًا

أنشد الغزنوي والثعلبي وغيرهما :

ما أبتغي الحمد القليلَ بقاؤه * يوما بذَمِّ الدهر أجمع واصبا

وقيل : الوصب التعب والإعياء؛ أي تجب طاعة الله وإن تعب العبد فيها . ومنه قول الشاعر[2] :

لا يُمسك السَّاقَ من أيْنٍ ولا وَصَبٍ * ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِهِ الصفر

وقال ابن عباس : « واصبا » واجبا . الفراء والكلبي : خالصا . ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ أي لا ينبغي أن تتقوا غير الله . فـ « غير » نصب بـ « تتقون » .

قوله تعالى : وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ قال الفراء . « ما » بمعنى الجزاء . والباء في « بكم » متعلقة بفعل مضمر، تقديره : وما يكن بكم . « مِنْ نِعْمَةٍ » أي صحة جسم وسعة رزق وولد « فَمِنَ اللَّهِ » . وقيل : المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هي : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾

(١) راجع جـ ١٥ ص ٦٤ . (٢) الشعر لأعشى باهلة . والشطر الأول من بيت ، والثاني من بيت آخر . والبيتان :

لا يتأرى لما في القدر يرقبه * ولا يعض على شرسوفه الصفر

لا يغمز الساق من أين ولا نصب * ولا يزال أمام القوم يقتفر

تأرى بالمكان : أقام به . والشرسوف : غضروف — كل عظم رخص يؤكل — معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف . والصفر (بالتحريك) : داء في البطن يصفر منه الوجه . وقيل : الصفر هنا الجوع . واقتفر الأثر : تتبعه .

Marfat.com

أى السقم والبلاء والقحط . ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ أى تضجون بالدعاء . يقال : جأر يجأر جؤارا . والجُؤار مثل الخُوار؛ يقال: جار الثور يجأر، أى صاح . وقرأ بعضهم «عِجلا جسدا له جؤار» (١)؛ حكاه الأخفش . وجأر الرجل إلى الله ، أى تضرع بالدعاء . وقال الأعشى يصف بقرة (٢) :

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة * وكان النكير أن تضيف (٣) وتجأرا

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ ﴾ أى البلاء والسقم . ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ بعد إزالة البلاء و بعد الجؤار . فمعنى الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك ، وهذا المعنى مكرر فى القرآن، وقد تقدم فى « الأنعام (١) و يونس (٤) » ، و يأتى فى « سبحان » وغيرها . وقال الزجاج: هذا خاص بمن كفر. ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ أى ليجحدوا نعمة الله التى أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء . أى أشركوا ليجحدوا، فاللام لام كى . وقيل : لام العاقبة . وقيل : « لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أى ليجعلوا النعمة سببا للكفر، وكل هذا فعل خبيث ؛ كما قال :

* والكفر مخبثة لنفس المنعم (٥) *

﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ أمر تهديد . وقرأ عبد الله «قل تمتعوا» . ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أى عاقبة أمركم .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ ذكر نوعا آخر من جهالتهم، وأنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضر و ينفع — وهى الأصنام — شيئا من أموالهم يتقربون به إليه؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فـ « يعلمون » على هذا للمشركين . وقيل : هى

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٤ وص ٨ و ٣٢٥ جـ ١١ . (٢) كذا فى الأصول . والذى فى اللسان مادة « ضيف » وكتاب سيبويه جـ ٢ ص ١٧٤ أنه للنابغة الجعدى . (٣) فى الأصول : « تعايف » بالطاء . والتصويب عن اللسان وكتاب سيبويه . وتضيف : تشفق وتحذر والنكير : الإنكار . والجؤار : الصياح . والمعنى : أن هـذه البقرة فقدت ولدها فطافت تطلبه ثلاث ليال وأيامها ، ولا إنكار عندها ولا انتصار مما عدا على ولدها إلا أن تشفق وتحذر وتصيح . (٤) راجع جـ ٨ ص ٣١٧ . (٥) هذا عجز بيت من معلقة عنترة ، وصدره :

* نبئت عمرا غير شاكر نعمتى *

Marfat.com

للأوثان ، وجرى بالواو والنون مجرى من يعقل ، فهو رد على « ما » ومفعول يعلم محذوف ، والتقدير : ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئا نصيبا . وقد مضى في «الأنعام» تفسير هذا المعنى في قوله : « فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا »(١) ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال : ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ وهذا سؤال توبيخ . ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ أي تختلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ نزلت في خزاعة وكنانة ؛ فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزه نفسه وعظمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد . ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي يجعلون لأنفسهم البنين ويأنفون من البنات. وموضع « ما » رفع بالابتداء، والخبر « لهم » وتم الكلام عند قوله : « سبحانه » . وأجاز الفراء كونها نصبا، على تقدير : ويجعلون لهم مايشتهون . وأنكره الزجاج وقال : العرب تستعمل في مثل هذا ويجعلون لأنفسهم .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ﴾ أي أخبر أحدهم بولادة بنت . ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أي متغيرا ، وليس يريد السواد الذي هو ضد البياض ، وإنما هو كناية عن غمه بالبنت . والعرب تقول لكل من لقي مكروها : قد اسود وجهه غما وحزنا ؛ قاله الزجاج . وحكى الماوردي : أن المراد سواد اللون قال : وهو قول الجمهور . ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي ممتلئ من الغم . وقال ابن عباس : حزين . وقال الأخفش : هو الذي يكظم غيظه فلا يظهره . وقيل : إنه المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من الغم ؛ مأخوذ من الكظامة وهو شد فم القربة ؛ قاله علي بن عيسى . وقد تقدم هذا المعنى في سورة « يوسف »(٢) .

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٩ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٤٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ أى يختفى ويتغيب . ﴿ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ أى من سوء الحزن والعار والحياء الذى يلحقه بسبب البنت . ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ ﴾ ذكّر الكناية لأنه مردود على « ما » . ﴿ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ أى هوان . وكذا قرأ عيسى الثقفىّ « على هوان » والهون الهوان بلغة قريش ؛ قاله اليزيدى ، وحكاه أبوعبيد عن الكسائىّ . وقال الفراء : هو القليل بلغة تميم . وقال الكسائىّ : هو البلاء والمشقة . وقالت الخنساء :

نُهِينُ النفوسَ وهُونُ النفو ٭ س يوم الكريهة أبقَى لها

وقرأ الأعمش « أيمسكه على سُوءٍ » ذكره النحاس ، قال : وقرأ الجَحْدَرىّ « أم يدُسُّها فى التراب » يردّه على قوله : « بِالأنثى » ويلزمه أن يقرأ « أيمسكها »(١) . وقيل : يرجع الهوان إلى البنت ؛ أى أيمسكها وهى مهانة عنده . وقيل : يرجع إلى المولود له ؛ أيمسكه على رغم أنفه أم يدسه فى التراب ، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية . قال قتادة : كان مُضَر وخُزاعة يدفنون البنات أحياء ؛ وأشدهم فى هـذا تميم . زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهنّ . وكان صَعْصَعَة بن ناجية عم الفرزدق إذا أحس بشىء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يستحييها بذلك . فقال الفرزدق يفتخر :

وعمى(٢) الذى منع الوائداتْ ٭ وأحيا الوَئيـد فلم يُوأَدِ

وقيـل : دَسُّها إخفاؤها عن الناس حتى لاتعرف ، كالمدسوس فى التراب لإخفـائه عن الأبصار ؛ وهذا محتمل .

مســـئلة — ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى امرأة ومعها ابنتان لها ، فسألتنى فلم تجد عندى غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت فخرجت وابنتاها ، فدخل علىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم فحدّثته(٣)

(١) قال محققه : فى الشواذ أن الجحدرى يقرأ كذلك . كأن المصنف لم يقف عليها .
(٢) الرواية : وجدّى ، وأن صعصعة بن ناجية جد الفرزدق كما فى الاستيعاب . (٣) فى جـ : فخبرته .

Marfat.com

حديثها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "من ابتلى من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار". ففى هذا الحديث ما يدل على أن البنات بلية، ثم أخبر أن فى الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقى من النار. وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما؛ فأعجبنى شأنها، فذكرت الذى صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار". وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو" وضم أصابعه، خرجهما أيضا مسلم رحمه الله! وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كانت له بنت فأدبها فأحسن أدبها وعلمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التى أسبغ عليه كانت له سترا أوحجابا من النار". وخُطب إلى عقيل بن عُلَّفة ابنته الجرباء فقال :

إنى وإن سِيقَ إلى المهر * ألفٌ وعُبدان وخُورٌ عشر(١)
* أحبّ أصهارى إلى القبر *

وقال عبد الله بن طاهر :

لكل أبى بنت يراعى شؤونها * ثلاثةُ أصهار إذا حُمد الصِّهر
فبعلٌ يراعيها وخِدرٌ يُكنّها * وقبرٌ يواريها وخيرهم القبر

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى فى إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم. نظيره «أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى»(٢) أى جائرة، وسيأتى.

---

(١) الخور : جمع خوّارة على غير قياس، وهى الناقة الغزيرة اللبن.

(٢) راجع جـ ١٧ ص ١٠٢.

Marfat.com

قوله تعالى : لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى لهؤلاء الواصفين لله البنات (١) ﴿ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أى صفة السوء من الجهل والكفر . وقيل : هو وصفهم الله تعالى بالصاحبة والولد . وقيل : أى العذاب والنار . ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ أى الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد ؛ قاله قتادة . وقيل : أى الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجاز . وقال ابن عباس : « مَثَلُ السَّوْءِ » النار ، و « الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ » شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (٢) » . وقيل : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ » كقوله : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ (٣) » . فإن قيل : كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال : « فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ (٤) » فالجواب أن قوله : « فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ » أى الأمثال التى توجب الأشباه والنقائص ؛ أى لا تضربوا لله مثلا يقتضى نقصا وتشبيها بالخلق . والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير ، جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم معناه (٥) .

قوله تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أى بكفرهم وافترائهم ، وعاجلهم . ﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أى على الأرض ، فهو كناية عن غير مذكور ، لكن دلّ عليه قوله : ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ فإن الدابة لا تدب إلا على الأرض . والمعنى المراد من دابة كافرة ، فهو خاص . وقيل : المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء . وقيل : المراد بالآية العموم ؛ أى لو آخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على

(١) فى جـ و و : الواضعين .	(٢) راجع جـ ١٦ ص ٧ .	(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٢٠ .
(٤) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء .	(٥) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ وجـ ٢ ص ١٣١ .

Marfat.com

ظهر هذه الأرض من دابّة من نبيّ ولا غيره ؛ وهذا قول الحسن . وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية : لو آخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العـذاب جميع الخلق حتى الجعلان (١) فى جحرها ، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمـات الدواب ، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل ؛ كما قال : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » (٢) . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُـمْ ﴾ أى أجل موتهم ومنتهى أعمارهم . ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٣) وقد تقدم . فإن قيل : فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنـا ليس بظالم ؟ قيـل : يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء ، وهلاك المؤمن معوّضا بثواب الآخرة . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم (٤) " . وعن أم سـلمة وسئلت عن الجيش الذى يُخسَف به وكان ذلك فى أيام ابن الزبير ، فقالت قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " يعوذ بالبيت عائذ فيبعث إليه بعث فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم " فقلت : يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارها ؟ قال : " يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته " . وقد أتينا على هـذا المعنى مجوّدا فى (كتاب التذكرة) وتقدم فى « المـائدة » وآخر « الأنعـام » (٥) مافيه كفاية ، والحمد لله . وقيل : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ » أى فإذا جاء يوم القيامة . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أى من البنات . ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ أى وتقول ألسنتهم الكذب . ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ قال مجاهد : هو قولهم أن لهم البنين ولله البنات . « الكذبَ » مفعول « تصفُ » و « أنّ » فى محل نصب بدل من الكذب ؛ لأنه

(١) الجعلان (بكسر الجيم جمع جعل ، كصرد) : دابة سوداء من دواب الأرض .
(٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٠ . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٠٢ . (٤) فى صحيح مسلم : « على أعمالهم » .
(٥) راجع جـ ٦ ص ٣٥٢ و جـ ٧ ص ١٥٧ .

Marfat.com

بيان له . وقيـل : « الحُسْنَى » الجزاء الحسن؛ قاله الزجاج . وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن مُحَيْصن « الكُذُبُ » برفع الكاف والذال والباء نعتا للألسنة؛ وكذا « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذُبُ »(١) . والكُذُبُ جمع كَذوب؛ مثل رَسُول ورُسُل وصَبور وصُبُر وشكور وشكر . ﴿لَا﴾ رد لقولهم ، وتَمَّ الكلام، أي ليس كما تزعمون . ﴿جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي حقا أن لهم النار . وقد تقدّم مستوفًى(٢) . ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ مُتْرَكون منسيّون في النار؛ قاله ابن الأعرابيّ وأبو عبيدة والكسائيّ والفـراء، وهو قـول سعيد بن جبـير ومجاهد . وقال ابن عبـاس وسعيد بن جبير أيضـا : مبعَدون . قتادة والحسن : معجَّلون إلى النـار مقدَّمون إليها . والفارط : الذي يتقدّم إلى المـاء؛ ومنـه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنا فرطكم على الحوض" أي متقدّمكم . وقال القطاميّ :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنـا * كما تعجّـــل فُـــرّاطٌ لورّاد

والفُرّاط : المتقدّمون في طلب المـاء . والورّاد : المتأخرون . وقـرأ نافع في رواية وَرْش « مُفْرِطُونَ » بكسر الراء وتخفيفها ، وهي قراءة عبـد الله بن مسعود وابن عبـاس ، ومعناه مسرفون في الذنوب والمعصية ، أي أفرطوا فيهـا . يقال : أفرط فلان على فلان إذا أَرْبَى عليه ، وقال له أكثر ممـا قال من الشر . وقـرأ أبو جعفر القارئ « مفرِّطون » بكسر الراء وتشديدها ، أي مضيعون أمر الله ؛ فهو من التفريط في الواجب .

قوله تعـالى : تَاللَّهِ لَقَـدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَـمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعـالى : ﴿تَاللهِ لَقَـدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أعمالهم الخبيثة . هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن من تقدّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم . ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَـوْمَ﴾ أي ناصرهم في الدنيـا على زعمهم . ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) راجع ص ١٩٥ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٠ .

Marfat.com

فى الآخرة . وقيـل : « فَهُوَ وَلِيُّهُمُ » أى قرينهم فى النار . « ٱلْيَوْمَ » يعنى يوم القيامة ، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته . وقيـل : يقال لهم يوم القيامة : هذا وليكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب ، على جهة التوبيخ لهم .

قوله تعالى : وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ ﴾ أى القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك . وعُطف « هُدًى وَرَحْمَةً » على موضع قوله : « لتبين » لأن محـله نصب . ومجاز الكلام : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا تبيانا للناس . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى رشدا ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ للؤمنين .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ﴾ أى السحاب . ﴿ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ عاد الكلام إلى تعـداد النعم وبيان كمال القـدرة . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى دلالة على البعث وعلى وحدانيته ؛ إذ علمـوا أن معبودهم لا يستطيع شيئا ، فتكون هـذه الدلالة ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ عن الله تعالى بالقلوب لا بالآذان ؛ « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ » (١) .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٦ .

Marfat.com

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ قد تقدم القول في الأنعام[(١)]، وهي هنا الأصناف الأربعة : الإبل والبقر والضأن والمعز . «لعبرة» أي دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته. والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة، ومنه «فَاعْتَبِرُوا»[(٢)] . وقال أبو بكر الورّاق : العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمردك على ربك وخلافك له في كل شيء . ومن أعظم العِبَر بريء يحمل مذنبا .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ قراءة أهـل المدينة وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (بفتح النون) من سقى يسقي . وقـرأ الباقون وحفص عن عاصم (بضم النون) من أسقى يسقي ، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة . قيل : هما لغتان . وقال لبيد :

سَقَى قَومِي بَنِي مَجْـــدٍ وأسقى * نُمَيْرًا والقبائلَ من هِـــلالِ

وقيل : يقال لما كان من يدك إلى فيه سقيته، فإذا جعلت له شِرْبا أو عرضته لأن يشرب بفيه أو يزرعه قلت أسقيته ؛ قاله ابن عُزَيْز، وقد تقدّم[(٣)] . وقرأت فرقة « تَسقيكم » بالتاء، وهي ضعيفة، يعني الأنعام . وقرئ بالياء، أي يسقيكم الله عز وجل . والقراء على القراءتين المتقدّمتين ؛ ففتح النون لغة قريش وضمها لغة حِمير .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ اختلف النـاس في الضمير من قوله : «مِمَّا فِي بُطُونِهِ» على ماذا يعود . فقيل : هو عائد إلى ما قبله وهو جمع المؤنث. قال سيبويه : العرب تخبر عن الأنعـام بخبر الواحد . قال ابن العربي : وما أراه عوّل عليه إلا من هـذه الآية ، وهـذا لا يشبه منصبه ولا يليق بإدراكه . وقيل : لمـا كان لفـظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث فيقال : هو الأنعـام وهي الأنعـام ، جاز عود الضـمير بالتذكير ؛

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١١ .
(٢) راجع جـ ١٨ ص ٥ .
(٣) راجع جـ ١ ص ٤١٨ .

Marfat.com

وقاله الزجاج . وقال الكسائى : معناه مما فى بطون ما ذكرناه ، فهو عائد على المذكور ؛ وقد قال الله تعالى : « إنّها تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ »(١) وقال الشاعر :

* مثل الفراخ نُتِفَتْ حواصلُه *

ومثله كثير . وقال الكسائى : « مما فى بطونه » أى مما فى بطون بعضه؛ إذ الذكور لا ألبان لها ، وهو الذى عوّل عليه أبو عبيدة . وقال الفرّاء : الأنعام والنَّعَم واحد، والنعم يذكر ، ولهذا تقول العرب : هذا نَعَم وارد ، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذى هو بمعنى الأنعام . قال ابن العربى : إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع ، والتأنيث إلى معنى الجماعة، فذكّره هنا باعتبار لفظ الجمع، وأنثه فى سورة المؤمنون باعتبار لفظ الجماعة فقال : « نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا »(٢) وبهذا التأويل ينتظم المعنى انتظاما حسنا . والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رمل يَبْرِين(٣) وتَيْهَاء فِلسطِين .

الرابعــة — استنبط بعض العلماء الجلة وهو القاضى إسماعيل من عود هذا الضمير ، أن لبن الفحل يفيد التحريم، وقال : إنما جىء به مذكرا لأنه راجع إلى ذكر النعم؛ لأن اللبن للذكر محسوب، ولذلك قضى النبىّ صلى الله عليه وسلم بأن لبن الفحل يحرّم حين أنكرته عائشة [رضى الله عنها] فى حديث أفلح أخى أبى القُعَيْس(٤) « فللمرأة السقى وللرجل اللقاح » يجرى الاشتراك فيه بينهما . وقد مضى القول فى تحريم لبن الفحل فى « النساء »(٥) والحمد لله .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا ﴾ نبه سبحانه على عظيم قدرته بخروج اللبن خالصا بين الفرث والدم . والفَرْثُ : الزبل الذى ينزل إلى الكَرِش ، فإذا خرج لم يُسَمَّ فرثا . يقال : أفرثْتُ الكَرِش إذا أخرجت ما فيها . والمعنى : أن الطعام يكون منه ما فى الكرش و يكون منه الدّم، ثم يخلص اللبن من الدم، فأعلم الله سبحانه أن هذا اللبن يخرج من بين ذلك و بين الدّم فى العروق . وقال ابن عباس : إن الدابة تأكل العلف

---

(١) راجع ج ١٩ ص ٢١٣ . (٢) راجع ج ١٢ ص ١١٨ . (٣) رمل لا تدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر اليمامة . (ياقوت) . (٤) من ج . (٥) راجع ج ٥ ص ١١١ .

Marfat.com

فإذا استقر فى كرشها طبخته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما، والكبد مسلّط على هذه الأصناف فتقسم الدم وتميزه وتجريه فى العروق، وتجرى اللبن فى الضرع ويبقى الفرث كما هو فى الكرش؛ « حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ »(1) . ﴿ خَالِصًا ﴾ يريد من حمرة الدم وقذارة الفرث وقد جمعهما وعاء واحد . وقال ابن بحر : خالصا بياضه . قال النابغة :

* بخالصة الأردان(2) خُضْر المناكب *

أى بيض الأكمام . وهذه قدرة لا تنبغى إلا للقائم على كل شئ بالمصلحة .

السادسة — قال النقاش : فى هذا دليل على أن المنيّ ليس بنجس . وقاله أيضا غيره واحتج بأن قال : كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم سائغا خالصا كذلك يجوز أن يخرج المنيّ على مخرج البول طاهرا . قال ابن العربى : إن هذا لجهل عظيم وأخذ شنيع، اللبن جاء الخبر عنه مجيء النعمة والمنة الصادرة عن القدرة ليكون عبرة ، فاقتضى ذلك كله وصف الخلوص واللذة، وليس المنيّ من هذه الحالة حتى يكون ملحقا به أو مقيسا عليه .

قلت : قد يعارض هذا بأن يقال : وأىّ مِنة أعظم وأرفع من خروج المنيّ الذى يكون عنه الإنسان المكرم؛ وقد قال تعالى : « يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »(3)، وقال : « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً »(4) وهذا غاية فى الامتنان. فإن قيل : إنه يتنجس بخروجه فى مجرى البول، قلنا : هو ما أردناه، فالنجاسة عارضة وأصله طاهر؛ وقد قيل : إن مخرجه غير مخرج البول وخاصة المرأة؛ فإن مدخل الذكر منها ومخرج الولد غير مخرج البول على ما قاله العلماء . وقد تقدم فى البقرة . فإن قيل : أصله دم فهو نجس، قلنا ينتقض بالمسك، فإن أصله دم وهو طاهر . وممن قال بطهارته الشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور وغيرهم؛ لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أفركه من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم يابسا بظفرى . قال الشافعىّ : فإن لم يُفرك فلا بأس به . وكان سعد

(1) راجع جـ ١٧ ص ١٢٨ . (2) الأردان : جمع ردن (بضم الراء وسكون الدال) وهو أصل الكم .
(3) راجع جـ ٢٠ ص ٤ . (4) راجع ص ١٤٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

ابن أبى وقّاص يفرك المنىّ من ثوبه . وقال ابن عبـاس : هو كالنّخامة أمِطْه عنك بإذْخِرة وامسحه بخرقة . فإن قيل : فقد ثبت عن عائشة أنها قالت : كنت أغسل المنىّ من ثوب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ثم يخرج إلى الصلاة فى ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر الغسل فيه . قلنا : يحتمل أن تكون غسلته استقذارا كالأشياء التى تزال من الثوب لا لنجاسة ، ويكون هـذا جمعا بين الأحاديث . والله أعلم . وقال مالك وأصحابه والأوزاعىّ : هو نجس . قال مالك : غسل الاحتـلام من الثوب أمر واجب مجتمع عليـه عندنا ، وهو قول الكوفيين . ويروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وجابر بن سَمُرة أنهم غسلوه من ثيابهم . واختلف فيه عن ابن عمر وعائشة . وعلى هذين القولين فى نجاسة المنى وطهارته التابعون .

السابعــة — فى هـذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره ، فأما لبن الميتـة فلا يجوز الانتفـاع به ؛ لأنه مائع طاهر حصل فى وعاء نجس ، وذلك أن ضرع الميتـة نجس واللبن طـاهر فإذا حُلب صار مأخوذا من وعاء نجس . فأما لبن المرأة الميتـة فاختلف أصحابنا فيـه ، فمن قال : إن الإنسان(١) طاهر حيـا وميتا فهو طاهر . ومن قال : يَنْجُس بالموت فهو نجس . وعلى القولين جميعـا تثبت الحـرمة ؛ لأن الصبى قد يغتـذى به كما يغتذى من الحية ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرضاع ما أنبت اللحم وأنشر العظم "(٢) . ولم يخصّ ؛ وقد مضى فى « النساء » .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى لذيذا هينا لا يُغَصّ به من شربه . يقال : ساغ الشراب يسوغ سوغا أى سهل مدخله فى الحلق ، وأساغه شاربه ، وسغته أنا أسيغه وأسوغه ، يتعدّى ولا يتعدّى ، والأجود أسـغته إساغة . يقال : أسِغ لى غُصّتى أى أمهلنى ولا تعجلنى ؛ وقال تعالى : « يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ »(٣) . والسِّواغ (بكسر السين) ما أسغت به غصتك . يقال : المـاء سِواغ الغُصَص ؛ ومنه قول الكميت :

* فكانت سِوَاغًا أن جَئِزْت بغُصّة *

وروى : أن اللبن لم يشرق به أحد قطّ ، وروى ذلك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(١) أى المسلم . (٢) راجع جـ ٥ ص ١١١ . (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٤٩ .

Marfat.com

التاســعة — فى هــذه الآية دليل على اســتعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها ، ولا يقال : إن ذلك يناقض الزهــد أو يباعده ، لكن إذا كان من وجهــه ومن غير سَرَف ولا إكثار . وقد تقدّم هــذا المعنى فى « المــائدة »(١) وغيرها . وفى الصحيح عن أنس قال : لقد سقيت رســول الله صلى الله عليه وسلم بقدحى هــذا الشراب كله : العسل والنبيذ واللبن والمــاء . وقد كره بعض القــرّاء أكل الفالوذَج(٢) واللبن من الطعام، وأباحه عامة العلمــاء . وروى عن الحسن أنه كان على مائدة ومعه مالك بن دينار ، فأتى بفالوذج فامتنع عن أكله ، فقال له الحسن : كُلْ! فإنّ عليك فى المــاء البارد أكثر من هذا .

العاشــــرة — روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن فشرب ، فقال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، و إذا سُقِى لبنا فليقل اللهُمّ بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شىء يُجزى عن الطعام والشراب إلا اللبن " . قال علماؤنا : فكيف لا يكون ذلك وهو أوّل ما يغتــذى به الإنسان وتَنْمى به الجثث والأبدان، فهو قوت خلىّ عن المفاسد به قِوام الأجسام ، وقد جعله الله تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التى هى خير الأمم أمة ؛ فقال فى الصحيح : " فجاءنى جبريل بإناء من خمر و إناء من لبن فاخترت اللبن فقال لى جبريل اخترت الفِطرة أما إنك لو اخترت الخمر غوت(٣) أمتك " . ثم إن فى الدعاء بالزيادة منه علامة الخِصب وظهور الخيرات [وكثرة(٤)] البركات ؛ فهو مبارك كله .

قوله تعــالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَــرَاتِ النَّخِيلِ ﴾ قال الطبرى : التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون ؛ فحذف « ما » ودلّ على حذفه قوله : « مِنْهُ » . وقيــل :

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠ وما بعدها . وجـ ٧ ص ١٩١ .
(٢) الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والمــاء والعسل . (عن الألفاظ الفارسية المعربة) .
(٣) غوت : ضلت وفسدت .
(٤) من جـ .

Marfat.com

المحذوف شيء، والأمر قريب . وقيل : معنى « منه » أى من المذكور، فلا يكون فى الكلام حذف وهو أولى . ويجوز أن يكون قوله : « وَمِنْ ثَمَرَاتِ » عطفا على « الأَنْعَامِ » أى ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة . ويجوز أن يكون معطوفا على « مما » أى ونسقيكم أيضا مشروبات من ثمرات .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ سَـكَرًا ﴾ السَّكر ما يُسكِر؛ هذا هو المشهور فى اللغة . قال ابن عباس : نزلت هـذه الآية قبل تحريم الخمر . وأراد بالسكر الخمر، وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين . وقال بهذا القول ابن جُبير والنخعيّ والشعبيّ وأبو ثور . وقد قيل : إن السكر الخـلّ بلغة الحبشة، والرزق الحسن الطعام . وقيل : السكر العصير الحـلو الحلال ، وسمى سكرا لأنه قـد يصير مسكرا إذا بقى، فإذا بلغ الإسكار حرم .

قال ابن العربى : أسدّ هذه الأقوال قول ابن عباس، و يخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، و إما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرّم الله عليكم اعتداء منكم، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم . والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة؛ فإن هـذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدنىّ .

قلت : فعلى أن السَّكَر الخـلّ أوالعصير الحلو لا نسخ، وتكون الآية محكمة وهو حسن . قال ابن عباس : الحبشة يسمون الخـل السكر، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمـر، منهم ابن مسعود وابن عمر وأبو رُزَيْن والحسن ومجاهد وابن أبى لَيْلَى والكلبيّ وغيرهم ممن تقدّم ذكرهم، كلهم قالوا : السكر ما حرمه الله من ثمرتيهما . وكذا قال أهل اللغة : السكر اسم للخمر وما يسكر، وأنشدوا :

بئس الصُّحاة و بئس الشَّرْبُ شَربهم * إذا جرى فيهـــم المُـزّاء والسَّـكَر

والرزق الحسن : ما أحله الله من ثمرتيهما . وقيــل : إن قوله « تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَـكَرًا » خبر معناه الاستفهام بمعنى الإنكار؛ أى أتتخذون منه سكرا وتَدَعون رزقا حسنا الخـلّ والزبيب

Marfat.com

والتمـر ؛ كقوله : « فَهُمُ الْخَالِدُونَ[1] » أى أفهـم الخالدون . والله أعلم . وقال أبو عبيدة : السكر الطَّعمُ ، يقال : هذا سَكَرٌ لك أى طُعم . وأنشد :

* جَعلتَ عيْبَ الأكرمين سَكَرا *

أى جعلت ذمّهم طعما . وهـذا اختيار الطبرى أن السكر ما يُطعم من الطعام وحَلّ شربه من ثمـار النخيل والأعناب : وهـو الرزق الحسن ، فاللفظ مختلف والمعنى واحد ؛ مثل « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ[2] » وهذا حسن ولا نسخ ، إلا أن الزجاج قال : قول أبى عبيدة هذا لا يعرف ، وأهل التفسير على خلافه ، ولا حجة له فى البيت الذى أنشده ؛ لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تخمّر بعيوب الناس . وقال الحنفيون : المراد بقوله : « سكرا » ما لا يسكر من الأنبذة ؛ والدليل عليه أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بمـا خلق لهم من ذلك ، ولا يقع الامتنان إلا بمحلَّل لا بمحرَّم ، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجز ، وعضدوا هـذا من السنة بما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حرم الله الخمـر بعينها والسكر من غيرها " . و بمـا رواه عبد الملك بن نافع عن ابن عمر قال : رأيت رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند الركن ، ودفع إليه القدح فرفعـه إلى فيه فوجده شـديدا فردّه إلى صاحبـه ؛ فقال له حينئذ رجل من القوم : يا رسول الله ، أحرامٌ هو ؟ فقال : " علىّ بالرجل " فأتى به فأخذ منه القدح ، ثم دعا بمـاء فصبه فيه ثم رفعـه إلى فيه فقطّب ، ثم دعا بمـاء أيضا فصـبه فيه ثم قال : " إذا اغتلمت[3] عليكم هذه الأوعية فاكسروا متونها بالمـاء " . وروى أنه عليه السلام كان ينبذ له فيشربه ذلك اليوم ، فإذا كان من اليوم الثانى أو الثالث سقاه الخادم إذا تغير ، ولو كان حراما ما سقاه إياه . قال الطحاوى : وقد روى أبو عون الثقفى عن عبـد الله بن شـداد عن ابن عباس قال : حرمت الخمر بعينها القليل منها والكثير والسكر من كل شراب ؛ خرجه الدارقطنى أيضا .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٧ .		(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٥١ .

(٣) الاغتلام مجاوزة الحد ؛ أى إذا جاوزت حدها الذى لا يسكر إلى حدها الذى يسكر .

Marfat.com

ففى هذا الحديث وما كان مثله ، أن غير الخمر لم تحرم عينه كما حرمت الخمر بعينها . قالوا : والخمر شراب العنب لا خلاف فيها ، ومن حجتهم أيضا ما رواه شُريك بن عبد الله ، حدثنا أبو إسحاق الهَمْدانى عن عمرو بن ميمون قال قال عمر بن الخطاب : إنا نأكل لحوم هـذه الإبل وليس يقطعه فى بطوننا إلا النبيذ . قال شريك : ورأيت الثورى يشرب النبيذ فى بيت حبر أهل زمانه مالكِ بن مِغْوَل . والجواب أن قولهم : إن الله سبحانه وتعالى آمتن على عباده ولا يكون امتنانه إلا بمـا أحل فصحيح ؛ بيد أنه يحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر كما بيناه فيكون منسوخا كما قدمناه . قال ابن العربى : إن قيل كيف ينسخ هـذا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ ، قلنا : هـذا كلام من لم يتحقق الشريعة ، وقد بينا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقى أو عن إعطاء ثواب فضلا من الله فهو الذى لا يدخله النسخ ، فأما إذا تضمن الخبر حكما شرعيا فالأحكام تتبدّل وتنسخ ، جاءت بخبر أو أمر ، ولا يرجع النسخ إلى نفس اللفظ وإنمـا يرجع إلى ما تضمنه ، فإذا فهمتم هـذا خرجتم عن الصِّنف الغبى الذى أخبر الله عن الكفار فيـه بقوله : « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَـا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَـا أَنْتَ مُفْـتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[1] » . المعنى أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء ويكلف ما يشاء ويرفع من ذلك بعدله ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أم الكتاب .

قلت : هذا تشنيع شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار فى قصور الفهم بالكفار ، والمسألة أصولية ، وهى أن الأخبار عن الأحكام الشرعية هل يجوز نسخها أم لا ؟ اختلف فى ذلك ، والصحيح جوازه لهذه الآية وما كان مثلها ، ولأن الخبر عن مشروعية حكم ما يتضمن طلب ذلك المشروع ، وذلك الطلب هـو الحكم الشرعى الذى يستـدل على نسخه . والله أعلم . وأما ما ذكروا من الأحاديث فالأول والثانى ضعيفان ؛ لأنه عليه السلام قد روى عنه بالنقل الثابت أنه قال : "كل شراب أسكر فهو حرام" وقال : "كل مسكر خمر وكل مسكر حرام" وقال : "ما أسكر كثيره فقليله حرام". قال النسائى : وهؤلاء أهل الثبت والعدالة مشهورون

---

(١) راجع ص ١٧٦ من هذا الجزء .

Marfat.com

بصحة النقل، وعبد الملك لا يقـوم مقام واحد منهم ولو عاضـده من أشكاله جماعة، وبالله التوفيق . وأما الثالث وإن كان صحيحا فإنه ما كان يسقيه للخادم على أنه مسكر، وإنمـا كان يسقيه لأنه متغير الرائحة . وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه الرائحة، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيّل عليه أزواجه فى عسل زينب بأن قيل له : إنا نجد منك ريح مغافير، يعنى ريحا منكرة، فلم يشربه بعد . وسيأتى فى التحريم[1] . وأما حديث ابن عباس فقد روى عنه خلاف ذلك من رواية عطاء وطاوس ومجاهد أنه قال: « ما أسكر كثيره فقليله حرام » ورواه عنه قيس ابن دينار . وكذلك فتياه فى المسـكر، قاله الدّارَقُطْنِي . والحـديث الأول رواه عنه عبد الله ابن شـدّاد وقد خالفه الجماعة، فسقط القول به مع ماثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وأما ماروى عن عمر من قوله : ليس يقطعه فى بطوننا إلا النبيذ، فإنه يريد غير المسكر بدليل ماذكرنا . وقد روى النّسائىّ عن عتبة بن فَرْقَد قال : كان النبيذ الذى شربه عمر بن الخطاب قد خُلِّل . قال النسائىّ : ومما يدل على صحة هذا حديث السائب، قال الحارث بن مِسكين قراءة عليـه وأنا أسمـع عن ابن القاسم : حدثنى مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد، أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال : إنى وجدت من فلان ريح شراب، فزعم أنه شراب الطِّلاء، وأنا سائل عمـا شرب، فإن كان مسكرا جلدته، فجلده عمر بن الخطاب رضى الله عنه الحدّ تاما . وقـد قال فى خطبته على منبر رسـول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا بعد، أيها الناس فإنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة: من العنب والعسل والتمر والحنطة والشعير . والخمر ماخامر العقل . وقد تقدم فى «المـائدة»[2] . فإن قيل: فقد أحل شربه إبراهيم النّخعى وأبو جعفر الطحاوىّ وكان إمام أهـل زمانه، وكان سـفيان الثورى يشربه . قلنا : ذكر النسائىّ فى كتابه أن أول من أحلّ المسكر من الأنبذة إبراهيم النخعىّ، وهذه زلة من عالم وقد حُذِّرنا من زلّة العالم، ولاحجة فى قول أحد مع السّنة[3] . وذكر النسائى أيضا عن ابن المبارك قال : ماوجدت الرخصة فى المسكر عن أحد صحيحا إلا عن إبراهيم . قال أبو أسامة: مارأيت

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٧٧ . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٨٥ .
(٣) لعل مايشربه النخعى وهو إمام — ليس من النبيذ المسكر فإن منه مالم يبلغ حد الإسكار .

Marfat.com

رجلا أطلب للعلم من عبـد الله بن المبارك الشامات(١) ومصر واليمـن والحجاز . وأما الطحاوى وسـفيان لو صح ذلك عنهما لم يحتج بهما على من خالفهما من الأئمـة فى تحريم المسكر مع ماثبت من السـنة ؛ على أن الطحا قد ذكر فى كتابه الكبير فى الاختلاف خلاف ذلك . قال أبو عمر بن عبـد البر فى كتاب التمهيـد له : قال أبو جعفر الطحاوى اتفقت الأمة على أن عصـير العنب إذا اشـتد وغلى وقذف بالزبد فهو خمر ومستحله كافر . واختلفوا فى نقيع التمر إذا غلى وأسكر . قال : فهذا يدلك على أن حديث يحيى بن أبى كثير عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب " غير معمول به عندهم ؛ لأنهم لو قبلوا الحديث لأكفروا مستحل نقيع التمر؛ فثبت أنه لم يدخل فى الخمر المحـرمة غير عصير العنب الذى قد اشـتد وبلغ أن يسـكر . قال : ثم لايخلو من أن يكون التحـريم معلقا بهـا فقط غير مقيس عليها غيرها أو يجب القياس عليها ، فوجدناهم جميعا قد قاسوا عليها نقيع التمر إذا غلى وأسكر كثيره وكذلك نقيع الزبيب . قال: فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . قال : وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كل مسكر حرام" واستغنى عن سنده لقبول الجميع له ، وإنمـا الخلاف بينهم فى تأويله ؛ فقال بعضهم : أراد به جنس مايسكر . وقال بعضهم : أراد به مايقع السكر عنده كما لا يسمى قاتلا إلا مع وجود القتل .

قلت : فهذا يدل على أنه محـرم عند الطحاوى لقوله : فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسـكر من الأشربة . وقـد روى الدارقطنى فى سننه عن عائشة رضى الله عنها أنهـا قالت : إن الله لم يحرم الخمـر لاسمها و إنما حرمها لعاقبتها ، فكل شراب يكون عاقبته كعاقبة الخمـر فهو حرام كتحريم الخمـر . قال ابن المنذر: وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة ، و إذا اختلف النـاس فى الشىء وجب رد ذلك إلى كتاب الله وسـنة رسوله عليه السـلام؛ وماروى عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذى يسـكر كثيره فللقوم ذنوب يسـتغفرون

(١) فى حاشية السندى على سنن النسائى : « قوله الشامات ، كأنه جمع على إرادة البلاد الشامية » :

Marfat.com

الله منها ، وليس يخلو ذلك من أحد معنيين : إما مخطئ أخطأ فى التأويل على حديث سمعه ، أو رجل أتى ذنبا لعله أن يكثر من الاستغفار لله تعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم حجة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة . وقد قيل فى تأويل الآية : إنها إنما ذكرت للاعتبار ، أى من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث ، وهذا الاعتبار لا يختلف بأن كانت الخمر حلالا أو حراما ، فاتخاذ السكر لا يدل على التحريم ، وهو كما قال الله تعالى : «قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ»[1] والله أعلم .

قوله تعالى : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ قد مضى القول فى الوحى وأنه قد يكون بمعنى الإلهام[2]، وهو ما يخلقه الله تعالى فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، وهو من قوله تعالى : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا »[3] . ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير معاشها . وقد أخبر عز وجل بذلك عن الموات فقال : « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا »[3] . قال إبراهيم الحربي : لله عز وجل فى الموات قدرة لم يُدْرَ ما هى ، لم يأتها رسول من عند الله ولكن الله تعالى عرفها ذلك ؛ أى ألهمها . ولا خلاف بين المتأولين أن الوحى هنا بمعنى الإلهام . وقرأ يحيى بن وثاب « إلى النَّحَلِ » بفتح الحاء . وسمى نحلا لأن الله عز وجل نحله العسل الذى يخرج منه ؛ قاله الزجاج . الجوهرى : والنحل والنحلة الدَّبْر يقع على الذكر والأنثى ، حتى يقال : يَعْسُوب . والنحل يؤنث فى لغة أهل الحجاز ، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء . وروى من حديث

(١) راجع جـ ٣ ص ٥١ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٥ .
(٣) راجع جـ ٢٠ ص ٧٥ وص ١٤٥ .

Marfat.com

أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الذِّبان كلها في النار يجعلها عذابا لأهـل النـار إلا النحل " ذكره الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأصـــول) . وروى عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صـلى الله عليه وسلم عن قتل النمـلة والنحلة والهُدْهُد والصُّرَد[1] ، خرّجه أبو داود أيضا ، وسيأتي في « النمل[2] » إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ ﴾ هذا إذا لم يكن لها مليك[3] . ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع، إما في الجبال وكِوَاها، وإما في متجوف الأشجار، وإما فيما يعرش ابن آدم من الأجباح[4] والخلايا والحيطان وغيرها . وعَرَش معناه هنا هيّأ ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها؛ ومنه العريش الذى صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، ومن هذا لفظة العرش . يقال : عرش يعرِش ويعرش (بكسر الراء وضمها)، وقرئ بهما . قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر، واختلف في ذلك عن عاصم .

الثالثـــة — قال ابن العربيّ : ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتهـا مسدّسة ، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشـكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فُرَج، إلا الشكل المسدّس ؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة .

قوله تعـالى : ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ج يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ج إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

---

(١) الصرد : طائر ضخم الرأس والمنقار له ريش عظيم نصفه أبيض ونصفه أسود يصيد صغار الطير .
(٢) راجع جـ ١٣ ص ١٦٩ فما بعد . (٣) كذا في ى . وفي ا : مالك .
(٤) الأجباح : خلايا النحل في الجبل وفيها تعسل .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَـرَاتِ ﴾ وذلك أنها إنما تأكل النوّار من الأشجار . ﴿ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ أى طرق ربك . والسبل : الطرق ، وأضافها إليـه لأنه خالقها . أى ادخلى طرق ربك لطلب الرزق فى الجبال وخلال الشجر . ﴿ ذُلُلًا ﴾ جمع ذَلول وهو المنقاد؛ أى مطيعة مسخَّرة . فـ « ذُلُلًا » حال من النحل . أى تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها ؛ لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا ؛ قاله ابن زيد . وقيـل : المراد بقوله « ذللا » السـبل . واليَعْسُوب سيد النحل (١) ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا » رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العـبرة فقال : « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَـا شَرَابٌ » يعنى العسـل . وجمهور النـاس على أن العسل يخرج من أفواه النحل ؛ وورد عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال فى تحقيره للدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة، وأشرف شرابه رجيع نحلة . فظاهر هذا أنه من غير الفم . وبالجملة فإنه يخرج ولا يدرى من فيها أو أسفلها ، ولكن لا يتم صلاحه إلا بحمى أنفاسها . وقد صنع أرسطا طاليس بيتا من زجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع ، فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين ؛ ذكره الغزنوىّ . وقال : « مِنْ بُطُونِهَا » لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلا فى البطن .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والجامد والسائل ، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة نوّعته بحسب تنويع الغذاء، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعى ؛ ومن هذا المعنى قول زينب للنبىّ صلى الله عليه وسلم : « جَرَسَتْ نَحْلُه العُرْفُطَ (٢) » حين شبهت رائحته برائحة المغافير .

(١) اليعسوب : هـو الملكة وليس للنحل غيرها رئيسا وذكر النحل هو الذى يلقح الملكة ثم يموت ، هـذا الذى يقرّره العلماء بهذا الجنس .

(٢) الجرس : الأكل . والعرفط (بالضم) : شجر الطلح ، وله صمغ كريه الرائحة ، فإذا أكلته النحل حصل فى عسلها من ريحه . أى شربت عسلا أكلت نحله من شجر الطلح .

Marfat.com

الثالثـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ فِيهِ شِـفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ الضمير للعســل ؛ قاله الجمهور . أى فى العسل شـفاء للناس . وروى عن ابن عبـاس والحسن ومجاهد والضحاك والفـرّاء وابن كَيْسان : الضمير للقرآن ؛ أى فى القرآن شفاء . النحاس : وهذا قول حسن ؛ أو فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس . وقيل : العسل فيه شفاء، وهذا القول بيّن أيضا ؛ لأن أكثر الأشربة والمعجونات التى يتعالج بهـا أصلها من العســل . قال القاضى أبو بكر ابن العربىّ : من قال إنه القرآن بعيد ما أراه يصح عنهم ، ولو صح نقلا لم يصح عقلا ؛ فإن مساق الكلام كله للعســل : ليس للقرآن فيه ذكر . قال ابن عطية : وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت و بنو هاشم ؛ وأنهم النحل، وأن الشراب القرآن والحكمة، وقد ذكر هــذا بعضهم فى مجاس المنصور أبى جعفر العباسىّ ، فقال له رجل ممن حضر : جعل الله طعامك وشرابك ممـا يخرج من بطون بنى هاشم، فأضحك الحاضرين و بُهِت الآخر وظهرت سخافة قوله .

الرابعـــة ـــ اختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ فِيـهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هل هو على عمومه أم لا ؟ فقالت طائفة : هو على العموم فى كل حال ولكل أحد، فروى عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئا إلا جعل عليـه عسلا، حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلا . وحكى النقاش عن أبى وَجْرة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشى بالعسل ويتداوى بالعسل . وروى أن عوف بن مالك الأشجعى مرض فقيل له : ألا نعالجك ؟ فقال : ائتونى بالمـاء ، فإن الله تعالى يقول : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا »[1] ثم قال : ائتونى بعسل، فإن الله تعالى يقول : « فِيـهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » وائتونى بزيت، فإن الله تعالى يقول : « مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ »[2] فجاءوه بذلك كله فخلطه جميعا ثم شربه فبرئ . ومنهم من قال : إنه على العموم إذا خلط بالخل و يطبخ فيأتى شرابا ينتفع به فى كل حالة من كل داء . وقالت طائفة : إن ذلك على الخصوص ولا يقتضى العموم فى كل عِلّة ، وفى كل إنسان ، بل إنه خبر عن أنه يشفى كما يشفى غيره من

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٦ . والظاهر أن المراد بالمبارك ماء المطر لأنه فى غاية النقاء فهو شفاء من الأمراض مطهر من الجراثيم . محققه . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٦٢ .

Marfat.com

الأدوية فى بعض وعلى حال دون حال؛ ففائدة الآية إخبار منه فى أنه دواء لمـا كثر الشفاء به وصار خليطا ومُعينا للأدوية فى الأشربة والمعاجين ؛ وليس هذا بأول لفظ خصص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتى فيها العـام كثيرا بمعنى الخاص والخاص بمعنى العـام . ومما يدل على أنه ليس على العموم أن « شـفاء » نكرة فى سياق الإثبات ، ولا عموم فيها باتفاق أهـل اللسان ومحقق أهل العـلم ومختلفى أهل الأصول . لكن قد حملته طائفة من أهـل الصدق والعزم على العموم ، فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض ، وكانوا يشفون من عللهم ببركة القرآن وبصحة التصديق والإيقان . ابن العربى : ومن ضعفت نيته وغلبته على الدِّين عادته أخذه مفهوما على قول الأطباء ، والكلّ من حِكَم الفعَّال لمـا يشاء .

الخامسة — إن قال قائل : قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره، فكيف يكون شفاء للناس ؟ قيل له : المـاء حياة كل شيء وقد رأينا من يقتله المـاء إذا أخذه على ما يضاده من علة فى البدن، وقد رأينا شفاء العسل فى أكثر هذه الأشربة؛ قال معناه الزجاج . وقد اتفق الأطبـاء عن بَكْرة أبيهم على مدح عموم منفعة السكنجبين (١) فى كل مرض ، وأصـله العسل وكذلك سائر المعجونات، على أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد حسم داء الإشكال وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذى يشتكى بطنه بشرب العسل، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلا استطلاقا أمره بعود الشراب له فبرئ ؛ وقال : " صدق الله وكذب بطن أخيك " .

السادسـة — اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال: قد أجمعت الأطباء على أن العسل يسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال؛ فالجواب أن ذلك القول حق فى نفسه لمن حصل له التصديق بنبيه عليه السلام، فيستعمله على الوجه الذى عينه وفى المحل الذى أمره بعقد نية وحسن طوية ، فإنه يرى منفعته و يدرك بركته كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره كما تقدم. وأما ما حكى من الإجماع فدليل على جهله بالنقل حيث لم يقيِّد وأطلق . قال الإمام أبو عبد الله المـازَرى : ينبغى أن يعلم أن الإسهال يعرض من ضروب كثيرة ، منها الإسهال

(١) السكنجبين : شراب معرب ، أي خل وعسل (عن الألفاظ الفارسية المعربة)

Marfat.com

الحادث عن التُّخَم والهَيْضات (١)، والأطباء مجمعون فى مثل هذا على أن علاجه بأن يترك للطبيعة وفعلها، وإن احتاجت إلى مُعين على الإسهال أعينت ما دامت القوة باقية، فأما حبسها فضرر، فإذا وضح هـذا قلنا : فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء وهيضة فأمره النبي صلى الله عليـه وسلم بشرب العسل فزاده إلى أن فنيت المـادة فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل . فإذا خرج هذا عن صناعة الطب أذِن ذلك بجهل المعترض بتلك الصناعة . قال : ولسنا نستظهر على قول نبينا بأن يصدقه الأطبـاء بل لو كذبوه لكذبناهم ولكفرناهم وصدّقناه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدة صحة ما قالوه فنفتقر حينئذ إلى تأويل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخريجه على ما يصح إذ قامت الدلالة على أنه لا يكذب.

السابعـة — فى قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك خلافا لمن كره ذلك من جلّة العلماء، وهو رد على الصوفية الذين يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضى بجميع ما نزل به من البلاء، ولا يجوز له مداواة . ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيح عن جابر عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم أنه قال : " لكل داء دواء فإذا أصيب دواءُ الداءِ برأ بإذن الله " . وروى أبو داود والترمـذى عن أسامـة بن شريك قال قالت الأعراب : ألا نتداوَى يا رسول الله ؟ قال : "نعم. يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحدا " قالوا : يا رسول الله وما هو ؟ قال : "الهرم" لفظ الترمذى، وقال : حديث حسن صحيح . وروى عن أبى خِزامة عن أبيه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله، أرأيت رُقًى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها، هل تردّ من قَدَر الله شيئا ؟ قال : "هى من قدر الله" قال : حديث حسن، ولا يعرف لأبى خِزامة غير هـذا الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن كان فى شىء من أدويتكم خير ففى شرطة محجم أو شربة من عسل أو لذعة بنار وما أحب أن أكتوى " أخرجه الصحيح . والأحاديث فى هذا الباب أكثر من أن تحصى . وعلى إباحة التداوى والاسترقاء

(١) الهيضات : جمع هيضة، وهى انطلاق البطن .

Marfat.com

جمهور العلماء . روى أن ابن عمر اكتوى من اللقوة[١] ورقى من العقرب . وعن ابن سيرين أن ابن عمر كان يسق ولده الترياق[٢] . وقال مالك : لا بأس بذلك . وقد احتج من كره ذلك بمـا رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دخلت أمة بقضها وقضيضها[٣] الجنة كانوا لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون " . قالوا : فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاما بالله وتوكلا عليـه وثقة به وانقطاعا إليه ؛ فإن الله تعـالى قـد علم أيام المرض وأيام الصـحة فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعـالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَبْرَأَهَا[٤] » . وممن ذهب إلى هذا جمـاعة من أهل الفضل والأثر ، وهو قول ابن مسعود وأبي الدرداء رضوان الله عليهما . دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود فى مرضه الذى قبض فيـه فقال له عثمان : ما تشـتكى ؟ قال ذنوبى . قال : فمـا تشتهى ؟ قال : رحمة ربى . قال : ألا أدعو لك طبيبـا ؟ قال : الطبيب أمرضنى ... وذكر الحديث . وسيأتى بكماله فى فضل الواقعة إن شاء الله تعالى . وذكر وكيع قال : حدثنا أبو هلال عن معاوية بن قـرة قال : مرض أبو الدرداء فعـادوه وقالوا : ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أضجعنى . وإلى هـذا ذهب الربيع بن خيـثم . وكره سعيد بن جبـير الرقى . وكان الحسن يكره شرب الأدوية كلها إلا اللبن والعسل . وأجاب الأولون عن الحديث بأنه لا حجة فيه ، لأنه يحتمل أن يكون قصد إلى نوع من الكى مكروه بدليل كى النبى صلى الله عليه وسلم أبيًّا يوم الأحزاب على أكحَـله[٥] لمـا رمى . وقال : " الشفاء فى ثلاثة " كما تقدم . ويحتمل أن يكون قصد إلى الرقى بمـا ليس فى كتاب الله ، وقد قال سبحانه وتعالى : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ[٦] » على ما يأتى بيانه . ورقى أصحابه وأمرهم بالرقية ؛ على ما يأتى بيانه .

---

(١) اللقوة (بالفتح) : مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه . (٢) الترياق : ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين ، وهو معرب . (٣) أى دخلوا مجتمعين ، ينقض آخرهم على أولهم . وقال ابن الأعرابى : إن القض الحصى الكبار ، والقضيض الحصى الصغار ، أى دخلوا بالكبير والصغير . (٤) راجع جـ ١٧ ص ١٩٤ . (٥) الأكحل : عرق فى وسط الذراع . (٦) راجع ص ٣١٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

الثامنـة — ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أن لا زكاة فى العسل وإن كان مطعوما مقتاتا . وآختلف فيه قول الشافعى ، والذى قطع به فى قوله الجديد : أنه لا زكاة فيه . وقال أبو حنيفة بوجوب زكاة العسل فى قليله وكثيره؛ لأن النصاب عنده فيه ليس بشرط . وقال محمد بن الحسن : لا شىء فيه حتى يبلغ ثمانية أفراق[1] ، والفرق ستة وثلاثون رطلا من أرطال العراق . وقال أبو يوسف : فى كل عشرة أزقاق زِقّ ، متمسكا بما رواه الترمذى عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فى العسل فى كل عشرة أزقاق زق " قال أبو عيسى : فى إسناده مقال ، ولا يصح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب كبير شىء ، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، وبه يقول أحمد وإسحاق ، وقال بعض أهل العلم : ليس فى العسل شىء .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى يعتبرون؛ ومن العبرة فى النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفكر فى عجيب أمرها ، فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة ، وحذقها باحتيالها فى تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى؛ كما قال : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » الآية . ثم إنها تأكل الحامض والمرّ والحلو والمالح والحشائش الضّارة[2] ، فيجعله الله تعالى عسلا حلوا وشفاء ، وفى هذا دليل على قدرته .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٧٠)

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ بيّن معناه . ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ يعنى أرداه وأوضعه . وقيل : الذى ينقص قوته وعقله ، ويصيره إلى الخرف ونحوه . وقال آبن عباس : يعنى إلى أسفل العمر ، يصير كالصبي الذى لا عقل له ؛ والمعنى متقارب . وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ يقول :

---

(١) فى جـ و ى : « خمسة أفراق » . (٢) لم يصح هذا عند النحالين . محققه .

Marfat.com

" اللهم إنى أعوذ بك من الكسل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من البخل " . وفى حديث سعد بن أبى وقّاص " وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر " الحديث . خرّجه البخارى . ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ أى يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبلُ من الأمور لفرط الكبر . وقد قيـل : هذا لا يكون للؤمن ، لأن المؤمن لا ينزع عنه علمه . وقيل : المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئا ؛ فعبر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه ؛ لأن تأثير الكبر فى عمـله أبلغ من تأثيره فى علمه . والمعنى المقصود الاحتجاج على منكرى البعث ، أى الذى رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّـلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ ﴾ أى جعـل منكم غنيا وفقيرا وحرا وعبدا . ﴿ فَمَـا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾ أى فى الرزق . ﴿ بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُمْ ﴾ أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه ممـا رُزق شيئا حتى يستوى المملوك والمـالك فى المـال . وهذا مثـل ضربه الله لعبدة الأصـنام ، أى إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدى معى سواء ؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم فى أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعـالى فى عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما ممـا عُبد ؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه . حكى معناه الطـبرى ، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم . وعن ابن عباس أيضا أنها نزلت فى نَصَارَى نَجْران حين قالوا : عيسى ابن الله فقال الله لهم : « فَمَـا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِم عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُمْ » أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه ممـا رزق حتى يكون المولى والعبد فى المـال شَرعا سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم فتجعلون لى ولدا

Marfat.com

من عبيدى . ونظيرها « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ »(١) على ما يأتى . ودل هذا على أن العبد لا يملك ، على ما يأتى آنفا(٢) .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ جعل بمعنى خلق ؛ وقد تقدم . « مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » يعنى آدم خلق منه حواء . وقيل : المعنى جعل لكم من أنفسكم ، أى من جنسكم ونوعكم وعلى خلقتكم ؛ كما قال : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ »(٣) أى من الآدميين . وفى هذا ردّ على العرب التى كانت تعتقد أنها كانت تزوّج الجن وتباضعها ، حتى روى أن عمرو بن هند تزوج منهم غُولًا(٤) وكان يخبؤها عن البرق لئلا تراه فتنفر ، فلما كان فى بعض الليالى لمع البرق وعاينته السِّعلاة(٥) فقالت : عمرو ! ونفرت ، فلم يرها أبدا . وهذا من أكاذيبها ، وإن كان جائزا فى حكم الله وحكمته ، فهو ردّ على الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجانّ ويحيلون طعامهم . (أَزْوَاجًا) زوج الرجل هى ثانيته ، فإنه فرد فإذا انضافت إليه كانا زوجين ، وإنما جعلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلها فى الوجود كما تقدم .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٢ . (٢) يريد بعد قليل . « آنفا » إنما تستعمل فى الماضى القريب لا فى المستقبل القريب . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠١ . (٤) كذا فى نسخ الأصول وأحكام القرآن لابن العربى ، والصواب أنه عمرو بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن مناة ؛ قال علباء بن أرقم :

يا قبح الله بنى السعلاة ＊ عمرو بن يربوع شرار النات

راجع شرح التنوير على سقط الزند فى شرح بيت أبى العلاء المعرى :

إذا لاح إيماض سترت وجوهها ＊ كأنى عمرو والمطىّ سعالى

(٥) السعلاة : أخبث الغيلان .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ ﴾ ظاهر فى تعـديد النعمة فى الأبنـاء ، ووجود الأبنـاء يكون منهما معا ؛ ولكنه لمـا كان خلق المولود فيهـا وانفصاله عنها أضيف إليهـا ، ولذلك تبعها فى الرق والحرية وصار مثلها فى المـالية . قال ابن العربى : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفا على بن عقيل يقول : إنمـا تبع الولد الأم فى المـالية وصار بحكمها فى الرق والحرية ؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لاقيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلأجل ذلك تبعها . كما لو أكل رجل تمرا فى أرض رجل وسقطت منـه نواة فى الأرض من يد الآكل فصارت نخـلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة ؛ لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها .

الثانيـــة — قوله تعـالى : « وَحَفَدَةً » روى ابن القاسم عن مالك قال : وسألته عن قوله تعالى : « بَنِينَ وَحَفَـدَةً » قال : الحفـدة الخدم والأعوان فى رأيى . وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَحَفَدَةً » قال : هم الأعوان، من أعانك فقد حفدك . قيل له : فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم وتقوله ! أو ما سمعت قول الشاعر :

حَفَدَ الولائدُ حولهن وأسلمتْ * بأكفِّهِنَّ أزِمَّـةَ الأجمـال

أى أسرعن الخدمة . والولائد : الخدم، الواحدة وَلِيدَة ؛ قال الأعشى :

كلّفتُ مجهولَهـا نُوقًا يمانيـة * إذا الحُداة على أكسائها حَفَدوا (١)

أى أسرعوا . وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوان ، فكل من عمـل عملا أطاع فيه وسارع فهو حافد، قال : ومنه قولهم « إليك نسعى ونحفِد » ، والحَفَدان السرعة . قال أبو عبيد : الحفد العمل والخدمة . وقال الخليل بن أحمـد : الحَفَدة عند العرب الخـدم ، وقاله مجاهـد . وقال الأزهرى : قيل الحفدة أولاد الأولاد . وروى عن ابن عبـاس . وقيـل : الأَخْتَان ؛ قاله ابن مسعود وعلقمـة وأبو الضحا وسـعيد بن جبـير وإبراهـيم ؛

(١) الأكساء : جمع كسى (بالضم) وهو مؤخر العجز .

Marfat.com

ومنه قول الشاعر[1] :

فلو أن نفسي طاوعتني لأصبحت * لها حفد مما يعد كثير
ولكنها نفس علي أبية * عيوف لإصهار[2] اللئام قذور

وروى زر عن عبد الله قال: الحفدة الأصهار؛ وقاله إبراهيم، والمعنى متقارب. قال الأصمعي: الختن من كان من قبل المرأة، مثل أبيها وأخيها وما أشبههما؛ والأصهار منهما جميعا. يقال: أصهر فلان إلى بني فلان وصاهر. وقول عبد الله «هم الأختان» يحتمل المعنيين جميعا. يحتمل أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبهه من أقربائها، ويحتمل أن يكون أراد وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن، فيكون لكم بسببهن أختان. وقال عكرمة: الحفدة من نفع الرجل من ولده؛ وأصله من حفد يحفد (بفتح العين في الماضي وكسرها في المستقبل) إذا أسرع في سيره؛ كما قال كثير[3] :

* حفد الولائد بينهن ... * البيت.

ويقال: حفدت وأحفدت، لغتان إذا خدمت. ويقال: حافد وحفد؛ مثل خادم وخدم، وحافد وحفدة مثل كافر وكفرة. قال المهدوي: ومن جعل الحفدة الخدم جعله منقطعا مما قبله ينوي به التقديم؛ كأنه قال: جعل لكم حفدة وجعل لكم من أزواجكم بنين.

قلت: ما قاله الأزهري من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصه؛ ألا ترى أنه قال: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً» فجعل الحفدة والبنين منهن. وقال ابن العربي: الأظهر عندي في قوله «بَنِينَ وَحَفَدَةً» أن البنين أولاد الرجل لصلبه والحفدة أولاد ولده، وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا، ويكون تقدير الآية على هذا: وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة. وقال معناه الحسن.

الثالثة — إذا فرعنا على قول مجاهد وابن عباس ومالك وعلماء اللغة في قولهم إن الحفدة الخدم والأعوان، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان؛ قاله ابن العربي.

(١) هو جميل. (٢) في البحر: لأصحاب. (٣) تقدم استشهاد ابن عباس به فلا يصح أن يكون لكثير عزة.

Marfat.com

روى البخاري وغيره عن سهل بن سعد أن أبا أسيد الساعدي دعا النبي صلى الله عليه وسلم لعرسه فكانت امرأته خادمهم ... الحديث، وقد تقدم في سورة « هود » (١) . وفي الصحيح عن عائشة قالت : أنا فتلت قلائد بُدن النبي صلى الله عليه وسلم بيدي . الحديث . ولهذا قال علماؤنا : عليها أن تفرش الفراش وتطبخ القِدْر وتَقُمّ الدار، بحسب حالها وعادة مثلها ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » (٢) فكأنه جمع لنا فيها السَّكَن والاستمتاع وضربا من الخدمة بحسب جرى العادة .

الرابعة — ويخدم الرجلُ زوجته فيما خفّ من الخدمة ويُعينها ؛ لما روته عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكون في مِهْنة أهله فإذا سمع الأذان خرج . وهذا قول مالك : ويعينها . وفي أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان يخصف النعل ويَقُمّ البيت ويخيط الثوب . وقالت عائشة وقد قيل لها : ما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ قالت : كان بشرا من البشر يَفْلِي (٣) ثوبه ويحلب شاته ويخدُمُ نفسه .

الخامسة — وينفق على خادمة واحدة، وقيل: على أكثر؛ على قدر الثروة والمنزلة . وهذا أمر دائر على العرف الذي هو أصل من أصول الشريعة ، فإن نساء الأعراب وسكان البوادي يخدمن أزواجهن [حتى] (٤) في استعذاب الماء وسياسة الدواب، ونساء الحواضر يخدم المقل منهم زوجته فيما خف ويعينها ،وأما أهل الثروة فيخدمون (٥) أزواجهم ويترفهن معهم إذا كان لهم منصب ذلك؛ فإن كان أمرا مشكلا شرطت عليه الزوجة ذلك، فتشهد أنه قد عرف أنها ممن لاتخدم نفسها فالتزم إخدامها ، فينفذ ذلك وتنقطع الدعوى فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي من الثمار والحبوب والحيوان . ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ يعني الأصنام، قاله ابن عباس . ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قراءة الجمهور بالياء. وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء . ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللهِ ﴾ أي بالإسلام . ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٨ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٣٧ . (٣) يفلي ثوبه مما يناله من بعض الجلساء لأن عنصره صلوات الله عليه في غاية الصفا والنقاء الخالص .
(٤) من ابن العربي .
(٥) كذا في ابن العربي والعبارة له .

Marfat.com

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمٰوَاتِ ﴾ يعنى المطر. ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ يعنى النبات . ﴿ شَيْئًا ﴾ قال الأخفش : هو بدل من الرزق . وقال الفرّاء : هو منصوب بإيقاع الرزق عليه؛ أى يعبدون مالا يملك أن يرزقهم شيئا .﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أى لا يقدرون على شيء، يعنى الأصنام . ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أى لا تشبهوا به هذه الجمادات ؛ لأنه واحد قادر لا مثل له . وقد تقدم .

قوله تعالى : ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

فيـه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا ﴾ نبّه تعالى على ضلالة المشركين، وهو منتظم بمـا قبله من ذكر نِعَم الله عليهم وعدم مثـل ذلك من آلهتهم . « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا » أى بين شبها ؛ ثم ذكر ذلك فقال : ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ أى كما لا يستوى عندكم عبدٌ مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجلٌ حُرٌّ قد رزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام . فالذى هو مثالٌ فى هذه الآية هو عبـد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المـال ولا من أمر نفسه ، وإنمـا هو مسخّر بإرادة سيده . ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة ؛ فإن النكرة فى الإثبات لا تقتضى الشمول عنـد أهل اللسان كما تقدم ، وإنمـا تفيد واحدا ، فإذا كانت بعد أمر أو نهى أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيوعى ؛ كقوله : أعتق رجلا ولا تُهن

Marfat.com

رجلا، والمصدر كاعتاق رقبة ، فأىّ رجل أعتق فقد خرج عن عهدة الخطاب، و يصح منه الاستثناء . وقال قتادة : هـذا المثل للؤمن والكافر ؛ يذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر؛لأنه لا ينتفع فى الآخرة بشىء من عبادته، و إلى أن معنى «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» المؤمن . والأول عليه الجمهور من أهل [العلم](1) والتأويل . قال الأصمّ : المراد بالعبد المملوك الذى ربما يكون أشدّ من مولاه أسْرًا(2) وأنضر وجها، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه ؛ فقال الله تعالى ضربا للثال . أى فإذا كان هـذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحجارا مواتا شركاء لله تعالى فى خلقه وعبادته ، وهى لا تعقل ولا تسمع .

الثانيـــة — فهم المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر فى الملك، وأنه لا يملك شيئا و إن ملك . قال أهل العراق : الرق ينافى الملك، فلا يملك شيئا ألبتة بحال، وهو قول الشافعىّ فى الجديد، و به قال الحسن وابن سيرين . ومنهم من قال : يملك إلا أنه ناقص الملك ؛ لأن لسيده أن ينتزعه منه أىّ وقت شاء ، وهو قول مالك ومن اتبعه ، و به قال الشافعىّ فى القديم . وهو قول أهـل الظاهر ؛ ولهذا قال أصحابنا : لاتجب عليه عبادة الأموال من زكاة وكفارات ، ولا من عبـادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سـيده كالحج والجهاد وغير ذلك . وفائدة هذه المسألة أن سيده لو ملّكه جارية جاز له أن يطأها بملك اليمين ، ولو ملّكه أربعين من الغنم فحال عليها الحول لم تجب على السيد زكاتها لأنها ملك غيره، ولا على العبد لأن ملكه غير مستقر. والعراقىّ يقول: لا يجوز له أن يطأ الجارية، والزكاة فى النصاب واجبة على السيد كما كانت . ودلائل هذه المسئلة للفريقين فى كتب الخلاف . وأدلّ دليل لنا قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ(3) » فسوّى بين العبد والحرّ فى الرزق والخلق . وقال عليه السلام : ” من أعتق عبدا وله مال ... “ فأضاف المـال إليه . وكان ابن عمر يرى عبده يتسرى فى ماله فلا يعيب عليه ذلك . و روى عن ابن عباس أن عبدا له طلق امرأته طلقتين فأمره أن يرتجعها بملك اليمين ؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده و يفعل فيه ما يفعل المـالك فى ملكه ما لم ينتزعه سيده . والله أعلم .

(1) من ى . (2) الأسر : الخلق . (3) راجع جـ ١٤ ص ٤٠ .

Marfat.com

الثالثـــة ــ وقد استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده، وعلى أن بيع الأمة طلاقها؛ معوِّلا على قوله تعالى: « لَا يَقْـدِرُ عَلَى شَيْءٍ » . قال: فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلا، لا ٠٠ الملك ولا على غيره فهو على عمومه، إلا أن يدلّ دليل على خلافه . وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص . والله تعالى أعلم .

والرابعـــة ــ قال أبو منصور فى عقيدته[(١)] : الرزق ما وقع الاغتذاء به . وهذه الآية ترد هذا التخصيص؛ وكذلك قوله تعالى: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»[(٢)] . و «وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ»[(٣)] وغير ذلك من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " جعـل رزقى تحت ظِلّ رمحى " وقوله : "أرزاق أمتى فى سنابك خيلها وأسنة رماحها" . فالغنيمة كلها رزق، وكل ما صحّ به الانتفاع فهو رزق، وهو مراتب : أعلاها ما يغذّى . وقد حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه الانتفـاع فى قوله : " يقول ابن آدم مالى مالى وهـل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت " . وفى معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك . وفى ألسنة المحدّثين : السماع رزق، يعنون سماع الحديث ، وهو صحيح .

الخامســـة ــ قوله تعـالى : ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو المؤمن، يطيع الله فى نفسه وماله، والكافر لمـا لم ينفق فى الطاعة صار كالعبد الذى لا يملك شيئا «هَلْ يَسْتَوُونَ» أى لا يستوون، ولم يقل يستويان لمكان « مَـن » لأنه آسم مُبهَم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث . وقيل : إنّ « عَبْدًا مَمْلُوكًا » ، «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ» أريد بهما الشيوع فى الجنس . ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى هو المستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه؛ إذ لا نعمة للأصنام عليهم من يد ولا معروف فتحمد عليه ، إنمـا الحمد الكامل لله ؛ لأنه المنعم الخالق . « بَلْ أَكْثَرُهُمْ » أى أكثر المشركين « لَا يَعْلَمُونَ » أن الحمد لى ، وجميع النعمة منى . وذكر الأكثر وهو يريد الجميع ، فهو خاص أريد به التعميم . وقيل : أى بل أكثر الخلق لا يعلمون ، وذلك أن أكثرهم المشركون .

---

(١) العقيدة : اسم كتاب لأبى منصور الماتريدى ، وهو محمد بن محمد بن محمود مات بسمرقند سنة ٣٣٣ هـ . راجع كشف الظنون وتاج التراجم فى طبقات الحنفية . (٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧ .
(٣) راجع جـ ٣ ص ٢٦٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٧٦)

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن ، فالأبكم الذى لا يقدر على شيء هو الوثن ، والذى يأمر بالعدل هو الله تعالى ؛ قاله قتادة وغيره . وقال ابن عباس : الأبكم عبد كان لعثمان رضى الله عنه ؛ وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى ، ويأمر بالعدل عثمان . وعنه أيضا أنه مثل لأبى بكر الصدّيق ومولى له كافر . وقيل : الأبكم أبو جهل ، والذى يأمر بالعدل عمار بن ياسر العنسي وعنس (بالنون) حى من مذحج وكان حليفا لبنى مخزوم رهط أبى جهل ، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام ويعذب أمه سُمَيّة ، وكانت مولاة لأبى جهل ، وقال لها ذات يوم : إنما آمنت بمحمد لأنك تحبينه لجماله ، ثم طعنها بالرمح فى قُبلها فماتت ، فهى أول شهيد مات فى الإسلام ، رحمها الله . من كتاب النقاش وغيره . وسيأتى هـذا فى آية الإكراه مبينا(١) إن شاء الله تعالى . وقال عطاء : الأبكم أبىّ بن خلف ، وكان لا ينطق بخير . ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ أى قومه لأنه كان يؤذيهم ويؤذى عثمان بن مظعون . وقال مقاتل : نزلت فى هشام بن عمرو بن الحارث ، كان كافرا قليل الخير يعادى النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن الأبكم الكافر ، والذى يأمر بالعدل المؤمن جملة بجملة ؛ روى عن ابن عباس وهو حسن لأنه يعم . والأبكم الذى لا نطق له . وقيل : الذى لا يعقل . وقيل : الذى لا يسمع ولا يبصر . وفى التفسير إن الأبكم ها هنا الوثن . بيّن أنه لا قدرة له ولا أمر ، وأن غيره ينقله وينحته فهو كلّ عليه . والله الآمر بالعدل ، الغالب على كل شيء . وقيل : المعنى « وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ » أى ثقل على وليّه وقرابته ، ووَبَال على صاحبه وابن عمه . وقد يسمى اليتيم كَلًّا لثقله على من يكفله ؛ ومنه قول الشاعر :

أكولٌ لمال الكَلّ قبل شبابه * إذا كان عظم الكَلّ غير شديد

(١) راجع ص ١٨٠ وما بعدها من هذا الجزء .

والكَلّ أيضا الذى لا ولد له ولا والد . والكَلّ العيال ، والجمع الكلول ؛ يقال منـه : كَلّ السكين يكل كَلًّا أى غلظت شفرته فلم يقطع . ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ قرأ الجمهور « يُوَجِّهه » وهو خط المصحف ؛ أى أينما يرسله صاحبه لا يأت بخير ؛ لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يفهم عنه . وقرأ يحيى بن وثّاب « أينما يُوَجَّهْ » على الفعل المجهول . [وروى عن ابن مسعود] (١) وروى عن ابن مسعود أيضا « تَوَجَّه » على الخطاب . ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى هل يستوى هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل على الصراط المستقيم .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) تقدّم معناه . وهـذا متصل بقوله : « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى شرع التحليل والتحريم إنمـا يحسن ممن يحيط بالعواقب والمصالح ، وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بها فلِمَ تتحكمون . ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ﴾ وتجازون فيها بأعمـالكم . والساعة هى الوقت الذى تقوم فيه القيامة ؛ سميت ساعة لأنها تفجأ الناس فى ساعة فيموت الخلق بصيحة . واللّمح : النظر بسرعة ؛ يقال : لمحـه لمحًا ولمحـانا . ووجه التأويل أن الساعة لمـا كانت آتية ولا بدّ جعلت من القرب كلمح البصر . وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر ، وإنمـا وصف سرعة القدرة على الإتيان بها ؛ أى يقول للشيء كن فيكون . وقيل : إنمـا مثّل بلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ماهى عليه من البعد من الأرض . وقيل : هو تمثيل للقرب ؛ كما يقول القائل : ما السّنة إلا لحظة ، وشبهه . وقيل : المعنى هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين ؛ دليله قوله : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا » (٣) . ﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ ليس « أو » للشك بل للتمثيل بأيهما أراد الممثل . وقيـل : دخلت لشك المخاطب . وقيل : « أو » بمنزلة بل . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) تقدّم .

(١) من ى . (٢) راجع جـ ٩ ص ١١٧ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٣ .
(٤) راجع جـ ١ ص ٢٢٤ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها — لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق فى أصلاب آبائكم . الثانى — لا تعلمون شيئا مما قضى عليكم من السعادة والشقاء . الثالث — لا تعلمون شيئا من منافعكم ؛ وتمّ الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أى التى تعلمون بها وتدركون ؛ لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم ؛ أى وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهى ، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه ، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته . « وَالْأَفْئِدَةَ » جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة . وقد قيل فى ضمن قوله : « وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ » إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم ، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق . وقرأ الأعمش وابن وثّاب وحمزة « إمهاتكم » هنا وفى النور[1] والزمر[2] والنجم[3] ، بكسر الهمزة والميم . وأما الكسائى فكسر الهمزة وفتح الميم ؛ وإنما كان هذا للإتباع . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل . وأصل الأمهات : أمّات ، فزيدت الهاء تأكيدا كما زادوا هاء فى أهرقت الماء وأصله أرقت . وقد تقدم هذا المعنى فى « الفاتحة »[4] . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فيه تأويلان : أحدهما — تشكرون نعمه . الثانى — يعنى تبصرون آثار صنعته ؛ لأن إبصارها يؤدى إلى الشكر .

قوله تعالى : أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

(١) راجع جـ ١٢ ص ٣١١ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٣٤ . (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٠٥ .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٤٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن عامر وحمزة ويعقوب « تروا » بالتاء على الخطاب، واختاره أبو عبيد . الباقون بالياء على الخبر . ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مذللات لأمر الله تعالى؛ قاله الكلبي . وقيل : « مُسَخَّرَاتٍ » مذللات لمنافعكم . ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ الجو ما بين السماء والأرض؛ وأضاف الجو إلى السماء لارتفاعه عن الأرض . وفي قوله : « مُسَخَّرَاتٍ » دليل على مسخر سخرها ومدبر مكنها من التصرف . ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف . بين لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي علامات وعبرا ودلالات[1] . ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله وبما جاءت به رسله .

قوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

فيه عشر[2] مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم ﴾ معناه صير . وكل ما علاك فأظلك فهو سقف وسماء، وكل ما أقلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار : فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت . وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر أولا بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة . وقوله : ﴿ سَكَنًا ﴾ أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره؛ إلا أن القول خرج على الغالب . وعد هذا في جملة النعم فإنه لو شاء خلق العبد مضطربا أبدا كالأفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد، ولو خلقه ساكنا كالأرض لكان كما خلق وأراد، ولكنه أوجده خلقا يتصرف للوجهين، ويختلف حاله بين الحالتين، ورده كيف وأين . والسَّكَنُ مصدر يوصف به الواحد والجمع . ثم ذكر تعالى بيوت النقلة والرحلة وهي :

(١) في ج و و : رسلهم . (٢) اضطربت الأصول في عد هذه المسائل .

Marfat.com

الثانيـــة — فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أى من الأنطاع والأَدَم . « بُيُوتًا » يعنى الخيام والقِباب يخفّ عليكم حملها فى الأسفار . ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ الظَّعْن : سير البادية فى الانتجاع(١) والتحول من موضع إلى موضع ؛ ومنه قول عنترة :

ظَعَن الذين فِراقَهــم أتوقَّع * وجرى بينهم الغُرابُ الأبقعُ

والظعن الهَوْدَج أيضا ؛ قال :

ألا هل هاجك الأظعان إذ بانوا * وإذ جادت بوشك البين غربان

وقرئ بإسكان العين وفتحها كالشَّعْر والشَّعَر . وقيل : يحتمل أن يعم [به](٢) بيوت الأدَم وبيوت الشَّعَر وبيوت الصوف ؛ لأن هـذه من الجلود لكونها نابتة فيها ؛ نحا إلى ذلك ابن سَلام . وهو احتمال حسن ، ويكون قوله : « وَمِنْ أَصْوَافِهَا » ابتداء كلام ، كأنه قال جعل : أثاثا ؛ يريد الملابس والوطاء ، وغير ذلك ؛ قال الشاعر :

أهاجتـك الظعائن يوم بانوا * بذى الزِّىّ الجميـل من الأثاث

ويحتمل أن يريد بقـوله : « مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَـامِ » بيوت الأَدَم فقط كما قدمناه أولا . ويكون قوله : « وَمِنْ أَصْوَافِهَا » عطفا على قوله : « مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَـامِ » أى جعل بيوتا أيضا . قال ابن العربى : « وهذا أمر انتشر فى تلك الديار ، وعَزَبت عنه بلادنا ، فلا تُضرب الأخبية عندنا إلا من الكتّان والصوف ، وقد كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم قُبّةٌ من أدَم ، وناهيك من أدَم الطائف غلاء فى القيمة ، واعتلاء فى الصنعة ، وحُسْنا فى البشرة ، ولم يعدّ ذلك صلى الله عليه وسلم تَرَفا ولا رآه سرفا ؛ لأنه مما امتن الله سبحانه من نعمته وأذن فيه من متاعه ، وظهرت وجوه منفعته فى الاكتنان والاستظلال الذى لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان . ومن غريب ما جرى أنى زُرْتُ بعض المتزهّدين من الغافلين مع بعض المحـدّثين ، فدخلنا عليـه فى خِباء كتّان فعرض عليه صاحبي المحدّث أن يحمله إلى منزله ضيفا ، وقال : إن هذا موضع يكثر فيه الحـرّ والبيت أرفق بك وأطيب لنفسى فيك ؛ فقال : هـذا الخباء لنا كثير ، وكان

(١) النجعة والانتجاع : طلب الكلأ ومساقط الغيث .   (٢) من ح و ى .

Marfat.com

فى صُنعنا من الحقير؛ فقلت : ليس كما زعمت ! فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رئيس الزهاد قبة من أدَم طائفيّ يسافر معها ويستظلّ بها ؛ فبُهت ، ورأيته على منزلة من العيّ فتركته مع صاحبي وخرجت عنه » .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز، كما أذن فى الأعظم ، وهو ذبحها وأكل لحومها ، ولم يذكر القطن والكتّان لأنه لم يكن فى بلاد العرب المخاطبين به ، وإنمـا عدّد عليهم ما أنعم به عليهم ، وخوطبوا فيما عرفوا بمـا فهموا . وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل فى الاستعمال والنعمة مدخلها ؛ وهذا كقوله تعالى : « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ »(١) ؛ فخاطبهم بالبَرَد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عندهم ، وسكت عن ذكر الثلج ؛ لأنه لم يكن فى بلادهم ، وهو مثله فى الصفة والمنفعة ، وقد ذكرهما النبيّ صلى الله عليه وسلم معا فى التطهير فقال : "اللهم اغسلنى بماء وثلج وبَرَد» . قال ابن عباس : الثلج شيء أبيض ينزل من السماء وما رأيته قط . وقيـل : إن ترك ذكر القطن والكتّان إنمـا كان إعراضا عن الترف ؛ إذ مَلْبَس عبـاد الله الصالحين إنمـا هو الصُّوف » وهـذا فيه نظر ؛ فإنه سبحانه يقول : « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ » حسبما تقدّم بيانه فى « الأعراف »(٢) . وقال هنا : « وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ » فأشار إلى القطن والكتّان فى لفظة « سرابيل » والله أعلم . و﴿ أَثَاثًا ﴾ قال الخليل : متاعا منضما بعضه إلى بعض ؛ من أثّ إذا كثر . قال :

وفـرعٍ يَزِين المَتْن أسودَ فاحمٍ * أثيثٍ كقِنْـوِ النخلة المتعثكِلِ(٣)

ابن عباس : « أثاثا » ثيابا . وقد تقدّم . وتضمنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال ، ولذلك قال أصحابنا : صوف الميتـة وشعرها طاهر يجوز

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٨٩ . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٨٢ . (٣) البيت من معلقـة امرئ القيس . والفرع : الشعر التام . والمتن والمتنة : ما عن يمين الصلب وشماله من العصب واللحم . والفاحم : الشديد السواد . والقنو (بالكسر والضم) : العذق وهو الشمراخ . والمتعثكل : الذى قد دخل بعضه فى بعض لكثرته .

Marfat.com

الانتفاع به على كل حال ، ويغســل مخافة أن يكون علق به وسخ ؛ وكذلك روت أم ســلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا بأس بجلد الميتة إذا دُبغ وصوفها وشعرها إذا غُسل"(١) لأنه ممــا لايحله الموت ، وســواء كان شعر ما يؤكل لحمه أو لا ، كشعر آبن آدم والخنزير ، فإنه طاهر كله ؛ و به قال أبو حنيفة ، ولكنه زاد علينا فقال : القَرْن والسِّن والعظم مثــل الشعر ؛ قال : لأن هــذه الأشياء كلها لا روح فيها فلا تنجس بموت الحيوان . وقال الحسن البَصْرِيّ والليث بن سعد والأوزاعيّ : إن الشعور كلها نجسة ولكنها تطهر بالغسل . وعن الشافعي ثلاث روايات : الأولى — طاهرة لاتنجس بالموت . الثانية — تنجس . الثالثة — الفرق بين شــعر ابن آدم وغيره ، فشعر آبن آدم طاهر وما عداه نجس . ودليلنا عموم قــوله تعالى : «وَمِنْ أَصْوَافِهَا» الآية . فمنّ علينا بأن جعل لنا الانتفاع بها ، ولم يخصّ شعر الميتة من المذكّاة ، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل . وأيضا فإن الأصل كونها طاهرة قبل الموت بإجماع ، فمن زعم أنه انتقل إلى نجاسة فعليه الدليل . فإن قيل قوله : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ»(٢) وذلك عبارة عن الجملة . قلنــا : نخصه بمــا ذكرناه ؛ فإنه منصوص عليه فى ذكر الصوف ، وليس فى آيتكم ذكره صريحا ، فكان دليلنا أولى . والله أعلم . وقد عوّل الشيخ الإمام أبو إسحاق إمام الشافعية ببغداد على أن الشــعر جزء متصل بالحيوان خِلقة ، فهو ينمى بنمــائه ويتنجس بموته كسائر الأجزاء . وأجيب بأن النمــاء ليس بدليــل على الحياة ؛ لأن النبات ينمى وليس بحيّ . وإذا عوّلوا على النمــاء المتصل لمــا على الحيوان عوّلنا نحن على الإبانة التى تدلّ على عدم الإحساس الذى يدلّ على عدم الحيــاة . وأما ما ذكره الحنفيُّون فى العظم والسِّن والقَرْن أنه مثل الشعر ، فالمشهور عندنا أن ذلك نجس كاللحم . وقال آبن وهب مثل قول أبى حنيفة . ولنــا قول ثالث — هــل تلحق أطراف القرون والأظلاف بأصولهــا أو بالشعر ، قولان . وكذلك الشــعرِيّ من الريش حكمه حكم الشــعر ، والعظميّ منه حكمه حكمه . ودليلنا قــوله صلى الله عليه وسلم : "لا تنتفعوا من الميتة بشيء" وهذا عام فيها وفى كل جزء منها ، إلا ما قام دليــله ؛ ومن الدليــل القاطع على ذلك قوله تعــالى : «قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ»(٣) ،

(١) والحديث المشهور «أيما إهاب دبغ فقد طهر» رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٧ . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٥٨ .

Marfat.com

وقال تعالى : «وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا»(١) ، وقال : «فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْمًا»(٢) ، وقال : «أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً»(٣) فالأصل هى العظـام ، والروح والحياة فيهـا كما فى اللحم والجلد . وفى حديث عبـد الله بن عُكَيم : "لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب" . فإن قيـل : قد ثبت فى الصحيح أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال فى شاة ميمونة : "ألا انتفعتم بجلدها"؟ فقالوا يا رسـول الله ، إنها ميتة . فقال : "إنمـا حَرُم أكلها" والعظم لا يؤكل . قلنـا : العظم يؤكل ، وخاصّة عظم الحمل(٤) الرضيع والجـدْى والطير ، وعظم الكبير يشوى و يؤكل . وما ذكرناه قبلُ يدلّ على وجود الحياة فيه ، وما كان طاهرا بالحياة و يستباح بالذكاة يتنجس بالموت . والله أعلم .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿مِن جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ﴾ عام فى جلد الحىّ والميت ، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة و إن لم تُدبغ ؛ و به قال ٱبن شهاب الزهرىّ والليث بن سعد . قال الطحاوىّ : لم نجد عن أحد من الفقهاء جواز بيع جلد الميتة قبـل الدباغ إلا عن الليث . قال أبو عمر : يعـنى من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين ، وأما ابن شهاب فذلك عنـه صحيح ؛ وهو قول أباه جمهور أهل العلم . وقد روى عنهما خلاف هذا القول ، والأول أشهر .

قلت : قـد ذكر الدَّارَقُطْنِىّ فى سـننه حديث يحي بن أيوب عن يونس وعقيـل عن الزهرىّ ، وحديث بَقيَّـة عن الزُّبيدى ، وحديث محمد بن كثير العبدى وأبى سلمة المِنْقرىّ عن سليمان بن كثير عن الزهرىّ ، وقال فى آخرها : هذه أسانيد صحاح .

السادسـة(٥) — اختلف العلماء فى جلد الميتة إذا دُبغ هل يطهر أم لا ؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك ما يشـبه مذهب ابن شهاب فى ذلك . وذكره ابن خويزِ منداد فى كتابه عن ٱبن عبد الحكم أيضا . قال ٱبن خويزِ منداد : وهو قول الزهرىّ والليث . قال : والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ٱبن عبـد الحكم ، وهـو أن الدباغ لا يطهِّر جلد الميتة ، ولكن يبيح الانتفاع به فى الأشياء اليابسة ، ولا يُصلَّى عليه ولا يؤكل فيه . وفى المدوّنة لٱبن القـاسم :

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٨٨ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨ . (٣) راجع جـ ١٩ ص ١٨٨ .
(٤) فى أ ، ب ، حـ ، و : الجمل . (٥) اضطربت الأصول فى عدّ هذه المسائل .

Marfat.com

« من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ فأتلفه كان عليــه قيمته » وحكى أن ذلك قول مالك . وذكر أبو الفــرج أن مالكا قال : من اغتصب لرجل جلد ميتة غير مدبوغ فلا شيء عليــه . قال إسمــاعيل : إلا أن يكون لمجوسى . وروى ابن وهب وابن عبد الحكم عن مالك جواز بيعه ، وهذا فى جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده ؛ لأن الذكاة لا تعمل فيه ، فالدباغ أولى . قال أبو عمر : وكل جلد ذُكِّى فجائز استعماله للوضوء وغيره . وكان مالك يكره الوضوء فى إناء جلد الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله ، ومَرَّةً قال : إنه لم يكرهه إلا فى خاصة نفسه ، وتكره الصلاة عليه وبيعه ، وتابعــه على ذلك جماعة من أصحابه . وأما أكثر المدنيين فعــلى إباحة ذلك وإجازته ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيمــا إهاب دُبغ فقد طهر ". وعلى هذا أكثر أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث ، وهو اختيار ابن وهب .

السابعــة ــ ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنــه إلى أنه لا يجــوز الانتفاع بجلود الميتة فى شيء وإن دُبغت ، لأنها كلحم الميتة . والأخبار بالانتفاع بعد الدباغ تردّ قوله . واحتج بحديث عبد الله بن عُكَيم ــ رواه أبو داود ــ قال : قرئ علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض جُهَينة وأنا غلام شاب : " ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب " . وفى رواية : « قبل موته بشهر »(1) . رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عكيم ، قال : حدثنا مشيخة لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كتب إليهم ... قال داود بن علىّ : سألت يحيى بن معين عن هذا الحديث فضعفه وقال : ليس بشيء ، إنمــا يقول حدثنى الأشياخ . قال أبو عمر : ولو كان ثابتــا لاحتمل أن يكون مخالفا للأحاديث المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن المُحَبَّق وغيرهم ، لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عُكيم " ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب " قبل الدباغ ؛ وإذا احتمل ألا يكون مخالفا فليس لنــا أن نجعله مخالفا ، وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن ، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبيّ صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء فى الخبر فيمكن أن تكون قصة ميمونة وسماع ابن عباس منه " أيمــا إهاب دبغ فقد طهر " قبل موته بجمعة ، أو دون جمعة . والله أعلم .

(1) لفظة « بشهر » ساقطة من سنن أبى داود .

Marfat.com

الثامنــة — المشهور عنـدنا أن جلد الخنزير لا يدخل فى الحديث ولا يتناوله العموم ، وكذلك الكلب عند الشافعى. وعند الأوزاعى وأبى ثور : لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه . وروى مَعْن بن عيسى عن مالك أنه سـئل عن جلد الخنزير إذا دبغ فكرهه . قال ابن وَضّاح : وسمعت سُحْنونا يقـول لا بأس به ؛ وكذلك قال محمد بن عبد الحكم وداود بن على وأصحابه؛ لقوله عليه السلام : " أيمـا مَسْك[1] دبغ فقـد طهر " . قال أبو عمر : يحتمل أن يكون أراد بهـذا القول عموم الجلود المعهود الانتفاع بهـا ، فأما الخنزير فلم يدخل فى المعنى لأنه غير معهود الانتفاع بجلده ، إذ لا تعمل فيـه الذكاة . ودليل آخر وهو ما قاله النَّضْر بن شُمَيل : إن الإهاب جلد البقر والغنم والإبل ، وما عداه فإنمـا يقال له : جلد لا إهاب .

قلت : وجلد الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضا غير معهود الانتفاع به فلا يطهر؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : " أكل كل ذى ناب من السباع حرام " فليست الذكاة فيهـا ذكاة ، كما أنهـا ليست فى الخنزير ذكاة . وروى النسائى عن المقـدام بن معـد يكرب قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرير والذهب ومَيَاثر[2] النمور .

التاسـعة — آختلف الفقهاء فى الدباغ الذى تطهر به جلود الميتة ما هو؟ فقال أصحاب مالك وهو المشهور من مذهبه : كل شىء دبغ الجـلد من ملح أو قَرَظ أو شَبّ أو غير ذلك فقد جاز الانتفاع به؛ وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه ، وهو قول داود . وللشافعى فى هذه المسـئلة قولان : أحدهما — هـذا ، والآخر أنه لا يُطهِّر إلا الشَّب والقَرَظ؛ لأنه الدباغ المعهود على عهد النبى صلى الله عليـه وسلم ، وعليه خرّج الخطابى — والله أعلم — ما رواه النسائى عن ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من قريش يجرون شاة لهم مثل الحصان؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو أخذتم إهابها" قالوا : إنها ميتة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يطهرها المـاء والقرظ ".

---

(١) المسك (بالفتح وسكون السين) : الجلد . وخص بعضهم به جلد السخلة ، ثم كثر حتى صار كل جلد مسكا ، والجمع مسك ومسوك . (٢) أى عن أن تفرش جلودها على السرج والرحال للجلوس عليها لمـا فيه من التكبر ، أو لأنه زى العجم ، أو لأن الشعر نجس لا يقبل الدباغ . (عن شرح سنن النسائى) . المياثر : جلود محشوة تجعل على الرحل .

Marfat.com

العـاشرة — قوله تعـالى : ﴿ أَثَاثًا ﴾ الأثاث متاع البيت ، واحدها أثاثة ؛ هذا قول أبى زيد الأنصارى . وقال الأموى : الأثاث متـاع البيت ، وجمعـه آثّة وأُثُث . وقال غيرهما : الأثاث جميع أنواع المـال ولا واحد له من لفظه . وقال الخليل : أصله من الكثرة وآجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر ؛ ومنـه شعر أثيث أى كثير . وأثّ شـعر فلان يأَثُّ أثّا إذا كثر وآلتفّ ؛ قال آمرؤ القيس :

وفرعٍ يزينُ المتن أسـود فاحم * أثيث كقِنوِ النخلة المتعثكلِ

وقيـل : الأثاث ما يلبس ويفترش . وقد تأثّثْت إذا اتخـذت أثاثا . وعن ابن عباس رضى الله عنه « أثاثا » مالا . وقد تقدم القول فى الحين (١) ؛ وهو هنا وقت غير معين بحسب كل إنسان، إما بموته و إمّا بفقد تلك الأشياء التى هى أثاث . ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

أهاجتـك الظعائن يوم بانوا * بذى الزى الجميـل من الأثاث

قوله تعـالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَـلَ لَـكُم مِّمَّـا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَـكُم مِّنَ ٱلْجِبَـالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَـكُمْ سَرَٰبِيـلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ ظِلَـٰلًا ﴾ الظلال : كل ما يستظل به من البيوت والشجر . وقوله : « مِّمَّـا خَلَقَ » يعمّ جميع الأشخاص المظلّة .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَكْنَـٰنًا ﴾ الأكنان : جمع كِنّ ، وهو الحافظ من المطـر والريح وغير ذلك ؛ وهى هنا الغيران فى الجبال، جعلها الله عدّة للخلق يأوون إليها و يتحصنون بها و يعتزلون عن الخلق فيها . وفى الصحيح أنه عليه السلام كان فى أول أمره يتعبّد بغار حِرَاء ويمكث فيه الليالى ... الحديثَ . وفى صحيح البخارى قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) راجع جـ ١ ص ٣٢١ و جـ ٩ ص ٣٦٠ فـا بعد .

Marfat.com

من مكة مهاجرا هاربا من قومه فارا بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بغـار في جبل ثور ، فكمنا فيه (١) ثلاث ليال يبيت عندهما فيه عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن (٢) فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به (٣) إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة (٤) من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل ، وهو لبن منحتهما ورضيفهما (٥) حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث ... وذكر الحديث . انفرد بإخراجه البخاري .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ يعني القمص ، واحدها سربال . ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ يعني الدروع التي تقي الناس في الحرب ؛ ومنه قول كعب بن زهير :

شُمُّ العرانين أبطالٌ لَبُوسُهُم * من نَسْجِ داودَ في الهيجا سَرابيلُ

الرابعـــة — إن قال قائل : كيف قال « وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا » ولم يذكر السهل ، وقال : « تَقِيكُمُ الْحَرَّ » ولم يذكر البرد ؟ فالجواب أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب سهل ، وكانوا أهل حر ولم يكونوا أهل برد ، فذكر لهم نعمه التي تختص بهم كما خصهم بذكر الصوف وغيره ، ولم يذكر القطن والكتان ولا الثلج — كما تقدم — فإنه لم يكن ببلادهم (٦) ؛ قال معناه عطاء الخراساني وغيره . وأيضا : فذكر أحدهما يدل على الآخر ؛ ومنه قول الشاعر :

وما أدري إذا يممت أرضا * أريد الخـير أيهما يليني

أالخـير الذي أنا أبتغيـــه * أم الشر الذي هـو يبتغيني

الخامســـة — قال العلماء : في قوله تعالى : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ دليل على اتخاذ العباد عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء ، وقد لبسها النبي صلى الله عليه وسلم تقاة

(١) في جـ و و : مكثا . (٢) أي حاذق سريع الفهم ، لقن حسن التلقن لما يسمعه .
(٣) من الكيد ؛ أي يطلب لهما ما فيه المكروه . (٤) أي شاة تحلب إناء بالغداة و إناء بالعشي .
(٥) الرضيف : اللبن المرضوف ، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وخمه . وينعق : يصيح .
(٦) يقول محققه : ذكر الله لهم تلك النعم وهي دالة على ما يقابلها على سبيل الاكتفاء . والقطن مشهور باليمن ومنه الثياب السحولية وكذا صحار ومنه كفن عليه السلام في ثوبين صحاريين . وكذا الثلج في جبال بلاد العرب .

Marfat.com

الجراحة وإن كان يطلب الشهادة، وليس للعبد[1] أن يطلبها بأن يستسلم للحتوف وللطعن بالسنان وللضرب بالسيوف، ولكنه يلبس لأمة[2] حرب لتكون له قوة على قتال عدوه، ويقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ويفعل الله بعدُ مايشاء.

السادســة — قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ قرأ ابن مُحَيصن وحُميد « تتم » بتاءين، « نعمتُه » رفعا على أنها الفاعل. الباقون « يتم » بضم الياء على أن الله هو يتمها. و «تُسْلِمُونَ» قراءة ابن عباس وعكرمة « تَسلَمون » بفتح التاء واللام، أي تسلمون من الجراح، وإسناده ضعيف؛ رواه عَباد بن العوّام عن حنظلة عن شَهْر عن ابن عبـاس. الباقون بضم التاء، ومعناه تستسلمون وتنقادون إلى معرفة الله وطاعته شكرا على نعمــه. قال أبو عبيد: والاختيار قراءة العامة، لأن ما أنعم الله به علينا من الإســلام أفضل ممـا أنعم به من السلامة من الجراح.

قوله تعـالى: فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾

قوله تعـالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فإلينا.

قوله تعـالى: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ قال السُّدّي: يعني محمدا صلى الله عليه وسلم، أي يعرفون نبوّته. ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ويكذبونه. وقال مجاهد: يريد ماعدّد الله عليهم في هــذه السورة من النعم؛ أي يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم. وبمثله قال قتادة. وقال عون بن عبــد الله: هو قول الرجل لولا فــلان لكان كذا، ولولا فــلان ما أصبت كذا، وهم يعرفون النفع والضر من عند الله. وقال الكَلْبي: هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا عرّفهم بهذه النعم كلها عرفوها، وقالوا: نعم، هي كلها نِعم من الله، ولكنها

(١) في ى: على العبد. (٢) لأمة الحرب: أداته؛ وقد تترك الهمزة تخفيفا. في ى: حربه.

Marfat.com

بشفاعة آلهتنا . وقيل : يعرفون نعمة الله بتقلّبهم فيها ، وينكرونها بترك الشكر عليها . ويحتمل سادساً — يعرفونها في الشدّة وينكرونها في الرخاء . ويحتمل سابعاً — يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم . ويحتمل ثامناً — يعرفونها بقلوبهم ويجحدونها بألسنتهم ؛ نظيرها : «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ»[1] . ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ يعني جميعهم ؛ حسبما تقدّم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ نظيره : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » وقد تقدّم[2] . ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي في الاعتذار والكلام ؛ كقوله : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »[3] . وذلك حين تطبق عليهم جهنم ، كما تقدّم في أول « الحجر »[4] ويأتي . ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يعني يسترضون ، أي لا يكلفون أن يرضوا ربهم ؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العَتْب وهي المَوْجِدة ؛ يقال : عَتَب عليه يَعتِب إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه ماعتَب عليه فيه قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرّتك فقد أعتَب ، والاسم العُتبى وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضى العاتبَ ؛ قاله الهروي . وقال النابغة :

فإن كنتُ مظلوماً فعبداً ظلمتَه * وإن كنتَ ذا عُتبى فمثلك يُعتِبُ

قوله تعالى : وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي أشركوا . ﴿ الْعَذَابَ ﴾ أي عذاب جهنم بالدخول فيها . ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أي لا يمهلون ؛ إذ لا توبة لهم ثَمّ .

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٥٦ .
(٢) راجع جـ ٥ ص ١٩٧ .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ١٦٤ .
(٤) راجع ص ٣٠ فما بعد من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَى ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أى أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ؛ وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يُورِدوهم النار . وفى صحيح مسلم : "من كان يعبد شيئا فَلْيَتَّبِعْه فيتَّبِـع من كان يعبد الشمسَ الشمس ويتبع من كان يعبد القمرَ القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت" الحديثَ ، خرجه من حديث أنس(1) ، والترمذى من حديث أبى هريرة ، وفيه : " فيُمَثَّل لصاحب الصليب صليبُه ولصاحب التصاوير تصاويرُه ولصاحب النار نارُه فيتبعون ما كانوا يعبدون " وذكر الحديث(2) . ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ أى الذين جعلناهم لك شركاء . ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى ألقت إليهم الآلهة القول ، أى نطقت بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة ، ولا أمرتهم بعبادتها ، فيُنطق الله الأصنامَ حتى تظهر عند ذلك فضيحةُ الكفار . وقيـل : المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم . ﴿وَأَلْقَـوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِـذٍ السَّلَمَ﴾ يعنى المشركين ، أى استسلموا لعذابه وخضعوا لعـزّه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم . ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْـتَرُونَ﴾ أى زال عنهم ما زيّن لهم الشيطان وما كانوا يؤملون من شفاعة آلهتهم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

(1) ورد هذا الحديث فى صحيح مسلم عن أبى هريرة . راجع كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية .
(2) راجع الحديث فى سنن الترمذى فى باب صفة الجنة .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ قال ابن مسعود : عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وحيات مثـل أعناق الإبل، وأفاعى كأنها البخاتى[(١)] تضربهم، فتلك الزيادة . وقيـل : المعنى يخرجون من النـار إلى الزمهرير فيبادرون من شـدة برده إلى النار . وقيـل : المعنى زدنا القادة عذابا فوق السّفلة، فأحد العذابين على كفرهم والعذاب الآخر على صدّهم . ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ فى الدنيا من الكفر والمعصية .

قوله تعـالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وهم الأنبياء، شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم الرسالة ودعَوهم إلى الإيمـان، وفى كل زمان شهيد وإن لم يكن نبيا؛ وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء . الثانى — أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه .

قلت : فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحّد الله؛ كقُس بن ساعدة، وزيد بن عمرو ابن نُفَيل الذى قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يبعث أمة وحده"، وسَطِيح[(٢)]، وورقة ابن نَوفل الذى قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : "رأيته ينغمس فى أنهار الجنة". فهؤلاء ومن كان مثلهم حجةٌ على أهل زمانهم وشهيدٌ عليهم . والله أعلم . وقوله : « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ » تقدّم فى البقرة والنساء[(٣)] .

قوله تعـالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ نظيره : « مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ »[(٤)] وقد تقدّم، فلينظر هناك . وقال مجاهد : تبيانا للحلال والحرام .

(١) البخاتى : جمال طوال الأعناق . (٢) هو كاهن بنى ذئب، كان يتكهن فى الجاهلية، واسمه ربيع بن ربيعة . (راجع سيرة ابن هشام ص ٩ طبع أوربا) .
(٣) راجع جـ ٣ ص ١٥٤ وجـ ٥ ص ١٩٧ . (٤) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ .

Marfat.com

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

فيــه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ روى عن عثمان بن مظعون أنه قال : لمـا نزلت هذه الآية قرأتها على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فتعجب فقال : يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا ، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق . وفى حديث ــ إن أبا طالب لمـا قيل له : إن ٱبن أخيك زعم أن الله أنزل عليه. « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » الآية ، قال : اتبعوا ٱبن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحـاسن الأخلاق . وقال عكرمة : قرأ النبى صـلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » إلى آخرها ، فقال : يابن أخى أعد ! فأعاد عليه فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطُلاوة ، وإن أصله لمُورِق ، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر ! . وذكر الغزنوىّ أن عثمان بن مظعون هو القارئ . قال عثمان : ما أسـلمت ابتداء إلا حياءً من رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حتى نزلت هـذه الآية وأنا عنده فٱستقر الإيمـان فى قلبى ، فقـرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: يابن أخى أعد ! فأعدت فقال: والله إن له لحلاوة، ... وذكر تمام الخبر. وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية فى القرآن لخير يمتثل ، ولشر يجتنب . وحكى النقاش قال : يقـال زكاة العـدل الإحسان ، وزكاة القـدرة العفو ، وزكاة الغنى المعروف وزكاة الجاه كَتْبُ الرجل إلى إخوانه .

الثانيــة ــ اختلف العلماء فى تأويل العدل والإحسان ؛ فقال ابن عباس : العـدل لا إله إلا الله ، والإحسان أداء الفرائض . وقيل : العدل الفرض ، والإحسان النافلة . وقال سـفيان بن عُيينة : العـدل ها هنا استواء السريرة ، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية . علىّ بن أبى طالب : العـدل الإنصاف، والإحسان التفضل . قال ابن عطية :

Marfat.com

العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع فى أداء الأمانات ، وتركُ الظلم والإنصافُ ، و إعطاء الحق ، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه ؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه ، ومنهـا ما هو فرض ، إلا أن حدّ الإجزاء منـه داخل فى العدل ، والتكميلُ الزائد على الإجزاء داخل فى الإحسان . وأما قول ابن عباس ففيه نظر ؛ لأن أداء الفرائض هى الإسلام حسبما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل ، وذلك هو العدل ، و إنمـا الإحسان التكميلات والمندوب إليه حسبما يقتضيه تفسير النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل بقوله : "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" . فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد الفرائض مكملة . وقال ابن العربى : العدل بين العبـد و بين ربه إيثار حقـه تعالى على حظ نفسه ، وتقـديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر . وأما العدل بينـه و بين نفسه فمنعها ممـا فيه هلاكها ؛ قال الله تعـالى : « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى »[1] وعُزوبُ[2] الأطماع عن الاتبـاع ، ولزومُ القناعة فى كل حالٍ ومعنًى . وأما العدل بينـه وبين الخلق فبذلُ النصيحة ، وترك الخيـانة فيما قلّ وكثُر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ؛ ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعـل لا فى سِرّ ولا فى عَلَن ، والصبر على مايصيبك منهم من البلوى ، وأقلّ ذلك الإنصاف وترك الأذى .

قلت : هذا التفصيل فى العدل حَسَنٌ وعدل ، وأما الإحسان فقد قال علماؤنا : الإحسان مصدر أحسن يُحْسن إحسانا . ويقال على معنيين : أحدهما متعدّ بنفسه ؛ كقولك : أحسنت كذا ، أى حسّنته وكمّلته ، وهو منقول بالهمزة من حَسُن الشئ . وثانيهما متعدّ بحرف جر ؛ كقولك : أحسنت إلى فلان ، أى أوصلت إليه ماينتفع به .

قلت : وهو فى هذه الآية مراد بالمعنيين معا ؛ فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض ، حتى أن الطائر فى سجنك والسِّنّوْر فى دارك لاينبغى أن تقصر تعهّده بإحسانك ؛ وهو تعالى غنيٌّ عن إحسانهم ، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنّن . وهو فى حديث جبريل

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٠٥ . (٢) فى ى : عزوف .

Marfat.com

بالمعنى الأوّل لا بالثانى؛ فإن المعنى الأوّل راجع إلى إتقان العبادة ومراعاتها بآدابها المصححة المكملة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار . وهو المراد بقوله "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" . وأرباب القلوب فى هذه المراقبة على حالين : أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه . ولعل النبيّ صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحالة بقوله : "وجعلت قرّة عينى فى الصلاة". وثانيهما — لاتنتهى إلى هذا ، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ »(١) وقوله : « إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ »(٢) .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ أى القرابة ؛ يقول : يعطيهم المال كما قال : « وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ »(٣) يعنى صلته . وهذا من باب عطف المندوب على الواجب ، وبه استدلّ الشافعيّ فى إيجاب إيتاء المكاتب ؛ على ما يأتى بيانه . وإنما خص ذا القربى لأن حقوقهم أوكد وصلتهم أوجب ؛ لتأكيد حق الرحم التى اشتق الله اسمها من اسمه ، وجعل صلتها من صلته ، فقال فى الصحيح : "أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك"(٤) . ولا سيما إذا كانوا فقراء .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ الفحشاء : الفحش ، وهو كل قبيح من قول أو فعل . ابن عباس : هو الزنى . والمنكر : ما أنكره الشرع بالنهى عنه ، وهو يعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها . وقيل : هو الشرك . والبغى : هو الكبر والظلم والحقد والتعدّى ؛ وحقيقته تجاوز الحدّ ، وهو داخل تحت المنكر ، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به لشدّة ضرره . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا ذنب أسرع عقوبةً من بغيٍ" . وقال عليه السلام : "الباغى مصروع" . وقد وعد الله من بُغِيَ عليه بالنصر . وفى بعض الكتب المنزّلة : لو بغى جبل على جبل لجعل الباغى منهما دكّا .

(١) راجع ج ١٣ ص ١٤٠ . (٢) راجع ج ٨ ص ٣٥٥ . (٣) راجع ص ٢٤٧ من هذا الجزء .
(٤) راجع صحيح البخارى فى كتاب التفسير فى سورة محمد وكتاب الأدب والتوحيد . وصحيح مسلم فى كتاب الأدب .

Marfat.com

الخامســـــة — ترجم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه فقال : (باب قول الله تعـالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ، وقوله : « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ »(١) ، « ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ »(٢) ، وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر) ثم ذكر حديث عائشة فى سحر لبيد ابن الأعصم النبىّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن بطال : فتأوّل رضى الله عنه من هذه الآيات وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر؛ كما دلّ عليه حديث عائشة حيث قال عليه السلام : "أما الله فقد شفانى وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شرا" . ووجه ذلك — والله أعلم — أنه تأوّل فى قول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » الندب بالإحسان إلى المسىء وترك معاقبته على إساءته . فإن قيـل : كيف يصح هـذا التأويل فى آيات البغى . قيـل : وجه ذلك — والله أعلم — أنه لمـا أعلم الله عباده بأن ضرر البغى ينصرف على البـاغى بقوله : « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » وضمن تعالى نصرة من بُغِىَ عليه، كان الأولى بمن بغى عليه شكر الله على ما ضمن من نصره ومقابلة ذلك بالعفو عمن بغى عليـه ؛ وكذلك فعل النبىّ صلى الله عليه وسـلم باليهودى الذى سحره، وقد كان له الانتقام منه بقوله : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ »(٣) . ولكن آثر الصـفح أخذا بقوله : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »(٤) .

السادســـــة — تضمّنت هذه الآية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد تقدّم القول فيهما(٥) . روى أن جماعة رفعت عاملها إلى أبى جعفر المنصور العباسى، فحاجّها العامل وغلبها، بأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جوره فى شىء ؛ فقام فتى من القوم فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدل ولم يحسن . قال : فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٨٩ . (٣) راجع ص ٢٠٠ من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٣٨ . (٥) راجع جـ ٤ ص ٤٧ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٩١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ لفظ عام لجميع ما يُعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة فى أمر موافق للديانة . وهذه الآية مضمّن قوله : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » لأن المعنى فيها : افعلوا كذا ، وانتهوا عن كذا ؛ فعطف على ذلك التقدير . وقد قيل : إنها نزلت فى بيعة النبيّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام . وقيل : نزلت فى التزام الحلف الذى كان فى الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به ؛ قاله قتادة ومجاهد وآبن زيد . والعموم يتناول كل ذلك كما بيناه . روى الصحيح عن جُبَير بن مُطعِم قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " لا حِلف فى الإسلام وأيما حِلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة " يعنى فى نصرة الحق والقيام به والمواساة . وهذا كنحو حِلف الفُضُول الذى ذكره آبن إسحاق قال : اجتمعت قبائل من قريش فى دار عبد الله بن جُدْعان لشرفه ونسبه[(١)]، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألّا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى تُرَدّ عليه مظلمته ؛ فسمت قريش ذلك الحِلف حِلف الفضول ، أى حلف الفضائل . والفضول هنا جمع فَضْل للكثرة كفلس وفلوس . روى آبن إسحـاق عن آبن شهاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حِلفا ما أحب أن لى به حُمْر النَّعَم لو أدعى به فى الإسلام لأجبت " . وقال آبن إسحاق : تحامل الوليد بن عُتبة على حسين بن علىّ فى مال له ، لسلطان الوليد فإنه كان أميرا على المدينة ؛ فقال له حسين بن علىّ : أحلف بالله لتُنْصِفَنِّى من حق أو لآخذنّ سيفى ثم لأقومنّ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعونّ بحلف الفضول . قال عبـد الله بن الزبير : وأنا أحلف والله لئن دعا[(٢)] لآخذنّ سيفى ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعا . وبلغت المِسْوَر بن مَخْرَمة فقال مثل ذلك . وبلغت

(١) فى سيرة ابن هشام : « لشرفه وسنه » . (٢) فى سيرة ابن هشام : « لئن دعا به » .

Marfat.com

عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه . قال العلماء : فهذا الحلف الذي كان في الجاهلية هو الذي شدّه الإسلامُ وخصه النبيّ عليه الصلاة والسلام من عموم قوله : "لا حِلف في الإسلام" . والحكمة في ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجابا عاما على من قدر من المكلّفين، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(1) . وفي الصحيح [من قوله](2) : "أنصر أخاك ظالما أو مظلوما" قالوا : يارسول الله، هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ قال : "تأخذ على يديه — في رواية : تمنعه من الظلم — فإن ذلك نصره". وقد تقدّم قوله عليه السلام: "إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده" .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يقول بعد تشديدها وتغليظها؛ يقال : توكيد وتأكيد، ووكّد وأكّد، وهما لغتان .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ يعني شهيدا . ويقال : حافظا، ويقال : ضامنا . وإنما قال : « بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » فرقا بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك : التوكيد هو حلف الإنسان في الشيء الواحد مرارا، يردّد فيه الأيمان ثلاثا أو أكثر من ذلك؛ كقوله : والله لا أُنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا . قال : فكفارة ذلك واحدة مثل كفارة اليمين . قال يحيى بن سعيد : هي العهود، والعهد يمين، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفَّر . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يُنْصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غَدرته يقال هذه غدرة فلان" . وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة، وحل ما انعقدت عليه اليمين . وقال ابن عمر : التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه . وقد تقدّم في المائدة(3) .

(1) راجع جـ ١٦ ص ٤٤ . (2) من و . (3) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ النقض والنكث واحد، والاسم النكث والنقض، والجمع الأنكاث . فشبّهت هذه الآية الذى يحلف و يعاهد و يُبرِم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله مُحكمًا ثم تحُلّه . و يروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى رَيْطَة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه؛ قاله الفراء، وحكاه عبد الله بن كثير والسُّدّى ولم يسميا المرأة . وقال مجاهد وقتادة : وذلك ضرب مثلٍ، لا على امرأة معيّنة . و « أنكاثًا » نصب على الحال . والدَّخَل : الدغَل والخديعة والغش . قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دَخَل . ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة(١) قوية فداخلتها ، غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى — قاله مجاهد — فقال الله تعالى : لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالا فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة فى الدنيا لأعدائكم المشركين . والمقصود النهى عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم . وقال الفراء : المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم، وقد عززتموهم بالأيمان . ﴿ أَرْبَىٰ ﴾ أى أكثر؛ من رَبَى الشئ يربو إذا كثر . والضمير فى « به » يحتمل أن يعود على الوفاء الذى أمر الله به . و يحتمل أن يعود على الرباء؛ أى أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد ، وطلب بعضهم الظهورَ على بعض ، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها و يعمل بمقتضى هواها؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من البعث وغيره .

(١) فى ى : كبيرة .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى على ملة واحدة . ﴿ وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ بخذلانه إياهم، عدلا منه فيهم . ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ بتوفيقه إياهم، فضلا منه عليهم، ولا يسأل عما يفعل بل تسألون أنـتم . والآية تردّ على أهل القدر كما تقدم . واللام فى « وليبين ولتسئلن » مع النون المشدّدة يدلان على قسم مضمر، أى والله ليبينن لكم ولتسئلن .

قوله تعـالى : وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ كرر ذلك تأكيدا . ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ مبالغة فى النهى عنه لعظم موقعه فى الدين وتردّده فى معاشرات الناس، أى لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها، أى عن الأيمان بعد المعرفة بالله . وهذه استعارة للستقيم الحال يقع فى شر عظيم ويسقط فيه، لأن القدم إذا زلّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر، ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر :

* فلما توافينا ثَبَتُّ وزَلَّتِ *

والعرب تقول لكل مبتلًى بعد عافية أو ساقط فى ورطة : زَلَّت قدمه، كقول الشاعر :

سَيُمْنَع منك السَّبْقُ إن كنت سابقا * وتُقْتَـل إن زَلَّت بك القدمان

ويقال لمن أخطأ فى شىء : زلّ فيـه . ثم توعد تعـالى بعدُ بعذاب فى الدنيـا وعذاب عظيم فى الآخرة . وهذا الوعيد إنمـا هو فيمن نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن من عاهده ثم نقض عهـده خرج عن الإيمـان، ولهذا قال : ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى بصدّكم . وذَوْقُ السوء فى الدنيا هو ما يحل بهم من المكروه .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ نهى عن الرشا وأخذ الأموال على نقض العهد؛ أى لاتنقضوا عهودكم لعرض قليل من الدنيا . و إنما كان قليلا و إن كثر؛ لأنه مما يزول، فهو على التحقيق قليل، وهو المراد بقوله : « مَا عِندَكُمْ يَنفَـدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ » فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هـذه تنفَد وتحول، وما عند الله من مواهب فضله ، ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وَفَى بالعهد وثبت على العقد . ولقد أحسن من قال :

المـال ينفَد حِـلّه وحرامه * يوما وتبـقى فى غـد آثامُه
ليس التَّقِيُّ بمتَّـقٍ لإلهـه[(١)] * حتى يطيب شرابه وطعـامه

آخـــر :

هَبِ الدنيا تساق إليك عفوًا * أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنيـاك إلا مثـلُ فَيْءٍ * أظلّك ثم آذن بالزوال

قوله تعـالى : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَـبَرُوا﴾ أى على الإسلام والطاعات وعن المعاصى . ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَـلُونَ﴾ أى من الطاعات ، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله . وقرأ عاصم وابن كثير « وَلَنَجْزِيَنَّ » بالنون على التعظيم . الباقون باليـاء . وقيل : إن هـذه الآية « وَلَا تَشْتَرُوا » إلى هنا نزلت فى امرئ القيس بن عابس الكندى وخصمه ابن أَسْوَع[(٢)]، اختصما فى أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف فلما سمع هذه الآية نكل وأقرّ له بحقه ؛ والله أعلم .

---

(١) فى نسخ الأصل : * ليس التـقى بمن يمير بأهله * وفى ى : يمير ، والتصويب عن أدب الدنيا والدين ص ٢١٢ طبع بولاق .
(٢) الذى فى كتب الصحابة فى ترجمة امرئ القيس بن عابس أنه ربيعة بن عيدان . وقال صاحب كتاب الإصابة فى ترجمة عيدان بن أسوع : «ذكر مقاتل فى تفسيره أنه الذى خاصر امرأ القيس بن عابس الكندى فى أرضه ، وفيه نزلت « إن الذين يشترون بعهد الله ... » الآية .

Marfat.com

قوله تعالى : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ شرط وجوابه. وفى الحياة الطيبة خمسة أقوال: الأول — أنه الرزق الحلال؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جُبَير وعطاء والضحاك . الثانى — القناعة؛ قاله الحسن البصرى وزيد بن وهب ووهب بن منبّه، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس، وهو قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . الثالث — توفيقه إلى الطاعات فإنها تؤديه إلى رضوان الله؛ قال معناه الضحاك . وقال أيضا : من عمل صالحا وهو مؤمن فى فاقة ومَيْسَرة فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحا فمعيشته ضَنْكٌ لا خير فيها . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هى الجنة، وقاله الحسن، وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة. وقيل : هى السعادة، روى عن ابن عباس أيضا. وقال أبو بكر الوراق : هى حلاوة الطاعة . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : هى أن ينزع عن العبد تدبيره ويردّ تدبيره إلى الحق. وقال جعفر الصادق : هى المعرفة بالله؛ وصدق المقام بين يدى الله . وقيل : الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق. وقيل : الرضا بالقضاء . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أى فى الآخرة .﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقال : « فَلَنُحْيِيَنَّهُ » ثم قال : « وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ » لأن « مَنْ » يصلح للواحد والجمع؛ فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى؛ وقد تقدّم . وقال أبو صالح : جلس ناس من أهـل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس مـن أهل الأوثان، فقال هؤلاء : نحن أفضـل ، وقال هؤلاء : نحن أفضل؛ فنزلت .

قوله تعالى : فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾

فيـه مسألة واحدة — وهى أن هذه الآية متصلة بقوله : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ » فإذا أخذت فى قراءته فاستعذ بالله من أن يعـرض لك الشيطان فيصدّك عن

Marfat.com

تدبّره والعمل بمـا فيه ؛ وليس يريد استعذ بعد القراءة ؛ بل هو كقولك : إذا أكلت فقل بسم الله؛ أى إذا أردت أن تأكل. وقد روى جُبير بن مُطْعِم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم حين افتتح الصلاة قال : " اللهـم إنى أعوذ بك من الشيطان من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه "[1] . وروى أبو سعيد الخُدْرِىّ أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة . قال الكيا الطبرى : ونُقل عن بعض السلف التعوّذ بعد القراءة مطلقا، احتجاجا بقوله تعـالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِـيمِ » ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضى أن تكون الاستعاذة بعد القراءة؛ كقوله تعـالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا »[2] . إلا أن غيره محتمل، مثل قوله تعـالى : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا »[3] « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ »[4] وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم . ومثله قول القائل : إذا قلت فاصدق ، و إذا أحرمت فاغتسل ، يعنى قبـل الإحرام . والمعنى فى جميع ذلك : إذا أردت ذلك؛ فكذلك الاستعاذة . وقد تقدم هذا المعنى[5]، وتقدم القول فى الاستعاذة مستوفى[6] .

قوله تعـالى : إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بالإغواء والكفر، أى ليس لك قدرة على أن تحملهم على ذنب لا يُغفر ؛ قاله سـفيان . وقال مجاهد : لا حجة له على ما يدعوهم إليه من المعاصى . وقيل : إنه ليس له عليهم سلطان بحال؛ لأن الله تعالى صرف

(١) الهمزة : النخس والغمز ، وكل شىء دفعته فقد همزته . والنفخ : الكبر ؛ لأن المتـكبر يتعاظم و يجمع نفسه ونفسه فيحتاج أن ينفخ . والنفث : قال ابن الأثير : جاء تفسيره فى الحديث أنه الشعر؛ لأنه ينفث من الفم .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٣٧٣ . (٣) راجع جـ ٧ ص ١٣٧ . (٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٢٧ .

(٥) راجع جـ ٦ ص ٨٠ . (٦) راجع جـ ١ ص ٨٦ .

Marfat.com

سلطانه عليهم حين قال عدوّ الله إبليس لعنه الله : « وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ »[1] قال الله تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » .

قلت : قد بينا أن هذا عامٌّ يدخله التخصيص، وقد أغوى آدمَ وحـوّاءَ عليهما السلام بسلطانه ، وقد شوّش على الفضلاء أوقاتهم بقوله : من خلق ربك ؟ حسبما تقـدّم فى آخر الأعراف بيانه[2] . ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ أى يطيعونه . يقال : توليته أى أطعته، وتوليت عنـه، أى أعرضت عنـه . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ أى بالله ؛ قاله مجـاهد والضحاك . وقيـل : يرجع « به » إلى الشيطان؛ قاله الربيع بن أنس والقُتَبِيّ . والمعنى : والذين هم من أجله مشركون . يقال : كفرت بهذه الكلمة، أى من أجلها . وصار فلانٌ بك عالمـا، أى من أجلك . أى والذى تولّى الشيطانَ مشركون بالله .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ قيل : المعنى بدلنا شريعة متقدّمة بشريعة مستأنفة؛ قاله ابن بحـر . مجاهد : أى رفعنـا آية وجعلنا موضعها غيرها . وقال الجمهـور : نسخنا آية بآية أشدّ منها عليهم . والنسخ والتبديل رفع الشىء مع وضع غير مكانه . وقد تقدّم الكلام فى النسخ فى البقرة مستوفى[3] . ﴿ قَالُوا ﴾ يريد كفار قريش . ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ أى كاذب مختلِق، وذلك لمـا رأوا من تبديل الحكم . فقال الله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله شرع الأحـكام وتبديل البعض بالبعض . وقـوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ

(١) راجع ص ٢٧ من هذا الجزء فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٨ .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٦١ وما بعدها .

Marfat.com

القُدُسِ ﴾ يعني جبريل ، نزل بالقرآن كلّه ناسخه ومنسوخه . وروى بإسناد صحيح عن عامر الشَّعْبيّ قال : وُكِّل إسرافيل بمحمد صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين ، فكان يأتيه بالكلمة والكلمة، ثم نزل عليه جبريل بالقرآن . وفي صحيح مسلم أيضا أنه نزل عليه بسورة « الحمد » ملك لم ينزل إلى الأرض قط . كما تقدّم في الفاتحة بيانه (١) . ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي من كلام ربك . ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي بما فيه من الحجج والآيات . ﴿ وَهُدًى ﴾ أي وهو هدى . ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ اختلف في اسم هذا الذي قالوا إنما يعلمه؛ فقيل: هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر، كان نصرانيا فأسلم؛ وكانوا إذا سمعوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم ما مضى وما هو آت مع أنه أُمّيّ لم يقرأ قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمي؛ فقال الله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي كيف يعلمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها . وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلّم محمدا، فيقول: لا والله، بل هو يعلمني ويهديني. وقال ابن إسحاق: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم — فيما بلغني — كثيرا ما يجلس عند المَرْوة إلى غلام نصراني يقال له جبر، عبدُ بني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب ، فقال المشركون : والله ما يعلم محمدا ما يأتي به إلا جبر النصراني . وقال عكرمة : اسمه يعيش عبدٌ لبني الحضرمي ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقنه القرآن؛ ذكره الماورديّ . وذكر الثعلبيّ عن عكرمة وقتادة أنه غلام لبني المغيرة اسمه يعيش، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، فقالت قريش : إنما يعلمه بشر، فنزلت . المهدويّ عن عكرمة :

(١) راجع ج ١ ص ١١٦ .

Marfat.com

هو غلام لبنى عامر بن لؤى، واسمه يعيش . وقال عبـد الله بن مسلم الحضرمى : كان لنـا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر. كذا ذكر المـاوردى والقشيرى والثعلبى؛ إلا أن الثعلبى قال : يقال لأحدهما نَبْت و يكنى أبا فُكَيْهة، والآخر جبر، وكانا صَيْقَلَين[1] يعملان السيوف؛ وكانا يقرآن كتابا لهم . الثعلبى : يقرآن التوراة والإنجيل . المـاوردى والمهدوى : التوراة . فكان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يمرّ بهما و يسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون : يتعـلم منهما ، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم . وقيل : عنَوْا سلمان الفارسى رضى الله عنه؛ قاله الضحاك . وقيل : نصرانيا بمكة آسمه بلعام ، وكان غلاما يقرأ التوراة؛ قاله آبن عبـاس . وكان المشركون يرون رسـول الله صلى الله عليه وسلم حين يدخل عليه ويخرج من عنـده ، فقالوا : إنمـا يعلمه بلعام . وقال القُتَبِى : كان بمكة رجل نصرانى يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية ، فربما قعد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الكفار : إنما يتعلم محمد منـه ، فنزلت . وفى رواية أنه عدّاس غلام عتبة بن ربيعة . وقيل : عابس غلام حو يطب بن عبـد العُزّى و يسار أبو فُكَيْهَة مولى آبن الحضرمى ، وكانا قد أسلما . والله أعلم .

قلت : والكل محتمل؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهم فى أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله، وكان ذلك بمكة . وقال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأنه يجوز أن يكونوا أَوْمَـئُوا إلى هؤلاء جميعا ، وزعموا أنهم يعلمونه .

قلت : وأما ماذكره الضحاك من أنه سلمان ففيه بُعْدٌ؛ لأن سلمان إنما أتى النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهذه الآية مكية . ﴿لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ الإلحاد : الميل؛ يقال : لحد وألحد، أى مال عن القصد . وقد تقدّم فى الأعراف[2] وقرأ حمزة « يَلْحَدون » بفتح الياء والحاء ؛ أى لسان الذى يميلون إليه ويشيرون أعجمى . والعُجمة : الإخفاء وضدّ البيان . ورجل أعجم وآمرأة عجماء ، أى لا يُفصح؛ ومنه عُجْم الذنب لآستتاره . والعجماء :

(١) الصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٢٨ .

Marfat.com

البهيمة؛ لأنها لا توضح عن نفسها . وأعجمت الكتاب أى أزلت عجمته . والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم أعجميا . وقال الفـراء : الأعجم الذى فى لسانه عجمة وإن كان من العرب، والأعجمى أو العجمى الذى أصله من العجم. وقال أبو على : الأعجمى الذى لا يفصح ، سـواء كان من العرب أو من العجم ، وكذلك الأعجم والأعجمى المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا . وأراد باللسان القـرآن ؛ لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لسانا ؛ قال الشاعر :

لسانُ الشر تهديها إلينـا * وخُنت وما حسبتك أن تخونا

يعنى باللسان القصيدة . ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أى أفصح ما يكون من العربية .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن . ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعـالى : إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ هـذا جواب وصفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالافتراء . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ هذا مبالغة فى وصفهم بالكذب؛ أى كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم. ويقال : كذب فلان ولا يقال إنه كاذب ؛ لأن الفعل قد يكون لازما وقد لا يكون لازما . فأما النعت فيكون لازما ولهذا يقال : عصى آدمُ ربَّه فغَوَى، ولا يقال : إنه عاصٍ غاوٍ. فإذا قيل : كذب فلان فهو كاذب، كان مبالغة فى الوصف بالكذب ؛ قاله القشيرى .

Marfat.com

قوله تعالى : مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

فيه إحدى وعشرون مسئلة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » فكان مبالغة فى الوصف بالكذب ؛ لأن معناه لا ترتدوا عن بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم . أى من كفر من بعد إيمانه وارتدّ فعليه غضب الله . قال الكلبي : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح ومِقْيَس بن صُبابة وعبد الله بن خَطَل (١)، وقَيْس بن الوليد بن المغيرة ، كفروا بعد إيمانهم . ثم قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ . وقال الزجاج : « مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ » بدل ممن يفترى الكذب ؛ أى إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه ؛ لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلّقه بما قبله . وقال الأخفش : « مَنْ » ابتداء وخبره محذوف ، اكتفى منه بخبر « من » الثانية ؛ كقولك : من يأتنا مَن يحسن نكرمه .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ هذه الآية نزلت فى عمّار بن ياسر ، فى قول أهل التفسير ؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه . قال ابن عباس : أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمه سُمَيَّة وصُهَيبا وبلالا وخَبّابا وسالما فعذبوهم ، ورُبطت سُمَيّــة بين بعيرين ووُجِئ قُبُلُها بحَرْبة ، وقيل لها : إنك أسلمتِ من أجل الرجال ؛ فقتلت وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين فى الإسلام . وأما عمّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها ، فشكا ذلك إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "كيف تجد قلبك" ؟ قال : مطمئن بالإيمان . فقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "فإن عادوا فَعُـدْ" . وروى منصور بن المُعْتَمِر عن مجاهد قال : أول شهيدة فى الإسلام أم عمار ، قتلها أبو جهل ، وأول

(١) فى الأصول : « عبد الله بن أنس بن خطل » وهو تحريف .

Marfat.com

شهيد من الرجال مِهْجَع مولى عمر . وروى منصور أيضا عن مجاهـد قال : أول من أظهر الإسلام سبعةٌ : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، و بِلَال ، وخَبّاب ، وصُهَيب ، وعَمّـار ، وسُمَيّة أم عمار . فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه أبو طالب ، وأما أبو بكر فمنعه قومه ، وأخذوا الآخرين فألبسوهم أدراع الحديد ، ثم صهروهم فى الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حَرّ الحديد والشمس ، فلما كان من العشيّ أتاهم أبو جهل ومعه حربة ، فجعل يَسُبّهم و يوبخهم ، وأتى سُمَيّة فجعل يسبّها و يَرْفُثُ(١) ، ثم طعن فرجها حتى خرجت الحربة من فمها فقتلها ؛ رضى الله عنها . قال : وقال الآخرون ما سُئلوا ؛ إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه فى الله ، فجعلوا يعذبونه و يقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول أَحَد أَحَد ؛ حتى مَلّوه ، ثم كتّفوه وجعلوا فى عنقه حَبْلا من لِيف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أَخْشَبَىْ(٢) مكة حتى مَلّوه وتركوه ، قال فقال عمار : كلنا تكلم بالذى قالوا ـــ لولا أن الله تدار كنا ـــ غير بلال فإنه هانت عليه نفسه فى الله ، فهان على قومه حتى ملّوه وتركوه . والصحيح أن أبابكر اشترى بلالا فأعتقه . وروى ابن أبى نَجِيح عن مجاهد أن ناسا من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أن هاجروا إلينا ، فإنا لانراكم منا حتى تهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينـة حتى أدركتهم قريش بالطريق ، ففتنوهم فكفروا مكرهين ، ففيهـم نزلت هذه الآية . ذكر الروايتين عن مجاهد إسماعيلُ بن إسحاق . وروى الترمذيّ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماخُيِّر عمّار بين أمرين إلا اختار أرشـدهما " هـذا حديث حسن غريب . وروى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " إن الجنـة لتشتاق إلى ثلاثة عليّ وعمّـار وسَلمان بن ربيعـة " . قال الترمذيّ : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح .

الثالثـــة ـــ لمـا سمح الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عنـد الإكراه ولم يؤاخذ به ، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلّها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب

(١) الرفث : الفحش من القول . (٢) الأخشبان : الجبلان المطيفان بمكة ؛ وهما أبو قبيس والأحمر .

Marfat.com

عليه حكم؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما آستكرهوا عليه" الحديث. والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح بآتفاق من العلماء؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي. وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح، قال: وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في الفوائد وابن المنذر في كتاب الإقناع.

الرابعـــة — أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر؛ هذا قول مالك والكوفيين والشافعي؛ غير محمد بن الحسن فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتدا في الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتبين منه آمرأته ولا يصلى عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلما. وهذا قول يرده الكتاب والسنة، قال الله تعالى: «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ» الآية. وقال: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»(١) وقال: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ»(٢) الآية. وقال: «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ»(٢) الآية. فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به، والمكره لا يكون إلا مستضعفا غير ممتنع من فعل ما أمر به؛ قاله البخاري.

الخامســـة — ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة فيه، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله أو الصلاة لغير القبلة؛ أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا؛ يروى هذا عن الحسن البصري، رضي الله عنه. وهو قول الأوزاعي وسحنون من علمائنا. وقال محمد بن الحسن: إذا قيل للأسير: اسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك. فقال: إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد وتكون نيته لله تعالى، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه. والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة، وما أحراه بالسجود حينئذ؛ ففي الصحيح عن آبن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٧. (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٤٥.

Marfat.com

وجهه، قال : وفيه نزلت : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ »(1) . فى رواية : و يُوتِر عليها، غير أنه لا يصلّى عليها المكتوبة . فإذا كان هذا مباحا فى السفر فى حالة الأمن لتعب النزول عن الدابة للتنفل فكيف بهذا ؟ . واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود : ما من كلام يدرأ عنّى سوطين من ذى سلطان إلا كنت متكلّما به . فقصر الرخصة على القول ولم يذكر الفعل ، وهذا لا حجة فيه ؛ لأنه يحتمل أن يجعل الكلام مثالا وهو يريد أن الفعل فى حكمه . وقالت طائفة : الإكراه فى الفعل والقول سواء إذا أسرّ الإيمان . روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومَكْحُول، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق. روى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر وترك الصلاة أو الإفطار فى رمضان، أن الإثم عنه مرفوع.

السادسة — أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، و يصبر على البلاء الذى نزل به، ولا يحلّ له أن يَفْدِى نفسه بغيره ، و يسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

واختلف فى الزنى ، فقال مُطَرِّف وأصبغ وابن عبد الحكم وابن الماجشون : لا يفعل أحد ذلك ، و إن قُتل لم يفعله ، فإن فعله فهو آثم و يلزمه الحدّ، و به قال أبو ثور والحسن . قال ابن العربى : الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حدّ عليه ، خلافا لمن ألزمه ذلك ؛ لأنه رأى أنها شهوة خُلقية لا يتصوّر الإكراه عليها، وغفل عن السبب فى باعث الشهوة وهو الإلجاء إلى ذلك، وهو الذى أسقط حكمه ، و إنما يجب الحدّ على شهوة بعث عليها سبب اختيارى ، فقاس الشيء على ضده، فلم يحل بصواب من عنده . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد فى أحكامه : اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى؛ فقال بعضهم : عليه الحدّ ؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره. وقال بعضهم : لا حدّ عليه . قال ابن خويز منداد: وهو الصحيح . وقال أبو حنيفة إن أكرهه غير السلطان حُدّ، و إن أكرهه السلطان فالقياس أن يحدّ، ولكن أستحسن ألا يحدّ . وخالفه صاحباه فقالا : لا حدّ عليه فى الوجهين، ولم يراعوا الانتشار،

(1) راجع جـ ٢ ص ٧٩ .

Marfat.com

وقولوا : متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر . قال ابن المنذر : لا حدّ عليه ، ولا فرق بين السلطان فى ذلك وغير السلطان .

السابعـة — اختلف العلماء فى طلاق المكره وعتاقه ؛ فقال الشافعيّ وأصحابه : لا يلزمه شىء . وذكر ابن وهب عن عمر وعليّ وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئا . وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس والحسن وشُرَيح والقاسم وسالم ومالك والأوزاعي وأحمد و إسحاق وأبى ثور . وأجازت طائفة طلاقه ؛ روى ذلك عن الشّعْبيّ والنَّخَعيّ وأبى قلابة والزهريّ وقتادة ، وهو قول الكوفيين . قال أبو حنيفة : طلاق المكره يلزم ؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا ، وليس وجوده بشرط فى الطلاق كالهازل . وهذا قياس باطل ؛ فإن الهازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راض به ، والمكره غير راض ولا نية له فى الطلاق ، وقد قال عليه السلام : " إنما الأعمال بالنيات " . وفى البخارى : وقال ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص فيطلق : ليس بشىء ؛ وبه قال ابن عمر وابن الزبير والشعبي والحسن . وقال الشعبي : إن أكرهه اللصوص فليس بطلاق ، و إن أكرهه السلطان فهو طلاق . وفسّره ابن عيينة فقال : إن اللصّ يُقدِم على قتله والسلطان لا يقتله .

الثامنـة — وأما بيع المكره والمضغوط فله حالتان . الأولى — أن يبيع ماله فى حق وجب عليه ؛ فذلك ماضٍ سائغٌ لا رجوع فيه عند الفقهاء ؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى ربه من غير المبيع ، فلما لم يفعل ذلك كان بيعه اختيارا منه فلزمه . وأما بيع المكره ظلما أو قهرا فذلك بيع لا يجوز عليه ، وهو أولى بمتاعه يأخذه بلا ثمن ، ويتبع المشترى بالثمن ذلك الظالم ؛ فإن فات المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشترى غير عالم بظلمه . قال مُطَرِّف : ومن كان من المشترين يعلم حال المكره فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب ، كلما أحدث المبتاع فى ذلك من عتق أو تدبير أو تحبيس فلا يلزم المكره ، وله أخذ متاعه . قال سُحْنون : أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكره على الظلم والجور لا يجوز . وقال الأَبْهَرِيّ : إنه إجماع .

Marfat.com

التاسـعة — وأما نكاح المكره ؛ فقال سُحنون : أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهة ، وقالوا : لا يجوز المقام عليه ، لأنه لم ينعقد . قال محمد بن سُحنون : وأجاز أهل العراق نكاح المكره وقالوا : لو أكره على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم ، وصداق مثلها ألف درهم ، أن النكاح جائز وتلزمه الألف ويبطل الفضل . قال محمـد : فكما أبطلوا الزائد على الألف فكذلك يلزمهـم إبطال النكاح بالإكراه . وقولهم خلاف السنة الثابتـة فى حديث خَنْساء بنت خِذام الأنصارية ، ولأمره صلى الله عليـه وسلم بالاسـتئمار فى أبضاعهن ، وقـد تقدّم ، فلا معنى لقولهم .

العاشـرة — فإن وطئها المكره على النكاح غيرَ مكره على الوطء والرضا بالنكاح لزمه النكاح عندنا على المسمّى من الصداق ودُرِئَ عنه الحد . وإن قال : وطئتها على غير رضًا منى بالنكاح فعليه الحـد والصداق المسمّى ؛ لأنه مدّعٍ لإبطال الصداق المسمّى ، وتحدّ المرأة إن أقدمت وهى عالمـة أنه مكره على النكاح . وأما المكرهـة على النكاح وعلى الوطء فلا حدّ عليها ولهـا الصداق ، ويحدّ الواطئ ؛ فاعلمه . قاله سُحنُون .

الحادية عشرة — إذا استكرهت المرأة على الزنى فلا حدّ عليها ؛ لقوله : « إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ » وقوله عليه السلام : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ؛ ولقول الله تعالى : « فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (١) يريد الفتيات . وبهذا المعنى حكم عمر فى الوليدة التى استكرهها العبد فلم يحدّها . والعلماء متفقون على أنه لاحدّ على امرأة مستكرَهة . وقال مالك : إذا وجدت المرأة حاملا وليس لها زوج فقالت آستكرِهت فلا يقبل ذلك منها وعليها الحدّ ، إلا أن تكون لها بيّنة أو جاءت تَدْمي على أنها أوتيت ، (٢) أوما أشبه ذلك . واحتج بحديث عمـر بن الخطاب أنه قال : الرّجْم فى كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء إذا أحصن إذا قامت البيّنة ، أوكان الحَبَل أو الاعتراف . قال ابن المنـذر : وبالقول الأول أقـول .

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٥٥ .

(٢) عبارة الموطأ : « أوجاءت تدمى إن كانت بكرا أو استغاثت حتى أوتيت وعلى ذلك ... » الخ .

Marfat.com

الثانية عشرة — واختلفوا فى وجوب الصداق للمستكرهة ؛ فقال عطاء والزهرىّ : لهـا صداق مثلها ؛ وهو قول مالك والشافعىّ وأحمد و إسحاق وأبى ثور . وقال الثورىّ : إذا أقيم الحـدّ على الذى زنى بها بطل الصداق . وروى ذلك عن الشعبى ، و به قال أصحاب مالك وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : القول الأوّل صحيح .

الثالثة عشرة — إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لمـا لم يحلّ أسلمها [(1)] ، ولم يقتل نفسه دونها ولا آحتمل أذية فى تخليصها . والأصل فى ذلك ما خرجه البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل بها إلىّ فأرسل بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلى فقالت : اللهم إن كنت آمنت بك و برسولك فلا تسلّط علىّ هذا الكافر . فغُطّ حتى رَكَض برجله [(2)] " . ودلّ هذا الحديث أيضا على أن سارة لمـا لم يكن عليها ملامة ، فكذلك لا يكون على المستكرهة ملامة ، ولا حدّ فيما هو أكبر من الخلوة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — وأما يمين المكره فغير لازمة عنـد مالك والشافعى وأبى ثور وأكثر العلماء . قال ابن المـاجشون : وسواء حلف فيما هو طاعة لله أو فيما هو معصـية إذا أكره على اليمين ؛ وقاله أصبغ . وقال مطرّف : إن أكره على اليمين فيما هو لله معصية أو ليس فى فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة ، و إن أكره على اليمين فيما هو طاعة مثل أن يأخذ الوالى رجلا فاسقا فيكرهه أن يحلف بالطلاق لا يشرب خمرا ، أو لا يفسق أو لا يغُشّ فى عمله ، أو الوالد يحلّف ولده تأديبا له فإن اليمين تلزم ؛ و إن كان المكره قد أخطأ فيما يكلّف من ذلك . وقال به ابن حبيب . وقال أبو حنيفة ومن اتبعـه من الكوفيين : إنه إن حلف ألّا يفعل ففعل حنِث ، قالوا : لأن المكره له أن يورّىَ فى يمينه كلها ، فلما لم يورّ ولا ذهبت نيّته إلى خلاف ما أكره عليـه فقد قصد إلى اليمين . احتج الأوّلون بأن قالوا : إذا أكره عليها فنيته مخالفـة لقوله ؛ لأنه كاره لمـا حلف عليه .

---

(1) ينظر هذا مع ما رواه أبو داود والترمذى والنسائى ، وابن ماجه وفيه « من قتل دون أهله شهيد » . كشف الخفا ج ٢ ص ٢٦٩ . (2) ذكر المؤلف هذا الحديث مختصرا ، فراجعه فى شرح القسطلانى ، كتاب البيوع ج ٤ ص ١٢٣ طبعة بولاق . الغط هنا هو العصر الشديد والكبس ، والركض الضرب بالرجل .

Marfat.com

الخامسة عشرة — قال ابن العربي : ومن غريب الأمر أن علماءنا اختلفوا في الإكراه على الحنث هل يقع به أم لا ، وهـذه مسئلة عراقية سرت لنا منهم ، لا كانت هـذه المسئلة ولا كانوا ! وأى فرق يامعشر أصحابنا بين الإكراه على اليمين في أنها لا تلزم وبين الحنث في أنه لا يقع ! فاتقوا الله وراجعوا بصائركم ولا تغتروا بهذه الرواية فإنها وصمة في الدراية .

السادسة عشرة — إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال كأصحاب المكس وظلمة السعاة وأهل الاعتداء؛ فقال مالك : لا تَقِيَّة له في ذلك، وإنما يدرأ المرء بيمينه عن بدنه لا ماله . وقال ابن الماجشون : لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه . وقال ابن القاسم بقول مطرف ، ورواه عن مالك ، وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ .

قلت : قول ابن الماجشون صحيح؛ لأن المدافعة عن المال كالمدافعة عن النفس؛ وهو قول الحسن وقتادة وسيأتي . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " وقال : " كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " . وروى أبو هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : " فلا تعطه مالك " . قال : أرأيت إن قاتلني ؟ قال : " قاتله " قال : أرأيت إن قتلني ؟ قال : " فأنت شهيد " قال : أرأيت إن قتلته ؟ قال : " هو في النار " خرجه مسلم[1] . وقد مضى الكلام فيه . وقال مطرف وابن الماجشون : وإن بدر الحالف بيمينه للوالي الظالم قبل أن يسألها ليَذُبّ بها عما خاف عليه من ماله وبدنه فحلف له فإنها تلزمه . وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ . وقال أيضا ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق ألبتة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب، وإنما حلف خوفا من ضربه وقتله وأخذ ماله : فإن كان إنما تبرع باليمين غلبةَ خوف ورجاءَ النجاة من ظلمه فقد دخل في الإكراه ولا شيء عليه ، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث .

السابعة عشرة — قال المحققون من العلماء : إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض؛ فإن في المعاريض[2] لمندوحة عن الكذب . ومتى لم يكن

(١) ويؤيد هذا ما رواه أحمد والترمذي عن ابن عمر " من قتل دون ماله فهو شهيد " كشف الخفا ج ٢ ص ٢٩٦ .
(٢) المعاريض : التورية بالشيء عن الشيء . وأعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه : كلام يشبه بعضه بعضا في المعاني .

Marfat.com

كذلك كان كافرا، لأن المعاريض لا سلطان للإكراه عليها . مثاله — أن يقال له : أكفر بالله فيقول باللاهى ؛ فيزيد الياء . وكذلك إذا قيل له : أكفر بالنبي فيقول هو كافر بالنبيّ، مشدّدا وهو المكان المرتفع من الأرض[1] . ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة ؛ فيقصد أحدهما بقلبه ويبرأ من الكفر ويبرأ من إثمه . فإن قيل له : أكفر بالنبيء (مهموزا) فيقول هو كافر بالنبيء يريد بالمخبر، أي مخبر كان كطليحة[2] ومُسَيْلِمة الكذاب . أو يريد به النبيء الذي قال فيه الشاعر[3] :

فأصبح رَتْمًا دُقاق الحَصَى * مكان النبيء من الكاثب

الثامنة عشرة — أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجرا عند الله ممن اختار الرخصة . واختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له ؛ فقال أصحاب مالك : الأخذ بالشدّة في ذلك واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة . ذكره ابن حبيب وسُحنون . وذكر ابن سُحنون عن أهل العراق أنه إذا تُهدّد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف فله أن يفعل ما أكره عليه من شرب خمر أو أكل خنزير؛ فإن لم يفعل حتى قتل خفنا أن يكون آثما لأنه كالمضطر . وروى خَبّاب بن الأرتّ قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسّد بُرْدةً له في ظل الكعبة فقلت : ألا تَسْتَنْصِر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : " قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يَصُدّه ذلك عن دينه والله لَيَتِمّنّ هذا الأمر[4] حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حَضْرَمَوْت لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون " . فوَصْفُهُ صلى الله عليه وسلم هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم والصبر على المكروه في ذات الله، وأنهم لم يكفروا في الظاهر وتبطّنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم . وهذه حجة من آثر الضرب

(١) ومنه الحديث : « لا تصلوا على النبيّ » أي على الأرض المرتفعة المحدودبة .

(٢) هو طليحة ابن خويلد بن نوفل الأسدي ، ارتد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وادعى النبوة ثم أسلم .

(٣) الرتم (بالتاء والثاء) : الدق والكسر . ويريد بالنبيء المكان المرتفع . والكاثب : الرمل المجتمع .

(٤) يريد الإسلام .

Marfat.com

والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الأخدود»[(١)] إن شاء الله تعـالى . وذكر أبو بكر محمد بن محمد بن الفرج البَغْدادِيّ قال : حدثنا شريح بن يونس عن إسماعيل بن إبراهيم عن يونس بن عبيد عن الحسن أن عيونا لمسيلِمَة أخذوا رجلين من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسـلم فذهبوا بهما إلى مسيلمة، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمدا رسـول الله ؟ قال نعم . قال : أتشهد أنى رسـول الله ؟ قال نعم . فخـلّى عنه . وقال للاخر : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال نعم . قال : وتشهد أنى رسول الله ؟ قال : أنا أصم لا أسمع؛ فقدّمه وضرب عنقه . فجاء هـذا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : هلكتُ ! قال : " وما أهلكك " ؟ فذكر الحديث، قال : " أمّا صاحبك فأخذ بالثقة[(٢)] وأما أنت فأخذت بالرخصة على ما أنت عليـه الساعة " ؟ قال : أشهـد أنك رسـول الله . قال " أنت على ما أنت عليه " . الرخصة فيمن حلفه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يدله على رجل أو مال رجل؛ فقال الحسن : إذا خاف عليه وعلى ماله فليحلف ولا يكفر يمينه؛ وهو قول قتادة إذا حلف على نفسه أو مال نفسه . وقد تقدّم ما للعلماء فى هـذا . وذكر موسى بن معاوية أن أبا سـعيد بن أشرس صاحب مالك استحلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتله أنه ما آواه، ولا يعلم له موضعا ؛ قال : فحلف له ابن أشرس؛ وابن أشرس يومئـذ قد علم موضعه وآواه، فحلّفه بالطلاق ثلاثا، فحلف له ابن أشرس، ثم قال لامرأته : اعتزلى فاعتزلته؛ ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على البهلول بن راشد القيروان، فأخبره بالخبر؛ فقال له البهلول : قال مالك إنك حانث . فقـال ابن أشرس : وأنا سمعت مالكا يقول ذلك، وإنمـا أردت الرخصة، أو كلام هذا معناه؛ فقال له البهلول بن راشد : قال الحسن البصرى إنه لا حنث عليك . قال : فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن . وذكر عبد الملك بن حبيب قال : حدّثنى معبـد عن المسيّب بن شريك عن أبى شـيبة قال : سألت أنس بن مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل، هل ترى أن يحلف ليَقيه بيمينه ؟ فقال نعم ؛ ولأن أحلف سبعين يمينا

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٨٤ .
(٢) عبارة الدر المنثور : « أما صاحبك فمضى على إيمانه » .

Marfat.com

واحنث أحبّ إلىّ أن أدلّ على مسلم . وقال إدريس بن يحيى كان الوليـد بن عبد الملك يأمر جواسيس يتجسسون الخلق يأتونه بالأخبار، قال : فجلس رجل منهم فى حلقة رجاء بن حَيْوة فسمع بعضهم يقع فى الوليد ، فرفع ذلك إليه فقال : يارجاء ! أُذْكَرُ بالسوء فى مجلسك ولم تغيّر ؟ فقـال : ماكان ذلك يا أمير المؤمنين؛ فقـال له الوليـد : قل : آلله الذى لا إله إلا هو ، قال : الله الذى لا إله إلا هو ؛ فأمر الوليـد بالجاسوس فضربه سبعين سـوطا، فكان يلق رجاء فيقول : يا رجاء ، بك يستَقى[1] المطر، وسبعون سـوطا فى ظهرى ! فيقول رجاء : سبعون سوطا فى ظهرك خير لك من أن يقتل رجل مسلم .

التاسعة عشرة — واختلف العلماء فى حدّ الإكراه؛ فروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته . وقال ابن مسعود ماكلام يدرأ عنّى سوطين إلا كنتُ متكلما به . وقال الحسن : التقية جائزة للؤمن الى يوم القيامة، إلا أن الله تبارك وتعـالى ليس يجعل فى القتل تَقيّة . وقال النّخَعِىّ : القيد إكراه، والسجن إكراه . وهـذا قول مالك، إلا أنه قال : والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع، إذا تحقق ظلم ذلك المتعدى و إنفاذه لمـا يتوعّد به، وليس عند مالك وأصحابه فى الضرب والسجن توقيت، إنمـا هو ماكان يؤلم من الضرب، وماكان من سجن يدخل منه الضيق على المكره . و إكراه السلطان وغيره عنـد مالك إكراه . وتنـاقض الكوفيون فلم يجعلوا السجن والقيـد إكراها على شرب الخمر وأكل الميتة؛ لأنه لا يخاف منهما التلف . وجعلوهما إكراها فى إقراره لفلان عنـدى ألف درهم . قال ابن سُحنون : وفى إجماعهم على أن الألم والوجع الشـديد إكراه ما يدلّ على أن الإكراه يكون من غير تلف نفس . وذهب مالك إلى أن من أُكره على يمين بوعيد أوسجن أو ضرب أنه يحلف ولا حنث عليه ؛ وهو قول الشافعى وأحمد وأبى ثور وأكثر العلماء .

الموفيـة عشرين — ومن هذا الباب ما ثبت إن من المعاريض لمندوحةً عن الكذب . وروى الأعمش عن ابراهـيم النّخَعِىّ أنه قال : لا بأس إذا بلغ الرجلَ عنك شىء أن تقول :

(١) فى ج و ى : يستسق .

Marfat.com

والله ، إن الله يعلم ما قلت فيك من ذلك من شيء . قال عبد الملك بن حبيب : معناه أن الله يعلم أن الذى قلت ، وهو فى ظاهره انتفاء من القول ، ولا حنث على من قال ذلك فى يمينه ولا كذب عليه فى كلامه . وقال النخعي : كان لهم كلام من ألغاز الأيمان يدرءون به عن أنفسهم ، لا يرون ذلك من الكذب ولا يخشون فيه الحنث[1] . قال عبد الملك : وكانوا يسمون ذلك المعاريض من الكلام ، إذا كان ذلك فى غير مكر ولا خديعة فى حق . وقال الأعمش : كان إبراهيم النخعي إذا أتاه أحد يكره الخروج إليه جلس فى مسجد بيته وقال لجاريته : قولى له هو والله فى المسجد . وروى مغيرة عن إبراهيم أنه كان يجيز للرجل من البعث[2] إذا عرضوا على أميرهم أن يقول : والله ما أهتدى إلا ما سدد لى غيرى ، ولا أركب إلا ما حملنى غيرى ؛ ونحو هذا من الكلام . قال عبد الملك : يعنى بقوله : « غيرى » الله تعالى ، هو مسدده وهو يحمله ؛ فلم يكونوا يرون على الرجل فى هذا حنثا فى يمينه ، ولا كذبا فى كلامه . وكانوا يكرهون أن يقال هذا فى خديعة وظلم وجحدان[3] حق فمن اجترأ وفعل أثم فى خديعته ولم تجب عليه كفارة فى يمينه .

الحادية والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أى وسعه لقبول الكفر ، ولا يقدر أحد على ذلك إلا الله ؛ فهو يرد على القدرية . و « صَدْرًا » نصب على المفعول . ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(١) وذلك كما فى كتاب الملاحن لابن دريد . (٢) البعث : الجيش .
(٣) هذا المصدر لم تورده كتب اللغة فى هذه المادة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك الغضب . ﴿ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى اختاروها على الآخرة . ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ « أنّ » فى موضع خفض عطفا على « بأنهم » . ﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ ثم وصفهم فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى عن فهم المواعظ . ﴿ وَسَمْعِهِمْ ﴾ عن كلام الله تعالى . ﴿ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ عن النظر فى الآيات . ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ ﴾ عما يراد بهم . ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴾ تقدّم (١) .

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ هذا كله فى عمّار . والمعنى وصبروا على الجهاد؛ ذكره النحاس . وقال قتادة : نزلت فى قوم خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذبوهم ، وقد تقدّم ذكرهم فى هذه السورة (٢) . وقيل : نزلت فى ابن أبى سرح ، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة ، فاستجار بعثمان فأجاره النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره النسائى عن عكرمة عن ابن عباس قال : فى سورة النحل . « مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ — إلى قوله — وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى كان على مصر، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به أن يقتل يوم الفتح ؛ فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٢٠ . (٢) راجع ص ١٨٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ أى إن الله غفور رحيم فى ذلك. أوذكرهم. «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا» أى تخاصم وتحاجّ عن نفسها؛ جاء فى الخبر أن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسى نفسى ! من شدة هَوْل يوم القيامة سوى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يسأل فى أمته. وفى حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار: يا كعب، خوّفنا هيّجنا حدّثنا نبّهنا. فقال له كعب : يا أمير المؤمنين، والذى نفسى بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك تاراتٌ لا يهمّك إلا نفسك، وإن لجهنم زَفْرة لا يبقى مَلَك مقرب ولا نبيّ منتخَب إلا وقع جاثيا على ركبتيه، حتى إن إبراهيم الخليل ليُدْلِى بالخُلّة فيقول: يارب، أنا خليلك إبراهيم، لا أسألك اليوم إلا نفسى ! قال : يا كعب، أين تجد ذلك فى كتاب الله؟ قال : قوله تعالى : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » . وقال ابن عباس فى هـذه الآية : ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد؛ فتقول الروح : ربِّ، الروح منك أنت خلقته، لم تكن لى يد أبطش بها، ولا رجل أمشى بهـا، ولا عين أبصربها، ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به، حتى جئت فدخلت فى هـذا الجسد، فضعّف عليه أنواع العذاب ونجّنى؛ فيقول الجسد : ربّ، أنت خلقتنى بيدك فكنتُ كالخشبة، ليس لى يد أبطش بها، ولا قدم أسعى به، ولا بصر أبصر به، ولا سمع أسمع به، فجاء هذا كشعاع النور، فبه نطق لسانى، وبه أبصرت عينى، وبه مشت رجلى، وبه سمعت أذنى، فضعِّف عليـه أنواع العذاب ونجّنى منه . قال : فيضرب الله لهما مثلا أعمى ومُقْعَدًا دخلا بستانا فيـه ثمـار، فالأعمى لا يبصر الثمرة والمُقْعد لا ينالها، فنادى المقعد الأعمى : إيتنى فاحملنى آكل وأطعمك، فدنا منه فحمله، فأصابوا من الثمرة؛ فعلى من يكون العذاب ؟ [قالا(١) : عليهما] قال : عليكما جميعا العذاب ؛ ذكره الثعلبى .

قوله تعـالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾

(١) من ج و ى ؛ وفى و : قال .

(١٠ — ١٣)

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ هذا متصل بذكر المشركين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على مشركى قريش وقال : " اللهم اشْـدُدْ وطأتك على مُضَرَ واجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف " . فابتُلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجه إليهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم طعاما ففرق فيهم . ﴿ كَانَتْ آمِنَةً ﴾ لا يُهاج أهلها . ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من البر والبحر؛ نظيره : « تُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ » (١) الآية . ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ الأنعم : جمع النِّعمة ؛ كالأَشُدّ جمع الشِّـدة . وقيل : جمع نُعْمى؛ مثـل بؤسى وأبؤس . وهـذا الكفران تكذيب بمحمـد صلى الله عليـه وسلم . ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ ﴾ أى أذاق أهلها . ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ سماه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس . ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أى من الكفر والمعاصى . وقـرأ حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبى إسحاق والحسن وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث وعبيد وعباس (٢) «والخَوْفَ» نصبا بإيقاع أذاقها عليه، عطفا على . «لِبَاسَ الْجُوعِ» [أى أذاقها الله لباس الجوع] وأذاقها الخوفَ . وهو بعث النبي صلى الله عليه وسلم سراياه التى كانت تُطيف بهم . وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء . وضرب مكة مثلا لغيرها من البلاد؛ أى إنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لمـا كفر أهلها أصابهم القَحْط فكيف بغيرها من القرى . وقد قيل : إنها المدينة، آمنت برسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ثم كفرت بأنعُم الله لقتل عثمان ابن عفان ، وما حدث بها بعد رسول الله صلى الله عليه وسـلم من الفتن . وهذا قول عائشة وحفصة زَوْجَي النبي صلى الله عليـه وسلم . وقيل : إنه مثـلٌ مضروب بأى قرية كانت على هذه الصفة من سائر القُرَى .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

---

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٩٩ . (٢) من جوى .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ هذا يدلّ على أنها مكة . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَـذَابُ ﴾ وهو الجوع الذى وقـع بمكة . وقيل : الشدائد والجوع منها .

قوله تعـالى : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى كلوا يامعشر المسلمين من الغنائم. وقيل : الخطاب للشركين ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث إليهم بطعام رِقّة عليهم ، وذلك أنهـم لمـا آبتلوا بالجوع سبع سنين ، وقطع العرب عنهم الميرة بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أكلوا العظام المحرقة والجيفة والكلاب الميتة والجلود والعِلْهِز ، وهو الو بر يعالج بالدّم . ثم إن رؤساء مكة كلّموا[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جُهدوا وقالوا : هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان . وقال له أبو سفيان : يا محمد ، إنك جئت تأمر بصلة الرّحم والعفو ، و إن قومك قد هلكوا ؛ فآدع الله لهم . فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأذن[2] للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعدُ مشركون .

قوله تعـالى : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

تقدم فى « البقرة » القول فيها مستوفًى[3] .

قوله تعـالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

---

(١) فى ج : كاتبوا . (٢) فى ى : أمر الناس . (٣) راجع ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها .

Marfat.com

فيــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ ما هاهنا مصدرية ، أى لوصف . وقيل : اللام لام سبب وأجل ، أى لا تقولوا لأجل وصفكم « الكَذِبَ » بنزع الخافض ، أى لما تصف ألسنتكم من الكذب . وقرئ « الكُذُبُ » بضم الكاف والذال والباء ، نعتا للألسنة ، وقد تقدّم (١) . وقرأ الحسن هنا خاصة « الكَذِبِ » بفتح الكاف وخفض الذال والباء ، نعتا « لما » ؛ التقدير : ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذبِ . وقيل : على البدل من ما ، أى ولا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم ، ﴿ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ . الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب وأحلّوا ما فى بطون الأنعام وإن كان ميتة . فقوله : « هَٰذَا حَلَالٌ » إشارة إلى ميتة بطون الأنعام ، وكل ما أحلّوه . وقوله : « وَهَٰذَا حَرَامٌ » إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرّموه . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ أى ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عن قريب . وقال الزجّاج : أى متاعهم متاع قليل . وقيل : لهم متاع قليل ثم يردّون إلى عذاب أليم .

الثانيـــة — أسند الدارِمىّ أبو محمد فى مسنده : أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال : ما سمعت إبراهيم قطّ يقول حلال ولا حرام ، ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون . وقال ابن وهب قال مالك : لم يكن من فُتْيَا الناس أن يقولوا هـذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولون إيّاكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هـذا . ومعنى هـذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عزّ وجلّ ، وليس لأحد أن يقول أو يصرّح بهذا فى عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعالى يخبر بذلك عنـه . وما يؤدى إليـه الاجتهاد فى أنه حرام يقول : إنى أكره [كذا] . وكذلك كان مالك يفعل اقتداءً بمن تقدم من أهل الفتوى . فإن قيـل : فقد قال فيمن قال لزوجته أنت علىّ حرام إنها حرام ويكون ثلاثا . فالجـواب أن مالكا لمّا سمع علىّ بن أبى طالب يقول إنها حرام اقتدى به . وقد يقوى الدليل على التحريم

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

عند المجتهد فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك ، كما يقول إن الربا حرام فى غير الأعيان الستة[(١)] ، وكثيرا ما يطلق مالك رحمه الله ؛ فذلك حرام لا يصلح فى الأموال الربوية وفيما خالف المصالح وخرج عن طريق المقاصد لقوة الأدلة فى ذلك .

قوله تعالى : وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ بين أن الأنعام والحرث حلال لهذه الأمة ، فأما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء . ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى فى سورة الأنعام[(٢)] . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أى بتحريم ما حرمنا عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم فحرمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم ؛ كما تقدم فى النساء[(٣)] .

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ ﴾ أى الشرك ؛ قاله ابن عباس . وقد تقدم فى النساء[(٤)] .

قوله تعالى : إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ دعا عليه السلام مشركى العرب الى ملة إبراهيم ؛ إذ كان أباهم وبانى البيت الذى به عزهم : والأمة : الرجل الجامع للخير ، وقد تقدم محامله[(٥)] . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : بلغنى أن عبد الله بن مسعود

---

(١) هى الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح .   (٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٤ .
(٣) راجع جـ ٦ ص ١٢ .   (٤) راجع جـ ٥ ص ٩٢   (٥) راجع جـ ٢ ص ١٢٧ .

Marfat.com

قال : يرحم الله معاذا ! كان أمة قانتا . فقيل له : يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر الله عز وجل بهذا إبراهيم عليه السلام . فقال ابن مسعود : إن الأمة الذى يعلم الناس الخير، وإن القانت هو المطيع . وقد تقدم القنوت فى البقرة (١) و « حنيفا » فى الأنعام (٢) .

قوله تعالى : شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَـٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ شَاكِرًا ﴾ أى كان شاكرا . ﴿ لِأَنْعُمِهِ ﴾ الأنعم جمع نعمة، وقد تقدم . ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ أى اختاره . ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قيل : الولد الطيب . وقيل : الثناء الحسن . وقيل : النبوة . وقيل : الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد عليه السلام فى التشهد . وقيل : إنه ليس أهل دين إلا وهم يتولونه . وقيل : بقاء ضيافته وزيارة قبره . وكل ذلك أعطاه الله وزاده صلى الله عليه وسلم . ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . « من » بمعنى مع، أى مع الصالحين : لأنه كان فى الدنيا أيضا مع الصالحين . وقد تقدم هذا فى البقرة (٣) .

قوله تعالى : ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

قال ابن عمر : أمر باتباعه فى مناسك الحج كما علم إبراهيمَ جبريلُ عليهما السلام . وقال الطبرى : أمر باتباعه فى التبرؤ من الأوثان والتزين بالإسلام . وقيل : أمر باتباعه فى جميع ملته إلا ما أمر بتركه ؛ قاله بعض أصحاب الشافعى على ما حكاه الماوردى . والصحيح الاتباع فى عقائد الشرع دون الفروع؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا (٤) » .

(١) جـ ٢ ص ٨٦ وجـ ٣ ص ٢١٣ . (٢) ذكر فى الأنعام فى موضعين، (جـ ٧ ص ٢٨، ١٥٢) ولم يذكر المؤلف اشتقاقه فيهما ، وإنما تكلم عليه فى سورة البقرة جـ ٢ ص ١٣٩ فراجعه .

(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ . (٤) راجع جـ ٦ ص ٢١١ .

Marfat.com

مســـئلة : فى هذه الآية دليـل على جواز اتبـاع الأفضل للفضول — لمّا[1] تقدم [إلى الصـواب][1] — والعمل به ، ولا درك[2] على الفاضل فى ذلك ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبيـاء عليهم السلام ، وقد أمر بالاقتداء بهم فقال : « فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »[3] . وقال هنا : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » .

قوله تعـالى : إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أى لم يكن فى شرع إبراهيم ولا من دينه ، بل كان سمْحا لا تغليظ فيه ، وكان السبت تغليظا على اليهود فى رفض الأعمال وترك التبسط فى المعاش بسبب اختلافهم فيـه ، ثم جاء عيسى عليه السلام بيـوم الجمعة فقال : تفرغوا للعبادة فى كل سـبعة أيام يوما واحدا . فقـالوا : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا ، فاختاروا الأحد . وقد اختلف العلماء فى كيفية ماوقع لهم من الاختلاف ؛ فقالت طائفـة : إن موسى عليـه السلام أمرهم بيـوم الجمعة وعيّنه لهم ، وأخبرهم بفضيلته على غيره ، فناظروه أن السبت أفضـل ؛ فقال الله له : ” دعهم وما اختاروه لأنفسهم “ . وقيـل : إن الله تعـالى لم يعيّنه لهم ، وإنمـا أمرهم بتعظيم يوم فى الجمعة فاختلف اجتهادهم فى تعيينه ، فعيّنت اليهود السبت ؛ لأن الله تعـالى فرغ فيـه من الخلق . وعيّنت النصارى يوم الأحد ؛ لأن الله تعالى بدأ فيه الخلق . فأُلزِم كلّ منهم ما أداه إليه اجتهاده . وعيّن الله لهـذه الأمة يوم الجمعـة من غير أن يكلهم إلى اجتهادهم فضلا منـه ونعمة ، فكانت خيرَ الأمم أمّةً . روى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْـدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينـاه من بعدهم فاختلفوا فيـه فهدانا الله لمـا اختلفوا فيه من الحـق فهذا يومهم الذى

(١) كذا فى ى . وفى أوجوو : فى الأصول .		(٢) الدرك : التبعة .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٥ .

Marfat.com

اختلفوا فيه فهدانا الله له — قال يوم الجمعة — فاليوم لنا وغدا لليهود و بعد غد للنصارى " .
فقـوله : " فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه " يقوّى قول من قال : إنه لم يعيّن لهم ؛ فإنه لو عُيّن لهم وعاندوا لمـا قيل « اختلفوا » . وإنمـا كان ينبغى أن يقـال فخالفوا فيه وعاندوا . ومما يقوّيه أيضا قوله عليه السـلام : " أضل الله عن الجمعة مَن كان قبلنا " . وهذا نصّ فى المعنى . وقـد جاء فى بعض طرقه " فهذا يومهم الذى فرض الله عليهم اختلفوا فيه " . وهو حجـة للقول الأول . وقد روى : " إن الله كتب الجمعة على مَن كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تَبَعٌ " .

قوله تعـالى : ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ يريد فى يوم الجمعة كما بيناه ؛ اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى . ووجه الاتصال بمـا قبله أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أمِر باتباع الحـق، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدّد عليهم كما شدّد على اليهود .

قوله تعـالى : ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

فيه مسألة واحدة — هذه الآية نزلت بمكة فى وقت الأمر بمهادنة قريش ؛ وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولِين دون مُخاشنة وتَعْنيف ، وهكذا ينبغى أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيـامة . فهى محكمة فى جهة العصاة من الموحّدين ، ومنسوخة بالقتـال فى حق الكافرين . وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجى إيمـانه بها دون قتال فهى فيه محكمة . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾

Marfat.com

فيــه أربع مسائل :

الأولى — أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت في شأن التمثيل بحمـزة في يوم أُحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السِّيَر . وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بمـا قبلها من المكي آتصالا حسنا ؛ لأنهـا تتدرج الرتبُ من الذي يُدْعَى ويُوعَظ ، إلى الذي يُجَادل ، إلى الذي يجازَى على فعله . ولكن ما روى الجمهـور أثبت ؛ روى الدَّارَقُطْنيّ عن آبن عبـاس قال : لمـا آنصرف المشركون عن قتلى أُحُد آنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى منظَرًا ساءه ، رأى حمْـزة قد شُقّ بطنه ، وآصطُلِم أنفه، وجُدِعت أذناه ، فقـال : " لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلنّ مكانه بسبعين رجلا " ثم دعا ببردة وغطى بهـا وجهه، فخرجت رجلاه فغطى رسـول الله صلى الله عليه وسلم وجهه وجعل على رجليه من الإِذْخِر ، ثم قدمه فكبر عليه عشرا ، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه ، حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية : « أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ — إلى قوله — وَآصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ » فصبر رسول صلى الله عليه وسلم ولم يُمَثِّل بأحد . خرجه إسمـاعيل بن إسحـاق من حديث أبي هريرة ، وحديثُ آبن عباس أكمل . وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت : إنمـا نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة ألا ينال من ظالمه إذا تمكّن إلا مثل ظلامته لا يتعدّاه إلى غيره . وحكاه المـاوردي عن آبن سيرين ومجاهد .

الثانيــة — وآختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مال ثم آئتمن الظالم المظلوم على مال، هل يجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه؛ فقالت فرقة : له ذلك؛ منهم آبن سيرين وإبراهيم النخعيّ وسفيان ومجاهد؛ واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها . وقال مالك وفرقة معه : لا يجوز له ذلك؛ وآحتجوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أدّ الأمانة إلى من آئتمنـك ولا تخن من خانك " . رواه الدَّارَقُطْني وقد تقدّم هـذا في « البقـرة » مستوفًى (1) .

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ .

Marfat.com

ووقع فى مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد فى رجل زنى بامرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجة الثانى بأن تركها عنده وسافر؛ فاستشار ذلك الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأمر فقال له : "أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك" . وعلى هذا يتقوى قول مالك فى أمر المال؛ لأن الخيانة لاحقة فى ذلك، وهى رذيلة لا انفكاك عنها، فينبغى أن يتجنبها لنفسه؛ فإن تمكن من الانتصاف من مالٍ لم يأتمنه عليه فيُشْبه أن ذلك جائز وكأن الله حكم له؛ كما لو تمكن الآخذ بالحكم من الحاكم . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة، نسختها . « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ » .

الثالثة — فى هذه الآية دليل على جواز التماثل فى القصاص؛ فمن قتل بحديدة قُتل بها . ومن قتل بحجر قُتل به، ولا يتعدّى قدر الواجب، وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى[1]، والحمد لله .

الرابعة — سمّى الله تعالى الإذايات فى هذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هى الثانية، وإنما فعل ذلك ليستوى اللفظان وتتناسب دباجة القول، هذا بعكس قوله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ »[2]، وقوله : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »[3] فإن الثانى هنا هو المجاز والأول هو الحقيقة؛ قاله ابن عطية .

قوله تعالى : وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

فيه مسئلة واحدة — قال ابن زيد : هى منسوخة بالقتال . وجمهور الناس على أنها محكمة . أى اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلة . ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أى على قتلى أُحد فإنهم صاروا إلى رحمة الله . ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ ضيق جمع ضيقة؛ قال الشاعر :

* كَشَفَ الضَّيْقَةَ عنّا وفَسَحْ[4] *

(١) راجع ج ٢ ص ٣٥٥ .
(٢) راجع ج ٤ ص ٩٨ .
(٣) راجع ج ١ ص ٢٠٧ .
(٤) هذا عجز بيت للأعشى . وصدره كما فى اللسان وديوانه :
* فلئن ربك من رحمته *

Marfat.com

وقراءة الجمهور بفتح الضاد . وقرأ ابن كثير بكسر الضاد ، ورويت عن نافع ، وهو غلط ممن رواه . قال بعض اللغويين : الكسر والفتح فى الضاد لغتان فى المصدر . قال الأخفش : الضَّيق والضِّيق مصدر ضاق يضيق . والمعنى : لا يضيق صدرك من كفرهم . وقال الفراء : الضَّيق ما ضاق عنه صدرك ، والضِّيق ما يكون فى الذى يتسع و يضيق ؛ مثل الدار والثوب . وقال ابن السكيت : هما سواء ؛ يقـال : فى صدره ضَيق وضِيق . القُتَبِيّ : ضَيْق مخفف ضيّق ؛ أى لا تكن فى أمر ضيّق فخفّف ؛ مثل هَيّن وهَيْن . وقال ابن عرفة : يقال ضاق الرجل إذا بخل، وأضاق إذا آفتقر . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أى الفواحش والكبائر بالنصر والمعونة والفضل والبرّ والتأييد . وتقدّم معنى الإحسان . وقيل لهَرِم بن حِيّان[1] عند موته : أوصنا ؛ فقـال : أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ » إلى آخرها .

تمت سورة النحل، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات : قوله عز وجل : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ[2] » نزلت حين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وَفْدُ ثقيف، وحين قالت اليهود : ليست هذه بأرض الأنبياء . وقوله عز وجل : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ » . وقوله تعالى: « إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ » الآية . وقال مقاتل : وقوله عز وجل: « إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ » الآية . وقال ابن مسعود رضى الله عنـه فى بنى إسرائيل والكهف [ومريم] : إنهن من العِتاق الأول، وهنّ من تِلادي ؛ يريد من قديم كسبه .

(١) فى أسد الغابة : حيان . بالياء . وكذا فى جـ . وفى التاج و ى : حبان . بالموحدة .

(٢) راجع ص ٣٠١ ، وص ٣١٢ ، وص ٢٨١ فما بعد ، وص ٣٤٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

فيه ثمان[(١)] مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ « سبحان » اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكن ؛ لأنه لا يجرى بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يجر منه فعل، ولم ينصرف لأن فى آخره زائدتين، تقول : سبّحت تسبيحا وسُبحانا، مثل كفّرت اليمين تكفيرا وكُفرانا . ومعناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص . فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره ؛ فأما قول الشاعر :

أقول لمّا جاءنى فخْرُه * سُبْحانَ من علْقمةَ الفاخرِ[(٢)]

فإنما ذكره على طريق النادر . وقد روى طلحة بن عبيد الله الفيّاض أحدُ العشرة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله ؟ فقال : " تنزيه الله من كل سوء " . والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذى من معناه لا من لفظه : إذ لم يجر من لفظه فعل، وذلك مثل قعد القُرفُصاء، واشتمل الصّمّاء[(٣)] ؛ فالتقدير عنده : أنزّه الله تنزيها ؛ فوقع « سبحانَ الله » مكان قولك تنزيها .

---

(١) كذا فى جميع الأصول، و يلاحظ أن المسائل ست . (٢) البيت للأعشى . يقول هذا لعلقمة بن علاثة الجعفرى فى منافرته لعامر بن الطفيل، وكان الأعشى قد فضل عامرا وتبرأ من علقمة وفخره على عامر (عن الشنتمرى) .

(٣) القرفصاء : جلسة المحتبى بيديه . والصماء، ضرب من الاشتمال . واشتمال الصماء : أن تجلل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيتهم، وهو أن يردّ الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر ثم يردّه ثانية من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعا .

Marfat.com

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ « أسرى » فيـه لغتان : سرى وأسرى ؛ كسقى وأسقى ، كما تقدّم[١] . قال :

أسْرتْ عليه من الجَوْزاء سارِيَةٌ * تُزْجِى الشَّمال عليـه جامدَ البَرَد[٢]

وقال آخـــر :

حَيِّ النَّضِـــيرة ربة الخِـــدْرِ * أسْرت إلىّ ولم تكن تَسْرى[٣]

فجمع بين اللغتين فى البيتين . والإسراء : سير الليل ؛ يقال : سَرَيْت مَسْرًى وسُرًى ، وأسريت إسراء ؛ قال الشاعر :

وليلة ذات ندًى سريتُ * ولم يَلِتْنِى من سُراها لَيْتُ

وقيل : أسْرى سار من أوّل الليل ، وسَرى سار من آخره ؛ والأوّل أعرف .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ قال العلماء : لو كان للنبي صلى الله عليه وسلم اسم أشرف منه لسماه به فى تلك الحالة العلية . وفى معناه أنشدوا :

ياقومِ قلبي عنـد زهراءِ * يعـرفه السامع والرائى

لا تَدْعُنِى إلّا بيا عبـدها * فإنه أشـرف أسمائى

وقد تقدّم[٤] . قال القُشَيْرِى : لمـا رفعه الله تعالى إلى حضرته السّنية ، وأرقاه فوق الكواكب العلوية[٥]، ألزمه آسم العبودية تواضعا للأمة .

الرابعـــة — ثبت الإسراء فى جميع مصنفات الحديث ، وروى عن الصحابة فى كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابيا . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتيت بالبراق وهو دابة أبيض [طويل] فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه — قال — فركبته حتى أتيت بيت المقدس — قال — فربطته بالحَلْقة التى يربط بها الأنبياء — قال — ثم دخلت المسجد

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٧ . (٢) البيت للنابغة الذبيانى ، من قصيدته التى مطلعها : يادارمية بالعلياء . (٣) البيت لحسان بن ثابت . (٤) راجع جـ ١ ص ٢٣٢ . (٥) فى و : اسمه عبد الله

Marfat.com

فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر و إناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترتَ الفِطْرة — قال — ثم عَرج بنا إلى السماء ... " وذكر الحديث .

ومما ليس فى الصحيحين ما خرّجه الآجُرّى والسَّمَرْقَنْدى ، قال الآجرى عن أبى سعيد الخُدْرى فى قوله تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ » قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة أُسْرِىَ به ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أُتيت بدابّة هى أشبه الدواب بالبغل له أذنان يضطربان(١) وهو البراق الذى كانت الأنبياء تركبه قبلُ فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره فسمعت نداء عن يمينى يا محمد على رِسلِك حتى أسألك فمضيت ولم أعرّج عليــه ثم سمعت نداء عن يسارى يا محمد على رِسْلِك فمضيت ولم أُعَرِّجْ عليــه ثم استقبلتنى آمرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّجْ ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقته فى الحلقة التى كانت الأنبياء توثق بها ثم دخلت المسجد وصليت فيه فقال لى جبريل عليــه السلام ما سمعتَ يا محمد فقلت سمعتُ نداءً عن يمينى يا محمد على رِسْــلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّجْ فقــال ذلك داعى اليهود ولو وقفت لتهوّدت أمتــك — قال — ثم سمعت نداء عن يسارى على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّجْ عليه فقال ذلك داعى النصارى أمّا إنك لو وقفت لتنصّرت أمتك — قال — ثم استقبلتنى آمرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلِك فمضيت ولم أُعَرِّجْ عليها فقال تلك الدنيا لو وقفتَ لاخترت الدنيــا على الآخرة — قال — ثم أتيت بإناءين أحدهما فيه لَبَنٌ والآخر فيه خَمْر فقيل لى خذ فاشرب أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقــال لى جبريل أصبت الفِطْرة ولو أنك أخذت الخمر غَوَتْ أمتك ثم جاء بالمعراج الذى تعرج فيــه أرواح بنى آدم فإذا هــو أحسن ما رأيت أو لم تروا إلى الميت كيف يحدّ بصره إليه فعرج بنا حتى أتينــا(٢) باب السماء الدنيــا فآستفتح جبريل فقيل من هذا ؟ قال : جبريل قالوا : ومن معك؟ قال: محمد قالوا: وقد أرسل إليه ؟

---

(١) فى الأصول : « يخطرفان » والتصويب عن الدر المنثور .

(٢) فى جـ و و ى : انتهينا .

قال نعم ففتحوا لي وسلموا عليّ وإذا مَلَك يحرس السماء يقال له إسماعيل معه سبعون ألف مَلَك مع كل مَلَك مائة ألف — قال — ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ... " وذكر الحديث إلى أن قال : " ثم مضينا إلى السماء الخامسة وإذا أنا بهارون بن عمران المُحَبَّ في قومه وحوله تبع كثير من أمته فوصفه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال طويل اللحية تكاد لحيته تضرب في سرته ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فسلم عليّ ورحب بي — فوصفه النبي صلى الله عليه وسلم فقال — رجل كثير الشعر ولو كان عليه قميصان خرج شعره منهما ... " الحديث . وروى البزار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتي بفرس فحمل عليه ، كلُّ خُطوة منه أقصى بصره ... وذكر الحديث . وقد جاء في صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا نائم في الحِجْر إذ أتاني آت فحركني برجله فاتبعت الشخص فإذا هو جبريل عليه السلام قائم على باب المسجد معه دابة دون البغل وفوق الحمار وجهها وجه إنسان وخُفّها خُفّ حافر وذَنَبها ذنب ثور وعُرْفُها عرف الفرس فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرت ونفشت عرفها فمسحها جبريل عليه السلام وقال يا بُرْقة لا تَنْفِري من محمد فو الله ما ركبك مَلَك مقرب ولا نبيّ مُرْسَل أفضلُ من محمد صلى الله عليه وسلم ولا أكرم على الله منه قالت قد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة وإني أحبّ أن أكون في شفاعته فقلت أنت في شفاعتي إن شاء الله تعالى ... " الحديث . وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد النَّيسابوري عن أبي سعيد الخُدْريّ قال : لما مرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبيّ الصالح الذي وُعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لها سبعون قصرا من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصرا من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها وأسرّتها من عرق واحد فلما عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسبيحُ أهلها سبحان من جمع بين الثلج والنار من قالها مرة واحدة كان له مثلُ ثوابهم استفتح الباب جبريلُ عليه السلام ففُتح له فإذا هو بكَهْلٍ لم يُرَ قطُّ كَهْلٌ أجمل منه عظيم العينين تضرب لحيته

Marfat.com

قريبا من سرته قـد كاد أن تكون شمطة[1] وحوله قوم جلوس يقصّ عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال هارون المحبّب فى قومه ... " وذكر الحديث .

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين، ذكرها أبو الربيع سليمان ابن سبع بكمالها فى كتاب (شفاء الصدور) له . ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنمـا فرضت على النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة فى حين الإسراء حين عرج به إلى السماء . واختلفوا فى تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراءً بروحه أو جسده؛ فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية، وهى ممـا ينبغى الوقوف عليها والبحث عنها، وهى أهمّ من سَرْد تلك الأحاديث ، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيهـا من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعون الله تعـالى .

فأما المسألة الأولى — وهى هل كان إسراءً بروحه أو جسده؛ اختلف فى ذلك السلف والخلف، فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، ولم يفارق شخصُه مضجعه، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الأنبياء حق . ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكى عن الحسن وابن إسحـاق . وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح؛ واحتجوا بقوله تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» فجعـل المسجد الأقصى غاية الإسراء . قالوا : لو كان الإسراء بجسـده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغ فى المدح . وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفى اليقظة، وأنه ركب البُراق بمكة ، ووصل إلى بيت المقدس وصلّى فيه ثم أُسْرِىَ بجسده . وعلى هذا تدلّ الأخبار التى أشرنا إليها والآية . وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة ، ولا يُعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناما لقال بروح عبده ولم يقل بعبده . وقوله : «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى»[2] يدلّ على ذلك . ولو كان مناما لمـا كانت فيـه آية ولا معجزة ، ولمـا قالت له أم هانئ : لا تحدّث الناس

---

(١) الشمط فى الشعر : اختلافه بلونين من سواد و بياض .
(٢) راجع جـ ١٧ ص ٩٢ .

فيكذبوك، ولا فضّل أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشا التشنيعُ والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى آرتد أقوام كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر، وقد قال له المشركون : إن كنت صادقا فخبّرنا عن عِيرنا أين لقيتَها ؟ قال : " بمكان كذا وكذا مررت عليها ففزع فلان" فقيل له : ما رأيت يا فلان، قال : ما رأيت شيئا ! غير أن الإبل قد نفرت . قالوا : فأخبرنا متى تأتنا العيرُ؟ قال : " تأتيكم يوم كذا وكذا " . قالوا : أيّة ساعة ؟ قال : " ما أدرى، طلوع الشمس من ها هنا أسرع أم طلوع العير من ها هنا " . فقال رجل : ذلك اليوم ؟ هذه الشمس قد طلعت . وقال رجل : هذه عِيركم قد طلعت، وآستخبروا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك . روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد رأيتني في الحِجر وقريش تسألني عن مسراى فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثبِتْها[1] فكُرِبْتُ كَرْبًا ما كُرِبت مثله قطّ — قال — فرفعه الله لى أنظر إليه فما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به " الحديث . وقد اعترض قول عائشة ومعاوية : « إنما أسرى بنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم » بأنها كانت صغيرة لم تشاهِد، ولا حدّثت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وأما معاوية فكان كافرا في ذلك الوقت غير مشاهِد للحال، ولم يحدّث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على (كتاب الشفاء) للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء . وقد احتج لعائشة بقوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ[2] » فسماها رؤيا . وهذا يردّه قوله تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا » ولا يقال في النوم أسرى . وأيضا فقد يقال لرؤية العين : رؤيا، على ما يأتي بيانه في هذه السورة . وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالة واضحة على أن الإسراء كان بالبدن ، و إذا ورد الخبر بشيء هو مجوّز في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار، لا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم معارجُ؛ فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يحمل قوله عليه السلام في الصحيح : "بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان" الحديث . ويحتمل أن يردّ من الإسراء إلى نوم . والله أعلم .

(١) أى لم أعرفها حق ؛ يقال : أثبت الشيء وثابته إذا عرفه حق المعرفة .
(٢) راجع ص ٢٨٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

المسألة[1] الثانية — فى تاريخ الإسراء ، وقـد اختلف العلمـاء فى ذلك أيضا ، واختلف فى ذلك على ابن شهاب ؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسرِىَ به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة . وروى عنـه يونس عن عروة عن عائشة قالت : تُوفِّيت خديجة قبل أن تُفرض الصلاة . قال ابن شهاب : وذلك بعد مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بسبعة أعوام . وروى عنه الوَقّاصيّ : قال أُسرِىَ به بعـد مبعثه بخمس سنين . قال ابن شهـاب : وفُرض الصيام بالمدينة قبـل بَدْر ، وفُرضت الزكاة والحج بالمدينة ، وحُرِّمت الخمر بعـد أُحُد . وقال ابن إسحاق : أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس ، وقد فشا الإسلام بمكة فى القبائل . وروى عنه يونس بن بكير قال : صلّت خديجة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم . وسيأتى . قال أبو عمر : وهذا يدلك على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام ؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل : بثلاث وقيل : بأربع . وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب ، على أن ابن شهاب قـد اختلف عنه كما تقـدّم . وقال الحَرْبِى : أسرى به ليلة سبع وعشرين من [شهر] ربيع الآخرة قبل الهجرة بسنة . وقال أبو بكر محمد بن علىّ ابن القاسم الذهبي فى تاريخه : أسرى به من مكة إلى بيت المقـدس ، وعرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من أهل السير قال ما حكاه الذهبي ، ولم يُسْنِد قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هذا العلم منهم ، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم .

المسألة[2] الثالثة — وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فُرضت ، فلا خلاف بين أهـل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عرج به إلى السماء ، وذلك منصوص فى الصحيح وغيره . وإنمـا اختلفوا فى هيئتها حين فرضت ؛ فروى عن عائشـة رضى الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد فى صلاة الحضر فأكملت أربعا ، وأقرّت صـلاة السفر على ركعتين . وبذلك قال الشّعْبي وميمون بن مِهْران ومحمـد بن إسحاق . قال الشعبيّ : إلا المغـرب . قال يونس بن بكير : وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليـه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم حين فرضت عليه الصلاة يعنى فى الإسراء فهمز له بعقبه فى ناحية

(١) فى جـ : المسألة الخامسة ، والمسألة السادسة بدل المسألة الثانية والثالثة . فيكون الترقيم على ما قال المصنف أولا : ثمان مسائل .

Marfat.com

الوادى فآنفجرت عين ماء فتوضأ جبريل ومحمد ينظر عليهما السلام فوضأ وجهه واستنشق وتمضمض ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه، ثم قام يصلى ركعتين بأربع سجدات، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصليان سواء. وروى عن ابن عباس أنها فرضت فى الحضر أربعا وفى السفر ركعتين. وكذلك قال نافع بن جُبَير والحسن بن أبى الحسن البصرى، وهو قول ابن جريج، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم مايوافق ذلك. ولم يختلفوا فى أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلّم النبيّ صلى الله عليه وسلم الصلاة ومواقيتها. وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبى المهاجر قال سمعت ميمون بن مهران يقول: كان أول الصلاة مثنى، ثم صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعا فصارت سُنّة، وأُقرّت الصلاة للسافر وهى تمام. قال أبو عمر: وهذا إسناد لايحتج بمثله، وقوله: «فصارت سنّة» قول منكر، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر الصبح قولٌ لا معنى له. وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة فى الحضر أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملا ونقلا مستفيضا، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها.

الخامسة[1] — قد مضى الكلام فى الأذان فى «المائدة»[2] والحمد لله. ومضى فى «آل عمران»[3] أن أول مسجد وضع فى الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى. وأن بينهما أربعين عاما من حديث أبى ذرّ، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع فى ذلك؛ فتأمله هناك فلا معنى للإعادة. ونذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تُشَدّ الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدى هذا وإلى مسجد إيلياء — أو بيت المقدس". خرّجه مالك من حديث أبى هريرة. وفيه مايدلّ على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذر صلاة فى مسجد

(١) فى ج هذه المسألة السابعة. (٢) راجع ج ٦ ص ٢٢٤. (٣) ج ٤ ص ١٣٧.

Marfat.com

لايصل إليــه إلا برحلة وراحلة فلا يفعــل ، و يصلّى فى مسجده ، إلا فى الثـلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها . وقد قال مالك و جماعة من أهل العلم فيمن نذر رِباطا فى ثغر يسدّه : فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عز وجل . وقد زاد أبو البختري فى هذا الحديث مسجد الجند ، ولايصح وهو موضوع ، وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب .

السادســة[1] — قوله تعالى : ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ سُمّى الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام ، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة فى الأرض يعظَّم بالزيارة ، ثم قال : ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ قيل : بالثمار و بمجارى الأنهار . وقيل : بمن دُفن حوله من الأنبياء والصالحين ؛ وبهذا جعله مقدسا . وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول الله تعالى ياشام أنت صفوتي من بلادى وأنا سائق إليك صفوتى من عبادى "[2] [أصله سام فعرب] ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ هذا من باب تلوين الخطاب . والآيات التى أراه الله من العجائب التى أخبر بها الناس ، و إسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى فى ليلة وهو مسيرة شهر ، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحدا واحدا ، حسبما ثبت فى صحيح مسلم وغيره . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[3] تقدّم .

قوله تعـالى : وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾

أى كرمنا محمدا صلى الله عليــه وسلم بالمعـراج ، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة . ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى ذلك الكتاب . وقيل : موسى . وقيل : معنى الكلام سبحان الذى أسرى بعبده ليلا وآتى موسى الكتاب ؛ فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جل وعز . وقيل : إن معنى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، معناه أسرينا ، يدلّ عليه مابعده من قوله : «لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا» فحمل «وآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» على المعنى . ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا ﴾ قرأ أبو عمرو «يتخذوا»

(١) فى جـ : المسألة الثامنة . (٢) من ى . (٣) راجع جـ ٥ ص ٢٥٨ .

Marfat.com

بالياء . الباقون بالتاء . فيكون من باب تلوين الخطاب . ﴿وَكِيلًا﴾ أى شريكا؛ عن مجاهد . وقيل : كفيلا بأمورهم؛ حكاه الفراء . وقيل : ربًّا يتوكّلون عليه فى أمورهم؛ قاله الكلبي . وقال الفراء : كافيا؛ والتقدير : عهدنا إليه فى الكتاب ألا تتخذوا من دونى وكيلا . وقيل : التقدير لئلا تتخذوا . والوكيل : من يُوكَل إليه الأمر .

قوله تعالى : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (٣)

أى يا ذرية من حملنا، على النداء؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبى نَجيح . والمراد بالذرية كل من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع مَن على الأرض؛ ذكره المهدوىّ . وقال الماوردىّ : يعنى موسى وقومه من بنى إسرائيل، والمعنى ياذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا . وذكر نوحا ليذكرهم نِعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم . وروى سفيان عن حُميد عن مجاهد أنه قرأ « ذَرّيّة » بفتح الذال وتشديد الراء والياء . وروى هذه القراءة عامر بن الواجد(١) عن زيد ابن ثابت . وروى عن زيد بن ثابت أيضا « ذِرية »(١) بكسر الذال وشدّ الراء [والياء](٢) . ثم بيّن أن نوحا كان عبدا شكورا يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده . قال قتادة : كان إذا لبس ثوبا قال : بسم الله، فإذا نزعه قال : الحمد لله . كذا روى عنه مَعْمَر . وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال : شكره إذا أكل قال : بسم الله : فإذا فرغ من الأكل قال : الحمد لله . قال سلمان الفارسى : لأنه كان يَحمَد الله على طعامه . وقال عمران بن سليم : إنما سمى نوحا عبدا شكورا لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء لأجاعنى، وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى ولو شاء لأظمأنى ، وإذا آكتسى قال الحمد لله الذى كسانى ولو شاء لأعرانى، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذانى ولو شاء لأحفانى، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عنى الأذى ولو شاء لحبسه فىّ . ومقصود الآية : إنكم من ذرية نوح وقد كان عبدا شكورا فأنتم أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال . وقيل : المعنى أن موسى كان عبدا شكورا إذ جعله الله من ذرية نوح . وقيل : يجوز أن يكون

(١) كذا فى نسخ الأصل، ولم نعثر عليه فى المظان . وفى الشواذ : ذرية بالكسر الأصل .	(٢) من ج .

Marfat.com

« ذُرِّيَّةَ » مفعولا ثانيا لـ « تَتَّخِذُوا » ، ويكون قوله : « وكيلا » يراد به الجمع فيسوغ ذلك في القراءتين جميعا أعني الياء والتاء في « تتخذوا » . ويجوز أيضا في القراءتين جميعا أن يكون « ذرية » بدلا من قوله « وكيلا » لأنه بمعنى الجمع؛ فكأنه قال : لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح . ويجوز نصبها بإضمار أعني وأمدح، والعـرب قد تنصب على المدح والذم . ويجوز رفعها على البدل من المضمر في « تتخـذوا » في قراءة من قرأ بالياء؛ ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن المخاطب لا يبدل منه الغائب . ويجوز جرها على البدل من بني إسرائيل في الوجهين فأما « أن » من قوله : « أَلَّا تَتَّخِذُوا » فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضع نصب بحذف الجار، التقدير : هديناهم لئلا يتخذوا . ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة والقول مضمر كما تقدم . ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي، لا موضع لها من الإعراب، وتكون « لا » للنهي فيكون خروجا من الخبر إلى النهي .

قوله تعـالى : وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية « فِي الْكُتُبِ » على لفظ الجمع . وقد يرد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع؛ فتكون القراءتان بمعنى واحد . ومعنى . « قَضَيْنَا » أعلمنا وأخبرنا ؛ قاله ابن عباس : وقال قتـادة : حكمنا؛ وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه . وقيـل : قضينا أوحينا؛ ولذلك قال : « إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ » . وعلى قول قتادة يكون « إلى » بمعنى على؛ أي قضينا عليهم وحكمنا . وقاله ابن عباس أيضا . والمعنيّ بالكتاب اللوح المحفوظ .﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ وقرأ ابن عباس « لَتُفْسَدُنَّ » . عيسى الثقفي « لَتَفْسُدُنَّ » . والمعنى في القراءتين قريب ؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا؛ والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة . ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض الشام و بيت المقدس وما والاها . ﴿ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ ﴾ اللام في « لتفسدن ولتعلن » لام قسم مضمر كما تقدم . ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أراد التكبر والبغي والطغيان والاستطالة والغلبة والعدوان .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ (٥)

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أى أولى المرتين من فسادهم . ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ هم أهل بابل ، وكان عليهم بُخْتَنَصّر فى المرة الأولى حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم ، فهو وقومه أولوا بأس شديد . وقال مجاهد : جاءهم جند من فارس يتجسّسون أخبارهم ومعهم بختنصر فوَعَى حديثهم من بين أصحابه ، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال ، وهذا فى المرة الأولى ، فكان منهم جَوْسٌ خلال الديار لا قتل ؛ ذكره القشيرى أبو نصر . وذكر المهدوى عن مجاهد أنه جاءهم بختنصر فهزمه بنو إسرائيل ، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمّرهم تدميرا . ورواه ابن أبى نجيح عن مجاهد ؛ ذكره النحاس . وقال محمد بن إسحاق فى خبر فيه طول : إن المهزوم سَنْحاريب مَلِك بابل(١) ، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف فارس فنزل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سنحاريب وخمسة نفر من كُتّابه ، وبعث ملك بنى إسرائيل واسمه صديقة فى طلب سنحاريب فأخذ مع الخمسة ، أحدهم بختنصر ، فطرح فى رقابهم الجوامع(٢) وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس و إيلياء ويرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم ، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل ، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين ، واستخلف بختنصر وعظمت الأحداث فى بنى إسرائيل ، واستحلوا المحارم وقتلوا نبيهم شَعْيا ؛ فجاءهم بختنصر ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم . وقال ابن عباس وابن مسعود : أوّل الفساد قتل زكريا . وقال ابن إسحاق : فسادهم فى المرة الأولى قتل شَعْيا نبى الله فى الشجرة ؛ وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم مَرِج(٣) أمرهم

---

(١) راجع كتاب قصص الأنبياء ، المسمى بالعرائس ص ٢٥٩ طبع بولاق وتاريخ الطبرى جـ ٢ قسم أول ص ٦٣٨ وما بعدها طبع أوربا .　　(٢) الجوامع : الأغلال ، والواحد جامعة .

(٣) مرج الأمر : فسد واختلط والتبس المخرج فيه .

Marfat.com

وتنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضا وهم لا يسمعون من نبيهم ؛ فقال الله تعالى له : قم في قومك أوح على لسانك ، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عدوا عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها ، وأدركه الشيطان فأخذ هُدْبَة من ثوبه فأراهم إياها ، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها . وذكر ابن إسحاق : أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتا ولم يقتل وإنما المقتول شَعْيا . وقال سعيد بن جُبَير في قوله تعالى : « بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ » هو سنحاريب من أهل نِينَوَى بالمَوْصِل ملك بابل . وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق ، فالله أعلم . وقيل : إنهم العمالقة وكانوا كفارا ، قاله الحسن . ومعنى "جَاسُوا" : عاثوا وقتلوا ، وكذا حاسوا وهاسوا وداسوا ؛ قاله ابن عُزَيز : وهو قول القُتَبِيّ . وقرأ ابن عباس : « حاسوا » بالحاء المهملة . قال أبو زيد : الحوس والجوس والعَوْس والهَوْس : الطواف بالليل . وقال الجوهري : الجَوْسُ مصدر قولك جاسوا خلال الديار ، أي تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها ؛ وكذلك الاجتياس . والجَوَسان (بالتحريك) الطوفان بالليل ؛ وهو قول أبي عبيدة . وقال الطبري : طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين ؛ فجمع بين قول أهل اللغة . قال ابن عباس : مشوا وترددوا بين الدور والمساكن . وقال الفراء : قتلوكم بين بيوتكم ؛ وأنشد لحسان :

ومنـا الذى لاقى بسيف محمـد * فجاس به الأعداء عرض العساكر

وقال قطرب : نزلوا ؛ قال :

فَجُسْنَا ديارَهم عَنْـوَةً * وأُبْنَا بساداتهم مُوثَقِينَا

﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ أي قضاء كائنا لا خلف فيه .

قوله تعالى : ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِم ﴾ أى الدولة والرجعـة ؛ وذلك لما تبتم وأطعتم . ثم قيـل : ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره ، على الخلاف فى من قتلهـم . ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ حتى عاد أمركم كما كان . ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أى أكثر عددا ورجالا من عدوّكم . والنفير مَن نفر مع الرجل من عشيرته؛ يقال : نفير ونافر مثل قدير وقادر . ويجوز أن يكون النفير جمع نَفْر كالكليب والمعيز والعبيد؛ قال الشاعر :

فأكْرِمْ بقَحْطانَ من والد * وحِمْـيَرَ أكرم بقوم نفـيرا

والمعنى : أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثر انضماما وأصلح أحوالا ، جزاء من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة .

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أى نفـع إحسانكم عائد عليـكم . ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أى فعليها، نحو سلام لك، أى سلام عليك . قال :

* فخرّ صريعا لليدين وللفم[(١)] *

أى على اليدين وعلى الفم . وقال الطبرى : اللام بمعنى إلى، يعنى وإن أسأتم فإليها ، أى فإليها ترجع الإساءة ؛ كقوله تعـالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا[(٢)] » أى إليها . وقيل : فلها الجزاء والعقاب . وقال الحسين بن الفضل : فلها رَبٌّ يغفـر الإساءة . ثم يحتمل أن يكون هـذا

---

(١) هذا عجز بيت لربيعه بن مكدم . وصدره :

* وهتكت بالرمح الطويل إهابه *

وقبل هذا البيت :

فصرفت راحـلة الظعينة نحوه * عمـدا ليعلم بعض ما لم يعـلم

وبعـــده :

ومنحت آخر بعـده جياشـة * نجـلاء فاغرة كشدق الأضجم

وهذه الأبيات قيلت يوم الظعينة . راجع أمالى القالى جـ ٢ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب .

(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٩ .

Marfat.com

خطابا لبني إسرائيل في أول الأمر ؛ أي أساتم لحلّ بكم القتل والسّبيُ والتخريب ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعُلوّ وانتظام الحال . ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن محمد صلى الله عليه وسلم؛ أي عرفتم استحقاق أسلافكم للعقوبة على العصيان فارتقبوا مثله . أو يكون خطابا لمشركي قريش على هذا الوجه . ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ من إفسادكم؛ وذلك أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام، قتله ملك من بني إسرائيل يقال له : لاخت ؛ قاله القُتَبِيّ . وقال الطبري : اسمه هيردوس ، ذكره في التاريخ؛ حمله على قتله امرأة اسمها أزبيل . وقال السدّي : كان ملك بني إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويستشيره في الأمر، فاستشاره الملك أن يتزوج بنت امرأة له فنهاه عنها وقال : إنها لا تحلّ لك؛ فحقدت أمّها على يحيى عليه السلام ، ثم ألبست ابنتها ثيابا حمراء رِقاقا وطيّبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرابه ، وأمرتها أن تتعرض له ، وإن أرادها أبَتْ حتى يعطيها ما تسأله ؛ فإذا أجاب سألت أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طَسْت من ذهب؛ ففعلت ذلك حتى أتى برأس يحيى بن زكريا والرأس يتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول : لا تحلّ لك؛ لا تحلّ لك؛ فلما أصبح إذا دمه يَغْلِي ، فألقى عليه التراب فغلى فوقه ، فلم يزل يلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يَغْلِي؛ ذكره الثعلبي وغيره . وذكر ابن عساكر الحافظ في تاريخه عن الحسين بن عليّ قال : كان ملك من هذه الملوك مات وترك امرأته وابنتــه فورث مُلْكَه أخوه، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه ، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك ، وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء ، فقــال له : لا تتزوجها فإنهــا بَغِيّ ، فعرَفَت المرأةُ أنه قــد ذكرها وصرفه عنها ، فقالت : من أين هذا ؟ حتى بلغها أنه من قِبَل يحيى ، فقالت : ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه ، فعمدت إلى ابنتها وصنّعتها ، ثم قالت : اذهبي إلى عمك عنــد الملإ فإنه إذا رآك سيدعوك ويجلسك في حجره ، ويقول سليني ماشئت ، فإنك لن تسأليني شيئا إلا أعطيتك ، فإذا قال لك ذلك فقولي : لا أسأل إلا رأس يحيى . قال : وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رءوس الملإ ثم لم يَمْض له نُزِع من ملكه؛ ففعلت ذلك . قال : فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى؛

Marfat.com

وجعل يأتيــه الموت من خروجه من ملكه » فاختار ملكه نفسه . قال : فساخت بأمتهـا الأرض . قال ابن جُدْعان : فحدّثت بهذا الحديث ابنَ المسيّب فقال : أفـا أخبرك كيف كان قتل زكريا ؟ قلت لا : قال : إن زكريا حيث قتل ابنه آنطلق هاربا منهم واتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فانطوت عليه و بقيت من ثوبه هُدْبَة تكفتها الرياح ، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها ، ونظروا بتلك الهدبة فدعوا بالمِنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها .

قلت : وقـع فى التاريخ الكبير للطبرى[1] فحدثنى أبو السائب قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المِنهال عن سـعيد بن جبير عن آبن عباس قال : بعث عيسى بن مريم يحيى بن زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس ، قال : كان فيما نهوهم عنه نكاح آبنة الأخ ، قال : وكان لملكهم آبنة أخ تعجبه ... وذكر الخبر بمعناه . وعن ابن عباس قال : بعث يحيى آبن زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس ، وكان فيما يعلمونهم ينهونهم عن نـكاح بنت الأخت ، وكان لملكهم بنت أخت تعجبه ، وكان يريد أن يتزوجها ، وكان لهـا كل يوم حاجة يقضيها ، فلما بلغ ذلك أمَّها أنهم نُهُوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها : إذا دخلت على الملك فقال ألك حاجة فقولى : حاجتى أن تذبح يحيى بن زكريا ، فقـال : سلينى سوى هذا ! فقالت : ما أسألك إلا هذا . فلما أبت عليه دعا بطَسْت ودعابه فذبحه ، فندَرت قطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تغْـلِي حتى بعث الله عليهـم بختنصّر فألقِى فى نفسه أن يقتل على ذلك الدّم منهـم حتى يسكن ذلك الدم ، فقتل عليه منهم سبعين ألفـا ، فى رواية خمسة وسبعين ألفا . قال سعيد بن المسيّب : هى دِيَةُ كل نبىّ . وعن ابن عباس قال : أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسـلم إنى قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفا ، و إنى قاتل بابن ابنتـك سبعين ألفا وسبعين ألفا . وعن سمير بن عطية قال : قتل على الصخرة التى فى بيت المقدس سبعون نبيـا منهم يحيى بن زكريا . وعن زيد بن وَاقد قال : رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بنـاء مسجد دمشق ، أخرج من تحت ركن من أركان القُبّـة التى تلى المحراب

(١) راجع جـ ٣ قسم أول ص ٧١٣ طبع أوربا .

Marfat.com

ممـا يلى الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغيّر . وعن قرة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علىّ؛ وحمرتها بكاؤها . وعن سفيان بن عُيَيْنة قال : أوحش مايكون ابن آدم فى ثلاثة مواطن : يوم ولد فيخرج إلى دارِ هَمٍّ، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيرانا لم ير مثلهم؛ ويوم يُبعث فيشهد مشهدا لم ير مثـله؛ قال الله تعـالى ليحيى فى هذه الثلاثة مواطن : « وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّـا » (١) . كله من التاريخ المذكور .

واختلف فيمن كان المبعوث عليهم فى المرة الآخرة؛ فقيـل : بختنصر . وقاله القشيرى أبو نصر، لم يذكر غيره . قال السُّهَيْلِيّ : وهذا لا يصح؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى بن مريم عليهما السـلام بزمان طويل؛ وقبل الإسكندر؛ وبين الإسكندر وعيسى نحوٌ من ثلثمائة سنة، ولكنه أريد بالمرة الأخرى حين قتلوا شَعْيَا، فقد كان بختنصر إذ ذاك حيا، فهو الذى قتلهم وخرّب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها . وقال الثعلبى : ومن روى أن بختنصر هو الذى غزا بنى إسرائيل عنـد قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السير والأخبار؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنمـا غزا بنى إسرائيل عند قتلهم شَعْيَا وفى عهد أَرْمِيَاء . قالوا : ومن عهد إرمياء وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى ابن زكريا عليهما السلام أربعمائة سنة وإحدى وستون سـنة ، وذلك أنهم يعدّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته فى عهد كوسك (٢) سبعين سـنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاث وستين سنة (٣) .

قلت : ذكر جميعه الطبرى فى التاريخ رحمه الله . قال الثعلبى : والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال : لمـا رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتـلوا يحيى — وبعض

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٨٨ فما بعد . (٢) الذى فى تاريخ الطبرى : « كيرش » ولم نوفق لتصويبه .

(٣) فى الطبرى : « ثلثمائة وثلاث سنين » . راجع ص ٧١٨ من القسم الأول .

Marfat.com

الناس يقول : لمـا قتلوا زكريا — بعث الله إليهم ملكا من ملوك بابل يقال له : خردوس[1]، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشام، ثم قال لرئيس جنوده : كنت حلفت بإلهي لئن أظهرني الله على بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، وأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيهـا دماء تغلي، فسألهم فقـالوا : دم قربان قربناه فـلم يتقبل منا منذ ثمـانين[2] سنة . قال ماصدقتموني، فذبح على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلا من رؤسائهم فلم يهدأ، [فأتى بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحوا على الدم فلم يهـدأ[3]]، فأمر بسبعة آلاف من سبيهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فـلم يبرد، فقال : يا بني إسرائيل، أصدقوني قبل ألا أترك منكم نافخ نار من أنثى ولا من ذكر إلا قتلته . فلما رأوا الجهد قالوا : إن هذا دم نبي منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله فقتلناه، فهذا دمه، كان اسمه يحيى بن زكريا، ما عصى الله قط طرفة عين ولا هم بمعصية . فقال : الآن صدقتموني، وخر ساجدا ثم قال : لمثل هذا ينتقم منكم، وأمر بغلق الأبواب وقال : أخرجوا من كان ها هنا من جيش خردوس[1]، وخلا في بني إسرائيل وقال : يا نبي الله، يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ماقد أصاب قومك من أجلك، فآهدأ بإذن الله قبل ألا أبقى منهم أحدا . فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل، ورفع عنهـم القتل وقال : رب، إني آمنت بمـا آمن به بنو إسرائيل وصدقت به؛ فأوحى الله تعـالى إلى رأس من رءوس الأنبيـاء : إن هـذا الرئيس مؤمن صدوق . ثم قال : إن عدو الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لا أعصيه، فأمرهم فحفروا خندقا وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سـال الدم إلى العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يفني بني إسرائيل .

---

(١) في ج : جردوش . ولعـله تحريف من النـاسخ .

(٢) في تاريخ الطبري ص ٧٢١ : « منذ ثمـانمـائة سنة » .

(٣) زيادة عن تاريخ الطبري .

Marfat.com

قلت : قد ورد فى هذا الباب حديث مرفوع فيه طول من حديث حُذيفة، وقد كتبناه فى (كتاب التذكرة) مقطعا فى أبواب فى أخبار المهدى، نذكر منها هنا مايُبيّن معنى الآية ويفسّرها حتى لا يحتاج معه إلى بيان ، قال حذيفة : قلت يا رسول الله، لقد كان بيت المقدس عند الله عظيما جسيم الخطر عظيم القدر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هو من أجلّ البيوت ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودُرّ وياقوت وزمرد" : وذلك أن سليمان بن داود لما بناه سخر الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعادن ، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرد، وسخر الله تعالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف . قال حذيفة : فقلت يا رسول الله ، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن بنى إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلط الله عليهم بختنصر وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سنة ، وهو قوله : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا » فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبَوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان فى بيت المقدس من هذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل ، فأقاموا يستخدمون بنى إسرائيل ويستملكونهم بالخزى والعقاب والنكال مائة عام، ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس فى أرض بابل، وأن يستنقذ من فى أيديهم من بنى إسرائيل؛ فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقى من بنى إسرائيل من أيدى المجوس واستنقذ ذلك الحلى الذى كان من بيت المقدس وردّه الله إليه كما كان أول مرة فقال لهم : يابنى إسرائيل إن عدتم إلى المعاصى عدنا عليكم بالسّبى والقتل، وهو قوله : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا » فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصى فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر، وهو قوله : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا » فغزاهم فى البر والبحر فسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذ حلى جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة حتى أودعه

Marfat.com

فى كنيسة الذهب ، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهدى فيردّه إلى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة يُرسَى بها على يافا[(١)] حتى تنقل إلى بيت المقدس وبها يجمع الله الأولين والآخرين ... " وذكر الحديث .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى من المرتين ؛ وجواب « إذا » محذوف ، تقديره بعثناهم ؛ دلّ عليه « بعثنا » الأول . ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أى بالسَّبْى والقتل فيظهر أثر الحزن فى وجوهكم ؛ فـ « ليسوءوا » متعلق بمحذوف ؛ أى بعثنا عبادا ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم . قيل : المراد بالوجوه السادة ؛ أى ليذلّوهم . وقرأ الكسائى « لنسوءَ » بنون وفتح الهمزة ، فعل مخبر عن نفسه معظم ، اعتبارا بقوله : « وقضينا وبعثنا ورددنا » . ونحوه عن علىّ . وتصديقها قراءة أبىّ « لنسوءنّ » بالنون وحرف التوكيد . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثّاب وحمزة وابن عامر « ليسوء » بالياء على التوحيد وفتح الهمزة ؛ ولها وجهان : أحدهما — ليسوء الله وجوهكم . والثانى — ليسوء الوعد وجوهكم . وقرأ الباقون « لِيَسُوءُوا » بالياء وضم الهمزة على الجمع ؛ أى ليسوء العباد الذين هم أولوا بأس شديد وجوهكم . ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أى ليدمروا ويهلكوا . وقال قطرب : يهدموا ؛ قال الشاعر :

فما الناس إلا عاملان فعاملٌ * يُتَبِّر ما يَبْنِى وآخر رافع

﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أى غلبوا عليه من بلادكم ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ .

قوله تعالى : عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ وهذا مما أخبروا به فى كتابهم . و « عسى » وعد من الله أن يكشف عنهم . و « عسى » من الله واجبة . ﴿ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد انتقامه منكم ، وكذلك كان ؛ فكثّر عددهم وجعل منهم الملوك . ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ قال قتادة :

(١) كذا فى الطبرى والدر المنثور . وفى أ و ج و و وى : يافى . وهذا خطأ لنساخ .

Marfat.com

فعادوا فبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فهم يعطون الجزية بالصغار ؛ وروى عن ابن عباس . وهذا خلاف ما تقدّم في الحديث وغيره . وقال القشيري : وقد حلّ العقاب ببني إسرائيل مرّتين على أيدي الكفار ، ومرة على أيدي المسلمين . وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم . وعلى هذا يصح قول قتادة . ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ أي محبِسا وسجنا ، من الحَصْر وهو الحبس . قال الجوهري : يقال حصره يحصره حصرا ضيق عليه وأحاط به . والحصير : الضيق البخيل . والحصير البارِية . والحصير : الجنب ، قال الأصمعي : هو ما بين العِرْق الذي يظهر في جنب البعير والفرس معترِضا فما فوقه إلى منقطع الجنب . والحصير : الملك ؛ لأنه محجوب . قال لبيد :

وقَمَاقِمٍ غُلْبِ الرقاب كأنهم * جِنّ لدى باب الحَصِير قيام

ويروى : * ومَقَامَةٍ غُلْبِ الرقاب ... ... *[1]

على أن يكون « غلب » بدلا من « مقامة » كأنه قال : ورُبَّ غُلْبِ الرقاب . وروى عن أبي عبيدة : * لدى طرف الحصير قيام *

أي عند طرف البساط للنعمان بن المنذر . والحصير : المَحْبِس ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » . قال القُشَيْري . ويقال للذي يُفْتَرش حصيرا ؛ لحصر بعضه على بعض بالنسج . وقال الحسن : أي فراشا ومهادا ؛ ذهب إلى الحصير الذي يفرش ، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا ، قال الثعلبي : وهو وجه حسن .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ لما ذكر المعراج ذكر ما قضى إلى بني إسرائيل ، وكان ذلك دلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين أن الكتاب الذي

(١) في هامش جـ : قال الشيخ المصنف : ويروى : وعصابة .

Marfat.com

أنزل الله عليه سبب اهتـداء . ومعنى ﴿ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أى الطريقة التى هى أسـدّ وأعدل وأصوب؛ فـ « التى » نعت لموصوف محذوف، أى الطريقة التى هى أقوم. وقال الزجاج: للحال التى هى أقوم الحالات، وهى توحيد الله والإيمان برسله. وقاله الكلبي والفرّاء.

قوله تعالى: ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ تقدّم[(١)]. ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أى بأن لهم. ﴿ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أى الجنة. ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى ويبشرهم بأن لأعدائهم العقاب. والقرآن معظمه وعدٌ ووعيدٌ. وقرأ حمـزة والكسائى « وَيَبْشُرُ » مخففا بفتح الياء وضم الشين؛ وقد ذُكر[(٢)].

قوله تعـالى : وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بمـا لا يحب أن يستجاب له: اللهم أهلكه، ونحـوه. ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ أى كدعائه ربه أن يهب له العافية؛ فـلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضله لا يستجيب له فى ذلك. نظيره: « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » وقد تقدّم[(٣)]. وقيل: نزلت فى النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول: « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم[(٤)] ». وقيل: هو أن يدعو فى طلب المحظور كما يدعو فى طلب المباح، قال الشاعر وهو ابن جامع:

أطـوف بالبيت فيمن يطوف * وأرفع من مِئْزَرِى المُسْبَلِ
وأسجُدُ بالليل حـتى الصباح * وأتلو من المُحْكَمِ المُـنْزَلِ
عسى فارجُ الهمّ عن يوسف * يُسَـخّر لى ربّة المحْمَـلِ

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٥ . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣١٤ .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ وجـ ٨ ص ٣١٥ .

Marfat.com

قال الجوهرى : يقال ماعلى فلان محمل مثال مجلس أى معتمد . والمحمل أيضا : واحد محامل الحاج . والمحمل مثال المرجل : علاقة السيف . وحذفت الواو من « وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ » فى اللفظ والخط ولم تحذف فى المعنى لأن موضعها رفع فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة ؛ كقوله تعالى : « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ »[1] « وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ »[2] « وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ »[3] « يُنَادِ الْمُنَادِ »[4] « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ »[5] . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ أى طبعه العجلة ، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير . وقيل : أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تركّب فيه الروح على الكمال . قال سلمان : أول ما خلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده ، فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح فقال : يارب عجّل قبل الليل ؛ فذلك قوله : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا » . وقال ابن عباس : لما انتهت النفخة إلى سرّته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقدر ؛ فذلك قوله : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا » . وقال ابن مسعود : لما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ؛ فذلك حين يقول : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ »[5] ذكره البيهقى . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما صوّر الله تعالى آدم فى الجنة تركه ماشاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ماهو فلما رآه أجوف عرف أنه خُلق خلقا لا يتمالك "[6] وقد تقدّم . وقيل : سلّم عليه السلام أسيرا إلى سَوْدة فبات يئن فسألته فقال : أنيني لشدّة القدّ والأسر ؛ فأرخت من كتافه فلما نامت هرب ؛ فأخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " قطع الله يديك " فلما أصبحت كانت تتوقع الآفة ؛ فقال عليه السلام : " إنى سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لا يستحق من أهلى رحمة لأنى بشر أغضب كما يغضب البشر " ونزلت الآية ؛ ذكره القشيرى أبو نصر رحمه الله . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٢٦ . (٢) راجع ج ١٦ ص ٢٤ . (٣) راجع ج ٥ ص ٤٢٥ .
(٤) راجع ج ١٧ ص ٢٧ وص ١٢٨ . (٥) راجع ج ١١ ص ٢٨٨ . (٦) راجع ج ١ ص ٢٨١ .

Marfat.com

"اللهمّ إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر و إنى قد اتخذت عندك عهدا لن تُخلِفَنِيه فأيُّما مؤمنٍ آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارةً وقُـربةً تقربه بهـا إليك يوم القيامة" . وفى الباب عن عائشة وجابر . وقيل: مبنى . « وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا » أى يؤثر العاجل و إن قلّ، على الآجل و إن جلّ .

قوله تعـالى : وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ أى علامتين على وحدانيتنا و وجودنا وكمال علمنا وقدرتنا . والآية فيهما : إقبال كلّ واحد منهما من حيث لا يعلم، و إدباره إلى حيث لايعلم . ونقصان أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آية أيضـا . وكذلك ضـوء النهار وظلمة الليل . وقد مضى هـذا (١) . ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ ولم يقل : فمحونا الليل، فلما أضاف الآية إلى الليـل والنهار دلّ على أن الآيتين المذكورتين لها لاهما . و « مَحَـوْنا » معناه طمسنا . وفى الخبر : أن الله تعالى أمر جبريل عليـه السلام فأمرّ جناحه على وجه القمر فطمس عنـه الضوء وكان كالشمس فى النور، والسوادُ الذى يُرى فى القمر من أثر المحو . قال ابن عباس : جعل الله الشمس سبعين جزءا والقمر سبعين جزءًا، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعله مع نور الشمس، فالشمس على مائة [وتسع] وثلاثين جزءا، والقمرُ على جزء واحد . وعنه أيضا : خلق الله شمسين من نور عرشه ، فجعل ما سبق فى علمه أن يكون شمسا مثل الدنيا على قـدرها ما بين مشارقها إلى مغاربها ، وجعل القمـر دون الشمس ؛ فأرسـل جبريلَ عليه السلام فأمرّ جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضـوءه و بقى نوره؛ فالسّواد الذى ترونه فى القمر أثر المحو، ولو تركه شمسا لم يعرف الليل من النهار. ذكر

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ .

Marfat.com

عنه الأول الثعلبي، والثاني المهدوي؛ وسيأتي مرفوعا . وقال علي رضي الله عنه وقتادة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار . ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ أي جعلنا شمسه مضيئة للأبصار . قال أبو عمرو بن العلاء : أي يبصر بها . قال الكسائي : وهو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء، وصار بحالة يُبْصَر بها . وقيل : هو كقولهم خبيث مُخْبِث إذا كان أصحابه خبثاء . ورجل مُضعِف إذا كانت دوابه ضعافا؛ فكذلك النهار مبصرا إذا كان أهله بصراء . ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يريد التصرف في المعاش . ولم يذكر السكون في الليل اكتفاء بما ذكر في النهار . وقد قال في موضع آخر : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا »[1] . ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ أي لو لم يفعل ذلك لما عُرف الليل من النهار، ولا كان يُعرف الحساب والعدد . ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ أي من أحكام التكليف؛ وهو كقوله : « تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ »[2] « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »[3] . وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما أبرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غيرُ آدم خلق شمسا من نور عرشه وقمرا فكانا جميعا شمسين فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمسا فخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كان في علم الله أن يخلقها قمرا فخلقها دون الشمس في العظم ولكن إنما يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء و بعدها من الأرض فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجيرُ يدرى إلى متى يعمل ولا الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تعتد ولا تُدرى أوقات الصلوات والحج ولا تَحِلّ[4] الديون ولا حين يبذرون و يزرعون ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم وكأن الله نظر إلى عباده وهو أرحم بهم من أنفسهم فارسل جبريل فأمرّ جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء و بقي فيه النور فذلك قوله : وجعلنا الليل والنهار آيتين " الآية .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦٠ . (٢) راجع ص ١٦٤ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٤٢٠ . (٤) في جـ و ى : محل .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق . وقال ابن عباس : « طائره » عمله وما قُدّر عليه من خير وشر، وهو ملازمه أينما كان . وقال مقاتل والكلبي : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسَب به . وقال مجاهد : عمله ورزقه، وعنه : ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب شقي أو سعيد . وقال الحسن : « أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ » أي شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير، أي صار له عند القسمة في الأزل . وقيل : أراد به التكليف، أي قلدناه[(1)] التزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به وينزجر عما زُجر به أمكنه ذلك . ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ يعني كتاب طائره الذي في عنقه . وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد : « طيره » بغير ألف ؛ ومنه ما روى في الخبر " اللهم لا خيرَ إلا خيرُك ولا طيرَ إلا طيرك ولا ربّ غيرك " . وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيْصن وأبو جعفر ويعقوب . « ويَخْرُجُ » بفتح الياء وضم الراء ، على معنى ويخرج له الطائر كتابا ، فـ « كتابا » منصوب على الحال . ويحتمل أن يكون المعنى : ويخرج الطائر فيصير كتابا . وقرأ يحيى بن وثاب . « ويُخْرِجُ » بضم الياء وكسر الراء؛ وروى عن مجاهد ؛ أي يخرج الله . وقرأ شيبة ومحمد بن السَّمَيْقَع، وروى أيضا عن أبي جعفر : « ويُخْرَجُ » بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول، ومعناه : ويخرج له الطائر كتابا . الباقون « ونُخْرِجُ » بنون مضمومة وكسر الراء؛ أي ونحن نخرج . احتج أبو عمرو في هذه القراءة بقوله : « أَلْزَمْنَاهُ » . وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر . «يُلَقَّاه» بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، بمعنى يؤتاه . الباقون بفتح الياء خفيفة، أي يراه منشورا . وقال : « مَنْشُورًا » تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة . قال

(1) من ى . وفي ا و ح : قدرناه إلزام ، وفي جـ : قلدناه إلزام .

Marfat.com

أبو السوار العدوي وقرأ هذه الآية . « وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » قال : هما نشرتان وطيّة ، أما ما حييت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما شئت ، فإذا مت طويت حتى إذا بعثت نشرت . ﴿ ٱقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه أميا كان أو غير أمي . ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي محاسبا . وقال بعض الصلحاء : هذا كتاب ، لسانك قلمه ، وريقك مداده ، وأعضاؤك قرطاسه ، أنت كنت المملي على حفظتك ، ما زيد فيه ولا نقص منه ، ومتى أنكرت منه شيئا يكون فيه الشاهد منك عليك .

قوله تعالى : مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي إنما كل أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره ؛ فمن اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضل فعقاب كفره عليه . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ تقدم في الأنعام (١) . وقال ابن عباس : نزلت في الوليد ابن المغيرة ، قال لأهل مكة : اتبعوني واكفروا بمحمد وعلي أوزاركم ، فنزلت هذه الآية ؛ أي إن الوليد لا يحمل آثامكم وإنما إثم كل واحد عليه . يقال : وَزَرَ يَزِرُ وِزْرا ووِزْرة ، أي أثم . والوِزر : الثقل المثقل والجمع أوزار ؛ ومنه : « يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ » (٢) أي أثقال ذنوبهم . وقد وزر إذا حمل فهو وازر ؛ ومنه وزير السلطان الذي يحمل ثقل دولته . والهاء في قوله (٣) كناية عن النفس ، أي لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى ، حتى أن الوالدة تلقى ولدها يوم القيامة فتقول : يا بني ! ألم يكن حجري لك وطاء ، ألم يكن ثديي لك سقاء ، ألم يكن بطني لك وعاء ، ! فيقول : بلى يا أمه ! فتقول يا بني ! فإن ذنوبي أثقلتني فاحمل عني منها ذنبا واحدا ! فيقول : إليك عني يا أمه ! فإني بذنبي عنك اليوم مشغول .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٥ . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٣ .

(٣) يبدو هنا سقط لفظ وازرة بدليل ما بعدها .

Marfat.com

مسألة — نزعت عائشــة رضى الله عنها بهـذه الآية فى الردّ على ابن عمر حيث قال : " إن الميت ليُعَذَّب ببكاء أهله " . قال علماؤنا : و إنمـا حملها على ذلك أنه لم تسمعه ، وأنه معارض للآية . ولا وجه لإنكارها ، فإن الرواة لهـذا المعنى كثير ؛ كعمر وابنـه والمغيرة ابن شعبة وقَيْـلَة بنت مَخْرَمَة ، وهم جازمون بالرواية ، فلا وجه لتخطئتهم ، ولا معارَضة بين الآية والحديث ؛ فإن الحديث محمله على ما إذا كان النَّوْح من وصيّة الميت وسنّته ، كما كانت الجاهلية تفعله ، حتى قال طرفة :

إذا مِتّ فانعينى بمـا أنا أهـله * وشُـقّى علىّ الجيب يابنت مَعْبَد

وقال :

إلى الحَوْل ثم اسْمُ السلام عليكما * ومن يَبْك حَوْلا كاملا فقد اعتذر

و إلى هذا نحـا البخارى . وقد ذهب جمـاعة من أهل العـلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث ، وأنه إنمـا يعذب بنَوْحهم ؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته وتأديبهم بذلك ، فيعذَّب بتفريطه فى ذلك ؛ و بترك ما أمره الله به من قوله : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا »[(١)] لا بذنب غيره ، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُـولًا ﴾ أى لم نترك الخلق سُـدًى ، بل أرسلنا الرسل . وفى هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ، خلافا للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبّح و يحسّن و يبيح و يحظر . وقد تقدّم فى البقرة القول فيه[(٢)] . والجمهور على أن هذا فى حـكم الدنيا ؛ أى أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسـالة إليهم والإنذار . وقالت فرقة : هذا عام فى الدنيا والآخرة ، لقوله تعـالى : « كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا »[(١)] . قال ابن عطية : والذى يعطيه النظر أن بعثة آدم عليه السـلام بالتوحيد وبثّ المعتقدات فى بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفِطَر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله ، ثم تجدد ذلك فى زمن نوح عليه السلام بعد

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٩٤ وص ٢١٢ . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٥١ .

Marfat.com

غرق الكفار . وهذه الآية أيضا يعطى احتمال ألفاظها نحو هذا فى الذين لم تصلهم رسالة ، وهم أهل الفترات الذين قد قدّر وجودَهم بعضُ أهل العلم . وأما ما روى من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال لحديث لم يصح ، ولا يقتضى ما تعطيه الشريعةُ من أن الآخرة ليست دارَ تكليف . قال المهدوى : وروى عن أبى هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصم ؛ فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه فى الدنيا ، وتلا الآية ؛ رواه مَعْمَر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة ، ذكره النحاس .

قلت : هذا موقوف ، وسيأتى مرفوعا فى آخر سورة طه إن شاء الله تعالى ؛ ولا يصح . وقد استدل قوم فى أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى ؛ وهذا صحيح ، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ أخبر الله تعالى فى الآية التى قبلُ أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل ، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل ، ولكنه وعدٌ منه ، ولا خلف فى وعده . فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ما قاله تعالى أَمَرَ مترفيها بالفسق(١) والظلم فيها فحق عليها القول بالتدمير . يعلمك أن من هلك [فإنما(٢)] هلك بإرادته ، فهو الذى يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ قرأ أبو عثمان النهدى وأبو رجاء وأبو العالية والربيع ومجاهد والحسن . «أمَّرنا» بالتشديد ، وهى قراءة على رضى الله عنه ؛ أى سلّطنا شرارها فعصوْا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم . وقال أبو عثمان النهدى « أمَّرنا » بتشديد الميم ، جعلناهم

(١) المحققون على ما قال ابن عباس كما فى البحر : أمرناهم فعصوا وفسقوا وسياق . وهذا هو المطابق لقوله تعالى إن الله لا يأمر بالفحشاء . أما ما ذكره القرطبى كالزمخشرى فيحتاج إلى تأويل . محققه . (٢) من ح و ى .

Marfat.com

أمراء مسلّطين؛ وقاله ابن عُزيز. وتأمّر عليهم تسلّط عليهم. وقرأ الحسن أيضا وقتادة وأبو حَيْوة الشامي و يعقوب وخارجة عن نافع وحماد بن سلمة عن ابن كثير وعليّ وابن عباس باختلاف عنهما: «آمرنا» بالمد والتخفيف، أي أكثرنا جبابرتها وأمراءها؛ قاله الكسائيّ. وقال أبو عبيدة: آمرته بالمد وأمرته، لغتان بمعنى كثّرته؛ ومنه الحديث "خير المال مُهْرة مأمورة أو سِكّة مأبُورة"(١) أي كثيرة النِّتاج والنّسل. وكذلك قال ابن عزيز: آمرنا وأمرنا بمعنى واحد؛ أي أكثرنا. وعن الحسن أيضا و يحيى بن يَعْمَر «أمِرنا» بالقصر وكسر الميم على فعِلنا، ورويت عن ابن عباس. قال قتادة والحسن: المعنى أكثرنا؛ وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال: لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد؛ قال: وأصلها «أأمرنا» فخفّف، حكاه المهدويّ. وفي الصحاح: وقال أبو الحسن أَمِر مالُه (بالكسر) أي كثُر وأَمِر القوم أي كثروا؛ قال الشاعر:

* أَمِرون لا يرثون سَهْمَ القُعْدُدِ(٢) *

وآمر الله مالَه (بالمد). الثعلبي: ويقال للشيء الكثير أَمِرٌ، والفعل منه: أَمِرَ القومُ يأمَرون أمرا إذا كثروا. قال ابن مسعود: كنا نقول في الجاهلية للحيّ إذا كثروا: أَمِر أَمْرُ بني فلان؛ قال لبيد:

كل بني حُرّةٍ مَصِيرُهُمُ * قُلٌّ وإن أكثرَتْ من العددِ
إنْ يُغْبَطوا يَهْبِطوا وإن أَمِرُوا * يوما يصيروا للهُلْكِ والنَّكَدِ(٣)

---

(١) السكة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأبورة: الملقحة؛ يقال: أبرت النخلة وأبرتها؛ فهي مأبورة ومؤبرة. وقيل: السكة سكة الحرث، والمأبورة المصلحة له. المراد: خير المال نتاج وزرع. (ابن الأثير).

(٢) هذا عجز بيت للأعشى وصدره:

* طرفون ولّا دون كل مبارك *

الطرف والطريف: الكثير الآباء إلى الجد الأكبر. والقعدد: القليل الآباء إلى الجد الأكبر.

(٣) يقول: إن غبطوا يوما فإنهم يموتون. و «يهبطوا» ها هنا يموتوا. ويروى: «إن يغبطوا يهبطوا» يموتوا عبطة؛ كأنهم يموتون من غير مرض. (راجع الديوان). في جوى: والفند.

Marfat.com

قال : وفى حديث هرقل الحديث الصحيح : " لقد أمِر أَمْرُ ابن أبى كَبْشة [(١)]، ليخافه ملك بنى الأصفر" أى كثر. وكله غير متعد ولذلك أنكره الكسائى، والله أعلم. قال المهدوى : ومن قرأ «أَمِر» فهى لغة، ووجه تعدية «أمِر» أنه شبهه بعمِر من حيث كانت الكثرة أقرب شىء إلى العمارة فعدّى كما عدّى عَمِر [(٢)]. الباقون «أَمَرْنَا» من الأمر؛ أى أمرناهم بالطاعة إعذارا وإنذارا وتخويفا ووعيدا. ﴿ فَفَسَقُوا ﴾ أى خرجوا عن الطاعة عاصين لنا. ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ فوجب عليها الوعيد؛ عن ابن عباس . وقيـل : « أمرْنَا » جعلناهم أمراء؛ لأن العرب تقول : أمير غير مأمور، أى غير مؤمّر . وقيـل : معناه بعثنا مستكبريها . قال هارون : وهى قراءة أُبَىّ : « بعثنا أكابر مجرميها ففسقوا » ذكره الماوردىّ. وحكى النحاس : وقال هارون فى قراءة أبى « وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول» . ويجوز أن يكون « أَمَرْنا » بمعنى أكثرنا؛ ومنه " خير المال مهرة مأمورة " على ما تقدم . وقال قوم : مأمورة اتباع لمأبورة؛ كالغدايا والعشايا . وكقوله : " ارجعن مأزورات غير مأجورات" . وعلى هذا لا يقال : أمرهم الله، بمعنى كثرهم؛ بل يقال : آمره وأمره . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة . قال أبو عبيد : وإنما اخترنا « أمرنا » لأن المعانى الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة. والمُترَف : المنعَّم؛ وخُصّوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا ﴾ أى استأصلناها بالهلاك . ﴿ تَدْمِيرًا ﴾ ذكر المصدر للمبالغة فى العذاب الواقع بهم . وفى الصحيح [(٣)] من حديث زينب بنت جحش زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فزعا محمرا وجهه يقول : " لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه " وحلق بأصبعه الإبهام والتى تليها . قالت : فقلت يارسول الله ، أنهلك وفينا

---

(١) يريد : رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وكان المشركون يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم « ابن أبى كبشة » شبهوه بأبى كبشة ، رجل من خزاعة خالف قريشا فى عبادة الأوثان . أو هى كنية وهب بن عبد مناف جده صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، لأنه كان نزع إليه فى الشبه . أو كنية زوج حليمة السعدية .

(٢) عمر كفرح .

(٣) فى هامش بـ : الصحيحين . خ .

Marfat.com

الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخبث" . وقد تقدّم الكلام في هذا الباب ، و إن المعاصى إذا ظهرت ولم تُغيّر كانت سببا لهلاك الجميع ؛ والله أعلم .(١)

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ أى كم من قوم كفروا حل بهم البوار . يخوّف كفار مكة ؛ وقد تقدّم القول فى القرن فى أوّل سورة الأنعام ، والحمد لله .(٢) ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ « خَبِيرًا » عليما بهم . « بَصِيرًا » يبصر أعمالهم ؛ وقد تقدّم .(٣)

قوله تعالى : مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ يعنى الدنيا ، والمراد الدار العاجلة ؛ فعبّر بالنعت عن المنعوت .(٤) ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ أى لم نعطه منها إلا ما نشاء ثم نؤاخذه بعمله ، وعاقبتُه دخول النار . ﴿ مَذْمُوماً مَدْحُوراً ﴾ أى مطرودا مبعدا من رحمة الله . وهذه صفة المنافقين الفاسقين ، والمرائين المداجين ، يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها ، فلا يقبل ذلك العمل منهم فى الآخرة ولا يعطون فى الدنيا إلا ما قُسم لهم . وقد تقدّم فى «هود» أن هذه الآية تقيّد تلك الآيات المطلقة ؛ فتأمله .(٥) ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ أى الدار الآخرة . ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أى عمل لها عملها من الطاعات . ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن . ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ﴾ أى مقبولا غير

(١) راجع ج ٧ ص ٧٩١ . (٢) راجع ج ٦ ص ٣٩١ . (٣) راجع ج ٢ ص ٣٥ .
(٤) فى هـ ج : خ : عن المنعوت بالنعت . (٥) راجع ج ٩ ص ١٣ .

Marfat.com

مردود . وقيل : مضاعفا ؛ أى تضاعف لهم الحسنات إلى عشر، وإلى سبعين وإلى سبعمائة ضعف، وإلى أضعاف كثيرة ؛ كما روى عن أبى هريرة وقد قيل له : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة " ؟ فقال سمعته يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة " .

قوله تعالى : كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين . ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أى محبوسا ممنوعا ؛ من حظر يحظر حظرا وحظارا . ثم قال تعالى : ﴿ أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ فى الرزق والعمل؛ فمن مُقِلّ ومُكثر . ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أى للمؤمنين؛ فالكافر وإن وُسّع عليه فى الدنيا مرّة ، وقُتّر على المؤمن مرّة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم ؛ فمن فاته شىء منها لم يستدركه فيها . وقوله : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . وقيل : الخطاب للإنسان . ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ أى تبقى . ﴿ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ لا ناصر لك ولا وليا .

قوله تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

Marfat.com

فيــه ست عشرة مسألة :

الأولى — ﴿ قَضَى ﴾ أى أمر وألزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : ليس هذا قضاء حُكْم بل هو قضاء أمر . وفى مصحف ابن مسعود « ووصَّى » وهى قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضا وعلىّ وغيرهما، وكذلك عند أُبَىّ بن كَعْب . قال ابن عباس : إنما هو « ووصى ربك » فالتصقت إحدى الواوين فقرئت . « وَقَضَى رَبُّكَ » إذ لو كان على القضاء ماعصى الله أحد . وقال الضحاك : تصحفت على قوم « وصى بقضى » حين اختلطت الواو بالصاد وقت كُتب المصحف . وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثـل قول الضحاك . وقال عن مَيْمون بن مِهْران أنه قال : إن على قول ابن عباس لنورا، قال الله تعـالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ »(١) ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عبـاس قال ذلك . وقال : لو قلنا هـذا لطعن الزنادقة فى مصحفنا، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم : القضاء يستعمل فى اللغـة على وجوه : فالقضاء بمعنى الأمر ؛ كقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » معناه أمر . والقضاء بمعنى الخلق ؛ كقوله : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ »(٢) يعنى خلقهن . والقضاء بمعنى الحكم ؛ كقوله تعـالى : « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ »(٣) يعنى احكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ ؛ كقوله : « قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ »(٤) . أى فرغ منـه ؛ ومنه قوله تعـالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ »(٥) . وقوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ »(٦) . والقضاء بمعنى الإرادة ؛ كقوله تعـالى : « إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَـا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(٧) . والقضاء بمعنى العهـد ؛ كقوله تعـالى : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَـرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ »(٨) .

فإذا كان القضاء يحتمل هـذه المعانى فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصى بقضاء الله ؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك ، لأن الله تعالى لم يأمر بهـا ،

(١) راجع ج ١٦ ص ٩ . (٢) راجع ج ١٥ ص ٣٤٢ . (٣) راجع ج ١١ ص ٢٢٥ .
(٤) راجع ج ٩ ص ١٩٣ . (٥) راجع ج ٢ ص ٤٣١ . (٦) راجع ج ١٨ ص ١٠٨ .
(٧) راجع ج ٤ ص ٩٢ . (٨) راجع ج ١٣ ص ٢٩١ .

Marfat.com

فإنه لا يأمر بالفحشاء . وقال زكريا بن سَلَّام : جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلق امرأته ثلاثا . فقال : إنك قد عصيت ربك وبانت منك . فقال الرجل : قضى الله ذلك عليّ ! فقال الحسن وكان فصيحا : ما قضى الله ذلك ! أى ما أمر الله به ، وقرأ هذه الآية : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » .

الثانيــــة — أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل برّ الوالدين مقرونا بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » . وقال : « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ »[1] . وفى صحيح البخارىّ عن عبد الله قال : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم أىّ العمل أحبّ إلى الله عز وجل ؟ قال : " الصلاة على وقتها " قال : ثم أىّ؟ قال : " ثم برّ الوالدين " قال ثم أىّ ؟ قال : " الجهاد فى سبيل الله " فأخبر صلى الله عليه وسلم أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التى هى أعظم دعائم الإسلام . ورتّب ذلك بـ « ثُمَّ » التى تعطى الترتيب والمهلة .

الثالثــــة — من البرّ بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبّهما ولا يعقّهما ؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف ، وبذلك وردت السنة الثابتة ؛ ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من الكبائر شتم الرجلِ والديه " قالوا : يارسول الله، وهل يَشْتُمُ الرجل والديه ؟ قال " نعم . يسبّ الرجلُ أبا الرجل فيسبّ أباه ويسبّ أمّه فيسب أمّه " .

الرابعــــة — عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما ؛ كما أن برّهما موافقتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدُهما ولدَهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح فى أصله ، كذلك إذا كان من قبيل المندوب . وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمْرَهما بالمباح يصيّره فى حق الولد مندوبا إليه وأمْرُهما بالمندوب يزيده تأكيدا فى ندبيّته .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٦٥ .

Marfat.com

الخامســـة — روى الترمذي عن ابن عمر قال : كانت تحتي امرأة أحبها ، وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبيت ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : " يا عبد الله ابن عمر طلق امرأتك " . قال : هذا حديث حسن صحيح .

السادســة — روى الصحيح عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : " أمك " قال : ثم من ؟ قال : " ثم أمك " قال : ثم من ؟ قال : " ثم أمك " قال : ثم من ؟ قال : " ثم أبوك " . فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب ؛ لذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأم ثلاث مرات وذكر الأب في الرابعة فقط . وإذا توصل[(١)] هذا المعنى شهد له العيان . وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بهـا الأم دون الأب ؛ فهـذه ثلاث منازل يخلو منها الأب . وروى عن مالك أن رجلا قال له : إن أبي في بلد السودان ، وقد كتب إلى أن أقدم عليه ، وأمي تمنعني من ذلك ؛ فقال له : أطع أباك ، ولا تعص أمك . فدل قول مالك هذا أن برهما متساو عنده . وقد سئل الليث عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم ؛ وزعم أن لها ثلثي البر . وحديث أبي هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر ؛ وهو الحجة على من خالف . وقد زعم المحاسبي في (كتاب الرعاية) له أنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع ؛ على مقتضى حديث أبي هريرة رضي الله عنه . والله أعلم .

السابعــة — لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهـد ؛ قال الله تعـالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ »[(٢)] . وفي صحيح البخاري عن أسماء قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم مع أبيها ، فاستفتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمي قدمت وهي راغبة[(٣)] أفأصلها ؟ قال : " نعم صلي أمك " .

(١) كذا في الأصول .   (٢) راجع جـ ١٨ ص ٥٨ و جـ ١٤ ص ٦٣ .

(٣) قولها راغبة : أي راغبة في بري وصلتي ، أو راغبة عن الإسلام كارهة له .

Marfat.com

وروى أيضا عن أسماء قالت : أتتنى أمّى راغبة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فسألت النبى صلى الله عليه وسلم أأصلها ؟ قال : " نعم " . قال ابن عُيينة : فأنزل الله عز وجل فيها : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الأول معلّق والثانى مسند .

الثامنـــة — من الإحسان إليهما والبرّ بهما إذا لم يتعيّن الجهاد ألّا يجاهد إلا بإذنهما . روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليـه وسلم يستأذنه فى الجهاد فقال : " أحَىٌّ والداك "؟ قال: نعم . قال : " ففيهما فجاهد " . لفظ مسلم . فى غير الصحيح قال : نعم؛ وتركتهما يبكيان . قال : " اذهب فأضحكهما كما أبكيتهما " . وفى خبر آخر أنه قال : " نومك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلاعبانك أفضل لك من الجهاد معى " . ذكره ابن خُوَيْزِمَنْدَاد . ولفظ البخارى فى كتاب برّ الوالدين : أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يبايعه على الهجرة، وترك أبويه يبكيان فقال : "ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما". قال ابن المنذر : فى هذا الحديث النّهىُ عن الخروج بغير إذن الأبوين مالم يقع النَّفير؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع . وذلك بيِّنٌ فى حديث أبى قتادة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيش الأمراء...؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وابن رَوَاحة وأن منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى بعـد ذلك : أن الصـلاة جامعة ؛ فآجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليـه ثم قال : " أيها الناس ، آخرجوا فأمِدّوا[1] إخوانكم ولا يتخلفن أحد " فخرج الناس مشاةً وركبانا فى حَرٍّ شديد . فدلّ قوله : " آخرجوا فأمدوا إخوانكم " أن العذر فى التخلف عن الجهاد إنما هو مالم يقع النفير؛ مع قوله عليه السلام : " فإذا استنفرتم فانْفِروا ".

قلت : وفى هذه الأحاديث دليل على أن الفروض أو المندوبات متى اجتمعت قُدِّم الأهمّ منها . وقد استوفى هذا المعنى المحاسبى فى كتاب الرعاية .

التاســعة — واختلفوا فى الوالدين المشركَيْن هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية ؛ فكان الثّورىّ يقول : لا يغزو إلا بإذنهما . وقال الشافعىّ : له أن يغزو

(١) فى جـ : فأيدوا .

Marfat.com

بغير إذنهما . قال ابن المنذر : والأجداد آباء، والجدات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم؛ ولا أعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات . وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله عز وجل .

العاشرة — من تمام برّهما صلة أهل وُدّهما؛ ففي الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من أبرّ البر صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يُوَلِّي " . وروى أبو أسيد وكان بَدْرِيًّا قال : كنت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم جالسا فجاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله، هل بقي من برّ والديّ من بعد موتهما شيء أبرّهما به ؟ قال : " نعم . الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك " . وكان صلى الله عليه وسلم يُهدي لصدائق خديجة برًّا بها ووفاءً لها وهي زوجته، فما ظنك بالوالدين .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى برّه لتغيّر الحال عليهما بالضعف والكبر؛ فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبلُ، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلًّا عليه، فيحتاجان أن يَلِيَ منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه؛ فلذلك خُصّ هذه الحالة بالذكر . وأيضا فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالّة البنوّة وقلّة الديانة ، وأقل المكروه ما يظهره بتنفّسه المتردد من الضجر . وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال : « فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا » . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رَغِمَ أنفُه رغم أنفه رغم أنفه " قيل : مَن يا رسول الله؟ قال : " من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة " . وقال البخاري في كتاب برّ الوالدين : حدّثنا مسدّد حدّثنا بِشر بن المفضّل حدّثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي سعيد المَقْبُرِيّ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

Marfat.com

" رغِمَ أنفُ رجل ذُكرتُ عنــده فلم يصــلّ عليّ رَغِمَ أنفُ رجل أدرك أبويه عنــده الكبر أو أحدَهما فلم يدخلاه الجنــة ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضانـــ ثم آنسلخ قبــل أن يُغفــر له " . حدّثنا آبن أبى أُوَيْس حدّثنى أخى عن سليمان بن بلال عن محمــد بن هلال عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْـرَة السالمىّ عن أبيه رضى الله عنه قال : إن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أحضروا المنبر " فلما خرج رَ ـَ [إلى] المنبر ، فرق فى أوّل درجة منه قال آمين ثم رقى فى الثانية فقال آمين ثم لمـا رقى فى الثالثة قال آمين ، فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا : يارسول الله ، لقد سمعنا منك اليوم شيئا ما كنا نسمعه منك ؟ قال : " وسمعتموه " ؟ قلنا نعم . قال : " إن جبريل عليه الســلام اعترض قال : بُعْــد مَن أدرك رمضان فلم يغفر له فقلت آمين فلمــا رقيت فى الثانية قال بُعْــد مَن ذُكرت عنده فلم يصلّ عليك فقلت آمين فلما رقيت فى الثالثة قال بعــد من أدرك عنده أبواه الكبرَ أو أحدهما فلم يُدخلاه الجنــة قلت آمين " . حدّثنا أبو نعيم حدّثنا سَــلَمة بن وَرْدَان سمعت أنسا رضى الله عنه يقول : ارتقى رسول الله صــلى الله عليه وســلم على المنبر درجة فقال آمين ثم ارتقى درجة فقال آمين ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال آمين ، ثم استوى وجلس فقال أصحابه : يارسول الله ، علامَ أمّنت ؟ قال : " أتانى جبريل عليــه السلام فقال رغِم أنفُ مَن ذُكرتَ عنــده فلم يصلّ عليك فقلت آمين و رغم أنف مَن أدرك أبو يه أو أحدهما فلم يدخل الجنــة فقلت آمين " الحــديث . فالسعيد الذى يبادر اغتنام فرصة بِرّهما لئلا تفوته بموتهما فينــدم على ذلك ، والشقىّ من عقّهما ، لا سيما من بلغه الأمر ببرهما .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ أى لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرّم . وعن أبى رَجاء العطارِدىّ قال : الأُفّ الكلام القَذِع الردىء الخفىّ . وقال مجاهد : معناه إذا رأيت منهما فى حال الشيخ الغائط والبول الذى رأياه منك فى الصغر فلا تقذّرهما وتقول أفّ . والآية أعمّ من هــذا . والأُفّ والتُّفّ وسخ الأظفار . و يقال لكل ما يضجر ويستثقل : أفّ له . قال الأزهرى : والتُّفّ أيضا الشىء الحقــير . وقرئ « أُفٍّ » منوّنا

Marfat.com

مخفوضا، كما تُخفض الأصوات وتُنوّن، تقول : صَهٍ ومهٍ . وفيه عشر لغات : أُفّ، أُفِّ، وأُفُّ، وأُفًّا وأُفٍّ، وأُفٌّ، وأُفّهْ، وإِفّ لك (بكسر الهمزة)، وأُفْ (بضم وتسكين الفاء)، وأُفًا (مخففة الفاء) . وفي الحديث : "فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال أُفّ أُفّ" . قال أبو بكر : معناه استقذار لما شَمّ . وقال بعضهم : معنى أُفّ الاحتقار والاستقلال؛ أخذ من الأَفَف وهو القليل . وقال القُتَبِيّ : أصله نفخك الشيء يَسقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مستثقل . وقال أبو عمرو ابن العلاء : الأُفّ وسخ بين الأظفار، والتف قلامتها . وقال الزجاج : معنى أُفّ النتن . وقال الأصمعي : الأُفّ وسخ الأذن، والتُّف وسخ الأظفار؛ فكثر استعماله حتى ذُكر في كل ما يُتأذى به . وروى من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو علم الله من العقوق شيئا أردأ من « أف » لذكره فليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار؛ وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة" . قال علماؤنا : وإنما صارت قولة « أُفّ » للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة، وجحد التربية وردّ الوصية التي أوصاه في التنزيل . و « أف » كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه : « أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ »[1] أي رفْضٌ لكم ولهذه الأصنام معكم .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ النهر : الزجر والغلظة . ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي لينا لطيفا، مثل : ياأبتاه ويا أماه، من غير أن يسميهما[2] أو يكنيهما؛ قاله عطاء . وقال أبو البَدّاح[3] التُّجِيبِيّ : قلت لسعيد بن المسيّب كل ما في القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قوله : « وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا » ما هذا القول الكريم ؟ قال ابن المسيب : قول العبد المذنب للسيد الفظّ الغليظ .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير والعبيد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٠٢ .   (٢) في ى : ينسبهما .
(٣) كذا في الأصول . والذى في ابن جرير والدر المنثور « أبو الهداج » .

Marfat.com

المسيب . وضرب خفض الجناح ونصبه مثلا لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده . والذل : هو اللين . وقراءة الجمهور بضم الذال، من ذَلّ يَذِلّ ذُلّا وذِلّة ومذلة فهو ذالّ وذليل. وقرأ سعيد بن جُبَير وابن عباس وعروة بن الزبير « الذِّل » بكسر الذال، ورويت عن عاصم؛ من قولهم : دابّة ذَلول بينـة الذِّل . والذِّل في الدواب المنقاد السهل دون الصعب . فينبغى بحكم هـذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه فى خير ذِلّة ، فى أقواله وسكناته ونظره ، ولا يُحِدّ إليهما بصره فإن تلك هى نظرة الغاضب .

الخامسة عشرة — الخطاب فى هـذه الآية للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد به أمتـه ؛ إذ لم يكن له عليه السلام فى ذلك الوقت أبوان . ولم يذكر الذّل فى قوله تعالى : « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »[1] وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده . و « مِن » فى قـوله : « مِنَ الرَّحْمَةِ » لبيان الجنس ، أى إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة فى النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالا . ويصح أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عباده بالترحّم على آبائهـم والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك وترفّق بهما كما رفقا بك ؛ إذ ولياك صغيرا جاهلا محتاجا فآثراك على أنفسهما، وأسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاك، وتعرّيا وكسواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحدّ الذى كنت فيه من الصغر، فتَلِي منهما ما وَلِيَا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدّم . قال صلى الله عليه وسلم : " لا يَجْزِى ولد والدًا إلا أن يجده مملوكا فيشتريَه فيعتِقه "[2] . وسيأتى فى سورة « مريم » الكلام على هذا الحديث .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما فى التربيـة، فيزيده ذلك إشفاقا لهما وحنانا عليهما ، وهـذا كله فى الأبوين المؤمنين[3] . وقد نهى القرآن عن الاستغفار للشركين الأموات ولو كانوا أولى قُربَى، كما تقدّم . وذكر عن ابن عباس وقتادة أن هذا كله منسوخ بقـوله : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُـوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ — إلى قوله — أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » فإذا كان والدا المسلم ذِميين استعمل

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٨ فما بعد . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٥٩ . (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٧٢ .

Marfat.com

معهما ما أمره الله به هاهنا ؛ إلا الترحم لهما بعــد موتهما على الكفر ؛ لأن هــذا وحده نسخ بالآية المذكورة. وقيل: ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خُصّ بتلك، لارحمة الآخرة، لاسيما وقد قيل : إن قوله : « وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا » نزلت فى سعد بن أبى وقاص، فإنه أسـلم ، فألقت أمه نفسها فى الرَّمضاء مُتَجَرِّدة ، فذكر ذلك لسعد فقــال : لِتَمُتْ ، فنزلت الآية . وقيــل : الآية خاصة فى الدعاء للأبوين المسلمين. والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسـلم : " من أمسى مُرْضِياً لوالديه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحدا فواحدا ، ومن أمسى وأصبح مُسْخطا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحدا فواحدا " فقال رجل : يارسول الله، وإن ظلماه ؟ قال: " وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه ". وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنــه قال : جاء رجل إلى النبيّ صــلى الله عليه وسلم فقال : يارســول الله ، إن أبى أخذ مالى . فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم للرجل : " فأتنى بأبيك " فنزل جبريل عليه السلام على النبى صــلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله فى نفسه ماسمعته أذناه " فلمــا جاء الشيخ قال له النبى صلى الله عليه وسـلم : " ما بال ٱبنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟ " فقال : سـله يارسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إيهِ(١) ، دعنا من هــذا ، أخبرنى عن شيء قلته فى نفسك ما سمعته أذناك " ؟ فقال الشيخ : والله يارسول الله ، مازال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا ، لقــد قلت فى نفسى شيئا ما سمعته أذناى . قال : " قل وأنا أسمع " قال قلت :

(١) إيه (بكسر الهاء) : كلمة استزادة واستنطاق. وإذا قلت « إيهاً » بالنصب والتنوين فإنما تأمره بالسكوت. وقال ابن سيده : « وإيه (بالكسر) كلمة زجر بمعنى حسبك ، وتنون فيقال إيها » . وحكى عن اللحياني : « إيه وإيه فى الاستزادة والاستنطاق . وإيه وإيها فى الزجر ؛ كقولك : إيه حسبك ، وإيها حسبك » .

Marfat.com

غَذَوْتُكَ[1] مولودا ومُنْتُكَ[2] يافعا * تُعَلّ بما أجْنِي عليك وتُنْهَلُ
إذا ليلةٌ ضافَتْكَ[3] بالسُّقم لم أبِتْ * لسُقْمك إلا ساهرا أتململُ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى * طُرِقتَ به دونى فعيْنِي تَهْمُلُ
تخاف الرَّدى نفسى عليك وإنها * لتعلم أن الموت وقتٌ مؤجّلُ
فلما بلغتَ السِّنّ والغايةَ التى * إليها مَدَى ما كنتُ فيك أؤمِّلُ
جعلتَ جزائى غِلظةً وفظاظةً * كأنك أنت المُنعِم المُتفضِّلُ
فليتك إذ لم ترْعَ حقّ أبوّتى * فعلتَ كما الجار المُصاقِب يفعلُ
فأوليتنى حقّ الجوار ولم تكن * علىّ بمال دون مالك تبخلُ

قال : فحينئذ أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال : "أنت ومالك لأبيك" .
قال الطبرانى : اللَّخْمىّ لا يروى — يعنى هذا الحديث — عن ابن المُنْكَدِر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد ، وتفرّد به عبيد الله بن خَلَصَة . والله أعلم .

قوله تعالى : رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ أى من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما، أو من غير ذلك من العقوق ، أو من جعل ظاهر برهما رِياء . وقال ابن جبير: يريد البادرة التى تبدر ، كالفَلْتة والزَّلّة ، تكون من الرجل إلى أبوَيْه أو أحدهما ، لا يريد بذلك بأساء قال الله تعالى: ﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ أى صادقين فى نية البرّ بالوالدين فإن الله يغفر البادرة. وقوله : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة

(١) نسبت هذه الأبيات فى أشعار الحماسة لأمية بن أبى الصلت . قال التبريزى : « وتروى لابن عبد الأعلى . وقيل : لأبى العباس الأعمى» . (٢) فى الأصول : « وصنتك » . وفى أشعار الحماسة : « وعلتك » أى قمت بمؤونتك . و « يافعا » شابا . و « تعل » من عله يعله ، سقاه ثانية . و « أجنى » أكسب . و « تنهل » من أنهله ، سقاه أول سقية . (٣) فى الحماسة :
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت * لشكواك ... ... الخ

Marfat.com

إلى طاعة الله سبحانه وتعالى . قال سعيد بن المسيّب : هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب . وقال ابن عباس رضى الله عنه : الأوّاب : الحفيظ الذى إذا ذكر خطاياه استغفر منها . وقال عُبيد بن عُمير : هم الذين يذكرون ذنوبهم فى الخلاء[1] ثم يستغفرون الله عز وجل . وهـذه الأقوال متقاربة . وقال عَوْن العقيليّ : الأوّابون هم الذين يصلون صلاة الضحا . وفى الصحيح : " صـلاة الأوّابين حين ترمض الفِصال[2] " . وحقيقة اللفظ [أنه[3]] من آب يؤوب إذا رجع .

قوله تعـالى : وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَآتِ ذَا القُرْبى حَقَّهُ ﴾ أى كما راعيت حق الوالدين فصِل الرحم، ثم تصدّق على المسكين وابن السبيل . وقال علىّ بن الحسين فى قوله تعالى : « وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ » : هم قرابة النبيّ صلى الله عليه وسـلم ، أمر صلى الله عليه وسلم بإعطائهم حقوقهم من بيت المـال ، أى من سهـم ذَوِى القربى من الغَزْو والغنيمة ، ويكون خطابا للولاة أو من قام مقامهم . والحق فى هـذه الآية ما يتعين من صلة الرحم ، وسَـدّ الخَلّة ، والمواساة عند الحاجة بالمـال ، والمعونة بكل وجه .

الثانيـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُبَـذِّرْ ﴾ أى لا تسرف فى الإنفاق فى غير حق . قال الشافعيّ رضى الله عنه : والتبذير إنفاق المـال فى غير حقه ، ولا تبذير فى عمل الخير . وهذا قول الجمهور . وقال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المـال من حقه ووضعه فى غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » وقوله :

(١) الخلاء : الخلوة .
(٢) هى أن تحمى الرمضاء ، وهى الرمل ، فتبرك الفصال من شـدة حرها وإحراقها أخفافها .
(٣) من جـ .

Marfat.com

« إخوان » يعنى أنهم فى حكمهم؛ إذ المبذِّر ساعٍ فى إفساد كالشياطين ، أو أنهم يفعلون ماتسوّل لهم أنفسهم ، أو أنهم يُقرَنون بهم غدا فى النار؛ ثلاثة أقوال . والإخوان هنا جمع أخ من غير النسب ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »[1] . وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ أى احذروا متابعته والتشبه به فى الفساد . والشيطان اسم الجنس . وقرأ الضحاك . « إخوانَ الشيطان » على الأفراد ، وكذلك ثبت فى مصحف أنس بن مالك رضى الله عنه .

الثالثة — من أنفق ماله فى الشهوات زائدا على قدر الحاجات وعرضه بذلك للنفاد فهو مبذر . ومن أنفق ربح ماله فى شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذّر . ومن أنفق درهما فى حرام فهو مبذّر، ويحجر عليه فى نفقته الدرهم فى الحرام، ولا يحجر عليه إن بذله فى الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد .

قوله تعالى : وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

فيه ثلاث مسائل .

الأولى — وهو أنه سبحانه وتعالى خصّ نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ . وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع؛ أى لاتعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتحرمهم[2] . وإنما يجوز أن تُعرض عنهم عند عجز يعرض وعائق يعوق ، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحال « فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا » .

الثانية — فى سبب نزولها ؛ قال ابن زيد : نزلت الآية فى قوم كانوا يسئلون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأبى أن يعطيهم ؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المال فى فساد،

(١) راجع جـ ١٦ ص ٣٢٢ . (٢) فى ى : والفرار من فتنهم . ولا يبدو له معنى .

Marfat.com

فكان يُعرض عنهم رغبة في الأجر في منعهم لئلا يعينهم على فسادهم . وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى : « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » قال : ليس هذا في ذكر الوالدين، جاء ناس من مُزَيْنَةَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستحملونه ؛ فقال : " لا أجد ما أحملكم عليه" فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ؛ فأنزل الله تعالى : « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » . والرحمة الفيء[(١)] .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ أمره بالدعاء لهم ، أي يَسِّرْ فقرهم عليهم بدعائك لهم . وقيــل : ادْعُ لهم دعاءً يتضمن الفتح لهم والإصلاح . وقيــل : المعنى "وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ" أي إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يد فقل لهم قولا ميسورا ؛ أي أحسن القول وابسط العذر ، وادع لهم بسعة الرزق، وقل إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ ؛ فإن ذلك يعمل في مَسَرّة نفسه عمل المواساة . وكان عليــه الصلاة والسلام إذا سئل وليس عنده ما يُعطي سكت انتظارا لرزق يأتي من الله سبحانه وتعــالى كراهة الرد ، فنزلت هــذه الآية ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا سئل وليس عنده ما يعطي قال " يرزقنا الله وإياكم من فضله"، فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر. وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة . والضمير في «عنهم» عائد على من تقدّم ذكرهم من الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل . و « قَوْلًا مَيْسُورًا » أي ليّنــا لطيفا طيبا ، مفعول بمعنى الفاعل، من لفظ اليسر كالميمون ، أي وعدا جميلا ، على ما بيّناه . ولقد أحسن من قال :

إلّا تكن وَرِقٌ يوما أجود بهــا * للسائلين فإني ليّن العُــودِ
لا يعدم السائلون الخير من خلقي * إمّا نَوالي وإمّا حسنُ مردودي

تقول : يَسّرت لك كذا إذا أعددته .

قوله تعــالى : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾

(١) في ج في هـ : الفني .

Marfat.com

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ هذا مجاز عبّر به عن البخيل الذى لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله؛ فضرب له مثل الغلّ الذى يمنع من التصرف باليـد . وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : ضرب رسـول الله صلى الله عليه وسلم مَثَل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد قد اضطرّت أيديهما إلى ثُدِيّهما وتَراقِيهما فجعل المتصدّق كلما تصدّق بصدقة انبسطت عنـه[1] حتى تغشى أنامله وتَعفُوَ أثره[2] وجعل البخيل كلمـا همّ بصدقة قَلَصت[3] وأخذت كلّ حلقـة بمكانها . قال أبو هريرة رضى الله عنـه : فأنا رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول[4] بأصبعيه هكذا فى جيْبه[5] فلو رأيته[6] يُوسِّعها ولا توسع .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ضرب بسط اليـد مثلا لذهاب المـال، فإن قبض الكفّ يحبس ما فيها، وبسطها يذهب ما فيها. وهـذا كله خطاب للنبيّ صـلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، وكثيرا ما جاء فى القرآن ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا كان سيّدهم وواسطتهم إلى ربهم عُبِّر به عنهم على عادة العرب فى ذلك . وأيضا فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدخر شيئا لغَد ، وكان يجوع حتى يَشُدّ الحجـر على بطنه من الجوع . وكان كثير من الصحابة ينفقون فى سـبيل الله جميع أموالهم ، فلم يعنّفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدّة بصائرهم . وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط فى الإنفاق، وإخراج ما حوته يده من المـال مَن خِيف عليه الحسرةُ على ما خرج من يده، فأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية، والله أعلم . وقيل : إن هذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى خاصة نفسه، علّمه فيه كيفية الإنفاق، وأمره بالاقتصاد . قال جابر وابن مسعود : جاء غلام إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمى

(١) أى انتشرت عنه الجبة . (٢) أى أثر مشيه لسبوغها . (٣) أى انضمت وارتفعت .

(٤) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ فتقول : قال بيده ، أى أخذ . وقال برجله ، أى مشى . وكل ذلك على المجاز والاتساع . (٥) فى جوره : ولقد رأيته .

(٦) جواب لو محذوف ؛ أى لتعجبت .

Marfat.com

تسألك كذا وكذا . فقال " ما عنـدنا اليوم شيء " . قال : فتقول لك اكْسُنِي قميصَك ؛ فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس فى البيت عُريانا . وفى رواية جابر: فأذّن بلال للصلاة وانتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج، واشتغلت القلوب ، فدخل بعضهم فإذا هو عارٍ ؛ فنزلت هذه الآية . وكل هذا فى إنفاق الخير . وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام ، كما تقدّم .

الثالثــة — نهت هــذه الآية عن استفراغ الوُجْد[1] فيما يطرأ أوّلا من سؤال المؤمنين ؛ لئلا يبقى من يأتى بعد ذلك لاشىء له ، أولئلا يضيّع المنفق عياله . ونحوه من كلام الحكمة: مارأيت قط سرفا إلا ومعه حق مُضيَّع . وهذه من آيات فقه الحال فلا يُبيَّن حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ قال ابن عرفة : يقول لاتسرف ولا تتلف مالك فتبقى محسورا منقطعا عن النفقة والتصرف ؛ كما يكون البعيرالحسير، وهوالذى ذهبت قوته فلا انبعاث به ؛ ومنــه قوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ[2] » أى كَليلٌ منقطع . وقال قتادة : أى نادما على ماسلف منك ؛ فجعله من الحسْرة ، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الفاعل من الحسرة حَسِر وحَسْران ولا يقــال محسور . والملوم : الذى يلام على إتلاف ماله ، أو يلومه من لا يعطيه .

قوله تعـالى : إِنَّ رَبَّكَ[3] يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

---

(١) الوجد (مثلثة الواو) : اليسار والسعة . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٩ . (٣) هذه الآية لم يتكلم عليها المؤلف ولم تذكر فى النسخ التى بين أيدينا ولعله تكلم عليها وحصل سقط من النساخ .

وعبارة ابن جرير الطبرى فى كلامه على الآية كما وردت فى تفسيره : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده فيوسع عليه ، و يقدر على من يشاء ، يقول : و يقتر على من يشاء منهم فيضيق عليه : « إنه كان بعباده خبيرا » يقول : إن ربك ذو خبرة بعباده ، ومن الذى تصلحه السعة فى الرزق وتفسده ، ومن الذى يصلحه الإقتار والضيق و يهلكه . « بصيرا » يقول هو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم . يقول : فانته يا محمد إلى أمرنا فيما أمرناك ونهيناك من بسط يدك فيما تبسطها فيه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عمن تكفها عنه وتكفها فيه ؛ فنحن أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق وأبصر بتدبيرهم » .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى ــ قد مضى الكلام فى هذه الآية فى الأنعام، والحمد لله.(١) والإملاق : الفقر وعدم الملك. أملق الرجل أى لم يبق له إلا الملَقات؛ وهى الحجارة العظام المُلْس. قال الهُذَلِى يصف صائدا :

أُتِيحَ لهـا أُقَيْـدِرُ ذو حَشِيف ✻ إذا سامَتْ على المَلَقَـات ساما

الواحدة مَلَقـة . والأُقَيْدر تصغير الأقدر ، وهو الرجل القصير . والحشيف من الثيـاب : الخَلَق . وسامت مرّت . وقال شَمِر: أملَق لازم ومتعـدّ ، أملَق إذا افتقر ، وأملق الدهر ما بيده . قال أوْس :

✻ وأَملَق ماعندى خطوب تَنَبَّلُ(٢) ✻

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿خِطْـًٔا﴾ « خِطْـئًا » قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمزة والقصر. وقرأ ابن عامر « خَطَـئًا » بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة ، وهى قراءة أبى جعفر يزيد . وهاتان قراءتان مأخوذتان من « خطئ » إذا أتى الذنب على عمـد . قال ابن عرفة : يقال خَطِئ فى ذنبه خَطَأً إذا أثِم فيه ، وأخطأ إذا سلك سبيل خطأ عامدا أو غير عامد . قال : ويقال خطِئ فى معنى أخطأ . وقال الأزهرى : يقال خطِئ يخطأ خِطئا إذا تعمد الخطأ ؛ مثل أثِم يأثم إثمـا . وأخطأ إذا لم يتعمد ، إخطاء وخطأ . قال الشاعر :

دَعِينى إنمـا خَطْئِى وصَوْبِى ✻ علىّ وإنّ ما أهلكتُ مالُ(٣)

(١) راجع ج ٧ ص ١٣٠ .

(٢) صدر البيت :

✻ لمـا رأيت العدم قيد نائلى ✻

(٣) فى الأصول : « وإن ما أهلكت مالى » . والتصويب عن كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن سلام فى ترجمة أوس بن غلفاء ، ولسان العرب فى مادة « صوب » . وقبل هذا البيت :

الا قالت أمامة يوم غول ✻ تقطع بابن غلفـاء الحبال

يقول : وإن الذى أهلكت إنمـا هو مال ، والمـال يستخلف ولم أتلف عرضا .

وغول ، مكان كان فيه وقعة للعرب لضبة على بنى كلاب . (راجع معجم ياقوت) .

Marfat.com

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضدّ الصواب . وفيه لغتان : القصر وهو الجيّد، والمدّ وهو قليل. وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «خطأ» بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة . وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدّ الهمزة . قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجها، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطا . قال أبو علىّ : هى مصدر من خاطأ يخاطئ ، و إن كنا لانجد خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوع خاطأ، فدلنا عليه، ومنه قول الشاعر:

تخاطأت النبْلُ أحشاءَه * وأُخِّرَ يومى فلم أَعْجَلِ[(1)]

وقول الآخر فى وصف مَهاة :

تخاطأه القنّاص حتى وجدتُه * وخرطومُه فى مَنْقَع الماء راسبُ

الجوهرى : تخاطأه أى أخطأه، وقال أوْفَى بن مطر المازنى :

ألا أبلغا خُلّتِى جابرا * بأنّ خليلك لم يُقْتَلِ

تخاطأت النبْلُ أحشاءه * وأُخِّرَ[(1)] يومى فلم يَعْجَلِ

وقرأ الحسن « خطاء » بفتح الخاء والطاء والمد فى الهمزة . قال أبو حاتم : لا يعرف هذا فى اللغة وهى غلط غير جائز . وقال أبو الفتح: الخطاء من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيت، هو اسم بمعنى المصدر، وعن الحسن أيضا « خَطًى » بفتح الخاء والطاء منونة من غير همزة .

قوله تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

فيه مسئلة واحدة :

قال العلماء : قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ أبلغ من أن يقول : ولا تزنوا؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى . والزنى يمد ويقصر، لغتان . قال الشاعر :

كانت فريضة ما تقول كما * كان الزِّناء فريضةَ الرَّجْمِ

و﴿سَبِيلًا﴾ نصب على التمييز؛ التقدير: وساء سبيله سبيلا . أى لأنه يؤدّى إلى النار . والزنى من الكبائر، ولا خلاف فيه وفى قبحه لا سيما بحليلة الجار . وينشأ عنه استخدام ولد الغير

(١) أخر : بمعنى يتأخر ، ويجوز « أخر » بضم الهمزة وشد الخاء مع الكسر .

Marfat.com

واتخاذه ابنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه . وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بامرأة[1] مُجِحّ على باب فسطاط فقال : " لعله يريد أن يلم بها " فقالوا : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد هممت أن ألعنه لعنا يدخل معه قبره كيف يُورِّثه وهو لا يحل له كيف يستخدمه وهو لا يحل له " .

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[2] قد مضى الكلام فيه فى الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً ﴾ أى بغير سبب يوجب القتل . ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ أى لمستحق دمه . . قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : الولى يجب أن يكون ذكرا ، لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير . وذكر إسماعيل بن إسحاق فى قوله تعالى : « فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ » ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الولى ، فلا جَرَم ، ليس للنساء حق فى القصاص لذلك ولا أثر

(١) قوله : « أتى بامرأة » أى مر عليها فى بعض أسفاره . و « المجح » (بميم مضمومة وجيم مكسورة وحاء مهملة) صفة لامرأة ، وهى الحامل التى قربت ولادتها . وقوله : فقال لعله ... الخ فيه حذف تقديره : فسأل عنها فقالوا أمة فلان ؛ أى مسبيته . ومعنى « يلم بها » : أى يطؤها ، وكانت حاملا مسبية ، لا يحل جماعها حتى تضع . وقوله « كيف يورثه ... الخ » معناه : أنه قد تتأخر ولادتها ستة أشهر ، بحيث يحتمل كون الولد من هذا السابى ، ويحتمل أنه كان ممن قبله ؛ فعلى تقدير كونه من السابى يكون ولدا له ، ويتوارثان . وعلى تقدير كونه من غير السابى لا يتوارثان هو ولا السابى لعدم القرابة ، بل له استخدامه لأنه مملوكه . فتقدير الحديث : أنه قد يستلحقه ويجعله ابنا له ويورثه مع أنه لا يحل له توريثه لكونه ليس منه ، ولا يحل توريثه ومزاحمته لباقى الورثة . وقد يستخدمه استخدام العبيد ويجعله عبدا يتملكه ، مع أنه لا يحل له ذلك لكونه منه إذا وضعته لمدة محتملة كونه من كل واحد منهما ؛ فيجب عليه الامتناع من وطئها خوفا من هذا المحظور . (راجع شرح النووى على صحيح مسلم ، كتاب النكاح باب تحريم وطء الحامل المسبية) .

(٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ .

Marfat.com

لعفوها ، وليس لها الاستيفاء. وقال المخالف: إن المراد ها هنا بالولى الوارث؛ وقد قال تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» (١) ، وقال: « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » (١) ، وقال : « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » فاقتضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة؛ وأمّا ما ذكروه من أن الولى فى ظاهره على التذكير وهو واحد كأن ما كان بمعنى الجنس يستوى المذكر والمؤنث فيه، وتتمته فى كتب الخلاف . ﴿ سُلْطَانًا ﴾ أى تسليطا إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الديّة ؛ قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعى . وقال ابن وهب قال مالك : السلطان أمر الله . ابن عباس : السلطان الحجة . وقيل: السلطان طلبه حتى يدفع إليه . قال ابن العربى : وهذه الأقوال متقاربة ، وأوضحها (٢) قول مالك : إنه أمر الله . ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نصًّا فاختلف العلماء فيه؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبو حنيفة : القتل خاصة . وقال أشهب : الخيرة ؛ كما ذكرنا آنفا، وبه قال الشافعىّ . وقد مضى فى سورة « البقرة » (٣) هذا المعنى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال : لا يقتل غير قاتله ؛ قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير . الثـانى — لا يقتل بدل وليه اثنين كما كانت العرب تفعله . الثالث — لا يمثّل بالقاتل ؛ قاله طَلْق بن حبيب ، وكله مراد لأنه إسراف منهى عنه . وقد مضى فى « البقرة » (٣) القول فى هذا مستوفىً . وقرأ الجمهور « يُسْرِفْ » بالياء، يريد الولى، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى «تسرف» بالتاء من فوق، وهى قراءة حُذيفة . وروى العـلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال : هو للقاتل الأوّل، والمعنى عندنا فلا تسرف أيهـا القاتل . وقال الطبرىّ : هو على معنى الخطاب للنبىّ صـلى الله عليه وسـلم والأئمـة من بعده . أى لا تقتلوا غير القاتل . وفى حرف أُبَىّ « فلا تسرفوا فى القتل » .

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠٢ وص ٥٥ وص ٥٨ .　(٢) فى جـ : أظهرها .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٤٤ فما بعد .

Marfat.com

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ أى مُعانا : يعنى الولىّ . فإن قيل : وكم من ولىّ مخذول لا يصل إلى حقه . قلنا : المعونة تكون بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى، وبمجموعها ثالثة، فأيّها كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى . وروى ابن كثير عن مجاهد قال : إن المقتول كان منصورا . النحاس : ومعنى قوله إن الله نصره بوليه . وروى أنه فى قراءة أبى « فلا تسرفوا فى القتل إن ولىّ المقتول كان منصورا » . قال النحاس : الأبين بالياء ويكون للولىّ؛ لأنه إنما يقال : لا يسرف إن كان له أن يقتل، فهذا للولىّ . وقد يجوز بالتاء ويكون للولىّ أيضا، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة . قال الضحاك : هـذا أوّل ما نزل من القرآن فى شأن القتل، وهى مكية[(1)].

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

فيــه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ قد مضى الكلام فيه فى الأنعام[(2)].

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ قد مضى الكلام فيه فى غير موضع[(3)]. قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنـه فهو من العهد . ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ عنه، فحذف؛ كقوله : « وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[(4)] » به وقيل : إن العهد يسأل تبكيتا لناقضه فيقال : لم نقضت ؟ كما تسأل الموءودة تبكيتا لوائدها[(5)].

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾

(١) المروى عن الحسن أنها مدنية كما فى الألوسى . وهو المتبادر لأنها من الأحكام .
(٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ . (٣) راجع جـ ١ ص ٣٣٢ . (٤) راجع جـ ١٨ ص ١٩٦ .
(٥) راجع جـ ١٩ ص ٢٣٠ فما بعد .

Marfat.com

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ تقدم الكلام فيه أيضا في الأنعام[(١)] . وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع ، وقد مضى في سورة « يوسف » فلا معنى للإعادة[(٢)] . والقُسْطَاس (بضم القاف وكسرها) : الميزان بلغة الروم ؛ قاله ابن عزيز . وقال الزجاج : القسطاس : الميزان صغيرا كان أو كبيرا . وقال مجاهد : القسطاس العدل ، وكان يقول : هي لغة رومية ، وكأن الناس قيل لهم : زِنوا بمَعْدِله[(٣)] في وزنكم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر « القُسطاس » بضم القاف . وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم [القِسطاس[(٤)]] (بكسر القاف) وهما لغتان .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أي وفاء الكيل و إقامة الوزن خير عند ربك[(٤)] وأبرك . « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أي عاقبة . قال الحسن : ذُكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقدر رجل على حرام ثم يَدَعُه ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك " .

قوله تعالى : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك . قال قتادة : لا تقل رأيتُ وأنت لم تر ، وسمعتُ وأنت لم تسمع ، وعلمتُ وأنت لم تعلم ؛ وقاله ابن عباس رضي الله عنهما . قال مجاهد : لا تذُمّ أحدا بما ليس لك به علم ؛ وقاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضا . وقال محمد بن الحنفية : هي شهادة الزور . وقال القُتَبي : المعنى لا تتبع الحدْس

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ .　　(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٥٤ .
(٣) في أ و حـ و و ى : بمعدلة وفي جـ بمعدله　　(٤) في جـ : عند الله .

Marfat.com

والظنون ؛ وكلها متقاربة . وأصـل القَفْو البُهْتُ والقذفُ بالباطل؛ ومنـه قوله عليه الصلاة والسلام : " نحن بنو النضر بن كنانة لا نَقفو أُمَّنا ولا ننتفى من أبينا " أى لا نَسُبّ أمنـا . وقال الكُمَيت : —

فـلا أرمى البرىء بغـير ذنب * ولا أَقْفُو الحـواصن إن قُفينا

يقال : قَفَوْتُه أَقْفُوه ، وقُفْتُـه أَقُوفُه ، وقَفَيتـه إذا اتَّبعت أثره . ومنـه القافة لتتبعهم الآثار وقافية كلّ شيء آخره ، ومنه قافية الشِّعر ؛ لأنها تقفو البيت . ومنه اسم النبيّ صلى الله عليـه وسلم المُقَفّى ؛ لأنه جاء آخر الأنبياء . ومنـه القائف ، وهو الذى يتبع أثر الشَّبَه . يقال : قاف القائف يقوف إذا فعـل ذلك . وتقول : قَفَوت الأثر ، بتقـديم الفاء على القـاف . ابن عطيـة : ويشبه أن يكون هـذا من تلعّب العرب فى بعض الألفاظ ، كما قالوا : رَعَمْلِي فى لَعَمْرِى . وحكى الطبرى عن فرقة أنهـا قالت ؛ قفا وقاف ، مثـل عتا وعات . وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثـل جَبَذ وجَذَب . وبالجمـلة فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف ، وما أشـبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة . وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائى « تَقُفْ » بضم القاف وسكون الفاء . وقرأ الجراح « والفَآد » بفتح الفـاء ؛ وهى لغة لبعض الناس ، وأنكرها أبو حاتم وغيره .[1]

الثانيـة — قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة ؛ لأنه لمـا قال : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » دلّ على جواز ما لنا به علم ، فكل ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به ، وبهذا احتججنا على إثبات القُرْعة والخَرْص ؛ لأنه ضرب من غلبة الظن ، وقد يُسَمَّى علما اتساعا . فالقائف يُلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما كما يلحق الفقيه الفـرع بالأصل من طريق الشبه . وفى الصحيح عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل علىّ مسرورا تبرق أسارير وجهه فقال : " ألم تَرَىْ أن مُجَزِّزًا نظر إلى زيد ابن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة قد غَطّيا رءوسهما وبَدَتْ أقدامهما فقال إن بعض هذه الأقدام لَمِن بعض " . وفى حديث يونس بن يزيد : " وكان مُجَزِّز قائفا " .

(١) فى الشواذ : الفواد بفتح الفاء والواو . والجراح قاضى البصرة .

Marfat.com

الثالثــة — قال الإمام أبو عبـد الله المـازَرِى : كانت الجاهليـة تقـدح فى نسب أسامة لكونه أسـود شديد السـواد ، وكان زيد أبوه أبيضَ من القطن ، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . قال القاضى عِياض : وقال غير أحمد كان زيد أزهر اللون، وكان أسامة شديد الأُدْمة؛ وزيد بن حارثة عربىّ صريح من كَلْب ، أصابه سِباء، حسبما يأتى فى سورة « الأحزاب »[1] إن شاء الله تعالى .

الرابعــة — استدلّ جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع فى الولد؛ بسرور النبىّ صلى الله عليه وسلم بقول هذا القائف ؛ وما كان عليه السلام بالذى يُسَرّ بالباطل ولا يعجبه ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة و إسحاق والثّورِىّ وأصحابهم متمسكين بإلغاء النبىّ صلى الله عليه وسلم الشبه فى حديث اللّعان؛ على ما يأتى فى سورة « النور »[2] إن شاء الله تعالى .

الخامســة — واختلف الآخذون بأقوال القافة ، هل يؤخذ بذلك فى أولاد الحـرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء ، على قولين ؛ فالأول — قول الشافعىّ ومالك رضى الله عنهما فى رواية ابن وهب عنه ، ومشهور مذهبه قصْرُه على ولد الأَمَة . والصحيح مارواه ابن وهب عنه وقاله الشافعىّ رضى الله عنه ؛ لأن الحديث الذى هو الأصل فى الباب إنما وقع فى الحرائر، فإن أسامة وأباه حُرّان فكيف يُلْغَى السبب الذى خُرّج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليه ، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين . وكذلك اختلف هؤلاء ، هل يكتفى بقول واحد من القافة أو لا بُدّ من اثنين لأنها شهادة ؛ وبالأول قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصّه . و بالثانى قال مالك والشافعىّ رضى الله عنهما .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ أى يسأل كل واحد منهم عما اكتسب ، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده ، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع . وقيل : المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه و بصره وفؤاده ؛ ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته"

(١) راجع جـ ١٤ ص ١١٨ .   (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٩١ .

Marfat.com

فالإنسان راع على جوارحه ؛ فكأنه قال كل هذه كان الإنسان عنه مسئولا، فهو على حذف مضاف . والمعنى الأول أبلغ فى الحجة ؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه ، وتلك غاية الخزى ؛ كما قال : « الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[(1)] ، وقوله : «شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[(1)] . وعبّر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك، وجعلها فى هـذه الآية مسـئولة ، فهى حالة من يعقل، فلذلك عبّر عنها بأولئك . وقال سيبويه رحمه الله فى قوله تعالى: «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»: إنما قال : « رَأَيْتُهُمْ » فى نجوم ، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعـل مَن يعقل عبّر عنها بكناية مَن يعقل؛ وقد تقـدّم[(2)] . وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك، وأنشد هو والطبرى :

ذُمّ المنازل بعد منزلة اللِّوَى * والعيش بعـد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده . وأما البيت فالرواية فيه « الأقوام » والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ هذا نهىٌ عن الخُيَلاء وأمرٌ بالتواضع . والمَرَح : شدّة الفرح . وقيل : التكبر فى المشى . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقال قتادة : هو الخيلاء فى المشى . وقيل : هو البطر والأَشَر . وقيل : هو النشاط . وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين : أحدهما مذموم والآخر محمود ؛ فالتكبّر والبطَر والخُيَلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح والنشاط محمود . وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما؛ ففى الحديث الصحيح "لَلّهُ أفرح بتوبة العبد من رجل ..." الحديث . والكسل

(1) راجع جـ ١٥ ص ٤٨ ، وص ٣٤٩ . (2) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ .

Marfat.com

مذموم شرعا والنشاط ضدّه . وقد يكون التكبر وما فى معناه محمودا، وذلك على أعداء الله والظلمة . أسند أبو حاتم محمد بن حِبّان عن ابن جابر بن عتيك عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مِن الغَـيْرة ما يبغض الله عز وجل ومنها ما يحب الله عز وجل ومن الخُيَلاء ما يحب الله عز وجل ومنها ما يبغض الله فأما الغَـيْرةُ التى يحب الله الغـيرة فى الدِّين والغيرة التى يبغض الله الغيرةُ فى غير دينـه والخيلاء التى يحب الله اختيال الرجل بنفسه عند القتـال وعند الصـدقة والاختيال الذى يبغض الله الخيـلاء فى الباطل " وأخرجه أبو داود فى مصنّفه وغيره . وأنشدوا :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا * فكم تحتهـا قومٌ همو منك أرفعُ
وإن كنتَ فى عزٍّ وحِرْزٍ ومَنْعة * فكم مات من قوم همو منك أمنعُ

الثانيــة — إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفُّعًا دون حاجة إلى ذلك داخل فى هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنًى . وأما الرجل يستريح فى اليوم النادر (١) والساعة من يومه، يجُم فيهـا نفسه فى التطرّح والراحة ليستعين بذلك على شـغل من البر، كقراءة علم أو صلاة، فليس بداخل فى هذه الآية .

قوله تعـالى : ﴿ مَرَحًا ﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء . وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء آسم الفاعل . والأوّل أبلغ، فإن قولك : جاء زيد ركْضًا أبلغ من قولك : جاء زيد راكضا؛ فكذلك قولك مَرَحًا . والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مَرِحاً .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ يعنى لن تتولج باطنها فتعلم ما فيها ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ أى لن تساوى الجبال بطولك ولا تطاولك . ويقال : خرق الثوب أى شـقه، وخرق الأرض قطعها . والخَرْق : الواسع من الأرض . أى لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها . ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ بعظمتك، أى بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ، بل أنت عبد ذليل، محاط بك من تحتك ومن فوقك، والمحاط محصور ضعيف؛ فلا يليق بك

(١) فى حـ : « فى اليوم البارد » .

Marfat.com

التكبر. والمراد بخرق الأرض هنا نقبها لا قطعها بالمسافة؛ والله أعلم. وقال الأزهري: معناه لن تقطعها. النحاس: وهذا أبين؛ لأنه[1] مأخوذ من الخرق وهي الصحراء الواسعة. ويقال: فلان أخرق من فلان، أي أكثر سفرا وعزة ومَنعة. ويروى أن سبأ دوّخ الأرض بأجناده شرقا وغربا وسهلا وجبلا، وقتل سادة وسبي — وبه سُمّي سبأ — ودان له الخلق، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال: إني لما نلت مالم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هذه النعم، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت، فسجدوا لها، وكان ذلك أوّل عبادة الشمس؛ فهذه عاقبة الخُيَلاء والتكبر والمرح؛ نعوذ بالله من ذلك.

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ «ذَٰلِكَ» إشارة إلى جملة ما تقـدّم ذكره ممـا أمر به ونَهى عنـه. و«ذلك» يصلح للواحد والجمع والمؤنث والمذكر. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ومسروق «سيِّئُه» على إضافة سيّئ إلى الضمير، ولذلك قال: «مَكْرُوهًا» نصب على خبر كان. والسيِّئ: هو المكروه، وهو الذي لا يرضاه الله عز وجل ولا يأمر به. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآي من قوله: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ — إلى قوله — كَانَ سَيِّئُهُ» مأمورات بهـا ومنهيات عنها، فلا يخـبر عن الجميع بأنه سيئة فيدخل المأمور به في المنهيّ عنـه. واختار هـذه القراءة أبو عبيد. ولأن في قراءة أُبَيّ: «كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئَاته» فهـذه لا تكون إلا للإضافة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «سيئةً» بالتنوين؛ أي كل ما نهى الله ورسوله عنـه سيئة. وعلى هـذا انقطع الكلام عنـد قوله: «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» ثم قال: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»، «وَلَا تَمْشِ»، ثم قال: «كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئَةً» بالتنوين. وقيل: إن قوله: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ» إلى هذه الآية كان سيئةً لا حسنة فيـه، فجعلوا «كلا» محيطا بالمنهيّ عنه دون غيره. وقوله: «مَكْرُوهًا» ليس نعتا لسيئة، بل هو بدل منـه؛ والتقدير: كان سيئة وكان مكروها. وقد قيل: إن «مَكْرُوهًا» خبر ثان لكان حمل على لفظة كلّ، و«سيئة» محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبلُ. وقال بعضهم: هو نعت لسيئة؛ لأنه لمـا كان

(١) في بجوري: كأنه.

Marfat.com

تأنيثها غير حقيقي جاز أن توصف بمذكر . وضعّف أبو على الفارسيّ هذا وقال : إن المؤنث إذا ذُكّر فإنما ينبغى أن يكون ما بعده مذكرا ، وإنما التساهل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو فى صيغة ما يسند إلى المذكّر ؛ ألا ترى قول الشاعر :

فــلا مزنة ودقَتْ وَدْقَها * ولا أرضَ أبقــل إبقالها

مستقبح عندهم . ولو قال قائل : أبقل أرض لم يكن قبيحا . قال أبو عليّ : ولكن يجــوز فى قوله : « مَكْرُوهًا » أن يكون بدلا من « سيئةً » . ويجوز أن يكون حالا من الضمير الذى فى « عِنْدَ رَبِّكَ » ويكون « عِنْدَ رَبِّكَ » فى موضع الصفة لسيئة .

الخامســـة — استدلّ العلماء بهذه الآية على ذمّ الرقْص وتعاطيه . قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل : قــد نصّ القرآن على النّهى عن الرقص فقال : « وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا » وذم المختال . والرقصُ أشــد المرح والبطر . أولسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمــر لاتفاقهما فى الإطراب والسكر ، فــا بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشِّعر معــه على الطُّنبور والمِزمار والطَّبل لاجتماعهما . فــا أقبح من ذى لِحْية ، وكيف إذا كان شيبةً ، يرقص ويصفق على إيقاع الألحان والقضبان ، وخصوصا إن كانت أصواتٌ لنسوان ومردان ، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والســؤال والحشر والصراط ، ثم هو إلى إحدى الدارين ، يَشْمُسُ(١) بالرقص شمس البهائم ، ويصفّق تصفيق النسوان ، و[الله](٢) لقد رأيت مشايخ فى عمرى ما بان لهم سِنّ من التبسّم فضلا عن الضحك مع إدمان مخالطتى لهم . وقال أبو الفرج ابن الجوزى رحمــه الله : ولقد حدّثنى بعض المشايخ عن الإمام الغزالى رضى الله عنــه أنه قال : الرقص حمــاقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب . وسيأتى لهــذا الباب مزيد بيــان فى « الكهف(٣) » وغيرها(٤) إن شاء الله تعالى .

---

(١) شمست الدابة شردت وجمحت . (٢) من ج و ى . (٣) راجع ص ٣٦٥ من هذا الجزء .
(٤) راجع ج ١٤ ص ٥١ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

الإشارة بـ « ذلك » إلى هـذه الآداب والقصص والأحكام التى تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التى نزل بها جبريل عليه السلام . أى هذه من الأفعال المحكمة التى تقتضيها حكمة الله عز وجل فى عباده ، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعانى المحكمة والأفعال الفاضلة . ثم عطف قوله : «وَلَا تَجْعَلْ» على ما تقدم من النواهى . والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمرادُ كلُّ من سمع الآية من البشر . والمدحور : المُهان المبعد المُقْصَى . وقد تقدّم فى هذه السورة (١) . ويقال فى الدعاء : اللهم ٱدْحرعنا الشيطان ؛ أى أبعده .

قوله تعالى : أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

هذا ردّ على من قال من العرب : الملائكة بنات الله ، وكان لهم بنات أيضا مع البنين ، ولكنه أراد : أفأخلص لكم البنين دونه وجعل البنات مشتركة بينكم و بينه . ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أى فى الإثم عند الله عز وجل .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أى بينا . وقيل : كرّرنا . ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ قيل : «فى» زائدة ، والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن ؛ مثل : « وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ » (٢) أى أصلح ذريتى . والتصريف : صرف الشيء من جهة إلى جهة . والمراد بهـذا التصريف البيان والتكرير . وقيل : المغايرة ؛ أى غايرنا بين المواعظ ليذّكروا و يعتبروا و يتّعظوا . وقراءة العامة « صَرَّفْنَا »

---

(١) راجع ص ٢٣٥ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٩٥ .

Marfat.com

بالتشـديد على التكثير حيث وقع . وقرأ الحسن بالتخفيف . وقوله : « فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْآنِ » يعني الأمثال والعِبَر والحِكَم والمواعظ والأحكام والإعلام . قال الثعلبي : سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب : لقوله تعالى : « صرفنا » معنيان؛ أحدهما لم يجعله نوعا واحدا بل وعدا ووعيدا ومُحْكَمًا ومتشابها ونهيا وأمرا وناسخا ومنسوخا وأخبارا وأمثالا؛ مثل تصريف الرياح من صَبًا ودَبُور وجنوب وشمال، وتصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها . والثاني أنه لم ينزل مرة واحدة بل نجوما؛ نحو قوله : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ »(١) ومعناه : أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك .

﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي « لِيَذْكُرُوا » مخففا، وكذلك في الفرقان « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا »(٢) . الباقون بالتشديد . واختاره أبو عبيد؛ لأن معناه ليتذكروا وليتعظوا . قال المهدوي : من شدّد « لِيَذَّكَّرُوا » أراد التدبر . وكذلك من قرأ « لِيَذْكُرُوا » . ونظير الأول . «وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »(٢) والثاني — «وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ »(٣) .

﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أي التصريف والتذكير . ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أي تباعدا عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر .

قوله تعالى : قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ » وهو ردّ على عبّاد الأصنام . ﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحفص « يقولون » بالياء . الباقون « تقولون » بالتاء على الخطاب . ﴿ إِذًا لَابْتَغَوْا ﴾ يعني الآلهة . ﴿ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : لطلبوا مع الله منازعة وقتالا كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض . وقال سعيد بن جُبير رضي الله تعالى عنه : المعنى إذًا لطلبوا

(١) راجع ص ١٣٩ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ١٣ ص ٥٧ وص ٢٩٤ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ .

Marfat.com

طريقا إلى الوصـول إليه ليزيلوا ملكه، لأنهـم شركاؤه . وقال قتادة : المعنى إذا لابتغت الآلهة القُرْبة إلى ذى العرش سبيلا ، والتمست الزُّلفة عنده لأنهم دونه ، والقوم اعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقدوا فى الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة . ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ نزّه سبحانه نفسه وقدّسه ومجده عما لا يليق به . والتسبيح : التنزيه . وقد تقدّم(١) .

قوله تعـالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل، لمـا أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح . وقوله : « وَمَنْ فِيهِنَّ » يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمّ بعـد ذلك الأشـياء كلّها فى قوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » . واختلف فى هـذا العموم ، هل هو مخصّص أم لا ؛ فقالت فرقة : ليس مخصوصا والمراد به تسبيح الدلالة ، وكل محـدَث يشهد على نفســه بأن الله عز وجل خالق قادر . وقالت طـائفة : هـذا التسبيح حقيقة ، وكل شىء على العموم يسبّح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأوّلون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمرا مفهوما، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفقه . وأجيبوا بأن المراد بقوله : « لَا تَفْقَهُونَ » الكفارُ الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى فى الأشياء. وقالت فرقة : قوله : «مِنْ شَيْءٍ» عموم، ومعناه الخصوص فى كلّ حىّ ونامٍ، وليس ذلك فى الجمادات . ومن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبّح . وقال يزيد الرَّقَاشى للحسن وهما فى طعام وقد قُدِّم الخِوان : أيسبّح هـذا الخِوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرة ؛ يريد أن الشجرة فى زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبّح ، وأما الآن فقد صار خِوانا مدهونا .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٦ .

Marfat.com

قلت : و يستدلّ لهذا القول من السنّة بما ثبت عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مَرّ على قبرين فقال : "إنهما ليُعَذَّبان وما يُعَذَّبان فى كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنَّميمة وأما الآخر فكان لايستبرئ من البول" قال : فدعا بعَسِيب رَطْب فشقّه آثنين، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال: "لعلّه يخفّف عنهما ما لم ييْبَسَا" . فقوله عليه الصلاة والسلام . " ما لم ييبسا " إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان ، فإذا يبسا صارا جمادا . والله أعلم . وفى مسند أبى داود الطيالسى : فوضع على أحدهما نصفا وعلى الآخر نصفا وقال : " لعـله أن يهوّن عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شىء" . قال علماؤنا : ويستفاد من هـذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور ؛ و إذا خُفِّف عنهـم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن . وقد بيّنا هـذا المعنى فى (كتاب التذكرة) بيانا شافيا، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهْدَى إليه . والحمد لله على ذلك . وعلى التأويل الثانى لايحتاج إلى ذلك ؛ فإن كل شىء من الجماد وغيره يسبح .

قلت : ويستدلّ لهذا التأويل وهـذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعـالى : « وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ »(١) ، وقـوله : « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ »(٢) — على قول مجاهـد — ، وقوله : « وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا »(٣) . وذكر ابن المبارك فى (دقائقه) أخبرنا مِسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن الجبـل يقول للجبل : يافلان ، هل مَرّ بك اليوم ذاكرٌ لله عز وجل ؟ فإن قال نعم سُرَّ به . ثم قرأ عبد الله : « وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا »(٣) الآية . قال : أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير . وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا تنادى بقاع الأرض بعضها بعضا : يا جاراه ، هل مَرّ بك اليوم عبـد فصلى لله أو ذكر الله عليك ؟ فمن قائلة لا ، ومن قائلة نعم ، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلا عليها . وقال رسول الله صلى

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٥٨ فما بعد .   (٢) راجع جـ ١ ص ٤٦٢ فما بعد .   (٣) راجع جـ ١١ ص ١٥٥ فما بعد .

Marfat.com

الله عليه وسلم : " لا يَسمع صـوت المؤذن جنٌّ ولا إنس ولا شجر ولا حَجَر ولا مَدَر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة " . رواه ابن ماجه فى سننه ، ومالك فى موطئه من حديث أبى سعيد الخُدْرى رضى الله عنـه . وخرّج البخارىّ عن عبـد الله رضى الله عنه قال : لقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . وفى غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : كنّا نأكل مع رسـول الله صلى الله عليـه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه . وفى صحيح مسلم عن جابر ابن سَمُرَة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن" . قيل : إنه الحجر الأسود ، والله أعلم . والأخبار فى هـذا المعنى كثيرة ؛ وقد أتينا على جمـلة منها فى اللمع اللؤلؤية فى شرح العشرنيات النبوية للفادارى رحمه الله ، وخبر الجذع أيضا مشهور فى هذا الباب خرّجه البخارى فى مواضع من كتابه . وإذا ثبت ذلك فى جماد واحد جاز فى جميع الجمادات ، ولا استحالة فى شيء من ذلك ؛ فكل شيء يسبح للعموم . وكذا قال النَّخَعِىّ وغيره : هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرير الباب . واحتجوا بالأخبار التى ذكرنا . وقيل : تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول : سبحان الله ! لعدم الإدراك منها . وقال الشاعر :

تُلْقَى بتسبيحة من حيث ما انصرفت * وتَســتقر حَشَا الرائى بِتَرْعَادِ

أى يقول من رآها : سـبحانَ خالِقها . فالصحيح أن الكل يسبّح للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأىّ تخصيص لداود ، وإنمـا ذلك تسبيح المقـال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا . وقد نصّت السنة على ما دلّ عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أولى . والله أعلم . وقرأ الحسن وأبو عمـرو ويعقوب وحفص وحمـزة والكسائى وخَلَف « تفقهون » بالتاء لتأنيث الفاعل . الباقون باليـاء ، واختاره أبو عبيـد ، قال : للحائل بين الفعل والتأنيث . ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾ عن ذنوب عباده فى الدنيا . ﴿ غَفُورًا ﴾ للؤمنين فى الآخرة .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ »(١) أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها وَلْوَلَة وفي يدها فِهْر(٢) وهي تقول :

* مُذَمَّمًا عَصَيْنَا * وأَمْرَه أَبَيْنَا * وَدِينَه قَلَيْنَا(٣) *

والنبيّ صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه؛ فلما رآها أبو بكر قال : يارسول الله ، لقد أقبلتْ وأنا أخاف أن تراك ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها لن تراني " وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال ، وقرأ : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا » . فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا أبا بكر ، أُخبرتُ أن صاحبك هجاني ! فقال : لا وربِّ هذا البيت ماهجاك . قال : فولّت وهي تقول : قد علمتْ قريش أني ٱبنة سيدها . وقال سعيد بن جُبير رضي الله عنه : لما نزلت « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » جاءت امرأة أبي لهب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، فقال أبو بكر : لو تَنَحَّيْتَ عنها لئلا تُسمعك ما يؤذيك ، فإنها امرأة بذيّة . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنه سيحال بيني و بينها " فلم تره . فقالت لأبي بكر : يا أبا بكر ، هجانا صاحبك ! فقال والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فقالت : وإنك لمصدّقه ؛ فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله ، أما رأتك ؟ قال : " لا . مازال مَلَك بيني و بينها يسترني حتى ذهبت " . وقال كعب رضي الله عنه في هذه الآية : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستتر من المشركين بثلاث آيات : الآية التي في الكهف . « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا »(٤) والآية التي في النحل

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٤ .　(٢) الفهر (بالكسر) : الحجر ملء الكف . وقيل : هو الحجر مطلقا .

(٣) هذا ما ورد في سيرة ابن هشام . والذي في نسخ الأصل : مذمما أبينا * ودينه قلينا

(٤) راجع جـ ١١ ص ٤ فما بعد .

«أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم»(١)، والآية التى فى الجاثية(٢): «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة»(٣) الآية. فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأهن يستتر من المشركين، قال كعب رضي الله تعالى عنه: فحدثت بهن رجلا من أهل الشام، فأتى أرض الروم فأقام بها زمانا، ثم خرج هاربا فخرجوا فى طلبه فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه. قال الثعلبي(٤): وهذا الذى يروونه عن كعب حدثت به رجلا من أهل الري فأسر بالديلم، فمكث زمانا ثم خرج هاربا فخرجوا فى طلبه فقرأ بهن حتى جعلت ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه.

قلت: ويزاد إلى هذه الآي أولُ سورة يس إلى قوله: «فهم لا يبصرون»(٥). فإن فى السيرة فى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ومقام علي رضي الله عنه فى فراشه قال: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب فى يده، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس: «يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم. تنزيل العزيز الرحيم» — إلى قوله — «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون». حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

قلت: ولقد اتفق لى ببلادنا الأندلس بحصن منثور(٦) من أعمال قرطبة مثل هذا. وذلك أنى هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج فى طلبي فارسان وأنا فى فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن؛ فعبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله(٧)؛ يعنون شيطانا. وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك. وقيل: الحجاب

(١) راجع ص ١٩١ من هذا الجزء.
(٢) فى أ و ح و ى: الشريعة. وهى من أسماء الجاثية.
(٣) راجع جـ ١٦ ص ١٦٦ فما بعد.
(٤) فى أ و ح و ى: «الكلبي».
(٥) راجع جـ ١٥ ص ٩.
(٦) كذا فى الأصول.
(٧) لفظة فرانسية، معناها: جني. ولعله كذلك فى لغة اللاتين.

Marfat.com

المستور طُبِعُ الله على قلوبهم حتى لايفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة ؛ قاله قتادة . وقال الحسن : أى أنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك و بينه حجاب فى عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية . وقيل : نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل آمرأة أبى لهب وحُوَيطب ؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرّون به ولا يرونه؛ قاله الزجاج وغيره . وهو معنى القول الأوّل بعينه ، وهو الأظهر فى الآية ، والله أعلم . وقوله : ﴿ مَسْتُوراً ﴾ فيه قولان : أحدهما — أن الحجاب مستور عنكم لا ترونه . والثانى — أن الحجاب ساتر عنكم ماوراءه؛ و يكون مستورا بمعنى ساتر .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ « أكنة » جمع كِنان، وهو ماستر الشىء . وقد تقدم فى « الأنعام » (١) . ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أى لئلا يفقهوه ، أو كراهية أن يفقهوه ، أى أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهى والحكم والمعانى . وهذا ردّ (٢) على القدرية . ﴿ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أى صمما وثقلا . وفى الكلام إضمار، أى أن يسمعوه . ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾ أى قلت : لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن . وقال أبو الجوزاء أوْس بن عبد الله : ليس شىء أطْرَدَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » . وقال على بن الحسين : هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم . وقد تقدم هذا فى البسملة (٣) . ﴿ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ قيل : يعنى بذلك المشركين . وقيل : الشياطين . و « نُفُورًا » جمع نافر؛ مثل شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد؛ فهو منصوب على الحال . ويجوز أن يكون مصدرا على غير الصدر؛ إذ كان قوله : « وَلَّوْا » بمعنى نفروا ، فيكون معناه نفروا نفورا .

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ . (٢) فى جـ : يرد . (٣) راجع جـ ١ ص ٩ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ قيل : الباء زائدة في قوله : « به » أي يستمعونه . وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن ثم ينفرون فيقولون : هو ساحر ومسحور؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم؛ قاله قتادة وغيره . ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ أي متناجون في أمرك . قال قتادة : وكانت نجواهم قولهم إنه مجنون وإنه ساحر وإنه يأتي بأساطير الأولين، وغير ذلك . وقيل : نزلت حين دعا عُتْبة أشراف قريش إلى طعام صنعه لهم ، فدخل عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ؛ فتناجوا ؛ يقولون ساحر ومجنون . وقيل : أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم عليًّا أن يتخذ طعاما ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ؛ ففعل ذلك عليّ ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد، وقال: "قولوا لا إله إلا الله لتطيعكم العرب وتدين لكم العجم" فأبوا ، وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقولون بينهم متناجين : هو ساحر وهو مسحور ؛ فنزلت الآية . وقال الزجاج : النجوى اسم للمصدر ؛ أي وإذ هم ذو نجوى ، أي سرار . ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ أبو جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهما . ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ أي مطبوبا قد خبله السحر فاختلط عليه أمره ، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس . وقال مجاهد : « مَسْحُوراً » أي مخدوعا ؛ مثل قوله : « فَأَنَّى تُسْحَرُونَ »[1] أي من أين تخدعون . وقال أبو عبيدة : « مَسْحُوراً » معناه أن له سَحْرا ، أي رئة ، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب ؛ فهو مثلكم وليس بملَك . وتقول العرب للجبان : قد انتفخ سَحْره . ولكل من أكل من آدمي وغيره أو شرب مسحور ومُسَحَّر . قال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا * عصافير من هذا الأنام المُسَحَّرِ

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٤٤ .

Marfat.com

وقال امرؤ القيس :

أرانا مُوضِعين لأمر غَيْبٍ[1] * ونُسْحَر بالطعام و بالشّراب

أى نُغَذّى ونُعَلّل . وفى الحديث عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : مَن هذه التى تُساميني من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقد تُوُفّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحْرِى ونَحْرِى[2] .

قوله تعالى : ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ عَجّبه من صنعهم كيف يقولون تارةً ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر . ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أى حيلةً فى صدّ الناس عنك . وقيل : ضَلُّوا عن الحق فلا يجدون سبيلا ؛ أى إلى الهدى . وقيل : مخرجا ؛ لتناقض كلامهم فى قولهم : مجنون ، ساحر ، شاعر .

قوله تعالى : وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى قالوا وهم يتناجَوْن لما سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث : لو لم يكن مسحورا مخدوعا لما قال هذا . قال ابن عباس : الرُّفات الغبار . مجاهد : التراب . والرفات ما تكسّر وبَلِيَ من كل شيء ؛ كالفُتات والحُطام والرُّضاض ؛ عن أبى عبيدة والكسائى والفرّاء والأخفش . تقول منه : رُفِتَ الشيء رَفْتاً ، أى حُطِم ؛ فهو مرفوت . ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ «أئِنّا» استفهام والمراد به الجَحْد والإنكار و«خَلْقاً» نصب لأنه مصدر ؛ أى بعثا جديدا . وكان هذا غاية الإنكار منهم .

(١) أوضع الرجل فى السير إذا أسرع . وقوله : «لأمر غيب» يريد الموت وأنه قد غيب عنا وقته ونحن نلهى عنه . بالطعام والشراب .

(٢) تريد أنه مات صلى الله عليه وسلم وهو مستند إلى صدرها وما يحاذى سحرها وهو (الرئة) .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ أى قل لهم يامحمد كونوا على جهة التعجيز حجارة أو حديدا فى الشـدة والقوة . قال الطبرى : أى إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم . وقال علىّ بن عيسى : معناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديدا لم تفوتوا الله عن وجل إذا أرادكم؛ إلا أنه خرج مخرج الأمر، لأنه أبلغ فى الإلزام. وقيل : معناه لو كنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم . وقال مجاهد: المعنى كونوا ماشئتم فستعادون . النحاس : وهذا قول حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة ، وإنمـا المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ماشئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديدا لبُعثتم كما خُلقتم أول مرة . ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ قال مجاهد : يعنى السموات والأرض والجبال لعظمها فى النفوس . وهو معنى قول قتادة . يقول : كونوا ما شئتم ، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم . وقال ابن عبـاس وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن جُبير ومجاهد أيضا وعكرمة وأبو صالح والضحاك : يعنى الموت ؛ لأنه ليس شىء أكبر فى نفس ابن آدم منه ؛ قال أُميّة بن أبى الصلت :

* وللمَوْتُ خَلْق فى النفوس فظيع *

يقول . إنكم لو خُلقتم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لأميتّكم ولأبعثنكم ؛ لأن القدرة التى بها أنشأتكم بهـا نعيدكم . وهو معنى قوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . وفى الحديث أنه " يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كَبْش أَملح فيذبح بين الجنة والنار " . وقيل : أراد به البعث ؛ لأنه كان أكبر فى صدورهم ؛ قاله الكلبى . « فَطَرَكُمْ » خلقكم وأنشأكم . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ أى يحركون رءوسهم استهزاء ؛ يقال :

Marfat.com

نَغَض رأسُه يَنْغُض ويَنْغِض نَغْضًا ونُغُوضا؛ أي تحرك. وأنغض رأسه أي حركه، كالمتعجب من الشيء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ .

قال الراجز:

* أنغض نحـوى رأسه وأقنعـا (١) *

ويقال أيضا: نغض فلان رأسه أي حركه؛ يتعدّى ولا يتعدّى، حكاه الأخفش. ويقال: نَغَضت سنّه؛ أي تحركت وانقلعت.

قال الراجز: * ونغضت من هَرَم أسنانها *

وقال آخر: * لما رأتنى أنغضتْ لى الرأسا *

وقال آخر:

لا ماء فى المَقْـراة إن لم تنهض * بمَسَـدٍ فـوق المَحَال النُّغَّض

المحال والمحالة: البكرة العظيمة التى يستقى بها الإبل. ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ أى البعث والإعادة وهذا الوقت. ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ أى هو قريب؛ لأن عسى واجب؛ نظيره: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَـلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٢)» . و «لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (٣)» . وكل ما هو آت فهو قريب .

قوله تعـالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ الدعاء: النداء إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج. وقيل: بالصيحة التى يسمعونها؛ فتكون داعية لهم إلى الاجتماع فى أرض القيامة. قال صـلى الله عليه وسـلم: "إنكم تُدْعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحســنوا أسماءكم". ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أى باستحقاقه الحمـد على الإحياء.

(١) أقنع فلان رأسه: وهو أن يرفع بصره ووجهه إلى ما حيال رأسه من السماء.
(٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٨٤ .		(٣) راجع جـ ١٦ ص ١٥ .

Marfat.com

وقال أبو سهل : أى والحمد لله ؛ كما قال :

فإنى بحمد الله لا ثوب فاجر * لبستُ ، ولا من غدرة أتقنع

وقيل : حامدين لله تعالى بألسنتكم . قال سعيد بن جُبير : تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمدك ؛ ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليـوم . وقال ابن عبـاس[1] : « بحمده » بأمره ؛ أى تقرون بأنه خالق . وقال قتادة ؛ بمعرفته وطاعته . وقيل : المعنى بقدرته . وقيل : بدعائه إياكم . قال علماؤنا : وهو الصحيح ؛ فإن النفخ فى الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور ؛ وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق ، قال الله تعالى : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمـدك . قال : فيوم القيامة يوم يبدأ بالحمد ويُختم به ؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْـدِهِ » وقال فى آخره : «وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»[2] . ﴿ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى بين النفختين ؛ وذلك أن العذاب يُكَفّ عن المعذَّبين بين النفختين ، وذلك أربعون عاما فينامون ؛ فذلك قوله تعالى : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا »[2] فيكون خاصا للكفار . وقال مجاهد : للكافرين هجمة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صيح بأهل القبور قاموا مذعورين . وقال قتادة : المعنى أن الدنيـا تحاقرت فى أعينهم وقلّت حين رأوا يوم القيامة . الحسن : « وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » فى الدنيا لطول لبثكم فى الآخرة .

قوله تعـالى : وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ تقـدم إعرابه[3] . والآية نزلت فى عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه، وسبّه عمر وهمّ بقتله ، فكادت تثير فتنة فأنزل الله تعالى فيه : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » . ذكره الثعلبى والمـاوردى .

(١) فى ج : وسفيان . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٨٤ وص ٣٩ . (٣) راجع ج ٩ ص ٣٦٦ .

Marfat.com

وابن عطية والواحدى . وقيل : نزلت لما قال المسلمون : إيذن لنا يا رسول الله فى قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا ؛ فقال : "لم أومر بعد بالقتال" فأنزل الله تعالى : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ؛ قاله الكلبي . وقيل : المعنى قل لعبادى الذين اعترفوا بأنى خالقهم وهم يعبدون الأصنام ، يقولوا التى هى أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة . وقيل : المعنى وقل لعبادى المؤمنين إذا جادلوا الكفار فى التوحيد ، أن يقولوا الكلمة التى هى أحسن . كما قال : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »(١) . وقال الحسن : هو أن يقول للكافر إذا تشطط : هداك الله! يرحمك الله! وهذا قبل أن أمروا بالجهاد . وقيل : المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به و ينهوا عما نهى الله عنه ؛ وعلى هذا تكون الآية عامة فى المؤمن والكافر ، أى قل للجميع . والله أعلم . وقالت طائفة : أمر الله تعالى فى هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصةً ، بحسن الأدب و إلانة القول ، وخفض الجناح واطّراح نزغات الشيطان ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : "وكونوا عباد الله إخوانا" . وهذا أحسن ، وتكون الآية محكمة .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أى بالفساد و إلقاء العداوة والإغواء . وقد تقدم فى آخر الأعراف(١) و يوسف(٢) . يقال : نزغ بيننا أى أفسد ؛ قاله اليزيدى . وقال غيره النزغ الإغراء . ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أى شديد العداوة . وتقدم فى البقرة(٣) . وفى الخبر "أن قوما جلسوا يذكرون الله عز وجل فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم فمنعته الملائكة فجاء إلى قوم جلسوا قريبا منهم لا يذكرون الله فحرش بينهم فتخاصموا وتواثبوا فقال هؤلاء الذاكرون قوموا بنا نصلح بين إخواننا فقاموا وقطعوا مجلسهم وفرح بذلك الشيطان" . فهذا من بعض عداوته .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٦٠ و ٣٤٧ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٦٧ .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ هذا خطاب للشركين ، والمعنى : إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم ، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم ؛ قاله ابن جُريج . و « أعلم » بمعنى عليم ، نحو قولهم : الله أكبر، بمعنى كبير . وقيل : الخطاب للؤمنين؛ أى إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم؛ قاله الكلبي . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أى وما وكّلناك فى منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم . وقيل : ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم؛ قاله الكلبي . وقال الشاعر .

ذكرت أبا أَرْوَى فبتّ كأنني * بردّ الأمور الماضيات وكيل

أى كفيل .

قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أعاد بعد أن قال: « رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ » ليبيّن أنه خالقهم وأنه جعلهم مختلفين فى أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومالهم؛ « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »(١) . وكذا النبيّون فضّل بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة »(٢) . ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ الزبور : كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ؛ وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد . أى كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن . وهو فى محاجّة اليهود .

قوله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢١٣ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦١ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ لمـا ابتليت قريش بالقحط وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هـذه الآية ؛ أى ادعوا الذين تعبدون من دونه وزعمتم أنهم آلهة . وقال الحسن، يعنى الملائكة وعيسى وعزيرا . ابن مسعود : يعنى الجن . ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ﴾ أى القحط سبع سنين، على قول مقاتل . ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ من الفقر إلى الغنى ومن السَّقم إلى الصحة .

قوله تعـالى : أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ « أُولَٰئِكَ » مبتدأ « الَّذِينَ » صفة « أُولَٰئِكَ » وضمير الصلة محذوف؛ أى يدعونهم . يعنى أولئك المدعوون . و﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ خبر . أو يكون حالا، و «الَّذِينَ يَدْعُونَ» خبر؛ أى يدعون إليه عبادا [أو عباده](١) إلى عبادته . وقرأ ابن مسعود « تدعون » بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر . ولا خلاف فى « يبتغون » أنه بالياء . وفى صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود فى قوله عز وجل : «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ » قال : نفر من الجن أسلموا وكانوا يُعبدون ، فبقى الذين كانو يعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن . فى رواية قال : نزلت فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون و[الإنس](٢) الذين كانوا يعبدونهم لايشعرون؛ فنزلت : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ » . ومنه أيضا أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل العرب؛ ذكره المـاوردى . وقال ابن عباس ومجاهد: عُزير وعيسى . و « يَبْتَغُونَ» يطلبون من الله الزلفة والقربة ، و يتضرعون إلى الله تعـالى فى طلب الجنة، وهى الوسيلة . أعلمهم الله تعـالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم . والهـاء والميم فى « رَبِّهِمْ » تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعا . وأما « يَدْعُونَ » فعلى العابدين . « وَيَبْتَغُونَ » على المعبودين ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ابتـداء وخبر . ويجو ز أن يكون « أَيُّهُمْ أَقْرَبُ »

(١) من ج و و . (٢) زيادة عن صحيح مسلم .

Marfat.com

بدلا من الضمير في «يَبْتَغُونَ» ، والمعنى يبتغي أيهم أقرب الوسيلة إلى الله . ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي مخوفا لا أمان لأحد منه ؛ فينبغي أن يُحذر منـه ويُخاف . وقال سهل بن عبد الله : الرجاء والخوف زمانان على الإنسان ، فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر .

قوله تعالى : وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي مخربوها . ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال مقاتل : أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب. وقال ابن مسعود : إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكهم . فقيـل : المعنى وإن من قرية ظالمة؛ يقوي ذلك قـوله : « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ »(١) . أي فليتق المشركون ، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بهـا العذاب . ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي في اللوح . ﴿مَسْطُورًا﴾ أي مكتوبا . والسطر : الخط والكتابة وهو في الأصل مصدر. والسَّطَرُ بالتحريك، مثله . قال جرير .

من شاء بايعتـه مالي وخُلْعتَـهُ * ما تُكْمِل التَّيْمُ(٢) في ديوانهم سَطَرا

الخلعة « بضم الخاء » : خيار المـال . والسطر جمع أسطار ؛ مثل سبب وأسباب ، ثم يجمع على أساطير . وجمع السطر أسطر وسطور ؛ مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفـوظ .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٠١ . (٢) في ديوان جرير : « ماتكمل الخلج »

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : وما منعنا أن نرسل بالآيات التى اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فُعل بمن كان قبلهم . قال معناه قتادة وابن جريج وغيرهما . فأخّر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمنا . وقد تقدم فى « الأنعام »(١) وغيرها أنهم طلبوا أن يحوّل الله لهم الصَّفَا ذهبا وتُتَنحّى الجبال عنهم ، فنزل جبريل وقال : " إن شئت كان ما سأل قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا و إن شئت استأنيت بهم " . فقال " لا ، بل استأن بهم " . و « أن » الأولى فى محل نصب بوقوع المنع عليهم ، و « أن » الثانية فى محل رفع . والباء فى « بِالْآيَاتِ » زائدة . ومجاز الكلام : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين ، والله تعالى لا يكون ممنوعا عن شيء؛ فالمعنى المبالغة فى أنه لا يفعل ، فكأنه قد منع عنه . ثم بيّن ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ أى آية دالّة مُضيئة نيّرة على صدق صالح ، وعلى قدرة الله تعالى . وقد تقدم ذلك(٢) . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى ظلموا بتكذيبها . وقيل : جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فاستأصلهم الله بالعذاب . ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ فيه خمسة أقوال : الأول — العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل من دلائل الإنذار تخويفا للمكذّبين . الثانى — أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصى . الثالث — أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى مشيب، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك؛ وهذا قول أحمد بن حنبل رضى الله عنه . الرابع — القرآن . الخامس — الموت الذَّريع(٣)؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

(١) راجع ج ٦ ص ٣٨٧ . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٣٨ و ج ٩ ص ٦٠ .
(٣) أى السريع الفاشى لا يكاد الناس يتدافنون .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قال ابن عباس : الناس هنا أهل مكة ، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم ؛ أى أن الله سيهلكهم . وذكره بلفظ الماضى لتحقق كونه . وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح . وقيل : معنى : « أَحَاطَ بِالنَّاسِ » أى أحاطت قدرته بهم ، فهم فى قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته ؛ قاله مجاهد وابن أبى نَجيح . وقال الكلبى : المعنى أحاط علمه بالناس . وقيل : المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالة ربه ؛ أى وما أرسلناك عليهم حفيظا ، بل عليك التبليغ ، فبلّغ بجدك فإنا نعصمك منهم ونحفظك ، فلا تَهَبْهم ، وامض لما آمرك به من تبليغ الرسالة . فقدرتنا محيطة بالكل ؛ قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ لما بيّن أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ضمّ إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخارى والترمذى عن ابن عباس فى قوله تعالى : «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ» قال هى رؤيا عين أُرِيها النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِىَ به إلى بيت المقدس . قال : « وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ» هى شجرة الزقوم . قال أبو عيسى الترمذى : هذا حديث صحيح . وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير والضحاك وابن أبى نَجيح وابن زيد . وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى صلى الله عليه وسلم أنه أُسْرِىَ به . وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضى بفساده ؛ وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها . وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة فى سنة الحُدَيْبِيَة ، فرُدّ فافتتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأنزل الله تعالى : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ »[1] . وفى هذا التأويل ضعف ؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة . وقال فى رواية ثالثة : إنه عليه السلام رأى فى المنام بنى مروان يَنْزُون

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٩ .

Marfat.com

على منبره نَزْو القردَة، فساءه ذلك فقيل : إنما هي الدنيا أعطوها ، فسُرِّيَ عنه، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة. وهذا التأويل الثالث قاله أيضا سهل ابن سعد رضي الله عنه . قال سهل : إنما هذه الرؤيا هي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكا من يومئذ حتى مات صلى الله عليه وسلم . فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم يجعلها الله فتنة للناس وامتحانا . وقرأ الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية : « وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ »(١) . قال ابن عطية : وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية .

قوله تعالى: ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ فيه تقديم وتأخير، أي ماجعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس . وفتنتها أنهم لما خُوِّفوا بها قال ابو جهل استهزاء : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنارُ تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر والزبد، ثم أمر أبو جهل جارية فأحضرت تمرا وزبدا وقال لأصحابه : تزقموا . وقد قيل : إن القائل مانعلم الزقوم إلا التمر والزبد ابن الزِّبَعْرَى حيث قال : كثّر الله من الزقوم في داركم؛ فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن . وجائز أن يقول كلاهما ذلك . فافتتن أيضا لهذه المقالة بعض الضعفاء ؛ فأخبر الله تعالى نبيّه عليه السلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنة واختبارا ليكْفر من سبق عليه الكفر ويصدّق من سبق له الإيمان . كما روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له صبيحة الإسراء : إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس ! فقال : إن كان قال ذلك فقد صدق . فقيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٥٠ .

Marfat.com

قلت : ذكر هذا الخبر ابن إسحاق ، ونصه : « قال كان من الحديث فيما بلغني عن مسراه صلى الله عليه وسلم عن عبدالله بن مسعود وأبي سعيد الخُدْري وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزُّهْري وقتادة وغيرهم من أهل العلم وأم هانئ بنت أبي طالب ، ما اجتمع في هذا الحديث ، كُلٌّ يحدث عن بعض ما ذكر من أمره حين أسرى به صلى الله عليـه وسلم، وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله عز وجل في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق وكان من أمر الله تعـالى على يقين؛ فأسرى به صلى الله عليـه وسلم كيف شاء وكما شاء ليُرِيَه من آياته ماأراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها مايريد. وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول : أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق — وهو الدابة التي كانت تُحمل عليها الأنبياء قبله تضع حافرها في منتهى طرفها — فحمل عليها ؛ ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى آنتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له فصلّى بهم ثم أُتِيَ بثلاثة آنية : إناء فيه لبن و إناء فيه خمر، و إناء فيه ماء. قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فسمعت قائلا يقول حين عُرِضت عليّ إن أخذ المـاء فغَرِق وغَرِقت أمتـه ، وإن أخذ الخمر فَغَوِيَ وغَوَتْ أمتـه و إن أخذ اللبن فهُدِي وهُدِيَتْ أمتـه قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لي جبريل هُدِيتَ وهُدِيتْ أمتك يا محمد " .

قال ابن إسحاق : وحدثت عن الحسن أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بينما أنا نائم في الحِجر جاءني جبريل عليه السلام فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا ثم عُدت لمضجعي فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا فعدت لمضجَعي فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيضُ بين البغل والحمار في فخـذيه جناحان يَحْفِز بهما رجليه يضع حافره في منتهى طَرْفه فحملني عليـه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته " .

Marfat.com

قال ابن إسحاق : وحُدِّثت عن قتادة أنه قال : حُدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما دنوت منه لأركبه شَمَس(١) فوضع جبريل يده على مَعْرَفَته ثم قال ألا تستحي يا بُراق مما تصنع فوالله ما ركبك عبدٌ لله قبل محمد أكرم عليه منه فاستحيا حتى أرفضّ عَرَقا ثم قرّ حتى ركبته " .

قال الحسن فى حديثه : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى معه [جبريل] حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء ، فأمّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بهم ثم أُتِيَ بإناءين : فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن ، قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر . قال : فقال له جبريل : هُديت الفِطْرة وهُديت أمّتُك وحُرِّمت عليكم الخمر . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غدًا على قريش فأخبرهم الخبر ؛ فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البَيِّن ؟ والله إن العير لتطّرد شهرا من مكة إلى الشام ، مدبرةً شهرا ومقبلةً شهرا، فيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة! قال : فارتد كثير ممن كان أسلم؛ وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلّى فيه ورجع إلى مكة . قال فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى، ها هو ذا فى المسجد يحدّث به الناس . فقال أبو بكر : والله إن كان قاله لقد صدق فما يعجّبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه . ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ، أحدّثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال "نعم" قال : يا نبي الله، فصفه لى فإنى قد جئته؟ فقال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رفع لى حتى نظرت إليه " فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبى بكر ويقول أبو بكر رضى الله عنه : صدقت ، أشهد أنك رسول الله كلما

(١) شمست الدابة والفرس تشمس : شردت وجمحت ومنعت ظهرها .

Marfat.com

وصف له منه شيئا قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . قال : حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه : "وأنت يا أبا بكر الصديق" فيومئذ سماه الصديق . قال الحسن : وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن الإسلام لذلك : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا » . فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دخل فيه من حديث قتادة . وذكر باقى الإسراء عمن تقدم فى السيرة . وقال ابن عباس : هذه الشجرة بنو أمية ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم نفى الحكم . وهذا قول ضعيف محدث والسورة مكية ، فيبعد هذا التأويل ، إلا أن تكون هذه الآية مدنية ، ولم يثبت ذلك . وقد قالت عائشة لمروان : لعن الله أباك وأنت فى صلبه فأنت بعض من لعنة الله[1] . ثم قال : « وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ » ولم يجز فى القرآن لعن هذه الشجرة ، ولكن الله لعن الكفار وهم آكلوها . والمعنى : والشجرة الملعونة فى القرآن آكلوها . ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكل طعام مكروه ضار : ملعون . وقال ابن عباس : الشجرة الملعونة هى هذه الشجرة التى تلتوى على الشجر فتقتله ، يعنى الكشوث . ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أى بالزقوم . ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ التخويف إلا الكفر .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ تقدم ذكر كون الشيطان عدو الإنسان ، فانجر الكلام إلى ذكر آدم . والمعنى : اذكر بتمادى هؤلاء المشركين وعتوهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود ، وقال ما قال ، وهو ما أخبر الله تعالى فى قوله تعالى :

(١) هذه عبارة الفخر الرازى . والذى فى الأصول : « فأنت قطط من لعنة الله » . والصواب ما فى النهاية : فأنت فضض من لعنة الله . أى قطعة منها .

Marfat.com

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ أى من طين . وهذا استفهام إنكار . وقد تقدم القول فى خلق آدم فى « البقرة ، والأنعـام » مستوفًى (١) . ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ ﴾ أى قال إبليس . والكاف توكيد للخاطبة . ﴿ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ أى فضّلته على . ورأى جوهر النار خيرا من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة . وقد تقدم هذا فى الأعراف (١) . و « هذا » نصب بأرأيت . « الذى » نعته . والإكرام : اسم جامع لكل ما يحمد . وفى الكلام حذف تقديره : أخبرنى عن هـذا الذى فضلته علىّ ، لم فضلته وقد خلقتنى من نار وخلقته من طين؟ فحذف لعلم السامع . وقيل : لا حاجة إلى تقدير الحذف ؛ أى أترى هـذا الذى كرمته علىّ لأفعلن به كذا وكذا . ومعنى : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ﴾ فى قول ابن عباس : لأستولين عليهم . وقاله الفـراء . مجاهد : لأحتوينّهم . ابن زيد : لأضلنهم . والمعنى متقارب ؛ أى لأستأصلنّ ذريته بالإغواء والإضلال ، ولأجتاحنّهم . وروى عن العرب : احتنك الجراد الزرع إذا ذهب به كلّه . وقيـل : معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودنّهم حيث أردت . من قولهم : حنكت الفـرس أحنِكه وأحنُكه حنكا إذا جعلت فى فيـه الرسن . وكذلك احتنكه . والقول الأول قريب من هذا؛ لأنه إنما يأتى على الزرع بالحنَك . وقال الشاعر :

أشـكوا إليك سنةً قد أجحفت ٭ جهدا إلى جهدٍ بنا وأضعفت
٭ واحتنكت أموالنا واجتلفت (٢) ٭

﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى المعصومين، وهم الذين ذكرهم الله فى قوله : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ (٣) » وإنما قال إبليس ذلك ظنا، كما قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ » أو علم من طبع البشر تركّب الشهوة فيهم، أو بنى على قول الملائكة : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ (١) فِيهَا » . وقال الحسن : ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عزمًا .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ و ١٦١ و جـ ٧ ص ١٦٨ و ١٧١ .
(٢) أى أذهبت .　　(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٩١ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾ هـذا أمر إهانة ؛ أى اجهد جهدك فقـد أنظرناك . ﴿ فَمَن تَبِعَكَ ﴾ أى أطاعك من ذرية آدم . ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ أى وافرا ؛ عن مجاهد وغيره . وهو نصب على المصدر، يقال : وفَرته أفِره وَفْرًا ، ووَفَر المـالُ بنفسه يَفِر وفورا فهو وافر ؛ فهو لازم ومتعدّ .

قوله تعـالى : وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ أى استزلّ واستخِفّ وأصله القطع . ومنه تفزّز الثوب إذا انقطع[(١)] . والمعنى استزلّه بقطعك إياه عن الحق . واستفزّه الخوفُ أى استخفه . وقعد مُسْتَوْفِزًا أى غير مطمئن . « وَٱسْتَفْزِزْ » أمر تعجيز، أى أنت لا تقدر على إضلال أحد، وليس لك على أحد سلطان فآفعل ما شئت .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ وصوته كلُّ داع يدعو إلى معصية الله تعالى ؛ عن ابن عباس . مجاهد : الغناء والمزامير واللهو . الضحاك : صوت المزمار . وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبال، وولد قابيل أسفله ، وفيهم بنات حسان، فزمر اللعين فلم يتمالكوا أن انحدروا فزنَوْا ؛ ذكره الغزنوي . وقيل : « بِصَوْتِكَ » بوسوستك .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبة من السائق؛ يقال : أجلب إجلابا . والجَلَب والجَلَبَة : الأصوات؛ تقول منه : جلّبوا بالتشديد . وجَلَب الشيء يجلبه ويجلُبه جلْبًا وجَلَبا . وجلبت الشيء إلى نفسى واجتلبته بمعنًى . وأجلب على العدو إجلابا؛ أى جمّع عليهم . فالمعنى أجمع عليهم كلما تقدر عليه من مكايدك .

(١) لم نجد فى كتب اللغة « تفزز الثوب » بزايين بهذا المعنى، وإنما هو « تفزر » بزاى ثم راء . فليلاحظ .

Marfat.com

وقال أكثر المفسرين : يريد كل راكب وماشٍ في معصية الله تعالى . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس ، فما كان من راكب وماشٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجّالته . وروى سعيد بن جُبير ومجاهد عن ابن عباس قال : كل خيل سارت في معصية الله، وكل رِجْل مَشَتْ في معصية الله، وكلّ مال أصيب من حرام، وكلّ ولد بَغِيّة فهو للشيطان . والرَّجْل جمع راجل ؛ مثل صَحْب وصاحب . وقرأ حفص « ورَجِلك » بكسر الجيم وهما لغتان ؛ يقال : رَجْل ورَجِل بمعنى راجل . وقرأ عكرمة وقتادة « ورجالك » على الجمع .

الرابعة — ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أي اجعل لنفسك شركة في ذلك . فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله؛ قاله الحسن . وقيل : هي التي أصابوها من غير حِلّها؛ قاله مجاهد . ابن عباس : ما كانوا يحرّمونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحام . وقاله قتادة . الضحاك : ما كانوا يذبحونه لآلهتهم . والأولاد قيل : هم أولاد الزنى ؛ قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس . وعنه أيضا : هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم . وعنه أيضا : هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العُزّى وعبد اللّات وعبد الشمس ونحوه . وقيل : هو صِبغة أولادهم في الكفر حتى هوّدوهم ونصّروهم، كصنيع النصارى بأولادهم بالغمس في الماء الذي لهم ؛ قاله قتادة . وقول خامس — روى عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل ولم يُسَمِّ انطوى الجانّ على إحْلِيله فجامع معه، فذلك قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ »[(1)] وسيأتي . وروى من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن فيكم مُغَرِّبين" قلت : يارسول الله، وما المغرّبون ؟ قال : "الذين يشترك فيهم الجن". رواه الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) . قال الهَرَوِي : سموا مغرّبين لأنه دخل فيهم عرق غريب . قال الترمذي الحكيم : فللجن مساماة[(2)] بابن آدم في الأمور والاختلاط ؛ فمنهم من يتزوج فيهم ، وكانت بِلْقِيس ملكة سَبَأ أحد أبويها من الجن . وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

(1) راجع جـ ١٧ ص ١٨٠ وص ١٨٨ .
(2) المساماة : المباراة والمفاخرة . مسألة التزاوج بين الإنس والجن لا يقرها العلم . محققه .

Marfat.com

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ أى منّهم الأمانى الكاذبة ، وأنه لا قيامة ولاحساب، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فأنتم أولى بالجنة من غيركم. يقوّيه قوله تعالى: « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً » (١) أى باطلا . وقيل : «وَعِدْهُمْ» أى عِدهم النُّصرة على من أرادهم بسوء . وهـذا الأمر للشيطان تهدّد ووعيد له . وقيل : استخفاف به وبمن اتبعه .

السادســة — فى الآية ما يدلّ على تحريم المزامير والغناء واللهو ؛ لقوله : « وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم » على قول مجاهد . وما كان من صوت الشيطان أو فعله وما يستحسنه فواجب التنزه عنـه . وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمّارة فوضع أصبعيه فى أذنيـه، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول : يا نافع ! أتسمع؟ فأقول نعم؛ فمضى حتى قلت له لا، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع [صوت] زمّارة راع فصنع مثل هذا . قال علماؤنا : إذا كان هذا فعلهم فى حق صوت لا يخرج عن الاعتدال، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزمرهم. وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « لقمان » (٢) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال ابن عباس : هم المؤمنون . وقد تقـدّم الكلام فيه (٣) . ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أى عاصما من القبول من إبليس، وحافظا من كيده وسوء مكره .

قوله تعالى : رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٢٠ (٢) راجع جـ ١٤ ص ٥١ فما بعد . (٣) راجع ص ٢٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْـرِ ﴾ الإزجاء : السوق ؛ ومنـه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَابًا »(١) . وقال الشاعر(٢) :

يأيهـا الراكب المُـزْجِى مطيّتَـه * سائل بنى أَسَد ما هذه الصَّوْتُ

وإزجاء الفلك : سـوقه بالريح اللينة . والفلك هنا جمع ، وقد تقدّم(٣) . والبحر المـاء الكثير عذبا كان أو ملحا ، وقد غلب هـذا الاسم على المشهور(٤) . وهـذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ؛ أى ربكم الذى أنعم عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئا . ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى فى التجارات . وقد تقدم(٣) . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ .

قوله تعـالى : وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ﴾ « الضُّرُّ » لفظ يعم خوف الغرق والإمساك عن الجرْى ، وأهوال حالاته اضطرابه وتموّجه . ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ « ضَـلَّ » معناه تَلِف وفُقِـد؛ وهى عبارة تحقير لمن يدعى إلهـا من دون الله . والمعنى فى هذه الآية: أن الكفار إنمـا يعتقدون فى أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلا، وكلّ واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها فى الشدائد العظام، فوقّفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أى عن الإخلاص . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ الإنسان هنا الكافر . وقيل : وطبع الإنسان كفورا للنعم إلا من عصمه الله ؛ فالإنسان لفظ الجنس .

قوله تعـالى : أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِـلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَـكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٨٧ فـا بعد .
(٢) هو رويشد بن كثير الطائى ؛ كما فى اللسان .
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ ، وص ٤١٣ .
(٤) كذا فى الأصول . أى البحر الملح .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ بيّن أنه قادر على هلاكهم فى البر وإنْ سلموا من البحر . والخَسْف : أن تنهار الأرض بالشىء؛ يقال : بئر خسيف إذا انهدم أصلها . وعين خاسف أى غارت حدقتها فى الرأس . وعَيْنٌ من المـاء خاسفة أى غار ماؤها . وخَسفت الشمس أى غابت عن الأرض (١) . وقال أبو عمرو : والخسيف البئر التى تحفر فى الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرةً . والجمع خُسُف . وجانب البر : ناحية الأرض؛ وسماه جانبا لأنه يصير بعـد الخسف جانبا . وأيضا فإن البحر جانب والبَرّ جانب . وقيـل : إنهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البر، وكانوا فيـه آمنين من أهوال البحر، فحذّرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ يعنى ريحا شديدة، وهى التى تَرْمى بالحصباء ، وهى الحصى الصغار ؛ قاله أبو عبيـدة والقُتَبِىّ . وقال قتادة : يعنى حجارة من السماء تَحصبهم ، كما فعـل بقوم لوط . ويقال للسحابة التى ترمى بالبَرَد : حاصب، وللريح التى تحمل التراب والحصباء حاصب وحَصِبة أيضا . قال لبيد :

جرّت عليها أن خَوَتْ من أهلها * أذيالَهـا كلُّ عَصُوفٍ حَصِبه

وقال الفرزدق :

مستقبلين شَمَال الشام يضربنـا * بحاصبٍ كنَديف القطن منثور

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ (٦٩)

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ يعنى فى البحر . ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ ﴾ القاصف : الريح الشديدة التى تكسر بشدة؛ من قَصَف الشىء يقصِفه؛ أى كسره بشـدة . والقصف : الكسر؛ يقال : قصفت الريح السفينة . وريح قاصف :

(١) أولى أن يقال : غاب نورها .

Marfat.com

شديدة . ورعد قاصف : شديد الصوت . يقال : قصف الرعدُ وغيرُه قصيفا . والقصيف : هشيم الشجر . والتقصّف التكسر . والتقصف أيضا : اللهو واللعب ، يقال : إنها مُولّدة . ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أى بكفركم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ، «نَخْسِفَ بِكُم» «أَوْ نُرْسِلَ عَلَيْكُمْ» «أن نعيدكم» «فَنُرْسِلَ عَلَيْكُمْ» «فنغرقكم» بالنون فى الخمسة على التعظيم ، ولقوله : «علينا» الباقون بالياء ؛ لقوله فى الآية قبل : «إياه» . وقرأ أبو جعفر وشيبة ورُوَيْس ومجاهد «فتغرقكم» بالتاء نعتا للريح . وعن الحسن وقتادة «فيغرّقكم» بالياء مع التشديد فى الراء . وقرأ أبو جعفر «الرياح» هنا وفى كل القرآن . وقيل : إن القاصف المهلكة فى البر، والعاصف المغرقة فى البحر ؛ حكاه الماوردى . وقوله : ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ قال مجاهد : ثائرا . النحاس : وهو من الثأر . وكذلك يقال لكل من طلب بثأر أو غيره : تبيع وتابع ؛ ومنه «فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ»[1] أى مطالبة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

فيه ثلاث مسائل[2] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الآية . لما ذكر من الترهيب ما ذكر بيّن النعمة عليهم أيضا . «كَرَّمْنَا» تضعيف كرم ؛ أى جعلنا لهم كرما أى شرفا وفضلا . وهذا هو كرم نفى النقصان لا كرم المال . وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة فى امتداد القامة وحسن الصورة ، وحملهم فى البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بنى آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره . وتخصيصهم بما خصّهم به من المطاعم والمشارب والملابس ؛ وهذا لا يتسع فيه حيوان آتساع بنى آدم ؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، و يلبسون الثياب ويأكلون المركّبات من الأطعمة . وغاية كلّ حيوان يأكل لحما نيئا أو طعاما غير

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٤٤ . (٢) يلاحظ أن المسائل أربع .

Marfat.com

مركب . وحكى الطبرى عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيده وسائر الحيوان بالفم .
وروى عن ابن عباس ؛ ذكره المهدوى والنحاس ؛ وهو قول الكلبى ومقاتل ؛ ذكره
الماوردى . وقال الضحاك : كرّمهم بالنطق والتمييز . عطاء : كرّمهم بتعديل القامة
وامتدادها . يمان : بحسن الصورة . محمد بن كعب : بأن جعل محمدا صلى الله عليه وسلم منهم .
وقيل : أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب . وقال محمد بن جرير الطبرى : بتسليطهم على سائر
الخلق ، وتسخير سائر الخلق لهم . وقيل : بالكلام والخط . وقيل : بالفهم والتمييز . والصحيح
الذى يعوّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويُفهم
كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ؛ إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت
الرسل وأنزلت الكتب . فمثال الشرع الشمس ، ومثال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت
سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء . وما تقدّم من الأقوال بعضه أقوى من
بعض . وقد جعل الله فى بعض الحيوان خصالا يفضل بها ابن آدم أيضا ؛ كجرى الفرس
وسمعه وإبصاره ، وقوّة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك . وإنما التكريم والتفضيل بالعقل
كما بيناه . والله أعلم .

الثانيـة ــ قالت فرقة : هذه الآية تقتضى تفضيل الملائكة على الإنس والجن من
حيث إنهم المستثنون فى قوله تعالى : «وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ»(1) . وهذا غير لازم من الآية ،
بل التفضيل فيها بين الإنس والجن ؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بنى آدم ما خصهم به
من سائر الحيوان ، والجن هو الكثير المفضول ، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول ،
ولم تتعرض الآية لذكرهم ، بل يحتمل أن الملائكة أفضل ، ويحتمل العكس ، ويحتمل
التساوى ، وعلى الجملة فالكلام لا ينتهى فى هذه المسألة إلى القطع . وقد تحاشى قوم من
الكلام فى هذا كما تحاشوا من الكلام فى تفضيل بعض الأنبياء على بعض ؛ إذ فى الخبر
" لا تخايروا بين الأنبياء ولا تفضلونى على يونس بن متّى " . وهذا ليس بشئ ؛ لوجود

---

(1) راجع جـ ٦ ص ٢٦ .

Marfat.com

النص فى القرآن فى التفضيل بين الأنبيـاء . وقد بيناه فى « البقـرة »[(١)] ومضى فيهـا الكلام فى تفضيل الملائكة والمؤمن[(٢)] .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعنى لذيذ المطاعم والمشارب . قال مقاتل : السمن والعسـل والزبد والتمر والحلوى ، وجعـل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أى على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء ، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفراسة .

الرابعــة — هذه الآية تردّ ما روى عن عائشـة رضى الله عنها ، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احرموا أنفسكم طيّب الطعام فإنما قوى الشيطان أن يجرى فى العروق منها" . وبه يستدلّ كثير من الصوفيـة فى ترك أكل الطيبات ، ولا أصـل له ؛ لأن القرآن يردّه ، والسنة الثابتة بخلافه ، على ما تقرر فى غير موضع . وقد حكى أبو حامد الطوسىّ قال : كان سهل يقتات ورق النّبق مدة ، وأكل دُقاق ورق التـبن ثلاث سـنين . وذكر إبراهيم ابن البنّا قال : صحبت ذا النّون من إخميم إلى الإسكندرية ، فلما كان وقت إفطاره أخرجت قرصا ومِلْحًا كان معى ، وقلت : هَلُمّ . فقال لى : ملحك مدقوق ؟ قلت نعم . قال : لست تُفلح ! فنظرت إلى مِزْوَده وإذا فيه قليل سَوِيق شعير يستفّ منه . وقال أبو يزيد : ما أكلت شيئا ممـا يأكله بنو آدم أربعين سنة . قال علماؤنا : وهـذا ممـا لا يجوز حمل النفس عليه ؛ لأن الله تعـالى أكرم الآدمىّ بالحنطة وجعل قشورها لبهائمهم ، فلا يصح مزاحمة الدواب فى أكل التبن ، وأما سَويق الشعير فإنه يورث القُولَنْج[(٣)] ، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجريش فإنه ينحرف مِزاجه ؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف ، والملح يابس قابض يضر الدّماغ والبصر . وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمُنعت فقد قوومت حكمة البارئ سبحانه بردّها ، ثم يؤثر ذلك فى البدن ، فكان هـذا الفعل مخالفا للشرع والعقل . ومعلوم أن البـدن

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٦١ . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ . (٣) القولنج : مرض معوى مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح ، معرب .

Marfat.com

مطية الآدمى، ومتى لم يرفق بالمطية لم تبلّغ . وروى عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبدا وعسلا وخبز حُوّارى ، فقيل له : هذا كله ؟ فقال : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال . وكان الثورى يأكل اللحم والعنب والفالوذج[(١)] ثم يقوم إلى الصلاة . ومثل هذا عن السلف كثير . وقد تقدم منه ما يكفى فى المائدة[(٢)] والأعراف[(٣)] وغيرهما . والأول غلوّ فى الدين إن صح عنهم . « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ[(٤)] » .

قوله تعالى : يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ » قال : " يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويُمدّ له فى جسمه ستون ذراعا ، ويُبيّض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا فى هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل منكم مثلُ هذا — قال — وأما الكافر فيسوّد وجهه ويمدّ له فى جسمه ستون ذراعا على صورة آدم ويلبس تاجا فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا ! اللهم لا تأتنا بهذا . قال : فيأتيهم فيقولون اللهم أخزه . فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . ونظير هذا قوله : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[(٥)] » . والكتاب يسمى إماما؛ لأنه يُرجع إليه فى تعرّف أعمالهم . وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : « بِإِمَامِهِمْ » أى بكتابهم، أى بكتاب كلّ إنسان منهم الذى فيه عمله ؛ دليله « فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » . وقال ابن زيد : بالكتاب المنزل عليهم . أى يدعى كل إنسان

(١) الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل . وفيه لغات (عن الألفاظ الفارسية) .
(٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٠ .
(٣) راجع ج ٧ ص ١٩٥ .
(٤) راجع ج ١٧ ص ٢٦٢ فما بعد .
(٥) راجع ج ١٦ ص ١٧٤ .

Marfat.com

بكتابه الذى كان يتلوه ؛ فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ، فيقال : يأهل القرآن ، ماذا عملتم ، هل امتثلتم أوامره هل اجتنبتم نواهيه ! وهكذا. وقال مجاهد : «بِإِمَامِهِمْ» بنبيهم ، والإمام من يؤتم به . فيقال : هاتوا متّبِعِي إبراهيم عليه السلام ، هاتوا متبعى موسى عليه السلام ، هاتوا متبعى الشيطان ، هاتوا متبعى الأصنام . فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم . وقاله قتادة . وقال علىّ رضى الله عنه : بإمام عصرهم . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ» فقال : "كلٌّ يدعى بإمام زمانهم وكتابِ رَبِّهم وسنّةِ نبيّهم فيقول هاتوا متبعى إبراهيم هاتوا متبعى موسى هاتوا متبعى عيسى هاتوا متبعى محمد — عليهم أفضل الصلوات والسلام — فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم و يقول هاتوا متبعى الشيطان هاتوا متبعى رؤساء الضلالة إمامَ هدًى و إمامَ ضلالة" . وقال الحسن وأبو العالية : «بِإِمامِهِم» أى بأعمالهم . وقاله ابن عباس فيقال : أين الراضون بالمقدور ، أين الصابرون عن المحذور . وقيل : بمذاهبهم ؛ فيُدْعَوْن بمن كانوا يأتمون به فى الدنيا : ياحنفىّ ، ياشافعىّ ، يامعتزلىّ ، ياقدرىّ ، ونحوه ؛ فيتبعونه فى خير أو شر أو على حق أو باطل ، وهذا معنى قول أبى عبيدة . وقد تقدّم . وقال أبو هريرة : يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة ، وأهل الجهاد من باب الجهاد ... ، الحديث بطوله . أبو سهل : يقال أين فلان المصلّى والصوّام ، وعكسه الدّفاف[1] والنمام . وقال محمد بن كعب : « بِإِمَامِهِمْ » بأمهاتهم . و إمام جمع آمّ . قالت الحكماء : وفى ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة ؛ أحدها — لأجل عيسى . والثانى — إظهار لشرف الحسن والحسين . والثالث — لئلا يفتضح أولاد الزنى .

قلت : وفى هذا القول نظر ؛ فإن فى الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال هذه غَدْرة فلان بن فلان " خرّجه مسلم والبخارى . فقوله : " هذه غَدْرة فلان بن فلان "

(١) الدفاف : الضارب بالدف . وفى الأصول : « الزفاف » بالزاى المعجمة .

Marfat.com

دليلٌ على أن الناس يُدْعَوْن فى الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وهذا ردّ على من قال : إنما يُدْعَوْن بأسماء أمهاتهم لأن فى ذلك سترًا على آبائهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ هذا يقوّى قول من قال : « بِإِمَامِهِمْ » بكتابهم . ويقوّيه أيضا قوله تعالى : « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ »(١) . ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ الفتيل الذى فى شق النواة . وقد مضى فى « النساء »(٢) .

قوله تعالى : وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ ﴾ أى فى الدنيا عن الاعتبار و إبصار الحق . ﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى فى أمر الآخرة ﴿ أَعْمَىٰ ﴾ . وقال عكرمة : جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال : اقرءوا ما قبلها . « رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ(٣) — إلى — تَفْضِيلًا » . قال ابن عباس : من كان فى هذه النعم والآيات التى رأى أعمى فهو عن الآخرة التى لم يعاين أعمى وأضل سبيلا . وقيل : المعنى من عمى عن النعم التى أنعم الله بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى . وقيل : المعنى من كان فى الدنيا التى أُمهل فيها وفُسّح له ووُعِد بقبول التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى . وقال الحسن : من كان فى هذه الدنيا كافرا ضالا فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا . وقيل : من كان فى الدنيا أعمى عن حجج الله بعثه الله يوم القيامة أعمى ؛ كما قال : « وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ(٤) » الآيات . وقال : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » . وقيل : المعنى فى قوله : « فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ » فى جميع الأقوال : أشدّ عمًى ؛ لأنه من عَمَى القلب ، ولا يقال مثله فى عَمَى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خِلقة بمنزلة

(١) راجع جـ ١٥ ص ١١ فما بعد .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٤٨ .

(٣) راجع ص ٢٩٠ فما بعد من هذا الجزء .

(٤) راجع جـ ١١ ص ٢٥٧ فما بعد .

Marfat.com

اليـد والرِّجل، فلم يقل ما أعماه كما لا يقـال ما أيداه . الأخفش : لم يقل فيـه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعْمَى(١) . وقد أجاز بعض النحو بين ما أعماه وما أعشاه ؛ لأن فعـله عَمِي وعَشِيَ . وقال الفراء : حدثني بالشام شيخ بصرى أنه سمع العـرب تقول : ما أسود شعره . قال الشاعر :

ما في المعـالى لكم ظل ولا ثمـر * وفى المخازى لكم أشباح أشياخ

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهـم * لؤما وأبيضهم سِرْبال طبّـاخ

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائيّ وخلف الحرفين « أعمى » و « أعمى » وفتح الباقون . وأمال أبو عمرو الأوّل وفتح الثاني . ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ يعني أنه لا يجد طريقا إلى الهداية .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾

قال سعيد بن جبير : كان النبيّ صلى الله عليـه وسلم يستلم الحجر الأسود فى طوافه، فمنعته قريش وقالوا: لا ندعك تستلم حتى تُلِمّ بآلهتنا . فحدّث نفسه وقال: "ما علىّ أن أُلِمّ بها بعد أن يَدَعُوني أستلم الحجر والله يعلم أني لها كاره" فأبى الله تعـالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى وفد ثَقِيف، أتوا النبيّ صلى الله عليه سلم فسألوه شططا وقالوا : متّعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يُهْدَى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وحَرّم وادينا كما حَرمت مكة، حتى تعرف العـرب فضلنا عليهم ؛ فهَمّ رسـول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية . وقيل : هو قول أكابر قريش للنبيّ صلى الله عليه وسلم : اطرد عنا هؤلاء السُّقّاط والموالى حتى نجلس معك ونسمع منك؛ فهمّ بذلك حتى نُهِى عنه . وقال قتادة : ذكر لنا أن قريشا خَلَوْا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه، ويسوّدونه ويقاربونه ؛ فقالوا : إنك تأتى بشىء لا يأتى به أحد من الناس، وأنت سيّدنا ياسيّدنا ؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون،

(١) كذا فى الأصل : ولعل الحق : عمى ؛ لأن فعله عمى كما قال نفطويه : يقال عمى عن رشده . ومنه يصاغ أفعل التفضيل .

Marfat.com

ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية. ومعنى. ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ أي يزيلونك. يقال: فتنتُ الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه؛ قاله الهروي. وقيل: يصرفونك، والمعنى واحد. ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي حكم القرآن؛ لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن. ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أي لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك، وهو قول ثقيف: وحرّم وادينا كما حرمت مكة، شجرها وطيرها ووحشها، فإن سألتك العرب لم خصصتهم فقل الله أمرني بذلك حتى يكون عذرا لك. ﴿وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلا، أي والوك وصافوك؛ مأخوذ من الخلة (بالضم) وهي الصداقة لممايلته لهم. وقيل: «لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا» أي فقيرا. مأخوذ من الخَلّة (بفتح الخاء) وهي الفقر لحاجته إليهم.

قوله تعالى: وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ أي على الحق وعصمناك من موافقتهم. ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أي تميل. ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أي ركونا قليلا. قال قتادة: لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام: "اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين". وقيل: ظاهر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وباطنه إخبار عن ثقيف. والمعنى: وإن كادوا ليركنونك، أي كادوا يخبرون عنك بأنك ملت إلى قولهم؛ فنسب فعلهم إليه مجازا وآتساعا؛ كما تقول لرجل: كدت تقتل نفسك، أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت؛ ذكره المهدوي. وقيل: ما كان منه همّ بالركون إليهم، بل المعنى: ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل إلى موافقتهم، ولكن تمّ فضل الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشيري. وقال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه.

Marfat.com

وقوله : ﴿ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أى لو ركنت لأذقناك مثلى عذاب الحياة فى الدنيا ومثلى عذاب الممات فى الآخرة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وهذا غاية الوعيد . وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم . قال الله تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ »(١) وضعف الشيء مثله مرتين، وقد يكون الضِّعف النصيب؛ كقوله عز وجل: «لِكُلٍّ ضِعْفٌ» أى نصيب . وقد تقدّم فى الأعراف(٢) .

قوله تعالى : وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦)

هذه الآية قيل : إنها مدنية ؛ حسبما تقدّم فى أوّل السورة . قال ابن عباس حسدت اليهود مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام، فإن كنت نبيا فالحق بها ؛ فإنك إن خرجت إليها صدقناك وآمنا بك؛ فوقع ذلك فى قلبه لما يحب من إسلامهم ، فرحل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن غنم : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما نزل تبوك نزل ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ بعد ما ختمت السورة ، وأمر بالرجوع . وقيل : إنها مكية . قال مجاهد وقتادة : نزلت فى همّ أهل مكة بإخراجه، ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج، وهذا أصح؛ لأن السورة مكية، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة، ولم يجر لليهود ذكر . وقوله : «مِنَ الأرض» يريد أرض مكة . كقوله : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ »(٣) أى أرض مصر؛ دليله : «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ»(٤) يعنى مكة . معناه . هم أهلها بإخراجه؛ فلهذا أضاف إليها(٥) وقال « أخرجتك » . وقيل : همّ الكفار كلّهم أن يستخفوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه فمنعه الله ، ولو أخرجوه

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٧٣ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٥ . (٣) راجع جـ ٩ ص ٢٤١ فما بعد .
(٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٥ . (٥) فى الأصول : « إليهم » وهو تحريف .

Marfat.com

من أرض العرب لم يُمْهَلوا، وهو معنى قوله : ﴿ وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وقرأ عطاء ابن أبى رَباح « لا يلبثون » الباء مشددة . « خَلْفَك » نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو ، ومعناه بعـدك . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى « خلافك » واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ»(١) ومعناه أيضا بعدك ؛ قال الشاعر :

عَفَت الديار خـلافهم فكأنما * بسط الشَّـواطِبُ بينهن حَصِيرا

بسط البواسط ، فى المـاوردى . يقال : شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منه الحصر . قال أبو عبيد : ثم تُلقيه الشاطبة إلى المُنَقِّية . وقيـل : « خلفك » بمعنى بعدك . « وخلافك » بمعنى مخالفتك ؛ ذكره ابن الأنبارى . « إِلَّا قَلِيلًا » فيه وجهان : أحدهما — أن المدة التى لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر ؛ وهذا قول من ذكر أنهم قريش . الثانى — ما بين ذلك وقتل بنى قُرَيظة وجلاء بنى النضير ؛ وهذا قول من ذكر أنهم اليهود .

قوله تعـالى : سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْـوِيلًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ أى يعذّبون كسنة من قد أرسلنا ، فهو نصب بإضمار يعذبون ؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل ؛ قاله الفرّاء . وقيل : انتصب على معنى سنَنّا سنة من قد أرسلنا . وقيل : هو منصوب على تقدير حذف الكاف ؛ التقـدير لا يلبثون خلفك إلا قليلا كسنة من قد أرسلنا ؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله : «إِلَّا قَلِيلًا» و يوقف على الأول والثانى . « قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا » وقف حسن . ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ أى لا خُلف فى وعدها .

قوله تعـالى : أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٦ .

Marfat.com

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ لما ذكر مكايد المشركين أمر نبيّه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة ، وفيها طلب النصر على الأعداء . ومثله « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ »[1] . وتقدم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة[2] . وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة . واختلف العلماء في الدلوك على قولين : أحدهما — أنه زوال الشمس عن كبد السماء؛ قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم . الثاني — أن الدلوك هو الغروب؛ قاله عليّ وابن مسعود وأُبيّ بن كعب ، وروى عن ابن عباس . قال الماوردي : من جعل الدُّلوك اسما لغروبها فلأن الإنسان يدلك عينيه براحته لتبيّنها حالة المغيب ، ومن جعله اسما لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشدة شعاعها . وقال أبو عبيد : دلوكها غروبها . ودلكَتْ بَراح يعني الشمس؛ أي غابت . وأنشد قُطْرب :

هـذا مُقامُ قدمى رَباحِ * ذَبَّبَ حتى دَلكتْ بَراحِ

براح (بفتح الباء) على وزن حذَام وقطام ورقاش آسم من أسماء الشمس[3] . ورواه الفراء (بكسر الباء[4]) وهو جمع راحة وهي الكف؛ أي غابت وهو ينظر إليها وقد جعل كفه على حاجبه . ومنه قول العَجّاج :

والشمس قد كادت تكون دَنَفَا * أدفعها بالراح كى تَزَحْلَفَا

قال ابن الأعرابي : الزُّحلوفة مكان منحدر أملس ، لأنهم يتزحلفون فيه . قال : والزَّحلفة كالدحرجة والدفع ؛ يقال : زحلفتُه فتَزَحْلَف . ويقال : دلكت الشمس إذا غابت . قال ذو الرُّمّة :

مصابيح ليست باللواتى تقودها * نجومٌ ولا بالآفلات الدوالك

(١) راجع ص ٦٤ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ١ ص ١٦٤ .
(٣) كذا في الأصول . والصواب من أسماء النساء .
(٤) أي باء الجر .

Marfat.com

قال ابن عطية : الدلوك هو الميل — فى اللغـة — فأول الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب . ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا، لأنها فى حالة ميل . فذكر الله تعالى الصلوات التى تكون فى حالة الدلوك وعنده؛ فيدخل فى ذلك الظهر والعصر والمغرب، و يصح أن تكون المغرب داخلة فى غَسَق الليل . وقد ذهب قوم إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب ؛ لأن الله سبحانه علق وجوبها على الدلوك، وهـذا دلوك كله، قاله الأوزاعى وأبو حنيفة فى تفصيل . وأشار إليه مالك والشافعى فى حالة الضرورة .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال : دلوك الشمس ميلها، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته . وقال أبو عبيدة : الغسق سواد الليل . قال ابن قَيْس الرُّقَيَّات :

إن هــذا الليل قد غَسَقَا * واشتكيْتُ الهَـمّ والأَرَقَا

وقد قيل : غسق الليل مغيب الشفق . وقيل : إقبال ظلمته . قال زهير :

ظلّت تجـود يداها وهى لاهية * حتى إذا جنح الإظلام والغسق

يقال : غسق الليل غسوقا . والغَسَق آسم بفتح السين . وأصل الكلمة من السيلان؛ يقال : غَسَقت العين إذا سالت، تَغسِق . وغَسَق الجرح غَسَـانا، أى سال منه ماء أصفر. وأغسق المؤذن، أى أخر المغرب إلى غَسَق الليل . وحكى الفراء : غَسَق الليـل وأغسق، وظـلم وأظلم، ودجا وأدجى، وغَبَس وأغبس وغَبِش وأغبش . وكان الربيع بن خُثَيم[(1)] يقول لمؤذنه فى يوم غَيْم : أغسق أغسق . يقول : أخر المغرب حتى يَغسق الليل، وهو إظلامه .

الثالثـــة — اختلف العلماء فى آخر وقت المغرب؛ فقيل : وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس، وذلك بَيّنٌ فى إمامة جبريل؛ فإنه صلاها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشمس، وهو الظـاهر من مذهب مالك عنـد أصحابه . وهو أحد قولى الشافعى فى المشهور عنه أيضا، و به قال الثورى . وقال مالك فى الموطأ : فإذا غاب الشفق فقد خرجتَ من وقت المغرب ودخل وقت العشاء . وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن

(١) هذا ضبط التقريب، والذى فى الخلاصة : بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة وهذا هو المشهور .

Marfat.com

ابن حيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله . ولحديث أبي موسى، وفيه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى بالسائل المغرب في اليوم الثاني فأخّر حتى كان عند سقوط الشفق ؛ خرجه مسلم . قالوا : وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل ؛ لأنه متأخر بالمدينــة وإمامة جبريل بمكة ، والمتأخر أولى من فعله وأمره ؛ لأنه ناسخ لمـا قبله . وزعم ابن العربيّ أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك، وقوله في موطئه الذي أقرأه طول عمره وأملاه في حياته .

والنكتة في هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها؟ والأقوى في النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها لئلا يكون ذكرها لغوا فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر في تعلقه بالكلّ إلى الآخر .

قلت القول بالتّوسعة أرجح . وقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمـد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قريبا من غروب الشمس فلم يُصَلّ المغرب حتى أتى سَرِف ، وذلك تسعة أميال . وأما القــول بالنسخ فليس بالبيّن وإن كان التـاريخ معلوما ؛ فإن الجمع ممكن . قال علماؤنا : تُحمل أحاديث جبريل على الأفضلية في وقت المغرب، ولذلك اتفقت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليهـا في حين غروب الشمس . قال ابن خُوَيْز مَنْـدَاد : ولا نعلم أحدا من المسلمين تأخّر بإقامة المغرب في مسجد جمـاعة عن وقت غروب الشمس . وأحاديث التّوســعة تبين وقت الجواز ، فيرتفع التعارض ويصح الجمع ، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين ؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين ، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما . والله أعلم .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ﴾ انتصب « قُرْآنَ » من وجهين : أحدهما أن يكون معطوفا على الصلاة؛ المعنى : وأقم قرآن الفجر أي صلاة الصبح؛ قاله الفراء . وقال أهل البصرة : انتصب على الإغراء؛ أي فعليك بقرآن الفجر؛ قاله الزجاج . وعبّر عنها بالقرآن

Marfat.com

خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور؛ عن الزجاج أيضا .

قلت : وقد استقر عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة فى الصبح قدرا لا يضر بمن خلفه — يقرأ فيها بطوال المفصّل، ويليها فى ذلك الظهر والجمعة — وتخفيف القراءة فى المغرب وتوسطها فى العصر والعشاء . وقد قيل فى العصر : إنها تخفّف كالمغرب . وأما ما ورد فى صحيح مسلم وغيره من الإطالة فيما استقر فيه التقصير، أو من التقصير فيما استقرت فيه الإطالة؛ كقراءته فى الفجر المعوذتين — كما رواه النسائى — وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور فى المغرب، فمتروك بالعمل؛ ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمّ قومه فى العشاء فافتتح سورة البقرة . خرّجه الصحيح . وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال : "أيها الناس إن منكم منفّرين فأيكم أمّ الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة" . وقال "فإذا صلّى أحدكم وحده فليطوّل ماشا" . كله مسطور فى صحيح الحديث .

الخامســة — قوله تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سمّى الصلاة قرآنا . وقد اختلف العلماء فى القراءة فى الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفذّ فى كل ركعة . وهو مشهور قول مالك . وعنه أيضا أنها واجبة فى جُلّ الصلاة . وهو قول إسحاق . وعنه أيضا تجب فى ركعة واحدة؛ قاله المغيرة وسُحْنون . وعنه أن القراءة لا تجب فى شىء من الصلاة . وهو أشذ الروايات عنه . وحكى عن مالك أيضا أنها تجب فى نصف الصلاة، وإليه ذهب الأوزاعى . وعن الأوزاعى أيضا وأيوب أنها تجب على الإمام والفذ والمأموم على كل حال . وهو أحد قولى الشافعى . وقد مضى فى (الفاتحة)[1] مستوفى .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » قال : "تشهده

(١) راجع جـ ١ ص ١١٧ فما بعد .

Marfat.com

ملائكة الليل وملائكة النهار " هذا حديث حسن صحيح . ورواه علىّ بن مُسْهِر عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة وأبى سعيد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وروى البخارىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " فَضْلُ صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح " . يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » . ولهذا المعنى يُبَكَّر بهذه الصلاة، فمن لم يبكر لم تشهد صلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة . ولهـذا المعنى أيضا قال مالك والشافعىّ : التغليس بالصبح أفضل . وقال أبو حنيفة : الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار، فإن فاته ذلك فالإسفار أولى من التغليس . وهـذا مخالف لما كان عليه السلام يفعله من المداومة على التغليس، وأيضا فإن فيه تفويت شهود ملائكة الليل . والله أعلم .

السابعة — استدلّ بعض العلماء بقوله صلى الله عليه وسلم : " تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار " على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار .

قلت : وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضا لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار؛ فإن فى الصحيح عن النبىّ الفصيح عليه السلام فيما رواه أبو هريرة : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر " الحديث . ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك ، وإنما هى من النهار كالعصر بدليل الصيام والأيمان، وهذا واضح .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ « من » للتبعيض . والفاء فى قوله : « فَتَهَجَّدْ » ناسقة على مضمر، أى قم فتهجد . ﴿ بِهِ ﴾ أى بالقرآن . والتَّهَجُّد من الهجود وهو من الأضداد . يقال : هجد نام، وهجد سهر؛ على الضد . قال الشاعر :

Marfat.com

ألا زارَتْ وأهلُ مِنًى هجود * وليت خيالها بمنًى يعـود

آخـــر :

ألّا طرقتنا والرفـاق هجـود * فباتت بِعَلّاتِ النوالِ تجـود[(1)]

يعني نيـاما . وهجد وتهجد بمعنًى . وهجدته أى أنمته ، وهجّدته أى أيقظته . والتهجّد التيقظ بعد رَقْدة ، فصار اسما للصـلاة ؛ لأنه ينتبه لها . فالتهجد القيام إلى الصلاة من النوم . قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم . وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث الحجاج بن عمر صاحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل كلّه أنه قد تهجد ! إنمـا التهجد الصلاة بعـد رَقْدة ثم الصلاة بعد رَقْدة ثم الصلاة بعد رقدة . كذلك كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : الهجود النوم . يقال : تهجد الرجل إذا سَهِر ، وألقى الهجود وهو النوم . ويسمى من قام إلى الصلاة متهجدا ؛ لأن المتهجد هو الذى يُلقي الهجود الذى هو النـوم عن نفسه . وهـذا الفعل جارٍ مجرى تحوّب وتحرّج وتأثم وتحنّث وتقذّر وتنجّس ؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه . ومثله قوله تعـالى : « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ »[(2)] معنـاه تندمونَ ؛ أى تطرحون الفكاهة عن أنفسكم ؛ وهى انبسـاط النفوس وسرورها . يقال : رجل فكِه إذا كان كثير السرور والضحك . والمعنى فى الآية : ووقتا من الليل أسْهرته فى صلاة وقراءة .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾ أى كرامة لك ؛ قاله مقاتل . واختلف العلماء فى تخصيص النبيّ صلى الله عليه وسـلم بالذكر دون أمتـه ؛ فقيل : كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله : « نَافِلَةً لَكَ » أى فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة .

قلت : وفى هذا التأويل بُعْدٌ لوجهين : أحدهما — تسمية الفرض بالنفل، وذلك مجاز لا حقيقة . الثـانى — قوله صلى الله عليه وسلم : " خمس صلوات فرضهن الله على العباد " ، وقوله تعـالى : " هن خمس وهن خمسون لا يُبَدَّلُ القولُ لَدَىَّ " وهذا نص، فكيف يقال : افترض عليه صلاة زائدة على الخمس، هذا ما لا يصح؛ و إن كان قد روى عنه عليه السلام :

(١) العلة (هنا) : ما يتعلل به ؛ مثل التعلة . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢١٧ .

Marfat.com

" ثلاث علىّ فريضة ولأمتى تطوع قيام الليل والوتر والسواك ". وقيل : كانت صلاة الليل تطوعا منه وكانت فى الابتداء واجبـة على الكل ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة؛ كما قالت عائشة ، على ما يأتى مبينا فى سورة « المزمل »(١) إن شاء الله تعالى . وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليـه وسلم؛ لأنه مغفور له . فهو إذا تطوع بمـا ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة فى الدرجات، وغيره من الأمة تطوعهم كفارات وتدارك لخلل يقع فى الفرض؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : عطية؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق فى العبادة .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ اختلف فى المقام المحمود على أربعة أقوال :

الأول — وهو أصحها — الشفاعة للناس يوم القيامة ؛ قاله حذيفة بن اليمان . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر قال : إن النـاس يصيرون يوم القيامة جُثًا(٢) كل أمة تتبـع نبيها تقول : يا فلان اشفع، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقامَ المحمود . وفى صحيح مسلم عن أنس قال حدّثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة ماج النـاس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذريتك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لهـا ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيؤتى موسى فيقول لست لهـا ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيؤتى عيسى فيقول لست لهـا ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم فأوتى فأقول أنا لها " وذكر الحديث . وروى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى قوله : « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » سئل عنها قال : " هى الشفاعة " قال : هذا حديث حسن صحيح .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٣٢ فما بعد .	(٢) جثا (جمع جثوة كخطوة وخطا) أى جماعات .

Marfat.com

الرابعـــة — إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذى يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهى الأمر إلى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجّل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم، وهى الخاصة به صلى الله عليه وسلم؛ ولأجل ذلك قال: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر". قال النقاش: لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة فى السبق إلى الجنة، وشفاعة فى أهل الكبائر. ابن عطية: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة فى إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون و يشفع العلماء. وقال القاضى أبو الفضل عياض: شفاعات نبينا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة خمس شفاعات: العامة. والثانية فى إدخال قوم الجنة دون حساب. الثالثة فى قوم من موحّدى أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم، ومَن شاء الله أن يشفع و يدخلون الجنة. وهذه الشفاعة هى التى أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة، وهى الاستحقاق العقلى المبنى على التحسين والتقبيح. الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والملائكة و إخوانهم المؤمنين. الخامسة فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها وترفيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأوّل.

الخامســـة — قال القاضى عياض: وعرف بالنقل المستفيض سؤالُ السلف الصالح لشفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتدّ بعمله مشفق أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضا، وهذا كله خلاف ما عُرف من دعاء السلف والخلف؛ روى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا — صلى الله عليه وسلم — الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلّت له شفاعتى يوم القيامة".

Marfat.com

القول الثانى — أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

قلت : وهـذا القول لا تنافر بينه وبين الأوّل؛ فإنه يكون بيده لواء الحمـد ويشفع . روى الترمذى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنا سـيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمـد ولا فخر وما من نبىّ يومئـذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى" الحديث .

القول الثالث — ماحكاه الطبرى عن فرقة، منها مجـاهد، أنها قالت : المقام المحمود هو أن يُجلس الله تعـالى محمدا صلى الله عليه وسلم معه على كرسيه ؛ وروت فى ذلك حديثا . وعَضَد الطبرى جواز ذلك بشططٍ من القول، وهو لايخرج إلا على تلطف فى المعنى، وفيـه بُعْدٌ . ولا يُنْكَر مع ذلك أن يروَى، والعلم يتأوله . وذكر النقاش عن أبى داود السِّجِسْتانىّ أنه قال : من أنكر هـذا الحديث فهو عندنا مُتَّهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا، من أنكر جوازه على تأويله . قال أبو عمر : ومجاهد وإن كان أحد الأئمة يتأول القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم : أحدهما هـذا والثانى فى تأويل قوله تعـالى : «وُجُوهٌ يَوْمَئِـذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ[(1)]» قال : تنتظر الثواب؛ ليس من النظر .

قلت : ذكر هذا فى باب ٱبْن شهاب فى حديث التنزيل . وروى عن مجاهد أيضا فى هذه الآية قال : يُجلسه على العرش . وهـذا تأويل غير مستحيل؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلِّها والعرشَ قائمـا بذاته، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها، بل إظهارا لقـدرته وحكمته، وليُعـرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمة ، وخلق لنفسه عرشا استوى عليـه كما شاء من غير أن صار له مماسا ، أو كان العرش له مكانا . قيل : هو الآن على الصفة التى كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان؛ فعلى هذا القول سواء فى الجواز أقعد محمد على العرش أو على الأرض ؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التى تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٠٥ .

Marfat.com

كما أخبر عن نفسه بلا كيف . وليس إقعاده محمدا على العرش موجبا له صفة الربوبية أو مخرجا له عن صفة العبودية، بل هو رفع لمحله وتشريف له على خلقه . وأما قوله فى الأخبار : "معه" فهو بمنزلة قوله : « إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ »(١)، و« رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ »(٢)، « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »(٣) ونحو ذلك . كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحظوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان .

الرابـــع — إخراجه من النار بشفاعته من يخرج؛ قاله جابر بن عبد الله . ذكره مسلم . وقد ذكرناه فى (كتاب التذكرة) والله الموفق .

السادســـة — اختلف العلمـاء فى كون القيام بالليل سببا للمقـام المحمود على قولين : أحدهما — أن البارئ تعالى يجعل ما شاء من فعـله سببا لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة . الثانى — أن قيام الليل فيه الخلوة مع البارئ والمناجاة دون الناس، فأعطى الخلوة به ومناجاته فى قيامه وهو المقام المحمود . ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلّهم فيـه درجة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه يعطى ما لا يُعطى أحد ويشفع ما لا يشفع أحد . و« عَسَى » من الله عز وجل واجبة . و« مقاما » نصب على الظرف . أى فى مقام أو إلى مقام . وذكر الطبرى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى". فالمقام الموضع الذى يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدى الملوك .

قوله تعـالى : وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

قيـل : المعنى أمتنى إماتة صدق، وابعثنى يوم القيامة مبعث صـدق؛ ليتصل بقوله : « عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » . كأنه لمـا وعده ذلك أمره أن يدعـو لينجزله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥٦ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٢ . (٣) راجع جـ ١٣ ص

Marfat.com

الوعد . وقيل : أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهي . وقيل : علّمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن ؛ فأخرجه من مكة وصيره إلى المدينة . وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت : «وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا » قال : هذا حديث حسن صحيح . وقال الضحاك : هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمنا . أبو سهل : حين رجع من تبوك وقد قال المنافقون : « لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ »[(1)] يعني إدخال عز وإخراج نصر إلى مكة . وقيل : المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق إذا أمتّني ؛ قال معناه مجاهد . والمدخل والمخرج (بضم الميم) بمعنى الإدخال والإخراج ؛ كقوله : « أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا »[(2)] أي إنزالا لا أرى فيه ما أكره . وهي قراءة العامة . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم « مدخل » و « مخرج » بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج ؛ فالأول رباعي وهذا ثلاثي . وقال ابن عباس : أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث . وقيل : أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق ؛ أي لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه ؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجيها عندك . وقيل : الآية عامة في كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال ، ويُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة . فهي دعاء ، ومعناه : رب أصلح لي وِرْدي وصَدَري في كل الأمور. وقوله : ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قال الشعبي وعكرمة : أي حجة ثابتة . وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله . قال : فوعده الله لَيَنْزِعَنَّ مُلْك فارس والروم وغيرها فيجعله له .

قوله تعالى : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٢٩ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١١٩ .

Marfat.com

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى — روى البخاري والترمذي عن ابن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نُصُبًا : فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يطعنها بمخصرة[(١)] في يده — وربما قال : بعود — ويقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد[(٢)] " لفظ الترمذي . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا في حديث مسلم « نُصُبًا » . وفي رواية صنما . قال علماؤنا : إنما كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظّمون في يوم صنما ويخصون أعظمها بيومين . وقوله : " فجعل يطعنها بعود في يده " يقال : إنها كانت مثبتة بالرّصاص وأنه كلما طعن منها صنما في وجهه خرّ لقفاه، أو في قفاه خرّ لوجهه . وكان يقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " حكاه أبو عمر والقاضي عياض . وقال القشيري : فما بقي منها صنم إلا خرّ لوجهه، ثم أمر بها فكسرت .

الثانيـة — في هـذه الآية دليـل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذ غُلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى . قال ابن المنذر : وفي معنى الأصنام الصُّوَر المتّخذة من المدَر والخشب وشبهها، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيـه إلا اللهو المنهي عنـه . ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص، إذا غُيّرت عما هي عليـه وصارت نُـقرا[(٣)] أو قطعا فيجوز بيعها والشّراء بها . قال المهلّب : وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعـد كسرها منفعةٌ فصاحبها أولى بها مكسورة؛ إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المـال . وقد تقدّم حرق ابن عمر رضي الله عنه[(٤)] . وقد همّ النبي صلى الله عليه وسلم بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة . وهذا أصل في العقوبة في المـال مع قوله عليه السلام في الناقة التي لعنتها صاحبتها :

(١) ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب وقد يتكىء عليه .
(٢) راجع جـ ١٤ ص ٣١٣ . (٣) النقرة : السبيكة . (٤) الذى تقدم لابن عمر أنه أفسد على الأولاد أدوات اللعب . راجع جـ ٨ ص ٣٤٠ .

Marfat.com

" دعوها فإنها ملعونة " فأزال ملكها عنها تأديبا لصاحبتها ، وعقوبة لها فيما دعت عليه بما دعت به . وقد أراق عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبناً شِيب بماء على صاحبه .

الثالثة ــ ماذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلن عيسى بن مريم حكما عادلا فَلَيَكْسِرنّ الصليب وَلَيَقْتُلَنّ الخنزير ولَيَضَعَنّ الجزية ولَتُتْركَنّ القِلاصُ (١) فلا يُسعى عليها " الحديث . خرجه الصحيحان . ومن هذا الباب هتك النبي صلى الله عليه وسلم الستر الذى فيه الصور، وذلك أيضا دليل على إفساد الصور وآلات الملاهى كما ذكرنا . وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها و يوجب التغيير على صاحبها . إن أصحاب هـذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم : أحيوا ماخلقتم ؛ وحسبك ! وسيأتى هـذا المعنى فى « النمـل (٢) » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ أى الإسلام . وقيل : القرآن؛ قاله مجاهد . وقيل : الجهاد . ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ قيل : الشرك . وقيل : الشيطان؛ قاله مجاهد . والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة ، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه . « وَزَهَقَ الْبَاطِلُ » : بطل الباطل . ومن هـذا زهوق النفس وهو بطلانها . يقال : زَهقت نفسه تَزهَق زهوقا ، وأزهقتها . ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أى لابقاء له ، والحق الذى يثبت .

قوله تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

فيـه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ ﴾ قرأ الجمهور بالنون . وقرأ مجاهد « ويُنْزِل » بالياء خفيفة (٣) ، ورواها المروزى عن حفص . و « من » لابتـداء الغاية ، و يصح أن تكون لبيان الجنس؛ كأنه قال : وننزل مافيـه شفاء من القرآن . وفى الخبر : " من لم يَسْتَشْفِ بالقرآن

(١) القلاص (بكسر القاف جمع القلوص بفتحها) وهى الناقة الشابة . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٢١ .
(٣) كذا فى الأصول . ولعله : ونون خفيفة .

Marfat.com

فلا شفاه الله" . وأنكر بعض المتأولين أن تكون «مِن» للتبعيض؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أن بعضه لاشفاء فيه . ابن عطية : وليس يلزمه هذا ، بل يصح أن تكون للتبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعّض؛ فكأنه قال : ونتزل من القرآن شيئا شفاء ؛ ما فيه كله شفاء .

الثانيـــة — اختلف العلماء فى كونه شـفاء على قولين : أحدهما — أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها و إزالة الرِّيب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى . الثانى — شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوّذ ونحوه . وقد روى الأئمة — واللفظ للدَّارَقُطْنِىّ — عن أبى سعيد الخُـدْرِىّ قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَرِيّة ثلاثين راكبا قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأبَوْا؛ قال : فلُدِغ سـيد الحىّ ، فأتونا فقالوا ؛ فيكم أحد يَرْقى من العقرب ؟ فى رواية ابن قَتّـة : إن الملك يموت . قال : قلت أنا نعم ، ولكن لاأفعـل حتى تعطونا . فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه . « الْحَمْـدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ » سبع مرات فبرأ . فى رواية سليمان بن قتة عن أبى سعيد : فأفاق و برأ . فبعث إلينا بالنُّزل و بعث إلينا بالشاء، فأكلنا الطعام أنا وأصحابى وأبَوْا أن يأكلوا من الغنم ، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال : "وما يدريك أنها رقية" ؟ قلت : يارسول الله، شىء أُلقى فى روعى . قال : "كلوا وأطعمونا من الغنم" خرجه فى كتاب السنن . وخرّج فى (كتاب المدبّج[1]) من حديث السَّرى بن يحيى قال : حدثنى المعتمر بن سـليمان عن ليث بن أبى سـليم عن الحسن عن أبى أُمامة عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " ينفـع بإذن الله تعـالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسُّل والحُمَّى والنَّفْس أن تكتب بزعفران أو بمِشق — يعنى المَغْرة — أعوذ بكلمات الله التـامة وأسمائه كلّها عامةً من شر السّامة والعـامة ومن شر العين اللّامة ومن شر حاسد إذا حسـد ومن أبى فَرْوة وماولد " . كذا قال، ولم يقل من شر أبى قِـتْرة[2] . العين اللامة : التى تصيب بسوء . تقول أُعيذه من كل هامة لامّة . وأما قوله :

(١) فى بعض الأصول : « المذبح » ولم نوفق لتصويبه .

(٢) أبو قترة (بكسر القاف وسكون التاء) : كنية إبليس .

Marfat.com

أعيــذه من حادثات اللّه فيقال : هو الدهر . ويقال : الشــدة . والسامة : الخـاصة . يقال : كيف السامة والعامة . والسامة السم . ومن أبى فروة وما ولد . وقال : ثلاثة وثلاثون من الملائكة أتَوا ربّهم عز وجل فقــالوا : وَصَبٌ بأرضنا . فقال : خذوا تربة من أرضكم فامسحوا نواصيَكم . أو قال : نواصيكم(1) رقيــة محمد صلى الله عليه وسلم لاأفلح من كتمها أبدا أو أخذ عليها صَفَدا(2)" . ثم كتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول البقرة، والآية التى فيها تصريف الرياح وآية الكرسى والآيتين اللتين بعدها ، وخواتيم ســورة البقرة من موضع « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » إلى آخرها ، وعشرا من أول «آل عمرانــ» وعشرا من آخرها، وأول آية من النساء، وأول آية من المــائدة، وأول آية من الأنعـام، وأول آية من الأعراف ، والآية التى فى الأعراف « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ(3) » حتى تختم الآية؛ والآية التى فى « يونس » من موضع « قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ(4) » ، والآية التى فى طه « وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(5) » ، وعشرا من أول الصافات ، و « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » ، والمعوذتين . تكتب فى إناء نظيف ثم تغسل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يحثو منه الوجع ثلاث حثَوات ثم يتوضأ منــه كوضوئه للصلاة و يتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجى به ثم يصلى ركعتين ثم يستشفى الله عز وجل؛ يفعل ذلك ثلاثة أيام ، قدر ما يكتب فى كل يوم كتابا . فى رواية : ومن شر أبى قِتْرة وما ولد . وقال : "فامسحوا نواصيكم(6)" ولم يشك . وروى البخارى عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم كان يَنفث على نفسه فى المرض الذى مات فيه بالمعوّذات فلما ثقل كنت أنفث عليــه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها . فسألت(7) الزهرى كيف كان ينفث ؟ قال : كان يَنفث على يديه ثم يمسح بهما وجهــه . وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه

(1) فى جـ : بوصبكم : أى بوجعكم . وتكون رقية منصوبة على الإغراء . (2) الصفد : العطاء .
(3) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ . (4) راجع جـ ٨ ص ٣٦٧ . (5) راجع جـ ١١ ص ٢٢١ فا بعد .
(6) فى جـ : بوصبكم . (7) السائل هو عروة بن الزبير راوى الحديث .

Marfat.com

المعوّذتين وتَفَـل أو نَفَث . قال أبو بكر بن الأنبارى : قال اللغويون تفسير « نفث » نفخ نفخا ليس معه ريق . ومعنى « تَفَل » نفخ نفخا معه ريق . قال الشاعر :

فإن يبْرأ فلم أنفِث عليـه * وإن يُفقَـد لحقّ له الفُقُـود

وقال ذو الرُّمّة :

ومِن جَوف ماءٍ عَرمَض الحوْلِ فـوقه * متى يَحْسُ منـه مائحُ القوم يتْفُـل (١)

أراد ينفخ بريق . وسيأتى ما للعلماء فى النفث فى سورة الفلق (٢) إن شاء الله تعالى .

الثالثـة — روى ابن مسعود أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الرُّقى إلا بالمعوّذات . قال الطبرى : وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله فى الدِّين ؛ إذ فى نقلته من لا يُعرف . ولو كان صحيحا لكان إما غلطا و إما منسوخا ؛ لقوله عليه السلام فى الفاتحة "ما أدراك أنها رُقية" ؟ و إذا جاز الرقى بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما فى الجواز إذ كله قرآن . وروى عنه عليـه السلام أنه قال : " شـفاء أمتى فى ثلاثٍ، آية (٣) من كتاب الله أو لعقة من عسل أو شرطة من محجم " . وقال رجاء الغَنَوِىّ : ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له .

الرابعـة — واختلف العلماء فى النُّشرة، وهى أن يكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالمـاء ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيِّب . قيل له : الرجل يؤخذ عن امرأته أيُحَلّ عنه ويُنْشر ؟ قال : لا بأس به ، وما ينفع لم يُنْه عنه . ولم ير مجاهد أن تكتب آيات من القرآن ثم تغسل ثم يسقاه صاحب الفزع . وكانت عائشة تقرأ بالمعوِّذتين فى إناء ثم تأمر أن يُصب على المريض . وقال المـازَرِى أبو عبد الله : النُّشرة أمر معروف عند أهل التعزيم، وسُميت بذلك لأنهـا تنشر عن صاحبها أى تَحُلّ . ومنعها الحسن و إبراهيم النَّخَعِى (٤)، قال النَّخعى : أخاف أن يصيبه بلاء ؛ وكأنه ذهب إلى أنه ما محى به القرآن فهـو

---

(١) العرمض : الخضرة التى تعلوا المـاء، وهى الرمض والعلق والطحلب . والمـائح (بالهمز) : الذى ينزل البئر فيملأ الدلو . والمـاتح (بالتـاء) : الذى يجذب الدلو . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٥٧ فـا بعد .

(٣) لم نقف على هـذه الرواية، والمشهورة كما فى البخارى وغيره : « شفاء أمتى فى ثلاث شرطة محجم أو شربة عسل أو كية نار ... » ، الحديث . (٤) كذا فى جـ ، وفى ا ب ح و وروى : بجيى .

Marfat.com

إلى أن يعقب بلاء أقرب منــه إلى أن يفيــد شفاء . وقال الحسن : سألت أنَسًا فقال : ذكروا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها من الشيطان . وقد روى أبو داود من حديث جابر آبن عبدالله قال؛ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النُّشْرة فقال: "هي من عمل الشيطان". قال آبن عبد البر : وهذه آثار لينة ولها وجوه محتملة ، وقد قيل : إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما في كتاب الله وسنة رسوله عليــه السلام ، وعن المداواة المعروفة . والنشرة من جنس الطب فهي غسالة شيء له فضل ، فهي كوضوء رســول الله صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيــه شرك ومن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل " .

قلت : قد ذكرنا النص في النشرة مرفوعا وأن ذلك لا يكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليــه .

الخامســة — قال مالك : لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسمــاء الله عز وجل على أعناق المرضى على وجه التبرك بها إذا لم يرد معلقها بتعليقها مدافعة العين . وهــذا معناه قبل أن ينزل به شيء من العين . وعلى هذا القول جماعة أهل العلم ، لا يجوز عنــدهم أن يعلق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيء من العلائق خوف نزول العين ، وكل ما يعلق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبرء من الله تعالى ، فهو كالرُّقَى المباح الذي وردت السنة بإباحته من العين وغيرها . وقــد روى عبــد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا فَزِع أحدكم في نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء عقابه ومن شر الشياطين وأن يَحْضُرون " . وكان عبد الله يعلّمها ولده من أدرك منهم، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليــه . فإن قيل : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من علق شيئا وُكِل إليه " . ورأى آبن مسعود على أم ولده تميمةً مربوطة فجبــذها جَبْذا شديدا فقطعها وقال: إن آل آبن مسعود لأغنياءُ عن الشِّرك ، ثم قال : إن التمائم والرق والتِّوَلَة من الشرك . قيــل : ما التِّوَلَة ؟ قال : ما تحبّبت به لزوجها . وروى عن عقبــة بن عامر الجهني قال : سمعت رسول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : " من علق تميمة فلا أتم الله له

Marfat.com

ومن علق وَدعة فلا وَدَع الله له قلبا". قال الخليل بن أحمد : التميمة قلادة فيها عُوَذ، والوَدعة خرز. وقال أبوعمر: التميمة فى كلام العرب القِلادة، ومعناه عند أهل العلم ماعلق فى الأعناق من القلائد خشـية العين أو غيرها [من أنواع البـلا وكأن المعـنى فى الحديث من يعـلق خشـية ما عسى(١)] أن ينزل أو لا ينزل قبـل أن ينزل ، فلا أتم الله عليـه صحته وعافيته ، ومن تعـلّق وَدَعَة — وهى مثلها فى المعـنى — فلا ودَع الله له ؛ أى فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية . والله أعلم . وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، و يظنون أنها تقيهم وتصرف عنهم البلاء،وذلك لايصرفه إلا الله عز وجل، وهو المعافى والمبتلى ، لاشريك له . فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يصنعون من ذلك فى جاهليتهم . وعن عائشة قالت : ما تعلق بعـد نزول البـلاء فليس من التمـائم . وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال قبل نزول البلاء و بعده . والقول الأول أصح فى الأثر والنظر إن شاء الله تعالى . وما روى عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن العرافين والكُهّان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلقا وغير معلق لايكون شِركا، وقوله عليه السلام : " من علّق شيئا وُكل إليه" فمن علّق القرآن ينبغى أن يتولاه الله ولا يَكِله إلى غيره ؛ لأنه تعـالى هو المرغوب إليه والمتوكّل عليـه فى الأستشفاء بالقرآن . وسئل ابن المسيّب عن التعويذ أيعلّق؟ قال : إذا كان فى قصبة أو رقعة يحرز فلا بأس به . وهـذا على أن المكتوب قرآن . وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأسا أن يعلّق الرجل الشىء من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط . ورخص أبو جعفر محمد بن علىّ فى التعويذ يعلّق على الصبيان . وكان ابن سيرين لا يرى بأسا بالشىء من القرآن يعلّقه الإنسان .

السادســة — قوله تعـالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تفـريج الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضل به تعالى من الثواب فى تلاوته؛ كما روى الترمذى عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الٓمٓ حرف بل ألِفٌ حرف ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ" . قال هذا حديث حسن صحيح غريب . وقد تقدّم . ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لتكذيبهم . قال

(١) من ى .

Marfat.com

قتادة : ماجالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » الآية . ونظير هذه الآية قوله : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى »[(١)] . وقيل : شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان .

قوله تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أى هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خسارا صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه . وقيل : نزلت في الوليد ابن المغيرة . ومعنى « نَأَى بِجَانِبِهِ » أى تكبر وتباعد . وناء مقلوب منه؛ والمعنى : بَعُد عن القيام بحقوق الله عز وجل؛ يقال : نأى الشيء أى بعد . ونأيته ونأيت عنه بمعنًى، أى بَعُدت . وأنأيته فانتأى؛ أى أبعدته فبَعُد . وتناءَوْا تباعدوا . والمُنْتأى؛ الموضع البعيد .

قال النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكي * وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان « ناء » مثل باع ، الهمزة مؤخرة، وهو على طريقة القلب من نأى؛ كما يقال : راء ورأى . وقيل : هو من النوء وهو النهوض والقيام . وقد يقال أيضا للوقوع والجلوس: نوء؛ وهو من الأضداد . وقرئ « وَنِئِى » بفتح النون وكسر الهمزة . والعامة « نأى » في وزن رأى . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ أى إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٦٨ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ قال ابن عبـاس : ناحيتـه . وقاله الضحاك . مجاهد : طبيعته . وعنه : حِدته . ابن زيد : على دينه . الحسن وقتادة : نيته . مقاتل : جِبلته . الفراء : على طريقته ومذهبه الذى جُبِل عليه . وقيل : قل كلٌّ يعمل على ما هو أشـكل عنده وأولى بالصواب فى اعتقاده . وقيل : هو مأخوذ من الشكل؛ يقال : لستَ على شَكْلِى ولا شاكلتى . قال الشاعر :

كل آمرئ يشبهه فعله * ما يفعل المرء فهو أهله

فالشّكل هو المثل والنظير والضرب . كقوله تعـالى : « وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ »[(1)] . والشِّكل (بكسر الشـين) : الهيئة . يقال : جارية حسنة الشِّكل . وهـذه الأقوال كلّها متقاربة . والمعنى : أن كل أحد يعمل على ما يشاكل أصله وأخلاقه التى ألِفَها، وهذا ذمٌّ للكافر ومدح للؤمن . والآية والتى قبلها نزلتا فى الوليد بن المغيرة؛ ذكره المهدوىّ . ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ أى بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم . وقيل : « أَهْدَى سَبِيلًا » أى أسرع قبولا . وقيـل : أحسن دينا . وحكى أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى: «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ» فإنه لايشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران . وقال عمـر بن الخطاب رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيـه آية أرجى وأحسن من قوله تعـالى : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ»[(1)] قدم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفى هذا إشارة للؤمنين . وقال عثمان آبن عفان رضى الله عنه : قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »[(2)] . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه :

---

(1) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٠ فما بعد وص ٢٨٩ . (2) راجع ص ٣٤ من هذا الجزء .

Marfat.com

قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[(١)] .

قلت : وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»[(٢)] .

قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

روى البخاريّ ومسلم والترمذى عن عبد الله قال : بينا أنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حَرْث وهو متكئ على عسيب إذ مرّ اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح. فقال : ما رابكم إليه؟[(٣)] وقال بعضهم : لايستقبلكم بشيء تكرهونه . فقالوا : سلوه . فسألوه عن الروح فأمسك النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يردّ عليهم شيئا؛ فعلمتُ أنه يوحَى إليه، فقمت مقامى، فلما نزل الوحى قال : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» لفظ البخاريّ . وفى مسلم . فأسكَتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم . وفيه : وما أوتوا . وقد آختلف الناس فى الروح المسئول عنه، أىّ الروح هو؟ فقيل : هو جبريل؛ قاله قتادة . قال : وكان ابن عباس يكتمه . وقيل هو عيسى . وقيل : القرآن ، على ماياتى بيانه فى آخر الشّورى[(٤)] . وقال علىّ بن ابى طالب : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف لسان؛ فى كل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله تعالى بكل تلك اللغات، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة مَلَكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . ذكره الطبرىّ . قال ابن عطية : وما أظن القول يصحّ عن علىّ رضى الله عنه .

قلت : أسند البيهق أخبرنا أبو زكريا عن أبى إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطرائفى حدّثنا عثمان بن سعيد حدّثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٧ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩ فما بعد . (٣) أى مادعاكم إلى سؤال تخشون عاقبته بأن يستقبلكم بشىء تكرهونه . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٥٤ فما بعد .

Marfat.com

عباس فى قوله : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » يقول : الروح مَلَك . وبإسناده عن معاوية بن صالح حدّثنى أبو هِران (بكسر الهاء) يزيد بن سَمُرة عمن حدّثه عن علىّ بن أبى طالب أنه قال فى قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » قال : هو مَلَك من الملائكة له سبعون ألف وجه ... الحديث بلفظه ومعناه . وروى عطاء عن ابن عباس قال : الروح مَلَك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه، يسبح الله إلى يوم القيامة؛ ذكره النحاس . وعنه : جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام ؛ ذكره الغَزْنَوِىّ . وقال الخطابى : وقال بعضهم ، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلقة . وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذى يكون به حياة الجسد . وقال أهل النظر منهم : إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه فى بدن الإنسان ، وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به ، وهذا شىء لا يعلمه إلا الله عز وجل . وقال أبو صالح : الروح خلق كخلق بنى آدم وليسوا ببنى آدم ، لهم أيد وأرجل . والصحيح الإبهام لقوله : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » دليلٌ على خلق الروح (١) أى هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى، مُبْهمًا له وتاركا تفصيله ؛ ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان فى معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ اختلف فيمن خُوطب بذلك؛ فقالت فرقة : السائلون فقط . وقال قوم : المراد اليهود بجملتهم . وعلى هذا هى قراءة ابن مسعود « وما أوتوا » ورواها عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : المراد العالم كله . وهو الصحيح، وعليه قراءة الجمهور « وَمَا أُوتِيتُمْ » . وقد قالت اليهود للنبىّ صلى الله عليه وسلم : كيف لم نُؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهى الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ؟ فعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم الله فغُلِبوا . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله فى بعض الأحاديث : "كُلًّا" يعنى أن المراد بـ « وما أوتيتم » جميع

(١) أى هو المنفرد بخلق الروح والعالم بسره لا يدركه أحد من الناس .

Marfat.com

العالم . وذلك أن يهود قالت له : نحن عنيت أم قومك ؟ . فقال : "كُلًّا" . وفي هذا المعنى نزلت : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ [(1)] » . حكى ذلك الطبري رحمه الله ! وقد قيل : إن السائلين عن الروح هم قريش ، قالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، وعن الروح ، فإن أخبركم عن آثنين وأمسك عن واحدة فهو نبي ، فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين على ما يأتي . وقال في الروح : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » أي من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله . ذكره المهدوي وغيره من المفسرين عن ابن عباس .

قوله تعالى : وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن . أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق . ويتصل هذا بقوله : « وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أي ولو شئت أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ أي ناصرا يردّه عليك . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ يعني لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك ؛ فهو استثناء ليس من الأول . وقيل : إلا أن يرحمك ربّك فلا يذهب به . ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ إذ جعلك سيد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتاب العزيز . وقال عبد الله بن مسعود : أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وأن هذا القرآن كأنه قد نُزع منكم ، تُصبحون يوما وما معكم منه شيء . فقال رجل : كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن ! وقد ثبّتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا ، نعلّمه أبناءنا ويعلّمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ! قال : يُسرى به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب ، فتصبح الناس كالبهائم . ثم قرأ عبد الله : « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » الآية . أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال : أخبرنا أبو الأحوص عن عبد العزيز بن رُفيع عن

(١) راجع جـ ١٤ ص ٧٦ .

Marfat.com

شدّاد بن مَعْقِل قال قال عبد الله — يعنى ابن مسعود — : إن هذا القرآن الذى بين أظهركم يوشك أن يُنزع منكم . قال : قلت كيف ينزع منا وقد أثبته الله فى قلوبنا وثبتناه فى مصاحفنا ! قال يُسرى عليه فى ليلة واحدة فينزع ما فى القلوب ويذهب ما فى المصاحف ويصبح الناس منه فقراء . ثم قرأ : « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » وهذا إسناد صحيح . وعن ابن عمر : لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دوىّ كدوىّ النحل، فيقول الله ما بالك . فيقول : يارب منك خرجت وإليك أعود، أتلى فلا يُعمل بى، أتلى ولا يعمل بى .

قلت : قد جاء معنى هـذا مرفوعا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة . قال حذيفة قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : " يدرس الإسلام كما يدرس وَشْىُ الثوب حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة فيُسرى على كتاب الله تعـالى فى ليلة فلا يبقى منه فى الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله . وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة " . قال له صِلَة(١) : ما تغنى عنهم لا إله إلا الله ! وهم لا يدرون ما صـلاة ولا صـيام ولا نسك ولا صدقة، فأعرض عنه حذيفة، ثم ردّدها ثلاثا، كل ذلك يُعرِض عنه حذيفة . ثم أقبل عليه حذيفة فقال : يا صـلة ! تنجيهم من النار، ثلاثا . خرجه ابن ماجه فى السنن . وقال عبـد الله بن عمر : خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو معصوب الرأس من وجع فضحك، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس ما هذه الكتب التى تكتبون أكتاب غير كتاب الله يوشك أن يغضب الله لكتابه فلا يَدَع ورقا ولا قلبـا إلا أخذ منـه " قالوا : يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ ؟ قال : "من أراد الله به خيرا أبقى فى قلبه لا إله إلا الله" ذكره الثعلبى والغزنوىّ وغيرهما فى التفسير .

قوله تعـالى : قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

(١) هو صلة بن زفر العبسى، أحد رجال سند الحديث .

Marfat.com

أى عوينًا ونصيرا ؛ مثل مايتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه . نزلت حين قال الكفار : لو نشاء لقلنا مثل هذا ؛ فأكذبهم الله تعالى . وقد مضى القول فى إعجاز القرآن فى أول الكتاب(١) : والحمد لله . و﴿ لَا يَأْتُونَ ﴾ جواب القسم فى « لئن » وقد يجزم على إرادة الشرط . قال الشاعر :

لئن كان ما حُدِّثته اليوم صادقا * أُقِم(٢) فى نهار القيظ للشمس باديا

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر والترغيب والترهيب ، والأوامر والنواهى وأقاصيص الأولين، والجنة والنار والقيامة . ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ يريد أهل مكة، بيّن لهم الحقّ وفتح لهم وأمهلهم حتى تبيّن لهم أنه الحق، فأبَوا إلا الكفر وقت تبيّن الحق . قال المهدوى : ولا حجة للقدرى فى قولهم : لا يقال أبى إلا لمن أبَى فِعْل ما هو قادر عليه ؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه، فقد كان قادرا وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٦٩ . (٢) رواية خزانة الأدب فى الشاهد الرابع والثلاثين بعد التسعمائة : أصم فى نهار القيظ ...» الخ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَـا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ الآية نزلت في رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأبي سفيان والنضر بن الحارث، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف وأبي البَخْتَرِيّ، والوليد بن المغيرة وغيرهم. وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القـرآن ولم يرضوا به معجزة، اجتمعوا — فيما ذكر ابن إسحاق وغيره — بعـد غروب الشمس عنـد ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد — صلى الله عليـه وسلم — فكلموه وخاصموه حتى تُعْـذَرُوا فيه، فبعثوا إليـه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بَدْو، وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم حريصا يحب رشدهم ويَعِزّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعـلم رجلا من العـرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقـد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهـة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة، فمـا بَقِيَ أمر قبيح إلا قـد جئته فيما بيننـا وبينك، أوكما قالوا له. فإن كنت إنمـا جئت بهـذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنمـا تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئِيًّـا تراه قد غلب عليـك — وكانوا يسمّون التابع من الجن رِئِيًّـا — فربمـا كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه أو نُعذر فيك. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بي ما تقولون ماجئتُ بمـا جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيـكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل عليّ كتابا وأمرني أن أكون لكم بشـيرا ونذيرا فبلّغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" أوكما قال صلى الله عليه وسلم. قالوا: يامحمد، فإن كنت غير قابل منا شيئا ممـا عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشدّ عيشا منا، فَسَلْ لنـا ربّك الذي بعثك بمـا بعثك به، فليسيّر

عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وليَبسُط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهارا كأنهار الشأم، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قُصَيّ بن كلاب؛ فإنه كان شيخ صِدْق فنسألهم عما تقول، أحقّ هو أم باطل، فإن صدّقوك وصنعت ما سألناك صدّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: "ما بهذا بُعثت إليكم إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلّغتكم ما أرسلتُ به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم". قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك! سَلْ ربك أن يبعث معك مَلَكا يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك، وآسأله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عمّا نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا — أو كما قال — فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" قالوا: فأسقِط السماء علينا كِسَفًا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل؛ فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل" قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجاس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ (١) إنه قد بلغنا أنك إنما يعلّمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا. فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد! عرض عليك

(١) في جـ: بما.

Marfat.com

قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بهـا منزلتك من الله كما تقول ، و يصدقوك و يتبعوك فلم تفعل ! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ! ثم سألوك أن تعجّل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ! — أوكما قال له — فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمًا ، ثم ترقَى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ، ثم تأتى معك بصَكٍّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وأيْمُ الله لو فعلت ذلك ماظننت أنى أصدقك ! ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف رسـول الله صلى الله عليـه وسلم إلى أهله حزينا آسِفًا لِـما فاته ممـا كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولَـما رأى من مباعدتهم إياه ؛ كلّه لفظ ابن إسحاق . وذكر الواحدى عن عكرمة عن ابن عباس : فأنزل الله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ . « يَنْبُوعًا » يعنى العيون ؛ عن مجاهد . وهى يفعول ، من نَبَع يَنْبَع . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى « تَفْجُرَ لنـا » مخففة ؛ واختاره أبو حاتم لأن الينبوع واحد . ولم يختلفوا فى تفجّر الأنهار أنه مشدّد . قال أبو عبيد : والأولى مثلها . قال أبو حاتم . ليست مثلها ؛ لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد ، والثانيـة بعدها الأنهار وهى جمع ، والتشديد يدلّ على التكثير . أجيب بأن « يَنْبُوعًا » وإن كان واحدا فالمراد به الجمع ؛ كما قال مجاهد . الينبوع عين المـاء ، والجمع الينابيع . وقرأ قتادة « أو يكون لك جنة » . ﴿خِلَالَهَا﴾ أى وسطها . ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ﴾ قراءة العامة . وقرأ مجاهـد « أو يسقط السماء » على إسناد الفعل إلى السماء . ﴿كِسَفًا﴾ قطعا ؛ عن ابن عباس وغيره . والكِسف (بفتح السين) جمع كِسفة ، وهى قراءة نافع وابن عامر وعاصم . الباقون « كِسفا » بإسكان السين . قال الأخفش : من قرأ كِسْفًا من السماء جعله واحدا ، ومن قرأ كِسَفًا جعـله جمعا . قال المهـدوى : ومن أسكن السين جاز أن يكون جمـع كِسْفة وجاز أن يكون مصدرا ؛ من كسفت الشىء إذا غطّيته . فكأنهم قالوا : أسقطها طبقا علينا . وقال الجوهرى : الكِسْفة القطعة من الشىء ؛ يقال : أعطنى كِسْفة من ثوبك ، والجمـع كِسْف وكِسَف . ويقال : الكِسْف والكِسْفة واحد .

Marfat.com

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ أى معاينة ؛ عن قتادة وابن جريج . وقال الضحاك وابن عباس : كفيلا . قال مقاتل : شهيدا . مجاهد : هو جمع القبيلة ؛ أى بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلةً . وقيل : ضمناء يضمنون لنا إتيانك به . ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ أى من ذهب ؛ عن ابن عباس وغيره . وأصله الزينة . والمُزَخْرَف المزيّن . وزخارف الماء طرائقه . وقال مجاهد : كنت لا أدرى ما الزُّخْرُف حتى رأيته فى قراءة ابن مسعود « بيتٌ من ذَهَب » أى نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذى نرى . ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أى تصعد ؛ يقال : رَقِيت فى السُّلَّم أَرْقَى رَقْيًا وَرُقِيًّا إذا صعِدت . وارتقيت مثله . ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أى من أجل رُقِيِّك ، وهو مصدر ؛ نحو مضى يمضى مُضِيًّا ، وهوى يهوى هُوِيًّا ، كذلك رقى يرقى رُقِيًّا . ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ أى كتابا من الله تعالى إلى كل رجل منا ؛ كما قال تعالى : « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً »(1) . ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وقرأ أهل مكة والشام « قال سبحان ربى » يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى قال ذلك تنزيها لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء وعن أن يُعترض عليه فى فعل . وقيل : هذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم . الباقون «قل» على أمر ؛ أى قل لهم يا محمد ﴿هَلْ كُنْتُ﴾ أى ما أنا ﴿إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أتبع ما يوحَى إلىّ من ربى ، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التى ليست فى قدرة البشر ، فهل سمعتم أحدا من البشر أتى بهذه الآيات ! وقال بعض الملحدين : ليس هذا جوابا مقنعا ، وغلِطوا ؛ لأنه أجابهم فقال : إنما أنا بشر لا أقدر على شى مما سألتمونى ، وليس لى أن أتخيّر على ربى ، ولم تكن الرسل قبلى يأتون أممهم بكل ما يريدونه ويبغونه ، وسبيلى سبيلهم ، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم ، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها ، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل ، ولوجب لكل إنسان أن يقول : لا أومن حتى أوتى بآية خلاف ما طلب غيرى . وهذا يئول إلى أن يكون التدبير إلى الناس ، وإنما التدبير إلى الله تعالى .

(1) راجع جـ ١٩ ص ٨٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ يعنى الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه . ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ جهلا منهم . ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ أى الله أجل من أن يكون رسوله من البشر . فبيّن الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا : أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد، وغفلوا عن المعجزة . فـ « أَنْ » الأولى فى محل نصب بإسقاط حرف الخفض . و « أن » الثانية فى محل رفع بـ « منع » أى وما منع الناس من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا .

قوله تعالى : قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

أعلم الله تعالى أن المَلَك إنما يُرسل إلى الملائكة؛ لأنه لو أرسل ملكا إلى الآدميين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التى خُلق عليها، وإنما أقدر الأنبياء على ذلك وخلق فيهم ما يقدرون به؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة . وقد تقدّم فى « الأنعام » نظير هذه الآية ؛ وهو قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » (١) وقد تقدم الكلام فيه .

قوله تعالى : قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله : « هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » : فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزل : « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٩٣ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى ﴾ أى لو هداهم الله لاهتدوا . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى لايهديهم أحد . ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ فيـه وجهان : أحدهما — أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ؛ من قول العرب : قدِم القوم على وجوههم إذا أسرعوا . الثانى — أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهـنم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى هوانه وتعذيبه . وهـذا هو الصحيح ؛ لحديث أنس أن رجلا قال : يارسـول الله ، الذين يحشرون على وجوههم ، أيحشر الكافر على وجهـه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أليس الذى أمشاه على الرجلين قادرا على أن يُمْشِيَه على وجهـه يوم القيامة " : قال قتادة حين بلغه : بَلَى وعِزَّةِ رَبِّنـا . أخرجه البخارى ومسلم . وحسـبك . ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ قال ابن عباس والحسن : أى عُمْىٌ عما يسرّهم ، بُكْمٌ عن التكلم بحجة ، صُمٌّ عما ينفعهم ؛ وعلى هـذا القول حواسهم باقية على ماكانت عليه . وقيل : إنهم يحشرون على الصفة التى وصفهم الله بها ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابهم ، ثم يخلق ذلك لهم فى النار، فأبصروا ؛ لقوله تعالى : « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا »(١) ، وتكلموا ؛ لقوله تعالى : « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا »(٢) ، وسمعوا ؛ لقوله تعالى : « سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا »(٢) . وقال مقاتل بن سليمان : إذا قيل لهم : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ »(٣) صاروا عُمْيًا لا يبصرون صُمًّا لايسمعون بُكْمًا لايفقهون . وقيل : عموا حين دخلوا النار لشدة سوادها ، وانقطع كلامهم حين قيل لهم : «اخسئوا فيها ولا تكلمون» . وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئا . ﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَـنَّمُ ﴾ أى مستقرهم ومقامهم . ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ أى سكنت ؛ عن الضحاك

(١) راجع جـ ١١ ص ٣ .	(٢) راجع جـ ١٣ ص ٧ .	(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ .

Marfat.com

وغيره . مجاهد طفئت . يقال : خبت النار تخبو خبوا أى طفئت ، وأخبيتها أنا . ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى نارا تتلهب . وسكون التهابها من غير نقصان فى آلامهم ولا تخفيف عنهـم من عذابهم . وقيل : إذا أرادت أن تخبو . كقوله : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ »[1] .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى ذلك العذاب جزاء كفرهم . ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى ترابا . ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ قيل : فى الكلام تقـديم وتأخير ، أى أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم . والأجل : مدة قيامهم فى الدنيا ثم موتهم ، وذلك ما لا شك فيـه إذ هو مشاهد . وقيـل : هو جواب قولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » . وقيل : هو يوم القيامة . ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أى المشركون إلا جحودا بذلك الأجل وبآيات الله . وقيل : ذلك الأجل هو وقت البعث ، ولا ينبغى أن يُشَكّ فيه .

قوله تعـالى : قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

(١) راجع ص ٢٦٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أى خزائن الأرزاق . وقيل : خزائن النعم ، وهذا أعم . ﴿إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ من البخل ، وهو جواب قولهم : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » حتى نتوسّع فى المعيشة . أى لو توسعتم لبخلتم أيضا . وقيل : المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى ؛ لأمرين : أحدهما — أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته . الثانى — أنه يخاف الفقر ويخشى العدم . والله تعالى يتعالى فى وجوده عن هاتين الحالتين . والإنفاق فى هذه الآية بمعنى الفقر ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذ قلّ ماله . ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أى بخيلا مضيّقا . يقال : قتَر على عياله يقتِر ويقتُر قترا وقُتُورا إذا ضيق عليهم فى النفقة ، وكذلك التقتير والإقتار ، ثلاث لغات . وٱختلف فى هذه الآية على قولين : أحدهما — أنها نزلت فى المشركين خاصّة ؛ قاله الحسن . والثانى — أنها عامة ، وهو قول الجمهور ؛ وذكره الماوردى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ٱختلف فى هذه الآيات ؛ فقيل : هى بمعنى آيات الكتاب ؛ كما روى الترمذىّ والنسائىّ عن صفوان بن عسّال المرادىّ أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبىّ نسأله ؛ فقال : لا تقل له نبىّ فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين ؛ فأتيا النبىّ صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببرىء إلى السلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفرّوا من الزحف — شك شعبة — وعليكم [يامعشر] اليهود خاصة ألا تعدوا فى السبت" فقبّلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبىّ . قال :

Marfat.com

"فما يمنعكما أن تُسلما" قالا: إن داود دعا الله ألا يزال فى ذريته نبيّ وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وقد مضى فى البقرة[1]. وقيل: الآيات بمعنى المعجزات والدلالات. قال ابن عباس والضحاك: الآيات التسع العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم؛ آيات مفصّلات. وقال الحسن والشعبيّ: الخمس المذكورة فى «الأعراف»[2]؛ يعنيان الطوفان وما عطف عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات. وروى نحوه عن الحسن؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة تلقّف العصا ما يأفكون. وعن مالك كذلك؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات: البحر والجبل. وقال محمد بن كعب: هى الخمس التى فى «الأعراف» والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم. وقد تقدّم شرح هذه الآيات مستوفًى والحمد لله. ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أى سلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات، حسبما تقدّم بيانه فى يونس[3]. وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ أى ساحرا بغرائب أفعالك: قاله الفراء وأبو عبيدة. فوضع المفعول موضع الفاعل؛ كما تقول: هذا مشئوم وميمون، أى شائم ويامن. وقيل: مخدوعا. وقيل: مغلوبا؛ قاله مقاتل. وقيل: غير هذا؛ وقد تقدّم. وعن ابن عباس وأبى نَهيك أنهما قرآ: «فَسَالَ بَنِي إسرائيل» على الخبر؛ أى سأل موسى فرعونَ أن يخلّى بنى إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (١٠٢)

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعنى الآيات التسع. و«أنزل» بمعنى أوجد. ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ أى دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته.

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٩. (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٦٧. (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٧٣ فما بعد.

Marfat.com

وقراءة العامة «علمتَ» بفتح التاء، خطابا لفرعون. وقرأ الكسائي بضم التاء، وهي قراءة علي [بن أبي طالب](1) رضي الله عنه؛ وقال: والله ما علم عدوّ الله ولكن موسى هو الذي علم؛ فبلغت ابنَ عباس فقال: إنها «لقد علمتَ»، واحتج بقوله تعالى: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا»(2). ونسب فرعون إلى العناد. وقال أبو عبيد: والمأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصح للمعنى الذي احتج به ابن عباس؛ ولأن موسى لا يحتج بقوله: علمت أنا، وهو الرسول الداعي، ولو كان مع هذا كلّه تصح به القراءة عن علي لكانت حجة، ولكن لا تثبت عنه، إنما هي عن كُلثوم المرادي وهو مجهول لا يعرف، ولا نعلم أحدا قرأ بها غير الكسائي. وقيل: إنما أضاف موسى إلى فرعون العلم بهذه المعجزات؛ لأن فرعون قد علم مقدار ما يتهيأ للسحرة فعله، وأن مثل ما فعل موسى لا يتهيأ لساحر، وأنه لا يقدر على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السموات والأرض. وقال مجاهد: دخل موسى على فرعون في يوم شاتٍ وعليه قطيفة له، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان، فرأى فرعون جانبي البيت بين فُقْمَيْهَا، ففزع وأحدث في قطيفته. [الفقم بالضم(3) اللحى، وفي الحديث "من حفظ ما بين فقميه" أي ما بين لحييه]. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الظن هنا بمعنى التحقيق. والثبور: الهلاك والخسران أيضا. قال الكُمَيْت:

وَرأَتْ قُضاعة في الأيا　＊　مِن رأيَ مَثْبُورٍ وثابِرْ

أي مخسور وخاسر، يعني في انتسابها إلى اليمن. وقيل: ملعونا. رواه المِنْهال عن سعيد ابن جُبير عن ابن عباس. وقاله أبان بن تَغْلِب. وأنشد:

ياقومنا لا تَرُوموا حَرْبَنَا سَفَهًا　＊　إنّ السَّفاه وإن البَغْيَ مثبورُ

أي ملعون. وقال ميمون بن مِهران عن ابن عباس: «مثبورا» ناقص العقل. ونظر المأمون رجلا فقال له: يا مثبور؛ فسئل عنه قال: قال الرشيد قال المنصور لرجل: مثبور؛ فسألته فقال: حدثني ميمون بن مِهران ... فذكره وقال قتادة: هالكا. وعنه أيضا والحسن

(1) من ج.　(2) راجع جـ ١٣ ص ١٥٦ فما بعد.　(3) من جـ و ى. في النهاية: بالضم والفتح — اللحى. تمام الحديث «ورجليه دخل الجنة» يريد من حفظ لسانه وفرجه.

Marfat.com

ومجاهد : مهلكا . والثبور : الهلاك؛ يقال : ثبر الله العدو ثبورا أهلكه . وقيل : ممنوعا من الخير . حكى أهل اللغة : ما ثبرك عن كذا أى ما منعك منه . وثبره الله يثبُره [ويثبِره لغتان](١). قال ابن الزِّبَعْرى :

إذ أجارى الشيطان فى سَنَن الغـ ۞ ـىّ ومن مال مَيْله مثبور

الضحاك : « مثبورا » مسحورا . ردّ عليه مثل ما قال له بآختلاف اللفظ . وقال ابن زيد : « مثبورا » مخبولا لا عقل له .

قوله تعالى : فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى أراد فرعون أن يخرج موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر [إما](٢) بالقتل أو بالإبعاد؛ فأهلكه الله عز وجل . ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد إغراقه . ﴿ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ أى أرض الشام ومصر . ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى القيامة . ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أى من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيله وحيّه . وقال ابن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعا من جهات شتّى . والمعنى واحد . قال الجوهرى : واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى ؛ يقال : جاء القوم بلَفّهم ولفيفهم ، أى وأخلاطهم . وقوله تعالى : « جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا » أى مجتمعين مختلطين . وطعام لَفيف إذا كان مخلوطا من جنسين فصاعدا . وفلان لفيف فلان أى صديقه . قال الأصمعى : اللفيف جمعٌ وليس له واحد ، وهو مثل الجميع . والمعنى : أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر ، مختلطين لا يتعارفون . وقال الكلبى : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ » يعنى مجىء عيسى عليه السلام من السماء .

(١) من جـ و ى .   (٢) من جـ . وفى ى : إما بالقتل وإما بالإبعاد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن . والكناية ترجع إلى القرآن . ووجه التكرير في قوله : « وَبِالْحَقِّ نَزَلَ » يجوز أن يكون معنى الأول : أوجبنا إنزاله بالحق . ومعنى الثاني : ونزل وفيه الحق ؛ كقوله : خرج بثيابه ، أي وعليه ثيابه . وقيل : الباء في : «وبالحق» الأول بمعنى مع ، أي مع الحق ؛ كقولك : ركب الأمير بسيفه أي مع سيفه . « وبِالْحَقِّ نَزَلَ » أي بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي نزل عليه ؛ كما تقول : نزلت بزيد . وقيل : يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل ، وكذلك نزل .

قوله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ مذهب سيبويه أن « قرآنا » منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر . وقرأ جمهور الناس : « فَرَقناه » بتخفيف الراء ، ومعناه بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل ؛ قاله الحسن . وقال ابن عباس : فصّلناه . وقرأ ابن عباس وعلىّ وابن مسعود وأُبَىّ بن كعب وقتادة وأبو رجاء والشَّعْبىّ « فرّقناه » بالتشديد ، أي أنزلناه شيئا بعد شيء لا جملة واحدة ؛ إلا أن في قراءة ابن مسعود وأُبَىّ « فرقناه عليك » .

واختلف في كم نزل القرآن من المدّة ؛ فقيل : في خمس وعشرين سنة . ابن عباس : في ثلاث وعشرين . أنس : في عشرين . وهذا بحسب الخلاف في سن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة . وقد مضى هذا في « البقرة »(١) . ﴿ عَلَى مُكْثٍ ﴾ أي تطاول في المدّة شيئا بعد شيء . ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود ، أي أنزلناه آية آية وسورةً سورة . وأما على القول الأول فيكون « عَلَى مُكْث » أي على ترسّل في التلاوة وترتيل ؛ قاله مجاهد وابن عباس وابن جريج . فيعطي القارئ القراءة حقّها من

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩٧ .

Marfat.com

ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤدّ[1] إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ماتقدم أوّل[2] الكتاب . وأجمع القرّاء على ضم الميم من « مُكث » إلا ابن محيصن فإنه قرأ « مكث » بفتح الميم . ويقال . مَكْث ومُكْث ومِكْث؛ ثلاث لغات . قال مالك : « على مُكْث » على تثبّت وترسّل[3] .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم؛ أى أنزلناه نجمًا بعد نجم[4]؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا .

قوله تعالى : قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ يعنى القرآن . وهذا من الله عز وجل على وجه التبكيت لهم والتهديد لا على وجه التخيير . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل نزول القرآن وخروج النبىّ صلى الله عليه وسلم، وهم مؤمنوا أهل الكتاب؛ فى قول ابن جريج وغيره . قال ابن جريج : معنى ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ كتابهم . وقيل : القرآن . ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ وقيل : هم قوم من ولد إسماعيل تمسّكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبىّ عليه السلام، منهم زيد بن عمرو بن نُفيل وورقة بن نَوْفل . وعلى هذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدّين . وقال الحسن : الذين أوتوا العلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : أنهم ناس من اليهود؛ وهو أظهر لقوله : « مِن قَبْلِهِ » . « إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ » يعنى القرآن فى قول مجاهد . كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا : « سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا » . وقيل : كانوا إذا تلَوْا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبحوا، وقالوا : هذا هو المذكور فى التوراة، وهذه صفته، ووعد الله به واقع لا محالة؛ وجنحوا إلى الإسلام؛ فنزلت الآية فيهم . وقالت فرقة : المراد بالذين أوتوا العلم من قبله

(١) فى الأصول : « المؤدى » . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٧ . (٣) فى جـ : ترتيل
(٤) أى نزل آية آية وسورة سورة .

Marfat.com

محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير فى « قبله » عائد على القرآن حسب الضمير فى قوله « قُلْ آمِنُوا بِهِ » . وقيل : الضميران لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وٱستأنف ذكر القرآن فى قوله « إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ » .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾

دليل على جواز التسبيح فى السجود . وفى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى سجوده وركوعه "سبحانك اللهم [ربنا][(١)] وبحمدك اللهم ٱغفر لى"

قوله تعالى : وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ هذه مبالغة فى صفتهم ومدح لهم. وحق لكل من توسّم بالعلم وحصل منه شيئا أن يجرى إلى هذه المرتبة ، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويَذل . وفى مسند الدارِمىّ أبى محمد عن التَّيْمِىّ قال : من أوتى من العلم ما لم يبكّه لخليق ألا يكون أوتى علما ؛ لأن الله تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية . ذكره الطبرى أيضا . والأذقان جمع ذقن، وهو مجتمع اللَّحْيين . وقال الحسن : الأذقان عبارة عن اللحى ؛ أى يضعونها على الأرض فى حال السجود، وهو غاية التواضع . واللام بمعنى على ؛ تقول : سقط لِفِيه أى على فيه . وقال ابن عباس : « يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا » أى للوجوه، وإنما خص الأذقان بالذكر لأن الذقن أقرب شىء من وجه الإنسان . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد ولا يجوز السجود على الذقن؛ لأن الذقن ها هنا عبارة عن الوجه ، وقد يعبّر بالشىء عما جاوره وببعضه عن جميعه؛ فيقال : خرلوجهه ساجدا و إن كان لم يسجد على خدّه ولا عينه.

ألا ترى إلى قوله : * فخـرّ صَرِيعا لليدين ولِلْفَم *

فإنما أراد : خر صريعا على وجهه و يديه .

---

(١) من جـ و ى .

Marfat.com

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ يَبْكُونَ ﴾ دليـل على جواز البكاء في الصـلاة من خوف الله تعالى ، أو على معصيته في دين الله ، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها . ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانِيّ عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : أتيت النبيّ صـلى الله عليـه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء . وفي كتاب أبي داود : وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء .

الثالثـــة ــ واختلف الفقهاء في الأنين؛ فقال مالك : الأنين لا يقطع الصلاة للمريض، وأكرهه للصحيح؛ وبه قال الثوري . وروى ابن الحَكَم عن مالك : التنحنُح والأنين والنفخ لا يقطع الصـلاة . وقال ابن القاسم ؛ يقطع . وقال الشـافعيّ : إن كان له حروف تسمع وتُفهم يقطع الصـلاة . وقال أبو حنيفة : إن كان من خوف الله لم يقطع ، وإن كان من وجع قطع . وروى عن أبي يوسف أن صـلاته في ذلك كلّه تامةٌ ؛ لأنه لا يخـلو مريض ولا ضعيف من أنين .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ تقـدّم القـول في الخشـوع في « البقرة »[1] ويأتي .

قوله تعـالى : قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ سبب نزول هـذه الآية أن المشركين سمعوا رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يدعو "يا ألله يا رحمن" فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين؛ قاله ابن عباس . وقال مكحول : تهجد رسـول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال في دعائه : "يا رحمن يا رحيم" فسمعه رجل

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٤ ، وجـ ١٢ ص ١٠٣ .

Marfat.com

من المشركين ، وكان باليمامة رجل يسمى الرحمن ، فقال ذلك السامع : ما بال محمد يدعو رحمان اليمامة . فنزلت الآية مبينة أنهما اسمان لمسمًّى واحد؛ فإن دعوتموه بالله فهو ذاك ، و إن دعوتموه بالرحمن فهو ذاك . وقيل : كانوا يكتبون فى صدر الكتب : باسمك اللهم ؛ فنزلت « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ »(1) فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال المشركون : هذا الرحيم نعرفه فما الرحمن ؛ فنزلت الآية . وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع فى القرآن اسما هو فى التوراة كثير ، يعنون الرحمن ؛ فنزلت الآية . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « أَيًّا مَنْ تَدْعُو فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » أى التى تقتضى أفضل الأوصاف وأشرف المعانى . وحسنُ الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع؛ لإطلاقها والنص عليها . وانضاف إلى ذلك أنها تقتضى معانى حسانا شريفة، وهى بتوقيف لا يصح وضع اسم الله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع . حسبما بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — اختلفوا فى سبب نزولها على خمسة أقوال :

الأول — ما روى ابن عباس فى قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مُتَوارٍ بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سَبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به؛ فقال الله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ » فيسمع المشركون قراءتك . « وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » عن أصحابك . أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر . ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : يقول بين الجهر والمخافتة؛ أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم . واللفظ لمسلم . والمخافتة : خفض الصوت والسكون ؛ يقال للميت إذا بَرَد : خفت . قال الشاعر :

لم يبق إلا نَفَس خافت * ومُقْلَةٌ إنسانها باهت

رَثَى لها الشامت مما بها * ياوَيْحَ من يَرْثى له الشّامت

---

(1) راجع جـ ١٣ ص ١٩١ فما بعد .

Marfat.com

الثـانى — مارواه مسلم أيضا عن عائشة فى قوله عز وجل : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » قالت : أنزل هذا فى الدعاء .

الثـالث — قال ابن سيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فنزلت الآية فى ذلك .

قلت : وعلى هـذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد، وقـد قال ابن مسعود : من السنة أن تخفى التشهد ؛ ذكره ابن المنذر .

الرابـع — ما روى عن ابن سيرين أيضا أن أبا بكر رضى الله عنـه كان يُسِر قراءته ، وكان عمر يجهر بها ، فقيل لهما فى ذلك؛ فقال أبو بكر : إنمـا أناجى ربى ، وهو يعلم حاجتى إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسْنان؛ فلما نزلت هـذه الآية قيل لأبى بكر: آرفع قليلا ، وقيل لعمر : آخفض أنت قليلا ؛ ذكره الطبرى وغيره .

الخامس — ماروى عن ابن عباس أيضا أن معناها ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة الليل؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراوى . فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة فى النوافل والفرائض، فأما النوافل فالمصلّى مخيّر فى الجهر والسر فى الليل والنهار، وكذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعل الأمرين جميعا وأما الفرائض فحكمها فى القراءة معلوم ليلا ونهارا

وقول سادس — قال الحسن : يقول الله لاترائى بصلاتك تحسّنها فى العلانية ولا تسيئها فى السر . وقال ابن عباس : لا تصلّ مرائيا للناس ولا تدعها مخافة الناس .

الثانيـــة — عبّر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصـلاة فى قوله : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهى من جملة أجزائها؛ فعبر بالجزء عن الجملة و بالجملة عن الجزء على عادة العرب فى المجاز وهو كثير؛ ومنه الحديث الصحيح : " قسمتُ الصلاة بينى وبين عبدى " أى قراءة الفاتحة على ماتقدّم .

قوله تعـالى : وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب فى قولهم أفذاذا : عزيز وعيسى والملائكة ذرية[(1)] الله سبحانه ؛ تعالى الله عن أقوالهم ! ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ لأنه واحد لا شريك له فى ملكه ولا فى عبادته . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ قال مجاهد : المعنى لم يحالف أحدا ولا ابتغى نصر أحد ؛ أى لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعا. وقال الكلبي : لم يكن له ولىّ من اليهود والنصارى ؛ لأنهم أذل الناس ، ردا لقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه . وقال الحسن بن الفضل : « وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ » يعنى لم يُذَلّ فيحتاج إلى وَلِىّ ولا ناصر لعزته وكبريائه. ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ أى عظّمه عظمة تامة . ويقال : أبلغ لفظة للعرب فى معنى التعظيم والإجلال : الله أكبر ؛ أى صفه بأنه أكبر من كل شئ . قال الشاعر :

رأيتُ الله أكبر كل شيء * محاولة وأكثرهم جنودا

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل فى الصلاة قال : " الله أكبر " وقد تقدّم أوّل[(2)] الكتاب . وقال عمر بن الخطاب : قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها . وهذه الآية هى خاتمة التوراة . روى مُطَرِّف عن عبد الله بن كعب قال : افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة . وفى الخبر أنها آية العز ؛ رواه معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه « وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى » الآية. وقال عبد الحميد بن واصل : سمعت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قرأ وقل الحمد لله الآية كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولدا تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا " . وجاء فى الخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر رجلا شكا إليه بالدَّين بأن يقرأ « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ » — إلى آخر السورة ثم يقول — توكلت على الحى الذى لا يموت ؛ ثلاث مرات .

تمت سورة الإسراء ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده .

(1) فى جـ : تنزيه الله .		(2) راجع جـ ١ ص ١٧٥ .

Marfat.com

تفسير سورة الكهف

وهى مكية فى قول جميع المفسرين. وروى عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله : « جُرُزًا »، والأول أصح. ورُوى فى فضلها من حديث أنس أنه قال : من قرأ بها أُعطِيَ نورا بين السماء والأرض ووُقِيَ بها فتنة القبر. وقال إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا أدلّكم على سورة شيّعها سبعون ألف مَلَك مَلَأ عِظَمُها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك". قالو : بلى يارسول الله ؟ قال: "سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطى نورا يبلغ السماء ووُقِيَ فتنة الدجال" ذكره الثعلبي. والمهدوى أيضا بمعناه. وفى مسند الدارمي عن أبى سعيد الخُدْرِي قال : من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق. وفى صحيح مسلم عن أبى الدّرداء أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال". وفى رواية "من آخر الكهف". وفى مسلم أيضا من حديث النواس بن سِمْعان "فمن أدركه — يعنى الدجال — فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف". وذكره الثعلبي. قال : سَمُرة بن جُنْدُب قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حِفْظًا لم تضره فتنة الدجال". ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة.

قوله تعالى : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما ﴾ ذكر ابن إسحاق أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعُقبة بن أبى مُعَيْط إلى أحبار يهود وقالوا لهما:

Marfat.com

سَلاهم عن محمد وصِفَا لهم صِفَتَه وأخبراهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء؛ فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هـذا . فقالت لهما أحبار يهود : سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل، فَرَوْا فيـه رأيكم ؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديثٌ عجب . وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نَبَؤه . وسلوه عن الروح، ماهي؛ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبيّ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل فاصنعوا في أمره مابدا لكم . فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط حتى قدما مكة على قريش فقالا : يامعشر قريش ! قد جئناكم بفَصْل ما بينكم وبين محمد — صلى الله عليه وسلم — قد أمَرَنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمَرُونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل، فَرَوْا فيه رأيكم.(1) فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد، أخبرنا عن فِتية ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوّافا قـد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ماهي؟ قال: فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أخبركم بمـا سألتم عنه غدا" ولم يستثن(2) . فانصرفوا عنه ، فمكث رسـول الله صلى الله عليـه وسلم فيما يزعمون خمس عشرة ليلة، لا يُحدث الله إليـه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف(3) أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة ليلة ، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء ممـا سألناه عنه ؛ وحتى أحزنَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مكثُ الوحي عنه، وشق عليه مايتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السـلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفِتية ، والرجلِ الطـواف والروح . قال ابن إسحاق : فذُكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : " لقد احتبست عني

(1) في جـ : يخبركم . (2) أي لم يقل — صلى الله عليه وسلم — إن شاء الله . (3) أرجف القوم: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن وفي جـ : أرجف وهو الاضطراب ، ولعله وهم من الناسخ .

Marfat.com

يا جبريل حتى سُـؤت ظنًّا » فقال له جبريل : « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِـيًّا (١) » . فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده، وذكر نبوّة رسـوله صلى الله عليه وسـلم لمـا أنكروا عليـه من ذلك فقال : « الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ » يعنى محمدا، إنك رسول منّى، أى تحقيق لمـا سألوا عنه من نبوّتك . « وَلَمْ يَجْعَـلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا » أى معتدلًا لا اختلاف فيه . « لِيُنْـذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ » أى عاجل عقوبته فى الدنيا، وعذابا أليمـا فى الآخرة، أى من عند ربك الذى بعثك رسولا « وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيـهِ أَبَدًا » أى دار الخلد لا يموتون فيها ، الذين صدّقوك بما جئت به مما كذّبك به غيرهم، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال . « وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا » يعنى قريشا فى قولهم : إنا نعبد الملائكة وهى بنـات الله . « مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ » الذين أعظموا فراقهم وعَيْب دينهم . « كَبُرَتْ كَلِمَـةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى لقولهم إن الملائكة بنات الله . « إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَاخِـعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم، أى لا تفعل . قال ابن هشام: «بَاخِعٌ نَفْسَكَ» أى مُهلك نفسك؛ فيما حدّثنى أبو عبيدة . قال ذو الرمّة :

ألا أيّهذا الباخعُ الوَجْدُ نفسه * بشىء نَحَتْـه عن يَدَيْه المقـادرُ (٢)

وجمعها باخعون وبَخَعة . وهـذا البيت فى قصيدة له . وتقول العرب : قـد بخعتُ له نُصحى ونفسى ، أى جَهَدت له . « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَـا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَـلًا » قال ابن إسحاق : أى أيّهم أتبع لأمرى وأعمـل بطاعتى . « وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » أى الأرض، وإن ما عليها لفانٍ وزائل، وإن المرجع إلىّ فأجزى كلًّا بعمله؛ فلا تأس ولا يحزنك ما ترى وتسـمع فيها . قال ابن هشام : الصّعيد وجه الأرض، وجمعه صُعُد . قال ذو الرُّمّة يصف ظَبْيًا صغيرا :

---

(١) راجع ج ١١ ص ١٢٨ . (٢) مطلعها :

لمية أطلال بحزوى دوائر * عفتها السوافى بعدنا والمواطر

Marfat.com

كأنه بالضُّحَا تَرمى الصعيدَ به * دبّابةٌ فى عِظام الرأس خُرْطوم[1]

وهـذا البيت فى قصـيدة له[2] . والصعيد أيضا : الطريق ، وقد جاء فى الحديث : " إياكم والقعود على الصُّعُدات " يريد الطرق . والجُرُز : الأرض التى لا تنبت شيئا ، و جمعها أجراز . و يقال : سَنَةٌ جُرُز وسِنون أجراز ، وهى التى لا يكون فيها مطر . وتكون فيها جدو بة و يبس وشدّة . قال ذو الرمّة يصف إبلا :

طَوَى النحز والإجراز ما فى بطونها * فما بقيت إلا الضلوع الجراشِعُ[3]

قال ابن إسحاق : ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال : « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا » أى قد كان من آياتى فيما وضعت على العباد من حججى ما هو أعجب من ذلك . قال ابن هشام : والرقيم الكتاب الذى رُقِم بخبرهم ، و جمعه رُقُم . قال العجاج :

* ومُستَقَرّ المصحف المُرَقَّم *

وهـذا البيت فى أُرْجوزة له[4] . قال ابن إسحاق : ثم قال : « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا » . ثم قال : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ » أى بصدق الخبر « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا » أى لم يشركوا بى كما أشركتم بى ما ليس لكم به علم . قال ابن هشام : والشَّطَط الغُلُوّ ومجاوزة الحق . قال أعشى [بنى][5] قيس بن ثعلبة :

أتنتهون ولا يَنْهَى ذَوِى شَطَطٍ * كالطعن يذهبُ فيه الزَّيتُ والفُتُلُ

---

(١) يعنى بالدبابة : الخمر . والخرطوم : الخمر وصفوتها . (٢) مطلعها :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة * ماء الصبابة من عينيك مسجوم

(٣) النحز : الضرب والدفع . والجراشع : الغلاظ ؛ الواحد جرشع . (٤) مطلعها :

يا دار سلمى يا اسلمى ثم اسلمى * بسمسم أو عن يمين سمسم

(٥) من جـ .

Marfat.com

وهذا البيت فى قصيدة له[1]. قال ابن إسحاق: «هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ». قال ابن إسحاق: أى بحجة بالغة. «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا. وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا. وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ». قال ابن هشام: تزاور تميل؛ وهو من الزَّوَر. وقال أبو الزحف الكُلَيبيّ[2] يصف بلدا:

جَذْبُ المُنَدَّى عن هوانا أزْوَرُ * يُنْضِى المطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ[3]

وهذان البيتان[4] فى أرجوزة له. و «تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ» تجاوزهم وتتركهم عن شمالها. قال ذو الرمة:

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضن أقواز مشرف * شمالا وعن أيمانهن الفوارس[5]

وهذا البيت فى قصيدة له[6]. والفَجْوة: السَّعة، وجمعها الفِجاء. قال الشاعر:

ألبسْتَ قومك مَخزاة ومنقصةً * حتى أُبيحوا وخَلَّوا فَجْوة الدار

«ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ» أى فى الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ممن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم فى صدق نبوتك بتحقيق الخبر عنهم. «مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ

(١) مطلعها: ودّع هريرة إن الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أيها الرجل

(٢) فى اللسان مادة «سمهدر» أنه أبو الزحف الكلبى. واستدرك عليه مصحح اللسان بقوله: «قوله الكلبى نسبة لكاين كأمير بلدة بالرى». ومما يقوى أنه الكليبي (بالباء) ما ذكره ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء أنه أبو الزحف بن عطاء بن الخطفى بن عم جرير الشاعر. ومن البين أن جريرا من بنى كليب.

(٣) قبله:

* وبلدٍ نَ ليلى بلدٍ سمهدر *

وبلد سمهدر: بعيد مضلة واسع. والمندى: حيث يرتع ساعة من النهار. والأزور: الطريق المعوج. وأنضى البعير: هزله بكثرة السير. والخمس (بكسر السين) من أظماء الإبل، أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع. والعشنزر: الشديد.

(٤) يعنى بالبيتين هنا شطرى الرجز.

(٥) القوز (بالفتح): العالى من الرمل كأنه جبل. والفوارس: رمال بالدهناء.

(٦) مطلعها:

ألم تسأل اليوم الرسوم الدوارس * بحزوى وهل تدرى القفار البسابس

Marfat.com

الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » قال ابن هشام : الوصيد الباب . قال العبسي واسمه عبد بن وهب[(١)] :

بأرض فَلَاةٍ لا يُسَدُّ وصيدها * عليّ ومعروفي بها غير منكرِ

وهذا البيت في أبيات له . والوصيد أيضا الفناء ، وجمعه وصائد ووُصُد ووُصْدان . « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا – إلى قوله – الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ » أهل السلطان والملك منهم . « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا . سَيَقُولُونَ » يعني أحبار اليهود الذين أمروهم بالمسئلة عنهم . « ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ » أي لا تكابرهم. « إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا » فإنهم لا علم لهم بهم . « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » أي لا تقولنّ لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا إني مخبركم غدا، واستثن مشيئة الله، واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لخبر ما سألتموني عنه رَشَدا، فإنك لا تدري ما أنا صانع في ذلك . « وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا » أي سيقولون ذلك . « قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا » أي لم يخف عليه شيء مما سألوك عنه .

قلت : هذا ما وقع في السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نَسَقه[(٢)] . ويأتي خبر ذي القرنين ، ثم نعود إلى أول السورة فنقول :

قد تقدّم معنى الحمد لله . وزعم الأخفش والكسائيّ والفرّاء وأبو عبيد وجمهور المتأولين أن في أول هذه السورة تقديما وتأخيرا، وأن المعنى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً ولم يجعل له عوجا . و « قَيِّمًا » نصب على الحال . وقال قتادة: الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير ، ومعناه : ولم يجعل له عوجا ولكن جعلناه قَيِّماً . وقول الضحاك فيه حُسْن وأن

(١) في سيرة ابن هشام : « عبيد بن وهب » .
(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ١٩٢ طبع أوروبا و جـ ١ ص ٣٢١ طبع مطبعة الحلبي .

Marfat.com

المعنى : مستقيم(١) ، أى مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض . وقيل : « قيما » على الكتب السابقة يصدقها . وقيل : « قيّما » بالحجج أبدا . « عِوَجًا » مفعول به ؛ والعِوَج (بكسر العين) فى الدّين والرأى والأمر والطريق . و بفتحها فى الأجسام كالخشب والجدار ؛ وقد تقدّم(٢) . وليس فى القرآن عِوج ، أى عيب ، أى ليس متناقضا مختلفا ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافًا كَثِيرًا(٣) » وقيل : أى لم يجعله مخلوقا ؛ كما روى عن ابن عباس فى قوله تعالى « قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ(٤) » قال : غير مخلوق . وقال مقاتل : « عِوجا » اختلافا . قال الشاعر :

أدوم بودّى للصديق تكرّما * ولا خير فيمن كان فى الودّ أعوجا

﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ أى لينذر محمد أو القرآن . وفيه إضمار ، أى لينذر الكافرين عقاب الله . وهذا العذاب الشديد قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى الآخرة . ﴿ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أى من عنده . وقرأ أبو بكر عن عاصم « من لدنه » بإسكان الدال و إشمامها الضم وكسر النون ، والهاء موصولة بياء . الباقون « لَدُنْهُ » بضم الدال و إسكان النون وضم الهاء . قال الجوهرى : وفى « لَدُنْ » ثلاث لغات : لَدُن ، ولَدَى ، ولَدُ . وقال :

* من لَدُ لَحْيَيْه إلى مُنْحُورِه(٥) *

المُنْحُور لغة فى المَنْحَر .

قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أى بأن لهم . ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ وهى الجنة . ﴿ مَاكِثِينَ ﴾ دائمين . ﴿ فِيهِ أَبَدًا ﴾ لا إلى غاية . و إن حملت التبشير على البيان لم يحتج إلى الباء فى «أن» . والأجر الحسن : الثواب العظيم الذى يؤدى إلى الجنة .

---

(١) أى معنى قوله « قيما » . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ . (٣) راجع جـ ٥ ص ٢٨٨ .
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٢ (٥) هذا عجز بيت لغيلان بن حريث . وصدره كما فى اللسان :

* يستوعب البوعين من جريره *

والمنحور (بالحاء المهملة وضم الميم) لغة فى النحر ، وهو الصدر . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصول وصحاح الجوهرى واللسان مادة « نخر ، ولدن » بالخاء المعجمة ، وهو الأنف . وقد استدرك عليه ابن برى فقال : وصواب إنشاده كما أنشده سيبويه « إلى منحوره » بالحاء . وصف الشاعر بعيرا أو فرسا بطول العنق ؛ فجعله يستوعب من حبله الذى يوثق به مقدار باعين فيما بين لحييه ونحره : والبوع : الباع . والجرير : الحبل .

Marfat.com

قوله تعالى : وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ وهم اليهود، قالوا : عزيز ابن الله، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله وقريش قالت : الملائكة بنات الله . فالإنذار في أول السورة عام، وهذا خاص فيمن قال لله ولد . ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ « من » صلة، أي ما لهم بذلك القول علم؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل . ﴿ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ أي أسلافهم . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ « كلمة » نصب على البيان؛ أي كبرت تلك الكلمة كلمة . وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق « كلمة » بالرفع؛ أي عظمت كلمة؛ يعني قولهم اتخذ الله ولدا . وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار . يقال : كبر الشيء إذا عظم . وكبر الرجل إذا أسنّ . ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ في موضع الصفة . ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أي ما يقولون إلا كذبا .

قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ « باخع » أي مهلك وقاتل؛ وقد تقدم . « آثارهم » جمع أثر، ويقال : إثر . والمعنى : على أثر توليهم وإعراضهم عنك . ﴿ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ أي القرآن . ﴿ أَسَفًا ﴾ أي حزنا وغضبا على كفرهم؛ وانتصب على التفسير .

قوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ فيه مسئلتان :

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ « ما » و« زينة » مفعولان . والزينة كل ما على وجه الأرض، فهو عموم؛ لأنه دال على بارئه . وقال ابن جُبير عن ابن عباس : أراد بالزينة الرجال ؛ قاله مجاهد . وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمراء . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا » قال : العلماء زينة الأرض . وقالت فرقة : أراد النعم والملابس والثمار والخضرة والمياه، ونحو هذا مما فيه زينة، ولم يدخل فيه الجبال الصمّ وكل ما لا زينة فيه كالحيّات والعقارب . والقول بالعموم أولى، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه . والآية بسط في التسلية؛ أي لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحانا واختبارا لأهلها؛ فمنهم من يتدبر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم فلا يعظُمنّ عليك كفرهم فإنا نجازيهم .

الثانية — معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الدنيا خضرة حُلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون "(1) . وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من زهرة الدنيا " قال : وما زهرة الدنيا؟ قال : " بركات الأرض " خرجهما مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدري . والمعنى : أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كالثمر المُستحلَى المُعجِب المرأى؛ فابتلى الله بها عباده لينظر أيّهم أحسن عملا . أي من أزهد فيها وأترك لها ؛ ولا سبيل للعباد إلى بغضة ما زيّنه الله إلا [أن] يعينه على ذلك . ولهذا كان عمر يقول فيما ذكر البخاري : اللهمّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنته لنا ، اللهمّ إني أسالك أن أنفقه في حقه . فدعا الله أن يعينه على إنفاقه في حقه . وهذا معنى قوله عليه السلام : " فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف(2) نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع " وهكذا هو المكثر من الدنيا لا يقنع بما يحصل له منها بل همّته جمعها ؛ وذلك لعدم الفهم عن الله تعالى ورسوله ؛ فإن الفتنة معها حاصلةٌ وعدم السلامة غالبة، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وأقنعه

(1) الحديث كما في كشف الخفاء: «الدنيا خضرة... فناظر كيف...» رواه مسلم. (2) أي يتطلع إليه وطمع فيه.

Marfat.com

الله بما آتاه . وقال ابن عطية : كان أبى رضى الله عنه يقول فى قوله : « أحسن عملا » : أحسن العمل أخذٌ بحق و إنفاق فى حق مع الإيمان، وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار من المندوب إليه .

قلت : هذا قول حسن، وجيز فى ألفاظه بليغ فى معناه ، وقد جمعه النبي صلى الله عليه وسلم فى لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثقفي لما قال : يارسول الله، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك — فى رواية : غيرك . قال : " قل آمنت بالله ثم استقم " خرّجه مسلم . وقال سفيان الثورى : « أَحْسَنُ عَمَلًا » أزهدهم فيها . وكذلك قال أبو عصام العسقلانى : « أحسن عملا » أترك لها . وقد اختلفت عبارات العلماء فى الزهد؛ فقال قوم : قصر الأمل وليس بأكل الخشن ولبس العباء؛ قاله سفيان الثورى . قال علماؤنا : وصدق رضى الله عنه ! فإن من قَصُر أمله لم يتأنّق فى المطعومات ولا يتفنّن فى الملبوسات، وأخذ من الدنيا ما تيسر، واجتزأ منها بما يُبَلِّغ . وقال قوم : بُغْضُ المحمدة وحُبّ الثناء . وهو قول الأوزاعى ومن ذهب إليه . وقال قوم : ترك الدنيا كلها هو الزهد؛ أحَبَّ تَرْكَها أم كَرِه . وهو قول فُضيل . وعن بشر بن الحارث قال : حُبُّ الدنيا حبُّ لقاء الناس ، والزهدُ فى الدنيا الزهد فى لقاء الناس . وعن الفضيل أيضا : علامة الزهد فى الدنيا الزهد فى الناس . وقال قوم : لا يكون الزاهد زاهدا حتى يكون ترك الدنيا أحب إليه من أخذها؛ قاله إبراهيم بن أدهم . وقال قوم : الزهد أن تزهد فى الدنيا بقلبك؛ قاله ابن المبارك . وقالت فرقة : الزهد حبّ الموت . والقول الأوّل يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

تقدّم بيانه[1] . وقال أبو سهل : ترابا لا نبات به؛ كأنه قُطع نباته . والجَرْز : القطع؛ ومنه سنة جُرُز[2] . قال الراجز :

* قد جَرَفَتْهُنّ السُّنُونُ الأَجْرَازْ *

(١) ص ٣٤٨ من هذا الجزء .   (٢) فى جـ : وسيف جراز . وفى اللسان : سيف جراز بالضم قاطع .

Marfat.com

والأرض الجُرُز التى لا نبات فيها ولا شىء من عمارة وغيرها ؛ كأنه قطع وأزيل . يعنى يوم القيامة، فإن الأرض تكون مستوية لا مستتر فيها . النحاس : والجرز فى اللغة الأرض التى لا نبات بها . قال الكسائى : يقال جَرَزَت الأرض تجرز، وجرزها القوم يجرُزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهى مجروزة وجرز .(١)

قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

مذهب سيبويه أن « أم » إذا جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام أنها بمعنى بل وألف الاستفهام، وهى المنقطعة . وقيل : « أم » عطف على معنى الاستفهام فى "لعلك"، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار . قال الطبرى : وهو تقرير للنبىّ صلى الله عليه وسلم على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجبا ، بمعنى إنكار ذلك عليه ؛ أى لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع؛ هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وآبن إسحاق . والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن المشركين سألوه عن فِتْية فُقدوا ، وعن ذى القرنين وعن الروح، وأبطأ الوَحْى على ما تقدّم . فلما نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟ أى ليسوا بعجب من آياتنا، بل فى آياتنا ما هو أعجب من خبرهم . الكلبى : خَلْق السموات والأرض أعجب من خبرهم . الضحاك : ما أطلعتك عليه من الغيب أعجب . الجُنيد : شأنك فى الإسراء أعجب . الماوردىّ : معنى الكلام النفى؛ أى ما حسبت لولا إخبارنا . أبو سهل : استفهام تقرير؛ أى أحسبت ذلك فإنهم عجب . والكهف : النَّقْب المتّسع فى الجبل ؛ وما لم يتّسع فهو غار . وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال : الكهف الجبل ؛ وهذا غير شهير فى اللغة .

واختلف الناس فى الرَّقيم ؛ فقال ابن عباس : كل شىء فى القرآن أعلمه إلا أربعة : غِسْلين وحنان والأوّاه والرقيم . وسئل مرة عن الرقيم فقال : زعم كعب أنها قرية خرجوا

(١) فى الكلمة أربع لغات : جُرُز، جُرْز، جَرْز، جَرَز .

Marfat.com

منها . وقال مجاهد : الرقيم وادٍ . وقال السدّى : الرقيم الصخرة التى كانت على الكهف . وقال ابن زيد : الرقيم كتاب غَمّ الله علينا أمره، ولم يشرح لنا قصته . وقالت فرقة : الرقيم كتاب فى لوح من نُحاس . وقال ابن عباس : فى لوح من رصاص كتب فيه القوم الكفارُ الذين فرّ الفتية منهم قصتهم وجعلوها تاريخا لهم، ذكروا وقت فقدهم، وكم كانوا، وبين[(1)] من كانوا . وكذا قال الفراء، قال : الرقيم لوح من رصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا . قال ابن عطية : ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوما مؤرّخين للحوادث، وذلك من نُبْل المملكة؛ وهو أمر مفيد . وهذه الأقوال مأخوذة من الرقم؛ ومنه "كتاب مرقوم"[(2)] . ومنه الأرقم لتخطيطه . ومنه رَقْمة الوادى، أى مكان جرى الماء وانعطافه . وماروى عن ابن عباس ليس بمتناقض؛ لأن القول الأوّل إنما سمعه من كعب، والقول الثانى يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده . وروى عنه سعيد بن جُبير قال : ذكر ابن عباس أصحاب الكهف فقال : إن الفتية فقدوا فطلبهم أهلوهم فلم يجدوهم فرفع ذلك إلى الملك فقال : ليكونن لهم نبأ، وأحضر لوحا من الرصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله فى خزانته؛ فذلك اللوح هو الرقيم . وقيل : إن مؤمنَيْن كانا فى بيت الملك فكتبا شأن الفتية وأسماءهم وأنسابهم فى لوح من رصاص ثم جعلاه فى تابوت من نحاس وجعلاه فى البنيان؛ فالله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذى تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام . وقال النقاش عن قَتادة : الرقيم دراهمهم . وقال أنس بن مالك والشَّعْبى : الرقيم كلبهم . وقال عكرمة : الرقيم الدواة . وقيل : الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذى أقامه الخضر . وقيل : الرقيم أصحاب الغار الذى انطبق عليهم؛ فذكر كلّ واحد منهم أصلح عمله .

قلت : وفى هذا خبر معروف أخرجه الصحيحان[(3)]، وإليه نحا البخارى . وقال قوم : أخبر الله عن أصحاب الكهف، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشىء . وقال الضحاك : الرقيم بلدة بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفسا كأنهم نيام على هيئة أصحاب الكهف، فعلى هذا هم

(١) فى ج : وبنى من كانوا . (٢) راجع ١٩ ص ٢٥٤ . (٣) راجع صحيح مسلم ج ٨ ص ٨٩ طبع الاستانة . وشرح القسطلانى على صحيح البخارى ج ٤ ص ٢١٧، ج ٥ ص ٥٠٩ وج ٩ ص ٥ طبع بولاق .

Marfat.com

فتية آخرون جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف . والله أعلم . وقيل : الرقيم وادٍ دون فلسطين فيه الكهف؛ مأخوذ من رَقْمة الوادى وهى موضع الماء؛ يقال : عليك بالرَّقْمة ودع الضَّفّة؛ ذكره الغزنوى . قال ابن عطية : وبالشام على ماسمعت به من ناس كثير [كهف] فيه موتى، يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كلبٌ رِمّة . وبالأندلس فى جهة غَرْناطة بقرب قرية تسمى لَوْشه كهف فيه موتى ومعهم كلبٌ رِمّة، وأكثرهم قد تجرد لحمه وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم أثارة[1] . ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، دخلتُ إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رُومى يسمى الرقيم، كأنه قصر مُخْلِق قد بقى بعض جدرانه، وهو فى فلاة من الأرض خَرِبة، وبأعلى غرناطة مما يلى القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دَقْيوس، وجدنا فى آثارها غرائب من قبور ونحوها .

قلت : ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنما هم غيرهم؛ لأن الله تعالى يقول فى حق أصحاب الكهف : « لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » . وقد قال ابن عباس لمعاوية لما أراد رؤيتهم : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك؛ وسيأتى فى آخر القصة . وقال مجاهد فى قوله : « كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا » قال : هم عَجَبٌ . كذا روى ابن جُرَيج عنه؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون عنده أنهم عَجَب . وروى ابن نجيح عنه قال : يقول ليس بأعجب آياتنا .

قوله تعالى : إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ روى أنهم قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر، [يقال فيه : دقليوس[2]] ويقال فيه : دقنيوس . وروى أنهم كانوا

---

(١) الأثارة : البقية . (٢) من جـ

Marfat.com

مطوَّقين مسوَّرين بالذهب ذوى ذوائب(١)، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى . وقيل : كانوا قبل عيسى، والله أعلم . وقال ابن عباس: إن ملكا من الملوك يقال له : دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها : افسُوس . وقيل : هي طَرَسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرا، فرفع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلا، ومروا براع معه كلب فتبعهم فآووا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى فم الغار، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم، فدخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئا؛ فقال الملك : سُدُّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعا وعطشا . وروى مجاهد عن ابن عباس أيضا أن هؤلاء الفتية كانوا فى دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين — حسبما ذكر النقاش، أو من مؤمنى الأمم قبلهم — فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله؛ فرفع أمرهم إلى الملك، وقيل له : إنهم قد فارقوا دينك واستخفُّوا آلهتك وكفروا بها، فاستحضرهم الملك إلى مجلسه(٢) وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهته ، وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل؛ فقالوا له فيما روى : «رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ — إلى قوله — وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ» . وروى أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به، فقال لهم الملك : إنكم شبان أغمار لا عقول لكم، وأنا لا أعجل بكم بل أستأنى فاذهبوا إلى منازلكم ودبروا رأيكم وارجعوا إلى أمرى، وضرب لهم فى ذلك أجلا ، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتيــة فى الهروب بأديانهم ، فقال لهم أحدهم : إنى أعرف كهفا فى جبل كذا ، كان أبى يُدخل فيــه غنمه فلْنذهب فلْنختفِ فيه حتى يفتح الله لنـا ؛ فخرجوا فيما روى يلعبون بالصولجان والكرة ، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئـلا يشعر الناس بهم . وروى أنهـم كانوا مُثقفين لحضر عيد خرجوا إليه فركبوا فى جملة الناس، ثم أخذوا باللعب بالصَّوْلَجان والكُرَة حتى خَلَصوا بذلك. وروى وهب بن منبّه: أن أول أمرهم إنما كان حوارىّ لعيسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها، فأجّر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه ، فرأى صاحب الحمام فى أعماله بركة عظيمة،

(١) فى جـ هامش : حتى رؤسهم . (٢) فى جـ : فى مجلسه .

Marfat.com

فالتى إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجلَ فتيانٌ من [أهل][1] المدينة فعرفهم الله تعالى فآمنوا به واتبعوه على دينه، وآشتهرت خلطتهم به؛ فأتى يوما إلى ذلك الحمام ولد الملك بامرأة أراد الخلوة[2] بها فنهاه ذلك الحواريّ فانتهى، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشتمه، وأمضى عزمه فى دخول الحمام مع البَغِيّ، فدخل فماتا فيه جميعا؛ فاتُّهم ذلك الحواريّ وأصحابه بقتلهما، ففروا جميعا حتى دخلوا الكهف. وقيل فى خروجهم غير هذا.

وأما الكلب فروى أنه كان كلبَ صيد لهم، وروى أنهم وجدوا فى طريقهم راعيا له كلب فاتبعهم الراعى على رأيهم وذهب الكلب معهم؛ قاله ابن عباس. واسم الكلب حمران وقيل: قطمير.

وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند فى معرفتها واه. والذى ذكره الطبرى هى هذه: مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومحسيميلنينا ويمليخا، وهو الذى مضى بالوَرِق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم، ومرطوس وكشوطوش وديموس و يطونس و بيرونس. قال مقاتل: وكان الكلب لمكسلمينا، وكان أسنَّهم وصاحبَ غنم.

الثانيـة — هـذه الآية صريحة فى الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة. وقد خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم فارًّا بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس فى الغار حسبما تقدم فى سورة «النحل»[3]. وقد نص الله تعالى على ذلك فى «براءة» وقد تقدم[4]. وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم و إخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين. فسُكْنَى الجبال ودخول الغيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هى سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء. وقد فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم العزلة، وفضّلها جماعة من العلماء ولا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها فى كتابه فقال: «فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ».

(١) من جـ. (٢) فى جـ: الدخول بها. (٣) فى جـ: ماقدمناه. راجع ص ١٥٩ من هذا الجزء.
(٤) راجع جـ ٨ ص ١٤٣ وما بعدها.

Marfat.com

قال العلماء: الاعتزال عن الناس يكون مرّة فى الجبال والشّعاب، ومرة فى السواحل والرِّباط ومرة فى البيوت؛ وقد جاء فى الخبر: "إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكُفّ لسانك" ولم يخصّ موضعا من موضع. وقد جعلت طائفة من العلماء العزلَة اعتزالَ الشر وأهله بقلبك وعملك، إن كنت بين أظهرهم. وقال ابن المبارك فى تفسير العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا فى ذكر الله فخض معهم، وإن خاضوا فى غير ذلك فاسكت. وروى البغوى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن الذى يخالط الناس و يصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم". و روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نعم صوامع المؤمنين بيوتهم" من مراسيل الحسن وغيره. وقال عقبة بن عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما النجاة يارسول الله؟ فقال: "ياعقبة أمسك عليك لسانك وليَسَعْكَ بيتُك وآبْكِ على خطيئتك". وقال صلى الله عليه وسلم: "يأتى على الناس زمان يكون خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شَعَف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن". خرجه البخارى. وذكر على بن سعد عن الحسن ابن واقد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلّت لأمتى العزبة والعزلة والترهّب فى رؤوس الجبال". وذكر أيضا على بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينُه إلا مَن فرّ بدينه من شاهق إلى شاهق أو جحر[1] إلى جحر فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلّت العُزْبة". قالوا: يارسول الله، كيف تحلّ العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟ قال: "إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدى أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدى زوجته فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدى ولده فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدى القرابات والجيران". قالوا: وكيف ذلك يارسول الله؟ قال: "يعيّرونه بضيق المعيشة و يكلفونه ما لا يطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التى يهلك فيها".

(١) الجحر: الموضع. وكل ما جحرته من حائط فهو جحر.

Marfat.com

قلت : أحوال الناس فى هذا الباب تختلف ، فرُبّ رجل تكون له قوة على سكنى الكهوف والغيران فى الجبال ، وهى أرفع الأحوال لأنها الحالة التى آختارها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فى بداية أمره ، ونص عليها فى كتابه مخبرا عن الفتية ، فقال : « وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُوا إِلَى ٱلْكَهْفِ »(١) . ورُبّ رجل تكون العزلة له فى بيته أخف عليه وأسهل ؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم . ورُبّ رجل متوسّط بينهما فيكون له من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم فى الظاهر ومخالف لهم فى الباطن . وذكر ابن المبارك حدّثنا وهيب بن الوَرْد قال : جاء رجل إلى وهب بن منبّه فقال : إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا ! وقد حدّثت نفسى ألا أخالطهم . فقال : لا تفعل ! إنه لا بدّ لك من الناس ، ولا بدّ لهم منك ، ولك إليهم حوائج ، ولهم إليك حوائج ، ولكن كن فيهم أصم سميعا ، أعمى بصيرا ، سَكوتا نَطوقا . وقد قيل : إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل فى معنى الجبال والشّعاب ؛ مثل الآعتكاف فى المساجد ، ولزوم السواحل للرباط والذكر ، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس . وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشّعاب والجبال واتباع الغنم — والله أعلم — لأن ذلك هو الأغلب فى المواضع التى يُعتزل فيها ؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل فى معناه ؛ كما ذكرنا ، والله الموفق وبه العصمة . وروى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يعجب(٢) ربُّك من راعى غنم فى رأس شَظِيّة(٣) الجبل يؤذن بالصلاة ويصلى فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدى يؤذن ويقيم الصلاة يخاف منى قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة". خرجه النسائى.

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ لما فروا ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجئوا إلى الله تعالى فقالوا : « رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » أى مغفرة ورزقا . « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا » توفيقا للرشاد . وقال ابن عباس : مخرجا من الغار فى سلامة . وقيل : صوابا . ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حزَبه(٤) أمر فزِع إلى الصلاة .

(١) راجع ص ٣٦٧ من هذا الجزء . (٢) يعجب : كيسمع ؛ أى يرضى منه ويثيبه .
(٣) الشظية (بفتح الشين وكسر الظاء) : قطعة مرتفعة فى رأس الجبل (٤) أى إذا نزل به مهم أو أصابه غم . وفى الأصول : « إذا أحزنه » والتصويب من كتب الحديث .

Marfat.com

قوله تعالى : فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم . وهذه من فصيحات القرآن التي أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله . قال الزجاج : أى منعناهم عن أن يسمعوا ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه . وقال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم ؛ أى سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها . وقيل : المعنى «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ» أى فاستجبنا دعاءهم ، وصرفنا عنهم شرّ قومهم ، وأنمناهم . والمعنى كله متقارب . وقال قُطْرب : هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعيّة إذا منعهم الفساد ، وضرب السيد على يد عبده المأذون له فى التجارة إذا منعه من التصرف . قال الأسود بن يَعْفُر وكان ضريرا :

ومن الحوادث لا أبالك أننى * ضُرِبتْ علىّ الأرض بالأسداد[1]

وأما تخصيص الآذان بالذكر فلأنها الجارحة التى منها عظم فساد النوم ، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يُستحكم نوم إلا من تَعَطّل السمع . ومن ذِكْر الأذن فى النوم قوله صلى الله عليه وسلم : "ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه" خرجه الصحيح ، أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم ، لا يقوم الليل . و « عَدَدًا » نعت للسنين ؛ أى معدودة ، والقصد به العبارة عن التكثير ؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرِف . والعدّ المصدر ، والعدد اسم المعدود كالنَّفَض والخَبَط . وقال أبو عبيدة : « عَدَدًا » نصب على المصدر . ثم قال قوم : بيّن الله تعالى عدد تلك السنين من بعدُ فقال : « وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا » .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى من بعد نومهم . ويقال لمن أُحْيِيَ أو أُقيم من نومه : مبعوث ؛ لأنه كان ممنوعا من الانبعاث والتصرف .

---

(١) واحد الأسداد : سدّ ، وهو ذهاب البصر ، يقول : سدّت علىّ الطريق ، أى عميت علىّ مذاهبى .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ ﴾ « لِنَعْلَمَ » عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته ؛ وهذا على نحو كلام العرب ، أى لنعلم ذلك موجودا ، وإلا فقد كان الله تعالى علم أىّ الحزبين أحصى الأمد . وقرأ الزُّهرىّ « ليعلم » بالياء . والحزبان الفريقان . والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلا . والحزب الثانى أهل المدينة الذين بُعث الفِتية على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين . وقالت فرقة : هما حزبان من الكافرين، اختلفا فى مدة أصحاب الكهف . وقيل : هما حزبان من المؤمنين . وقيل: غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية . و « أَحْصَىٰ » فعل ماض . و « أَمَدًا » نصب على المفعول به؛ قاله أبو علىّ . وقال الفراء : نصب على التمييز . وقال الزجاج : نصب على الظرف ، أى أىّ الحزبين أحصى للبثهم فى الأمد، والأمد الغاية . وقال مجاهد : « أَمَدًا » معناه عددا ، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب . وقال الطبرى : « أَمَدًا » منصوب بـ « لبثوا » . ابن عطية : وهذا غير مُتجه، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختلال أن أفعل لا يكون من فعل رباعى إلا فى الشاذ، و « أَحْصَىٰ » فعل رباعى . وقد يحتج له بأن يقال : إن أفعل فى الرباعى قد كثر ؛ كقولك : ما أعطاه للمال وآتاه للخير . وقال فى صفة حوضه صلى الله عليه وسلم : " ماؤه أبيض من اللبن " . وقال عمر بن الخطاب : فهو لما سواها أضيع .

قوله تعالى : نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ لما اقتضى قوله تعالى : « لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ » اختلافا وقع فى أمد الفتية، عقّب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذى وقع . وقوله تعالى : « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ » أى شباب وأحداث حكم لهم بالفتوة حين آمنوا بلا واسطة ؛ كذلك قال أهل اللسان : رأس الفتوة الإيمان . وقال الجُنيد: الفتوة بذل النَّدى وكفّ الأذى وترك الشكوى . وقيل : الفُتوة اجتناب المحارم واستعجال المكارم . وقيل غير هذا . وهذا القول حسن جدا ؛ لأنه يعمّ بالمعنى جميع ما قيل فى الفتوة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ أى يسّرناهم للعمل الصالح؛ من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة الناس ، والزهد فى الدنيا . وهذه زيادة على الإيمان . وقال السُّدّى : زادهم هُدًى بكلب الراعى حين طردوه ورجموه مخافة أن يَنْبَح عليهم ويُنَبِّه بهم؛ فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعى فأنطقه الله ، فقال : ياقوم ! لِمَ تطردوننى ، لِمَ ترجموننى ! لِمَ تضربوننى ! فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة؛ فزادهم الله بذلك هدى .

قوله تعالى : وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ عبارة عن شدّة عزمٍ وقوّة صبرٍ، أعطاها الله لهم حتى قالوا بين يدى الكفار : « رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا » . ولما كان الفزع وخَوَر النفس يشبه بالتناسب الانحلال حَسُن فى شدة النفس وقوة التصميم أن يُشبه الربط؛ ومنه يقال : فلان رابط الجأش، إذا كان لا تَفْرَق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها . ومنه الربط على قلب أمّ موسى . وقولُه تعالى : « وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ »(١) وتقدّم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها — أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدى الملك الكافر — كما تقدّم، وهو مَقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا فى ذات الله هيبته . والمعنى الثانى فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينــة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينــة من غير ميعاد ؛ فقال أسنّهم : إنى أجد فى نفسى أن ربّى ربُّ السموات والأرض؛ فقالوا : ونحن كذلك نجد فى أنفسنا . فقاموا جميعا فقالوا : « رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا » .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٧١ .

Marfat.com

أى لئن دعونا إلهًا غيره فقد قلنا إذا جورًا ومحالا . والمعنى الثالث — أن يُعبَّر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة النـاس؛ كما تقول : قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجدّ .

الثانيـة — قال ابن عطية : تعلقت الصوفية فى القيام والقول بقوله : «إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

قلت : وهذا تعلّق غير صحيح ! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لمـا أولاهم من نِعَمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم؛ وهذه سنة الله فى الرسـل والأنبياء والفضلاء الأولياء . أين هـذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام! وخاصة فى هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان؛ هيهات! بينهما والله ما بين الأرض والسماء . ثم هـذا حرام عنـد جماعة العلماء ، على ما يأتى بيـانه فى سـورة لقمان إن شاء الله تعالى(١) . وقـد تقدّم فى « سبحانـ » عند قوله : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا(٢) » مافيه كفاية . وقدقال الإمام أبو بكر الطَّرسوسى - وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأوّل من أحدثه أصحاب السّامرىّ؛ لمـا اتخذ لهم عجلا جسدا له خُوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعُبّاد العجل ، على ما يأتى .

قوله تعـالى : هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ أى قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومنا ، أى أهل عصرنا وبلدنا ، عبدوا الأصنام تقليدا من غير حجة . ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلا . ﴿ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أى بحجة على عبادتهم الصنم . وقيل : «عَلَيْهِمْ» راجع إلى الآلهة؛ أى هلا أقاموا بيّنة على الأصنام فى كونها آلهة؛ فقولهم : « لَوْلَا » تحضيض بمعنى التعجيز، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم .

(١) راجع جـ ١٤ ص ٦٩ فما بعد . (٢) راجع ص ٢٦٠ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ قيل : هو من قول الله لهم . أى و إذا آعتزلتموهم فأووا إلى الكهف . وقيل : هو من قول رئيسهم تمليخا ؛ فيما ذكر ابن عطية . وقال الغزنوى : رئيسهم مكسلمينا ، قال لهم ذلك ؛ أى إذ آعتزلتموهم وآعتزلتم ما يعبدون . ثم استثنى وقال ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أى إنكم لم تتركوا عبادته ؛ فهو استثناء منقطع . قال آبن عطية : وهذا على تقدير إن الذين فر أهلُ الكهف منهم لا يعرفون الله ، ولا علم لهم به ؛ و إنمـا يعتقدون الأصنام فى ألوهيتهم فقط . و إن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه فى العبادة فالاستثناء متصل ؛ لأن الاعتزال وقع فى كل ما يعبد الكفار إلا فى جهة الله . وفى مصحف عبد الله بن مسعود « وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ » . قال قتادة هـذا تفسيرها .

قلت : و يدلّ على هذا ماذكره أبو نعيم الحـافظ عن عطاء الخراسانىّ فى قوله تعـالى : « وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ » قال : كان فتية من قوم يعبدون الله و يعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله .

ابن عطية : فعلى ما قال قتادة تكون « إلّا » بمنزلة غير، و « ما » من قوله : « وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ » فى موضع نصب، عطفا على الضمير فى قوله : « اعْتَزَلْتُمُوهُمْ » . ومُضمَّن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض : إذا فارقنا الكفار وآنفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوًى ونتّكل على الله ؛ فإنه سيبسط لنا رحمته ، و ينشرها علينا ، ويهيئ لنا من أمرنا مِرفقًا . وهـذا كله دعاء بحسب الدنيا ، وعلى ثقة كانوا من الله فى أمر آخرتهم . وقال أبو جعفر محمـد بن على ابن الحسين رضى الله عنه : كان أصحاب الكهف صياقلة(١)، واسم الكهف حيوم . ﴿ مِرْفَقًا ﴾ قرئ بكسر الميم وفتحها ، وهو ما يرتفق به . وكذلك مِرْفَق الإنسان ومَرْفقه ؛ ومنهـم من يجعل « المرفق » بفتح الميم [وكسر الفاء من الأمر، والمرفق من الإنسان، وقد قيل : المرفق بفتح الميم(٢)] الموضع كالمسجد ، وهما لغتان .

(١) صياقلة : شحاذو السيوف . (٢) من جـ ...

Marfat.com

قوله تعـالى : وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أى ترى أيها المخاطَب الشمس عنـد طلوعها تميل عن كهفهم . والمعنى : إنك لو رأيتهـم لرأيتهم كذا ؛ لا أن المخاطب رآهم على التحقيق . و « تَزَاوَرُ » تتنحى وتميل ؛ من الازورار . والزَّوَر الميَل . والأزور فى العين المـائل النظر إلى ناحية ، ويستعمل فى غير العين ؛ كما قال ابن أبى ربيعة :

* وجَنْبِي خِيفَــةَ القوم أَزْوَرُ (١) *

ومن اللفظة قول عنترة :

* فازْوَرّ من وَقْع القَنـا بلبَـانه (٢) *

وفى حديث غَزْوة مُؤْتة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى سرير عبـد الله بن رواحة ازورارا عن سرير جعفر وزيد بن حارثة . وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو « تزّاور » بإدغام التاء فى الزاى ، والأصل « تتزاور » . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى « تَزَاوَرُ » مخففة الزاى .

---

(١) والبيت بتمامه كما فى ديوانه :

وخفض عنى الصوت أقبلت مشية الـ * ـحباب وشخصى خشـية الحى أزور

والحباب (بالضم) : الحية . وقبل هذا البيت :

فلمـا فقدت الصوت منهم وأطفئت * مصـابيح شبت بالعشـاء وأنؤر
وغاب قمـــير كنت أهوى غيوبه * وروّح رعيـان ونـوّم سمـــر

(٢) وتمامه : * وشكا إلى بعـبرة وتحمحم *

واللبان (بالفتح) : الصدر . والتحمحم : صوت مقطع ليس بالصهيل .

Marfat.com

وقرأ ابن عامر: « تَزْوَرُّ » مثل تحمر. وحكى الفراء: « تزوارّ » مثل تحمارّ؛ كلُّها بمعنًى واحد .
﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ﴾ قرأ الجمهور بالتاء على معنى تتركهم ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : تدعهم . النحاس : وهذا معروف فى اللغة ، حكى البصريون أنه يقال : قرضه يقرضه إذا تركه ؛ والمعنى : أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبتة كرامة لهم؛ وهو قول ابن عباس . يعنى أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى يمين الكهف ، و إذا غربت تمر بهم ذات الشمال ، أى شمال الكهف ، فلا تصيبهم فى ابتداء النهار ولا فى آخر النهار . وكان كهفهم مستقبل بنات نَعْش فى أرض الروم ، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربة وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرها ، وتغيّر ألوانهم وتُبْلِي ثيابهم . وقد قيل : إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب ، وحاجب من جهة الدَّبور وهم فى زاويته . وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله ، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك . وقرأت فرقة « يقرضهم » بالياء من القرض وهو القطع ، أى يقطعهم الكهف بظلّه من ضوء الشمس .
وقيل : « وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ » أى يصيبهم يسير منها ، مأخوذ من قُرَاضة الذهب والفضة ، أى تعطيهم الشمس اليسير من شعاعها . وقالوا : كان فى مَسِّها لهم بالعَشِيّ إصلاح لأجسادهم .
وعلى الجملة فالآية فى ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذّون فيه بانبساط الشمس عليهم فى معظم النهار . وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر . والمقصود بيان حفظهم عن تطرّق البلاء وتغيّر الأبدان والألوان إليهم ، والتأذّى بحر أو برد . ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ أى من الكهف . والفجوة المتّسع ، وجمعها فجوات وفِجَاء؛ مثل رَكْوة ورِكاء ورَكَوات . وقال الشاعر :

ونحن ملأنا كل واد وفجوة * رجالا وخيلا غير مِيلٍ ولا عزل [(١)]

أى كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء . ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ لطف بهم ، وهذا يقوّى قول الزجاج . وقال أهل التفسير : كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون ؛ فكذلك كان الرائى يحسبهم أيقاظا . وقيل : ﴿ تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا ﴾ لكثرة تقلّبهم كالمستيقظ فى مضجعه . و (أيقاظا)

(١) ميل : جمع أميل وهو الجبان . وله معان .

Marfat.com

جمع يقظ و يقظان ، وهو المتنبه . ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ كقولهم : وهم ركوع وسجود وقعود ؛ فوصف الجمع بالمصدر . ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم فى كل عام تقليبتان . وقيل : فى كل سنة مرة . وقال مجاهد : فى كل سبع سنين مرة . وقالت فرقة : إنما قُلبوا فى التسع الأواخر، وأما فى الثلثمائة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله ، ويجوز أن يكون من ملَك بأمر الله ، فيضاف إلى الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « وَكَلْبُهُمْ » قال عمرو بن دينار : إن مما أخذ على العقرب الا تضر[1] أحدا [قال[2]] فى ليله أو فى نهاره : صلى[3] الله على نوح . وإن مما أخذ على الكلب الا يضر من حمل عليه [إذا قال[2]] : « وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » .

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقة ، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه ؛ على ما قال مقاتل . واختُلف فى لونه اختلافا كثيرا، ذكره الثعلبى . تحصيله : أىّ لون ذكرتَ أصبت ؛ حتى قيل : لون الحجر. وقيل : لون السماء . واختلف أيضا فى اسمه ؛ فمن علىّ : ريان . ابن عباس : قطمير . الأوزاعى : مشير[4] . عبد الله بن سَلَام : بسيط . كعب : صهيا . وهب : نقيا . وقيل : قطفير[5] ؛ ذكره الثعلبى . وكان اقتناء الكلب جائزا فى وقتهم ، كما هو عندنا اليوم جائز فى شرعنا . وقال ابن عباس : هربوا ليلا، وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فاتبعهم على دينهم . وقال كعب : مروا بكلب فنبح لهم فطردوه فعاد فطردوه مرارا ، فقام الكلب على رجليه ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعى ، فنطق فقال : لاتخافوا منى ! أنا أحب أحباء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم .

الثانيــة ــ ورد فى الصحيح عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "من اقتنى كلبا إلا كلبَ صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان". وروى فى الصحيح أيضا عن

(١) فى جـ : الا تضرب . (٢) زيادة من كتاب حياة الحيوان . (٣) فى حياة الحيوان : « سلام على نوح » . (٤) فى جـ : تبر . (٥) جـ .

Marfat.com

أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آتخذ كلبا إلا كلبَ ماشية أو صيد أو زرع آنتُقِص من أجره كل يوم قيراط " . قال الزهرى : وذُكر لابن عمر قول أبى هريرة فقال : يرحم الله أبا هريرة ! كان صاحبَ زرع . فقد دلّت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية . وجعل النقص فى أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة ؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه ، أو لمنع دخول الملائكة البيت ، أو لنجاسته ، على مايراه الشافعى ، أو لاقتحام النهى عن اتخاذ مالا منفعة فيه ؛ والله أعلم . وقال فى إحدى الروايتين "قيراطان" وفى الأخرى " قيراط " . وذلك يحتمل أن يكون فى نوعين من الكلاب أحدهما أشدّ أذى من الآخر ، كالأسود الذى أمر عليه السلام بقتله ؛ ولم يدخله فى الاستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص فى حديث جابر ؛ أخرجه الصحيح وقال : "عليكم بالأسود البَهِيم ذى النقطتين فإنه شيطان" . و يحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع ، فيكون ممسكه بالمدينة مثلا أو بمكة ينقص قيراطان و بغيرها قيراط . وأما المباح اتخاذه فلا ينقص ؛ كالفرس والهرّة . والله أعلم .

الثالثة — وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذى يسرح معها ، لا الذى يحفظها فى الدار من السراق . وكلب الزرع هو الذى يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السرّاق . وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع . وقد تقدّم فى «المائدة» (١) من أحكام الكلاب ما فيه كفاية ، والحمد لله .

الرابعة — قال ابن عطية : وحدّثنى أبى رضى الله عنه قال سمعت أبا الفضل الجوهرى فى جامع مصر يقول على مِنبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن مَن أحبّ أهل الخير نال من بركتهم ؛ كلبٌ أحبّ أهل فضلٍ وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله .

قلت : إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك فى كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٥ .

Marfat.com

المحبين للأولياء والصالحين ! بل فى هذا تسلية وأُنْس للمؤمنين المقصّرين عن درجات الكمال، المحبين للنبيّ صلى الله عليه وسلم وآله خير آل . روى الصحيح عن أنس بن مالك قال : بينا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدّة المسجد فقال : يارسول الله، متى الساعة؟ قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أعددتَ لهـا " قال : فكأنّ الرجل استكان، ثم قال : يارســول الله، ما أعددت لهـا كثيرَ صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنى أحب الله ورسوله . قال : " فأنت مع من أحببت " . فى رواية قال أنس بن مالك : فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشدّ من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " فأنت مع من أحببت " . قال أنس : فأنا أحب الله ورســوله وأبا بكر وعمــر ، فأرجو أن أكون معهم و إن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى تمسّك به أنس يشمل من المسلمين كلّ ذى نفس ، فلذلك تعلقت أطماعنا بذلك و إن كنا مقصرين، ورجونا رحمـة الرحمن و إن كنا غير مستأهلين، كلبٌ أحبّ قوما فذكره الله معهم ! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام ، وحُبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (١) » .

وقالت فرقة : لم يكن كلبا حقيقة ، و إنما كان أحدَهم ، وكان قد قعد عند باب الغار طليعةً لهم؛ ... (٢) كما سمى النجم التابع للجوزاء كلبا ؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان، ويقال له : كلب الجبّار (٣) قال ابن عطية : فَسُمّى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أمّا إنّ هـذا القول يُضعّفه ذكر بسط الذراعين فإنها فى العرف من صفة الكلب حقيقة ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " . وقد حكى أبو عمر المطرز فى كتاب اليواقيت

(١) راجع ص ٢٩٣ من هذا الجزء .
(٢) فى بعض نسخ الأصل بعد قوله « طليعة لهم » : « قال ابن عطية : فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع » وزادها غير لازمة . والذى فى حياة الحيوان للدميرى فى اسم الكلب : « وقالت فرقة : كان أحدهم وكان قد قعد عند باب الغار طليعة لهم ؛ فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس كما سمى النجم التابع للجوزاء كلبا لأنه منها كالكلب من الإنسان ، وهذا القول يضعفه ... » الخ .
(٣) الجبار : اسم الجوزاء .

Marfat.com

أنه قرئ « وكالبهم باسط ذراعيه بالوصيد » . فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما روى ؛ إذ بسط الذراعين واللصوقُ بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هى هيئة الريبة المستخفى بنفسه . ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب . وقرأ جعفر بن محمد الصادق « وكالبهم » يعنى صاحب الكلب .

قوله تعالى : ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضىّ ؛ لأنها حكاية حال لم يقصد الإخبار عن فعل الكلب . والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى . ثم قيل : بسط ذراعيه لطول المدّة . وقيل : نام الكلب ، وكان ذلك من الآيات . وقيل : نام مفتوح العين . والوصيد : الفِناء ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبَير ، أى فِناء الكهف ، والجمع وصائد ووُصُد . وقيل : الباب . وقاله ابن عباس أيضا . وأنشد :

بأرض فضاءٍ لا يُسَدّ وصِيدُها * علىّ ومعروفى بها غير منكر

وقد تقدم . وقال عطاء : عتبة الباب ، والباب الموصد هو المغلق . وقد أوصدت الباب وآصدته أى أغلقته . والوصيد : النبات المتقارب الأصول ، فهو مشترك ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو . والأعمش ويحي بن وثّاب بضمها . ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ أى لو أشرفت عليهم لهربت منهم . ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أى لما حفهم الله تعالى من الرُّعب واكتنفهم من الهيبة . وقيل : لوحشة مكانهم ؛ وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوَحْش(١) فى الظاهر لينفر الناس عنهم . وقيل : كان الناس محجوبين عنهم بالرعب ، لا يَجْسُر أحد منهم على الدنو إليهم . وقيل : الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم ؛ وذكره المهدوىّ والنحاس والزجاج والقشيرى . وهذا بعيد ؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض : لبثنا يوما أو بعض يوم . ودلّ هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها ؛ إلا أن يقال : إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم . قال(٢) ابن عطية : والصحيح فى أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التى ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم

(١) مكان وحش : خال . (٢) فى ج : قاله ابن عطية .

Marfat.com

آيةً، فلم يُبْلَ لهم ثوب ولم تغيّر صفة، ولم يُنكِر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهمّ . وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة . «ولَمُلِّئْتَ مِنْهُمْ» بتشديد اللام على تضعيف المبالغة؛ أي مليت ثم مليت . وقرأ الباقون « لملئت » بالتخفيف ، والتخفيف أشهر في اللغة . وقد جاء التثقيل في قول المُخَبَّل السعدي :

وإذ فتك النُّعمان بالناس مُحْرِمًا * فمُلِّئَ من كعب بن عوف سلاسله

وقرأ الجمهور « رُعْبًا » بإسكان العين . وقرأ بضمها أبو جعفر . قال أبو حاتم : هما لغتان . و « فِرَارًا » نصب على الحال و « رُعْبًا » مفعول ثان أو تمييز .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ البعث : التحريك عن سكون . والمعنى : كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدًى وقلّبناهم بعثناهم أيضا؛ أي أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئاتهم في ثيابهم وأحوالهم . قال الشاعر:

وفِتْيَانِ صِدْقٍ قد بَعثْتُ بِسُحْرَةٍ (١) * فقاموا جميعا بين عاثٍ ونَشْوانِ

أي أيقظت . واللام في قوله : «لِيَتَسَاءَلُوا» لام الصيرورة وهي لام العاقبة، كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » فبعثهم لم يكن لأجل تساؤلهم .

(١) البيت لأمرئ القيس . والسحرة (بالضم) : السحر، وقيل : أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وذلك أنهم دخلوه غُدوة و بعثهم الله فى آخر النهار ؛ فقال رئيسهم تمليخا أو مكسلمينا : الله أعلم بالمدّة .

قوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قال ابن عباس : كانت ورقهم كأخفاف الرُّبَع (١) ؛ ذكره النحاس . وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائى وحفص عن عاصم « بورِقكم » بكسر الراء . وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم « بوَرْقكم » بسكون الراء ، حذفوا الكسرة لثقلها ، وهما لغتان . وقرأ الزجاج . « بوِرْقكم » بكسر الواو وسكون الراء . و يروى أنهم انتبهوا جياعا ، وأن المبعوث هو تمليخا ، كان أصغرهم ؛ فيما ذكر الغزنوى . والمدينة : أفسوس و يقال : هى طَرسوس ، وكان اسمها فى الجاهلية أفسوس ؛ فلما جاء الإسلام سموها طرسوس . وقال ابن عباس : كان معهم دراهم عليها صورة الملك الذى كان فى زمانهم .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ قال ابن عباس : أحلّ ذبيحة ؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على اسم الصنم : وكان فيهم قوم يُخفون إيمانهم . ابن عباس : كان عامتهم مجوسا . وقيل : « أَزْكَى طَعَامًا » أى أكثر بركة . قيل : إنهم أمروه أن يشترى ما يُظن أنه طعام اثنين أو ثلاثة لئلا يُطّلع عليهم ، ثم إذا طُبخ كفى جماعة ؛ ولهذا قيل : ذلك الطعام الأرز . وقيل : كان زبيبا . وقيل : تمرا ؛ فالله أعلم . وقيل : « أزكى » أطيب . وقيل : أرخص . ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ أى بقُوت . ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى فى دخول المدينة وشراء الطعام . ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أى لا يخبرنّ . وقيل : إن ظُهر عليه فلا يوقعنّ إخوانه فيما وقع فيه . ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ قال الزجاج : معناه بالحجارة ، وهو أخبث القتل . وقيل : يرموكم بالسّبّ والشتم ؛ والأول أصح ، لأنه كان عازما على قتلهم كما تقدّم فى قصصهم . والرجم فيما سلف هى كانت على ما ذكر قبله [عقوبة] (٢) مخالفة دين الناس ، إذ هى أشفى لجملة أهل ذلك الدّين من حيث إنهم يشتركون فيها .

(١) الربع (كصُرد) : الفصيل ينتج فى الربيع . (٢) زيادة يقتضيها السياق .

Marfat.com

الثالثـــة — فى هذه البِعْثة بالوَرِق دليل على الوكالة وصحتها . وقد وكل على بن أبى طالب أخاه عَقيلا عند عثمان رضى الله عنهما ؛ ولا خلاف فيها فى الجملة . والوكالة معروفة فى الجاهلية والإسلام ؛ ألا ترى إلى عبد الرحمن بن عَوف كيف وكّل أميّة بن خلف بأهله وحاشيته بمكة ؛ أى يحفظهم ، وأمية مشرك ، والتزم عبدالرحمن لأمية مَن حَفِظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك مجازاةً لصنعه . روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال : كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظنى فى صاغيتى بمكة وأحفظه فى صاغيته بالمدينة؛ فلما ذكرت الرحمن؛ قال : لا أعرف الرحمن ! كاتبْنى بآسمك الذى كان فى الجاهلية ، فكاتبته عبد عمرو... وذكر الحديث. قال الأصمعى : صاغية الرجل الذين يميلون إليه ويأتونه؛ وهو مأخوذ من صغا يَصْغُو ويَصْغَى إذا مال، وكلّ مائل إلى الشىء أو معه فقد صغا إليه وأصغى؛ من كتاب الأفعال .

الرابعـــة — الوكالة عقدُ نيابة، أذن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصلحة فى ذلك، إذ ليس كل أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره أو يترفّه فيستنيب من يُريحه .

وقد استدل علماؤنا على صحتها بآيات من الكتاب ، منها هذه الآية ، وقوله تعالى : « وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا »(١) وقوله : «ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَـٰذَا »(٢) . وأما من السنة فأحاديث كثيرة ؛ منها حديث عروة البارِقى ، وقد تقدّم فى آخر الأنعام(٣) . روى جابر بن عبد الله قال : أردت الخروج إلى خَيْبَر فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إنى أردت الخروج إلى خيبر؛ فقال : "إذا أتيتَ وكيلى فخذ منه خمسة عشر وَسْقًا فإن ٱبتغى منك آيةً فضع يدك على تَرْقُوَته"(٤) خرجه أبو داود . والأحاديث كثيرة فى المعنى، وفى إجماع الأمة على جوازها كفاية .

الخامســـة — الوكالة جائزة فى كل حق تجوز النيابة فيه، فلو وكّل الغاصبُ لم يجز، وكان هو الوكيل؛ لأن كل محرّم فعله لا تجوز النيابة فيه .

السادســـة — فى هذه الآية نُكتة بديعة، وهى أن الوكالة إنما كانت مع التَّقِيّة خوفَ أن يشعر بهم أحدٌ لما كانوا عليه من خوف على أنفسهم . وجواز توكيل ذوى العذر متفق

(١) راجع جـ ٨ ص ١٧٧ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٥٨ .
(٣) راجع جـ ٧ ص ١٥٦ . (٤) الترقوة : العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق .

Marfat.com

عليه ؛ فأما من لا عذر له فالجمهور على جوازها . وقال أبو حنيفة وسُحْنون : لا تجوز . قال ابن العربي : وكأن سُحْنون تلقفه من أسَد بن الفُرات فحكم به أيام قضائه ، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت ؛ إنصافا منهم وإذلالا لهم ، وهو الحق ؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل .

قلت : هذا حسن ؛ فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يوكّلوا وإن كانوا حاضرين أصحّاء . والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال : كان لرجل على النبيّ صلى الله عليه وسلم سِنّ من الإبل فجاء يتقاضاه فقال : "أعطوه" فطلبوا له سِنّه فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقها ؛ فقال : "أعطوه" فقال : أوْفَيْتَني أوفى الله لك . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن خيركم أحسنُكم قضاء " . لفظ البخاري . فدلّ هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يُعطوا عنه السنّ التي كانت عليه ؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك ، ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم مريضا ولا مسافرا . وهذا يردّ قول أبي حنيفة وسُحْنون في قولهما : أنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه ؛ وهذا الحديث خلاف قولهما .

السابعة — قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : تضمّنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم . وتضمنت جواز الوكالة لأنهم بَعثوا من وكّلوه بالشراء . وتضمّنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معا ، وإن كان بعضهم أكثر أكلًا من الآخر ؛ ومثله قوله تعالى : «وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ» حسبما تقدم بيانه في « البقرة »[1] . ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُتصدّق عليه فيخلطه بطعام لغنيّ ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد قالوا في المضارب يخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وكّل من اشترى له أضحية . قال ابن العربي : ليس في الآية دليل على ذلك ؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه منفردا فلا يكون فيه اشتراك . ولا مُعوّل في هذه المسألة

(١) راجع جـ ٣ ص ٦٢ .

Marfat.com

إلا على حديثين : أحدهما — أن ابن عمر مرّ بقوم يأكلون تمرا فقال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاقتران إلا أن يستأذن الرجل أخاه . الثانى — حديث أبى عبيدة فى جيش الخَبَط(١) . وهذا دون الأول فى الظهور ؛ لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يعطيهم كفافا من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه .

قلت : ومما يدلّ على خلاف هذا من الكتاب قولُه تعالى : «وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ» وقوله : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا(٢) » على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى أطلعنا عليهم وأظهرناهم . و« أعثر » تعدية عَثَر بالهمزة، وأصل العِثار فى القدم . ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ يعنى الأمة المسلمة الذين بُعث أهل الكهف على عهدهم . وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون وَمَلَك أهل تلك الدار رجلٌ صالح ، فاختلف أهل بلده فى الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشكّ فى ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا : إنما تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض . وقال بعضهم : تبعث الروح والجسد جميعا ؛ فكبُر ذلك على الملك وبقى حيران لا يدرى كيف يتبيّن أمره لهم، حتى لبس المُسُوح وقعد على الرّماد وتضرّع إلى الله تعالى فى حجة وبيان، فأعثر الله على أهل الكهف ؛ فيقال : إنهم لما بعثوا أحدهم بوَرِقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها ٱستُنكِر شخصه وٱستُنكِرت دراهمه(٣) لبعد العهد، فحُمل إلى الملك وكان صالحا قد آمن وآمن من معه ، فلما

---

(١) سموا جيش الخبط لأنهم خرجوا فى سرية إلى أرض جهينة فأصابهم جوع فأكلوا الخبط ، فسموا به وهو خبط ورق العضاة من الطلح ونحوه وهو إسقاط ورقه بالخبط . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣١٧ .

(٣) فى جـ : ورقه .

Marfat.com

نظر إليه قال : لعل هـذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دِقيانوس الملك ، فقد كنت أدعو الله أن يُرِيَنيهم ، وسأل الفتى فأخبره ؛ فسُرّ الملك بذلك وقال : لعل الله قـد بعث لكم آية ؛ فلنَسِرْ إلى الكهف معه ، فركب مع أهل المدينة إليهم ، فلما دَنَوْا إلى الكهف قال تمليخا : أنا أدخل عليهم لئلا يَرْعَبوا فدخل عليهم فأعلمهم بالأمر وأن الأمة أمّةُ إسلام ، فرُوِى أنهم سُرّوا بذلك وخرجوا إلى الملك وعظّموه وعظّمهم ثم رجعوا إلى كهفهم . وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدّثهم تمليخا ميتة الحق ، على ما يأتى . ورجع من كان شكّ فى بَعْث الأجساد إلى اليقين . فهذا معنى . « أَعْثَرْنَا عَلَيْهِـمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى ليعلم الملك و رعيته أن القيامة حق والبعث حق . « إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ » . و إنمـا استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهابوا الدخول عليهم فقال الملك : ابنـوا عليهم بنيـانا ؛ فقال الذين هم على دين الفتية : اتخذوا عليهم مسجدا . وروى أن طائفة كافرة قالت : نبنى بيعة أو مضيفا(١) ، فمانعهم المسلمون وقالوا لنتخذَنّ عليهم مسجدا . وروى أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيّبين . وروى عن عبد الله بن عمر(٢) أن الله تعالى أعمى على النـاس حينئذ أثرهم وحجبهم عنهم ، فلذلك دعا [الملك](٣) إلى بناء البنيان ليكون معْلَماً لهم . وقيل : إن الملك أراد أن يدفنهم فى صندوق من ذهب فأتاه آتٍ منهم فى المنام فقال : أردت أن تجعلنا فى صندوق من ذهب فلا تفعل ؛ فإنا من التراب خُلقنا و إليه نعود ، فدَعْنا .

وتَنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة ؛ فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيهـا والبناء عليها ، إلى غير ذلك ممـا تضمّنته السنة من النهى عنه ممنوع لا يجوز ؛ لمـا روى أبو داود والترمذيّ عن ابن عباس قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج . قال الترمذيّ : وفى الباب عن أبى هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أولئك إذا كان فيهم

(١) فى جـ وحاشية الجمل عن القرطبى : مصنعا .	(٢) فى جـ : « عن عبيد بن عمير » .
(٣) من الجمل عن المصنف .

Marfat.com

الرجل الصالح فمات بَنَوْا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعـالى يوم القيامة " . لفظ مسلم . قال علماؤنا : وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد . وروى الأئمة عن أبى مَرْثَد الغَنَوِىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تصلّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " لفظ مسلم . أى لا تتخذوها قبلة فتصلّوا عليهـا أو إليها كما فعل اليهود والنصارى ، فيؤدى إلى عبادة من فيهـا كما كان السبب فى عبادة الأصـــنام . فحذّر النبىّ صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وسَدَّ الذرائعَ المؤدية إلى ذلك فقال : " اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد " . وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : لمـا نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتمّ[1] بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك[2] : " لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " يحذر[3] ماصنعوا . وروى مسلم عن جابر قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُجَصَّص القبر وأن يُقعد عليه وأن يُبنى عليه . وخرّجه أبو داود والترمذى أيضا عن جابر قال : نهى رســول الله صلى الله عليه وســلم أن تجصص القبور وأن يكتب عليها وأن يُبنى عليها وأن توطأ . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح. وروى الصحيح عن أبى الهَيّاج الأســدى قال قال لى علىّ بن أبى طالب : ألا[4] أبعثُـك على ما بعثنى عليه رســول الله صــلى الله عليه وســلم : ألّا تَدَع تمثـالا إلا طَمَسته ولا قبرا مُشْرِفا إلا ســوّيته — فى رواية — ولا صــورة إلا طمستها . وأخرجه أبو داود والترمذىّ . قال علماؤنا : ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطِئة[5] . وقد قال به بعض أهل العلم . وذهب الجمهـور إلى أن هـذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسنيم ، ويبقى للقـبر مايعرف به ويحترم ، وذلك صفة قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبرِ صاحبيه رضى الله عنهما — على ماذكر مالك فى الموطأ — وقبر أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، على مارواه الدّارَقُطْنِىّ

(١) قوله : « إذا اغتم » أى تسخن بالخميصة وأخذ بنفسه من شدة الحر . (٢) أى فى حالة الطرح والكشف . (٣) أى يحـذر أمته أن يصنعوا بقبره مثل صنيع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم .
(٤) قوله « ألا » بتشديد اللام للتحضيض . وقيل : بفتحها للتنبيه . (٥) لا طئة : لاصقة بالأرض.

Marfat.com

من حديث ابن عباس . وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيما وتعظيما فذلك يهدم ويزال؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا فى أول منازل الآخرة، وتشبّها بمن كان يعظّم القبور ويعبدها . وباعتبار هذه المعانى وظاهر النهى ينبغى أن يقال : هو حرام . والتسنيم فى القبر : ارتفاعه قدر شبر؛ مأخوذ من سنام البعير . ويُرَشّ عليه بالماء لئلا ينتثر بالريح . وقال الشافعى : لا بأس أن يطيّن القبر . وقال أبو حنيفة : لا يُجَصّص القبر ولا يطيّن ولا يرفع عليه بناء فيسقط . ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة ؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال : حدّثنا مُسدّد حدّثنا نوح بن دُرّاج عن أبان بن تغلِب عن جعفر بن محمد قال : كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وعلّمته بصخرة ؛ ذكره أبو عمر .

وأما الجائزة — فالدفن فى التابوت؛ وهو جائز لا سيما فى الأرض الرِّخْوة . وروى أن دانيال صلوات الله عليه كان فى تابوت من حجر ، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقى فى رَكِيّة[1] مخافة أن يُعبد، وبقى كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم أجمعين ؛ فدلّته عليه عجوز فرفعه ووضعه فى حظيرة إسحاق عليه السلام . وفى الصحيح عن سعد ابن أبى وقّاص أنه قال فى مرضه الذى هلك فيه : اتخذوا لى لَحْدًا وانصبوا علىّ اللّبِن نَصْبًا؛ كما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم . اللّحْد : هو أن يشقّ فى الأرض ثم يُحفر قبر آخر فى جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صُلْبة يُدخَل فيه الميت ويُسَدّ عليه باللّبن . وهو أفضل عندنا من الشق؛ لأنه الذى اختاره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . وبه قال أبو حنيفة قال : السنة اللّحد . وقال الشافعى : الشق . ويكره الآجُرّ فى اللحد . وقال الشافعى : لا بأس به لأنه نوع من الحجر . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ لأن الآجُر لإحكام البناء ، والقبر وما فيه للبِلَى فلا يليق به الإحكام وعلى هذا يسوّى بين الحجر والآجُر وقيل : إن الآجر أثر النار فيكره تفاؤلا ؛ فعلى هذا يفرق بين الحجر والآجر . قالوا : ويستحب اللّبِن والقَصَب لما روى أنه وضع على قبر النبى صلى الله عليه وسلم حُزْمة من قصب . وحكى عن الشيخ الإمام

(١) الركية البئر .

Marfat.com

أبي بكر محمد بن الفضل الحنفي رحمه الله أنه جوّز اتخاذ التابوت في بلادهم لرخاوة الأرض . وقال : لو اتُّخذ تابوت من حديد فلا بأس به ؛ لكن ينبغي أن يفرش فيه التراب وتطيّن الطبقة العليا مما يلي الميت ، ويُجعل اللّبن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد .

قلت : ومن هذا المعنى جَعْل القطيفة في قبر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإن المدينة سبخة(١) ، قال شُقْران : أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر . قال أبو عيسى الترمذي : حديث شقران حديث حسن [صحيح](٢) غريب .

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الضمير في « سَيَقُولُونَ » يراد به أهل التوراة ومعاصري محمد صلى الله عليه وسلم . وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص . وقيل : المراد به النصارى ؛ فإن قوما منهم حضروا النبي صلى الله عليه وسلم من نجران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليَعْقُوبيّة : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقالت النَّسْطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم . وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبي صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الكهف . والواو في قوله : « وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » طريق النحويين أنها واو عطف دخلت في آخر إخبارٍ عن عددهم ؛ لتفصّل أمرهم ، وتدلّ على أن هذا غاية(٣) ماقيل ، ولو سقطت لصح الكلام . وقالت فرقة منها ابن خَالَوَيْه : هي واو الثمانية . وحكى الثعلبي عن أبي بكر بن عيّاش أن قريشا كانت تقول في عددها ستة سبعة وثمانية ؛ فتدخل الواو في الثمانية . وحكى نحوه القفّال ، فقال :

(١) أرض سبخة : ذات ملح ونز . (٢) من ج . (٣) في ج : نهاية .

Marfat.com

إن قوما قالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو، كقوله: « التَّائِبُونَ العَابِدُونَ — ثم قال — وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ وَالحَافِظُونَ »(١). يدل عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »(٢) بلا واو، ولما ذكر الجنة قال: « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » بالواو. وقال: « خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ »(٣) ثم قال: « وَأَبْكَارًا » فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا. قال القُشيري أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكُّم، ومن أين السبعة نهاية عندهم! ثم هو منقوض بقوله تعالى: « هُوَ اللّٰهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ »(٤) ولم يذكر الاسم الثامن بالواو. وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة: إنما ذكر الواو في قوله: « سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ » لينبه على أن هذا العدد هو الحق، وأنه مباين للأعداد الأُخَر التي قال فيها أهل الكتاب؛ ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدمتين: « رَجْمًا بِالغَيْبِ » ولم يذكره في الجملة الثالثة ولم يقدح فيها بشيء؛ فكأنه قال لنبيه هم سبعة وثامنهم كلبهم. والرجم: القول بالظن؛ يقال لكل ما يُخرص: رَجَم فيه ومرجوم ومُرَجَّم؛ كما قال:

وما الحرب إلا ما علمتم وذُقتمُ ... وما هو عنها بالحديث المُرَجَّمِ(٥)

قلت: وقد ذكر الماوردي والغَزْنَويّ: وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية، وجعلا قوله تعالى: « وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » أي صاحب كلبهم. وهذا مما يقوّي طريق النحويين في الواو، وأنها كما قالوا. وقال القُشيريّ: لم يذكر الواو في قوله: رابعهم سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزا، فطلبُ الحكمة والعلة في مثل هذه الواو تكلُّف بعيد، وهو كقوله في موضع آخر: « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ »(٦). وفي موضع آخر: « إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ . ذِكْرَى »(٧).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ أمر الله تعالى نبيه عليه السلام في هذه الآية أن يرد علم عدتهم إليه عز وجل. ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل. والمراد به قوم من

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦٩. (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٤. (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٩٣.
(٤) راجع جـ ١٨ ص ٤٥. (٥) البيت من معلقة زهير. (٦) راجع ص ٣ من هذا الجزء.
(٧) راجع جـ ١٣ ص ...

Marfat.com

أهـل الكتاب؛ فى قول عطاء . وكان ابن عباس يقول : أنا من ذلك القليل؛ كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، ثم ذكر السبعة بأسمائهم، والكلب اسمه قطمير كلب أنمر، فوق القَلَطِىّ[1] ودون الكردىّ . وقال محمد بن سعيد بن المُسَيَّب : هو كلب صينى . والصحيح أنه زُبيرى . وقال : ما بقى بنيسابور محدّث إلا كتب عنى هذا الحديث إلا من لم يقدر له . قال : وكتبه أبو عمرو الحيرىّ عنى .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أى لا تجادل فى أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك؛ وهو ردّ علم عدتهم إلى الله تعالى . وقيل : معنى المراء الظاهر أن تقول : ليس كما تقولون ، ونحو هـذا ، ولاتحتج على أمر مقـدّر فى ذلك . وفى هـذا دليل على أن الله تعالى لم يبيّن لأحد عددهم فلهذا قال: «إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا » أى ذاهبا؛ كما قال :

* وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[2] *

ولم يبح له فى هذه الآية أن يمارى؛ ولكن قوله : « إِلَّا مِرَاءً » استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب . سميت مراجعته لهم مراء ثم قيـد بأنه ظـاهر؛ ففارق المراء الحقيق المذموم . والضمير فى قوله : « فِيهِمْ » عائد على أهل الكهف . وفى قوله : «مِنْهُمْ» عائد على أهل الكتاب المعارضين . وقوله : «فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ» يعنى فى عدتهم ؛ وحذفت العدّة لدلالة ظاهر القول عليها.

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ روى أنه عليه السلام سأل نصارى نجران عنهم فنهى عن السؤال . وفى هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شىء من العلم.

قوله تعـالى : وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

(١) القلطى (كعربى) : القصير من الناس والسنانير والكلاب . قال الدميرى : « والقلطى : كلب صينى » .

(٢) هذا عجز بيت لأبى ذؤيب . وصدره :

* وعيرها الواشون أنى أحبها *

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قال العلماء : عاتب الله تعالى نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ؛ ولم يستثن فى ذلك . فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة . وأمر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محققا لحكم الخبر ؛ فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا ، و إذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محققا للخبر عنه . واللام فى قوله : « لِشَيْءٍ » بمنزلة فى ، أو كأنه قال لأجل شيء .

الثانيـــة — قال ابن عطية : وتكلم الناس فى هذه الآية فى الاستثناء فى اليمين ، والآية ليست فى الأيمـان وإنمـا هى فى سنة الاستثناء فى غير اليمين . وقوله : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » فى الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسنه الإيجاز ؛ تقديره : إلا أن تقول إلا أن يشاء الله ، أو إلا أن تقول إن شاء الله . فالمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله ، فليس « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » من القول الذى نهى عنه .

قلت : ما اختـاره ابن عطية وارتضاه هو قول الكسائى والفـراء والأخفش . وقال البصريون : المعنى إلا بمشيئة الله . فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فمعناه بمشيئة الله . قال ابن عطية : وقالت فرقة : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » استثناء من قوله : « وَلَا تَقُولَنَّ » . قال : وهـذا قول حكاه الطبرى ورد عليه ، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يحكى . وقد تقدم القول فى الاستثناء فى اليمين وحكمه فى « المـائدة » (١) .

قوله تعـالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ فيه مسألة واحدة ، وهو الأمر بالذكر بعـد النسيان — واختلف فى الذكر المأمور به ؛ فقيل : هو قوله : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴾ . قال محمـد الكوفى المفسر : إنها بألفاظها مما أمر أن يقولها كل

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ .

Marfat.com

من لم يستثن، و إنها كفارة لنسيان الاستثناء . وقال الجمهور : هو دعاء مأمور به دون هــذا التخصيص . وقيل : هو قوله : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ » الذى كان نسيه عند يمينه . حُكى عن ابن عباس أنه إن نسى الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفا . وهو قول مجاهد . وحكى إسماعيل بن إسحاق ذلك عن أبى العاليــة فى قوله تعالى : « وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ » قال : يستثنى إذا ذكره . الحسن : ما دام فى مجلس الذكر . ابن عباس : سنتين؛ ذكره الغزنوى[(1)] قال : فيحمل على تدارك التبرك بالاستثناء للتخلص عن الإثم . فأما الاستثناء المفيــد حكما فلا يصح إلا متصلا . السدى : أى كل صلاة نسيها إذا ذكرها[(2)] . وقيل : استثن باسمه لئلا تنسى . وقيل : اذكره متى ما نسيته . وقيل : إذا نسيت شيئا فاذكره يذكركه . وقيل : اذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك؛ فذلك حقيقــة الذكر . وهــذه الآية مخاطبة للنبي صلى الله عليــه وسلم، وهى استفتاح كلام على الأصح ، وليست من الاستثناء فى اليمين بشىء ، وهى بعدُ تعمّ جميع أمته؛ لأنه حكم يتردد فى الناس لكثرة وقوعه . والله الموفق .

قوله تعــالى : وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾

هذا خبر من الله تعــالى عن مدة لبثهم . وفى قراءة ابن مسعود « وقالوا لبثوا » . قال الطبرى : إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين؛ فأخبر الله تعالى نبيه أن هــذه المدة فى كونهم نياما ، وأن مابعد ذلك مجهول للبشر . فأمر الله تعالى أن يرد علم ذلك إليه . قال ابن عطية : فقوله على هذا « لَبِثُوا » الأول يريد فى نوم الكهف ، و « لَبِثُوا » الثانى يريد بعــد الإعثار[(3)] إلى مدة محمد صلى الله عليه وسلم، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء . مجاهد : إلى وقت نزول القرآن . الضحاك : إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه لمــا قال : « وَازْدَادُوا تِسْعًا » لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جُمع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمر الله تعالى برد العلم إليه فى التسع ، فهى على هذا مبهمة . وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعــد عيسى

(١) فى ى و هـ ج : المغير . (٢) فى ى : أى صل صلاة نسيتها إذا ذكرتها .
(٣) فى ج : بعد الانتشار .

Marfat.com

بيسير وقد بقيت من الحواريين بقية . وقيل : غير هذا على ما يأتي . قال القشيري : لا يفهم من التسع تسع ليال وتسع ساعات لسبق ذكر السنين؛ كما تقول : عندي مائة درهم وخمسة؛ والمفهوم منه خمس دراهم . وقال أبو علي : « وَازْدَادُوا تِسْعًا » أي ازدادوا لبث تسع ؛ فحذف . وقال الضحاك : لما نزلت : «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ» قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام؛ فأنزل الله عز وجل : «سِنِينَ» . وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأيام(٢)؛ فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية؛ وهذه الزيادة هي ما بين الحسابين . ونحوه ذكر الغزنوي . أي باختلاف سني الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون في ثلثمائة تسع سنين . وقرأ الجمهور « ثَلَثَمِائَةٍ سِنِينَ » بتنوين مائة ونصب سنين، على التقديم والتأخير؛ أي سنين ثلثمائة فقدم الصفة على الموصوف، فتكون « سنين » على هذا بدلا أو عطف بيان . وقيل : على التفسير والتمييز . و « سِنِينَ » في موضع سنة . وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين، وترك التنوين؛ كأنهم جعلوا سنين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد . قال أبو علي : هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى الجموع . وفي مصحف عبد الله « ثلثمائة سنة » . وقرأ الضحاك « ثلثمائة سنون » بالواو . وقرأ أبو عمرو بخلاف « تَسْعًا » بفتح التاء . وقرأ الجمهور بكسرها . وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة : التقدير ولبثوا في كهفهم سنين ثلثمائة .

قوله تعالى : قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُۥ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ قيل : بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم، على قول مجاهد . أو إلى أن ماتوا؛ على قول الضحاك . أو إلى وقت تغيرهم بالبلى؛ على ما تقدم . وقيل : بما لبثوا في الكهف ، وهي المدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصانا . أي لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علمه ذلك . ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

(١) في جوى : لنسق . (٢) في جوى : الأمم . ولعل هذا أوجه لأن الأمم لا تستعمل إلا الشمسية .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أى ما أبصره وأسمعه . قال قتادة : لا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وهذه عبارات عن الإدراك . ويحتمل أن يكون المعنى « أَبْصِرْ بِهِ » أى بوحيه وإرشاده هـداك وحججك والحقّ من الأمور، وأسمع به العالم ؛ فيكونان أمرين لا على وجه التعجب . وقيل : المعنى أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم . ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى لم يكن لأصحاب الكهف وليّ يتولّى حفظهم دون الله . ويحتمل أن يعود الضمير فى «لهم» على معاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار . والمعنى : ما لهؤلاء المختلفين فى مدة لُبثهم وليّ دون الله يتولّى تدبير أمرهم ؛ فكيف يكونون أعلمَ منه ، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إياهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ قرئ بالياء ورفع الكاف ، على معنى الخبر عن الله تعالى . وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدرىّ « ولا تشرك » بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويكون قوله : «ولا تشرك» عطفا على قوله : « أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ » . وقرأ مجاهد « يشرك » باليـاء من تحت والجـزم . قال يعقوب : لا أعرف وجهه .

مســـئلة — اختُلف فى أصحاب الكهف هل ماتوا وفَنُوا ، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ؛ فروى عن ابن عباس أنه مرّ بالشأم فى بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله ، فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظاما فقالوا : هذه عظام أهل الكهف . فقال لهم ابن عباس : أولئك قوم فَنُـوا وعُدِموا منـذ مدّة طويلة ؛ فسمعه راهبٌ فقال : ما كنت أحسب أن أحدا من العرب يعرف هذا ؛ فقيل له : هذا ٱبن عم نبينا صلى الله عليه وسلم . وروت فرقة أن النبي صـلى الله عليـه وسلم قال : " ليحجّنّ عيسى بن مريم ومعـه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجّوا بعدُ " . ذكره ابن عطية .

قلت : ومكتوب فى التوراة والإنجيل أن عيسى بن مريم عبدُ الله ورســولُه ، وأنه يمـر بالرَّوحاء حاجًّا أو مُعتمِرا أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حوارِيّه أصحـاب الكهف والرَّقيم ، فيمرّون حُجّاجا فإنهم لم يحجّوا ولم يموتوا . وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله فى كتاب « التذكرة » . فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة ، بل يموتون قبيل الساعة .

Marfat.com

قوله تعالى : وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ قيل : هو من تمام قصة أصحاب الكهف ؛ أى اتبع القرآن فلا مبدّل لكلمات الله ولا خُلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف. وقال الطبرى : لا مغيّر لما أوعد بكلماته أهلَ معاصيه والمخالفين لكتابه . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ ﴾ أنت ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته . ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أى ملجأ. وقيل : موئلا . وأصله الميل؛ ومن لجأت إليه فقد مِلْت إليه . قال القشيرىّ أبو نصر عبد الرحيم : وهذا آخر قصة أصحاب الكهف . ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فأنتهى إلى الكهف الذى فيه أصحاب الكهف ؛ فقال معاوية : لو كُشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم؛ فقال ابن عباس . قد منع الله من هو خير منك عن ذلك، فقال : « لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا » فقال : لا أنتهى حتى أعلم علمهم، و بعث قوما لذلك ؛ فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم ؛ ذكره الثعلبى أيضا وذكر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريَه إياهم، فقال: إنك لن تراهم فى دار الدنيا ولكن ٱبعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك و يدعوهم إلى الإيمان ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : كيف أبعثهم ؟ فقال : ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع علىّ ابن أبى طالب، ثم ٱدع الريح الرُّخاء المسخَّرة لسليمان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك؛ ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف ، فقلعوا منه حجرا فحمل الكلب عليهم فلما رآهم حرك رأسه و بَصْبص بذَنَبه وأومأ إليهم برأسه أن ٱدخلوا فدخلوا الكهف فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله و بركاته؛ فردّ الله على الفتية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا: عليكم السلام ورحمة الله و بركاته ؛ فقالوا لهم : معشرَ الفِتْية ، إن النبيّ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام؛ فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض، وعليكم بما أبلغتم ، وقبلوا

Marfat.com

دينه وأسلموا ، ثم قالوا : أقرئوا محمدا رسول الله منا السلام ، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدى . فيقال : إن المهدى يسلم عليهم فيحييهم الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة ، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان منهم، ثم ردّتهم الريح فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "كيف وجدتموهم"؟ فأخبروه الخبر، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "اللّهم لا تفرق بيني و بين أصحابي وأصهاري واغفر لمن أحبّني وأحبّ أهل بيتي وخاصّتي وأصحابي" . وقيل : إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبل المسيح ؛ فأخبر الله تعالى المسيح بخبرهم ثم بُعثوا في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وقيل : كانوا قبل موسى عليه السلام وأن موسى ذكرهم في التوراة؛ ولهذا سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : دخلوا الكهف بعد المسيح : فالله أعلم أيّ ذلك كان .

قوله تعالى : وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ هذا مثل قوله : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » في سورة « الأنعام » (١) وقد مضى الكلام فيه . وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : جاءت المؤلّفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عُيينة بن حصن والأقرع بن حابس فقالوا : يارسول الله ؛ إنك لو جلست في صدر المجلس ونحّيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم — يعنون سلمان وأبا ذرّ وفقراء المسلمين ،وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها — جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى « وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . وَاصْبِرْ

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٣٢ .

Marfat.com

نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ – حتى بلغ – إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » . يتهدّدهم بالنار . فقام النبيّ صلى الله عليه وسلم يلتمسهم حتى إذا أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله قال : " الحمد لله الذى لم يُمِتْنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى، معكم المَحْيا ومعكم الممات " . ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أى طاعته .

وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغُدْوَةِ(١) وَالْعَشِيِّ » وحجتهم أنها فى السواد بالواو . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكاد العرب تقول الغدوة لأنها معروفة . روى عن الحسن « ولا تعد(٢) عينيك عنهم » أى لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلبا لزينتها؛ حكاه اليزيدى . وقيل : لا تحتقرهم عيناك؛ كما يقال فلان تَنْبُو عنه العين؛ أى مستحقرا .

﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى تتزين بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك؛ ولم يُرِد النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك، ولكن الله نهاه عن أن يفعله، وليس هذا بأكثر من قوله : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ(٣) » . و إن كان الله أعاذه من الشرك . و « تريد » فعل مضارع فى موضع الحال؛ أى لا تعد عيناك مريدا؛ كقول امرئ القيس :

فقلتُ له لا تبكِ عَيْنُك إنما * نحاول مُلْكا أو نموتَ فنُعْذَرا

وزعم بعضهم أن حق الكلام : لا تعد عينيك عنهم؛ لأن « تعد » متعد بنفسه . قيل له : والذى وردت به التلاوة من رفع العينين يئول إلى معنى النصب فيهما، إذ كان لا تعد عيناك عنهم بمنزلة لا تنصرف عيناك عنهم، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم لا تصرف عينيك عنهم؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو فى الحقيقة موجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى :

---

(١) كذا فى الأصول أراد : قرأ هؤلاء هنا وفى الأنعام « الغدوة » .   (٢) فى كتاب روح المعانى : « وقرأ الحسن (ولا تعد عينيك) بضم التاء وسكون العين وكسر الدال المخففة ، من أعداه ، ونصب العينين . وعنه وعن عيسى والأعمش أنهم قرءوا (ولا تعد عينيك) بضم التاء وفتح العين وتشديد الدال المكسورة ، من عداه يعديه ، ونصب العينين أيضا .   (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٦ .

Marfat.com

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ »(١) فأسند الإعجاب إلى الأموال ، والمعنى : لا تعجبك يا محمد أموالهم . ويزيدك وضوحا قول الزجاج: إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ روى جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى: « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » قال : نزلت فى أمَيَّـة بن خلف الجُمَحِىّ ، وذلك أنه دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه من تجرّد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة؛ فأنزل الله تعالى : « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » يعنى من ختمنا على قلبه عن التوحيد . ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ يعنى الشرك . ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ قيل : هو من التفريط الذى هو التقصير وتقديم العجز بترك الإيمان . وقيل : من الإفراط ومجاوزة الحدّ ، وكان القوم قالوا : نحن أشراف مضر إن أسلمنا أسلم الناس؛ وكان هذا من التكبر والإفراط فى القول . وقيل: « فُرُطًا » أى قدما فى الشر؛ من قولهم: فَرَط منه أمر أى سبق . وقيل : معنى « أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ » وجدناه غافلا؛ كما تقول : لقيت فلانا فأحمدته؛ أى وجدته محمودا . وقال عمرو بن معد يكرب لبنى الحارث بن كعب : والله لقد سألناكم فما أبخلناكم، وقاتلناكم فما أجبناكم : وهاجيناكم فما أفحمناكم؛ أى ماوجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مُفْحَمين . وقيل : نزلت ، «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا» فى عُيينة بن حِصن الفَزارى ؛ ذكره عبد الرزاق ، وحكاه النحاس عن سفيان الثَّورى . والله أعلم .

قوله تعالى : وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ «الحقّ» رفع على خبر الابتداء المضمر؛ أى قل هو الحق . وقيل : هو رفع على الابتداء، وخبره فى قوله :

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٤ .

Marfat.com

«مِنْ رَبِّكُمْ» . ومعنى الآية : قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيها الناس! من ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهـدى والضلال ، يهدى من يشاء فيؤمن، ويضـل من يشاء فيكفر ؛ ليس إلىّ من ذلك شيء ، فالله يؤتى الحـق من يشاء وإن كان ضعيفا ، ويحرمه من يشاء وإن كان قويا غنيا، ولست بطارد المؤمنين لهواكم؛ فإن شـئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا . وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمـان والكفر، وإنمـا هو وعيد وتهديد . أى إن كفرتم فقد أعدّ لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَـدْنَا ﴾ أى أعددنا . ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى للكافرين الجاحدين . ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قال الجوهرى : السُّرادِق واحد السُّرادِقات التى تمدّ فوق صحن الدار . وكل بيت من كُرْسُف[1] فهو سرادق[2] . قال رؤبه :

يا حَكَمُ بنَ المنذر بن الجـارُودْ ＊ سُرادِقُ المجـــد عليك مَمْـدُودْ

يقال : بيت مُسَرْدَق . وقال سـلامة بن جندل يذكر أبروِيز[3] وقتله النعمان بن المنـذر تحت أرجل الفِيَلة :

هو المُدْخِل النعمانَ بيتًا سمـاؤه ＊ صُدورُ الفيولِ بعـد بَيْتٍ مُسَرْدَقِ

وقال ابن الأعرابى : « سُرَادِقُهَا » سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . الكلبى : عنق تخرج من النـار فتحيط بالكفار كالحظيرة . القُتَبِىّ : السرادق الحُجْزة التى تكون حول الفسطاط . وقاله ابن عُزَيز . وقيل : هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذى ذكره الله تعالى فى سورة «والمراسلات» حيث يقول : «ٱنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ»[4] وقوله : «وظِلٍ مِن يحمومٍ»[5] قاله قتادة. وقيل: إنه البحر المحيط بالدنيا . وروى يعلى بن أمية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " البحر هو جهنم — ثم تلا — « نارا أحاط بهم سرادقها » —

---

(١) الكرسف : القطن .　(٢) كذا فى الأصل واللسان ، واستدرك عليه صاحب اللسان بأنه لكذاب الحرمازى، وتابعه على هذا سيبويه والأعلم الشنتمرى . مدح الراجز أحد بنى المنذر بن الجارود العبدى ، وحكم هذا أحد ولاة البصرة لهشام بن عبد الملك . وسمى جده الجارود لأنه أغار على قوم فاكتسح أموالهم : فشبه بالسيل الذى يجرد ما مر به .　(٣) بفتح الواو وكسرها ، ملك من ملوك الفرس .　(٤) راجع ج ١٩ ص ١٦٠ .

(٥) راجع ج ١٧ ص ٢١٢ .

Marfat.com

ثم قال — والله لا أدخلها أبدا مادمت حيًّا ولا يصيبني منها قطرة" ذكره المـاوردي. وخرج ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخُدْري عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : "لسرادق النـار أربع جُدُر كُثُف(١) كل جدار مسيرة أربعين سنة" . وخرجه أبو عيسى الترمذي، وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قلت : وهذا يدل على أن السُّرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار، وجُدُرُه ماوُصف .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَـاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ قال ابن عباس : المهل ماء غليظ مثل دُرْدِيّ(٢) الزيت . مجاهـد : القَيْح والدم . الضحاك : ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلها سُود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس وقزدير، فتموج بالغليان، فذلك المهل . ونحوه عن ابن مسعود . قال سعيد بن جُبير : هو الذي قد انتهى حرّه . وقال : المهل ضرب من القَطِران؛ يقال : مَهَلت البعير فهو ممهول . وقيل : هو السّم . والمعنى في هذه الأقوال متقارب . وفي الترمذي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : « كَالْمُهْلِ» قال : "كعكر الزيت فإذا قرّبه إلى وجهه سقطت فَرْوة وجهه" قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من حديث رِشْـدين بن سعد ورِشْدين قد تُكُلِّم فيه من قبـل حفظه . وخرج عن أبي أُمَامة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : "وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ(٣)" قال : "يقرّب إلى فيه فيكرهه فإذا أُدْنِي منه شوَى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره . يقول الله تعالى : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَـاءَهُمْ(٤) » يقول : « وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَـاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا » " قال : حديث غريب .

قلت : وهذا يدلّ على صحة تلك الأقوال، وأنها مرادة، والله أعلم . وكذلك نص عليها أهل اللغة . في الصحاح « المهـل » النحاس المُذاب . ابن الأعرابي : المهل المذاب من

(١) الكُثُف : جمع كثيف، وهو الثخين الغليظ . (٢) الدردى (بالضم) : ما يبقى في الأسفل .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٣٥١ . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٦ .

Marfat.com

الرصاص . وقال أبو عمرو . المهل دُرْدِيّ الزيت . والمهل أيضا القيح والصديد . وفى حديث أبي بكر : آدفنونى فى ثوبىّ هـذين فإنهما للمهل والتراب . و ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ قال مجاهد : معناه مجتمعا، كأنه ذهب إلى معنى المرافقة . آبن عباس : منزلا . عطاء : مقرا . وقيل : مهادا . وقال القتبيّ : مجلسا . والمعنى متقارب؛ وأصله من المتّكأ ، يقال منه : آرتفقت أى آتكأت على المرفق . قال الشاعر :

قالت له وآرتفقتْ ألَا فــتًى * يسوق بالقوم غزالاتِ الضُّــحا [(1)]

ويقال : ارتفق الرجل إذا نام على مِرفقه لا يأتيه نوم . قال أبو ذؤيب الهذليّ :

نام الخلِيّ وبِتُّ الليـل مُرْتَفِقا [(2)] * كأنّ عيْنِي فيهـا الصّاب مَذْبُوحُ

الصاب : عصارة شجر مرّ .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

لمـا ذكر ما أعدّ للكافرين من الهوان ذكر أيضا ما للؤمنين من الثواب . وفى الكلام إضمار، أى لا نضيع أجر من أحسن منهم عملا، فأما من أحسن عملا من غير المؤمنين فعمله محبط . و « عَمَلًا » نصب على التمييز، وإن شئت بإيقاع « أحسن » عليـه . وقيل :

(١) غزالة الضحا وغزالاته : بعد ما تنبسط الشمس وتضحى . وقيل : هو أول الضحا إلى مدّ النهار الأكبر حتى يمضى من النهار نحو من خمسه . (٢) رواية الديوان : « مشتجرا » والمشتجر : الذى قد شجر نفسه ووضع يده تحت شجره على حنكه أو على فمه . والشجر : ما بين اللحيين . ومذبوح : مشقوق .

Marfat.com

« إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَـلًا » كلام معترض ، والخـبر قوله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ و « جَنَّاتُ عَدْنٍ » سُرَّةُ الجنة ، أى وسطها وسائر الجنات مُحْدِقَة بها . وذكرت بلفظ الجمع لسعتها ؛ لأن كل بقعة منها تصلح أن تكون جنة . وقيـل : العدن الإقامة ، يقال : عدن بالمكان إذا أقام به . وعَدَنْتُ البـلد توطنته . وعَدَنَتِ الإبلُ بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه ؛ ومنـه « جَنَّاتُ عَدْنٍ » أى جنات إقامة . ومنـه سمى المعدن (بكسر الدال) ؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء . ومركز كلّ شىء معدنه . والعادن : الناقة المقيمة فى المراعى . وعَدَنَ بلَدٌ ؛ قاله الجوهرى . ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ [١] تقدّم فى غير موضع . ﴿ يُحَـلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ وهو جمع سِوار . قال سعيد بن جبير : على كل واحد منهم ثلاثة أسورة : واحد من ذهب ، وواحد من ورق ، وواحد من لؤلؤ .

قلت : هــذا منصوص فى القرآن ، قال هنا : « مِنْ ذَهَبٍ » وقال فى الحج [٢] وفاطر [٣] « مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا » وفى الإنسان [٤] « مِنْ فِضَّةٍ » . وقال أبو هريرة : سمعت خليلى صلّى الله عليه وسلم يقول : "تبلغ الحِلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء" خرجه مسلم . وحكى الفرّاء : « يَحلون » بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة ؛ يقال : حَلِيت المرأة تَحْلَى فهى حالية إذا لبست الحَلْى . وحَلِىَ الشىء بعينى يَحْلَى ؛ ذكره النحاس . والسِّوار سوار المرأة : والجمع أسورة ، وجمع الجمع أساورة . وقرئ : « فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ » [٥] وقد يكون الجمع أساور . وقال الله تعالى : « يُحَـلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ » قاله الجوهرى . وقال عُزَيز : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سِوار وسُوار ، وهو الذى يلبس فى الذراع من ذهب ، فإن كان من فضـة فهو قُلْب وجمعه قِلَبـة ؛ فإن كان من قرن أو عاج فهى مَسَكَة وجمعه مَسَك . قال النحاس : وحكى قُطْرب فى واحد الأساور إسوار ، وقُطْرب صاحب شذوذ ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٨ . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٠٠٠ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ١٤١ . (٥) راجع جـ ١٦ ص ١٠٠ .

Marfat.com

قلت : قد جاء فى الصحاح وقال أبو عمرو بن العلاء : واحدها إسوار . وقال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس فى الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السندس : الرقيق[1] النحيف ، واحده سندسة ؛ قاله الكسائى . والإستبرق : ما ثخُن منه — عن عكرمة — وهو الحرير . قال الشاعر :

تراهنّ يلبسن المشاعر مَرّة * وإستبرقُ الديباج طَوْرًا لباسُها

فالإستبرق الديباج . ابن بحر : المنسوج بالذهب . القُتَبِىّ : فارسى معرب . الجوهرى : وتصغيره أُبَيْرِق . وقيل : هو استفعل من البريق . والصحيح أنه وفاق بين اللغتين ؛ إذ ليس فى القرآن ما ليس من لغة العرب ، على ما تقدّم ، والله أعلم .

وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر ؛ لأن البياض يبدّد النظر ويؤلم ، والسواد يذم ، والخضرة بين البياض والسواد ، وذلك يجمع الشعاع . والله أعلم . روى النسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، أخبرنا عن ثياب الجنة ، أخَلْقٌ يُخلَق أم نسيج ينسج؟ فضحك بعض القوم . فقال لهم : " ممّ تضحكون من جاهل يسأل عالما " ؟ فجلس يسيرا أو قليلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أين السائل عن ثياب الجنة"؟ فقال : هاهو ذا يا رسول الله ؛ قال : " لا بل تَشَقق عنها ثمر الجنة " قالها ثلاثا . وقال أبو هريرة : دار المؤمن درّة مجوّفة فى وسطها شجرة تنبت الحُلَل ويأخذ بإصبعه أو قال بإصبعيه سبعين حُلّة منظمة بالدرّ والمَرْجان . ذكره يحيى بن سلام فى تفسيره وابن المبارك فى رقائقه . وقد ذكرنا إسناده فى كتاب التذكرة . وذكر فى الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لها وجهان لكل وجه لون ، يتكلمان بصوت يستحسنه سامعه ، يقول أحد الوجهين للآخر : أنا أكرم على ولىّ الله منك ، أنا ألِى جسده وأنت لا تلِى . ويقول الآخر : أنا أكرم على ولىّ الله منك ، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر .

(١) الرقيق أى من الديباج .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ « الْأَرَائِك » جمع أريكة، وهى السرر في الحجال[1] . وقيل : الفرش في الحجال؛ قاله الزجاج . ابن عباس : هى الأسرة من ذهب، وهى مكللة بالدر والياقوت عليها الحجال ، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيلة وما بين عدن إلى الجابية . وأصل متكئين مُوْتَكِئِين، وكذلك اتكأ أصله أوتكأ، وأصل التكأة وكأة؛ ومنه التوكأ للتحامل على الشيء، فقلبت الواو تاء وأدغمت . ورجل وُكَأة كثير الاتكاء . ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ يعنى الجنات ، عكس « وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا » . وقد تقدّم . ولو كان « نعمت » لجاز لأنه اسم للجنة . وعلى هذا « وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا » . وروى البراء ابن عازب أن أعرابيا قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، والنبيّ صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العَضْباء فقال : إنى رجل مسلم فأخبرنى عن هذه الآية « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » الآية ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ فأعلِم قومك إن هذه الآية نزلت فيهم" ذكره الماورديّ ، وأسنده النحاس في كتاب معانى القرآن ، قال : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال حدّثنا محمد بن حميد قال حدّثنا يحيى بن الضُّرَيس عن زهير بن معاوية عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب قال : قام أعرابى ... ؛ فذكره . وأسنده السُّهَيلى في كتاب الأعلام . وقد روينا جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

(١) الحجال ، جمع الحجلة (بفتحتين) كالقبة ، وموضع يزين بالثياب والستور والأسرة للعروس .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله : « وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ » . واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما؛ فقال الكلبي : نزلت في أخوين من أهـل مكة مخزوميين، أحدهمـا مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوجُ أمِّ سلمة قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورة « الصافات » في قوله : « قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ »(1)، وَرِث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدهما ماله في سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فقال ما قال ... ؛ ذكره الثعلبيّ والقُشَيري . وقيل : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأهل مكة . وقيل : هو مَثَل لجميع مَن آمن بالله وجميع مَن كفر . وقيـل : هو مَثَل لعُيَيْنَة بن حِصْن وأصحابه مع سلمـان وصُهيب وأصحابه ؛ شبّههم الله برجلين من بني إسرائيـل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا؛ في قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تمليخا . والآخر كافر واسمه قرطوش . وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة «الصافات» . وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال : اسم الخَـيِّر منهما تمليخا، والآخر قرطوش، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المـال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيدا بألف وأعتقهم، و بالألف الثانية ثيابا فكسا العراة، و بالألف الثالثة طعاما فأطعم الجُوع، و بنى أيضا مساجد، وفعل خيرا . وأما الآخر فنكح بمـاله نساء ذوات يسار، واشترى دواب و بقرا فاستنتجها فنَمت له نمـاء مُفرِطًا ، واتجـر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غِنًى ؛ وأدركت الأوّلَ الحاجةُ، فأراد أن يستخدم(2) نفسه في جنـة يخدمها فقال : لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جنـاته رجوت أن يكون ذلك أصلح بي ؛ فجـاءه فلم يكد يصل إليـه من غِلَظ الحجاب ، فلما دخل عليـه وعرفه وسأله حاجته قال له : ألم أكن قاسمتك المـال نصفين ! فمـا صنعتَ بمالك ؟ قال : اشـتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى . فقال : أئنك

(1) راجع جـ ١٥ ص ٨١ فما بعد . (2) في جـ و ى : يستأجر .

Marfat.com

لمن المصدّقين، ما أظن الساعة قائمة ! وما أراك إلا سفيها، وما جزاؤك عندى على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمـالى حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أنى كَسَبْت وسفهت أنت، اخرج عنى . ثم كان من قصة هـذا الغنى ما ذكره الله تعالى فى القرآن من الإحاطة بثمـره وذهابها أصلا بمـا أرسل عليها من السماء من الحُسْبان .

وقـد ذكر الثعلبى هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب . قال عطاء : كانا شريكين لها ثمانية آلاف دينار. وقيل: ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتسماها، فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار، فقال صاحبه : اللهم إن فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار وإنى اشتريت منك أرضا فى الجنة بألف دينار فتصدّق بها، ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال: اللهم إن فلانا بنى دارا بألف دينار وإنى أشترى منك دارا فى الجنة بألف دينار، فتصدّق [بألف دينـار](١)، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال: اللهم إن فلانا تزوج امرأة بألف دينار وإنى أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار، ثم اشترى خدما ومتاعا بألف دينار، وإنى أشترى منك خدما ومتاعا من الجنة بألف دينار، فتصدّق بألف دينار . ثم أصابته حاجة شـديدة فقال : لعلّ صاحبى ينالُنى معروفه فأتاه فقال : ما فعل مالُك؟ فأخبره قصته فقال : وإنك لمن المصدّقين بهذا الحديث ! والله لا أعطيك شيئا ! ثم قال له : أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنما، فقال صاحبه : والله لأعظنّه، فوعظه وذكّره وخوّفه . فقال: سِرْ بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق؛ فقال له : يا أخى ! إن الدنيـا أحقر عند الله من أن يجعلها ثوابا لمحسن أو عقابا لكافر . قال : فأكرهه على الخروج معه، فابتلاهما الله، فجعـل الكافر يرمى شبكته ويسمّى باسم صنمه، فتطلع متدفّقة سمكا . وجعل المؤمن يرمى شبكته ويسمى باسم الله فلا يطلُع له فيهـا شىء؛ فقال له : كيف ترى ! أنا أكثر منك فى الدنيـا نصيبا ومنزلة ونَفَرا، كذلك أكون أفضل منك فى الآخرة إن كان ما تقول بزعمك حقًّا . قال : فضَجّ الملك الموكّل بهما، فأمر الله تعـالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريَه منازل المؤمن فيهـا، فلما رأى ما أعد الله له قال : وعزّتك لا يضره ما ناله من

---

(١) من ب و ى

Marfat.com

الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا ؛ وأراه منازل الكافر فى جهنم فقال : وعزّتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا . ثم إن الله تعالى توفّى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلما استقر المؤمن فى الجنة ورأى ما أعدّ الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون، فقال : «إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ»(١) الآية؛ فنادى منادٍ : يا أهل الجنة ! هل أنتم مطّلعون فاطّلع إلى جهنم فرآه فى سواء الجحيم ؛ فنزلت : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا » .

بيّن الله تعالى حال الأخوين فى الدنيا فى هذه السورة ، وبيّن حالهما فى الآخرة فى سورة « الصافات » فى قوله : « إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ . يقول أئنك لمن المصدقين — إلى قوله — لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » . قال ابن عطيـة : وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب فى كتابه فى عجائب البـلاد أن بحيرة تِنِّيس كانت هاتين الجنتين، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق فى طاعة الله حتى عيّره الآخر، وجرت بينهما المحاورة فغرقها الله تعالى فى ليلة، وإياها عنى بهذه الآية . وقد قيل : إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة : وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة. وجعله زجرا وإنذارا؛ ذكره المـاوردى . وسياق الآية يدلّ على خلاف هذا، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أى أطفناهما من جوانبهما بنخل . والحِفاف الجانب، وجمعه أحِفّة ؛ ويقال : حفّ القوم بفلان يحُفّون حَفًّا، أى طافوا به ؛ ومنه «حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ»(٢) . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ أى جعلنا حول الأعناب النخل، ووسط الأعناب الزرع. ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ﴾ أى كل واحدة من الجنتين ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ تامّا ، ولذلك لم يقل آتتا . واختُلف فى لفظ : « كِلْتا وكِلَا» هل هو مفرد أو مثنى ؛ فقال أهل البصرة : هو مفرد؛ لأن كِلا وكلتا فى توكيد الاثنين نظير « كُلّ» فى المجموع ، وهو اسم مفرد غير مثنى ؛ فإذا ولى اسما(٣) ظاهرا كان فى الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة، تقول: رأيت كِلا الرجلين وجاءنى كِلا الرجلين ومررت بكلا الرجلين ؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء فى موضع الجر والنصب، تقول:

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨١ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد . (٣) كذا فى الأصول والصحاح للجوهرى وقد نقله عنه صاحب اللسان . وكان الأولى أن يقال : « فإذا وليه اسم ظاهر ... » .

Marfat.com

رأيت كِلَيْهما ومررت بكليهما، كما تقول عليهما. وقال الفراء: هو مثنًّى، وهو مأخوذ من كُلّ خُفِّفت اللام وزيدت الألف للتثنية. وكذلك كلتا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم بواحد، ولو تكلم به لقيل: كِلْ وكِلْت وكِلان وكِلْتان. واحتج بقول الشاعر:

في كِلْتِ رجْليها سُلَامَى واحدَهْ[(١)] * كِلتاهما مَقْـرونةٌ بزائـدَهْ

أراد في إحدى رجليها فأفرد. وهذا القول ضعيف عند أهل البصرة؛ لأنه لو كان مثنى لوجب أن تكون ألفه في النصب والجر ياءً مع الاسم الظاهر، ولأن معنى «كِلا» مخالف لمعنى «كل» لأن «كُلًّا» للإحاطة و«كِلَا» يدلّ على شيء مخصوص، وأما هذا الشاعر فإنما حذف الألف للضرورة وقدّر أنها زائدة، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة، فثبت أنه اسم مفـرد كَمِعَى، إلا أنه وُضـع ليدلّ على التثنية، كما أن قولهم «نحن» اسم مفرد يدلّ على اثنين فما فوقهما، يدلّ على ذلك قول جرير:

كِلَا يومَىْ أمَامةَ يومَ صَدٍّ[(٢)] * وإن لم نأتِهـا إلا لِمـامَا

فأخبر عن «كلا» بيوم مفرد، كما أفرد الخبر بقوله: «آتت» ولو كان مثنى لقال آتتا، ويوما. واختلف أيضا في ألف «كلتا»؛ فقال سيبويه: ألف «كلتا» للتأنيث والتاء بدل من لام الفعل وهي واو والأصل كِلْوا، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علمَ التأنيث، والألف في «كلتا» قد تصير ياء مع المضمر فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيدٌ للتأنيث. وقال أبو عمر الجَرْمي: التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده: فِعْتَلٌ، ولو كان الأمر على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كِلْتَوِيّ، فلما قالوا كِلَوِيّ وأسقطوا التاء دلّ على أنهم أجروها مجرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت أَخَوِيّ، ذكره الجوهري. قال أبو جعفر النحاس: وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى، وأن تقول: كلتا الجنتين آتتا أكلهما؛ لأن المعنى المختار[(٣)] كلتاهما آتتـا. وأجاز الفـراء: كلتـا الجنتين آتى أكله، قال: لأن المعنى كل

---

(١) السلامى كحبارى: عظام الأصابع في اليد والقدم. (٢) كذا في الأصول واللسان مادة «كلا». وفي ديوانه المطبوع: «يوم صدق». والبيت من قصيدة مطلعها:

ألا حي المنازل والخياما * وسكنا طال فيها ما أقاما

(٣) في ج: الجنتان كلتاهما.

Marfat.com

الجنتين . قال : وفى قراءة عبدالله « كلّ الجنتين آتى أكله » . والمعنى على هذا عند الفراء: كل شيء من الجنتين آتى أكله . والأُكُل (بضم الهمزة) ثمر النخل والشجر . وكل مايؤكل فهو أُكُل؛ ومنه قوله تعالى : « أُكُلُهَا دائِمٌ »(1) وقد تقدم . ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أى لم تنقص.

قوله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾ أى أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر . ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ قرأ أبو جعفر وشَيْبة وعاصم و يعقوب وابن أبى إسحاق « ثَمَر » بفتح الثاء والميم، وكذلك قوله: « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ» جمع ثمرة . قال الجوهرى : الثمرة واحدة الثمر والثمرات ، وجمع الثمر ثمار؛ مثل جبل وجبال. قال الفراء : وجمع الثمار ثُمُر؛ مثل كتاب وكتب ، وجمع الثمر أثمار؛ مثل أعناق وعنق . والثمر أيضا المال المُثَمَّر؛ يخفف ويثقل . وقرأ أبو عمرو « وكان له ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم ، وفسره بأنواع المال . الباقون بضمهما فى الحرفين . قال ابن عباس : ذهب وفضة وأموال . وقد مضى فى « الأنعام »(2) نحو هذا مبيّناً . وذكر النحاس : حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرنى عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدى قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال [أخبرنا](3) هارون قال حدثنى أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال: لو سمعت أحدا يقرأ «وكان له ثُمُر» لقطعت لسانه؛ فقلت للأعمش : أتأخذ بذلك؟ فقال: لا ! ولا نُعْمَةَ عَيْنٍ(4) . فكان يقرأ: «ثُمُر» و يأخذه من جمع الثمر . قال النحاس : فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار، ثم جمع ثمار على ثمر؛ وهو حسن فى العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم؛ لأن قوله : « كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا » يدلّ على أن له ثمرا .

قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ أى يراجعه فى الكلام ويجاوبه . والمحاورة المجاوبة ، والتحاوُر التجاوب . ويقال : كلمته فما أحار إلىّ جوابا ، وما رجع إلىّ حَويرا ولا حَويرة ولا مَحُورة ولا حِوَارا؛ أى ما ردّ جوابا . ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ النفر : الرهط وهو مادون العشرة . وأراد هاهنا الأتباع والخدم والولد، حسبما تقدّم بيانه .

---

(١) راجع ج ٩ ص ٣٢٤ . (٢) راجع ج ٧ ص ٤٩ . (٣) من ج و ى : حدثنا .

(٤) فى هذه الكلمة اثنتا عشرة لغة : نعم عين ونعمة ونعام ونعيم (بفتحهن) ونعمى ونعامى ونعام ونم ونعمة (بضمهن) ونعمة ونعام (بكسرها) . وتنصب الكل بإضمار الفعل ؛ أى أفعل ذلك إنعاما لعينك و إكراما .

Marfat.com

قوله تعالى : وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ قيل : أخذ بيد أخيه المؤمن يُطيف به فيها ويُريه إياها. ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أى بكفره ، وهو جملة فى موضع الحال . ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه . ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا ﴾ أنكر فناء الدار . ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أى لا أحسب البعث كائنا . ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّى ﴾ أى وإن كان بعث فكما أعطانى هـذه النعم فى الدنيا فسيعطينى أفضل منه لكرامتى عليه؛ وهو معنى قوله : ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ وإنما قال ذلك لمـا دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر . وفى مصاحف مكة والمدينة والشام « منهما » . وفى مصاحف أهل البصرة والكوفة « منها » على التوحيد، والتثنية أولى؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين .

قوله تعالى : قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ يهوذا أو تمليخا ؛ على الخلاف فى آسمه . ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ وعظه و بيّن له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التى لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة . و « سَوَّاكَ رَجُلًا » أى جعلك معتـدل القامة والخَـلْق ، صحيح الأعضاء ذكرا . ﴿ لَـٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى ﴾ كذا قرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمِى وأبو العالية . وروى عن الكسائى « لكن هو الله » بمعنى لكن الأمر هو الله ربى، فأضمر آسمها فيهـا . وقرأ الباقون « لكنا » بإثبات الألف . قال الكسائى : فيـه تقديم وتأخير ،

Marfat.com

تقديره : لكن الله هو ربى أنا، فحذفت الهمزة من «أنا» طلبا للخفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى النونين فى الأخرى وحذفت ألف «أنا» فى الوصل وأثبتت فى الوقف . وقال النحاس : مذهب الكسائى والفراء والمازنى أن الأصل لكن أنا فألقيت حركة الهمزة على نون لكن وحذفت الهمزة وأدغمت النون فى النون فالوقف عليها لكنا وهى ألف أنا لبيان الحركة . وقال أبو عبيد : الأصل لكن أنا ، فحذفت الألف فالتقت نونان فجاء بالتشديد لذلك ، وأنشدنا الكسائى :

لهنك من عبسية لوسيمة * على هنوات كاذب من يقولها

أراد : لله إنك [لوسيمة][1]، فأسقط إحدى اللامين من « لله » وحذف الألف من إنك . وقال آخر فجاء به على الأصل :

وترميني[2] بالطرف أى أنت مذنب * وتقلينني لكن إياك لا أقلي

أى لكن أنا . وقال أبو حاتم : ورووا عن عاصم « لكنا هو الله ربى » وزعم أن هذا لحن، يعنى إثبات الألف فى الإدراج . قال الزجاج : إثبات الألف فى «لكنا هو الله ربى» فى الإدراج جيد ؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضا . قال : وفى قراءة أبى « لكن أنا هو الله ربى » . وقرأ ابن عامر والمسيلي[3] عن نافع ورويس عن يعقوب « لكنا » فى حال الوقف والوصل معا بإثبات الألف . وقال الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفونى * حميدا قد تذريت السناما

وقال الأعشى :

فكيف أنا وانتحال القوافى * بعد المشيب كفى ذاك عارا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف . ﴿ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ « هو » ضمير القصة والشأن والأمر ؛ كقوله : « فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا »[4] وقوله : « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ »[5] . ﴿ وَلَا أُشْرِكُ

---

(١) من ج و ى . (٢) فى ج و ى : ويرمينى بالطرف أى أنت مذنب . و يقليني لكن إياه لا أقلى .
(٣) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد . وهذه النسبة إلى مسيلة (كسفينة) بلدة بالقطر الجزائرى .
(٤) راجع ج ١١ ص ٣٤٠ . (٥) راجع ج ٢٠ ص ٢٤٤ .

Marfat.com

رَبِّى أَحَدًا ﴾ دلّ مفهومه على أن الأخ الآخر كان مشركا بالله تعالى يعبد غيره . ويحتمل أنه أراد لا أرى الغنى والفقر إلا منه ، وأعلم أنه لو أراد أن يسلب صاحب الدنيا دنياه قدر عليه؛ وهو الذى آتانى الفقر . ويحتمل أنه أراد بجحودك البعث مصيره إلى أن الله تعـالى لا يقدر عليه ، وهو تعجيز الرب سبحانه وتعالى ، ومن عجزه سبحانه وتعالى شبهه بخلقه ؛ فهو إشراك .

قوله تعـالى : وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أى بالقلب ، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر وردّ عليه ، إذ قال : «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا » و « ما » فى موضع رفع ، تقديره : هذه الجنة هى ماشاء الله . وقال الزجاج والفراء : الأمر ماشاء الله ، أو هو ما شاء الله ؛ أى الأمر مشيئة الله تعالى . وقيل : الجواب مضمر، أى ماشاء الله كان ، وما لا يشاء لايكون . « لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » أى ما اجتمع لك من المـال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك ، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع .

الثانيــــة ــ قال أشهب قال مالك : ينبغى لكل من دخل مــنزله أن يقول هــذا . وقال ابن وهب : قال لى حَفْص بن مَيْسَرة : رأيت على باب وهب بن منبّه مكتوبا «ماشاء الله لا قوة إلا بالله » . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى هريرة : " ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ــ أو قال كنز من كنوز الجنة " قلت : بلى يا رســول الله ، قال " لاحول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدى واستسلم " أخرجه مسلم

Marfat.com

فى صحيحه من حديث أبى موسى . وفيه : فقال " يا أبا موسى أو يا عبدالله بن قيس ألا أدلُّك على كلمة من كنز الجنة — فى رواية على كنز من كنوز الجنة — " قلت : ما هى يارسول الله؟ قال : "لاحول ولا قوة إلا بالله". وعنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة" قلت : بلى ؛ فقال " لاحول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم". وروى أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال : بآسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليه البركات . وقالت عائشة : إذا خرج الرجل من منزله فقال باسم الله قال المَلَك هُديت، و إذا قال ما شاء الله قال الملك كُفيت ، و إذا قال لا قوة إلا بالله قال المَلَك وُقيت . خرجه الترمذىّ من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال — يعنى إذا خرج من بيتـه — باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال كُفيت ووُقيت وتنحى عنه الشيطان " هـذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . خرجه أبو داود أيضا وزاد فيه — فقال له : " هُديت وكُفيت ووُقيت". وأخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال . " إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه ملكان موكلان به فإذا قال باسم الله قالا هُديت و إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قالا وُقيت و إذا قال توكلت على الله قالا كُفيت قال فيلقاه قَرِيناه فيقولان ماذا تريدان من رجل قد هُدِى ووُقِى وكُفِى". وقال الحاكم أبو عبد الله فى علوم الحديث : سئل محمـد بن إسحاق بن خزيمة عن قول النبىّ صلى الله عليـه وسلم : " تحاجّت الجنة والنار فقالت هذه — يعنى الجنة — يدخلنى الضعفاء " مَن الضعيف ؟ قال : الذى يبرئ نفسه من الحول والقوة يعنى فى اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة . وقال أنس بن مالك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " من رأى شيئا فأعجبه فقال ما شاء الله لاقوة إلا بالله لم يضره عين " . وقد قال قوم : ما من أحد قال ماشاء الله كان فأصابه شىء إلا رَضِىَ به . وروى أن من قال أربعا أَمِنَ من أربع : من قال هـذه أمِن من العَيْن ، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل أمِن من كيد الشيطان ، ومن قال وأفوض أمرى إلى الله أمن مكر الناس ، ومن قال : « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » أمِن من الغم .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً ﴾ « إنْ » شرط « تَرَنِ » مجزوم به ، والجواب « فَعَسَى رَبِّى » و « أنا » فاصلة لا موضع لها من الإعراب . و يجوز أن تكون فى موضع نصب توكيدا للنون والياء . وقرأ عيسى بن عمر : «إن ترنِ أنا أقل منك» بالرفع؛ يجعل « أنا » مبتدأ و « أقل » خبره ، والجملة فى موضع المفعول الثانى ، والمفعول الأول النون والياء ، إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدلّ عليها ، و إثباتها جيّد بالغ وهو الأصل لأنها الإسم على الحقيقة . و ﴿ فَعَسَى ﴾ بمعنى لعلّ ؛ أى فلعلّ ربى . ﴿ أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ أى فى الآخرة . وقيل : فى الدنيا . ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أى على جنتك . ﴿ حُسْبَاناً ﴾ أى مرامى من السماء ، واحدها حُسْبانة ؛ قاله الأخفش والقُتَبِيّ وأبو عبيدة . وقال ابن الأعرابى : والحسبانة السحابة ، والحسبانة الوِسادة ، والحسبانة الصَّاعقة . وقال الجوهرى : والحسبان . (بالضم) : العـذاب . وقال أبو زياد الكلابى : أصاب الأرض حسبان أى جراد . والحسبان أيضا الحساب ، قال الله تعالى : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ »[(1)] . وقد فُسِّر الحُسْبان هنا بهذا . قال الزجاج : الحسبان من الحساب ؛ أى يرسل عليها عذاب الحساب ، وهو حساب ما اكتسبت يداك ؛ فهو من باب حذف المضاف . والحسبان أيضا : سهام قصار يرمى بها فى طَلَق واحد ، وكان من رَمْى الأكاسرة . والمرامى من السماء عذاب . ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ يعنى أرضا بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قـدم ، وهى أضرّ أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض ؛ و « زلقا » تأكيد لوصف الصعيد ؛ أى تزلّ عنهـا الأقدام لملاستها . يقال : مكان زَلَق (بالتحريك) أى دَحْض ، وهو فى الأصل مصدر قولك : زلِقت رجله تَزْلَق زَلَقا ، وأزلقها غيره . والزلق أيضا عجز الدابة . قال رُؤْبة :

* كأنها حَقْباءُ بَلْقاء الزَّلَق *

والمَزْلَقة والمَزْلَقة : الموضع الذى لا يثبت عليه قدم . وكذلك الزَّلّاقة . والزَّلْق الحَلْق ، زَلَق رأسَه يَزْلِقُه زَلْقا حلقه ؛ قاله الجوهرى . والزَّلَق المحلوق ، كالنَّقْض والنِّقْض . وليس المراد

(1) راجع جـ ١٧ ص ١٥٢ .

Marfat.com

أنها تصير مزلقة ، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حلق لا يبقى عليه شعر ؛ قاله القشيري . ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي غائرا ذاهبا ، فتكون أعدمَ أرض للماء بعد أن كانت أوجدَ أرض للماء . والغَوْر مصدر وضع موضع الاسم ، كما يقال : رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ وعَدْلٌ ورِضًا وفَضْلٌ وزَوْرٌ ونساءٌ نَوْحٌ ؛ ويستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع . قال عمرو بن كلثوم :

تظلّ جياده نَوْحا عليه * مقلَّدة أعنّتها صُفُونا

آخر :

هريق من دموعهما سجاما * ضُباع وجاوبي نوحا قياما

أي نائحات . وقيل : أو يصبح ماؤها ذا غَوْر ، فحذف المضاف ، مثلُ « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »[1] ذكره النحاس . وقال الكسائي : ماءٌ غَوْرٌ . وقد غار الماء يغور غَوْرا وغُؤُورا ، أي سفل في الأرض ، ويجوز الهمز لانضمام الواو . وغارت عينه تغور غَوْرا وغُؤُورا ، دخلت في الرأس . وغارت تَغار لغة فيه . وقال :

* أغارتْ عينُه أم لم تَغارا *

وغارت الشمس تغور غيارا ، أي غربت . قال أبو ذؤيب :

هل الدهر إلّا ليلة ونهارُها * وإلا طلوعُ الشمس ثم غيارها

﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ أي لن تستطيع ردّ الماء الغائر ، ولا تقدر عليه بحيلة . وقيل : فلن تستطيع طلب غيره بدلا منه . وإلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره .

قوله تعالى : وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ اسم ما لم يسم فاعله مضمر ، وهو المصدر . ويجوز أن يكون المخفوض في موضع رفع . ومعنى « أُحِيطَ بِثَمَرِهِ » أي أهلك ماله كله . وهذا أول ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه . ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أي فأصبح الكافر يضرب إحدى

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد .

Marfat.com

يديه على الأخرى ندما؛ لأن هذا يصدر من النادم . وقيل : يقلّب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ وهذا لأن الملك قد يعبّر عنه باليد، من قولهم : في يده مال ، أي في ملكه مال . ودلّ قوله : « فَأَصْبَحَ » على أن هذا الإهلاك جرى بالليل؛ كقوله : «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ »[1] ويقال : أنفقت في هذه الدار كذا وأنفقت عليها. ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أي خالية قد سقط بعضها على بعض؛ مأخوذ من خوت النجوم تخوى خَيًّا أمحلت ، وذلك إذا سقطت ولم تُمطر في نوئها . وأخوت مثله . وخوت الدار خَواء أقوت ، وكذلك إذا سقطت ؛ومنه قوله تعالى : «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا»[2] ويقال : ساقطة؛ كما يقال : فهي خاوية على عروشها أي ساقطة على سقوفها؛ فجمع عليه بين هلاك الثمر والأصل ، وهذا من أعظم الجوائح ، مقابلةً على بغيه . ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ أي ياليتني عرفت نعم الله عليّ ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به . وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم .

قوله تعالى : وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ « فِئَةٌ » اسم «تَكُنْ» و «لَهُ» الخبر . « يَنْصُرُونَهُ » في موضع الصفة ، أي فئة ناصرة . ويجوز أن يكون « يَنْصُرُونَهُ » الخبر . والوجه الأول عند سيبويه أولى لأنه قد تقدم « لَهُ » . وأبو العباس يخالفه ، ويحتج بقول الله عز وجل : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »[3] . وقد أجاز سيبويه الآخر . و « يَنْصُرُونَهُ » على معنى فئة ؛ لأن معناها أقوام ، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره ؛ أي فرقة وجماعة يلتجئ إليهم . ﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ أي ممتنعا ؛ قاله قتادة . وقيل : مستردّاً بدل ما ذهب منه . وقد تقدم اشتقاق الفئة في «آل عمران»[4] . والهاء عوض من الياء التي نقصت

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٣٨ فما بعد .
(٢) راجع جـ ١٣ ص ٢١٦ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٢٠ ص ٢٤٤ فما بعد .
(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٤ .

Marfat.com

من وسطه، أصله فِيءٌ مثل فِيع؛ لأنه من فاء، ويجمع على فِئون وفِئات، مثل شِيات ولِدات ومئات . أى لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله، وضلّ عنه من افتخر بهم من الخدم والولد .

قوله تعالى : هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ اختلف فى العامل فى قوله « هُنَالِكَ » وهو ظرف؛ فقيل : العامل فيه . «وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ » ولا كان هنالك؛ أى ما نُصروا لا انتصر هنالك، أى لما أصابه من العذاب . وقيل : تم الكلام عند قوله : « مُنْتَصِرًا » . والعامل فى قوله : « هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ » ، وتقديره على التقديم والتأخير : الولاية لله الحقّ هنالك ، أى فى القيامة . وقرأ أبو عمرو والكسائى : « الحقُّ » بالرفع نعتا للولاية . وقرأ أهل المدينة وحمزة « الْحَقِّ » بالخفض نعتا لله عز وجل، والتقدير : لله ذى الحق . قال الزجاج : ويجوز « الحقَّ » بالنصب على المصدر والتوكيد؛ كما تقول : هذا لك حقا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى « الوِلاية » بكسر الواو، الباقون بفتحها ، وهما بمعنى واحد كالرِّضاعة والرَّضاعة . وقيل : الولاية بالفتح من الموالاة؛ كقوله : « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا »(١) . « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا »(٢) . و بالكسر يعنى السلطان والقدرة والإمارة؛ كقوله : «وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ»(٣) أى له الملك والحكم يومئذ، أى لا يردّ أمره إلى أحد؛ والملك فى كل وقت لله ولكن تزول الدعاوى والتوهّمات يوم القيامة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، و بكسرها للمخلوق . ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أى الله خير ثوابا فى الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وليس ثَمّ غير يُرْجَى منه ، ولكنه أراد فى ظن الجهال؛ أى هو خير من يُرجى . ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ قرأ عاصم والأعمش وحمزة ويحيى« عُقْبا » ساكنة القاف، الباقون بضمها ، وهما بمعنى واحد ؛ أى هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به . يقال : هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعُقُبُه ، أى آخره .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٨٢ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٤ .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أى صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مَثَلَ الحياة الدنيا ، أى شبهها . ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ﴾ أى بالماء . ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ حتى استوى . وقيل: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط و يكثر بالمطر . وقد تقدّم هذا المعنى فى « يونس »[(١)] مبيّنًا . وقالت الحكماء : إنما شبّه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر فى موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد ، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى و يذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتلّ كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعا مُنْبِتاً ، و إذا جاوز المقدار كان ضارّا مهلكا، وكذلك الدنيا الكفافُ منها ينفع وفضولها يضرّ. وفى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له رجل : يارسول الله، إنى أريد أن أكون من الفائزين ؛ قال : ”ذَرِ الدنيا وخُذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفى والكثير منها يُطغى“ . وفى صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : ”قد أفلح من أسلم ورُزق كفافا وقنعه الله بما آتاه“ . ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أى النبات ﴿هَشِيماً﴾ أى متكسّرا من اليُبس متفتّتا ، يعنى بانقطاع الماء عنه ، فحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه . والهَشْم : كسر الشيء اليابس . والهشيم من النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء. ومنه قولهم: مافلانٌ إلا هشيمة كَرْمٍ؛ إذا كان سَمْحا . ورجل هَشِيم : ضعيف البدن. وتهشّم عليه فلان إذا تعطّف واهتشم

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٦ .

Marfat.com

ما فى ضرع الناقة إذا احتلبه . ويقال : هَشَمَ الثَّرِيدَ؛ ومنه سُمِّيَ هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو ، وفيه يقول عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

عَمْرُو العُلَا هَشَمَ الثريدَ لقومه * ورجالُ مكّةَ مُسْنِتُون عِجَافُ

وكان سبب ذلك أن قريشا أصابتهم سِنُون(١) ذهبن بالأموال فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبزله ، فحمله فى الغرائر على الإبل حتى وافى مكة ، وهشم ذلك الخبز ، يعنى كسره وثَرَده ، ونحر تلك الإبل ، ثم أمر الطُّهاة فطبخوا ، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة ؛ فكان ذلك أول الحِباء بعد السنة التى أصابتهم ؛ فسمى بذلك هاشما . ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ أى تفرقه ؛ قاله أبو عبيدة . ابن قتيبة : تنسفه . ابن كَيْسان : تذهب به وتجىء . ابن عباس : تديره ؛ والمعنى متقارب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف : « تُذْرِيه الريح » . قال الكسائى : وفى قراءة عبد الله « تُذْرِيه » . يقال : ذَرَتْه الريح تَذْرُوه ذَرْوًا و [تَذْرِيه] ذَرْيا وأذرته تُذْرِيه إذراء إذا طارت به . وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه أى قلبته . وأنشد سيبويه والفراء :

فقلت له صَوِّبْ ولا تَجْهَدَنَّهُ * فَيُذْرِكَ(٢) من أُخْرَى القَطاةِ فتَزْلَقِ

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ من الإنشاء والإفناء والإحياء ، سبحانه !

قوله تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ويجوز « زينتا » وهو خبر الابتداء فى التثنية والإفراد . وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن فى المال جمالا ونفعا ، وفى البنين قوة ودفعا ، فصارا زينة الحياة الدنيا ، لكن معه قرينة الصفة للمال

(١) فى ج : سنوات . (٢) فى كتاب سيبويه : « فيدنك » وهى رواية أخرى فى البيت . وقد نسبه سيبويه إلى عمرو بن عمار الطائى . ومعنى صوب : خذ القصد فى السير وارفق بالفرس ولا تجهد . وأخرى القطاة : آخرها والقطاة : مقعد الردف . (أى مؤخر الظهر حيث يكون ردف الراكب) يقول هذا لغلامه وقد حمله على فرسه ليصيد له . (راجع الشنتمرى على كتاب سيبويه) .

Marfat.com

والبنين ؛ لأن المعنى : المـال والبنون زينـة هذه الحياة المحتقرة فلا تتبعوها نفوسكم . وهو ردّ على عُيينـة بن حِصْن وأمثاله لمـا افتخروا بالغنى والشرف ، فأخبر تعـالى أن ما كان من زينـة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى ، كالهشيم حين ذرته الريح ؛ إنمـا يبقى ما كان من زاد القبر وعُدد الآخرة . وكان يقال : لا تعقد قلبك مع المـال لأنه فَيْءٌ ذاهب ، ولا مع النساء لأنهـا اليوم معـك وغدًا مع غيرك ، ولا مع السـلطان لأنه اليوم لك وغدًا لغـيرك . ويكفى فى هذا قول الله تعالى : « إِنَّمَـا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ »[(1)] . وقال تعالى : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ »[(1)] .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ أى ما يأتى به سَلْمان وصُهيب وفقراء المسلمين من الطاعات . ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أى أفضل . ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ أى أفضل أملا من ذى المـال والبنين دون عمل صالح ، وليس فى زينة الدنيا خير ، ولكنه خرج مخرج قوله : « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا »[(2)] . وقيل : خير فى التحقيق مما يظنّه الجهال أنه خير فى ظنهم .

واختلف العلماء فى « الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » ؛ فقال ابن عباس وابن جبير وأبو مَيْسرة وعمرو بن شُرَحْبيل : هى الصلوات الخمس . وعن ابن عباس أيضا : أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة . وقاله ابن زيد ورجّحه الطَّبَرى . وهو الصحيح إن شاء الله ؛ لأن كل ما بقى ثوابه جاز أن يقال له هذا . وقال علىّ رضى الله عنه : الحرث حرثان فحرث الدنيا المـال والبنون ، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات ، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام . وقال الجمهور : هى الكلمات المأثور فضلها : سبحانَ الله والحمـد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حـول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . خرّجه مالك فى موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيّب أنه سمعه يقول فى الباقيات الصالحات : إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . أسنده النَّسائىّ عن أبى سعيد الخُـدْرىّ أن رسول الله

(1) راجع جـ ١٨ ص ١٤٠ فما بعد . (2) راجع جـ ١٣ ص ٢١ فما بعد .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم قال : " استكثروا من الباقيات الصالحات " قيل : وما هي يارسول الله ؟ قال : [المسئلة . قيل وما هي يا رسول الله ؟ قال :](١) " التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله " . صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله . وروى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غُصْنًا نخرطه حتى سقط ورقه وقال : " إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتّت خطاياه كما تحات هذا خذهنّ إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك و بينهن فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام وهن الباقيات الصالحات". ذكره الثعلبي، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يعني يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها " . وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بشجرة يابسة الورقة فضربها بعصاة فتناثر الورق فقال :"إن الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة" . قال : هذا حديث غريب، ولا نعرف للأعمش سماعا من أنس، إلا أنه قد رآه ونظر إليه . وخرج الترمذي أيضا عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أُسْرِيَ بي فقال يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التُّربة عذبة الماء وأنها قِيعان وأن غِراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" قال : حديث حسن غريب ، خرّجه الماوردي بمعناه . وفيه — فقلت : وما غراس الجنة؟ قال :"لا حول ولا قوة إلا بالله ". وخرّج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو يغرس غرسا فقال : " يا أبا هريرة ما الذي تغرس" ؟ قلت غِراسا . قال " ألا أدُلّك على غِراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر يُغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة " . وقد قيل : إن الباقيات الصالحات هي النيات والهمّات ؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع ؛ قاله الحسن . وقال عُبيد ابن عُمير : هن البنات ؛ يدلّ عليه أوائل الآية ؛ قال الله تعالى : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ثم قال :«وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ» يعني البنات الصالحات هنّ عند الله لآبائهن خير ثوابا ،

(١) من ج و ى .

Marfat.com

وخير أملا فى الآخرة لمن أحسن إليهن ؛ يدلّ عليه ماروته عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت علىّ امرأة مسكينة ... الحديث ، وقد ذكرناه فى سورة النحل فى قوله : « يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ » الآية (١) . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لقــد رأيت رجلا من أمتى أمر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن و يقلن ربّ إنه كان يحسن إلينا فى الدنيا فرحمه الله بهن " . وقال قتادة فى قوله تعالى : « فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٢) » قال : أبدلها منه ابنة فتزوجها نبيّ فولدت له اثنى عشر غلاما كلهم أنبياء .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ قال بعض النحويين : التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسيّر الجبال . قال النحاس : وهذا غلط من أجل الواو . وقيل : المعنى واذكر يوم نسير الجبال ، أى نزيلها من أماكنها من على وجه الأرض ، ونسيرها كما نسير السحاب ؛ كما قال فى آية أخرى . « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٣) » . ثم تكسر فتعود إلى الأرض ؛ كما قال : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٤) » . وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر « و يوم تُسَيَّر » بتاء مضمومة وفتح الياء . و «الجبال» رفعا على الفعل المجهول . وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد «و يوم تَسير الجبال» بفتح التاء مخففا من سار . «الجبال» رفعا . دليل قراءة أبى عمرو « وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٥) » . ودليل قراءة ابن مُحَيْصِن « وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (٤) » . واختار أبو عبيد القراءة الأولى « نسير » بالنون لقوله : « وَحَشَرْنَاهُمْ » . ومعنى « بَارِزَةً » ظاهرة ، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان ؛ أى قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها ، وهدم بنيانها ؛ فهى بارزة ظاهرة . وعلى هذا القول أهل التفسير . وقيل : « وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » أى برز ما فيها من الكنوز والأموات ؛ كما قال « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا

(١) راجع ص ١١٧ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٣ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٣ ص ...
(٤) راجع جـ ١٧ ص ١٩٤ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٩ ص ٢٢٥ فما بعد .

Marfat.com

وتخلّت » وقال : « وأخرجت الأرض أثقالها » وهذا قول عطاء . ﴿ وحشرناهم ﴾ أى إلى الموقف . ﴿ فلم نغادر منهم أحدا ﴾ أى لم نترك ؛ يقال : غادرت كذا أى تركته . قال عنترة :

غادرته متعفّرا أوصاله　*　والقوم بين مجرّح ومجدّل

أى تركته . والمغادرة الترك ؛ ومنه الغَدْر ؛ لأنه ترك الوفاء . وإنما سمى الغدير من الماء غديرا لأن الماء ذهب وتركه . ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها . يقول : حشرنا برّهم وفاجرهم وجنّهم وإنسهم .

قوله تعالى : وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وعرضوا على ربك صفا ﴾ «صفًّا» نصب على الحال . قال مقاتل : يعرضون صفًّا بعد صفّ كالصفوف فى الصلاة ، كل أمة وزمرة صفا ؛ لا أنهم صف واحد . وقيل : جميعا ؛ كقوله : « ثم ائتوا صفًّا » أى جميعا . وقيل : قياما . وخرّج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَنْده فى كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أحضروا حجتكم و يسّروا جوابا فإنكم مسئولون محاسبون . يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب " .

قلت : هذا الحديث غاية فى البيان فى تفسير الآية ، ولم يذكره كثير من المفسرين ، وقد كتبناه فى كتاب التذكرة ، ومنه نقلناه والحمد لله .

﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ أى يقال لهم : لقد جئتمونا حفاة عراة ، لا مال معكم ولا ولدا . وقيل : فرادى ؛ دليله قوله : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » . وقد تقدم . وقال الزجاج : أى بعثناكم كما خلقناكم . ﴿ بل زعمتم ﴾ هذا خطاب لمنكرى

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٦٧ فما بعد .　　(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٧ .
(٣) راجع جـ ١١ ص ٢١٥ فما بعد .　　(٤) راجع جـ ٧ ص ٤٢

Marfat.com

البعث ؛ أى زعمتم فى الدنيا أن لن تُبعثوا وأن لن نجعل لكم موعدا للبعث . وفى صحيح مسلم عن عائشــة رضى الله عنها قالت : سمعت رسـول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : " يحشر الناس يوم القيــامة حُفاةً عُراة غُرْلًا " قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : " يا عائشة، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض " . « غُرْلًا » أى غير مختونين . وقد تقدم فى « الأنعام »(١) بيانه .

قوله تعـالى : وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَوُضِـعَ الْكِتَابُ ﴾ « الكتاب » اسم جنس ، وفيه وجهان : أحدهما ــ أنها كتب الأعمال فى أيدى العباد ؛ قاله مقاتل . الثـانى ــ أنه وضْـع الحساب ؛ قاله الكلبى ؛ فعبّر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة . والقول الأول أظهر ؛ ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم أو أبو الحكم ــ شكّ نُعيم ــ عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بنى أسد قال قال عمر لكعب : ويحك يا كعب ! حدّثنا من حديث الآخرة ؛ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا كان يوم القيامة رُفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله ــ قال ــ ثم يؤتى بالصحف التى فيهـا أعمال العباد فتنثر حول العرش، وذلك قوله تعالى: «وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّـا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَـذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » قال الأسـدى : الصغيرة ما دون الشرك ، والكبيرة الشرك ، إلا أحصاها ــ قال كعب : ثم يدعى المؤمن فيُعطى كتابه بيمينه فينظر فيــه فإذا حسناته باديات للناس وهو يقرأ سيئاته لكيلا يقـول كانت لى حسنات فلم تذكر فأحب الله أن يريه عمله كلّه حتى إذا استنقص ما فى الكتاب وجد فى آخر

(١) راجع جـ ٧ ص ٤٢ .

Marfat.com

ذلك كلّه أنه مغفور وأنك من أهل الجنة ؛ فعند ذلك يقبل إلى أصحابه ثم يقول : « هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[(١)] ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله ثم يلف فيجعل من وراء ظهره ويُلوَى عنقه ؛ فذلك قوله : « وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ »[(٢)] فينظر فى كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر فى حسناته لكيلا يقول أفأثاب على السيئات . وكان الفضيل بن عِياض إذا قرأ هـذه الآية يقول : يا ويلتاه ! ضِجّوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر . قال ابن عباس : الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ؛ يعنى ما كان من ذلك فى معصية الله عز وجل ؛ ذكره الثعلبي . وحكى الماوردي عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك .

قلت فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن فى معصية ، فإن الضحك من المعصية رِضاً بها والرضا بالمعصية معصية ، وعلى هذا تكون كبيرة ؛ فيكون وجه الجمع هذا والله أعلم . أو يحمل الضحك فيما ذكر الماوردي على التبسم ؛ وقد قال تعالى : « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا »[(٣)] . وقال سعيد بن جبير : إن الصغائر اللَّمَم كالمَسيس والقُبَل ، والكبيرة المواقعة والزِّنى . وقد مضى فى « النساء »[(٤)] بيان هذا . قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء ، وما اشتكى أحد ظلما ، فإياكم ومحقَّرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه . وقد مضى . ومعنى . « أَحْصَاهَا » عدّها وأحاط بها ؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسعا . ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ أى وجدوا إحصاء ما عملوا حاضرا . وقيل : وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا . ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أى لا يأخذ أحدا بجُرْم أحد ، ولا يأخذه بما لم يعمله ؛ قاله الضحاك . وقيل : لا ينقص طائعا من ثوابه ولا يزيد عاصيا فى عقابه .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٦٨ فما بعد .　　(٢) راجع ج ١٩ ص ٢٧٠ .
(٣) راجع ج ١٣ ص ١٧٥ .　　(٤) راجع ج ٥ ص ١٥٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ تقدم فى « البقرة »(١) هذا مستوفى . قال أبو جعفر النحاس : وفى هـذه الآية سؤال، يقال : ما معنى . « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » ففى هذا قولان : أحدهما ــ وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أمر فعصى، فكان سببَ الفسـق أمرُ ربه؛ كما تقول : أطعمته عن جوع . والقول الآخر ــ وهو مذهب محمد بن قُطْرب أن المعنى : فسق عن ردّ أمر ربه . ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ وقّف عزوجل الكفرة على جهـة التوبيخ بقوله : أفتتخذونه يابنى آدم وذرّيتـه أولياء وهم لكم عدوّ؛ أى أعداء، فهو اسم جنس . ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ أى بئس عبادة الشيطان بدلا عن عبـادة الله . أو بئس إبليس بدلا عن الله . واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه؛ فقال الشعبىّ : سألنى رجل فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلت : إن ذلك عُرْس لم أشهده، ثم ذكرت قوله : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ » فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم . وقال مجاهد : إن إبليس أدخل فرجه فى فرج نفسه فباض خمس بيضات؛ فهذا أصل ذريته . وقيل : إن الله تعالى خلق له فى فخـذه اليمنى ذكرا وفى اليسرى فرجا؛ فهو ينكح هذا بهذا، فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة، فهو يَخْرج وهو يطـير، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم فى بنى آدم فتنة . وقال قوم : ليس له أولاد ولا ذرية، وذرّيته أعوانه من الشياطين . قال القشيرى أبو نصر : والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعا وذرية، وأنهـم يوسوسون إلى بنى آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفية فى كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح .

قلت : الذى ثبت فى هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدى فى الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبى بكر البَرْقانى أنه خرج فى كتابه مسندا عن أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبى عثمان عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تكن

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩١ .

Marfat.com

أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرخ " . وهذا يدلّ على أن للشيطان ذرّية من صلبه، والله أعلم . قال ابن عطية : وقوله «وذرّيته» ظاهر اللفظ يقتضى الموسوسين من الشياطين ، الذين يأتون بالمنكر ويحملون على الباطل . وذكر الطبرى وغيره أن مجاهدا قال : ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدّهم زَلَنْبُور صاحب الأسواق، يضع رايته فى كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الراية على حانوت أوّل من يفتح وآخر من يغلق . وثَبِر صاحب المصائب ، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب ، والدعاء بالويل والحرب والأعور صاحب أبواب الزنى . ومسوّط(١) صاحب الأخبار ، يأتى بها فيلقيها فى أفواه الناس فلا يجدون لها أصلا . وداسم الذى إذا دخل الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله بَصَّره من المتاع ما لم يُرفع وما لم يُحسَن موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه . قال الأعمش : وإنى ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلّم ، فرأيت مطهرة فقلت : ارفعوا هذه! وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول: داسم داسم! أعوذ بالله منه! زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد : والأبيض، وهو الذى يوسوس للأنبياء . وصخر وهو الذى اختلس خاتم سليمان عليه السلام . والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها . والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها . ومُرّة وهو صاحب المزامير وبه يُكنى . والهفاف يكون بالصحارى يُضلّ الناس ويتيههم . ومنهم الغيلان . وحكى أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفى فى كتاب اللؤلؤيات عن مجاهد أن الهفاف هو صاحب الشراب ، ولقوس صاحب التحريش ، والأعور صاحب أبواب السلطان . قال وقال الدّارانيّ : إن لإبليس شيطانا يقال له المتقاضى، يتقاضى ابن آدم فيخبر بعمل كان عمله فى السرّ منذ عشرين سنة، فيحدث به فى العلانية . قال ابن عطية : وهذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح ، وقد طوّل النقاش فى هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة ، ولم يمر بى فى هذا صحيح إلا ما فى كتاب مسلم من أن للصلاة شيطانا يسمى خُنْزَب . وذكر الترمذى أن للوضوء شيطانا يسمى الولهان .

قلت : أما ما ذُكر من التعيين فى الأسم فصحيح ؛ وأما أن له أتباعا وأعوانا وجنودا فمقطوع به، وقد ذكرنا الحديث الصحيح فى أن له أولادا من صلبه، كما قال مجاهد وغيره .

(١) فى جـ : وشوط .

Marfat.com

وفى صحيح مسلم عن عبـد الله بن مسعود قال : إن الشيطان ليتمثل فى صـورة الرجل فيأتى القوم فيحدّثهم بالحديث من الكذب فيتفرّقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدرى ما آسمه يحدّث . وفى مسند البَزّار عن سلمان الفارسى قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته " . وفى مسند أحمد بن حنبل قال : أنبأنا عبـد الله بن المبارك قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ عن أبى موسى الأشعرى قال : إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مسلما ألبسته التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلق زوجته ، قال : يوشك أن يتزوّج . ويقول آخر : لم أزل بفلان حتى عَقّ ؛ قال : يوشك أن يَبَرّ . قال ويقول القائل : لم أزل بفلان حتى شَرِب ؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى زنى ؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى قتل ؛ قال : أنت أنت ! وفى صحيح مسلم عن جابر قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس يضع عرشه على المـاء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجىء أحدهم فيقول فعلتُ كذا وكذا فيقول ماصنعت شيئا قال ثم يجىء أحدهم فيقول ماتركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال فيدنيه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت " . وقد تقدّم . وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطى بثغر الإسكندرية يقول : إن شـيطانا يقال له البيضاوى يتمثـل للفقراء المواصلين(١) فى الصيام فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لهم عن ضـياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا .

---

(١) فى جـ : المواطبين .

حققـــه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

Marfat.com

تم الجزء العاشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الحادى عشر، وأوّله قوله تعالى

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض »

Marfat.com